مرکز القائمیة اصبهان للبحوث والتحریات الکمبیوتریة

السلام علیک یا صاحب الزمان

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

مختصر الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

الجزء الثاني

المختصر: أحمد علي بابائي

دار النشر لمدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحیم

مختصر الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل

کاتب:

ناصرمکارم شیرازی

نشرت فی الطباعة:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب علیه السلام

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵

مختصر الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل المجلد ۲ ----- ۶

اشارة ----- ۶

۶. سورة الأنعام ----- ۶

۷. سورة الاعراف ----- ۶۱

۸. سورة الانفال ----- ۱۲۰

۹. سورة التوبة ----- ۱۴۲

۱۰. سورة یونس ----- ۱۹۰

۱۱. سورة هود ----- ۲۱۵

۱۲. سورة یوسف ----- ۲۵۲

۱۳. سورة الرعد ----- ۲۸۵

۱۴. سورة ابراهیم ----- ۲۹۹

۱۵. سورة الحجر ----- ۳۱۲

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۳۲۶

مختصر الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل المجلد ۲

اشارة

عنوان و نام پدیدآور : مختصر الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل/ناصر مکارم شیرازی

مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب علیه السلام، ۱۴۲۸

مشخصات ظاهری : ج

وضعیت فهرست نویسی : در انتظار فهرستنویسی

شماره کتابشناسی ملی : ۱۱۴۸۳۹۳

۶. سورة الأنعام

حرب على الشرک والوثنیة: قیل أنّ سورة الأنعام مکیة، وهی السورة التاسعة والستون فی تسلسل نزول السور القرآنیة. هدف هذه السورة الرئیسی- مثل أهداف السور المکیة- توکید الاصول الثلاثة: «التوحید» و «النبوة» و «المعاد» ولکنها تؤکد أکثر ما تؤکد قضیة عبادة اللّه الواحد ومحاربة الشرک والوثنیة، بحیث إنّ معظم آیات هذه السورة یخاطب المشرکین وعبدة الأصنام، وبهذا یتناول البحث فی أکثر المواضع، أعمال المشرکین وبدعهم.

ولعلّ هذا أیضاً هو السبب لما نقرؤه من روایات عن فضل هذه السورة، وإنّها عند نزولها رافقها سبعون ألف ملک، وأنّ من یقرأها وترتوی روحه من ینبوع التوحید یستغفر له کل اولئک الملائکة.

إنّ التمعّن فی آیات هذه السورة یقضی على روح النفاق والتشتت بین المسلمین، ویجعل الآذان سمیعة، والأعین بصیرة، والقلوب عارفة.

ولکن العجیب أن نرى بعضهم یکتفی من هذه السورة بقراءة ألفاظها فقط، ویعقد الجلسات لتلاوة آیاتها من أجل حلّ المشاکل الشخصیة، فلو اهتمّت هذه الجلسات بمحتوى السورة، فلا تنحل المشاکل الخاصّة وحدها، بل تنحل جمیع مشاکل المسلمین العامة أیضاً، ومن المؤسف جداً أنّ جمعاً من الناس یعتبرون القرآن مجموعة من (الأوراد)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶

التی لها خواص غامضة ومجهولة فیقرأونها بغیر تمعّن فی مضامینها، مع أنّ القرآن کله مدرسة ودروس ومنهج ویقظة، ورسالة ووعی.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ ثُمَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِّهِمْ یَعْدِلُونَ (۱) هُوَ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ طِینٍ ثُمَّ قَضى أَجَلًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (۲) تبدأ السورة بالحمد للّهوالثناء علیه، ثم تشرع بتوعیة الناس على مبدأ التوحید، عن طریق خلق العالم الکبیر (السماوات والأرض) أوّلًا؛ ثم عن طریق خلق العالم الصغیر (الإنسان) ثانیاً: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ». اللّه الذی هو مبدأ الظلمة والنور، بخلاف ما یعتقده الثنویون، وهو وحده خالق کل شیء: «وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ».

غیر أنّ الکافرین والمشرکین، بدلًا من أن یتعلّموا من هذا النظام الواحد درس التوحید، یصطنعون للّهالشریک والشبیه: «ثُمَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبّهِمْ یَعْدِلُونَ».

نلاحظ أنّ القرآن یذکر عقیدة المشرکین بعد حرف العطف «ثم» الذی یدل فی اللغة العربیة على الترتیب والتراخی، وهذا یدل على أنّ التوحید کان فی أوّل الأمر مبدأً فطریاً وعقیدة عامة للبشر، بعد ذلک حصل الشرک کانحراف عن الأصل الفطری.

وروى فی تفسیر نور الثقلین عن أمیر المؤمنین علی علیه السلام فی تفسیر هذه الآیة قوله: «وکان فی هذه الآیة ردّ على ثلاثة أصناف منهم لمّا قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ». فکان ردّاً على الدهریة الذین قالوا: إنّ الأشیاء لا بدء لها وهی دائمة، ثم قال:

«وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ» فكان ردّاً على الثنوية الذين قالوا: إنّ النور والظلمة هما المدبران، ثم قال: «ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» فكان ردّاً على مشركى العرب الذين قالوا: إنّ أوثاننا آلهة».

والآية التالية تلفت نظر الإنسان إلى العالم الصغير (الإنسان) فتشير إلى أعجب أمر وهو خلقه من الطين فتقول: «هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ».

صحيح أنّنا ولدنا من أبوينا، لا من الطين، ولكن بما أنّ خلق الإنسان الأوّل كان من

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷

الطين، فيصح أن نخاطب نحن أيضاً على أنّنا مخلوقين من الطين.

وتستمر السورة فتشير إلى مراحل تكامل عمر الإنسان فتقول: إنّ اللَّه بعد ذلك عيّن مدّة يقضيها الإنسان على هذه الأرض للنمو والتكامل: «ثُمَّ قَضَى أَجَلًا».

ثم لإستكمال البحث تقول: «وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ».

بعد ذلك تخاطب الآية المشركين وتقول لهم: «ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ». أى تشكّون فى قدرة الخالق الذى خلق الإنسان من هذه المادة التافهة (الطين) واجتاز به هذه المراحل المدهشة، وتعبدون من دونه موجودات لا قيمة لها كالأصنام.

إنّ كلمة «أجل» وحدها تعنى غير الحتمى من العمر والوقت والمدّة و «الأجل المسمى» بمعنى الحتمى منها وبعبارة اخرى «الأجل المسمى» هو الموت الطبيعى؛ و «الأجل» هو الموت غير الطبيعى، ولكن أنّ الأجلين يعيّنهما اللَّه.

وَ هُوَ اللَّهُ فِى السَّمَاوَاتِ وَ فِى الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (۳) هذه الآية تكمل البحث السابق فى التوحيد ووحدانية اللَّه، وترد على الذين يقولون بوجود إله لكل مجموعة من الكائنات، أو لكل ظاهرة من الظواهر، فيقولون: إله المطر، وإله الحرب، وإله السلم، وإله السماء، وما إلى ذلك، تقول الآية: «وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّموَاتِ وَفِى الْأَرْضِ».

من الطبيعى أن يكون الحاكم على كل شىء والمدبّر لكل الامور والحاضر فى كل مكان عارفاً بجميع الأسرار والخفايا ولهذا تقول الآية: إنّ ربّاً كهذا «يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ».

وَ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (۴) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۵) قلنا: إنّ معظم الخطاب فى سورة الأنعام موجه إلى المشركين، والقرآن يستخدم شتّى السبل لإيقاظهم وتوعيتهم، فهذه الآية والآيات الكثيرة التى تليها تواصل هذا الموضوع.

تشير هذه الآية إلى روح العناد واللامبالاة والتكبر عند المشركين تجاه الحق وتجاه آيات اللَّه، فتقول: «وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸

مثل هذه النفسية لا يقتصر وجودها على عهود الجاهلية ومشركى العرب، فاليوم أيضاً نجد من بلغ الستين من عمره ومع ذلك لم يجشم نفسه عناء ساعة واحدة من البحث والتحقيق فى اللَّه والدين، وإن وقع بيده كتاب أو بحث فى هذا الموضوع لم ينظر إليه وإن تحدّث إليه أحد بهذا الشأن لم يصغ إليه، هؤلاء هم الجهلاء المعاندون الغافلون الذين قد يظهرون أحياناً أمام الناس بمظهر العالم المتجبّر! ثم تشير الآية إلى نتيجة أعمالهم، وهى: أنّهم عندما رأوا الحقيقة كذّبوها، ولو أنّهم دققوا فى آيات اللَّه جيّداً لرأوا الحقيقة وأدركوها وآمنوا بها: «فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ».

ولسوف تصلهم نتيجة هذا التكذيب والسخرية: «فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

فى هاتين الآيتين إشارة إلى ثلاث مراحل من الكفر تتزايد فى الشدّة على التوالى، المرحلة الاولى هى مرحلة الإعراض، ثم مرحلة التكذيب، وأخيراً مرحلة الإستهزاء بآيات اللَّه.

أ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنّاهُمْ فِى الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ و أَرْسَلْنا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً و جَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ و أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (۶) مصير الطغاة: ابتداء من هذه الآية وما بعدها يشرع القرآن بعرض خطة تربوية مرحلية لإيقاظ عبدة الأصنام والمشركين تتناسب مع اختلاف الدوافع عند الفريقين، يبدأ أوّلًا بمكافحة عامل (الغرور) وهو من عوامل الطغيان والعصيان والانحراف المهمة، فيذكّرهم بالأمم السالفة ومصائرهم المؤلمة، وبذلك يحذر هؤلاء الذين غطت أبصارهم غشاوة الغرور، ويقول: «أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ» «۱».

ولكنهم لما استمروا على طريق الطغيان، لم تستطع هذه الإمكانات إنقاذهم من العقاب الإلهى: «فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ».

---

(۱) «المدرار»: فى الأصل من «درّ» اللبن، ثم إنتقل إلى ما يشبهه فى النّزول كالمطر، والكلمة صيغة مبالغة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹

و لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِى قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (۷) منتهى العناد: يشير القرآن هنا إلى الطلب الذى تقدّم به جمع من عبدة الأصنام ويقول:

«وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ». أى إنّ عنادهم قد وصل حدّاً ينكرون فيه حتى ما يشاهدونه بأعينهم ويلمسونه بأيديهم فيعتبرونه سحراً لكيلا يستسلموا للحقيقة.

و قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ و لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِىَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (۸) و لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا و لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (۹) و لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۱۰) خلق المبررات: من عوامل الكفر والإنكار الاخرى، روح التحجج والبحث عن المبررات. ومن جملة الحجج التى احتج بها المشركون على رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأشار إليها القرآن فى كثير من آياته- ومنها هذه الآية- هى أنّهم كانوا يقولون: لماذا يقوم رسول اللّه صلى الله عليه و آله وحده بهذا الأمر العظيم؟ لماذا لا يقوم معه بهذا الأمر أحد من غير جنس البشر، من جنس الملائكة؟ أيمكن لإنسان من جنسنا أن يحمل بمفرده هذه الرسالة على عاتقه؟ «وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ».

يرد القرآن عليهم بجملتين فى كل منهما برهان:

الاولى: «وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَايُنظَرُونَ». أى لو نزل ملك لمعاونة رسول اللّه صلى الله عليه و آله لهلك الكافرون.

الثانية: هى أنّ الرسول الذى يبعثه اللّه لقيادة الناس وتربيتهم وليكون اسوة لهم، لابد أن يكون من جنس الناس أنفسهم وعلى شاكلتهم من حيث الصفات والغرائز البشرية، لذلك فالقرآن فى الجواب الثانى يقول: لو شئنا أن يكون رسولنا ملكاً حسبما يريدون، لوجب أن يتصف هذا الملك بصفات الإنسان وأن يظهر فى هيئة إنسان: «وَلَوْ جَعَلْنَهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَهُ رَجُلًا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰

ثم يستنتج من ذلك أنّهم- فى هذه الحالة أيضاً- كانوا سيعترضون الإعتراض نفسه، وهو: لماذا أوكل اللّه مهمة القيادة إلى بشر وأخفى عنّا وجه الحقيقة: «وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ». وفى الختام يهوّن الأمر على رسوله ويقول له: «وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

هذه الآية فى الواقع تسلية لرسول اللّه صلى الله عليه و آله يطلب اللّه فيها منه أن لا تزعزعه الزعازع، ويهدد فى الوقت نفسه المخالفين والمعاندين ويطلب منهم أن يتفكّروا فى عاقبة أمرهم المؤلمة.

قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۱۱) لكى يوقظ القرآن هؤلاء المعاندين المغرورين يسلك فى هذه الآية

سبيلًا آخر فيأمر رسوله أن يوصيهم بالسياحة فى أرجاء الأرض ليروا بأعينهم مصائر اولئك الذين كذّبوا بالحقائق، فلعلّ ذلك يوقظهم من غفلتهم «قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ».

لا شك أنّ لرؤية آثار السابقين والأقوام التى هلكت بسبب إنكارها الحقائق تأثيراً أعمق من مجرد قراءة كتب التأريخ، لأنّ هذه الآثار تجسّد الحقيقة ناطقة ملموسة، ولهذا استعمل جملة «انظروا» ولم يقل «تفكروا».

قُلْ لِمَنْ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۱۲) وَ لَهُ مَا سَكَنَ فِى اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۱۳) يواصل القرآن مخاطبة المشركين، ففى الآيات السابقة دار الكلام حول التوحيد وعبادة اللّه الأحد وهنا يدور الحديث عن المعاد، وبالإشارة إلى مبدأ التوحيد يواصل القول عن المعاد بطريقة رائعة. يتكوّن الاستدلال هنا على المعاد من مقدمتين:

أوّلًا: يقول: «قُلْ لِّمَن مَّا فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». ثم يقول مباشرة: أجب أنت بلسان فطرتهم وروحهم: «قُلْ لِّلَّهِ». فبموجب هذه المقدمة يكون كل عالم الوجود ملكاً للّهوبيده وتدبيره.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱

ثانياً: إنّ اللّه هو وحده مصدر كل رحمة، وهو الذى أوجب على نفسه الرحمة، ويفيض بنعمه على الجميع: «كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ».

هذه الرحمة نفسها توجب أن يرتدى الإنسان- الذى عنده إمكانية الخلود- لباس حياة جديدة بعد موته فى عالم أوسع، تدفعه يد الرحمة فى سيره التكاملى الأبدى، لذلك يقول بعد هاتين المقدمتين: «لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ لَارَيْبَ فِيهِ».

فى نهاية الآية إشارة إلى مصير المشركين المعاندين وعاقبتهم، فهؤلاء الذين أضاعوا رأس مال وجودهم فى سوق تجارة الحياة، لا يؤمنون بهذه الحقائق: «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ».

الآية السابقة تشير إلى أنّ اللّه مالك كل شىء يستوعبه ظرف «المكان» أمّا هذه الآية فتشير إلى ملكية اللّه لما يستوعبه ظرف «الزمان» الوسيع وتقول: «وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى الَّيْلِ وَالنَّهَارِ».

وفى نهاية الآية وبعد ذكر التوحيد، تشير الآية إلى صفتين بارزتين فى اللّه فتقول: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ». أى أنّ إتساع عالم الوجود، والكائنات فى آفاق الزمان والمكان لا تحول أبداً دون أن يكون اللّه عليماً بأسرارها.

قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۴) قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۵) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (۱۶) الهدف من نزول هذه الآيات هو إثبات التوحيد ومحاربة الشرك وعبادة الأصنام فالمشركون، وإن اعتقدوا أنّ اللّه هو خالق العالم، كانوا يتخذون من الأصنام ملجأً لأنفسهم، ولربّما اتخذوا صنماً لكل حاجة معينة، فلهم إله للمطر، وإله للظلام، وإله للحرب والسلم، وإله للرزق، وهذا هو تعدد الأرباب الذى ساد اليونان القديم.

ولكى يزيل القرآن هذا التفكير الخاطىء، يأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن «قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۲

هذه الآية تقتصر على توكيد إتصاف اللّه باطعام مخلوقاته ورزقهم، ولعل ذلك إشارة إلى أنّ أقوى حاجات الإنسان فى حياته المادية هى حاجته إلى «لقمة العيش» كما يقال، وهذه اللقمة هى التى تحمل الناس على الخضوع لأصحاب المال والقوة، وقد يصل خضوعهم لُاولئك حد العبودية، ففى هذا يقرر القرآن أنّ رزق الناس بيد اللّه لا بيد هؤلاء ولا بيد الأصنام، فأصحاب المال والقوة هم أنفسهم محتاجون إلى الطعام، وأنّ اللّه هو وحده الذى يطعم الناس ولا يحتاج إلى طعام.

ثم للردّ على اولئك المشركين الذين كانوا يدعون رسول اللّه إلى الإنضمام إليهم، يؤكد القرآن على ضرورة رفض دعوة هؤلاء-

إنطلاقاً من مبدأ نهى الوحى الإلهى عن ذلك، إضافة إلى نهى العقل: «قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

الآية التالية فيها توكيد أشدّ لهذا النهى الإلهى عن إتّباع المشركين: «قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ». أى يأمر اللَّه رسوله أن يقول بأنّه ليس مستثنى من القوانين الإلهية، وأنّه يخاف- إن ركن إلى المشركين- عذاب يوم القيامة.

ولكى يتّضح أنّ النبى صلى الله عليه و آله لا يستطيع شيئاً بغير الاستناد إلى لطف اللَّه ورحمته، فكل شىء بيد اللَّه وبأمره، وحتى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله نفسه يترقّب بعين الرجاء رحمة اللَّه الواسعة، ومنه يطلب النجاة والفوز: «مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ».

وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قدرة اللَّه القاهرة: قلنا إنّ هدف هذه السورة هو استئصال جذور الشرك وعبادة الأصنام، وهاتان الآيتان تواصلان تحقيق ذلك. فالقرآن يتساءل أوّلًا: لماذا تتوجّهون إلى غير اللَّه، وتلجأون إلى معبودات تصطنعونها لحلّ مشاكلكم ودفع الضرعن أنفسكم واستجلاب الخير لها؟ بينما لو أصابك أدنى ضرر فلا يرفعه عنك غير اللَّه، وإذا أصابك الخير والبركة والفوز والسعادة فما ذلك إلّابقدرة اللَّه، لأنّه هو القادر القوى: «وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» «١».

---

(١) «الضر»: هو كل نقيصة يتعرّض لها الانسان إمّا فى الجسم مثل نقص عضو والمرض، وإمّا فى النفس مثل الجهل والسفاهة والجنون، وإمّا فى امور اخرى مثل ذهاب المال أو المقام أو الأبناء.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٣

فى الواقع إنّ سبب الإتجاه إلى غير اللَّه إمّا لتصوّرهم أنّ ما يتّجهون إليه مصدر الخيرات، وإمّا لإعتقادهم بقدرته وأنّه يدرأ عنهم المصائب ويحلّ لهم مشاكلهم.

وفى الآية التى تليها إكمال للبحث، فيقول: «وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ».

ولإزالة كل وهم قد يخطر لأحدهم بأنّ اللَّه قد يسىء استعمال قدرته غير المتناهية كما هو الحال فى ذوى القدرة من البشر، يقول القرآن: «وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ». أى أنّه صاحب حكمة وكل أعماله محسوبة لأنّه خبير وعالم ولا يخطىء فى استعمال قدرته أبداً.

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ وَ إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) أعظم الشاهدين: يذكر جمع من المفسرين أنّ عدداً من مشركى مكة جاءوا إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقالوا: كيف تكون نبيّاً ولا- نرى أحداً يؤيّدك؟ وحتى اليهود والنصارى الذين سألناهم، لم يشهدوا بصحة أقوالك بحسب ما عندهم فى التوراة والإنجيل، فهات من يشهد لك على رسالتك، والآيتان المذكورتان تشيران إلى هذه الواقعة. فى مواجهة هؤلاء المخالفين المعاندين الذين يغمضون أعينهم عن رؤية كل تلك الدلائل على صدق الرسالة، ويطلبون مزيداً من الشواهد، يؤمر النبى صلى الله عليه و آله أن: «قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً». أهناك شهادة أعظم من شهادة ربّ العالمين: «قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ».

وهل هناك دليل أكبر من هذا القرآن:

«وَأُوحِىَ إِلَىَّ هذَا الْقُرْءَانُ».

هذا القرآن الذى لا يمكن أن يكون وليد فكر بشرى، خاصة فى تلك الظروف الزمانية والمكانية، هذا القرآن الذى يضمّ مختلف الشواهد على إعجازه، فألفاظه معجزة، ومعانيه معجزة، أليس هذا الشاهد الكبير وحده كاف لأن يكون تصديقاً إلهياً للدعوة!

يستفاد من هذه العبارة أيضاً أنّ القرآن أعظم معجزة وأكبر شاهد على صدق دعوة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

ثم يشير إلى هدف نزول القرآن ويقول: «لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ». أى إنّ القرآن قد نزل علىّ لكى أنذركم، وأنذر جميع الذين يصل إليهم- عبر تاريخ البشر، وعلى إمتداد الزمان

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۴

وفى أرجاء العالم كافة- كلامى، وأحذّرهم من عواقب عصيانهم. ثم أمر اللّه رسوله أن يسألهم: «أَئِنَّكُم لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَى ويأمره أن:

«قُلْ لَاأَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ».

أمّا الذين قالوا: إنّ أهل الكتاب لم يشهدوا لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله فإنّ الآية التى بعدها تردّ عليهم وتقول: «الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ». أى إنّ معرفتهم به لا تقتصر على مبدأ ظهوره ودعوته فحسب، بل إنّهم يعرفون حتى التفاصيل والخصائص وعلاماته الدقيقة أيضاً.

والآية تعلن فى آخر مقاطعها النتيجة النهائية: «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ».

أى إنّ الذين لا يؤمنون بالنبى- مع كل ما تحيطه من دلائل وعلامات واضحة- هم فقط اولئك الذين خسروا كل شىء فى تجارة الحياة.

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۲۱) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۲۲) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ (۲۳) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۲۴) أشدّ الظلم: تواصل هذه الآيات المنهج القرآنى فى مقارعة الشرك وعبادة الأصنام بشكل شامل.

تقول الآية الاولى بصراحة وبصورة استفهام إستنكارى: «وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بَايَاتِهِ».

الجملة الاولى إشارة إلى إنكار التوحيد والثانية إشارة إلى إنكار النبوة حقّاً لا ظلم أكبر من أن يتخذ المرء قطعة جماد لا قيمة لها، أو إنساناً ضعيفاً مثله شريكاً لربّ لا تحدّه حدود وله الحكم على كل عالم الوجود.

فلا شك إذن فى أنّ أىّ ظالم- وعلى الأخص اولئك الذين لظلمهم جوانب متعددة- لا يمكن أن يرى السعادة والفلاح: «إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

الآية التالية تشير إلى مصير المشركين يوم القيامة مبيّنة أنّهم باعتمادهم على مخلوقات ضعيفة كالأصنام، لا هم حققوا لأنفسهم الراحة فى هذا العالم، ولا هم ضمنوا ذلك فى الحياة

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۵

الآخرة، فتقول الآية: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُم تَزْعُمُونَ». أين هم؛ لماذا لا يأتون اليوم لإنقاذكم؟ لماذا لا يظهرون أىّ حول ولا يبدون أيّة قوة؟

فيستولى على هؤلاء الرعب والخوف ويبهتون ولا يحيرون جواباً، سوى أن يقسموا باللّه إنّهم لم يكونوا مشركين، ظنّاً منهم أنّهم هناك أيضاً قادرون على إخفاء الحقائق: «ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ».

الآية الثالثة ومن أجل أن يعتبر الناس بمصير هؤلاء الأفراد تقول: «انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ».

وتنهار المساند التى إختاروا الاستناد عليها وجعلوها شريكة للّه، وخابوا فى مساعهم «وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِى آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۲۵) وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (۲۶) فى هذه الآية إشارة إلى الوضع النفسى لبعض المشركين، فهم لا يبدون أيّة مرونة تجاه سماع الحقائق، بل أكثر من ذلك، يناصبونها العداء، ويقذفونها بالتهم، فيبعدون أنفسهم وغيرهم عنها عن هؤلاء. تقول الآية: «وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ

أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا» (۱).

إنّ نسبة هذه الامور إلى اللّه، إنّما هى إشارة إلى قانون «العلة والمعلول» وخاصية «العمل»، أى إنّ أثر الاستمرار فى الانحراف والإصرار على المعاندة والتشاؤم يظهر فى إتصاف نفس الإنسان بهذه المؤثرات، لقد أثبتت التجربة أنّ المنحرفين والمذنبين يحسّون أوّل الأمر بعدم الرضا عن حالهم، ولكنهم يعتادون ذلك بالتدريج، وقد يصل بهم الأمر إلى اعتبار أعمالهم القبيحة لازمة وضرورية.

---

(۱) «أكنة»: جمع «كنان» و هو كل ستار أو حاجز؛ و «الوقر»: بمعنى ثقل السمع.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶

وهؤلاء وصلوا حدّاً تصفه الآية فتقول: «وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّايُؤْمِنُوا بِهَا» بل الأكثر من ذلك أنّهم عندما يأتون إليك، لا يفتحون نوافذ قلوبهم أمام ما تقول، ولا يأتون- على الأقل- بهيئة الباحث عن الحق الذى يسعى للعثور على الحقيقة والتفكير فيها، بل يأتون بروح وفكر سلبيين، ولا هدف لهم سوى الجدل والإعتراض: «حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ». أنّهم عند سماعهم كلامك الذى يستقى من ينابيع الوحى ويجرى على لسانك الناطق بالحق، يبادرون إلى إتهامك بأنّ ما تقوله إنّما هو خرافات اصطنعها اناس غابرون:

«يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

الآية التالية تذكر أنّ هؤلاء لا يكتفون بهذا، فهم مع ضلالهم يسعون جاهدين للحيلولة دون سلوك الباحثين عن الحقيقة بما يشيعونه ويروّجونه من مختلف الأكاذيب، ويمنعونهم أن يقتربوا من رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ» ويبتعدون عنه بأنفسهم:

«وَيَنْؤنَ عَنْهُ» (۱).

دون أن يدركوا أنّ من يصارع الحق يكن صريعه، وأخيراً، وبحسب قانون الخلق الثابت، يظهر وجه الحق من وراء السحب، وينتصر بما له من قوة، ويتلاشى الباطل كما يتلاشى الزبد الطافى على سطح الماء، وعليه فإنّ مساعيهم سوف تتحطم على صخرة الإخفاق والخيبة وما يهلكون غير أنفسهم، ولكنهم لا يدركون الحقيقة: «وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ».

وَ لَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَ لَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۲۷) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (۲۸) فى هاتين الآيتين إشارة إلى بعض مواقف عناد المشركين وفيهما يتجسد مشهد من مشاهد نتائج أعمالهم لكى يدركوا المصير المشؤوم الذى ينتظرهم فيستيقظون، أو تكون حالهم- على الأقل- عبرة لغيرهم، فتقول الآية: «وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ» لتبيّن لك مصيرهم السيىء المؤلم.

إنّهم فى تلك الحال على درجة من الهلع بحيث إنّهم يصرخون: ليتنا نرجع إلى الدنيا لنعوّض عن أعمالنا القبيحة، ونعمل للنجاة من هذا المصير المشؤوم، ونصدّق آيات ربنا،

---

(۱) «ينأون»: من «نأى بمعنى إبتعد.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷

ونقف إلى جاب المؤمنين: «فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بَايَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

الآية التالية تؤكد أنّ ذلك ليس أكثر من تمنّ كاذب، وإنّما تمنّوه لأنّهم رأوا فى ذلك العالم كل ما كانوا يخفونه- من عقائد ونيات وأعمال سيئة- مكشوفاً أمامهم، فاستيقظوا يقظة مؤقتة عابرة: «بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ».

غير أنّ هذه اليقظة ليست قائمة ثابتة، بل إنّها قد حصلت لظروف طارئة، ولذلك فحتى لو افترضنا المستحيل وعادوا إلى هذه الدنيا مرّة اخرى لفعلوا ما كانوا يفعلونه من قبل وما نهوا عنه: «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ» لذلك فهم ليسوا صادقين فى تمنّياتهم ومزاعمهم «وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ».

وَ قالُوا إِنْ هِیَ إِلَّا حَیاتُنَا الدُّنْیا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِینَ (۲۹) وَ لَوْ تَری إِذْ وُقِفُوا عَلی رَبِّهِمْ قالَ أَ لَیْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلی وَ رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ (۳۰) قَدْ خَسِرَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّی إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا یا حَسْرَتَنا عَلی ما فَرَّطْنا فِیها وَ هُمْ یَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلی ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما یَزِرُونَ (۳۱) وَ مَا الْحَیاةُ الدُّنْیا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَیْرٌ لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۳۲) هذه الآیة إستئناف لأقوال المشرکین المعاندین المتصلّبین الذین یتمنون- عندما یشاهدون أهوال یوم القیامة- أن یعودوا إلی دار الدنیا لیتلافوا ما فاتهم، ولکن القرآن یقول إنّهم إذا رجعوا لا یتّجهون إلی جبران ما فاتهم، بل یستمرون علی ما کانوا علیه، وأکثر من ذلک فإنّهم یعودون إلی إنکار یوم القیامة «وَقالُوا إِنْ هِیَ إِلَّا حَیاتُنَا الدُّنْیا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِینَ».

الآیة التالیة تشیر إلی مصیرهم یوم القیامة، یوم یقفون بین یدی اللَّه: «وَلَوْ تَرَی إِذْ وُقِفُوا عَلَی رَبِّهِمْ قَالَ أَلَیْسَ هذَا بِالْحَقّ». فیکون جوابهم أنّهم یقسمون بأنّه الحقّ: «قَالُوا بَلَی وَرَبّنَا».

عندئذ: «قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا کُنتُمْ تَکْفُرُونَ». لا شک أنّ «الوقوف بین یدی اللَّه» لا یعنی إنّ للَّه‌مکاناً، بل یعنی الوقوف فی میدان الحساب للجزاء، کما یقول بعض المفسرین، أو أنّه من باب المجاز، مثل قول الإنسان عند أداء الصلاة أنّه یقف بین یدی اللَّه وفی حضرته.

الآیة التی بعدها، فیها إشارة إلی خسران الذین ینکرون المعاد، فتقول: «قَدْ خَسِرَ الَّذِینَ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸

کَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ». إنّ المقصود بلقاء اللَّه هو- کما قلنا من قبل- اللقاء المعنوی والإیمان الشهودی (الشهود الباطنی)، أو هو لقاء مشاهد یوم القیامة والحساب والجزاء.

ثم تبین الآیة أنّ هذا الإنکار لن یدوم، بل سیستمر حتی قیام یوم القیامة، حین یرون أنفسهم فجأة أمام مشاهده الرهیبة، ویشهدون بأعینهم نتائج أعمالهم، عندئذ ترتفع أصواتهم بالندم علی ما قصّروا فی حق هذا الیوم: «حَتَّی إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا یَا حَسْرَتَنَا عَلَی مَا فَرَّطْنَا فِیهَا». «الساعة»: هی یوم القیامة؛ و «بغتة»: تعنی فجأة وعلی حین غرّه، إذ تقوم القیامة دون أن یعلم بموعدها أحد سوی اللَّه تعالی.

ثم یقول القرآن الکریم: «وَهُمْ یَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَی ظُهُورِهِمْ».

«الأوزار»: جمع «وزر» وهو الحمل الثقیل، وتعنی الأوزار هنا الذنوب، ویمکن أن تتخذ هذه الآیة دلیلًا علی تجسّد الأعمال، لأنّها تقول إنّهم یحملون ذنوبهم علی ظهورهم.

وفی آخر الآیة یقول اللَّه تعالی: «أَلَا سَاءَ مَا یَزِرُونَ».

ثم لبیان نسبة الحیاة الدنیا إلی الحیاة الآخرة، یقول اللَّه تعالی: «وَمَا الْحَیَوةُ الدُّنْیَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ». فهؤلاء الذین اکتفوا بهذه الحیاة، ولا یطلبون غیرها، هم أشبه بالأطفال الذین یودون أن لو یقضوا العمر کله فی اللعب واللهو غافلین عن کل شیء.

إنّ تشبیه الحیاة الدنیا باللهو واللعب یستند إلی کون اللهو واللعب من الممارسات الفارغة السطحیة التی لا- ترتبط بأصل الحیاة الحقیقیة، سواء فاز اللاعب أم خسر، إذ کل شیء یعود إلی حالته الطبیعیة بعد اللعب.

ثم تقارن الآیة حیاة العالم الآخر بهذه الدنیا، فتقول: «وَلَلدَّارُ الْأَخِرَةُ خَیْرٌ لِّلَّذِینَ یَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ». فتلک حیاة خالدة لا تفنی فی عالم أوسع وعلی مستویً أرفع، عالم یتعامل مع الحقیقة لا المجاز ومع الواقع لا الخیال.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَیَحْزُنُکَ الَّذِی یَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا یُکَذِّبُونَکَ وَ لکِنَّ الظَّالِمِینَ بِآیاتِ اللَّهِ یَجْحَدُونَ (۳۳) وَ لَقَدْ کُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ فَصَبَرُوا عَلی ما کُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّی أَتاهُمْ نَصْرُنا وَ لا مُبَدِّلَ لِکَلِماتِ اللَّهِ وَ لَقَدْ جاءَکَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِینَ (۳۴) المصلحون یواجهون الصعاب دائماً: لا شک أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی نقاشاته المنطقیة ومحاوراته الفکریة مع المشرکین المعاندین المتصلّبین، کان یواجه منهم المعاندة واللجاجة

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۹

والتصلّب والتعنّت، بل كانوا يرشقونه بتهمهم، ولذلک کله کان النبی صلی الله علیه و آله يشعر بالغم والحزن، واللَّه تعالى فى مواضع كثيرة من القرآن يواسى النبى صلى الله علیه و آله ويصبّره على ذلک، لكى يواصل مسيرته بقلب أقوى وجأش أربط، كما جاء فى هذه الآية: «قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُکَ الَّذِى يَقُولُونَ». فاعلم أنّهم لا ينكرونک أنت، بل هم ينكرون آيات اللَّه، ولا يكذّبونک بل يكذّبون اللَّه: «فَإِنَّهُمْ لَايُكَذِّبُونَکَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بَايَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ».

ومثل هذا القول شائع بيننا، فقد يرى «رئيس» أنّ «مبعوثه» إلى بعض الناس عاد غاضباً، فيقول له: «هوّن عليک، فإنّ ما قالوه لک إنّما كان موجّهاً إليّ، وإذا حصلت مشكلة فأنا المقصود بها، لا أنت» وبهذا يسعى إلى مواساة صاحبه والتهوين عليه.

الآية الثانية تستأنف مواساة الرسول صلی الله علیه و آله وتبيّن له حال من سبقه من الأنبياء، وتؤكد له أنّ هذا ليس مقتصراً عليه وحده، فالأنبياء قبله نالهم من قومهم مثل ذلک أيضاً: «وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِکَ».

ولكنهم صبروا وتحمّلوا حتى انتصروا بعون اللَّه: «فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتهُمْ نَصْرُنَا» وهذه سنة إلهية لا قدرة لأحد على تغييرها: «وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ».

وعليه، فلا تجزع ولا تبتئس إذا ما كذّبک قومک وآذوک، بل اصبر على معاندة الأعداء وتحمّل أذاهم، واعلم أنّ الإمدادات والألطاف الإلهية ستنزل بساحتک بموجب هذه السنّة، فتنتصر فى النهاية عليهم جميعاً، وإنّ ما وصلک من أخبار الأنبياء السابقين عن مواجهتهم الشدائد والمصاعب وعن ثباتهم وصبرهم وإنتصارهم فى النهاية، لهو شهادة بيّنة لک:

«وَلَقَدْ جَاءَکَ مِن نَّبَإِى الْمُرْسَلِينَ».

تشير هذه الآية إلى مبدأ عام هو أنّ قادة المجتمع الصالحين الذين يسعون لهداية الشعوب عن طريق الدعوة إلى مبادىء وتعاليم بنّاءة، وبمحاربة الأفكار المنحطّة والخرافات السائدة والقوانين المغلوطة فى المجتمع، يواجهون معارضة شديدة من جانب فريق الإنتهازيين الذين يرون فى انتشار تلک التعاليم والمبادىء البنّاءة خطراً يهدد مصالحهم، فلا يتركون وسيلة إلّا استخدموها لترويج أهدافهم المشؤومة، وبكل ما يخطر لهم من سلاح لمحاربة اولئک المصلحين.

إلّا أنّ الحقيقة، بما فيها من قوة الجاذبية والعمق، وبموجب السنّة الإلهية، تعمل عملها إلّا أنّ شرط هذا الإنتصار هو الصبر والمقاومة والثبات.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۰

وَ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْکَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِیَ نَفَقاً فِی الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِی السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (۳۵) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (۳۶) الأموات المتحركون:

هاتان الآيتان استمرار لمواساة النبى صلى الله علیه و آله التى بدأت فى الآيات السابقة لقد كان رسول اللَّه صلى الله علیه و آله يشعر بالحزن العميق لضلال المشركين وعنادهم، وكان يود لو أنّه استطاع أن يهديهم جميعاً إلى طريق الإيمان بأيّة وسيلة كانت. فيقول اللَّه تعالى: «وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْکَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بَايَةٍ». أى إذا كان إعراض هؤلاء المشركين يصعب ويثقل عليک، فشق أعماق الأرض أو ضع سلّماً يوصلک إلى السماء للبحث عن آية- إن استطعت- ولكن اعلم أنّهم مع ذلک لن يؤمنوا بک.

فى هذه الآية يخبر اللَّه نبيّه بأن ليس فى تعليماتک ودعوتک وسعيک أى نقص، بل النقص فيهم لأنّهم هم الذين رفضوا قبول الحق، لذلک فإنّ أيّ مسعى من جانبک لن يكون له أثر فلا تقلق.

ولكن لكيلا يظن أحد أنّ اللَّه غير قادر على حملهم على التسليم يقول: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى . أى لو أراد حملهم على الإستسلام والرضوخ لدعوتک والإيمان باللَّه لكان على ذلک قديراً.

غیر أنّ الإیمان الإجباری لا_ طائل تحته، إنّ خلق البشر للتکامل مبنی علی أساس حریة الاختیار والإرادة، ففی حالة حریة الاختیار وحدها یمکن تمییز «المؤمن» من «الکافر» و «الصالح» من «غیر الصالح» و «الصادق» من «الکاذب».

ثم یقول سبحانه لنبیّه: «فَلَا تَکُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِینَ». أی لقد قلت هذا لئلا_ تکون من الجاهلین، أی لا_ تفقد صبرک ولا_ تجزع، ولا یأخذک القلق بسبب کفرهم وشرکهم.

وما من شک أنّ النبی صلی الله علیه و آله کان یعلم هذه الحقائق ولکن اللّه ذکرها له من باب التطمین وتهدئة الروع.

فی الآیة التی تلیها استکمال لما سبق ومزید من المواساة للرسول الکریم صلی الله علیه و آله فتقول الآیة: «إِنَّمَا یَسْتَجِیبُ الَّذِینَ یَسْمَعُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱

أمّا الذین هم فی الواقع أشبه بالأموات فإنّهم لا یؤمنون حتی یبعثهم اللّه یوم القیامة:

«وَالْمَوْتَی یَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَیْهِ یُرْجَعُونَ».

یومئذٍ، وبعد أن یروا مشاهد یوم القیامة یؤمنون، إلّاأنّ إیمانهم ذاک لا ینفعهم شیئاً.

وَ قَالُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَیْهِ آیَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَی أَنْ یُنَزِّلَ آیَةً وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لَا یَعْلَمُونَ (۳۷) تشیر هذه الآیة إلی واحد من الأعذار التی یتذرّع بها المشرکون، فقد جاء فی بعض الروایات أنّه عندما عجز بعض رؤساء قریش عن معارضة القرآن ومقابلته، قالوا لرسول اللّه صلی الله علیه و آله: کل هذا الذی تقوله لا فائدة فیه، إذا کنت صادقاً فیما تقول، فأتنا بمعجزات کعصا موسی وناقة صالح، یقول القرآن بهذا الشأن: «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَیْهِ ءَایَةٌ مِّن رَّبّهِ».

من الواضح أنّ اولئک لم یکونوا جادّین فی بحثهم عن الحقیقة، لأنّ الرّسول صلی الله علیه و آله کان قد جاء لهم من المعاجز بما یکفی، لذلک یأمر اللّه رسوله أن: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَی أَن یُنَزّلَ ءَایَةً». إلّاأنّ فی ذلک أمراً أنتم عنه غافلون، وهو أنّه إذا حقق اللّه مطالیبکم التی یدفعکم إلیها عنادکم، ثم بقیتم علی عنادکم ولم تؤمنوا بعد مشاهدتکم للمعاجز، فسوف یقع عقاب اللّه علیکم جمیعاً، وتفنون عن آخرکم، لأنّ ذلک سیکون منتهی الإستهتار بمقام الالوهیّة المقدس وبمبعوثه وآیاته ومعجزاته، ولهذا تنتهی الآیة بالقول: «وَلکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لَایَعْلَمُونَ».

وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِی الْأَرْضِ وَ لَا طَائِرٍ یَطِیرُ بِجَنَاحَیْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُکُمْ مَا فَرَّطْنَا فِی الْکِتَابِ مِنْ شَیْءٍ ثُمَّ إِلَی رَبِّهِمْ یُحْشَرُونَ (۳۸) هذه الآیة تستأنف ما جاء فی الآیات السابقة من الکلام مع المشرکین وتحذیرهم من مصیرهم یوم القیامة، فتتحدّث عن «الحشر» وبعث عام یشمل جمیع الکائنات الحیّة والحیوانات، فتقول أوّلًا: «وَمَا مِن دَابَّةٍ فِی الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ یَطِیرُ بِجَنَاحَیْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُکُم».

یتّضح من هذا أنّ فصائل الحیوان والطیور امم مثل البشر.

أی إنّ للحیوان والطیر- أیضاً- إدراکه ومشاعره فی عالمه الخاص، ویعرف اللّه ویسبّح له ویقدّسه بحسب طاقته، وإن تکن قوّة إدراکه أدنی ممّا فی الإنسان.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲

«الدّابة»: من «دبّ» والدبیب المشی الخفیف، ویستعمل ذلک فی الحیوان والحشرات أکثر. «الطائر» کل ذی جناح یسبح فی الهواء وقد یوصف بها بعض الامور المعنویة التی تتقدّم بسرعة واندفاع، والآیة تقصد الطائر الذی یطیر بجناحیه. «امم»: جمع امّة، وهی کل جماعة یجمعهم أمر ما، کالدین الواحد أو الزمان الواحد أو المکان الواحد. «یحشرون»: من «حشر» بمعنی «الجمع» والمعنی الوارد فی القرآن یقصد به یوم القیامة، ولا سیما أنّه یقول: «إِلَی رَبّهِم».

ثم تقول الآیة: «مَّا فَرَّطْنَا فِی الْکِتَابِ مِن شَیْءٍ». لعل المقصود «بالکتاب» هو القرآن الذی یضم کل شیء، أو المقصود بالکتاب هو «عالم الوجود» إذ أنّ عالم الخلیقة مثل الکتاب الضخم، یضمّ کل شیء ولا ینسی شیئاً.

وتختم الآية بالقول: «ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ». من هنا تنذر الآية المشركين وتقول لهم:
إنّ اللَّه الذى خلق جميع الحيوانات ووفّر لها ما تحتاجه، ورعى كل أفعالها، وجعل لها حشراً ونشوراً، قد أوجد لكم دون شك بعثاً وقيامة وليس الأمر كما تقول تلك الفئة من المشركين من أنه ليس ثمّة شيء سوى الحياة الدنيا والممات.
هل هناك بعث للحيوانات؟ ما من شك أنّ الشّرط الأوّل للمحاسبة والجزاء هو «العقل والإدراك» ويستتبعهما «التكليف والمسؤولية».
يقول أصحاب هذا الرأى: إنّ حياة كثير من الحيوانات تجرى وفق نظام دقيق ومثير للعجب، ويدلّ على إرتفاع مستوى إدراكها وفهمها، فمن ذا الذى لم يسمع بالنمل والنحل وتمدّنها العجيب ونظامها المحيّر فى بناء بيوتها وخلاياها، ولا شك أنّ هذه امور ليس من السهل اعتبارها ناشئة بدافع الغريزة، إذ إنّ الغريزة تنشأ عنها أعمال رتيبة من طراز واحد باستمرار، أمّا الأعمال التى تقع فى ظروف خاصة كردود فعل لحوادث طارئة غير متوقعة، فهذه تكون إلى التعقل والإدراك أقرب منها إلى الغريزة. فالشاة التى لم يسبق لها أن رأت ذئباً فى حياتها تفزع منه أول ما تراه وتدرك خطره عليها وتتوسل بكل حيلة لدرء خطره عنها.
فضلًا عن ذلك كله، فإنّ هناك بعض الآيات التى تدل- بوضوح- على أنّ للحيوانات فهماً وإدراكاً، من ذلك حكاية هروب النمل من أمام جيش سليمان، وحكاية ذهاب الهدهد إلى منطقة سبأ باليمن ورجوعه بأخبار مثيرة لسليمان.
ثمّة أحاديث إسلامية كثيرة حول بعث الحيوانات، من ذلك ما روى فى تفسير مجمع البيان عن أبى ذر قال: بينا أنا عند رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إذ انتطحت عنزان، فقال النبى صلى الله عليه و آله:
مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳
«أتدرون فيما انتطحتا؟» فقالوا: لا ندرى. قال: «ولكن اللَّه يدرى وسيقضى بينهما».
وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَ مَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۳۹) مرّة اخرى يعود القرآن ليتطرّق إلى المنكرين المعاندين، فيقول: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى الظُّلُمَاتِ». فهم لا يملكون آذاناً صاغية لكى يستمعوا إلى الحقائق، ولا ألسناً ناطقةً بالحقّ توصل إلى الآخرين ما يدركه الإنسان من الحقائق.
وبعد ذلك يقول القرآن الكريم: «مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».
إنّ الهداية والضلالة اللتين تنسبان فى هذه الحالات إلى مشيئة اللَّه إنّما هما ثواب اللَّه وعقابه لعباده على أفعالهم الحسنة أو السيئة.
وبعبارة اخرى: قد يرتكب الإنسان أحياناً إثماً كبيراً يؤدّى به إلى أن يحيط بروحه ظلام مخيف، فتفقد عينه القدرة على رؤية الحق، وتفقد أذنه القدرة على سماع صوت الحق، ويفقد لسانه القدرة على قول الحق.
وقد يكون الأمر على عكس ذلك، أى قد يعمل الإنسان أعمالًا صالحة كثيرة بحيث إنّ عالماً من النور والضوء يشع فى روحه، فيتسع بصره وبصيرته، وتزداد أفكاره إشعاعا، ويكون لسانه ابلغ فى إعلان الحق، ذلكم هو مفهوم الهداية والضلالة اللتين تنسبان إلى إرادة اللَّه ومشيئته.
قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۴۰) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَ تَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (۴۱) التوحيد الفطرى: يعود الكلام مرّة اخرى إلى المشركين، ويدور الاستدلال حول وحدانية اللَّه وعبادة الواحد الأحد عن طريق تذكيرهم باللحظات الحرجة والمؤلمة التى تمرّ بهم فى الحياة، ويستشهد بضمائرهم، فهم فى مثل تلك المواقف ينسون كل شىء، ولا يجدون غير اللَّه ملجأ لهم. يأمر اللَّه سبحانه نبيّه أن: «قُلْ أَرَءَيْتَكُم إِنْ أَتكُم عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُم صَادِقِينَ».
الحالة النفسية التى تصوّرها هذه الآية لا تنحصر فى المشركين، بل فى كل إنسان حين يتعرّض إلى الشدّة وحوادث الخطر وقد لا يلجأ الإنسان فى الحوادث الصغيرة والمألوفة إلى
مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴

اللَّه، إلّاأنّه فى الحوادث الرهيبة والمخيفة ينسى كل شيء وإن ظلّ فى أعماقه يحس بأمل فى النجاة ينبع من الإيمان بوجود قوّة غامضة خفيّة، وهذا هو التوجه إلى اللَّه وحقيقة التوحيد.

حتى المشركون وعبدة الأصنام لا يخطر لهم التوسل بأصنامهم، بل ينسونها فى مثل هذه الظروف تماماً، فتقول الآية: «بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ».

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (۴۲) فَلَوْ لَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَ لكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۴۳) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (۴۴) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۴۵) مصير الذين لا يعتبرون: تواصل هذه الآيات توجيه الكلام للضّالين والمشركين، ويتخذ القرآن فيها طريقاً آخر لإيقاظهم وذلك بأن ينقلهم إلى القرون السالفة والأزمان الماضية، يشرح لهم حال الامم الضّالة والظالمة والمشركة، ويبيّن لهم كيف اتيح لها جميع عوامل التربية والتهذيب والوعى، غير أنّ جمعاً منهم لم يلقوا بالًا إلى أىّ من تلك العوامل، ولم يعتبروا بما حاق بهم من (بأساء) و (ضراء) «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ» (١).

أما كان من الأجدر بهؤلاء أن يستيقظوا عندما جاءهم البأس وأحاطت بهم الشدائد؟! «فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا» ولكنّهم لم يستيقظوا، ولذلك سببان:

الأوّل: إنّهم لكثرة آثامهم وعنادهم فى الشرك زايلت الرحمة قلوبهم والليونة أرواحهم:

«وَلكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ».

والثانى: إنّ الشيطان قد استغل عبادتهم أهواءهم فزيّن فى نظرهم أعمالهم، فكل قبيح إرتكبوه أظهره لهم جميلًا، ولكل خطأ فعلوه جعله فى عيونهم صواباً: «وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطنُ مَا

---

(١) «البأساء»: الشدّة والمكروه، وتطلق على الحرب أيضاً، وكذلك القحط والجفاف والفقر. أمّا «الضّرّاء»: فأكثر ما تعنى العذاب الروحى كالهم والغم والإكتئاب والجهل أو الآلام الناشئة عن الأمراض أو عن فقدان مال أو مقام.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢٥

كَانُوا يَعْمَلُونَ».

ثم تذكر الآية التالية أنّه لمّا لم تنفع معهم تلك المصائب والمشاكل والضغوط عاملهم اللَّه تعالى بالعطف والرحمة، ففتح عليهم أبواب أنواع النعم، لعلهم يستيقظون ويلتفتون إلى خالقهم الذى وهب لهم كل تلك النعم، ويشخّصوا الطريق السوى: «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلّ شَيْءٍ».

إلّا أنّ هذه النعم كانت فى الواقع ذات طابع مزدوج، فهى مظهر من مظاهر المحبة التى تستهدف إيقاظ النائمين، وهى كذلك مقدمة لنزول العذاب الأليم إذا استمرّت الغفلة، ولهذا يقول إنّنا أعطيناهم الكثير من النعم: «حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ» (١).

وهكذا استؤصلت جذور اولئك الظلمة وانقطع نسلهم: «فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا».

ولمّا كان اللَّه قد وفّر لهؤلاء كل وسائل التربية ولم يبخل عليهم بأىّ شيء منها، لذلك فإنّ الحمد يختص باللَّه الذى يربّى أهل الدنيا كافة: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ».

وإختتام الآية بقول: «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ» دليل على أنّ استئصال جذور الظلم والفساد والقضاء على شأفة الذين يمكن أن يواصلوا هذا الأمر من الأهمية بحيث يستوجب الحمد للَّه.

فى الكافى عن فضيل بن عياض عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «... من أحبّ بقاء الظالمين، فقد أحبّ أن يعصى اللّه، إنّ اللّه تعالى حمد نفسه على هلاك الظالمين فقال: «فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»».

قُلْ أ رَأَيْتُمْ إنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (۴۶) قُلْ أ رَأَيْتَكُمْ إنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (۴۷) وَ مَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۴۸) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (۴۹)

---

(١) «الإبلاس»: الحزن المعترض من شدّة التألم بسبب كثرة المنغّصات المؤلمة، ومنها اشتقت كلمة «إبليس» وهى هنا تدل على شدّة الغم والهم اللذين يصيبان المذنبين يومئذٍ.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢۶

اعرفوا واهب النعم: الخطاب ما يزال موجّهاً إلى المشركين. فى هذه الآيات حثّ استدلالى على إيقاظهم ببيان آخر يعتمد غريزة دفع الضرر، فيبدأ بالقول: إنّه إذا سلب منكم اللّه النعم الثمينة التى وهبها لكم، مثل السمع والبصر، وأغلق على قلوبكم أبواب التمييز بين الحسن والسيء، والحق والباطل، فمن يا ترى يستطيع أن يعيد إليكم تلك النعم؟ «قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ».

فى الواقع، كان المشركون أنفسهم يعتقدون أنّ الخالق والرازق هو اللّه، وكانوا يعبدون الأصنام للإستشفاع بها عند اللّه.

ثم تقول الآية: انظر إلى هؤلاء الذين نشرح لهم الآيات والدلائل بمختلف الوسائل، ولكنهم مع ذلك يعرضون عنها: «انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ».

«نصرف»: من «التصريف» بمعنى «التغيير» والكلمة هنا تشير إلى مختلف الاستدلالات فى صور متنوعة. و «يصدفون»: من «صدف» بمعنى «الجانب» و «الناحية» أى إنّ المعرض عن شيء يدير وجهه إلى جانب أو ناحية اخرى.

تشير الآية الثانية- بعد ذكر هذه النعم الثلاث «العين والأذن والإدراك» التى هى منبع جميع نعم الدنيا والآخرة- إلى إمكان سلب هذه النعم كلّها دفعة واحدة، فتقول: «قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ».

«بغتة»: بمعنى «فجأة» و «جهرة» بمعنى «الظاهر» والعلانية.

والقصد هو أنّ القادر على إنزال مختلف العقوبات، وسلب مختلف النعم هو اللّه وحده، وإنّ الأصنام لا دور لها فى هذا أبداً، لذلك ليس ثمّة ما يدعو إلى اللجوء إليها، لكن اللّه لحكمته ورحمته لا يعاقب إلّاالظالمين.

الآية الثالثة تشير إلى مركز الأنبياء، فتقول: ليست الأصنام العديمة الروح هى وحدها العاجزة عن القيام بأىّ أمر، فإنّ الأنبياء العظام والقادة الإلهيين أيضاً لا عمل لهم سوى إبلاغ الرسالة والإنذار والتبشير، فكلّ ما هنالك من نعم إنّما هى من اللّه وبأمره، وأنّهم إن أرادوا شيئاً طلبوه من اللّه: «وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ».

ثم تقول: إنّ طريق النجاة ينحصر فى أمرين، فالذين يؤمنون ويصلحون أنفسهم «وَيَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ» فلا خوف عليهم من العقاب الإلهى، ولا حزن على أعمالهم السابقة.

«فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢٧

أمّا اولئك الذين لا يصدّقون بآياتنا، بل يكذّبون بها فإنّ عقابهم على فسقهم وعصيانهم عذاب من اللّه: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

من الجدير بالإنتباه أنّ الآية ذكرت عقاب الذين يكذبون بآيات اللّه بعبارة «يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ» فكأنّ هذا العقاب يطاردهم فى كل مكان

حتى يشملهم بأشدّ ما يكون من العذاب.

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ أَ فَلَا تَتَفَكَّرُونَ (۵۰) معرفة الغيب: هذه الآية استمرار للردّ على إعتراضات الكفار والمشركين المختلفة، والرد يشمل ثلاثة أقسام من تلك الإعتراضات فى جمل قصيرة:

الأوّل: هو أنّهم كانوا يريدون من رسول اللّه صلى الله عليه و آله القيام بمعجزات عجيبة وغريبة، وكان كل واحد يتقدّم باقتراح حسب رغبته، بل إنّهم لم يكونوا يقنعون بمشاهدة معجزات طلبها آخرون، فمرّة كانوا يطلبون بيوتاً من ذهب، ومرّة يريدون هبوط الملائكة، ومرّة يريدون أن تتحوّل أرض مكة القاحلة المحرقة إلى بستان ملىء بالمياه والفواكه. ولعلهم بطلباتهم الغريبة تلك كانوا يتوقعون أن يكون للنبى مقام الألوهية وإمتلاك الأرض والسماء، فللردّ على هؤلاء يأتى الأمر من اللّه: «قُلْ لَاأَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ».

يتّضح أنّ «خزائن اللّه» تشمل مصدر ومنبع جميع الأشياء، وهى تستقى من ذات اللّه اللامتناهية منبع جميع الكمالات والقدرات.

ثم تردّ الآية على الذين كانوا يريدون من رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن يكشف لهم عن جميع أسرار المستقبل، بل ويطلعهم على ما ينتظرهم من حوادث لكى يدفعوا الضرر ويستجلبوا النفع، فتقول: «وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ».

فى الجملة الثالثة ردّ على الذين كانوا يتصوّرون النبى صلى الله عليه و آله ملكاً، أو أن يصاحبه ملك، وأن لا يتصف بما يتصف به البشر من تناول الطعام والسير فى الطرقات، وغير ذلك، فقال:

«وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ».

وفى الختام يؤمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن يقول لهم: هل يمكن للذين يغمضون أعينهم ويغلقون عقولهم عن التفكير أن يكونوا على قدم المساواة مع الذين يرون الحقائق جيداً

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸

ويتفهمونها؟ «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ».

وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۵۱) فى ختام الآية السابقة ذكر سبحانه عدم استواء الأعمى بالبصير، وفى هذه الآية يأمر نبيّه أن ينذر الذين يخشون يوم القيامة: «وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبّهِمْ».

أى إنّ هؤلاء لهم هذا القدر من البصيرة بحيث يحتملون وجود حساب وجزاء، وفى ضوء هذا الاحتمال والخوف من المسؤولية تتولّد فيهم القابلية على التلقّى والقبول.

ثم يقول: إنّ أمثال هؤلاء من ذوى القلوب الواعية يخافون ذلك اليوم الذى ليس فيه غير اللّه ملجأ ولا شفيع: «لَيْسَ لَهُمْ مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ».

نعم، أنذر أمثال هؤلاء الناس وادعهم إلى اللّه، إذ أنّ الأمل فى هدايتهم موجود: «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

وَ لَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ مَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (۵۲) وَ كَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَ هؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (۵۳)

سبب النّزول

فى تفسير الدرّ المنثور (وتفسير المنار أيضاً): مرّ الملأ من قريش على النبى صلى الله عليه و آله وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمّد! أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء منّ اللّه عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء: اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل اللّه فيهم القرآن: «وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ» إلى قوله «أَلَيْسَ

اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ».

فى تفسير المنار عن عمر بن الخطاب قال: لو فعلت يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حتى ننظر ما يريدون بقولهم، وما يصبرون إليه من أمرهم فأنزل اللَّه تعالى الآيتان فى رفض إقتراحه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹

التّفسير

مكافحة التفكير الطبقى: فى هذه الآية إشارة إلى واحد من إحتجاجات المشركين، وهو أنّهم كانوا يريدون من النّبى صلى الله عليه و آله أن يقرّ ببعض الإمتيازات لطبقة الأغنياء ويفضّلهم على طبقة الفقراء، إذ كانوا يرون فى جلوسهم مع الفقراء من أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله منقصة لهم أىّ منقصة! مع أنّ الإسلام كان قد جاء للقضاء على مثل هذه الإمتيازات الزائفة الجوفاء، كانوا يصرّون على هذا الطلب فى طرد اولئك عنه، غير أنّ القرآن ردّ هذا الطلب مستنداً إلى أدلة حيّة، فيقول: «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوةِ وَالْعَشِىّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ» (۱).

فى الحقيقة كان هؤلاء يستندون فى طلبهم ذاك إلى سنّة قديمة خاطئة تقيّم المرء على أساس ثروته، وكانوا يعتقدون أنّ المعايير الطبقية القائمة على أساس الثروة يجب أن تبقى محفوظة، ويرفضون كل دعوة تستهدف إلغاء هذه القيم والمعايير.

ثم تقول الآية: إنّه ليس ثمّة ما يدعو إلى إبعاد هؤلاء المؤمنين عنك، لأنّ حسابهم ليس عليك، ولا حسابك عليهم: «مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ». ولكنّك مع ذلك إذا فعلت تكون ظالماً: «فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ».

والمقصود من «الحساب» هنا هو حساب الأعمال. إنّ المشركين كانوا يتهمون أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الفقراء بالإبتعاد عن اللَّه بسبب فقرهم، زاعمين أنّهم لو كانت أعمالهم مقبولة عند اللَّه لزمه الترفيه والتوسعة عليهم فى معيشتهم.

فيرد القرآن على ذلك مبيّناً أنّنا حتى لو فرضنا أنّهم كذلك، فإنّ حسابهم على اللَّه، مادام هؤلاء قد آمنوا وأصبحوا فى صفوف المسلمين، فلا يجوز طردهم بأىّ ثمن، وبهذا يقف فى وجه إحتجاج أشراف قريش.

إمتياز كبير للإسلام: إنّنا نعلم أنّ دائرة صلاحيات رجال الدين المسيحيين المعاصرين قد اتسعت إتساعاً مضحكاً بحيث إنّهم أعطوا أنفسهم حق غفران الذنوب، فبإمكانهم طرد الأشخاص وتكفيرهم أو قبولهم لأتفه الامور. إلّاأنّ القرآن، فى هذه الآية وفى آيات اخرى ينفى صراحة أن يكون لأحد الحق، بل ولا- لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله نفسه فى أن يطرد أحداً أظهر إيمانه ولم يفعل ما يوجب إخراجه من الإسلام، وأنّ غفران الذنوب والحساب بيد اللَّه وحده، ولا يحق لأحد التدخل فى هذا أبداً.

---

(۱) معنى «الوجه» فى اللغة معروف، ولكنّ الكلمة قد تعنى «الذات» كما فى هذه الآية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰

الآية الثانية يحذّر فيها القرآن أصحاب المال والثروة من أنّ هذه الامور اختبار لهم، فإذا لم يجتازوا الامتحان فعليهم أن يتحمّلوا العواقب المؤلمة، فاللَّه يمتحن بعضهم ببعض: «وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ». «الفتنة» تعنى هنا الامتحان.

ثم تضيف الآية: أنّ الأمر يصل بهؤلاء إلى أنهم ينظرون إلى المؤمنين الصادقين نظرة احتقار «لِّيَقُولُوا أَهؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا».

ثم تجيب الآية على المعترضين مؤكّدة أنّ هؤلاء الأشخاص اناس شكروا نعمة التشخيص الصحيح بالعمل، كما أنّهم شكروا نعمة دعوة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بقبولها، فأىّ نعمة أكبر وأىّ شكر أرفع، ولذلك رسّخ اللَّه الإيمان فى قلوبهم: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ».

وَ إِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵۴) وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (۵۵) هذه الآية تبدأ أوّلًا بالطلب من رسول اللَّه صلى

الله عليه و آله أن لا- يطرد المذنبين مهما عظمت ذنوبهم، بل عليه أن يستقبلهم ويتقبلهم: «وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بَايَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ».

يحتمل أن يكون هذا السلام من اللَّه بوساطة رسوله أو أنّه من الرسول صلى الله عليه و آله مباشرة، وهو- على كلا الاحتمالين- دليل على القبول والترحيب والتفاهم والمحبة.

ثم تقول الآية: «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ».

«كتب»: تأتى فى كثير من الأحيان كناية عن الإلزام والتعهد، إذ إنّ من نتائج الكتابة توكيد الأمر وثبوته.

وفى الجزء الأخير من الآية- وهو توضيح وتفسير لرحمة اللَّه- يتحدّث بلهجة عاطفية:

«أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

إنّ «الجهالة» فى مثل هذه المواضع تعنى طغيان الشهوة وسيطرتها.

الآية التالية ومن أجل توكيد هذا الموضوع تشير إلى أنّ اللَّه سبحانه يوضّح آياته وأوامره توضيحاً بيّناً لكى يتبيّن طريق الباحثين عنه والمطيعين له، كما يتبيّن طريق الآثمين

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣١

المعاندين من أعداء اللَّه: «وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْأَيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ» «١».

إنّ «المجرم» هنا هو اولئك المذنبون المعاندون الذين لا يستسلمون للحق. أى بعد هذه الدعوة العامّة إلى اللَّه، التى تشمل حتّى المجرمين النادمين يتّضح بشكل كامل طريق المعاندين الذين لا يرجعون عن عنادهم.

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِىَ الْأَمْرُ بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) الإصرار العقيم: ما يزال الخطاب فى هذه الآيات موجّهاً إلى المشركين وعبدة الأصنام المعاندين- كدأب معظم آيات هذه السورة- يبدو من سياق هذه الآيات أنّهم دعوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى إعتناق دينهم، الأمر الذى يستدعى نزول الآية: «قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ».

ثم بجملة «قُل لَّاأَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ» يجيب بوضوح على إصرارهم العقيم، نظراً لأنّ عبادة الأصنام لا تتفق مع المنطق ولا مع الأدلة العقلية.

وفى ختام الآية يؤكد القرآن مرّة اخرى على أنّه إذا فعل ذلك «قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ».

الآية التالية تتضمّن جواباً آخر وهو: «قُلْ إِنِّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِ».

«البيّنة»: أصلًا ما يفصل بين شيئين بحيث لا يكون بينهما تمازج أو اتصال، ثم أطلقت على الدليل والحجة الواضحة، لأنّها تفصل بين الحق والباطل.

---

(١) جملة «ولتستبين» معطوفة على جملة محذوفة تدرك بالقرينة، فيكون المعنى لتستبين سبيل المؤمنين المطيعين ولتستبين سبيل المجرمين.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٢

إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يؤمر فى هذه الآية أن يقول: إنّ دليلى فى قضية عبادة اللَّه ومحاربة الأصنام واضح وبيّن، وإنّ تكذيبكم وإنكاركم لا يقللان من صدق الدليل. ثم يشير إلى حجة واهية اخرى من حججهم، وهى أنّهم كانوا يقولون: إن كنت على حق فعلًا فعجّل بالعقاب الذى تتوعدنا به، فيقول لهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ» لأنّ الأعمال والأوامر كلها بيد اللَّه: «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ».

إنّ معنى «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» واضح، أى إنّ كل أمر فى عالم الخلق والتكوين وفى عالم الأحكام والتشريع بيد اللَّه، وكذلك كل منصب- بما فى ذلك القيادة الإلهية والتحكيم والقضاء- إذا أوكل إلى أحد، فإنّما هو بأمر اللَّه تعالى

وبعد ذلك يقول مؤكّداً: إنّ اللَّه هو الذى «يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ».

الآية التالية تأمر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يقول لهؤلاء الجماعة الملحاحة العنيدة الجاهلة: لو أنّ ما تطلبونه منّى على عجل كان فى سعتى وقدرتى، وأجبتكم إليه لانتهى الأمر، ولم يعد بينى وبينكم شىء: «قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِىَ الْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ».

ولكيلا يظنّوا أنّ عقابهم قد طواه النسيان، يقول فى النهاية: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ» وسوف يعاقبهم فى الوقت المناسب.

«يقص»: فى اللغة ترد بمعنى القطع، وعلى هذا يكون معنى و «يَقُصُّ الْحَقَّ» إنّ اللَّه يقطع الحق عن الباطل ويفصل بينهما.

وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَ لَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَ لَا رَطْبٍ وَ لَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (۵۹) وَ هُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۶۰) وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَ هُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (۶۱) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (۶۲) أسرار الغيب: فى هذه الآيات يدور الكلام حول علم اللَّه وقدرته وسعة حكمه وأمره،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳

وهى تشرح ما اجملته الآيات السابقة. تشرع الآية فى الكلام على علم اللَّه فتقول: «وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ».

«مفاتح»: جمع «مفتح» (بكسر الميم وفتح التاء) وهو المفتاح.

ثم لتوكيد ذلك أكثر يقول: «وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ».

«البرّ»: كل مكان واسع فسيح، وتطلق على اليابسة؛ و «البحر»: كذلك تعنى المحل الواسع الذى يتجمّع فيه الماء، وتطلق على البحار والمحيطات وعلى الأنهر العظيمة أحياناً. فالقول بأنّ اللَّه يعلم ما فى البرّ والبحر، كناية عن إحاطته بكل شىء.

فهو عالم بحركة آلاف الملايين من الكائنات الحيّة، الكبيرة والصغيرة، فى أعماق البحار.

وهو عالم بعدد خلايا جسم الإنسان وكريات دمه.

وهو عالم بكل الحركات الغامضة فى الإلكترونات فى قلب الذّرة.

وهو عالم بكل الأفكار التى تمرّ بتلافيف أدمغتنا حتى أعماق أرواحنا ... نعم إنّه عالم بكل ذلك على حد سواء.

لذلك فإنّه يؤكد ذلك مرّة اخرى فيقول: «وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا». أى إنّه يعلم عدد الأوراق ولحظة إنفصال كل ورقة عن غصنها وطيرانها فى الهواء، حتى لحظة استقرارها على الأرض، كل هذا جلى أمام علم اللَّه.

كذلك لا تختفى حبّة بين طيّات التراب إلّاويعلمها اللَّه ويعلم كل تفاصيلها: «وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ».

التركيز هنا على نقطتين حسّاستين لا يمكن أن يتوصل إليهما الإنسان حتى لو أمضى ملايين السنين من عمره يرتقى سلّم الكمال فى صنع أجهزته وأدواته المدهشة.

ترى من ذا الذى يستطيع أن يعرف كم تحمل الرياح معها فى هبوبها على مختلف أصقاع الأرض فى الليل والنهار، من أنواع البذور المنفصلة عن نباتاتها؟

أىّ دماغ الكترونى هذا الذى يستطيع أن يحصى عدد أوراق الشجر التى تسقط كل يوم من أشجار الغابات؟ انظر إلى غابة من الغابات فى الخريف، وتطلّع إلى مشهد سقوط الأوراق المتواصل البديع، عندئذٍ تتكشف لك هذه الحقيقة، وهى أنّ علوماً من هذا القبيل لن تكون يوماً فى متناول يد الإنسان.

إنّ سقوط الورقة- فى الحقيقة- هو لحظة موتها، بينما سقوط البذرة فى مكمنها من الأرض

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴

هو لحظة بدء حياتها، وما من أحد غير اللَّه يعلم بنظام هذا الموت وهذه الحياة.

إنّ لهذا الموضوع أثراً «فلسفياً» وآخر «تربوياً»: أمّا أثره الفلسفى، فينفى رأى الذين يحصرون علم اللَّه بالكليات، ويعتقدون أنّه لا يعلم عن الجزئيات شيئاً، وفى الآية هنا تأكيد على أنّ اللَّه يعلم الكليات والجزئيات كلها.

أمّا أثره التربوى فواضح، لأنّ الإيمان بهذا العلم الواسع للَّهيقول للإنسان: إنّ جميع أسرار وجودك، وأعمالك، وأقوالك ونيّاتك، وأفكارك كلها بيّنة أمام اللَّه، فإذا آمن الإنسان حقاً بهذا، فكيف يمكن له أن لا يكون رقيباً على نفسه ويسيطر على أعماله وأقواله ونيّاته.

وفى ختام الآية يقول تعالى: «وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ».

فى الآية الثانية ينتقل الكلام إلى إحاطة علم اللَّه بأعمال الإنسان وهو الهدف الأصلى وإلى بيان قدرة اللَّه القاهرة، لكى يستنتج الناس من هذا البحث الدروس التربوية اللازمة فتبدأ بالقول بأنّ اللَّه هو الذى يقبض أرواحكم فى الليل، ويعلم ما تعملون فى النهار: «وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفكُم بِالَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ».

«توفّى»: تعنى استرجع، فالقول بأنّ النوم هو استرجاع للروح يعود إلى أنّ النوم أخو الموت، كما هو معروف، فالموت تعطيل كامل لجهاز الدماغ، وانقطاع تام فى إرتباط الروح بالجسد، بينما النوم تعطيل قسم من جهاز الدماغ وضعف فى هذا الإرتباط، وعليه فالنوم مرحلة صغيرة من مراحل الموت.

«جرحتم»: من «جرح» وهى هنا بمعنى الإكتساب، أى أنّكم تعيشون تحت ظل قدرة اللَّه وعلمه ليلًا ونهاراً، وانّ الذى يعلم بإنفلاق الحبّة ونموها فى باطن الأرض، ويعلم بسقوط أوراق الأشجار وموتها فى أىّ مكان وزمان، يعلم بأعمالكم أيضاً.

ثم يقول: إنّ نظام النوم واليقظة هذا يتكرر، فأنتم تنامون فى الليل «ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى». أى ثم يوقظكم فى النهار .. وتستمر هذه العملية حتى نهاية حياتكم.

ويبيّن القرآن النتيجه النهائية لهذا المبحث بالشكل التالى: «ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وفى الآية الثالثة توضيح أكثر لإحاطة علم اللَّه بأعمال عباده وحفظها بكل دقة ليوم الحساب، بعد أن يسجلها مراقبون مرسلون لإحصاء أعمالهم: «وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵

«حفظة»: جمع «حافظ» وهم هنا الملائكة الموكّلون بحفظ أعمال الناس.

ثم يبين القرآن الكريم أنّ حفظ الأعمال يستمر حتى نهاية الأعمار وحلول الموت:

«حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَايُفَرِّطُونَ».

وتبين الآية فى النهاية أنّ هؤلاء الملائكة الذين يحفظون حساب أعمال البشر، فهم فى حفظهم للحساب لا يصدر منهم أدنى تقصير أو قصور، والآية تركّز على هذا القسم بالذات.

فى الآية الأخيرة يشير القرآن الكريم إلى آخر مراحل عمل الإنسان، فيقول: «ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلهُمُ الْحَقِّ». أى عادوا إلى اللَّه بعد أنّ طووا مرحلة حياتهم، واختتم ملفّهم الحاوى على كل شىء.

وفى تلك المحكمة يكون النظر فى القضايا وإصدار الأحكام بيد اللَّه: «أَلَا لَهُ الْحُكْمُ».

وعلى الرغم من كل تلك الأعمال والملفّات المتراكمة عن أفراد البشر طوال تاريخهم الصاخب فإنّ اللَّه سريع فى النظر فيها: «وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ».

روى فى تفسير مجمع البيان عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه سُئل كيف يحاسب اللَّه الخلق ولا يرونه؟ قال: كما يرزقهم ولا يرونه. وروى «أنّه سبحانه يحاسب جميع عباده على مقدار حلب شاة». أى إنّ ذلك لا يتجاوز فترة حلب شاة.

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۶۳) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۶۴) النور الذى يضيء فى الظلام: مرّة اخرى يأخذ القرآن بيد المشركين ويتوغّل بهم إلى أعماق فطرتهم، وهناك فى تلك الأغوار المحفوفة بالأسرار الغامضة يريهم نور التوحيد وعبادة الواحد الأحد، فيقول للنبى صلى الله عليه و آله قل لهم: «قُل مَن يُنَجّيكُم مِّن ظُلُماتِ الْبَرّ وَالْبَحْرِ».

إنّ الظلام يكون حسياً أحياناً ومعنوياً أحياناً اخرى، الظلام الحسى هو الذى يكون عند انقطاع النور إنقطاعاً تاماً، أو يضعف بحيث لا يرى شيء، أو يرى بالجهد الجهيد، والظلام المعنوى هو المشاكل والصعوبات ذات النهايات المظلمة الغامضة.

وإذا حدثت فى هذا الظلام حوادث واقعية مرعبة، كأن يكون الإنسان مسافراً فى البحر،

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۶

وتحاصره فى ليلة ظلماء الأمواج الهائلة والدوامات المائية، فإنّ خوفه من ذلك يكون أضعاف ما لو حدث ذلك بالنهار، فى مثل هذه اللحظات ينسى الإنسان كل شيء ولا يعود يتذكّر شيئاً سوى نفسه، والنور الذى يسطع فى أعماقه ويجذبه نحو المبدأ قادر على إزالة ما يعتوره من بلاء وضيق، هذه الحالات تفتح نوافذ على عالم التوحيد ومعرفة اللَّه، لذلك يقول فى أمثال هذه الحالات: «تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً». وتعقدون- وأنتم فى تلك الحالة- عهداً وميثاقاً على أنفسكم، وتقولون: «لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ».

ثم تأمر الآية النبى صلى الله عليه و آله أن يخبرهم أنّ اللَّه سوف ينجيهم من هذه ومن غيرها من الأخطار، وقد فعل ذلك من قبل مراراً، ولكنهم بعد زوال الخطر عنهم يعودون إلى طريق الشرك والكفر: «قُلِ اللَّهُ يُنَجّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُم تُشْرِكُونَ».

«الكرب»: فى الأصل بمعنى حفر الأرض وقلبها، وكذلك تعنى العقدة المحكمة الشد فى حبل الدلو، ثم أطلقت بعد ذلك على الغم والهم والحزن التى تقلب قلب الإنسان وتثقل عليه كالعقدة.

قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (۶۵) ألوان العذاب: فى هذه الآية تركيز على التهديد بعذاب اللَّه وعقابه، من أجل إكمال طرق التربية والتهذيب، أى أنّ اللَّه وهو أرحم الراحمين وملجأ اللاجئين، قهار منتقم مقابل الطغاة العصاة، ففى هذه الآية يؤمر الرسول صلى الله عليه و آله بتهديد المجرمين بثلاثة أنواع من العقاب: عذاب من فوق، وعذاب من تحت، وعقاب يتمثل فى اختلاف الكلمة والحرب وإراقة الدماء: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ».

إنّ مسألة اختلاف الكلمة والتفرّق فى المجتمع لا تقل خطورتها عن العذاب السماوى والصواعق والزلازل، وهو كذلك، بل قد يكون الخراب الناشىء من اختلاف الكلمة والتفرّق أحياناً أشدّ وطأة ودماراً من الزلازل والصواعق، كثيراً ما نلاحظ أنّ دولًا عامرة يصيبها الفناء بسبب النفاق والتفرقة، وهذه الكلمة تحذير لجميع مسلمى العالم.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۷

وفى الختام تقول الآية: «انظُرْ كَيْفَ نُصَرّفُ الْأَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ». أى انظر كيف نوضّح لهم المعالم والدلائل على أمل أن يفهموا الحقائق ويعودوا إلى اللَّه.

وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (۶۶) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۶۷) تكمل هاتان الآيتان البحث الذى جرى فى الآيات السابقة عن الدعوة إلى اللَّه والمعاد وحقائق الإسلام والخشية من عقاب اللَّه. الآية الاولى: تخبر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّ قومه- أى قريش وأهل مكة- لم يصدقوا ما يقول مع أنّه صدق وحق وتؤكده الأدلة العقلية المختلفة والفطرية: «وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ». ثم يصدر الأمر إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ». أى إنّما أنا رسول ولست أضمن

قبولکم.

إنّ المقصود من «وکیل» هو المسؤول عن الهدایة العملیة للأفراد والضامن لهم.

وفی الآیة التالیة القصیرة ذات المعنی العمیق تحذیر لهم، ودعوة إلی إختیار الطریق الصحیح، «لِّکُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ». أی أنّ کل خبر أخبرکم به الرّسول صلی الله علیه و آله فی هذه الدنیا أو فی الآخرة موضع ومقر وسوف یتحقق فی موعده المقرر وعندئذ ستعرفون ذلک.

وَ إِذَا رَأَیْتَ الَّذِینَ یَخُوضُونَ فِی آیَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّی یَخُوضُوا فِی حَدِیثٍ غَیْرِهِ وَ إِمَّا یُنْسِیَنَّکَ الشَّیْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّکْرَی مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ (۶۸) وَ مَا عَلَی الَّذِینَ یَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَیْءٍ وَ لَکِنْ ذِکْرَی لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ (۶۹)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان عن الإمام الباقر علیه السلام قال: «لمّا نزلت «فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّکْرَیٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ»، قال المسلمون: کیف نضع إن کان کلما استهزأ المشرکون بالقرآن قمنا وترکناهم فلا ندخل إذاً المسجد الحرام ولا نطوف بالبیت الحرام؟ فأنزل اللّه سبحانه «وَمَا عَلَی الَّذِینَ یَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَیْءٍ»: أمرهم بتذکیرهم وتبصیرهم ما استطاعوا».

التّفسیر

إجتناب مجالس أهل الباطل: بما أنّ المواضیع التی تتطرّق إلیها هذه السورة تتناول حال المشرکین وعبدة الأصنام، فهاتان الآیتان تبحثان عن موضوع آخر من المواضیع التی

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۸

تتعلق بهم، ففی البدایة تقول للرسول صلی الله علیه و آله: «وَإِذَا رَأَیْتَ الَّذِینَ یَخُوضُونَ فِی ءَایَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّی یَخُوضُوا فِی حَدِیثٍ غَیْرِهِ» «۱». ثم تخاطب الآیة رسول اللّه مؤکّدة أهمیة الموضوع: «وَإِمَّا یُنسِیَنَّکَ الشَّیْطَنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّکْرَیٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ». أی إذا أنساک الشیطان هذا الأمر وجلست مع هؤلاء القوم سهواً، فعلیک- حالما تنتبه- أن تنهض فوراً وترک مجالسة الظالمین.

سؤال: هل یمکن للشیطان أن یتسلط علی النبی صلی الله علیه و آله ویسبب له النسیان؟

فی الإجابة علی هذا السؤال یمکن القول بأنّ الخطاب فی الآیة وإن یکن موجّهاً إلی النبی صلی الله علیه و آله فهو یتحدّث فی الواقع مع أتباعه الذین یمکن أن ینسوا فیساهموا فی اجتماعات المشرکین الآثمة، فهؤلاء علیهم حال إنتباههم إلی ذلک أن یترکوا المکان، أنّ مثل هذا الأسلوب کثیر الحدوث فی حیاتنا الیومیة وموجود فی مختلف آداب العالم، فأنت قد توجّه الخطاب إلی أحدهم ولکن هدفک هو أن یسمع الآخرون ذلک کما یقول المثل: إیّاک أعنی واسمعی یا جارة.

الآیة التالیة فیها إستثناء واحد، فإذا اشترک بعض المتقین فی جلسات هؤلاء المشرکین لکی ینهوهم عن المنکر علی أمل أن یؤدّی ذلک إلی انصراف اولئک عن الإثم، فلا مانع من ذلک، وأنّ آثام اولئک لا تسجل علی هؤلاء، لأنّ قصدهم هو الخدمة والقیام بالواجب:

«وَمَا عَلَی الَّذِینَ یَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَیْءٍ وَلَکِن ذِکْرَی لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ».

وینبغی أن نعلم- فی الوقت نفسه- إنّ الذین لهم أن یستفیدوا من هذا الاستثناء هم الذین تنطبق علیهم شروط الآیة، فیکونون متمیزین بالتقوی، وبعدم التأثّر بهم، وبالقدرة علی التأثیر فیهم.

وَ ذَرِ الَّذِینَ اتَّخَذُوا دِینَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَیَاةُ الدُّنْیَا وَ ذَکِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا کَسَبَتْ لَیْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِیٌّ وَ لَا شَفِیعٌ وَ إِنْ تَعْدِلْ کُلَّ عَدْلٍ لَا یُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِکَ الَّذِینَ أُبْسِلُوا بِمَا کَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِیمٍ وَ عَذَابٌ أَلِیمٌ بِمَا کَانُوا یَکْفُرُونَ (۷۰)

(۱) «الخوض»: کما یقول الراغب الأصفهانی فی «مفرداته» هو الدخول فی الماء والمرور فیه، ثم استعیر للورود فی امور اخری، وأکثر ما ترد فی القرآن بشأن الدخول فی موضوع باطل لا أساس له.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹

هذه الآیة تواصل ما بحثته الآیة السابقة، وتأمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله أن یدع اولئک الذین یستهینون بأمر دینهم، ویتخذون ممّا یلهون ویلعبون به مذهباً لهم ویغترون بالدنیا وبمتاعها المادی: «وَذَرِ الَّذِینَ اتَّخَذُوا دِینَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَیَوةُ الدُّنْیَا».

وتشیر هذه الآیة إلی أنّ سلوکهم الحیاتی من حیث المحتوی أجوف وواه.

إنّ «دینهم» یعنی «دین الشرک وعبادة الأصنام» الذی کانوا یدینون به. فالآیة لا تخصّ الکفار وحدهم، بل هی تشمل جمیع الذین یتخذون من الأحکام الإلهیة ومن المقدسات وسائل للتلهی وملء الفراغ وبلوغ الأهداف المادیة الشخصیة، اولئک الذین یجعلون الدین آلة الدنیا، والأحکام الإلهیة ألعوبة أغراضهم الخاصة.

ثم یؤمر رسول اللّه صلی الله علیه و آله أن یتبهم إلی أعمالهم هذه وإلی أنّ هناک یوماً لابدّ لهم أن یستسلموا فیه لنتائج أعمالهم ولن یجدوا من ذلک مفرّاً: «وَذَکِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا کَسَبَتْ» «۱».

یوم لا شفیع ینفع ولا ولی سوی اللّه: «لَیْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِیٌّ وَلَا شَفِیعٌ».

إنّهم یومئذ فی حال صعبة مؤلمة یرزحون فی قیود أعمالهم بحیث إنّهم یرتضون أن یدفعوا أیّة غرامة (إن کان عندهم ما یدفعونه) ولکنّها لن تقبل منهم: «وَإِن تَعْدِلْ کُلَّ عَدْلٍ لَّایُؤْخَذْ مِنْهَا» «۲».

ذلک لأنّهم یکونون بین مخالب أعمالهم، ولا فدیة تنجیهم، ولا توبة تنفعهم بعد أن فات الأوان: «أُولئِکَ الَّذِینَ أُبْسِلُوا بِمَا کَسَبُوا».

ثم یشار إلی جانب ممّا سیصیبهم من العذاب الألیم بسبب إعراضهم عن الحق والحقیقة:

«لَهُمْ شَرَابٌ مِن حَمِیمٍ وَعَذَابٌ أَلِیمٌ بِمَا کَانُوا یَکْفُرُونَ».

إنّهم یتعذّبون بالماء الحریق من الداخل، ویکتوون بنار الجحیم.

إنّ جملة «أُولئِکَ الَّذِینَ أُبْسِلُوا بِمَا کَسَبُوا» هی بمثابة السبب الذی یمنع من قبول الغرامة ومن قبول أیّ شفیع وولی، أی إنّ عقابهم لیس لعلّة خارجیة بحیث یمکن دفعها بشکل من

---

(۱) «البسل»: هو حفظ الشیء ومنعه بالقوّة والقهر، والإبسال حمل المرء علی التسلیم، کما تطلق الکلمة علی الحرمان من الثواب، أو أخذ الرهائن، والجیش الباسل بمعنی القاهر الذی یحمل العدو علی التسلیم، والمعنی فی الآیة هو تسلیم المرء وخضوعه لأعماله السیئة.

(۲) «العدل»: بمعنی «المعادل» وهو ما یدفع جزاءاً وغرامة لقاء التحرر، وهو أشبه فی الواقع بما یفتدی به.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰

الأشکال، بل ینبع من داخل الذات وسلوکها وأعمالها، إنّهم أسری أعمالهم القبیحة، لذلک لا مفرّ لهم، لأنّ فرار المرء من أعماله وآثارها إنّما هو فرار من ذاته، وهو غیر ممکن.

قُلْ أَ نَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا یَنْفَعُنَا وَ لَا یَضُرُّنَا وَ نُرَدُّ عَلَی أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ کَالَّذِی اسْتَهْوَتْهُ الشَّیَاطِینُ فِی الْأَرْضِ حَیْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ یَدْعُونَهُ إِلَی الْهُدَی ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَی اللَّهِ هُوَ الْهُدَی وَ أُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِینَ (۷۱) وَ أَنْ أَقِیمُوا الصَّلَاةَ وَ اتَّقُوهُ وَ هُوَ الَّذِی إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ (۷۲) کان المشرکون یصرّون علی دعوة المسلمین إلی العودة إلی الکفر وعبادة الأصنام، فنزلت هذه الآیة تأمر النبی صلی الله علیه و آله بالردّ علیهم ردّاً یدحض رأیهم ویفند دعوتهم فی جواب بصیغة الاستفهام الإستنکاری: أتریدون منّا أن نشرک مع اللّه ما لا یملک لنا نفعاً فنعبده لذلک، ولا یملک لنا ضرراً فنخافه: «قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَایَنفَعُنَا وَلَا یَضُرُّنَا».

هذه الآیة تشیر إلی أنّ أفعال الإنسان تنشأ عادة عن دافعین، فهی إمّا أن تهدف إلی استجلاب منفعة وإمّا إلی دفع ضرر (مادیاً کان أم

معنوياً).

ثم يأتى باستدلال آخر على بطلان سلوك المشركين، فيقول: إذا عدنا إلى عبادة الأصنام، بعد الهداية الإلهية نكون قد رجعنا القهقرى، وهذا يناقض قانون التكامل الذى هو قانون حياتى عام: «وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَينَا اللَّهُ» «۱».

ثم يضرب مثلًا لتوضيح الأمر، فيقول: إنّ الرجوع عن التوحيد إلى الشرك أشبه بالذى أغوته الشياطين (أو غيلان البوادى التى كان عرب الجاهلية يعتقدون أنّها تكمن فى منعطفات الطرق وتغوى السابلة وتضلهم عن الطريق) فتاه عن مقصده وظل حيراناً فى الباديّة: «كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ» «۲». بينما له رفاق يرشدونه إلى

---

(۱) «أعقاب»: جمع «عقب» وهو مؤخر الرجل، ورجع على عقبه بمعنى انثنى راجعاً، وهو هنا كناية عن الانحراف عن الهدف، وهو ما يطلق عليه اليوم اسم «الرجعية».

(۲) «إستهوته»: من «الهوى وهو ميل النفس إلى الشهوة، واستهوته بمعنى حملته على إتباع الهوى و «الحيرة»: هى التردد فى الأمر، وفى الأصل: الجيئة والذهاب، فالآية تشير إلى الذين يذهبون من الإيمان إلى الشرك مستلهمين تحركاتهم من الشيطان.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۱

الصراط السوى المستقيم وينادونه: هلم إلينا، ولكنه من الحيرة والتيه بحيث لا- يسمع النداء، أو إنّه غير قادر على اتخاذ القرار: «لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا».

وفى الختام يؤمر النبى صلى الله عليه و آله أن يقول: إنّ الهداية من اللّه وليس لنا إلّاأن نسلم لأمر اللّه ربّ العالمين: «قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ».

وهذا دليل آخر على رفض دين المشركين، إذ التسليم لا يكون إلّالخالق الكون ومالكه وربّ عالم الوجود، لا الأصنام التى لا دور لها فى إيجاد هذا العالم وإدارته.

الآية التالية، تواصل شرح الدعوة الإلهية قائلة: إنّنا فضلًا عن التوحيد، فقد أمرنا بإقامة الصلاة وبتقوى اللّه: «وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوةَ وَاتَّقُوهُ».

وفى الختام يشار إلى المعاد وإلى أنّ الناس إلى اللّه يرجعون: «وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (۷۳) هذه الآية دليل على ما جاء فى الآية السابقة، وعلى ضرورة التسليم للّهوإتّباع رسوله، لذلك تقول: «وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ».

إنّ مبدأ عالم الوجود هو وحده الجدير بالعبادة، وهو وحده الذى يجب الخضوع والتسليم له، لأنّه خلق الأشياء لمقاصد حقّة.

ثم يقول: إنّه فضلًا عن كونه مبدع عالم الوجود، فإنّ يوم القيامة أيضاً يقوم بأمره، وإذا ما أصدر أمره بقيام ذلك اليوم فإنّه يتحقق فوراً: «وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ».

ثم يضيف: أنّ ما يقوله اللّه هو الحق، أى إنّه مثلما كان مبدأ الخلق ذا أهداف ونتائج ومصالح، كذلك سيكون يوم القيامة: «قَوْلُهُ الْحَقُّ».

وفى ذلك اليوم الذى ينفخ فيه فى الصور ويبعث الناس يوم القيامة، يكون الحكم والملك للّه: «وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ».

حكومة اللّه على عالم الوجود ومالكيته له قائمتان منذ بداية الخلق حتى نهايته وفى يوم

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۲

القيامة، ولا يختص ذلك بيوم القيامة وحده، لكن هناك عوامل وأسباباً تؤثّر فى مسار هذه الدنيا وتقدّمها نحو أهدافها، لذلك قد يغفل الإنسان أحياناً عن وجود اللّه وراء هذه الأسباب والعوامل، أمّا فى ذلك اليوم الذى تتعطل فيه جميع الأسباب والعوامل، فإنّ

حكومة اللّه ومالكيته تكونان أجلى وأوضح من أىّ وقت سابق.

وفى ختام الآيـة إشارة إلى ثلاث من صـفات اللّه تعالى، فهو: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ». أى إنّه بمقتضـى صـفة العلم المطلق عالم بأعمال عباده، وبمقتضى قدرته وحكمته يجازى كلًّا بما يستحقه.

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّی أَرَاکَ وَ قَوْمَکَ فِی ضَلَالٍ مُبِینٍ (۷۴) لمّا كانت هذه السورة تحارب الشرك وعبادة الأصنام تستخدم هنا حكاية إبراهيم.

يقول: إنّ إبراهيم وبّخ أباه (عمّه) قائلًا: أتختار هـذه الأصـنام الحقيرة التى لا حياة فيها آلهـة للعبادة: «وَإِذْ قَالَ إِبْرهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّى أَرَيكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَلٍ مُّبِينٍ».

وأىّ ضلال أشدّ وأوضح من أن يجعل الإنسان ما يخلقه بيده إلهاً يعبده، ويتخذ من كائن جامد لا روح فيه ولا إحساس ملجأ يفزع إليه ويبحث عن حلّ مشاكله عنده.

هل كان آزر أبا إبراهيم؟ تطلق كلمـة «الأب» فى العربيـة على الوالـد غالباً، ولكنها قـد تطلق أيضاً على الجد من جهة الام وعلى العم، وكذلك على المربى والمعلم والذين يساهمون بشكل ما فى تربية الإنسان.

وقد وردت فى القرآن كلمة «أب» بمعنى العم، كما فى الآية (۱۳۳) من سورة البقرة:

«قَالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ ءَابَائِكَ إِبْرهِيمَ وَإِسْمعِيلَ وَإِسْحقَ إِلهًا وَاحِدًا».

والضمير فى «قالوا» يعود على أبناء يعقوب وكان إسماعيل عم يعقوب لا أباه.

الطبرى ينقل فى تفسيره جامع البيان عن مجاهد قال: ليس آزر أبا إبراهيم.

وفى تفسير روح المعانى: أنّ آزر اسم عم إبراهيم، والعم والجد يسميان أبا مجازاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳

وَ كَذلِكَ نُرِی إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (۷۵) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هـذَا رَبِّی فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (۷۶) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هـذَا رَبِّی فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِی رَبِّی لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (۷۷) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هـذَا رَبِّی هـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّی بَرِیءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (۷۸) إِنِّی وَجَّهْتُ وَجْهِیَ لِلَّذِی فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۷۹) أدلة التوحيد فى السماوات: على أثر الكره الذى كان يحمله إبراهيم للأوثان وطلبه من آزر أن يترك عبادة الأصنام، تشير هذه الآيات إلى نضال إبراهيم المنطقى مع مختلف عبدة الأصنام، وتبين كيفية توصله إلى أصل التوحيد عن طريق الاستدلال العقلى الواضح. تبين أوّلًا أنّ اللّه كما عرّف إبراهيم على أضرار عبادة الأصنام عرّفه على مالكية اللّه وسلطته المطلقة على السماوات والأرض: «وَكَذلِكَ نُرِى إِبْرهِيمَ مَلَكُوتَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

«الملكوت»: من «ملك» بمعنى المالكية والحكم، فالمقصود من الكلمة هنا حكومة اللّه المطلقة على عالم الوجود برمّته.

وكما أنّه فى الختام يقول: إنّ الهدف من ذلك هو أن يصبح إبراهيم من أهل اليقين «وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ».

لا شك أنّ إبراهيم كان موقناً يقيناً استدلالياً وفطرياً بواحدانية اللّه، ولكنه بدراسة أسرار الخلق بلغ يقينه حدّ الكمال.

الآيـات التاليـة تشرح هـذا المعنى، وتبين اسـتدلال إبراهيم من افول الكواكب والشـمس على عـدم الوهيتها، فعنـدما غطّى سـتار الليل المظلم العالم كله، ظهر أمام بصره كوكب لامع، فنادى إبراهيم: هذا ربى! ولكنه إذ رآه يغرب، قال: لا أحب الذين يغربون: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَاأُحِبُّ الْأَفِلِينَ».

ومرّة اخرى رفع عينيه إلى السـماء فلاح له قرص القمر الفضّى ذو الإشـعاع واللمعان الجذاب على أديم السـماء، فصاح ثانية: هذا ربى: ولكن مصير القمر لم يكن بأفضل من مصير الكوكب قبله، فقد أخفى وجهه خلف طيّات الافق.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴

هنا قال إبراهيم: إذا لم يرشدنى ربى إلى الطريق الموصل إليه فسأكون فى عداد التائهين «فَلَمَّا رءَا الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هـذَا رَبّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالّينَ». عند ذاك كان الليل قد انقضى، وراح يجمع أطراف أستاره المظلمة هارباً من كبد السماء، بينما راحت الشمس تطل من المشرق وتلقى بأشعتها الجميلة كنسيج ذهبى تنشره على الجبل والوادى والصحراء، وما أن وقعت عين إبراهيم الباحث عن الحقيقة على قرص الشمس الساطع صاح: هذا ربّى فإنّه أكبر وأقوى ضوءاً، ولكنه إذ رآها كذلك تغرب وتختفى فى جوف الليل البهيم أعلن إبراهيم قراره النهائى قائلًا: يا قوم! لقد سئمت كل هذه المعبودات المصطنعة التى تجعلونها شريكة للّه: «فَلَمَّا رءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هذَا رَبّى هذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ».

الآن بعد أن عرفت أنّ وراء هذه المخلوقات المتغيرة المحدودة الخاضعة لقوانين الطبيعة إلهاً قادراً وحاكماً على نظام الكائنات، فانّى أتجه إلى الذى خلق السماوات والأرض، وفى إيمانى هذا لن أشرك به أحداً، فإنّى موحد ولست مشركاً: «إِنّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذى فَطَرَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

إنّ تفسير هذه الآية والآيات التالية بشأن ما دفع بإبراهيم الموحد العابد للّهالواحد، أن يشير إلى كوكب فى السماء ويقول: هذا ربّى؟ فإنّه عندما يقول: «هـذَا رَبّى» لا يقولها قاطعاً جازماً، بل يقولها من باب الفرض والاحتمال حتى يفكّر فى الأمر. أو أنّه قال «هـذَا رَبّى» تعنى: هذا ما تعتقدون أنّه ربى.

وَ حاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَ تُحاجُّونِّى فِى اللَّهِ وَ قَدْ هَدانِ وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّى شَيْئاً وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَ كَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَ لا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵

تشير هذه الآيات إلى ما دار بين إبراهيم والأقوام المشركة من عبدة الأصنام، الذين بدأوه بالمحاجة «وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ».

فردّ عليهم إبراهيم عليه السلام قائلًا: لماذا تجادلوننى فى اللّه الواحد الأحد وتخالفوننى فيه، وهو الذى وهبنى من الدلائل المنطقية الساطعة ما هدانى به إلى طريق التوحيد «قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللَّهِ وَقَدْ هَدَينِ».

يتّضح فى هذه الآية بجلاء أنّ قوم إبراهيم المشركين من عبدة الأصنام كانوا يحاولون جهدهم وبأىّ ثمن أن يبعدوا إبراهيم عن عقيدته، قد حذّروه وهددوه بغضب آلهتهم وعقابها فى محاولة لإرعابه وإخافته، لأنّنا على أثر ذلك نسمع إبراهيم يستهين بتهديدهم ويؤكد لهم أنّه لا يخشى أصنامهم التى لا حول لها ولا قوة فى إيصال أىّ أذى إليه «وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ...» فما من أحد ولا من شيء بقادر على أن يلحق بى ضرراً إلّاإذا شاء اللّه:

«إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبّى شَيًا».

يظهر من هذه الآية أنّ إبراهيم عليه السلام سعى لإتخاذ إجراء وقائى تجاه حوادث محتملة، فيؤكّد أنّه إذا أصابه فى هذا الصراع شيء- فرضاً- فلن يكون لذلك أىّ علاقة بالأصنام، بل يعود إلى إرادة اللّه.

ويضيف إلى ذلك مبيّناً أنّ ربّه على درجة من سعة العلم بحيث يسع علمه كل شيء:

«وَسِعَ رَبّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا».

ثم يحرّك فيهم روح البحث والتفكير فيخاطبهم قائلًا: «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ».

فى الآية التالية ينهج إبراهيم منطقاً استدلالياً آخر، فيقول لعبدة الأصنام: كيف يمكننى أن أخشى الأصنام ويستولى علىّ الخوف من تهديدكم، مع إنّى لا أرى فى أصنامكم أثراً للعقل والإدراك والشعور والقوة والعلم، أمّا أنتم فعلى الرغم من إيمانكم بوجود اللّه وإقراركم له بالعلم والقدرة، ومعرفتكم بأنّه لم يأمركم بعبادة هذه الأصنام، فانّكم لا تخافون غضبه:

«وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا» «۱».

كونوا منصفين إذن وقولوا:

«فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

---

(۱) «السلطان»: بمعنى التفوّق والإنتصار، ولمّا كان الدليل والبرهان من أسباب الفوز والإنتصار، فقد يوصفان بالسلطان أيضاً، كما هو الحال هنا، أى لا وجود لأىّدليل على السماح.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶

يستند منطق إبراهيم عليه السلام هنا إلى منطق العقل القائم على الواقع، إنّكم تهددوننى بغضب الأصنام، مع أنّ تأثيرها وهمٌ من الأوهام، ولكنّكم بعدم خشيتكم من اللّه العظيم الذى نؤمن به جميعاً، ونعتقد بوجوب اتباع أمره تكونون قد تركتم أمراً ثابتاً، وتمسكتم بأمر وهمى، ولم يصدر اللّه تعالى إلينا أمراً بعبادة الأصنام.

فى الآية التالية جواب يدلى به إبراهيم على سؤال كان هو قد ألقاه فى الآية السابقة (وهذا أسلوب من أساليب الاستدلال العلمى، فقد يسأل المتكلم سؤالًا عن لسان المخاطب ثم يبادر إلى الإجابة عليه مباشرة كدليل على أنّ الجواب من الوضوح بحيث ينبغى أن يعرفه كل شخص). يقول: إنّ المؤمنين الذين لم يمزجوا إيمانهم بظلم، هم الآمنون وهم المهتدون «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ».

الآية التالية فيها إشارة إجمالية لما مضى من بحث بشأن التوحيد ومجابهة الشرك كما جاء على لسان إبراهيم، فتقول: «وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنهَا إِبْرهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ».

ثم تقول الآية: «نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ». ولكيلا يخامر بعضهم الشك فى أنّ اللّه يحابى فى إعطاء الدرجات لمن يشاء، تقول: إنّ اللّه متصف بالحكمة وبالعلم، فلا يمكن أن يرفع درجة من لا يستحق ذلك: «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ».

وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَ نُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (۸۴) وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى وَ إِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (۸۵) وَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً وَ كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (۸۶) وَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۸۷) فى هذه الآيات إشارة إلى النعم التى اسبغها اللّه على إبراهيم، وهى تتمثل فى أبناء صالحين وذرية لائقة، وهى من النعم الإلهية العظيمة. يقول سبحانه: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحقَ وَيَعْقُوبَ».

ثم يبيّن أنّ مكانة هذين لم تكن لمجرد كونهما ولدى نبى، بل لإشعاع نور الهداية فى قلبيهما نتيجة التفكير السليم والعمل الصالح: «كُلًّا هَدَيْنَا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷

ثم لكيلا يتصور أحد أنّه لم يكن هناك من يحمل لواء التوحيد قبل إبراهيم، وأنّ التوحيد بدأ بإبراهيم، يقول: «وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ».

فالإشارة إلى مكانة نوح، وهو من أجداد إبراهيم، والإشارة إلى فريق من الأنبياء من أبنائه وقبيلته، إنّما هى توكيد لمكانة إبراهيم المتميزة من حيث «الوراثة والأصل» و «الذرية».

وعلى أثر ذلك ترد أسماء عدد من الأنبياء من اسرة إبراهيم: «وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهرُونَ». ثم يبيّن أنّ منزلة هؤلاء ناشئة من أعمالهم الصالحة وهم لذلك ينالون جزاءهم: «وَكَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ».

فى الآية الثانية يرد ذكر زكريّا ويحيى وعيسى والياس على أنّهم جميعاً كانوا من الصالحين. أى إنّ مكانتهم المرموقة ليست من باب المجاملة الإجبارية، بل هى بسبب أعمالهم الصالحة فى سبيل اللّه: «وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ».

الآية الثالثة تذكر أربعة آخرين من الأنبياء والقادة الإلهيين، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط الذين رفعهم ربهم درجات على أهل زمانهم: «وَإِسْمعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ».

وفى الآية الأخيرة إشارة عامة إلى آباء الأنبياء المذكورين وأبنائهم وإخوانهم ممن لم ترد أسماؤهم بالتفصيل وهم جميعاً من الصالحين الذين هداهم اللّه: «وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم».

ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۸۸) أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (۸۹) أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (۹۰) ثلاثة إمتيازات مهمة: بعد ذكر مجموعات الأنبياء فى الآيات السابقة، تتناول هذه الآيات الخطوط العامة لحياتهم، وتبدأ القول: «ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».

ولكيلا يحسب البعض أنّ هؤلاء قد أجبروا على السير فى هذا الطريق، أو يظن أنّ اللّه

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸

ينظر إلى هؤلاء نظرة خاصة وإستثنائية دونما سبب، يقول القرآن عنهم: «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ». فهم إذن مشمولون بهذا القانون الإلهى الذى يسرى على غيرهم بغير محاباة.

الآية التالية تشير إلى ثلاثة إمتيازات مهمة هى أساس جميع إمتيازات الأنبياء، وهى قوله: «أُولئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ».

إنّ الحكم أصلًا هو المنع، ومن ذلك العقل الذى يمنع من وقوع الأخطاء والمخالفات، وكذلك القضاء الصحيح يمنع من وقوع الظلم، والحكومة العادلة تقف بوجه الحكومات غير العادلة، فهى قد استعملت فى المعانى الثلاثة.

ثم يقول: لئن رفضت هذه الجماعة (أى المشركون وأهل مكة) تلك الحقائق، فإنّ دعوتك لن تبقى بغير إستجابة، إذ إنّنا قد أمرنا جمعاً آخر، لا بقبولها فحسب، بل وبالحفاظ عليها فهم لا يسلكون طريق الكفر أبداً، بل يتبعون الحق: «فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ».

جاء فى تفسير المنار وتفسير روح المعانى عن بعض المفسرين أنّ المقصود بالقوم هم الفرس، وقد أسرعوا فى قبول الإسلام وجاهدوا فى سبيل نشره، وظهر فيهم العلماء فى شتى العلوم والفنون الإسلامية وألّفوا الكثير من الكتب.

الآية الأخيرة تجعل من منهاج هؤلاء الأنبياء العظام قدوة رفيعة للهداية تعرض على رسول الخاتم صلى الله عليه و آله فتقول له: «أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَيهُمُ اقْتَدِهْ».

تؤكد هذه الآية مرّة اخرى على أنّ اصول الدعوة التى قام بها الأنبياء واحدة.

إنّ للهداية معنى واسعاً يشمل التوحيد وسائر الاصول العقائدية، كما يشمل الصبر والثبات وسائر الاصول الأخلاقية والتربوية.

ثم يؤمر النبى صلى الله عليه و آله أن يقول للناس إنّه مثل سائر الأنبياء لا يتقاضى أجراً لقاء عملية تبليغ الرسالة: «قُل لَّاأَسَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا».

ثم إنّ هذا القرآن وهذه الرسالة والهداية إن هى إلّاإيقاظ وتوعية للناس جميعاً: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ».

إنّ النعم العامة الشاملة مثل نور الشمس والهواء والأمطار هى امور عامة وعالمية، لا تباع ولا تشترى، ولا أجر يعطى لقاءها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹

وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَ هُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَ تُخْفُونَ كَثِيراً وَ عُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (۹۱)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان عن ابن عباس: إنّ الیهود قالت یا محمّد! أنزل اللّه علیک کتاباً؟

قال: «نعم». قالوا: واللّه ما أنزل اللّه من السماء کتاباً.

التّفسیر

یبدو من سبب النزول وسیاق الآیة انّها بشأن الیهود لا المشرکین، لذلک یری بعضهم أنّ هذه الآیة قد نزلت فی المدینة، إلّاأنّها وضعت فی هذه السورة المکیة بأمر من رسول اللّه صلی الله علیه و آله ولهذا فی القرآن ما یشابهه. فی البدایة تقول الآیة: إنّهم لم یعرفوا اللّه معرفة صحیحة وأنکروا نزول کتاب سماوی علی أحد: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَی بَشَرٍ مِّن شَیْءٍ».

فیأمر اللّه رسوله أن «قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْکِتَابَ الَّذِی جَاءَ بِهِ مُوسَی نُورًا وَهُدًی لِّلنَّاسِ».

ذلک الکتاب الذی جعلتموه صحائف متناثرة، تظهرون منه ما ینفعکم وتخفون ما تظنونه یضرّکم: «تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِیسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ کَثِیرًا».

إنّکم تتعلمون من هذا الکتاب السماوی اموراً کثیرة لم تکونوا أنتم ولا- أباؤکم تعلمون عنها شیئاً: «وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا ءَابَاؤُکُمْ».

وفی ختام الآیة یؤمر النبی صلی الله علیه و آله أن یذکر اللّه وأن یترک اولئک فی أباطیلهم وعنادهم ولعبهم: «قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِی خَوْضِهِمْ یَلْعَبُونَ».

وَ هذَا کِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَکٌ مُصَدِّقُ الَّذِی بَیْنَ یَدَیْهِ وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَی وَ مَنْ حَوْلَهَا وَ الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلَی صَلَاتِهِمْ یُحَافِظُونَ (۹۲) تعقیباً علی البحث الذی دار فی الآیات السابقة حول کتاب الیهود السماوی، تشیر هذه الآیة إلی القرآن باعتباره کتاباً سماویاً آخر، والواقع أنّ ذکر التوراة مقدمة لذکر القرآن لإزالة کل عجب وتخوّف من نزول کتاب سماوی علی فرد من البشر، فتبدأ بالقول: «وَهذَا کِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ». وهو کتاب «مبارک» لأنّه مصدر کل خیر وبرکة وصلاح وتقدم، ثم إنّه یؤکد

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰

الکتب التی نزلت قبله: «مُّصَدِّقُ الَّذِی بَیْنَ یَدَیْهِ». والمقصود من أنّ القرآن یصدّق الکتب التی بین یدیه، هو أنّ جمیع الإشارات والإمارات التی وردت فیها تنطبق علیه. وبناءاً علی ذلک فصدق القرآن یتجلی فی محتواه من جهة، وفی المستندات التاریخیة من جهة اخری.

ثم یبیّن القرآن هدف نزوله وهو توجیه الإنذار والتحذیر لُامّ القری (مکة) والساکنین حولها وتنبیههم إلی مسؤولیاتهم وواجباتهم: «وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَی وَمَنْ حَوْلَهَا».

وفی الختام تقرر الآیة أنّ الذین یعتقدون بیوم القیامة، یوم الحساب والجزاء، سیصدّقون بهذا الکتاب، ویؤدّون فریضة الصلاة ولا یفرّطون فیها: «وَالَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَی صَلَاتِهِمْ یُحَافِظُونَ».

إنّ الیابسة قد انتشرت من تحت الکعبة وهو ما أطلق علیه اسم «دحو الأرض».

«ومن حولها» أی جمیع الناس الذین یسکنون الأرض برمّتها.

نلاحظ فی هذه الآیة أنّها تشیر إلی الصلاة من بین جمیع الفرائض الدینیة، ونعلم أنّ الصلاة هی مظهر الإرتباط باللّه، ولذلک کانت أرفع من جمیع العبادات منزلة، ویری بعضهم أنّه عند نزول هذه الآیة کانت العبادة الوحیدة المفروضة حتی ذلک الوقت هی الصلاة.

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَی عَلَی اللَّهِ کَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِیَ إِلَیَّ وَ لَمْ یُوحَ إِلَیْهِ شَیْءٌ وَ مَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَوْ تَرَی إِذِ الظَّالِمُونَ فِی غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلَائِکَةُ بَاسِطُوا أَیْدِیهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَکُمُ الْیَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا کُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَی اللَّهِ غَیْرَ الْحَقِّ وَ کُنْتُمْ عَنْ آیَاتِهِ تَسْتَکْبِرُونَ (۹۳)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: اختلفوا فیمن نزلت هذه الآیة، فقیل: نزلت فی مسیلمة، حیث ادّعی النبوة إلی قوله «وَلَمْ یُوحَ إِلَیْهِ شَیْءٌ» وقوله «سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ» فی عبد اللّه بن سعد بن أبی سرح، فإنّه کان یکتب الوحی للنبی علیه السلام فکان إذا قال له اکتب علیماً حکیماً، کتب غفوراً رحیماً، وإذا قال له اکتب غفوراً رحیماً کتب علیماً حکیماً، وارتدّ ولحق بمکة، وقال إنّی مثل ما أنزل اللّه.

هذه الآیة، مثل سائر آیات القرآن، نزلت فی ظروف خاصة، وهی ذات محتوی عام یشمل کل من إدّعی النبوة وأمثالهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱

التّفسیر

فی الآیات السابقة مرّت الإشارة إلی مزاعم الیهود الذین أنکروا نزول أی کتاب سماوی علی أحد، وفی هذه الآیة یدور الکلام علی اشخاص آخرین یقفون علی الطرف المعاکس تماماً لأولئک، فیزعمون کذباً أنّ الوحی ینزل علیهم.

وتتناول الآیة ثلاث جماعات من هؤلاء بالبحث، ففی البدایة تقول: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَی عَلَی اللَّهِ کَذِبًا».

والجماعة الثانیة هم الذین یدّعون النبوّة ونزول الوحی علیهم، فلا هم أنبیاء، ولا نزل علیهم وحی: «أَوْ قَالَ أُوحِیَ إِلَیَّ وَلَمْ یُوحَ إِلَیْهِ شَیْءٌ».

والجماعة الثالثة هم الذین أنکروا نبوّة نبی الخاتم صلی الله علیه و آله أو زعموا ساخرین أنّهم یستطیعون أن یأتوا بمثل آیات القرآن، وهم فی ذلک کاذبون ولا قدرة لهم علی ذلک: «وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ».

نعم، هؤلاء کلهم ظالمون، بل أظلم الظالمین، فهم ضالون مضلون، فمن أظلم ممن یدّعی لنفسه القیادة الإلهیة ولیست لدیه صلاحیة مثل هذا المقام.

ثم تبیّن العقاب الألیم الذی ینتظر أمثال هؤلاء فتقول: «وَلَوْ تَرَی إِذِ الظَّالِمُونَ فِی غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَکَةُ بَاسِطُوا أَیْدِیهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَکُمُ» «۱». أی لو أنّک- أیها النبی- رأیت هؤلاء الظالمین وهم یمرون بشدائد الموت والنزع الأخیر، وملائکة قبض الأرواح مادّین أیدیهم نحوهم ویقولون لهم: هیّا أخرجوا أرواحکم، لأدرکت العذاب الذی ینزل بهم.

عندئذٍ تخبرهم ملائکة العذاب بأنّهم سینالون الیوم عذاباً مذلّاً لأمرین: الأوّل: إنّهم کذبوا علی اللّه، والآخر، إنّهم لم ینصاعوا لآیاته: «الْیَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا کُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَی اللَّهِ غَیْرَ الْحَقّ وَکُنتُمْ عَنْ ءَایَاتِهِ تَسْتَکْبِرُونَ». «أَخْرِجُوا أَنفُسَکُمُ» تعنی فی الواقع ضرباً من التحقیر تبدیه الملائکة نحو هؤلاء الظالمین، وإلّا فإنّ إخراج الروح لیس من عمل هؤلاء، بل هو من واجب الملائکة.

---

(۱) «الغمرات»: جمع غمرة (علی وزن ضربة)، و أصل الغمر إزالة أثر الشیء، ثم استعملت للماء الکثیر الذی یستر وجه الشیء تماماً، کما تطلق علی الشدائد والصعاب التی تغمر المرء.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲

وَ لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَی کَمَا خَلَقْنَاکُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ تَرَکْتُمْ مَا خَوَّلْنَاکُمْ وَرَاءَ ظُهُورِکُمْ وَ مَا نَرَی مَعَکُمْ شُفَعَاءَکُمُ الَّذِینَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِیکُمْ شُرَکَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَیْنَکُمْ وَ ضَلَّ عَنْکُمْ مَا کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۹۴)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: نزلت فی النضر بن الحرث بن کلدة، حین قال: سوف یشفع لی اللات والعزی.

التّفسیر

الضّالون: أشارت الآیة السابقة إلی أحوال الظالمین وهم علی شفا الموت، وتنطلق هذه الآیة لتتحدث عن خطاب اللّه لهم عند الموت أو عند الورود إلی ساحة یوم القیامة، فتبدأ الآیة بالقول بأنّهم یأتون یوم القیامة منفردین کما خلقوا منفردین: «وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَی کَمَا خَلَقْنَاکُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

والأموال التى وهبناها لكم وكنتم تستندون إليها فى حياتكم، قد خلّفتموها وراءكم، وجئتم صفر الأيدى: «وَتَرَكْتُم مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ» (۱).

ولا نرى معكم تلك الأصنام التى قلتم إنّها سوف تشفع لكم وظننتم أنّها شريكة فى تعيين مصائركم «وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكؤُا».

ولكن الواقع أنّ جمعكم قد تبدد، وتقطعت جميع الروابط بينكم: «لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ».

وكل ما ظننتموه وما كنتم تستندون إليه قد تلاشى وضاع: «وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ».

كان المشركون العرب يستندون فى حياتهم إلى أشياء ثلاثة: القبيلة أو العشيرة التى كانوا ينتمون إليها، والأموال التى جمعوها لأنفسهم، والأصنام التى اعتبروها شريكة للّهفى تقرير مصير الإنسان وشفيعة لهم عند اللّه، والآية فى كل جملة من جملها الثلاث تشير إلى واحدة من هذه الامور، وإلى أنّها عند الموت تودعه وتتركه وحيداً فريداً.

---

(۱) «خوّلناكم»: من «الخول» وهو إعطاء ما يحتاج إلى التعهد والتدبير والإدارة، وهو النعم التى يسبغها اللّه تعالى على عباده.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳

ففى ذلك اليوم تنفصم العرى وتنفصل عن البشر كل الإنشدادات المادية والمعبودات الخيالية المصطنعة وجميع ما اصطنعوه لأنفسهم فى الحياة الدنيا ليكون سنداً لهم يستعينون به فى يوم بؤسهم حيث لا يبقى سوى الشخص وعمله، ويزول كل ما عدا ذلك، أو يضل عنهم بحسب تعبير القرآن، وهو تعبير جميل يوحى بأنّ الشركاء سيكونون إلى درجة من الصغر والحقارة والضياع بحيث إنّهم لا يُروا بالعين.

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۹۵) فَالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۹۶) مرّة اخرى يوجه القرآن الخطاب إلى المشركين، ويشرح لهم دلائل التوحيد فى عبارات جذّابة وفى نماذج حيّة من أسرار الكون ونظام الخلق وعجائبه.

فى الآية الاولى يشير إلى ثلاثة أنواع من عجائب الأرض، وفى الآية الثانية يشير إلى ثلاثة من الظواهر السماوية. يقول القرآن الكريم أوّلًا: «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى .

«الفلق»: شقّ الشىء وإبانة بعضه عن بعض. و «الحب» و «الحبة»: تقال لأنواع الحبوب الغذائية كالحنطة والشعير ونحوهما من المطعومات التى تحصد، كما يقال ذلك لبروز الرياحين أيضاً. و «النوى»: من النّواة.

وممّا يلفت الإنتباه أنّ الحبّة والنّواة غالباً ما تكونان صلبتين، فنظرة إلى نوى التمر والخوخ وأمثالهما، وإلى بعض الحبوب الصلبة، تكشف لنا أنّ تلك النطفة الحياتية التى هى فى الواقع صغيرة، محصنة بقلعة مستحكمة تحيط بها من كل جانب، وأنّ يد الخالق قد أعطت لهذه القلعة العصية على الإختراق خاصية التسليم والليونة أمام إختراق نطفة النبات، كما منحت النطفة قوة إندفاع تُمكّنها من فلق جدران قلعتها فتطلع النبتة بقامتها المديدة، هذه حقّاً حادثة عجيبة فى عالم النبات لذلك يشير إليها القرآن على أنّها من دلائل التوحيد.

ثم يقول: «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيّتِ مِنَ الْحَيّ».

إنّ موضوع الحياة والموت بالنسبة للكائنات الحيّة من أعقد المسائل التى لم تستطيع العلوم البشرية الوصول إلى كنه حقيقتها ورفع الستار عن أسرارها لتخطو إلى أعماق

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴

مجهولاتها، ولتعرف كيف يمكن لعناصر الطبيعة وموادها الجامدة أن تطفر طفرة عظيمة فتتحوّل إلى كائنات حيّة. لذلك نجد القرآن-

وفی معرض إثبات وجود اللَّه- کثیراً ما یکرر هذا الموضوع، کما یستدل أنبیاء عظام کإبراهیم وموسی، علی وجود مبدأ قادر حکیم بمسألة الحیاة والموت لإقناع جبابرة طغاة مثل نمرود وفرعون.

وفی ختام الآیة توکید للموضوع: «ذلِکُمُ اللَّهُ فَأَنَّی تُؤْفَکُونَ». أی هذا هو ربّکم وهذه هی قدرته وعلمه اللامتناهی، فکیف بعد هذا تنحرفون عن الحق وتمیلون إلی الباطل.

فی الآیة الثانیة یشیر القرآن إلی ثلاث نعم سماویة: فیقول أوّلًا: «فَالِقُ الْإِصْبَاحِ».

کثیراً ما یشیر القرآن إلی نعمتی النّور والظلام واللیل والنهار، ولکنّه هنا یتناول «طلوع الصبح» کنعمة من نعم اللَّه الکبری، فنحن نعرف أنّ هذه الظاهرة تحدث لوجود جوّ الأرض، ذلک الغلاف الضخم من الهواء الذی یحیط بالأرض، فلو کانت الأرض- مثل القمر- عدیمة الجو، لما کان هناک «طلوعان» ولا «فلق» ولا «إصباح» ولا «غسق» ولا «شفق» غیر أنّ الجو الموجود حول الأرض والمؤدّی إلی حصول فترة فاصلة بین ظلام اللیل وضیاء النهار عند طلوع الشمس وغروبها یهیّیء الإنسان تدریجیاً لتقبّل هذین الاختلافین المتضادین والإنتقال من الظلمة إلی النور، ومن النور إلی الظلمة، شیئاً فشیئاً، بحیث إنّه یستطیع أن یتحمّل کل منهما.

ولکیلا یظن أحد أنّ فلق الصبح دلیل علی أنّ ظلال اللیل أمر غیر مطلوب وأنّه عقاب أو سلب نعمة، یبادر القرآن إلی القول: «وَجَعَلَ اللَّیْلَ سَکَنًا».

من الامور المسلم بها أنّ الإنسان یمیل خلال انتشار النور والضیاء إلی العمل وبذل الجهد، ویتّجه الدم نحو سطح الجسم وتتهیّأ العضلات للفعالیة والنشاط، ولذلک لا یکون النوم فی الضوء مریحاً، بل یکون أعمق وأکثر راحة کلّما کان الظلام أشد، حیث یتّجه الدم فیه نحو الداخل، وتدخل الخلایا عموماً فی نوع من السکون والراحة، لذلک نجد فی الطبیعة أنّ النوم فی اللیل لا یقتصر علی الحیوانات فقط، بل إنّ النباتات تنام فی اللیل أیضاً، وعند بزوغ خیوط الصباح الأولی تشرع بفعالیتها ونشاطها، بعکس الإنسان فی هذا العصر الآلی، فهو یبقی مستیقظاً إلی ما بعد منتصف اللیل، ثم یظل نائماً حتی بعد ساعات من طلوع الشمس، فیفقد بذلک نشاطه وسلامته.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۵۵

ثم یشیر اللَّه تعالی إلی الثالثة من نعمه ودلائل عظمته بجعل الشمس والقمر وسیلة للحساب: «وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا».

إنّه لموضوع مهم جدّاً أن تکون الأرض منذ ملایین السنین تدور حول الشمس، والقمر یدور حول الأرض، أنّ حساب هذا الدوران من الدقّة والضبط بحیث إنّه لا یتقدّم ولا یتأخر لحظة واحدة.

وهذا ما لا یمکن أن یکون إلّافی ظل علم وقدرة لا نهائیتین یضعان تخطیطه وینفذانه بدقة، لذلک تنتهی الآیة بقولها: «ذلِکَ تَقْدِیرُ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ».

بعد شرح نظام دوران الشمس والقمر فی الآیة السابقة، تشیر هذه الآیة إلی نعمة اخری من نعم اللَّه علی البشر، فجعل النجوم لیهتدی بها الانسان فی لیالی البر والبحر: «وَهُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِی ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ».

وتختتم الآیة بالقول بأنّ اللَّه قد بیّن آیاته لأهل الفکر والفهم والإدراک: «قَدْ فَصَّلْنَا الْأَیَاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ».

منذ آلاف السنین والإنسان یعرف النجوم فی السماء ونظامها، بحیث کانت له هذه النجوم خیر وسیلة لمعرفة الإتجاه فی الأسفار البریة والبحریة، وعلی الأخص فی المحیطات الواسعة التی کانت تخلو من کل إمارة تشیر إلی الإتجاه قبل إختراع الإسطرلاب.

إنّ النجوم هی التی هدت ملایین البشر وأنقذتهم من الغرق وأوصلتهم إلی برّ السلامة.

وَ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَکُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآیَاتِ لِقَوْمٍ یَفْقَهُونَ (٩٨) وَ هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ کُلِّ شَیْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاکِبًا وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِیَةٌ وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَ الزَّیْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَ غَیْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَی ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ یَنْعِهِ إِنَّ فِی ذلِکُمْ لَآیَاتٍ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (٩٩)

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۶

هاتان الآيتان تتابعان دلائل التوحيد ومعرفة اللَّه، وللوصول إلى هذا الهدف يأخذ القرآن بيد الإنسان ويسيح به فى آفاق العالم البعيدة وقد يسير به فى داخل ذاته ويبيّن له آثار اللَّه فى جسمه وروحه، فيتيح له أن يرى اللَّه فى كل مكان. فيبدأ بالقول: «وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ». أى إنّكم، على اختلاف ملامحكم وأذواقكم وأفكاركم والتباين الكبير فى مختلف جوانب حياتكم، قد خلقتم من فرد واحد، وهذا دليل على منتهى عظمة الخالق وقدرته التى أوجدت من المثال الأوّل كل هذه الوجوه المتباينة.

ثم يقول: إنّ فريقاً من البشر «مستقر» وفريقاً آخر «مستودع» «فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ».

«المستقر»: أصله من «القُر» (بضم القاف) بمعنى البرد، ويقتضى السكون والتوقف عن الحركة، فمعنى «مستقر» هو الثابت المكين.

و «مستودع»: من «ودع» بمعنى ترك، كما تستعمل بمعنى غير المستقر، والوديعة هى التى يجب أن تترك عند من أودعت عنده لتعود إلى صاحبها.

يتّضح من هذا الكلام أنّ الآية تعنى أنّ الناس بعض «مستقر» أى ثابت، وبعض «مستودع» أى غير ثابت. يحتمل أن يكون هذان التعبيران إشارة إلى الجزئين الأولين فى تركيب نطفة الإنسان، إنّ النطفة تتركب من جزئين: الأوّل هو «البويضة» من الانثى، والثانى هو «الحيمن» أو «المنى» من الذكر، فالبويضة فى رحم الانثى تكاد تكون مستقر ولكن حيمن الذكر حيوان حى يتحرك بسرعة نحوها، وما أن يصل أوّل حيمن إلى البويضة حتى يمتزج بها و «يخصبها» ويصد (الحيامن) الاخرى، ومن هذين الجزئين تتكون بذرة الإنسان الأولى

وفى ختام الآية يعود فيقول: «قَدْ فَصَّلْنَا الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ».

الآية الثانية هى آخر آية فى هذه المجموعة التى تكشف لنا عن عجائب عالم الخلق وتهدينا إلى معرفة اللَّه بمعرفة مخلوقاته. فى البداية تشير الآية إلى واحدة من أهم نعم اللَّه التى يمكن أن تعتبر النعمة الام وأصل النعم الاخرى، وهى ظهور النباتات ونموها بفضل النعمة التى نزلت من السماء: «وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً».

وإنّما قال (من السماء) لأنّ سماء كل شىء أعلاه، فكل ما فى الأرض من مياه العيون والآبار والأنهار والقنوات وغيرها منشؤها الأمطار من السماء، وقلّة الأمطار تؤثّر فى كمية المياه فى تلك المصادر كلها، وإذا استمر الجفاف جفّت تلك المنابع، أيضاً.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۷

ثم تشير إلى أثر نزول الأمطار البارز: «فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ».

المقصود من «نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ» هو كل أنواع النباتات وأصنافها التى تسقى من ماء واحد، وتنبت فى أرض واحدة وتتغذّى من تربة واحدة، وأنّه لمن العجيب أنّ اللَّه تعالى يخرج من أرض واحدة وماء واحد الغذاء الذى يحتاجه كل هؤلاء.

والأعجب من كل هذا أنّ نباتات الصحراء واليابسة ليست وحدها التى تنمو ببركة ماء المطر، بل إنّ النباتات المائية الصغيرة التى تطفو على سطح البحر وتكون غذاء للأسماك تنمو بأشعة الشمس وقطرات المطر.

ثم تشرح الآية ذلك وتضرب مثلًا ببعض النباتات التى تنمو بفضل الماء، فتذكر أنّ اللَّه يخرج بالماء سيقان النباتات الخضر من الأرض، ومن تلك الحبّة الصلبة يخلق الساق الأخضر الطرى اللطيف الجميل بشكل يعجب الناظرين: «فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا» «۱».

ومن ذلك الساق الأخضر أخرجناالحبّ متراصفاً منظماً: «نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا» «۲».

وكذلك بالماء نخرج من النخل طلعاً مغلقاً، ثم يتشقق فتخرج الاعذاق بخيوطها الرفيعة الجميلة تحمل حبّات التمر، فتتدلى من ثقلها: «وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ».

«الطلع»: هو عذق التمر قبل أن ينفتح غلافه الأخضر، وإذ ينفتح الطلع تخرج منه أغصان العذق الرفيعة، وهى القنوان ومفردها قنو. و «دانية»: أى قريبة، وقد يكون ذلك إشارة إلى قرب أغصان العذق من بعضها، أو إلى أنّها تميل نحو الأرض لثقلها.

وكذلك بساتين فيها أنواع الأثمار والفواكه: «وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ».

ثم تشير الآية إلى واحدة اخرى من روائع الخلق فى هذه الأشجار والأثمار، فتقول:

«مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ».

إنّ شجرتى الرمان والزيتون متشابهتان من حيث الشكل الخارجى وتكوين الأغصان وهيئة الأوراق تشابهاً كبيراً، مع أنّهما من حيث الثمر وطعمه وفوائده مختلفتان، ففى الزيتون مادة زيتية قوية الأثر، وفى الرمان مادة حامضية أو سكرية، فهما متباينان تماماً، ومع ذلك فقد تزرع الشجرتان فى أرض واحدة، وتشربان من ماء واحد، فهما متشابهتان وغير متشابهتين فى آن واحد.

---

(١) كلمة «أخضر» تشمل كل أخضر فى النبات، حتّى براعم الأشجار، ولكن بما إنّها متبوعة مباشرة بالحب المتراكب فالمقصود فى الآية هو زراعة الحبوب.

(٢) «المتراكب»: من الركوب وما ركب بعضه بعضاً، وأكثر الحبوب بهذا الشكل.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥٨

ثم تركّز الآية من بين مجموع اجزاء الشجرة، على ثمرة الشجرة وعلى تركيب الثمرة إذا أثمرت، وكذلك على نضج الثمرة إذا نضجت، ففيها دلائل واضحة على قدرة اللّه وحكمته للمؤمنين من الناس: «انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

ما نقرؤه اليوم فى علم النبات عن كيفية طلوع الثمرة ونضجها يكشف لنا عن الأهمية الخاصة التى يوليها القرآن للأثمار، إذ إنّ ظهور الثمرة فى عالم النبات أشبه بولادة الأبناء فى عالم الحيوان، فنطفة الذكر فى النبات تخرج من أكياس خاصة بطرق مختلفة (كالرياح أو الحيوانات) وتحط على القسم الانثوى فى النبات، وبعد التلقيح والتركيب تتشكل البيضة الملقحة الاولى، وتحيط بها مواد غذائية مشابهة لتركيبها، وهذه المواد الغذائية تختلف من حيث التركيب وكذلك من حيث الطعم والخواص الغذائية والطبّية. فقد تكون ثمرة (مثل العنب والرمان) فيها مئات من الحبّ، كل حبّة منها تعتبر جنيناً وبذرة لشجرة اخرى، ولها تركيب معقّد عجيب.

هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإنّ المراحل المتعددة التى تمرّ بها الثمرة منذ تولدها حتى نضجها تثير الإنتباه، لأنّ «المختبرات» الداخلية فى الثمرة لا تنفك عن العمل فى تغيير تركيبها الكيمياوى إلى أن تصل إلى المرحلة النهائية ويثبت تركيبها الكيمياوى النهائى، فكل مرحلة من هذه المراحل دليل على عظمة الخالق وقدرته.

ولكن لابدّ من القول- بحسب تعبير القرآن- إنّ المؤمنين الذين يمعنون النظر فى هذه الامور هم الذين يرون هذه الحقائق، وإلّا فعين العناد والمكابرة والإهمال والتساهل لا يمكن أن ترى أدنى حقيقة.

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَ خَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥٩

خالق كل شىء: هذه الآيات تشير إلى جانب من العقائد السقيمة والخرافات التى يؤمن بها المشركون وأصحاب المذاهب الباطلة، وتردّ عليهم بالمنطق. فأوّلًا: قالوا: إنّ للّهشركاء من الجن «وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ».

فينكر الإسلام عليهم ذلك، إذ كيف يمكن ذلك وهو الذى خلق الجن: «وَخَلَقَهُمْ». أى كيف يمكن أن يكون المخلوق شريكاً للخالق، لأنّ الشركة دليل التماثل والتساوى، مع أنّ المخلوق لا يمكن أن يكون فى مصاف خالقه أبداً!

الخرافة الاخرى هى قولهم- جهلًا- إنّ للّهبنين وبنات: «وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ».

أفضل دليل على أنّ هذه العقائد ليست سوى خرافة، هو أنّها تصدر عنهم «بِغَيْرِ عِلْمٍ».

أى إنّهم لا يملكون أىّ دليل على هذه الأوهام.

من الملاحظ أنّ القرآن استعمل لفظة «خرقوا»: من الخرق، وهو تمزيق الشىء بغير روية ولا حساب، وهى فى النقطة المقابلة تماماً «للخلق» القائم على الحساب، هاتان اللفظتان:

«الخلق والخرق» قد تستعملان فى حالات الكذب والاختلاق، مع اختلاف بينهما، هو أنّ (الخلق والإختلاق) تستعمل فى الأكاذيب المدروسة و (الخرق والإختراق) فيما لا حساب فيه من الكذب. أى إنّهم اختلقوا تلك الأكاذيب دون أن يدرسوا جوانب الموضوع وبدون أن يعدّوا له ما يلزم من الامور.

أمّا الطوائف التى كانت تنسب للّهالبنين، فإنّ القرآن يذكر فى آيات اخرى اسم طائفتين من هؤلاء:

الاولى: هم المسيحيون الذين قالوا: إنّ عيسى ابن اللَّه.

والاخرى: هم اليهود الذين قالوا: عزير ابن اللَّه.

يستفاد من الآية (۳۰) من سورة التوبة أنّ المسيحيين واليهود ليسوا وحدهم الذين نسبوا إبناً للّه، بل كان هذا موجوداً فى المعتقدات الخرافية القديمة.

أمّا بشأن نسبة بنات للّه، فالقرآن نفسه يوضّح ذلك فى آيات اخرى: «وَجَعَلُوا الْمَلِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمنِ إِنَاثًا» (۱).

والقرآن يرفض تماماً فى نهاية الآية كل هذه الخرافات التى لا أساس لها، وبعبارة حاسمة قاطعة: «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ».

---

(۱) سورة الزخرف/ ۱۹.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۰

و الآية التالية تردّ على تلك العقائد الخرافية فتؤكد أنّ اللَّه هو ذلك الذى أبدع خلق السموات والأرض: «بَدِيعُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

«البديع»: تعنى موجد الشىء بغير سابق وجود، أى انّ اللَّه أوجد السماوات والأرض بغير أن يسبق ذلك وجود مادة أو خطة سابقة.

ثم كيف يمكن أن يكون له أبناء دون أن تكون له زوجة؟! «أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ». وما حاجته إلى زوجة؟ ثم من التى تكون زوجته وهم جميعاً مخلوقاته؟

ومرّة اخرى تؤكد الآية مقامه باعتباره خالقاً لكل شىء، ومحيطاً بكل شىء: «وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

الآية الثالثة تؤكد على سبيل الاستنتاج من كل ما سبق، من ذكر خالقية اللَّه لكل شىء، وإبداعه السماوات والأرض وإيجادها، وكونه منزهاً عن الصفات والعوارض الجسمية وعن الحاجة إلى الزوجة والأبناء وإحاطته العلمية بكل شىء: «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ» فلا يستحق العبودية غيره.

ولكى ينقطع كل أمل بغير اللَّه، وتنقلع كل جذور الشرك والإعتماد على غير اللَّه، تختتم الآية بالقول: «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ».

الآية الاخيرة من الآيات مورد البحث، ومن أجل إثبات حاكمية اللَّه وإحاطته بكل شىء وحفاظه على كل شىء، وكذلك لإثبات أنّه يختلف عن كل شىء، تقول: «لَاتُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ». أى: إنّه الخبير بمصالح عبيده وبحاجاتهم، ويتعامل معهم بمقتضى لطفه.

فى الحقيقة أنّ من يريد أن يكون حافظ كل شىء ومربيه وملجأه لابد أن يتّصف بهذه الصفات.

لا تدركه الأبصار: تثبت الأدلة العقلية أنّ اللَّه لا يمكن أن يرى بالعين، لأنّ العين لا تستطيع أن ترى إلّاالأجسام، أو على الأصح بعضاً من كيفيات الأجسام، فإذا لم يكن الشىء جسماً ولا كيفية من كيفيات الجسم، لا يمكن أن تراه العين، وبتعبير آخر، إذا أمكنت رؤية شىء بالعين، فلأنّ لهذا الشىء حيّزاً واتجاهاً وكتلة، فى حين أنّ اللَّه أرفع من أن يتصف بهذه الصفات، فهو وجود غير محدود وهو

أسمى من عالم المادة المحدود فی کل شیء.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۶۱

قَدْ جاءَکُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّکُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِیَ فَعَلَیْها وَ ما أَنَا عَلَیْکُمْ بِحَفِیظٍ (١٠۴) وَ کَذلِکَ نُصَرِّفُ الْآیاتِ وَ لِیَقُولُوا دَرَسْتَ وَ لِنُبَیِّنَهُ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (١٠۵) اتَّبِعْ ما أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ (١٠۶) وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَکُوا وَ ما جَعَلْناکَ عَلَیْهِمْ حَفِیظاً وَ ما أَنْتَ عَلَیْهِمْ بِوَکِیلٍ (١٠٧) لیس من واجبک الإکراه: تعتبر هذه الآیات نتیجة للآیات السابقة، ففی البدایة تقول:

«قَدْ جَاءَکُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّکُمْ».

«بصائر»: جمع «بصیرة» من «البصر» بمعنى الرؤیة، ولکنها فی الغالب رؤیة ذهنیة وعقلانیة، وهذه الکلمة فی هذه الآیات تعنی الدلیل والشاهد، وتشمل جمیع الدلائل التی وردت فی الآیات السابقة، بل إنّها تشمل حتى القرآن نفسه.

ثم لکی تبین أنّ هذه الأدلة والبراهین کافیة لإظهار الحقیقة لأنّها منطقیة، تقول: «فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِیَ فَعَلَیْهَا». أی إنّ إبصارهم یعود بالنفع علیهم وعماهم یسبب الإضرار بهم.

وفی نهایة الآیة تقول، على لسان النبی صلى الله علیه و آله: «وَمَا أَنَا عَلَیْکُم بِحَفِیظٍ».

الآیة التالیة تؤکد أنّ إتخاذ القرار النهائی فی إختیار طریق الحق أو الباطل إنّما یرجع للناس أنفسهم، وتقول: «وَکَذلِکَ نُصَرّفُ الْأَیَاتِ» «١». أی کذلک نبین الأدلة والبراهین بصور وأشکال متنوعة.

لکن جمعاً عارضوا، وقالوا- دونما دلیل وبرهان- إنّک تلقیت هذا من الآخرین (أی الیهود والنصارى): «وَلِیَقُولُوا دَرَسْتَ».

إلّا أنّ جمعاً آخر ممن لهم الإستعداد لتقبل الحق لما لهم من بصیرة وفهم وعلم، یرون وجه الحقیقة ویقبلونها: «وَلِنُبَیّنَهُ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ».

إنّ إتهام رسول اللَّه صلى الله علیه و آله بأنّه إقتبس تعالیمه من الیهود والنصارى قد تکرر من جانب المشرکین، وما یزال المعارضون المعاندون یتابعونهم فی ذلک، مع أنّ حیاة الجزیرة العربیة لم تکن فیها مدرسة ولا درس لیتعلّم منها رسول اللَّه صلى الله علیه و آله شیئاً کما أنّ رحلاته إلى خارج

---

(١) «نصرف»: من «التصرف» وهو بمعنى ردّ الشیء من حالة أو إبداله بغیره، أی إنّ الآیات تنزل فی صوروأشکال متنوعة ولمختلف المستویات العقلیة والعقائدیة والاجتماعیة.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۶٢

الجزیرة کانت قصیرة لا تدع مجالًا لمثل هذا الاحتمال، ثم إنّ معلومات الیهود والمسیحیین الذین کانوا یسکنون الحجاز کانت على درجة من التفاهة وتسطیر الخرافات بحیث لا یمکن- أصلًا- مقارنتها بما فی القرآن ولا بتعالیم الرّسول صلى الله علیه و آله وسنشرح هذا الموضوع- إن شاء اللَّه- عند تفسیر الآیة (١٠٣) من سورة النحل.

ثم تبین الآیة واجب رسول اللَّه صلى الله علیه و آله فی قبال معاندة المعارضین وحقدهم وإتهاماتهم، فتقول: «اتَّبِعْ مَا أُوحِیَ إِلَیْکَ مِن رَّبِّکَ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ». ومن واجبک أیضاً الإعراض عمّا یوجّهه إلیک المشرکون من إفتراءات: «وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِکِینَ».

هذا ضرب من التسلیة والتقویة المعنویة للنبی صلى الله علیه و آله لکیلا ینتاب عزمه الراسخ الصلب أیّ ضعف فی مواجهة أمثال هؤلاء المعارضین.

فی الآیة الأخیرة یکرر القرآن فیها- مرّة اخرى- القول بأنّ اللَّه لا یرید أن یکره المشرکین ویجبرهم على الإسلام، إذ لو أراد ذلک لما کان هناک أیّ مشرک: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَکُوا».

کما یؤکد القول لرسول اللَّه صلى الله علیه و آله: إنّک لست مسؤولًا عن أعمال هؤلاء، لأنّک لم تبعث لإکراههم على الإیمان: «وَمَا

جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا». ولا من واجبك حملهم على عمل الخير: «وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ».

«الحفيظ»: هو من يراقب أمراً أو شخصاً ليحفظه من أن يصاب بضرر؛ أمّا «الوكيل»:

فهو من يسعى لإحراز النفع لموكّله. إنّ الفكرة التى تسود هذه الآيات تستلفت النظر، فهى تقول: إنّ الإيمان باللَّه وبتعاليم الإسلام لا يكون عن طريق الإكراه والإجبار، بل يكون عن طريق المنطق والاستدلال والنفوذ إلى أفكار الناس وأرواحهم، فالإيمان بالإكراه لا قيمة له، لأنّ المهم هو أن يدرك الناس الحقيقة فيتقبّلوها بإرادتهم واختيارهم.

وَ لَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۰۸) تناولت الآيات السابقة موضوع قيام تعاليم الإسلام على أساس المنطق، وقيام دعوته على أساس الاستدلال والإقناع لا الإكراه، وهذه الآية تواصل نفس التوجيهات فتنهى عن سبّ ما يعبد الآخرون- أى المشركون- لأنّ هذا سوف يدعوهم إلى أن يعمدوا هم أيضاً- ظلماً وعدواناً وجهلًا- إلى توجيه السب إلى ذات اللَّه المقدسة: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۳

يروى أنّ بعض المؤمنين كانوا يتألمون عند رؤيتهم عبادة الأصنام، فيشتمون أحياناً الأصنام أمام المشركين، وقد نهى القرآن نهياً قاطعاً عن ذلك، وأكّد التزام قواعد الأدب واللياقة حتى فى التعامل مع أكثر المذاهب بطلاناً وخرافة.

إنّ السبب واضح، فالسّب والشّتم لا يمنعان أحداً من المضى فى طريق الخطأ، لأنّ كل امة تتعصّب عادة لعقائدها وأعمالها كما تقول العبارة التالية من الآية: «كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ».

وفى الختام تقول الآية: «ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ مَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (۱۰۹) وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۱۰)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قالت قريش يا محمّد! تخبرنا أنّ موسى كانت معه عصا يضرب بها الحجر، فينفجر منه إثنتا عشرة عيناً، وتخبرنا أنّ عيسى كان يحيى الموتى، وتخبرنا أنّ ثمود كانت لهم ناقة، فائتنا بآية من الآيات كى نصدّقك! فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «أىّ شىء تحبّون أن آتيكم به؟» قالوا: اجعل لنا الصفا ذهباً، وابعث لنا بعض موتانا، حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل، وأرنا الملائكة يشهدون لك، أو ائتنا باللَّه والملائكة قبيلًا! فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «فإن فعلت بعض ما تقولون، أتصدّقوننى؟» قالوا: نعم، واللَّه لئن فعلت لنتبعنك أجمعين. وسأل المسلمون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا، فقام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يدعو أن يجعل الصفا ذهباً، فجاءه جبرئيل عليه السلام فقال له: «إن شئت أصبح الصفا ذهباً ولكن إن لم يصدّقوا عذّبتهم وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم». فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «بل يتوب تائبهم». فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية.

التّفسير

وردت فى الآيات السابقة أدلة كثيرة كافية على التوحيد، وردّ الشرك وعبادة الأصنام، ومع ذلك فإنّ فريقاً من المشركين المعاندين المتعصبين لم يرضخوا للحق، وراحوا يعترضون وينتقدون. فى الآية الاولى يقول القرآن: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ إِيمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۴

لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا» «۱». وفى الردّ عليهم يشير القرآن إلى حقيقتين: يأمر النبى صلى الله عليه و آله أوّلًا أن يقول لهم: «قُلْ إِنَّمَا الْأَيَاتُ عِندَ اللَّهِ».

أى إنّ تحقيق المعجزة لا يكون وفق مشتهياتهم، بل إنّها بيد اللَّه وبأمره.

ثم يخاطب المسلمين البسطاء الذين تأثّروا بإيمان المشركين فيقول لهم: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَايُؤْمِنُونَ». مؤكّداً بذلك أنّ هؤلاء المشركين كاذبون فى قسمهم.

كما أنّ مختلف المشاهد التى جرت بينهم وبين رسول اللّه صلى الله عليه و آله تؤكد حقيقة أنّهم لم يكونوا يبحثون عن الحق، بل كان هدفهم من كل ذلك أن يشغلوا الناس ويبذروا فى نفوسهم الشك والتردد.

الآية التالية تبين سبب عنادهم وتعصبهم، فتقول: «وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ». أى إنّهم بإصرارهم على الانحراف والسير فى طريق ملتو وتعصبهم الناشىء عن الجهل ورفض التسليم للحق، أضاعوا قدرتهم على الرؤية الصحيحة والإدراك السليم، فراحوا يعيشون فى متاهات الضلال والحيرة.

ثم تشير الآية فى الخاتمة إلى أنّ اللّه، يترك أمثال هؤلاء فى حالتهم تلك لكى يشتد ضلالهم وتزداد حيرتهم: «وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ».

نسأل اللّه أن يجنبنا الإبتلاء بمثل هذا الضلال والحيرة الناتجة عن أعمالنا السيئة، وأن يمنحنا النظرة السليمة الكاملة لكى نرى الحقيقة ناصعة لا غبش عليها.

وَ لَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَ حَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) هذه الآية تتبع سابقاتها فى تعقيب الحقيقة نفسها، وهدف هذه الآيات هو بيان كذب اولئك الذين طلبوا تحقق معجزات عجيبة وغريبة يستحيل تحقق بعضها كما مرّ. فيصرّح القرآن فى الآية المذكورة قائلًا: «وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا».

ثم يؤكد ذلك أنّهم لا يمكن أن يؤمنوا إلّافى حالة واحدة وهى أن يجبرهم اللّه بإرادته

---

(١) «الجهد»: بمعنى السعى وبذل الطاقة، والمقصود هنا الجهد فى توكيد القسم.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۶۵

على الإيمان: «إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ» إلّاأنّ إيماناً كهذا لا ينفع فى تربيتهم ولا يؤثّر فى تكاملهم وفى النهاية يقول: «وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ».

وَ كَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ مَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَ لِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣) تشير هذه الآية إلى أنّ أمثال هؤلاء المعاندين اللجوجين المتعصبين الذين أشارت إليهم الآيات السابقة، لم يقتصر وجودهم على عهد نبى الخاتم صلى الله عليه و آله بل إنّ الأنبياء السابقين وقف فى وجوههم أعداؤهم من شياطين الإنس والجن: «وَكَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنّ». لا عمل لهم سوى الكلام المنمّق الخادع يستغفل به بعضهم بعضاً، يلقونه فى غموض أو يهمس به بعض لبعض: «يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا».

ولكن: لو أراد اللّه لمنع هؤلاء بالإكراه عن ذلك ولحال دون وقوف هؤلاء الشياطين وأمثالهم بوجه الأنبياء: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ».

بيد أنّ اللّه لم يشأ ذلك، لأنّه أراد أن يكون الناس أحراراً، وليكون هناك مجال لاختبارهم وتكاملهم وتربيتهم.

لذلك يأمر اللّه نبيّه فى آخر السورة أن لا يلقى بالًا إلى أمثال هذه الأعمال الشيطانية:

«فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ».

الآية التالية تشير إلى نتيجة كلام الشياطين المزخرف الخادع فتقول: أخيراً سيستمع الذين لا إيمان لهم- أى الذين لا يؤمنون بيوم القيامة- إلى تلك الأقوال وتميل قلوبهم إليها:

«وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ».

ثم يقول: إنّ نهاية هذا الميل هو الرضا التام بالمناهج الشيطانية «وَلِيَرْضَوْهُ».

وختام كل ذلك كان إرتكاب أنواع الذنوب والأعمال القبيحة: «وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ».

أ فَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِى حَكَماً وَ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (۱۱۴) وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۱۱۵)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۶

هذه الآية هى نتيجة الآيات السابقة، إذ تقول: بعد كل تلك الأدلة والآيات الواضحة التى تؤكد التوحيد: «أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا». وهو الذى أنزل هذا الكتاب السماوى العظيم الذى فيه كل احتياجات الإنسان التربوية، وما يميّز بين الحق والباطل والنور والظلمة، والكفر والإيمان: «وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا».

وليس الرسول والمسلمون وحدهم يعلمون أنّ هذا الكتاب قد نزل من اللَّه، بل إنّ أهل الكتاب (اليهود والنصارى) يعلمون ذلك أيضاً، لأنّ علائم هذا الكتاب السماوى قرؤوها فى كتبهم ويعلمون أنّه نزل من اللَّه بالحق: «وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبّكَ بِالْحَقّ».

وعلى ذلك لم يبق مجال للشك فيه، وكذلك أنت أيّها النبى لا تشك فيه أبداً، «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ».

الآية التالية تقول: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّامُبَدّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

«الكلمة»: بمعنى القول وتطلق على كل جملة وكل كلام مطولًا كان أم موجزاً، أمّا بالنسبة لاستعمالها فى هذه الآية إنّها تعنى القرآن لأنّ الآيات السابقة كانت تشير إلى القرآن. فيكون معنى الآية إذن: إنّ القرآن ليس موضع شكّ بأىّ شكل من الأشكال، فهو كامل من جميع الجهات ولا عيب فيه، وكل أخباره وما فيه من تواريخ صدق، وكل أحكامه وقوانينه عدل.

ويستند بعض المفسرين إلى هذه الآية لاثبات عدم تحريف القرآن، لأنّ تعبير «لَّامُبَدّلَ لِكَلِمَاتِهِ» تعنى أنّ أحداً لا يستطيع أن يحدث فى القرآن تبديلًا أو تغييراً، لا- فى لفظه، ولا- فى أخباره، ولا فى أحكامه، وأنّ هذا الكتاب السماوى الذى يجب أن يبقى حتى نهاية العالم هادياً للناس سيبقى محفوظاً ومصوناً من أغراض الخائنين والمحرّفين.

وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (۱۱۶) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۱۱۷) نعلم أنّ آيات هذه السورة نزلت فى مكّة، يوم كان المسلمون قلّة فى العدد، ولعل قلّتهم هذه وكثرة المشركين وعبدة الأصنام كانت مدعاة لتوهّم بعضهم أنّه إذا كان دين اولئك

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۷

باطلًا فلم كثر أتباعه؟! وإذا كان دين الإسلام حقاً، فما سبب قلّة معتنقيه؟

ولدفع هذا التوهّم يخاطب اللَّه نبيّه بعد ذكر أحقيّة القرآن فى الآيات السابقة قائلًا: «وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ».

وفى الجملة التالية يبيّن ذلك وهو أنّهم يتبعون الظنون التى تخالطها الأهواء والأكاذيب ويمتزج بها الخداع والتخمين: «إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ».

فيكون مفهوم الآية الشريفة أنّ الأكثرية لا يمكن أن تكون وحدها الدليل على طريق الحق، ومن هذا نستنتج أنّه يجب التوجّه إلى اللَّه وحده لمعرفة طريق الحق، حتى لو كان السائرون فى هذا الطريق قلّة فى العدد.

والدليل على ذلك يرد فى الآية التالية التى تؤكد على أنّ اللَّه عليم بكل شىء ولا مكان للخطأ فى علمه، فهو أعرف بطريق الهداية، كما هو أعرف بالضالين وبالسائرين على طريق الهداية: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (۱۱۸) وَ مَا لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا

مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَ إِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (۱۱۹) وَ ذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَ بَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (۱۲۰) الآيات السابقة تناولت بأساليب متنوعة حقيقة التوحيد وإثبات بطلان الشرك وعبادة الأصنام. ومن نتائج ذلك أنّ على المسلمين أن يمتنعوا عن أكل لحوم القرابين التى تذبح باسم الأصنام، بل عليهم أن يأكلوا من لحم ما ذكر اسم اللَّه عليه، لذلك يبدأ القرآن بالقول:

«فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بَايَاتِهِ مُؤْمِنِينَ». أى إنّ الإيمان ليس مجرّد قول وادّعاء وعقيدة ونظرية، بل لابدّ أن يظهر على صعيد العمل أيضاً، فالذى يؤمن باللَّه يأكل من هذه اللحوم فقط.

بديهى أنّ حرمة الذبائح التى لم يذكر اسم اللَّه عليها، هى خلفية أخلاقية ومعنوية وتستهدف تثبيت قواعد التوحيد وعبودية اللَّه الواحد الأحد.

الآية التالية تورد هذا الموضوع نفسه بعبارة مغايرة مع مزيد من الاستدلال، فتقول: لم لا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۸

تأكلون من اللحوم التى ذكر اسم اللَّه عليها، فى الوقت الذى بيّن اللَّه لكم ما حرم عليكم؟

«وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ». مرّة اخرى نشير إلى أنّ التوبيخ والتوكيد ليسا من أجل ترك أكل اللحم الحلال، بل الهدف هو أنّ هذه هى ما ينبغى أن تأكلوا منها، لا من غيرها، وبعبارة اخرى: التوكيد هنا على النقطة المقابلة لمفهوم العبارة، من هنا استدل على ذلك بالقول: «وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ».

ثم يستثنى من ذلك حالة واحدة: «إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ» سواء كان هذا الاضطرار ناشئاً من وجود الإنسان فى البيداء وتحت ضغط الجوع الشديد، أو الوقوع تحت سيطرة المشركين الذين قد يجبرونه على أكل لحومهم.

ثم تشير الآية إلى أنّ كثيراً من الناس يحاولون أن يضلوا الآخرين عن جهل أو عن إتباع الهوى: «وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ».

يلزم القول أنّ الجملة المذكورة ربّما تكون إشارة إلى ما كان سائداً بين المشركين العرب الذين كانوا يسوّغون لأنفسهم أكل لحوم الحيوانات الميتة بالقول: أيجوز أن تعتبر لحوم الحيوانات التى نقتلها بأنفسنا حلالًا، ولحوم الحيوانات التى يقتلها اللَّه حراماً؟

بديهى أنّ هذا لم يكن سوى سفسطة فارغة، لأنّ الحيوان الميت ليس حيواناً ذبحه اللَّه ليمكن مقارنته بالحيوانات المذبوحة، إذ إنّ الحيوان الميت بؤرة الأمراض ولحمه فاسد، ولهذا حرّم اللَّه أكله، وأخيراً يقول: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ» الذين يحاولون بهذه الأدلة الواهية تنكّب طريق الحق، بل يسعون إلى إضلال الآخرين.

الآية الثالثة تذكر قانوناً عاماً، فيحتمل أن يرتكب بعضهم هذا الإثم فى الخفاء، وتقول:

«وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ».

يقال إنّهم فى الجاهلية كانوا يعتقدون أنّ الزنا إذا ارتكب فى الخفاء فلا بأس به، أمّا إذا إرتكب علناً فهو الإثم! واليوم- أيضاً- نجد اناساً يسيرون وفق هذا المنطق الجاهلى فيخشون إرتكاب الإثم علانية، ولكنّهم يرتكبون فى الخفاء ما يشاؤون من الآثام دون رادع من ضمير.

إنّ هذه الآية لا تدين هذا المنطق فحسب، بل من باب تهديد المذنبين بما ينتظرهم من مصير مشؤوم وتذكيرهم بذلك، تقول الآية:

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۶۹

وَ لَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ وَ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (۱۲۱) دار الكلام فى الآيات السابقة حول الجانب الإيجابى من مسألة اللحوم، أى أكل اللحوم الحلال، وفى هذه الآية تأكيد للجانب

السلبى من المسألة: «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ». ثم فى جملة واحدة يدين هذا العمل: «وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ» وإثم وخروج عن طريق العبودية وإطاعة اللّه.

ولكيلا يقع بعض البسطاء من المسلمين تحت تأثير وسوسة الشيطان، تخاطبهم الآية: إنّ الشياطين يوسوسون فى الخفاء لأتباعهم لكى يدخلوا معكم فى جدل ونقاش: «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ» ولكن كونوا على حذر، ولا تطيعوهم: «وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ».

لعل هذا الجدل والوسوسة إشارة إلى ما كان سائداً بين المشركين بشأن أكل الميتة (وذهب البعض إلى أنّ العرب المشركين أخذوه من المجوس) وقولهم: إنّنا نأكل الميتة لأنّ اللّه أماتها، وهى لذلك أفضل ممّا نقتله بأيدينا، معتقدين أنّ عدم أكل الميتة نوع من الجفاء لعمل اللّه! غافلين أنّ الحيوان الميت موتاً طبيعياً، إضافة إلى مرضه غالباً، يضمّ بين لحمه دماً قذراً فاسداً يفسد معه اللحم، بسبب عدم إنقطاع أوداجه.

ويستفاد من هذه الآية- ضمنياً- حرمة الذبيحة غير الإسلامية، لأنّها- إضافة إلى الجهات الاخرى- لم يتقيّد ذابحها بذكر اسم اللّه عليها.

أ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۲) وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَ ما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (۱۲۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان قيل: إنّها نزلت فى حمزة بن عبد المطلب، وأبى جهل بن هاشم،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۰

وذلك أنّ أبا جهل آذى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فأخبر بذلك حمزة، وهو على دين قومه، فغضب وجاء معه قوس، فضرب بها رأس أبى جهل، وآمن.

وقيل: نزلت فى عمار بن ياسر حين آمن، وأبى جهل.

التّفسير

ترتبط هذه الآية بالآيات السابقة من حيث كون الآيات السابقة أشارت إلى طائفتين من الناس: المؤمنين المخلصين، والكافرين المعاندين الذين لا يكتفون بضلالهم، بل يسعون حثيثاً إلى تضليل الآخرين، هنا أيضاً يتجسد وضع هاتين الطائفتين من خلال ضرب مثل واضح.

يشير المثال إلى طائفة من الناس كانوا من الضالين، ثم غيّروا مسيرتهم باعتناق الإسلام فهؤلاء أشبه بالميت الذى يحييه اللّه بإرادته: «أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَهُ».

الإيمان يغيّر الأفراد ويشمل هذا التغيير كل جوانب الحياة، وتبدو آثاره فى كل الحركات والسكنات. ثم تقول الآية عن أمثال هؤلاء: «وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ».

على الرغم من وجود الإختلاف فى تفسير هذا «النور» فالظاهر أنّ المقصود ليس القرآن وتعاليم الشرع فحسب، بل أكثر من ذلك، حيث يمنح الإيمان باللّه الإنسان رؤية وإدراكاً جديدين ... يمنحه رؤية واضحة ويوسّع من آفاق نظرته لتتجاوز إطار حياته المادية وجدران عالم المادة الضيّق إلى عالم أرحب وأوسع.

إنّه فى ضوء هذا النور يستطيع أن يميّز مسيرة حياته بين الناس، وأن يصون نفسه ويحافظ عليها ويحصنها ضد ما يقع فيه الآخرون من أخطار الطمع والجشع والأفكار المادية المحدودة، والوقوف بوجه أهوائه وكبح جماحها.

إنّ ما نقرأه فى الأحاديث الإسلامية من أنّ «المؤمن ينظر بنور اللّه» إشارة إلى هذه الحقيقة.

ثم تقارن الآية بين هذا الإنسان الحى، الفعال، النيّر، والمؤثر، بالإنسان العديم الإيمان والمعاند، فتقول: «كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ

بِخَارِجٍ مِّنْهَا».

إنّه لم يبق من وجود هؤلاء الأفراد سوى شبح، أو قالب، أو مثال أو تمثال، لهم هياكل خالية من الروح وأدمغة معطلة عن العمل.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۱

وفى الختام تشير الآية إلى سبب مصير هؤلاء المشؤوم فتقول: «كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

ولمّا كان بطل هذه المشاهد فى جانبها السلبى هو «أبو جهل» الذى كان من كبار مشركى قريش ومكة، فالآية الثانية تشير إلى حال هؤلاء الزعماء الضالين وقادة الكفر والفساد، فتقول: «وَكَذلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا». أى إنّه عاقبة عصيانهم وكثرة ذنوبهم أدّت بهم إلى أن يصبحوا سدّاً على طريق الحق، وعاملًا على جرّ الناس نحو الانحراف والإبتعاد عن طريق الحق.

وفى الختام تقول الآية: «وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ».

كما يستفاد من هذه الآية أنّ النكبات والتعاسة التى تصيب المجتمع إنّما تنشأ من رموزه وقادته، إذ يتوسلون بالمكر والحيلة لتغيير معالم الطريق إلى اللَّه، ويخفون وجه الحق عن الناس.

وَ إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (۱۲۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى الوليد بن المغيرة قال: واللَّه لو كانت النبوة حقاً، لكنت أولى بها منك، لأنّى أكبر منك سناً وأكثر عنك مالًا.

التّفسير

تشير هذه الآية بإيجاز إلى طريقة تفكير هؤلاء الأكابر «أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا» وإلى مزاعمهم المضحكة الباطلة، فتقول: «وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللَّهِ».

إنّ القرآن يردّ على هؤلاء بوضوح قائلًا: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ».

بديهى أنّ الرسالة لا علاقة لها بالسن ولا بالمال ولا بمراكز القبائل، لأنّ شرطها الأوّل هو الاستعداد الروحى، وطهارة الضمير، والسجايا الإنسانية الأصيلة، والفكر السامى،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۲

والرأى السديد ثم التقوى إلى درجة العصمة ... إنّ هذه الصفات، وخصوصاً الإستعداد لمقام العصمة لا يعلم بها غير اللَّه، فما أبعد الفرق بين هذه الشروط وما كان يدور بخلد اولئك.

كما إنّ من يخلف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لابدّ أن تكون له جميع تلك الصفات عدا الوحى والتشريع، أى أنّه حامى الشرع والشريعة، والحارس على قوانين الإسلام، والقائد المادى والمعنوى للناس، لذلك لابدّ له أن يكون معصوماً عن الخطأ والإثم، لكى يكون قادراً على أن يوصل الرسالة إلى أهدافها، وأن يكون قائداً مطاعاً وقدوة يُعتمد عليه. وبناءاً على ذلك، يكون اختياره من اللَّه أيضاً، فهو وحده الذى يعلم أين يضع هذا المقام، فلا يمكن أن يترك ذلك للناس ولا للإنتخابات والشورى.

وفى النهاية تشير الآية إلى المصير الذى ينتظر أمثال هؤلاء المجرمين والزعماء الذين يدّعون الباطل، فتقول: «سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ» (۱).

كان هؤلاء الأنانيون بمواقفهم العدائية يريدون أن يحافظوا على مراكزهم، ولكن اللَّه سينزلهم إلى أدنى درجات الصغار والحقارة بحيث إنّهم سيتعذبون بذلك عذاباً روحياً شديداً، مضافاً إلى أنّهم سيلاقون العذاب الشديد فى الآخرة لأنّ سعيهم على طريق الباطل كان شديداً أيضاً.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (۱۲۵) وَ هذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (۱۲۶) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۷) تعقيباً على الآيات السابقة التى دارت حول المؤمنين الصادقين والكافرين المعاندين تشرح هذه الآية النعم الإلهية الكبيرة التى تنتظر الفريق الأوّل، والشقاء الذى سيصيب

---

(۱) «الإجرام»: من «جرم» وأصله القطع، والمجرم هو الذى يقطع العهود وإرتباطه باللّه بعدم إطاعته، ولذلك اطلقت كلمة «الجرم» على الإثم والذنب، فى هذا إشارة لطيفة إلى أنّ هناك فى ذات الإنسان إتّفاق مع الحق والطهارة والعدالة، والإجرام هو قطع هذا الإتفاق الفطرى الإلهى.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۳

الفريق الثانى، فتقرر أنّ اللّه ينعم بالهداية على من يشاء، وذلك بأن يفتح صدره لتقبّل الإسلام، أمّا الذى لا يريد اللّه أن يوفّقه لذلك- لسوء أعماله- يضيق صدره بحيث يجعله وكأنّه يريد أن يصعد إلى السماء. «فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلْاسْلمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ».

ولتوكيد هذا الأمر تضيف الآية: «كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ».

فيسلبهم التوفيق ويركسهم فى التعاسة والشقاء.

سبق لنا أن قلنا مرّات عديدة أنّ المقصود من لفظى «الهداية» و «الضلالة» الإلهيين هو توفير الظروف والمقدمات المؤدّية إلى الهداية بالنسبة للّذين لهم الاستعداد لذلك، وسلبها عن الذين لا استعداد لهم لذلك، بالنظر إلى أعمالهم.

الآية التالية تؤكد البحث السابق فتقول: إنّ المدد الإلهى الذى يشمل السالكين فى خط الايمان والعبودية للّهويُسلب عن الذين يتنكبون عن سبيل اللّه، إنّما هو سنة إلهية مستقيمة ثابتة لا تتبدل «وَهذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا».

وفى ختام الآية توكيد آخر: «قَدْ فَصَّلْنَا الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ». أى لمن يملكون قلوباً واعية وآذاناً سامعة.

الآية الثالثة تشير إلى نعمتين من أكبر النعم التى يهبها اللّه للذين يطلبون الحق، إحداهما:

«لَهُمْ دَارُ السَّلمِ عِندَ رَبِّهِمْ». والثانية: «وَهُوَ وَلِيُّهُم». أى ناصرهم وحافظهم، وكل ذلك لما قاموا به من الأعمال الصالحة: «بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». فأىّ فخر أجل وأرفع من أن يتولى اللّه امور الإنسان ويتكفل بها فيكون حافظه ووليه، وأيّة نعمة أعظم من أن تكون له دار السلام، دار الأمن والأمان، حيث لا- حرب ولا- سفك دماء، ولا- نزاع ولا- خصام، ولا- عنف ولا تنافس قاتل ومميت، ولا تضارب مصالح، ولا كذب ولا إفتراء، ولا إتهام ولا حسد ولا حقد، ولا هم ولا غم، بل الهدوء والطمأنينة والهناء؟

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَ قَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَ بَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۱۲۸) وَ كَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۱۲۹) تعود هاتان الآيتان إلى بيان مصير المجرمين الضالين والمضلين فتكملان ما بحث فى السابق، فتذكّران بيوم يقفون فيه وجهاً لوجه أمام الشياطين الذين كانوا يستلهمون منهم،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۴

فيواجه التابعون والمتبوعون سؤالًا لا جواب لديهم عليه. تذكّر الآية فى البداية بذلك اليوم الذى يجتمع فيه الجن والإنس، ثم يقال يا أيّها المضلون من الجن لقد أضللتم كثيراً من الناس: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِنَ الْإِنسِ».

«الجن» هنا هم الشياطين، لأنّ كلمة الجن تشمل كل كائن غير مرئى والآية (۵۰) من سورة الكهف تذكر عن رئيس الشياطين، إبليس إنّه «كَانَ مِنَ الْجِنِّ». ويبدو أنّ الشياطين المضلين لا- جواب لديهم على هذا السؤال ويطرقون صامتين، غير أنّ أتباعهم من البشر

يقولون: ربّنا، هؤلاء استفادوا منّا كما إنّنا استفدنا منهم حتى جاء أجلنا: «وَقالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا».

أى كان شياطيننا فرحين بسيطرتهم علينا وكنّا نتبعهم مستسلمين، أمّا نحن فكنّا مستمتعين بمباهج الحياة ولذائذها غير متقيدين بشىء ولا ملتفتين إلى سرعة زوالها، لما كان الشياطين يوسوسون فى آذاننا ويظهرون الدنيا لهم فى صور جميلة جذّابة.

إنّ المقصود من كلمة «أجل» هو نهاية العمر لأنّ «الأجل» كثيراً ما استعمل فى القرآن بهذا المعنى.

غير أنّ اللّه يخاطب التابعين والمتبوعين الفاسدين والمفسدين جميعاً: «قَالَ النَّارُ مَثْوَيكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ».

وفى الختام تقول الآية: «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» فعقابه مبنى على حساب دقيق، وكذلك عفوه، لأنّه عالم بمن يستحقهما.

الآية التالية تشير إلى سنّة إلهية ثابتة بشأن هؤلاء الأشخاص، وتقرر أنّ هؤلاء الطغاة والظالمين سيكون وضعهم فى الآخرة كما كانوا عليه فى الدنيا يجر بعضهم بعضاً نحو التهلكة وسوء المصير والانحراف: «وَكَذلِكَ نُوَلّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» وكما ذكرنا فى البحوث الخاصة بالمعاد فإنّ يوم القيامة مشهد ردود الفعل فى صور مكبرة، وما يوجد هناك إنعكاس عن أعمالنا فى هذه الدنيا.

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنسِ أَ لَمْ يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنْكُم يَقُصُّونَ عَلَيْكُم آيَاتِى وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَ غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ شَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَ لِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۷۵

ورد وصف مصير الظالمين من أتباع الشياطين يوم القيامة فى الآيات السابقة ولكيلا يظن أحد أنّهم فى حالة من الغفلة ارتكبوا ما ارتكبوه من إثم، تبين هذه الآيات أنّ تحذيرهم قد تمّ بما فيه الكفاية وتمّت عليهم الحجة، لذلك يقال لهم يوم القيامة: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا».

«معشر»: من العدد «عشرة»، وبما أنّ العشرة تعتبر عدداً كاملًا، فالمعشر هى الجماعة الكاملة التى تضمّ مختلف الطوائف والأصناف.

ثم تقول الآية: «قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا» لأنّ يوم القيامة ليس يوم الكتمان، بل إنّ دلائل كل شىء تكون بادية للعيان، وما من أحد يستطيع أن يخفى شيئاً، فالجميع يعترفون أمام هذا السؤال الإلهى قائلين: إنّنا نشهد ضدّ أنفسنا ونعترف أنّ الرسل قد جاؤونا وأبلغونا رسالاتك ولكنّنا خالفناها.

نعم ... لقد كانت أمامهم آيات ودلائل كثيرة من اللّه، وكان يميزون الخطأ من الصواب، إلّا أنّ الحياة الدنيا ببريقها ومظاهرها قد خدعتهم وأضلتهم: «وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا».

مرّة اخرى يؤكد القرآن أنّهم شهدوا على أنفسهم بألسنتهم بأنّهم قد ساروا فى طريق الكفر ووقفوا إلى جانب منكرى اللّه: «وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ».

الآية التالية تعيد المضمون السابق بصورة قانون عام وسنّة ثابتة، وهى: أنّ اللّه لا يأخذ الناس فى المدن والمناطق المسكونة بظلمهم إذا كانوا غافلين، إلّابعد أن يرسل إليهم الرسل ليتبهوهم إلى قبيح أعمالهم، ويحذّروهم من مغبّة أفعالهم: «ذلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ».

قد تعنى «بظلم» أنّ اللّه لا يظلم أحداً بأن يعاقبه عمّا فعل وهو غافل، لأنّ معاقبتهم بهذه الصورة تعتبر ظلماً، واللّه أرفع من أن يظلم أحداً.

وتذكر الآية الثالثة خلاصة ما ينتظر هؤلاء من مصير، وتقرر أنّ لكل من هؤلاء- الأخيار والأشرار، المطيعين والعصاة، طالبى العدالة والظالمين- درجات ومراتب يوم القيامة تبعاً لأعمالهم، وإنّ ربك لا يغفل عن أعمالهم، بل يعلمها جميعاً، ويجزى كلًا بقدر ما

يستحق: «وَلِكُلّ دَرَجاتٌ مِّمّا عَمِلُوا وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ».

هذه الآية تؤكد مرّة اخرى الحقيقة القائلة بأنّ جميع «الدرجات» و «الدركات» التى يستحقها الإنسان إنّما هى وليدة أعماله، لا غير.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٧٦

وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣۴) قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ (١٣۵) الآية الاولى تستدل على ما سبق فى الآيات التى مرّت بشأن عدم ظلم اللّه تعالى، وتؤكد أنّ اللّه لا حاجة له بشيء وهو عطوف ورحيم، وعليه لا دافع له على أن يظلم أحداً أبداً، لأنّ من يظلم لابدّ أن يكون محتاجاً، أو أن يكون قاسى القلب فظاً: «وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ» كما أنّه لا حاجة له بطاعة البشر، ولا يخشى من ذنوبهم، بل إنّه قادر على إزالة كل جماعة بشرية ووضع آخرين مكانها كما فعل بمن سبق تلك الجماعة: «إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ».

بناءاً على ذلك فهو غنى لا حاجة به إلى شيء، ورحيم، وقادر على كل شيء، فلا يمكن إذن أن نتصوّره ظالماً.

وإذا أدركنا قدرته التى لا حدود لها يتّضح لنا أنّ ما وعده بشأن يوم القيامة والجزاء سوف يتحقق فى موعده بدون أىّ تخلّف: «إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ».

كما أنّكم لا تستطيعون أن تخرجوا عن نطاق حكمه ولا أن تهربوا من قبضته العادلة:

«وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ» (١).

ثم يؤمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله بأن يهددهم: «قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

وَ جَعَلُوا لِلّهِ مِمّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَ ما كانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (١٣۶)

---

(١) «معجزين»: من «أعجز» أى جعله عاجزاً، فالآية تقول: إنّكم لا تستطيعون أن تجعلوا اللّه عاجزاً عن بعث الناس وتحقيق العدالة، وبعبارة اخرى: أنتم لا تستطيعون مقاومة قدرة اللّه.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٧٧

لإقتلاع جذور الشرك وعبادة الأصنام من الاذهان يعود القرآن إلى ذكر العادات والتقاليد والعبادات الخرافية السائدة بين المشركين، ويثبت فى بيان واضح أنّها خرافية ولا أساس لها، فقد كان كفّار مكّة وسائر المشركين يخصصون للّهسهماً من مزارعهم وأنعامهم، كما كانوا يخصصون سهماً منها لأصنامهم أيضاً، قائلين: هذا القسم يخصّ اللّه، وهذا القسم يخصّ شركاءنا أى الأصنام: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذَا لِشُرَكَائِنَا».

ثم تشير الآية إلى واحد من أحكامهم العجيبة وهو الحكم بأنّ ما خصصوه لشركائهم لا يصل إلى اللّه، ولكن ما خصصوه للّهيصل إلى شركائهم «فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ».

انّهم إذا أصاب نصيب اللّه ضرر على أثر حادثة قالوا: هذا لا أهمية له لأنّ اللّه لا حاجة به إليه، ولكن إذا أصاب الضرر نصيب أصنامهم عوّضوا عنه من نصيب اللّه، قائلين: إنّ الأصنام أشدّ حاجة إليه.

وفى الختام تدين الآية هذه الخرافات فتقول: «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ».

فأىّ حكم أقبح وأدعى إلى العار من أن يعتبر إنسان قطعة من الحجر أو الخشب الذى لا قيمة له أرفع من خالق عالم الوجود، هل

هناك هبوط فكرىّ أحط من هذا؟

وَ كَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ مَا يَفْتَرُونَ (۱۳۷) يشير القرآن فى هذه الآية إلى عمل قبيح آخر من أعمال عبدة الأصنام القبيحة وجرائمهم الشائنة، ويذكر أنّه كما ظهر لهم أنّ تقسيمهم الحصص بين اللَّه والأصنام عمل حسن بحيث أنهم اعتبروا هذا العمل القبيح والخرافى، بل والمضحك، عملًا محموداً، كذلك زيّن الشركاء قتل الأبناء فى أعين الكثيرين من المشركين بحيث إنّهم راحوا يعدّون قتل الأولاد نوعاً من «الفخر» و «العبادة»: «وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۷۸

«الشّركاء» هنا هم الأصنام، فقد كانوا أحياناً يقدمون أبناءهم قرابين لها، أو كانوا ينذرون أنّهم إذا وهبوا ابناً يذبحونه قرباناً لأصنامهم، كما جاء فى تاريخ عبدة الأصنام القدامى وعليه فإنّ نسبة «التزيين» للأصنام تعود إلى أنّ شدة تعلقهم بأصنامهم وحبّهم لها كان يحدو بهم إلى إرتكاب هذه الجريمة النكراء.

ثم يوضّح القرآن أنّ نتيجة تلك الأفعال القبيحة هى أنّ الأصنام وخدّامها ألقوا بالمشركين فى مهاوى الهلاك، وشككوهم فى دين اللَّه، وحرموهم من الوصول إلى الدين الحق: «لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ».

ومع ذلك كله، فإنّ اللَّه قادر على أن يوقفهم عند حدّهم بالإكراه، ولكن الإكراه خلاف سنّة اللَّه، إنّ اللَّه يريد أن يكون عباده أحراراً لكى يمهّد أمامهم طريق التربية والتكامل، وليس فى الإكراه تربية ولا تكامل: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ».

ومادام هؤلاء منغمسين فى أباطيلهم وخرافاتهم دون أن يدركوا شناعتها، بل الأدهى من ذلك أنّهم ينسبونها أحياناً إلى اللَّه، إذن فاتركهم وإتهاماتهم والتفت إلى تربية القلوب المستعدة: «فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ».

وَ قَالُوا هذِهِ أَنْعَامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَ أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَ أَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (۱۳۸) وَ قَالُوا مَا فِى بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَ مُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۱۳۹) تشير هذه الآيات إلى بعض الأحكام الخرافية لعبدة الاوثان، والتى تدل على قصر نظرتهم وضيق تفكيرهم، وتكمل ما مرّ فى الآيات السابقة. تذكر فى البداية أقوال المشركين بشأن من لهم الحق فى نصيب الأصنام من زرع وأنعام، وتبيّن أنهم كانوا يرون أنّها محرّمة إلّا على طائفة معينة: «وَقَالُوا هذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّايَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ».

ومرادهم المتولّون امور الأصنام والمعابد، والمشركون كانوا يذهبون إلى أنّ لهؤلاء وحدهم الحق فى نصيب الأصنام.

«الحجر» هو المنع.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۷۹

ثم تشير الآية إلى واحدة اخرى من خرافاتهم تقضى بمنع ركوب بعض الدواب:

«وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا».

ثم تشير إلى القسم الثالث من الأحكام الباطلة فتقول: «وَأَنْعَامٌ لَّايَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا».

ولعلها إشارة إلى الحيوانات التى كانوا يذكرون أسماء أصنامهم عليها فقط عند ذبحها، أو هى المطايا التى كانوا يحرّمون ركوبها للذهاب إلى الحج.

والأعجب من ذلك أنّهم لم يقنعوا بتلك الأحكام الفارغة، بل راحوا ينسبون إلى اللَّه كل ما يخطر لهم من كذب: «افْتِرَاءً عَلَيْهِ».

وفى ختام الآية، وبعد ذكر تلك الأحكام المصطنعة، تقول إنّ اللَّه: «سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

الآية التالية تشير إلى حكم خرافى آخر بشأن لحوم الحيوانات، يقضى بأنّ حمل هذه الأنعام يختص بالذكور، وهو حرام على الزوجات، أمّا إذا خرج ما فى بطونها ميتاً، فكلّهم شركاء فيه: «وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن

يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ».

و يشجب القرآن هذا الحكم الجاهلى، ويقرر أنّ اللَّه سوف يعاقبهم على هذه الأوصاف، «سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ».

وختاماً تقول: «إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ». فهو عليم بأعمالهم وأقوالهم وإتهاماتهم الكاذبة، كما أنّه يعاقبهم وفق حساب وحكمة.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (۱۴۰) تعقيباً على الآيات السابقة التى تحدّثت عن بعض الأحكام التافهة والتقاليد القبيحة فى عصر الجاهلية الشائن، كقتل الأبناء قرباناً للأصنام، ووأد البنات خشية العار، وتحريم بعض نعم اللَّه الحلال، تدين هذه الآية كل تلك الأعمال بشدّة، فى سبعة تعبيرات وفى جمل قصيرة نافذة توضّح حالهم. ففى البداية تقول: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ». وكل صفة من هذه الصفات الثلاث كافية لإظهار قبح أعمالهم، فأىّ علم يجيز

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۰

للإنسان أن يعتبر هذه الأعمال قانوناً اجتماعياً؟ من هنا نفهم ما قاله ابن عباس بشأن ضرورة قراءة سورة الأنعام لمن شاء أن يدرك مدى تخلّف الأقوام الجاهليين.

ثم يذكر القرآن أنّ هؤلاء قد حرموا على أنفسهم ما رزقهم اللَّه وأحلّه لهم وكذبوا على اللَّه ونسبوا هذه الحرمة له سبحانه: «وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ».

فى هذه العبارة إدانة اخرى لأعمالهم، فهم- أوّلًا- حرموا على أنفسهم النعمة التى «رزقهم» إيّاها وأباحها لهم وكانت ضرورية لحياتهم، فنقضوا بذلك قانون اللَّه.

وهم- ثانياً- «افتروا» على اللَّه قائلين إنّه هو الذى أمر بذلك.

فى ختام الآية وفى جملتين قصيرتين إدانة اخرى لهم، فهم: «قَدْ ضَلُّوا» ثم إنّهم لم يسلكوا يوماً الطريق المستقيم: «وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ».

وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَ لَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (۱۴۱) لقد جاءت الإشارة فى هذه الآية إلى عدّة مواضيع، كل واحد منها متفرّعٌ عن الآخر، ونتيجة عنه. فهو تعالى يقول أوّلًا: إنّ اللَّه تعالى هو الذى خلق أنواع البساتين والمزارع الحاوية على أنواع الأشجار والنباتات، فمنها ما يعتمد فى موقفه على الأعمدة والعروش حيث تحمل ما لذّ وطاب من الفواكه والثمار، وتجلب بمنظرها الساحر العيون والالباب، ومنها ما لا يحتاج إلى عريش، بل هو قائم على سوقه يلقى بظلاله الوارفة على رؤوس الآدميين، ويسدّ بثماره المتنوعة حاجة الإنسان إلى الغذاء: «وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ».

ثم إنّ الآية تشير إلى نوعين من البساتين والمزارع إذ تقول: «وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ».

ثم إنّه تعالى يضيف قائلًا: إنّ هذه الأشجار مختلفة ومتنوعة من حيث الثمر والطعم. فمع أنّ جميعها ينبت من أرض واحدة ويسقى بماء واحد فإنّ لكل واحدة منها رائحة خاصة، ونكهة معينة، وخاصية تختص بها، ولا توجد فى غيرها: «مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۱

ثم يشير سبحانه إلى قسمين آخرين من الثمار عظيمى الفائدة، جَيلى النفع فى مجال التغذية البشرية إذ يقول: «وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ».

إنّ اختيار هاتين بالذكر من بين أشجار كثيرة إنّما هو لأجل أنّ هاتين الشجرتين: (شجرة الزيتون وشجرة الرمان) رغم تشابههما من حيث الظاهر والمظهر تختلفان اختلافاً شاسعاً من حيث الثمرة، ومن حيث الخاصية الغذائية، ولهذا عقّب على قوله ذلك بهاتين الكلمتين:

«مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ».

وبعد ذكر كل هذه النعم المتنوّعة يقول سبحانه: «كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ».

ثم ينهى فى نهايـة المطاف عن الإسـراف إذ يقول تعالى: «وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ». «الإسـراف»: تجاوز حدّ الاعتدال فى كل فعل يفعله الإنسان. وهذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى عدم الإسراف فى الأكل، أو عدم الإسراف فى الإنفاق والبذل.

وَ مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً كُلوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۱۴۲) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۱۴۳) وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۴۴) إنّ هـذه الآيات- كما أشرنا إلى ذلك- بصدد إبطال أحكام خرافية جاهلية كان المشركون يدينون بها فى مجال الزراعة والأنعام. ففى الآية المتقدمة جرى الحديث حول أنواع المزروعات والثمار التى أنشأها اللّه، وفى هـذه الآيات يدور الحديث حول الحيوانات المحللة اللحم، وما تؤدّيه من خدمات، وما يأتى منها من منافع. يقول أوّلًا: إنّ اللّه هو الذى خلق لكم حيوانات كبيرة للحمل والنقل، واخرى صغيرة: «وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۲

«حمولـة»: جمع وليس لهـا مفرد وتعنى الحيوانـات الكبيرة التى تسـتخدم للحمـل والنقل كالإبل والفرس ونظائرها. و «فرش»: هو بنفس المعنى المتعارف، ولكن فُسّر هنا بالغنم وما يشابهه من الحيوانات الصغيرة.

ثم إنّ الآية الشريفة تخلص إلى القول بأنّه لما كانت جميع هذه الانعام قد خلقها اللّه تعالى وحكمها بيده، فإنّه يأمركم قائلًا: «كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ».

ولتأكيـد هذا الكلام وإبطال أحكام المشـركين الخرافية يقول: «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ». فهو الذى أعلن الحرب على آدم منذ بداية الخلق.

الآيـة الثانيـة تبيّن قسـماً من الحيوانـات المحلّلة اللحم، وبعض الأنعـام التى يسـتفاد منهـا فى النقـل، كما يسـتفاد منها فى تغذيـة البشـر وطعامهم أيضاً فيقول: إنّ اللّه خلق لكم ثمانيـة أزواج من الأنعام: زوجين من الغنم (ذكر وانثى)، وزوجين من المعز: «ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ».

وبعـد ذكر هـذه الأزواج الأربعة يأمر تعالى نبيّه فوراً بأن يسألهم بصـراحة: هل أنّ اللّه حرّم الذكور منها أم الاناث: «قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ». أم أنّه حرّم عليهم ما فى بطون الإناث من الأغنام، أم ما فى بطون الإناث من المعز؟: «أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ».

ثم يضـيف قائلًا: إذا كنتم صادقين فى أنّ اللّه حرّم شـيئاً مما تدعونه، وكان لديكم ما يدل على تحريم أىّ واحد من هذه الأنعام فهاتوا دليلكم على ذلك: «نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

ثم فى الآيـة اللاحقـة يبين الأزواج الأربعـة الاخرى من الأنعام التى خلقها اللّه للبشـر، إذ يقول: وخلق من الإبل ذكراً وانثى، ومن البقر ذكراً وانثى، فـأىّ واحـد من هـذه الأزواج حرّم اللّه عليكم: الـذكور منها أم الإناث؟ أم ما فى بطون الإناث من الإبل والبقر: «وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ».

إنّ الحكم بتحليل هـذه الأنعام وتحريمها إنّما هو بيـد اللّه، خالقها وخالق البشر وخالق العالم كله. ولقـد صرّح فى الآية السابقة بأنّه لم يكن لدى المشركين أىّ دليل علمى أو عقلى على تحريم هذه الأنعام، وحيث إنّهم لم يَدّعوا أيضاً نزول الوحى عليهم، أو النبوة، فعلى هذا يبقى الاحتمال الثالث فقط، وهو أن يدّعوا أنّهم حضروا عند أنبياء اللّه ورسله يوم أصدروا هذه

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۳

الأحكام، ولهذا يقول اللّه لهم فى مقام الإحتجاج عليهم: هل حضرتم عند الأنبياء وشهدتم أمر اللّه لهم بتحليل أو تحريم شىء من هذه الأنعام: «أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذَا».

وحيث إنّ الجواب على هـذا السؤال هو الآـخر بالنفى والسَـلب، يثبت أنّهم ما كانوا يمتلكون فى هـذا المجال إلّاالإفتراء، ولا يستندون

إلّاإلى الكذب.

ولهذا يضيف فى نهاية الآية قائلًا: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

فيستفاد من هذه الآية أنّ الإفتراء على اللّه من أكبر الذنوب والآثام، إنّه ظلم للّه‌تعالى ولمقامه الربوبيّ العظيم، وظلم لعباد اللّه، وظلم للنفس.

قُلْ لَا أَجِدُ فِى مَا أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّکَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴۵) ثم إنّه تعالى- بهدف تمييز المحرمات الإلهية عن البِدع التى أحدثها المشركون وأدخلوها فى الدين الحق- أمر نبيّه صلى الله عليه و آله فى هذه الآية بأن يقول لهم بكل صراحة، ومن دون إجمال أو إبهام: «لَّاأَجِدُ فِى مَا أُوحِىَ إِلَىَّ» من الشريعة أىّ شىء من الأطعمة يكون «مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ» من ذكر أو انثى وصغير أو كبير.

اللّهم «إِلَّا» عدّة أشياء، الأوّل: «أن يَكُونَ مَيْتَةً». «أَوْ» يكون «دَمًا مَّسْفُوحًا» وهو ما خرج من الذبيحة عند التذكية بالقدر المتعارف (لا الدّماء التى تبقى فى جسم الذبيحة فى عروقها الشعرية الدقيقة، بعد خروج قدر كبير منها بعد الذبح).

«أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ».

لأنّ جميع هذه الأشياء رجس ومنشأ لمختلف الأضرار «فَإِنَّهُ رِجْسٌ».

ثم أشار تعالى إلى نوع رابع فقال: «أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» «۱». أى التى لم يذكر اسم اللّه

---

(۱) «اهلّ»: أصله «الإهلال» وهو مأخوذ فى الأصل من الهلال والإهلال يعنى رفع الصَوت عند رؤية الهلال، ثم‌استعمل لكل صوت رفيع، كما أنّه يطلق على بكاء الصبى عند الولادة الإستهلال، وحيث إنّهم كانوا يذكرون أسماء أصنامهم بصوتٍ عالٍ عند ذبح الأنعام عبرّ عن فعلهم هذا بالإهلال.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۸۴

عليها عند ذبحها، لأنّها- من الناحية الأخلاقية والمعنوية- تدل على الإبتعاد عن اللّه وعن جادة التوحيد ولهذا حرّمت أيضاً. وعلى هذا الأساس أنّ الشروط الإسلامية المقررة فى الذبح على نوعين: بعضها- مثل قطع الأوداج الأربعة، وخروج القدر المتعارف من دم الذبيحة- لها جانب صحّى. وبعضها الآخر- مثل توجيه مقاديم الذبيحة نحو القبلة عند الذبح، وذكر اسم اللّه عنده، وكون الذابح مسلماً- لها جانب معنوى.

ثم إنّه سبحانه استثنى- فى آخر الآية- من اضطر إلى تناول شىء مما ذكر من اللحوم المحرّمة، كما لو لم يجد أىّ طعام آخر وتوقّفت حياته على تناول شىء من تلك اللحوم، إذ قال:

«فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّکَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» «۱». يعنى أنّ من اضطرّ إلى أكل شىء مما ذكرِ من المنهيات فلا إثم عليه، بشرط أن يكون للحفاظ على حياته، لا للذة، ولا مستحلّاً لما حرّمه اللّه، أو متجاوزاً حدّ الضرورة، ففى هذه الصورة «فَإِنَّ رَبَّکَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وإنّما اشترط هذان الشرطان لكى لا يتذرّع المضطرون بهذه الإباحة فيتعدّوا حدود ما قرّره اللّه بحجة الاضطرار.

وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِکَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (۱۴۶) فَإِنْ كَذَّبُوکَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (۱۴۷) إنّ هاتين الآيتين تشيران إلى بعض ما حرّم على اليهود ليتبين أنّ أحكام الوثنيين الخرافية والمجهولة لا تنطبق لا على أحكام الإسلام، ولا على دين اليهود (بل ولا على دين المسيح الذى يتبع فى أكثر أحكامه الدين اليهودى). ولهذا يقول سبحانه فى البداية: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ».

يستفاد من الآية المبحوثة أنّ جميع الحيوانات التى لا تكون ذات أظلاف- دواباً كانت أو طيوراً- كانت محرّمة على اليهود.

(۱) «الباغى»: من «البَغْى» وهو يعنى الطلب؛ و «العادى»: من «العَدْو» وهو يعنى التجاوز.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۵

ثم يقول سبحانه: «وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا».

ثم يستثنى بعد هذا ثلاثة موارد:

أوّلها: الشحوم الموجودة فى موضع الظهر من هذين الحيوانين إذ يقول: «إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا».

وثانياً: الشحوم الموجودة على جنبيها، أو بين أمعائها: «أَوِ الْحَوَايَا» «۱».

وثالثاً: الشحوم التى امتزجت بالعظم والتصقت به «أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ».

ولكنه صرح فى آخر الآية بأنّ هذه الامور لم تكن محرمة على اليهود ولكنهم بسبب ظلمهم وبغيهم حُرمُوا- بحكم اللَّه وأمره- من هذه اللحوم والشحوم التى كانوا يحبّونها «ذلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ».

ويضيف- لتأكيد هذه الحقيقة- قوله: «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ» وإنّ ما نقوله هو عين الحقيقة.

ولمّا كان عناد اليهود المشركين أمراً بيّناً، وكان من المحتمل أن يتصلّبوا ويتمادوا فى تكذيب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أمر اللَّه تعالى نبيّه فى الآية الاخرى أن يقول لهم إن كذّبوه: إنّ ربّكم ذو رحمة واسعة فهو لا يسارع إلى عقوبتكم ومجازاتكم، بل يمهلكم لعلكم تؤوبون إليه، وترجعون عن معصيتكم، وتندمون من أفعالكم وتعودون إلى اللّه، «فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ».

ولكن إذا أساؤوا فهم أو استخدام هذا الإمهال الإلهى، واستمروا فى كيل التهم فيجب أن يعلموا أنّ عقاب اللَّه إياهم حتمى لا مناص منه، وسوف يصيبهم غضبه فى المآل: «وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ».

إنّ هذه الآية تكشف عن عظمة التعاليم القرآنية، فإنّه بعد شرح وبيان كل هذه المخالفات التى ارتكبها اليهود والمشركون لا يعمد إلى التهديد بالعذاب فوراً، بل يترك طريق الرجعة مفتوحاً، وذلك بذكر عبارات تفيض بالحب مثل قوله: «ربّكم»، «ذو رحمة»، «واسعة».

حتى إذا كان هناك أدنى استعداد للرجوع والإنابة فى نفوسهم شوّقتهم هذه العبارات العاطفية على العودة إلى الطريق المستقيم.

(۱) «الحوايا»: جمع «حاوية» وهى مجموعة ما يوجد فى بطن الحيوان والتى تكون على هيئة كرة تتضمّن الأمعاء.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۶

ولكن حتى لا تبعث سعة الرحمة الإلهية هذه على التمادى فى غيّهم، وتتسبب فى تزايد جرأتهم وطغيانهم، وحتى يكفّوا عن العناد واللجاج هدّدهم فى آخر جملة من الآية بالعقوبة الحتمية.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (۱۴۸) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۴۹) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (۱۵۰) عقيب الكلام المتقدم عن المشركين فى الآيات السابقة، أشار فى هذه الآيات إلى طائفة من استدلالاتهم الواهية، مع ذكر الأجوبة عنها. فيقول أوّلًا: إنّ المشركين سيقولون فى معرض الإجابة عن اعتراضاتك عليهم فى مجال الإشراك باللّه، وتحريم الأطعمة الحلال: إنّ اللّه لو أراد أن لا نكون مشركين، وأن لا يكون آباؤنا وثنيين، وأن لا نحرّم ما حرّمنا، لفعل:

«سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ».

إنّ المشركين- مثل كثير من العصاة- يريدون التملّص من مسؤولية العصيان تحت ستار الجبر.

إنّهم كانوا يدّعون أنّ سكوت اللّه على عبادتهم للأصنام وتحريمهم لطائفة من الحيوانات دليل على رضاه، لأنّه إذا لم يكن راضياً بها وجب أن يمنعهم عنها بنحو من الأنحاء.

ولكن القرآن تصدّى لجوابهم وناقشهم بشكل قاطع، فهو يقول أوّلًا: ليس هؤلاء وحدهم يفترون على اللّه مثل هذه الأكاذيب: «كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» «١». ولكنهم ذاقوا جزاء افتراءاتهم: «حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا».

فهؤلاء كانوا يكذبون فى كلامهم هذا، كما أنّهم يكذّبون الأنبياء، ولو كان سبحانه راضياً

---

(١) «كذّب»: فى اللغة تأتى بمعنيين تكذيب الغير، وكذلك فعل الكذب.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۷

بهذه الامور فكيف بعث أنبياءه للدعوة إلى التوحيد؟!

إنّ دعوة الأنبياء أقوى دليل على حرية الإرادة الإنسانية، واختيار البشر.

ثم يقول سبحانه: قل لهم يا محمّد: هل لكم برهان قاطع ومسلم على ما تدّعونه؟ هاتوه إن كان: «قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّن عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا».

ثم يضيف فى النهاية: إنّ ما تتبعونه ليس سوى أوهام وخيالات فجّة: «إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ».

وفى الآية اللاحقة يذكر دليلًا آخر لإبطال ادعاء المشركين، ويقول: قل إنّ اللّه أقام براهين جلية ودلائل واضحة وصحيحة على وحدانيته، وهكذا أقام أحكام الحلال والحرام سواء بواسطة أنبيائه أو بواسطة العقل، بحيث لم يبق أىّ عذر لمعتذر: «قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ».

وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يدّعى أحدٌ أبداً أنّ اللّه أمضى- بسكوته- عقائدهم وأعمالهم الباطلة، وكذلك لايسعهم قط أن يدّعوا أنّهم كانوا مجبورين، لأنّهم لو كانوا مجبورين لكان إقامة الدليل والبرهان، وإرسال الأنبياء وتبليغهم ودعوتهم لغواً، إنّ إقامة الدليل دليل على حرية الإرادة.

ثم يقول فى ختام الآية: ولو شاء اللّه أن يهديكم جميعاً بالجبر لفعل: «فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيكُمْ أَجْمَعِينَ».

ولكن فى مثل هذه الصورة لم يكن لمثل هذا الإيمان ولا للأعمال التى تصدر فى ضوء هذا الإيمان الجبرى القسرى أيّة قيمة، إنّما فضيلة الإنسان وتكامله فى أن يسلك طريق الهداية والتقوى بقدميه وبإرادته وإختياره.

وفى الآية التالية- ولكى يتضح بطلان أقوالهم، ومراعاة لُاسس القضاء والحكم الصحيح- دعا المشركين ليأتوا بشهدائهم المعتبرين لو كان لهم، لكى يشهدوا لهم بأنّ اللّه هو الذى حرّم الحيوانات والزروع التى ادعوا تحريمها، لهذا يقول: «قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذَا».

ثم يضيف قائلًا: إذا كانوا لا يملكون مثل هؤلاء الشهداء المعتبرين (ولا يملكون حتماً) بل يكتفون بشهادتهم وادّعائهم أنفسهم فقط، فلا تشهد معهم ولا تؤيّدهم فى دعاويهم:

«فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ».

هذا مضافاً إلى أنّ جميع القرائن تشهد بأنّ هذه الأحكام ما هى إلّاأحكام مصطنعة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۸۸

مختلقة نابعة عن محض الهوى والتقليد الأعمى، ولا اعتبار لها مطلقاً.

ولذلك قال فى العبارة اللاحقة: «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَالَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» «١».

يعنى أنّ وثنيتهم، وإنكارهم للقيامة والبعث، والخرافات، وإتباعهم للهوى، شواهد حيّة على أنّ أحكامهم هذه مختلقة أيضاً، وأنّ

إدعاءهم فى مسألة تحريم هذه الموضوعات من جانب اللّه لا قيمة له، ولا أساس له من الصحة.

قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيّاهُمْ وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلّا بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلّا وُسْعَها وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى وَ بِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَ أَنَّ هذا صِراطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) بعد نفى أحكام المشركين المختلقة التى مرّت فى الآيات المتقدمة، أشارت هذه الآيات الثلاثة إلى أصول المحرمات فى الإسلام، وذكرت الذنوب الرئيسية الكبيرة فى عشرة أقسام ببيان مقتضب، عميق وفريد، ودعت المشركين إلى أن يحضروا عند النّبى ويستمعوا إلى ما يتلى عليهم من المحرّمات الإلهية الواقعية، ويتركوا المحرمات المختلقة جانباً. يقول: «قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ».

١- «أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيًا».

---

(١) «يعدلون»: مشتق من مادة «عدل» بمعنى الشريك والشبيه، وعلى هذا الأساس فإنّ مفهوم جملة «وهم بربّهم يعدلون» هو أنّهم كانوا يعتقدون بشريك وشبيه للّهسبحانه.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٨٩

٢- «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا».

٣- «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَدَكُم مِّنْ إِمْلَقٍ». أى بسبب الفقر والحرمان لأنّنا «نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ».

۴- «وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ». أى لا تقربوها فضلًا عن أن لا ترتكبوها.

۵- «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقّ». فلا تسفكوا الدّماء البريئة، ولا تقتلوا النفوس التى حرّم اللّه قتلها إلّاضمن قوانين العقوبات الإلهية، فيجوز أن تقتلوا من أذن اللّه لكم بقتله.

ثم إنّه تعالى بعد ذكر هذه الأقسام الخمسة يقول لمزيد من التأكيد: «ذلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» فلا ترتكبوها.

۶- «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ». فلا تقربوا مال اليتيم إلّا بقصد الإصلاح حتى يبلغ أشده ويستوى.

٧- «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ». فلا تطففوا ولا تبخسوا.

وحيث إنّ الإنسان- مهما دقق فى الكيل والوزن- قد يزيد أو ينقص بما لا يمكن أن تضبطه الموازين والمكاييل المتعارفة لقلته وخفائه، لهذا عقّب على ما قال بقوله: «لَانُكَلّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا».

٨- «وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى . فلا تنحرفوا عن جادة الحق عند الشهادة أو القضاء أو أمر آخر حتى ولو كان على القريب، فاشهدوا بالحق، واقضوا بالعدل.

٩- «وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا» ولا تنقضوه.

والمراد من العهد الإلهى المذكور فى هذه الآية يشمل جميع العهود الإلهية التكوينية والتشريعية والتكاليف الإلهية وكل عهد ونذر ويمين.

ثم إنّه سبحانه يقول فى ختام هذه الأقسام الأربعة- للتأكيد-: «ذلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

١٠- «وَأَنَّ هذا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ». إنّ طريقى هذا هو طريق التوحيد، طريق الحق والعدل، طريق الطهر والتقوى فامشوا فيه، واتّبعوه، واسلكوه ولا تسلكوا الطرق المنحرفة والمتفرقة، فتؤدّى بكم إلى الانحراف عن اللّه

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٩٠

وإلى الاختلاف، والتشرذم، والتفرق، وتزرع فيكم بذور الفرقة والنفاق. ثم يختم جميع هذه الأقسام وللمرة الثالثة- لغرض التأكيد- بقوله: «ذٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

بحثان

۱- أهمية الإحسان إلى الوالدين: إنّ ذكر مسألة الإحسان للوالدين- بعد مكافحة الشرك مباشرة، وقبل ذكر تعاليم مهمة مثل حرمة قتل النفس والأمر بالعدل- يدل على الأهمية القصوى التى يحظى بها حق الوالدين فى التعاليم الإسلامية.

ويتّضح هذا الأمر أكثر عندما نرى أنّ القرآن الكريم ذكر بدل تحريم أذى الوالدين الذى يلائم سياق هذه الآية فى استعراضها للمحرمات، مسألة الإحسان إليهما، يعنى أنّه ليس إزعاج الوالدين وإيذاؤهما محرّماً فقط، بل يجب الإحسان إليهما.

والأجمل من هذا كله أنّ كلمة «الإحسان» عُدّيت بحرف «الباء» فقال: «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا». وعلى هذا الأساس فإنّ هذه الآية تؤكد أنّ موضوع الإحسان إلى الوالدين من الأهمية البالغة بحيث يجب على الإنسان أن يباشر الاحسان بنفسه إلى الوالدين.

۲- قتل الأولاد من الإملاق والجوع: يستفاد من هذه الآيات أنّ العرب فى العهد الجاهلى لم يقتصروا على قتل البنات ووأدهن بسبب بعض العصبيات الخاطئة فحسب، بل كانوا يقتلون أولادهم الذين كانوا يُعدّون ثروة كبرى فى المجتمع يومذاك، وذلك بسبب الفقر وخشيتهم من الفاقة.

ولكن هذا العمل الجاهلى- وللأسف البالغ- يتكرّر الآن فى عصرنا فى صورة اخرى، إذ نلاحظ كيف يعمد الناس إلى قتل الأطفال الأبرياء وهم أجنّة عن طريق الكورتاج والإجهاض بحجة النقصان الاحتمالى فى المواد الغذائية.

إنّ إسقاط الجنين وإن كان يُبرّر الآن بأدلة وحجج اخرى أيضاً، إلّاأنّ مسألة الفقر ومسألة نقصان المواد الغذائية، هى من أدلتها الأصلية.

هذه المسألة والمسائل المشابهة الاخرى تشير إلى أنّ العهد الجاهلى يتكرر فى شكل آخر، وأنّ «جاهلية القرن العشرين» أكثر وحشية من جاهلية ما قبل الإسلام.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۱

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (۱۵۴) وَ هٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۱۵۵) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (۱۵۶) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (۱۵۷) فى الآيات السابقة دار الحديث عن عشرة من أحكام الإسلام الأساسية التى لم تكن مختصّة بالإسلام، بل هى موجودة ومقررة فى جميع الأديان، ثم قال عقيب ذلك فى هذه الآيات: «ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ». فقد أتممنا نعمتنا على المحسنين والذين سلّموا لأمره واتّبعوه.

إنّ عبارة: «الَّذِى أَحْسَنَ» إشارة إلى جميع المحسنين، والذين يستجيبون للحق، ويقبلون بالأوامر الإلهية.

«وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ» فإنّ فيه كل شىء مما يحتاج إليه المجتمع، ومما له أثر فى تكامل الإنسان وترشيده.

«وَهُدًى وَرَحْمَةً». أى أنّ فى هذا الكتاب الذى نزل على موسى مضافاً إلى ما سبق:

هدى ورحمة.

إنّ جميع هذه البرامج ما هى إلّالكى يؤمنوا بيوم القيامة، وبلقاء اللّٰه، ولكى يُطهّروا عن طريق الإيمان بالمعاد أفكارهم، وأقوالهم، وأعمالهم ويزكّوها: «لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ».

الآية اللاحقة تشير إلى نزول القرآن وتعليماته القيّمة، وبذلك أكملت البحث المطروح فى الآية السابقة، يقول تعالى: «وَهٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ» فهذا الكتاب الذى أنزلناه كتاب عظيم الفائدة، عظيم البركة، وهو المنبع لكل أنواع الخير والبركة.

ولمّا كان الأمر كذلك وَجَبَ اتّباعه بصورة كاملة، ووجب التزوّد بالتقوى، والتجنّب

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۲

عن مخالفته، لتشملكم رحمة اللَّه ولطفه «فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

وفى الآية الثالثة أبطل سبحانه جميع المعاذير والتحججات وسدّ جميع طرق التملّص والفرار فى وجه المشركين، فقال لهم أوّلًا: لقد أنزلنا هذا الكتاب مع هذه المميزات لكى لا تقولوا: لقد نزلت الكتب السماوية على الطائفتين السابقتين (اليهود والنصارى) وكنّا عن دراستها غافلين، وليس تمرّدنا على أوامر اللَّه إلّالكونها موجودة عند غيرنا من الامم، ولم يبلغنا منها شىء: «أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ». ثم إنّه سبحانه ينقل عنهم- فى الآية اللاحقة- نفس ذلك التحجج ولكن بصورة أوسع، ومقروناً هذه المرّة بنوع أشد من الغرور والصلف وهو: أنّ القرآن الكريم لو لم ينزل عليهم لكان من الممكن أن يدّعوا أنّهم كانوا أكثر استعداداً من أيّة امة اخرى لقبول الأمر الإلهى:

«أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ».

والآية المتقدّمة كانت تعكس هذا التحجج وهو: أنّ عدم اهتدائنا إنّما هو بسبب غفلتنا وجهلنا بالكتب السماوية، وهذه الغفلة وهذا الجهل ناشىء عن أنّ هذه الكتب نزلت على الآخرين، ولم تنزل علينا. أمّا هذه الآية فتعكس صفة الإحساس بالتفوّق والإدعاء الفارغ الذى كانوا يدّعونه عن تفوّق العنصر العربى على غيرهم.

فإنّ القرآن يقول فى معرض الرّد على هذه الإدعاءات أنّ اللَّه سبحانه سدّ عليكم كل سُبل التملّص والفرار، وأبطل جميع الذرائع والمعاذير، لأنّ اللَّه آتاكم كل الآيات، وأقام كل الحجج المقرونة بالهداية الإلهية وبالرحمة الربانية لكم: «فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ». ومع ذلك «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا».

«صدف»: من «الصَدْف» ويعنى الإعراض الشديد- من دون تفكير- عن شىء، وهو إشارة إلى أنّهم لم يكونوا ليعرضوا عن آيات اللَّه فحسب، بل كانوا يبتعدون عنها.

وفى خاتمة هذه الآية بيّن اللَّه تعالى العقاب الأليم الذى اعدّ لهؤلاء المخاصمين المعاندين الذين يرفضون الحقائق وينكرونها من دون أن يفكّروا فيها ويدرسوها ولو قليلًا، بل ولا يكتفون برفضها إنّما يعمدون إلى صدّ الآخرين عنها، ويحولون بينهم وبين سماعها واستيعابها، بيّن كل ذلك فى قوله الموجز والبليغ: «سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۳

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (۱۵۸) فى الآيات السابقة تبيّنت هذه الحقيقة وهى: أنّنا أتممنا الحجة على المشركين، وآتيناهم الكتاب السماوى (أى القرآن) لهدايتهم جميعاً، لكى لا يبقى لديهم أىّ عذر يبرّرون به مخالفتهم للرسالة ومعارضتهم للدعوة. وهذه الآية تقول: ولكن هؤلاء الأشخاص المخاصمين المعاندين بلغوا فى لجاجهم وعنادهم حدّاً لا يؤثّر فيهم حتى هذا البرنامج الواضح البيّن، وكأنّهم يتوقعون وينتظرون هلاكهم، أو ذهاب آخر فرصة، أو ينتظرون اموراً مستحيلة. فيقول أوّلًا:

«هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلِكَةُ» لتقبض أرواحهم.

«أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ» إليهم فيرونه، حتى يؤمنوا به.

ويراد من هذا الكلام أنّهم ينتظرون اموراً مستحيلة.

ثم يقول: أو أنّكم تنتطرون أن تتحقق بعض الآيات الإلهية والعلامات الخاصة بيوم القيامة ونهاية العالم يوم تنسدّ كل أبواب التوبة: «أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبّكَ».

ثم يضيف عقيب ذلك قائلًا: «يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَاتِ رَبّكَ لَايَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا»

فأبواب التوبة حينذاك مغلقة فى وجوه الذين لم يؤمنوا إلى تلك الساعة، لأنّ التوبة ساعتئذ تكون ذات صبغة اضطرارية إجبارية، وفاقدة لمعطيات الإيمان الاختيارى وقيمة التوبة النصوح.

ثم إنّه فى المقطع الأخير من الآية يوجّه تهديداً شديداً إلى هؤلاء الأشخاص المعاندين، إذ يقول بنبرة شديدة: «قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ».

إنّ من النقاط الهامة التى نستفيدها من الآية الحاضرة هو أنّ الآية تعتبر طريق النجاة منحصرة فى الإيمان، ذلك الإيمان الذى يكتسب المرء فيه خيراً ويعمل فى ظلّه عملًا صالحاً.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١۵٩) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١۶٠)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۴

تعقيباً على التعاليم والأوامر العشر التى مرّت فى الآيات السابقة، والتى امر فى آخرها بإتباع الصراط الإلهى المستقيم، وبمكافحة أى نوع من أنواع النفاق والتفرقة، جاءت هذه الآية تتضمّن تأكيداً على هذه الحقيقة، وتفسيراً وشرحاً لها. فيقول تعالى أوّلًا: «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ» «١». أى أنّ الذين اختلفوا فى الدين وتفرّقوا فرقاً وطوائف لا يمتّون إليك بصلة أبداً، كما لا يرتبطون بالدين أبداً، لأنّ دينك هو دين التوحيد، ودين الصراط المستقيم، والصراط المستقيم ما هو إلّاواحد لا أكثر.

ثم قال تعالى- مُهدّداً مُوبّخاً اولئك المفرّقين-: «إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ». أى أنّ اللَّه هو الذى سيؤاخذهم بأعمالهم وهو عليم بها، لا يغيب شىء منها.

محتوى هذه الآية يمثّل حكماً عامّاً يشمل كل من يفرّق الصفوف، وكل من يبذر بذور النفاق والاختلاف بين عباد اللَّه بابتداع البدع، من دون فرق بين من كان يفعل هذا فى الامم السابقة أو فى هذه الامة.

هذه الآية تكرّر مرّة اخرى- وبمزيد من التأكيد- هذه الحقيقة وهى أنّ الإسلام دين الوحدة والإتحاد وأنّه يرفض كل لون من ألوان التفرقة وإلقاء الاختلاف فى صفوف الامة.

فى الآية اللاحقة إشارة إلى الرحمة الإلهيّة الواسعة، وإلى الثواب الإلهى الواسع الذى ينتظر الأفراد الصالحين المحسنين وقد عقّبت التهديدات المذكورة فى الآية بهذه التشجيعات: «مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا».

ثم قال: «وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا».

وللتأكيد يضيف هذه الجملة أيضاً فيقول: «وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ» وإنّما يعاقبون بمقدار أعمالهم.

و «الحسنة» و «السيئة» فى الآية الحاضرة يشمل كل عمل صالح وفكر صالح وعقيدة صالحة أو سيئة.

---

(١) «الشِيَع»: من حيث اللغة تعنى الفرق والطوائف المختلفة وأتباع الأشخاص المختلفين، وعلى هذا فإنّ مفردهذه الكلمة يعنى من يتّبع مدرسة أو شخصاً معيّناً، هذا هو المعنى اللغوى لكلمة الشيعة. ولكن للفظة الشيعة معنى آخر فى الإصطلاح، فهو يُطلق على من يتبع أميرالمؤمنين علياً عليه السلام ويشايعه، ولا يصح أن نخلط بين المعنيين اللغوى والإصطلاحى.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۵

قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١۶١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَ نُسُكِى وَ مَحْيَاىَ وَ مَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١۶٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَ بِذلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١۶٣) هذه الآية والآيات الاخر التى سنقرؤها فيما بعد والتى ختمت بها سورة الأنعام، تعتبر خلاصة الأبحاث المطروحة فى هذه السورة التى بدأت وانتهت بمكافحة الشرك والوثنية، وتركّزت أحاديثها على توضيح هذا الأمر. ففى البداية أمرت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بأن يقول فى مواجهة معتقدات المشركين

والوثنيين ومزاعمهم الجوفاء والعارية عن المنطق السليم: «قُلْ إِنَّنِى هَدَينِى رَبّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم». أى طريق التوحيد، ورفض كل أشكال الشرك والوثنية.

ذكر كلمة «قل» فى هذه الآيات وأمثالها فى نص القرآن، إنّما هو لحفظ أصالة القرآن، وللدلالة على أنّ ما يأتى بعدها هو عين الكلمات التى اوحيت إلى رسول اللّه.

ثم إنّه تعالى يوضّح «الصراط المستقيم» فى هذه الآية والآيتين اللاحقتين. فهو يقول أوّلًا: إنّه الدين المستقيم الذى هو فى نهاية الصحة والاستقامة، وهو الأبدى الخالد القائم المتكفل لُامور الدين والدنيا والجسد والروح: «دِينًا قِيَمًا».

وحيث إنّ العرب كانوا يكنّون لإبراهيم عليه السلام محبة خاصة، بل كانوا يصفون عقيدتهم ودينهم بأنّه دين إبراهيم، فهذا هو الذى أدعو أنا إليه لا ماتزعمونه: «مِّلَّةَ إِبْرهِيمَ».

إبراهيم عليه السلام الذى أعرض عن العقائد الخرافية التى كانت سائدة فى عصره وبيئته، وأقبل على التوحيد «حَنِيفًا». و «الحنيف»: يعنى الشخص أو الشىء الذى يميل إلى جهة ما، وأمّا فى المصطلح القرآنى فيطلق هذا الوصف على من يعرض عن عقيدة عصره الباطلة ويولّى وجهه نحو الدين الحق والعقيدة الحقة.

وكأنّ هذا التعبير جواب وردّ على مقالة المشركين الذين كانوا يعيبون على رسول اللّه صلى الله عليه و آله مخالفته للعقيدة الوثنية التى كانت دين أسلافهم من العرب، فقال النبى فى معرض الردّ على مقالتهم هذه، بأنّ نقض السنن الجاهلية والإعراض عن العقائد الخرافية السائدة فى البيئة ليس هو من فعلى فقط، بل كان إبراهيم- الذى نحترمه جميعاً- كذلك أيضاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۶

ثم يضيف للتأكيد قائلًا: «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» بل هو بطل الكفاح ضد الوثنية، وحامل الحرب ضد الشرك، الذى لم يفتأ لحظة واحدة عن محاربته وكفاحه. الآية اللاحقة تشير إلى أنّه على النّبى أن يقول: إنّى لست موحّداً من حيث العقيدة فحسب، بل إنّى أعمل كل عمل صالح: «قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ» فأنا أحيى للّه، وله أموت، وأفدى بكلّ شىء لأجله، وكل هدفى وكل حبّى بل كل وجودى له.

و «النُسُك»: يعنى فى الأصل العبادة، ولذا يقال للعابد: ناسك، ولكن هذه الكلمة تطلق فى الأغلب على أعمال الحج فيقال: مناسك الحج.

ثم فى الآية الثالثة يضيف للتأكيد وإبطالًا لأىّنوع من أنواع الشرك والوثنية قائلًا: «لَا شَرِيكَ لَهُ».

ثم يقول فى ختام الآية: «وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ».

فإنّ كون رسول الإسلام أوّل المسلمين، إمّا من جهة كيفية إسلامه وأهميته، لأنّ درجة إسلامه وتسليمه أعلى وأفضل من الجميع، وإمّا لأنّه كان أوّل فرد من هذه الامة التى قبلت بالإسلام والقرآن.

قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِى رَبّاً وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَ لَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۱۶۴) هذه الآية شجبت منطق المشركين من طريق آخر، حيث قال سبحانه لنبيه: قل لهم واسألهم: هل من الصحيح أن أطلب رباً غير اللّه الواحد فى حين أنه هو المالك والمربى، وهو رب كل شىء وبيده أزمة جميع الكائنات، وحكمه جار فى جميع ذرات الوجود بلا استثناء:

«قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلّ شَىْءٍ».

ثم إنّه يردّ على جماعة من المشركين المتحجرين ممن قالوا لرسول اللّه صلى الله عليه و آله: اتّبعنا وعلينا وزرك إن كان خطأً. قائلًا: «وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى فلا يعمل أحد إلّالنفسه، ولا يحمل أحد وزر أحد.

«ثُمَّ إِلَى رَبّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» فمآلكم إليه وهو يخبركم عن جميع ما اختلفتم فيه.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۹۷

وَ هُوَ الَّذِی جَعَلَکُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَکُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِیَبْلُوَکُمْ فِی ما آتاکُمْ إِنَّ رَبَّکَ سَرِیعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۶۵) فی هذه الآیة التی هی آخر الآیات من سورة الأنعام إشارة إلی أهمیة مقام الإنسان ومکانته فی عالم الوجود لتکمیل الأبحاث الماضیة فی مجال تقویة دعائم التوحید، ومکافحة الشرک. لهذا قال تعالی فی مطلع کلامه: «هُوَ الَّذِی جَعَلَکُمْ خَلئِفَ الْأَرْضِ».

إنّ الإنسان الذی هو خلیفة اللَّه فی أرضه، والذی سُخّرت له کل منابع هذا العالم وصدر الأمر بحکومته علی جمیع الموجودات من جانب اللَّه تعالی، لا یجوز أن یسمح لنفسه بالسقوط إلی درجة السجود للجمادات.

ثم أشار سبحانه إلی اختلاف المواهب والاستعدادات فی المواهب البدنیة والروحیة لدی البشر، والهدف من هذا الاختلاف والتفاوت، فیقول: «وَرَفَعَ بَعْضَکُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّیَبْلُوَکُمْ فِی مَا ءَاتَاکُمْ» من المواهب المتنوعة والمتفاوتة ویختبرکم بها.

ثم تشیر فی خاتمة الآیة الحاضرة إلی حریة الإنسان فی اختیار طریق السعادة وطریق الشقاء نتیجة هذه الاختبارات والإبتلاءات، إذ یقول: «إِنَّ رَبَّکَ سَرِیعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِیمٌ». فإنّ ربک سریع العقاب مع الذین یفشلون فی هذا الاختبار، وغفور رحیم للذین ینجحون فیه ویسعون لإصلاح أخطائهم.

بحثان

۱- التفاوت بین أفراد البشر ومبدأ العدالة: لا شک أنّ بین أفراد البشر طائفة من الاختلافات والفوارق المصطنعة، التی هی نتیجة المظالم التی یمارسها بعض أفراد البشر ضد الآخرین، فهناک مثلًا جماعة یمتلکون ثروات هائلة، وجماعات اخری تعانی من الفقر المدقع.

جماعة یعانون من المرض والعلة بسبب سوء التغذیة وندرة الوسائل الصحیة، فی حین یحظی أفراد معدودون بقدر کبیر من السلامة والعافیة، بسبب توفّر جمیع الإمکانیات.

إنّ مثل هذه الفوارق والاختلافات: الثروة والفقر، والعلم والجهل، والسلامة والمرض، هی فی الأغلب ولیدة الاستعمار والاستثمار، وهی مظاهر مختلفة للعبودیة والمظالم الظاهرة والخفیة.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۹۸

إنّ من المسلم أنّه لا یمکن أن تعتبر هذه الامور من فعل المشیئة الإلهیة ولیس من الصحیح مطلقاً الدفاع عن مثل هذه الاختلافات غیر المبرّرة أساساً. إنّ أفراد البشر یشکلون من حیث المجموع شجرة کبیرة واحدة یقوم کل فرد برسالة خاصة فی هذا الصرح العظیم، وله بنیان مخصوص یتلاءم مع وظائفه.

ولهذا یقول القرآن الکریم: إنّ هذه الفوارق وهذا التفاوت وسیلة لاختبارکم وامتحانکم، لأنّ الاختبار والامتحان الإلهی- کما قلنا سابقاً- یعنی «التربیة».

۲- خلافة الإنسان فی الأرض: إنّ النقطة الاخری الجدیرة بالاهتمام، هی أنّ القرآن الکریم وصف الإنسان مراراً بأنّه خلیفة اللَّه فی أرضه، إنّ هذا الوصف، وهذا التعبیر ضمن بیانه لمکانة الإنسان یبیّن هذه الحقیقة أیضاً، وهی: أنّ اللَّه تبارک وتعالی هو المالک الأصلی والحقیقی للأموال والثروات والقابلیات، وجمیع المواهب الإلهیة الممنوحة للإنسان، وما الإنسان- فی الحقیقة- إلّاخلیفة اللَّه ووکیل من جانبه، ومأذون من قبله.

ومن البدیهی أنّ الوکیل- مهما کان- فهو غیر مستقل فی تصرفاته، بل یجب أن تخضع تصرفاته لإذن صاحبها الأصلی، وتقع ضمن إجازته.

ومن هنا یتضح أنّ الإسلام- مثلًا- یختلف عن النظام الشیوعی، وکذا عن النظام الرأسمالی فی مسألة المالکیة، لأنّ الفریق الأوّل یخصص الملکیة بالجماعة، والفریق الثانی یخصصها بالفرد، بینما یقول الإسلام: الملکیة لا هی للفرد ولا هی للمجتمع، بل هی فی

الحقیقة للّه تعالی، والناس وکلاء اللّه، وخلفاؤه.

وبهذا الدلیل نفسه یراقب الإسلام طریقة تصرف الأفراد فی الأموال کسباً وصرفاً، ویضع لکل ذلک قیوداً وشروطاً تجعل الاقتصاد الإسلامی نظاماً متمیزاً فی مقابل الأنظمة الاخری.

«نهایة تفسیر سورة الأنعام»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۹۹

۷. سورة الاعراف

هذه السورة من السور المکیة إلّاقوله تعالی: «وَاسْئَلْهُم عَنِ الْقَرْیَةِ» إلی «بِمَا کَانُوا یَفْسُقُونَ» الذی نزل فی المدینة.

محتوی السورة: یشیر فی البدء إلی مسألة المبدأ والمعاد.

ثم بهدف إحیاء شخصیة الإنسان شرحت- باهتمام وعنایة کبیرة- قصة خلق آدم.

ثم عدّدت- بعد ذلک- المواثیق التی أخذها اللّه تعالی من أبناء آدم فی مسیر الهدایة والصلاح، واحداً واحداً.

ثم للتدلیل علی هزیمة وخسران الجماعات التی تحید عن سبیل التوحید والعدالة والتقوی، وکذا للتدلیل علی نجاح المؤمنین الصادقین وإنتصارهم، ذکرت قصص کثیر من الاقوام الغابرة والأنبیاء السابقین مثل «نوح» و «لوط» و «شعیب» وختمت ذلک ببیان قصة بنی إسرائیل، وجهاد «موسی» ضدّ فرعون، بصورة مفصلة.

وفی آخر السورة عادت مرّة اخری إلی مسألة المبدأ والمعاد، بهذا تتناغم البدایة والخاتمة.

فضیلة تلاوة هذه السورة: فی تفسیر العیاشی عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «من قرأ سورة الأعراف فی کل شهر کان یوم القیامة من الذین لا خوف علیهم ولا هم یحزنون، فإن قرأها

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۰

مختصر الامثل ج ۲ ۱۳۹

فی کل جمعة کان ممّن لا یحاسب یوم القیامة». ثم قال أبو عبد اللّه علیه السلام: «أما إنّ فیها آیاً محکمة فلا تدعوا قراءتها وتلاوتها والقیام بها فإنّها تشهد یوم القیامة لمن قرأها عند ربّه».

المص (۱) کِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَیْکَ فَلَا یَکُنْ فِی صَدْرِکَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِکْرَی لِلْمُؤْمِنِینَ (۲) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ وَ لَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِیَاءَ قَلِیلًا مَا تَذَکَّرُونَ (۳) فی مطلع هذه السورة نواجه مرّة اخری «الحروف المقطعة»، ویمکن أن یکون أحد الأهداف لهذه الحروف هو جلب إنتباه المستمعین، ودعوتهم إلی السکوت والإصغاء، لأنّ وجود هذه الحروف فی مطلع الکلام موضوع عجیب لم یسبق له مثیل فی نظر العرب، ومن شأنها أن تثیر فی العربی حبّ الاستطلاع، وتدعوه إلی متابعة الکلام إلی نهایته.

ثمّ یقول تعالی فی الآیة اللاحقة: «کِتَابٌ أُنزِلَ إِلَیْکَ فَلَا یَکُن فِی صَدْرِکَ حَرَجٌ مِّنْهُ».

«الحرج»: فی اللغة یعنی الشعور بالضیق وأیّ نوع من أنواع المعاناة.

إنّ العبارة الحاضرة تسلّی النبی صلی الله علیه و آله وتطمئن خاطره بأنّ هذه الآیات نازلة من جانب اللّه تعالی فیجب أن لا یشعر صلی الله علیه و آله بأیّ ضیق وحرج، لا من ناحیة ثقل الرسالة الملقاة علی عاتقه، ولا من ناحیة ردود فعل المعارضین والأعداء الألدّاء تجاه دعوته، ولا من ناحیة النتیجة المتوقّعة من تبلیغه ودعوته.

ثم یضیف تعالی فی الجملة اللاحقة أنّ الهدف من نزول هذا الکتاب العزیز هو إنذار الناس وتحذیرهم من عواقب نوایاهم وأعمالهم الشریرة، وتذکیر المؤمنین الصادقین، إذ یقول: «لِتُنذِرَ بِهِ وَذِکْرَی لِلْمُؤْمِنِینَ».

ثم إنّه سبحانه یوجّه خطابه إلی عامة الناس ویقول: «اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَیْکُم مِّن رَّبِّکُمْ».

وبهذا الطريق يكون قد بدأ الحديث عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله ومهمته ورسالته، وانتهى بوظيفة الناس وواجبهم تجاه الرسالة.

وللتأكيد يضيف سبحانه قائلًا: «وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» فلا تتبعوا غير أوامر اللّه، ولا تختاروا وليّاً غير اللّه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۱

وحيث إنّ الخاضعين للحق والمتذكرين قليلون، لذا قال فى ختام الآية: «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ».

ومن هذه الآية يستفاد أنّ الإنسان يواجه طريقين (أو خيارين) إمّا القبول بولاية اللّه وقيادته، وإمّا الدخول تحت ولاية الآخرين، فإذا سلك الطريق الأوّل كان اللّه وليّه، وأمّا إذا دخل تحت ولاية الآخرين فإنّ عليه- حينئذ- أن يخضع فى كل يوم لواحد من الأرباب، وأن يختار ربّاً جديداً.

وَ كَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (۴) فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلَّا أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (۵) هاتان الآيتان تشيران إلى العواقب المؤلمة التى تترتب على مخالفة الأوامر التى تمّ بيانها فى الآيات السابقة، كما أنّهما تعدّان فهرستاً إجمالياً عن قصص الأقوام المتعددة أمثال نوح، وقوم فرعون، وقوم عاد وثمود، وقوم لوط التى ستأتى فيما بعد.

إنّ القرآن الكريم يحذّر وينذر بشدة فى هذه الآية كل اولئك الذين يتمرّدون على تعاليم الأنبياء ويقومون بزرع الفجور والفساد بدل إصلاح أنفسهم وإصلاح الآخرين، بأن يتدبروا قليلًا فى حياة الأقوام السالفة وينظروا كم من قرية عامرة أبادها اللّه، وأهلك سكّانها الفاسقين: «وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا».

ثم يبيّن كيفية هلاكهم بأنّ العذاب الأليم جاءهم فى منتصف الليل وهم يقضون ساعات الراحة والسكون، أو فى وسط النهار وهم يمضون لحظات الاستراحة والإسترخاء بعد رحلة من العمل والنشاط اليومى الدّائب: «فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ».

ثم يواصل الحديث فى الآية اللاحقة هكذا: «فَمَا كَانَ دَعْوَيهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ». فعندما يتورّطون فى البلاء، وتتحطم حياتهم بعواصف الجزاء يتركون كبرياءهم ونخوتهم وينادون معترفين بظلمهم: إنّا كنا ظالمين.

ولكن لا يجديها مثل هذا الاعتراف، لأنّه نوع من الاعتراف الجبرى والاضطرارى الذى يضطرّ إليه حتى أشد الناس غروراً.

إنّ هذه الآيات تحذيرات صاعقة لهذا العصر وما يليه من العصور، لنا وللُامم والأقوام القادمة، لأنّه لا معنى للتبعيض فى السنّة الإلهية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۲

والإنسان المسلح بالتكنولوجيا المتقدمة مع كل ما اوتى من قوة هو الآخر عاجز أمام الزلازل والعواصف، وأمام السيول والأمطار الغزيرة، تماماً مثل عجز الامم ما قبل التاريخ وضعفها.

وعلى هذا فليست مثل تلك العواقب السيئة والأليمة التى أصابت ظَلَمة الامم الغابرة وجباريها، وحلّت بالمغرورين والفسقة والمتمردين ليلًا وحطّمتهم، ببعيدة عن الإنسان الحاضر.

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (۶) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ ما كُنَّا غائِبِينَ (۷) وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۸) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (۹) التحقيق الشامل: إنّ الآية المتقدمة تحدّثت عن الجزاء الدنيوى للظالمين، وهذه الآيات تبحث فى الجزاء والعقاب الاخروى لهم، وبهذا يتّضح الإرتباط بينها.

يقول تعالى أوّلًا وهو يقرر سنّة عامة: «فَلَنَسْلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ». أى إنّنا سنسأل فى يوم القيامة كل من أرسلنا لهدايته رسولًا، حتماً ودون ريب.

بل ونسأل الأنبياء أيضاً، ماذا فعلوا فى مجال تبليغ رسالتهم: «وَلَنَسْلَنَّ الْمُرْسَلِينَ».

وعلى هذا الأساس فالجميع مسؤولون، قادةً وأتباعاً، رسلًا ومرسلًا إليهم، غاية ما فى الأمر أنّه يختلف السؤال والمسؤوليات من طائفة إلى اخرى.

فى الآية اللاحقة- ولكى لا يتصور أحد بأنّ سؤال اللّه للانبياء يعنى أنّ الأمر قد خفى على اللّه وغاب عن علمه- قال تعالى بصراحة

مزيجة بالقسم، بأنّنا سوف نشرح لهم كل أعمالهم بعلمنا، لأنّه ما غاب عنا شيء من أفعالهم، وما غابوا هم عنا، فقد كنا معهم فى كل حين ومكان: «فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ».

المساءلة لماذا؟ نحن نعلم أنّ اللَّه سبحانه يعلم بكل شيء، فهو الحاضر فى كل زمان ومكان، الناظر لكل شيء من نيّة أو عمل، فما الحاجة إلى مساءلة الرسل والامم عامة

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٠٣

وبدون إستثناء؟!

الجواب على هذا السؤال واضح، لأنّ السؤال لو كان للاستعلام والاستفهام، وبهدف الوقوف على الحقيقة لم يصح أن يقع من العالِم العارف. وأمّا إذا كان المقصود منه هو إلفات الشخص إلى ما عمله، أو إتمام الحجة عليه، أو ما أشبه ذلك، لم يكن فى ذلك بأس ولا ضير، إذ يشبه ذلك تماماً ما لو أسدينا إلى أحد خدمات كثيرة وقابَلَنا بالإساءة والخيانة، وكان كل ذلك معلوماً معروفاً عندنا، ومع ذلك فإنّنا نسائله ونقول: ألسنا قد أسدينا إليك كذا وكذا من الخدمة؟ فهل كان هذا جزاء الإحسان إليك؟

إنّ مثل هذه المساءلة ليست لاكتساب العلم، واكتشاف الحقيقة المجهولة، بل هى لتفهيم الطرف الآخر وإيقافه على الحقيقة.

فى الآية اللاحقة- تكميلًا لمبحث المعاد- يشير تعالى إلى قضية «وزن الأعمال» الذى جاء ذكره فى السور القرآنية الاخرى مثل ما جاء فى سورة «المؤمنون» فى الآية (١٠٢ و ١٠٣) وسورة «القارعة» الآية (٦ و ٨).

فيقول أوّلًا: إنّ وزن الأعمال يومالقيامة أمر واقع لا ريب فيه: «وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ».

إذن، فالمسلم هو أنّ أعمال الإنسان توزن فى يوم القيامة بأداة خاصة لا بواسطة موازين مثل موازين الدنيا، ويمكن أن تكون تلك الأداة نفس وجود الأنبياء والأئمة والصالحين، وهذا ما يستفاد- أيضاً- من الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام.

بل إنّ أولياء اللَّه فى هذا العالم هم أيضاً مقاييس للوزن والتقييم، ولكن حيث إنّ أكثر الحقائق فى هذا العالم تبقى خلف حجب الإبهام والغموض، تبرز فى يوم القيامة بمقتضى قوله تعالى: «وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» (١). وتنكشف هذه الحقائق وتنجلى للعيان.

ثمّ إنّه تعالى يقول فى المقطع الآخر من الآية: «فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بَايَاتِنَا يَظْلِمُونَ».

إنّ من البديهى أنّ المراد من الخفّة والثقل فى الموازين ليس هو خفة وثقل نفس الميزان، بل قيمة ووزن الأشياء التى توزن بواسطة تلك الموازين، وتُقاس بتلك المقاييس.

إنّ جملة «كانوا بآياتنا يظلمون» إشارة إلى أنّ مثل هؤلاء لم يظلموا أنفسهم فحسب، بل

---

(١) سورة إبراهيم/ ٤٨.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٠٤

ظلموا- كذلك- البرامج الإلهية الهادية، لأنّ هذه البرامج كان ينبغى أن تكون سبلًا للهداية ووسائل للنجاة، ولو أنّ أحداً تجاهلها، ولم يكترث بها، فلم يحصل منها هذا الأثر، كان ظالماً لها.

وَ لَقَدْ مَكَّنّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ (١٠) مكانة الإنسان وعظمته فى عالم الوجود: عقيب الآيات التى أشارت إلى المبدأ والمعاد، يدور البحث فى هذه الآية والآيات اللاحقة حول عظمة الانسان وأهمية مقامه، وكيفية خلق هذا الكائن والمفاخر التى وهبها اللَّه له. فهو يقول فى البداية: نحن الذين منحناكم الملكية والحاكمية وسلّطناكم على الأرض: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الْأَرْضِ».

وأعطيناكم وسائل العيش بجميع أنواعها: «وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ».

ولكن مع ذلك لم تشكروا هذه النعم إلّاقليلًا «قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ».

وَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١۴) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١۵) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١۶) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَ عَنْ شَمَائِلِهِمْ وَ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) لقد أشير إلى مسألة خلق الإنسان وكيفية إيجاده فى سبع سور من سُوَر القرآن الكريم، وفى الآية المبحوثة الآن يقول اللَّه تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَئِكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ» جدّكم الأوّل، ومن المأمورين بالسجود إبليس الذى كان موجوداً فى صفوفهم وإن لم يكن منهم، فامتثلوا لهذا الأمر جميعاً وسجدوا لآدم إلّاإبليس: «فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٠۵

وكما قلنا فى ذيل الآية (٣۴) من سورة البقرة: إنّ سجود الملائكة لآدم لم يكن سجود عبادة، لأن العبادة مخصوصة للَّهسبحانه، بل السجدة هنا بمعنى التواضع.

فى الآية اللاحقة يقول تعالى: أنّه أخذ إبليس على عصيانه وطغيانه و «قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ». فتذرّع- فى مقام الجواب- بعذر غير وجيه إذ: «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ».

وكأنّ إبليس كان يتصور أنّ النار أفضل من التراب، وهذه هى أكبر غلطاته وأخطائه، ولعله لم يقل ذلك عن خطأ والتباس، بل كذب عن وعى وفهم، لأنّنا نعلم أنّ التراب مصدر أنواع البركات، ومنبع جميع المواد الحياتية، وأهم وسيلة لمواصلة الموجودات الحية حياتها، على حين أنّ الأمر بالنسبة إلى النار ليس على هذا الشكل.

على أنّ ميزة الإنسان لم تكن فى كونه من التراب، بل إنّ ميزته الأصلية تكمن فى «الروح الإنسانية» وفى خلافته للَّه تعالى.

والظاهر أنّ الشيطان كان يعرف بكلّ هذه الامور، ولكن التكبر، والأنانية هما اللذان منعاه عن امتثال أمر اللَّه، وكان ما أتى به من العذر حجة داحضة، ومحض تحجج وتعلل.

بقى هنا سؤال وهو: كيف كان يتحدّث الشيطان مع اللَّه، فهل كان ينزل عليه الوحى؟

الجواب هو: أنّ كلام اللَّه لا- يكون بالوحى دائماً، فالوحى عبارة عن رسالة النبوة، فلا مانع من أن يكلّم اللَّه أحداً لا بعنوان الوحى والرسالة، بل عن طريق الباطنى أو بواسطة بعض الملائكة، سواء كان من يحادثه اللَّه من الصالحين الأبرار مثل مريم وام موسى، أو من غير الصالحين مثل الشيطان.

ولنعد الآن إلى تفسير بقية الآيات:

حيث إنّ امتناع الشيطان من السجود لآدم عليه السلام لم يكن امتناعاً بسيطاً وعادياً ولم يكن معصية عادّية، بل كان تمرّداً مقروناً بالاعتراض والإنكار للمقام الربوبى، لهذا فإنّ مخالفته كانت تعنى الكفر وإنكار العلم والحكمة الإلهيين، فوجب أن يخسر جميع مراتبه ودرجاته، وبالتالى كل ما له من مكانة عند اللَّه، ولهذا أخرجه اللَّه من ذلك المقام الكريم، وجرّده من تلك المنزلة السامقة التى كان يتمتع بها فى صفوف الملائكة، فقال له: «فَاهْبِطْ مِنْهَا».

ثمّ إنّه تعالى شرح له منشأ هذا السقوط والتنزل بالعبارة التالية: «فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا».

وأضاف للتأكيد قائلًا: «فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ». يعنى إنّك بعملك وموقفك هذا لم

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٠۶

تصبح كبيراً، بل على العكس من ذلك أصبتَ بالصغار والذلة.

إنّ هذه الجملة توضّح بجلاء أنّ شقاء الشيطان كله كان وليد تكبره. فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «اصول الكفر ثلاثة: الحرص والاستكبار والحسد، فأمّا الحرص فإنّ آدم عليه السلام حين نهى عن الشجرة حمله الحرص على أن أكل منها، وأمّا الاستكبار فإبليس حيث امر بالسجود لآدم فأبى، وأمّا الحسد فإبنا آدم حيث قتل أحدهما صاحبه».

ولكن قصة الشيطان لم تنته إلى هذا الحد، فهو عندما عرف بأنّه صار مطروداً من حضرة ذى الجلال زاد من طغيانه ولجاجته، وبدل أن يتوب ويثوب إلى اللَّه ويعترف بخطئه فإنّ الشىء الوحيد الذى طلبه من اللَّه تعالى هو أن يمهله ويؤجّل موته إلى يوم القيامة: «قَالَ أَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

ولقد استجاب اللَّه لهذا الطلب، ف «قَالَ إِنَّکَ مِنَ الْمُنظَرِينَ».

غير أنّ الشيطان لم يبغ من مطلبه هذا (أى الإمهال الطويل) الحصول على فرصة لجبران مافات منه أو ليعمّر طويلًا، إنّما كان هدفه من ذلك هو إغواء بنى البشر «قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَکَ الْمُسْتَقِيمَ». أى لأغوينهم كما غويت، ولُاضلنّهم كما ضللت.

ثمّ إنّ الشيطان أضاف- تأكيداً لقوله- بأنّه لن يكتفى بالقعود بالمرصاد لهم، بل سيأتيهم من كل حدب وصوب، ويسدّ عليهم الطريق من كل جانب «ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ».

ولقد نقل- فى المجمع- عن الإمام الباقر عليه السلام تفسير أعمق لهذه الجهات الأربع حيث قال:

«ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم، معناه: اهوّن عليهم أمر الآخرة؛ ومن خلفهم، آمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم؛ وعن أيمانهم، افسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة؛ وعن شمائلهم، بتحبيب اللذات إليهم وتغليب الشهوات على قلوبهم».

وفى آخر آية من الآيات المبحوثة هنا يصدر مرّة اخرى الأمر بخروج الشيطان من حريم القرب الإلهى والمقام الرفيع، بفارق واحد، هو أنّ الأمر بطرده هنا اتّخذ صورة أكثر ازدراء وتحقيراً، وأشد عنفاً ووقعاً، ولعل هذا كان لأجل العناد واللجاج الذى أبداه الشيطان بالإلحاح على الوسوسة للإنسان وإغوائه وإغرائه، يعنى أنّ موقفه الأثيم فى البداية كان منحصراً فى التمرد على أمر اللَّه وعدم إمتثاله، ولهذا صدر الأمر بخروجه فقط، ولكن عندما أضاف معصية أكبر إلى معصيته بالعزم على إضلال الآخرين جاء الأمر المشدد: «قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۷

ثم حلف على أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه: «لَّمَن تَبِعَکَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ».

سؤال: بعد أن ارتكب الشيطان مثل تلك المعصية الكبيرة، لماذا قبل اللَّه طلبه فى الإمهال، وتأخير الأجل؟

إنّ مواصلة الشيطان لحياته كقضية سلبية يكون وجودها ضرورياً لتقوية نقاط إيجابية، لا يكون غير مضرّ فحسب، بل هو مؤثر ومفيد أيضاً، فإنّه مع غض النظر عن الشيطان، هناك مجموعة من الغرائز المختلفة فى داخلنا، وهى بوقوفها فى الطرف الآخر من قوانا العقلية والروحية تشكّلان ساحة صراع وتناقض قويين، وفى مثل هذه الساحة يتحقق تقدم الإنسان وتكامله، وتربيته ورشده.

إنّ النقطة المهمة التى يجب الإنتباه إليها هى أنّ اللَّه تعالى وإن كان ترك الشيطان حرّاً فى القيام بوساوسه، ولكنه من جانب آخر لم يدع الإنسان مجرداً من الدفاع عن نفسه.

لأنّه أوّلًا: وهبه قوة العقل التى يمكن أن توجد سدّاً قوياً منيعاً فى وجه الوساوس الشيطانية خاصة إذا لقيت تربية صالحة.

وثانياً: جعل الفطرة النقيّة وحب التكامل فى باطن الإنسان كعامل فعّال من عوامل السعادة.

وثالثاً: يبعث الملائكة التى تلهم الخيرات إلى الذين يريدون أن يعيشوا بمنأى عن الوساوس الشيطانية، كما يصرّح القرآن الكريم بذلك- فى الآية (۳۰) من سورة فصّلت- إذ يقول: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلِکَةُ». إنّها تنزل عليهم لتقوية معنوياتهم بإلهامهم ألوان البشارات والتطمينات لهم.

وَ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لَا تَقْرَبَا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (۱۹) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَ قَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (۲۰) وَ قَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (۲۱) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَ لَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (۲۲)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۸

وساوس شيطانية فى حُلل خَلّابة: تُبيّن هذه الآيات وتستعرض فصلًا آخر من قصة آدم، فتقول أوّلًا: إنّ اللَّه سبحانه أمر آدم وزوجته حواء بأن يسكنا الجنة: «وَيَا ءَادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ».

ويستفاد من هذه العبارة أنّ آدم وحواء لم يكونا فى بدء الخلقة فى الجنة. وفى هذه الأثناء صدر أوّل تكليف وأمر ونهى إلى آدم وحواء من جانب اللَّه تعالى، بهذه الصورة: «فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ». أى إنّ الأكل من جميع أشجار هذه الجنة مباح لكما، إلّاشجرة خاصه لا تقرباها، وإلّا كنتما من الظالمين.

ثم إنّ الشيطان الذى طُرِد من رحمة اللَّه تعالى بسبب إحجامه عن السجود لآدم، وكان قد صمّم على أن ينتقم لنفسه من آدم وبنيه ما أمكن.

بدأ بنزع لباس الطاعة والعبودية للَّه، عنهما، فأبدى عورتهما التى كانت مخبأة مستورة:

«فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُورِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا».

وللوصول إلى هذا الهدف رأى أنّ أفضل طريق هو أن يستغلّ حب الإنسان ورغبته الذاتية فى التكامل والرقى والحياة الخالدة، وليوفّر لهما عذراً يعتذران ويتوسلان به لتبرير مخالفتهما لأمر اللَّه ونهيه، ولهذا قال لآدم وزوجته: «مَا نَهكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ».

وبهذه الطريقة صوّر الأمر الإلهى فى نظرهما بشكل آخر.

ولما سمع آدم هذا الكلام غرق فى التفكير ولكن الشيطان- من أجل أن يحكم قبضته ويعمّق وسوسته فى روح آدم وحواء- توسل بالأيمان المغلّظة للتدليل على أنّه يريد لهما الخير! «وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ».

لم يكن آدم يمتلك تجربة كافية عن الحياة، ولم يكن قد وقع فى حبائل الشيطان وخدعه بعد ولم يعرف بكذبه وتضليله قبل هذا، كما أنّه لم يكن فى مقدوره أن يصدّق بأن يأتى بمثل هذه الأيمان المغلّظة كذباً، ولهذا وقع فى حبال الشيطان، وسقط فى ورطة المخالفة والعصيان للأوامر الإلهية، كما يعبّر القرآن عن ذلك ويلخّصه فى عبارة موجزة إذ يقول: «فَدَلهُمَا بِغُرُورٍ» «۱».

---

(۱) «دلّى»: من مادة التدلية وتعنى إرسال الدلو فى البئر بحبلٍ تدريجاً وهذه كناية لطيفة عن أنّ الشيطان أنزل بحبل مكره وخداعه آدم وزوجته من مقامهما الرفيع، وأرسلهما إلى قعر بئر المشكلات والإبتعاد عن الرحمة الإلهية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۰۹

وبمجرّد أن ذاق آدم وزوجته من تلك الشجرة الممنوعة تساقط عنهما ما كان عليهما من لباس وانكشفت سوءاتهما «فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا».

وجُرّدا من لباس الجنة الذى هو لباس الكرامة الإلهية.

ثم يقول: إنّ آدم وحواء لمّا وجدا نفسيهما عاريين عمدا فوراً إلى ستر نفسيهما بأوراق الجنة: «وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ» «۱».

وفى هذا الوقت بالذات جاءهما نداء من اللَّه يقول: ألم احذّركما من الاقتراب والأكل من هذه الشجرة؟ ألم أقل لكما: إنّ الشيطان

عدوّ لكما؟ فلماذا تناسيتم أمرى ووقعتم فى‌مثل هذه الأزمة: «وَنَادَيهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ».

من المقايسة بين تعبير هذه الآية والآية الاولى التى أجاز اللَّه فيها لآدم وحواء أن يسكنا الجنة، يستفاد بوضوح أنّهما بعد هذه المعصية ابتعدا عن مقام القرب الإلهى.

بحثان

۱- ماذا كانت الشجرة الممنوعة؟ جاءت فى المصادر الإسلامية تفسيران لها، أحدهما «مادى» وهو أنّها كانت «الحنطة» كما هو المعروف فى الروايات.

والتفسير الآخر «معنوى» وهو أنّ المقصود من تلك الشجرة- كما فى الرّوايات- هو ما عبّر عنها ب «شجرة الحسد» لأنّ آدم طبقاً لهذه الروايات- بعد ملاحظة مكانته ومقامه- تصوّر أنّه لا يوجد فوق مقامه مقام، ولا فوق مكانته مكانة، ولكن اللَّه تعالى أطلعه على مقام ثلّة من الأولياء من ذريته وأبنائه (رسول الأكرم وأهل بيته)، فحصل عنده ما يشبه الحسد، وكانت هذه هى الشجرة الممنوعة التى امر آدم بأن لا يقربها.

وفى الحقيقة تناول آدم- طبقاً لهذه الروايات- من شجرتين، كانت إحداهما أقل منه مرتبة وأدنى منه منزلة، وقد قادته إلى العالم المادى، وكانت هى «الحنطة». والاخرى هى الشجرة المعنوية التى كانت تمثل مقام ثلّة من أولياء اللَّه، والذى كان أعلى وأسمى من مقامه ومرتبته، وحيث إنّه تعدّى حدّه فى كلا الصعيدين ابتلى بذلك المصير المؤلم.

ولكن يجب أن نعلم أنّ هذا الحسد لم يكن من النوع الحرام، بل كان مجرد إحساس

---

(۱) «يخصفان»: من مادة «الخصف» وتعنى فى الأصل ضمّ شىء إلى شىء آخر، والجمع، ثمّ أطلق على ترفيع النعل أو الثوب المتمزق وخياطته فقيل: خصف النعل أو الثوب، أى جمع الأجزاء المتفرقة وضمّ بعضها إلى الآخر.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۰

نفسانى من دون أن تتبعه أيّة خطوة عملية على طبقه. ۲- هل ارتكب آدم معصية؟ إنّ المصادر الإسلامية تقول لنا: إنّ الأنبياء لا-يرتكبون إثماً وإنّ منصب إمامة الناس وهدايتهم لا-يُعطى لمن يرتكب ذنباً ويقترف معصية. ونحن نعلم أنّ آدم كان من الأنبياء الإلهيين، وعلى هذا الأساس فإنّ التعابير التى جاءت فى القرآن حول سائر الأنبياء الذين نسب إليهم العصيان، جميعها تعنى «العصيان النسبى» و «ترك الأولى» لا العصيان المطلق.

وتوضيح ذلك: أنّ المعصية على نوعين: «المعصية المطلقة» و «المعصية النسبية»، والمعصية المطلقة هى مخالفة النهى التحريمى، وتجاهل الأمر الإلهى القطعى، وهى تشمل كل نوع من أنواع ترك الواجب وإتيان الحرام.

ولكن المعصية النسبية هى أن يصدر من شخصية كبيرة عمل غير حرام لا يناسب شأنه ولا يليق بمقامه.

فالصلاة التى يقوم بها فرد عادى قد تعتبر صلاة ممتازة، ولكنها تعدّ معصية إذا صدر مثلها من أولياء اللَّه.

وهكذا الحال فى سائر أعمالهم، فإنّها على غرار عباداتهم، يجب أن تقاس بمنازلهم وشؤونهم، ولهذا إذا صدر منهم «ترك الأولى» عوتبوا من جانب اللَّه، والمراد من ترك الأولى هو أن يترك الإنسان فعل ما هو الأفضل ويعمد إلى عمل جيّد أو مستحب أدنى منه فى الفضل.

إنّ نهى آدم عن الشجرة الممنوعة لم يكن نهياً تحريمياً، بل كان ترك أولى، ولكن نظراً إلى مكانة آدم ومقامه ومرتبته عُدّ صدوره أمراً مهمّاً وخطيراً، واستوجب مخالفة هذا النهى (وإن كان نهياً كراهياً وتنزيهياً) تلك العقوبة والمؤاخذة من جانب اللَّه تعالى.

قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۲۳) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ

مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (۲۴) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ (۲۵) رجوع آدم إلى اللّه وتوبته: وفى المآل عندما عرف آدم وحواء بكيد إبليس، وخطّته ومكره الشيطانى، ورأيا نتيجة مخالفتهم فكرا فى تلافى ما فات، وجبران ما صدر منهما،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۱

فكانت أوّل خطوة خطياها هى: الاعتراف بظلمهما لنفسيهما أمام اللّه: «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ».

إنّ توبة آدم وحواء الخالصة وإن قُبلت من جانب اللّه تعالى- كما نقرأ ذلك فى الآية (۳۷) من سورة البقرة: «فَتَابَ اللَّهُ»- ولكنهما لم يستطيعا على كل حال التخلّص من الأثر الوضعى والنتيجة الطبيعية لعملهما، فقد امرا بمغادرة الجنة، وشمل هذا الأمر الشيطان أيضاً:

«قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ».

كما ذكّر الجميع بأنّهم سيتعرضون فى الأرض للموت بعد الحياة، ثم يخرجون من الأرض مرّة اخرى للحساب «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ».

يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِبَاسُ التَّقْوَى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۲۶) يَا بَنِى آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (۲۷) وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَ اللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۲۸) إنذار إلى كل أبناء آدم: إنّ اللّه تعالى بيّن فى الآيات الحاضرة وما بعدها سلسلة من التعاليم والبرامج البنّاءة لجميع أبناء آدم، وهى تعتبر فى الحقيقة استمراراً لبرامج آدم فى الجنة.

ففى البداية يشير إلى مسألة اللباس وستر سَوءات البدن التى كان لها دور مهم فى قصة آدم، إذ يقول: «يَا بَنِى ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ».

ولكن فائدة اللباس الذى أرسلناه لكم لا تقتصر على ستر البدن وإخفاء العيوب والسوءآت، بل للتجمل والزينة أيضاً حيث يجعل أجسامكم أجمل مما هى عليه.

«وَرِيشًا».

«ريش»: فى الأصل هو ما يستر أجسام الطيور، وحيث إنّ ريش الطيور هو اللباس الطبيعى فى أجسامها، لهذا اطلق على نوع من أنواع الألبسة، ولكن حيث إنّ ريش الطير فى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۲

الأغلب مختلف الألوان جميلها، لذلك تتضمن هذه الكلمة مفهوم الزينة والجمال.

ثم تحدث القرآن عقيب هذه الجملة التى كانت حول اللباس الظاهرى، عن حد اللباس المعنوى تبعاً لسيرته فى الكثير من الموارد التى تمزج بين الجانبين المادى والمعنوى، الظاهرى والباطنى إذ قال: «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذلِكَ خَيْرٌ».

وتشبيه التقوى باللباس تشبيه قوى الدلالة، معبّر جداً، لأنّه كما أنّ اللباس يحفظ البدن من الحرّ والقرّ، يقى الجسم عن الكثير من الأخطار، ويستر العيوب الجسمانية، وهو بالإضافة إلى هذا وذاك زينة للإنسان، ومصدر جمال، كذلك روح التقوى، فإنّها مضافاً إلى ستر عيوب الانسان، ووقايته من الكثير من الأخطار الفردية والاجتماعية، تعدّ زينة كبرى له ...

زينة ملفتة للنظر تضيف إلى شخصيته رفعة وسمّواً، وتزيدها جلالًا وبهاء.

والمراد من لباس التقوى هو «روح التقوى» التى تحفظ الإنسان، وتنطوى تحتها معانى «الحياء» و «العمل الصالح» وأمثالهما.

ثمّ إنّ اللّه تعالى يقول فى ختام الآية: «ذلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ». أى إنّ هذه الألبسة التى جعلها اللّه لكم، سواء الألبسة المادية أو المعنوية، اللباس الجسمانى أو لباس التقوى، كلها من آيات اللّه ليتذكر الناس نعم الرب تعالى.

اللباس فى الماضى والحاضر: لم يزل الإنسان فيما مضى- كما يشهد به التاريخ- يلبس الثياب ولكن الألبسة قد تغيرت وتنوعت تنوعاً بالغاً عبر الزمن. لقد تطورت وسائل إنتاج الألبسة والثياب فى عصرنا الراهن تطوراً هائلًا، واتسع نطاقها اتساعاً كبيراً، بحيث أصبح لا يقاس بما مضى.

ولكن- للأسف- قد اتسعت الجوانب الفرعية، بل وغير المحمودة والفاضحة للثياب والألبسة وتعددت كثيراً إلى درجة أنّها غطت على الفلسفة الأصلية للباس.

لقد أصبح اللباس- اليوم- وسيلة لأنواع التظاهر، وإشاعة الفساد، وتحريك الشهوات، والتكبر والإسراف والتبذير، وما شابه ذلك. حتى أنّنا ربّما نشاهد ألبسة يرتديها جماعات من الناس- وبخاصة الشباب المتغرب- يفوق طابُعها الجنونى على الطابع العقلانى، وتكون أشبه بكل شىء إلّاباللباس والثوب.

الآية اللاحقة يحذّر فيها اللّه سبحانه جميع أبناء البشر من ذرية آدم من كيد الشيطان ومكره، ويدعو إلى مراقبته، والحذر منه، لأنّ الشيطان أبدى عداءه لأبيهم آدم، فكما أنّه

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١١٣

نزع عنه لباس الجنة بوساوسه يمكن أن ينزع عنهم لباس التقوى، ولهذا يقول تعالى: «يَا بَنِى ءَادَمَ لَايَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا».

ثمّ إنّ اللّه تعالى يؤكّد على أنّ الشيطان وأعوانه يختلفون عن غيرهم من الأعداء: «إِنَّهُ يَرَيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَاتَرَوْنَهُمْ». فلابدّ من شدة الحذر من مثل هذا العدو.

وفى خاتمة الآية يأتى سبحانه بجملة هى إجابة على سؤال مهم، فقد يتساءل أحد: كيف سلّط اللّه العادل الرحيم عدوّاً بهذه القوة على الإنسان ... عدوّاً لا يمكن مقايسة قواه بقوى الإنسان ... عدواً يذهب حيث يشاء دون أن يحس أحد بتحركاته، بل إنّه- حسبما جاء فى بعض الأحاديث- يجرى من الإنسان مجرى الدم فى عروقه، فهل تنسجم هذه الحقيقة مع عدالة اللّه سبحانه؟!

الآية الشريفة- فى خاتمتها- ترد على هذا السؤال الاحتمالى إذ تقول: «إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ». أى إنّ الخطوات الاولى نحو الشيطان إنّما يخطوها الإنسان نفسه، وهو الذى يسمح للشيطان بأن يتسلل إلى مملكة جسمه. فالشيطان لا يستطيع إجتياز حدود الروح ويعبرها إلّابعد موافقة من الإنسان نفسه.

وفى الآية (٤٢) من سورة الحجر نقرأ: «إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ».

فى الآية التالية يشير تعالى إلى واحدة من وساوس الشيطان المهمة والتى تجرى على ألسنة بعض الشياطين من الإنس أيضاً، وهى أنّه عندما يُسأل الشخص لدى إرتكابه عملًا قبيحاً، عن دليله يجيب قائلًا: هذا ما وجدنا آباءنا يفعلونه: «وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا».

ثمّ يضيفون إلى هذه الحجة حجة كاذبة اخرى قائلين: «وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا».

والملفت للنظر أنّ القرآن الكريم لم يعبأ بالدليل الأول (يعنى التقليد الأعمى للآباء والأسلاف) ولم يعتن به، وإنّما اكتفى بالردّ على الحجة الثانية، أو بالأحرى (التبرير الثانى) حيث قال: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَايَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ».

ثم يختم الآية بهذه العبارة: «أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

«الفحشاء»: هنا هو كل عمل قبيح منكر، ومسألة «الطواف بالبيت عراة» و «اتباع

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١١٤

القادة والزعماء الظلمة» تعدّ من المصاديق الواضحة لذلك.

قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقاً هَدَى وَ فَرِيقاً حَقَّ

عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (۳۰) بما أنّ الحديث فی الآية السابقة دار حول الفحشاء التی يشمل مفهوماً كل أنواع الفعل القبيح، وتأكد أنّ اللَّه لا يأمر بالفحشاء اطلاقاً لهذا اشير فی هذه الآية إلى أصول ومبادىء التعاليم الإلهية فی مجال الوظائف والواجبات العملية فی جملة قصيرة، ثم تبعه بيان أصول العقائد الدينية، أى المبدأ والمعاد، بصورة مختصرة موجزة.

يقول أوّلًا: أيها النبی «قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ» والعدل.

ونحن نعلم أنّ للعدل مفهوماً واسعاً يشمل جميع الأعمال الصالحة، لأنّ حقيقة العدل هی استخدام كل شیء فی مجاله، ووضع كل شیء فی محله.

ثمّ إنّه سبحانه أمر بالتوحيد فی العبادة ومحاربة كل ألوان الشرك وأنواعه، إذ قال:

«وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ». أى وجّهوا قلوبكم نحو اللَّه الواحد دون سواه «وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ».

وبعد تحكيم وإرساء قاعدة التوحيد، وجه الأنظار نحو مسألة المعاد والبعث يوم القيامة، إذ قال: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ».

إنّ الآية الحاضرة تعكس إحدى أقصر وأجمل التعابير فی مسألة المعاد الجسمانی، إذ تقول: انظروا إلى بداية الخلق، انظروا إلى جسمكم الذی يتكون من مقدار كبير من الماء، ومقدار أقل من المواد المعدنية وشبه المعدنية المختلفة المتنوعة أين كان فی السابق؟ فالمياه المستخدمة فی جسمكم يحتمل أنّ كل قطرة منها كانت سادرة فی محيط من محيطات الأرض ثم تبخّرت وتبدلت إلى السُّحب، ثم نزلت فی شكل قطرات المطر على الأراضی، والذرات التی استخدمت فی نسيج جسمكم من مواد الأرض الجامدة كانت ذات يوم فی هيئة حبّة قمح أو ثمرة شجرة، أو خضروات مختلفة جُمعت من مختلف نقاط الأرض.

وعلى هذا فلا مكان للتعجب والدهشة إذا سمعنا أنّه بعد تلاشی بدن الإنسان ورجوعه

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۵

إلى حالته الاولى تجتمع تلك الذرات ثانية، وتتواصل وتترابط ويتشكل الجسم الأول، فلو كان هذا الأمر محالًا فلماذا وقع فی مبدأ الخلقة؟!

إذاً «كما بدأكم» اللَّه «تعودون» أى يعيدكم فی الآخرة، وهذا هو الموضوع الذی تضمنته العبارة القصيرة.

فی الآية اللاحقة يصف سبحانه ردود الفعل التی أظهرها الناس قبال هذه الدعوة (الدعوة إلى التوحيد والخير والمعاد) فيقول: «فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّللَةُ».

ولأجل أن لا يتصور أحد أنّ اللَّه يهدی فريقاً أو يضلّ فريقاً من دون سبب، أضاف فی الجملة ما يلی: «إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ». أى إنّ الضالين هم الذين إختاروا الشياطين أولياء لهم بدل أن يدخلوا تحت ولاية اللَّه، فضلوا.

والعجب أنّه رغم كل ما أصابهم من ضلال وانحراف يحسبون أنّهم المهتدون الحقيقيون «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ».

إنّ هذه الحالة تختص بالذين غرقوا فی الطغيان والمعصية، وفی هذه الحالة اغلقت فی وجوههم كل أبواب الهداية، وهذا هو ما أوجدوه وجلبوه لأنفسهم.

يَا بَنِی آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (۳۱) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِی أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِیَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِی الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۳۲) الحديث فی هاتين الآيتين يتناسب مع قصة آدم فی الجنة، وكذلك يتناول مسألة اللباس وسائر مواهب الحياة، وكيفية الاستفادة الصحيحة منها.

فی البداية يأمر جميع أبناء آدم ضمن دستور عام أبدى، يشمل جميع الأعصار والقرون، أن يتخذوا زينتهم عندما يذهبون إلى المساجد: «يَا بَنِی ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ».

هذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى كل «زينة جسمانية» مما يشمل لبس الثياب المرتبة الطاهرة الجميلة، وتمشيط الشعر، واستعمال

الطيب والعطر وما شابه ذلك كما يمكن أيضاً أن تكون إشارة إلى كل «زينة معنوية» يعنى الصفات الإنسانية والملكات الأخلاقية، وصدق

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١١٦

النية وطهارتها وإخلاصها. ثمّ فى العبارة اللاحقة يشير سبحانه إلى مواهب اخرى، يعنى الأطعمة والأشربة الطاهرة الطيبة، ويقول: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا».

ولكن حيث إنّ الإنسان حريص بحكم طبيعته البشرية، يمكن أن يسىء استخدام هذين التعليمين، وبدل أن يستفيد من نعمة اللباس والغذاء الصحيح بالشكل المعقول والمعتدل، يسلك سبيل الإسراف والتبذير والبذخ، لهذا أضاف مباشرة قائلًا: «وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ».

«الإسراف»: كلمة جامعة جدّاً بحيث تشمل كل إفراط فى الكم والكيف، وكذا الأعمال العابثة والإتلاف وما شابه ذلك.

وفى الآية اللاحقة يعمد إلى الردّ- بلهجة أكثر حدّةً- على من يظن أنّ تحريم أنواع الزينة والتزين والإجتناب من الأطعمة الطيبة الحلال علامة الزهد، وسبباً للتقرب إلى اللَّه فيقول:

أيّها النبى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ».

ثمّ أضاف للتأكيد: «قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيمَةِ». أى إنّ هذه النعم والمواهب قد خلقت للمؤمنين فى هذه الحياة، وإن كان الآخرون- أيضاً- يستفيدون منها رغم عدم صلاحيتهم لذلك، ولكن فى يوم القيامة حيث الحياة الأعلى والأفضل، وحيث يتميز الخبيث عن الطيب، فإنّ هذه المواهب والنعم ستوضع تحت تصرف المؤمنين الصالحين فقط، ويحرم منها الآخرون حرماناً كلياً.

وفى ختام الآية يقول من باب التأكيد: «كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

لقد اختار الإسلام- كسائر الموارد- حدّ التوسط والإعتدال فى مجال الإنتفاع والاستفادة من أنواع الزينة.

ولم يكتف الإسلام بتجويز التمتع بجمال الطبيعة والاستفادة من الألبسة الجميلة والمناسبة واستعمال كل أنواع العطور فحسب بل اوصى بذلك وحثّ عليه أيضاً.

توصية صحية هامة: إنّ عبارة «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا» التى جاءت فى الآية الحاضرة، وإن كانت تبدو للنظر أمراً بسيطاً جدّاً، إلّاأنّه ثبت اليوم أنّه واحد من أهم الأوامر والتعاليم الصحية، وذلك لأنّ تحقيقات العلماء توصلت إلى أنّ منبع الكثير من الأمراض والآلام هو الأطعمة الإضافية الزائدة التى تبقى فى بدن الإنسان إنّ هذه المواد الإضافية تشكل من جانب عبئاً ثقيلًا على القلب وغيره من أجهزة الجسم، وهى من

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١١٧

جانب آخر منبع مهيّأ لمختلف أنواع العفونات والأمراض.

إنّ العامل الأصل فى وجود هذه المواد الزائدة هو الإسراف، والإفراط فى الأكل والبطنة، والطريق إلى تجنب هذه الحالة ليس إلّارعاية الإعتدال فى الأكل.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) لقد شاهدنا مراراً أنّ القرآن الكريم كلّما تحدث عن أمر مباح أو لازم، تحدث فوراً عن ما يقابله، من الامور القبيحة والمحرمات، ليكمّل كل واحد منهما الآخر.

وهنا أيضاً تحدّث- عقيب السماح بالتمتع والاستفادة من المواهب الإلهية وإباحة كل ما هو زينة وجمال- عن المحرمات على نحو العموم، ثم أشار بصورة خاصة إلى عدة نقاط مهمة.

ففى البداية تحدث عن تحريم الفواحش وقال: يا أيّها النبى «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ».

«الفواحش»: جمع «فاحشة» وتعنى الأعمال القبيحة البالغة فى القبح والسوء لا جميع الذنوب، ولعل التأكيد على هذا المطلب (ماظهر منها وما بطن) هو لأجل أنّ العرب الجاهليين كانوا لا يستقبحون عمل الزنا إذا اتى به سرّاً، ويحرّمونه إذا كان ظاهراً مكشوفاً.

ثمّ إنّه عمّم الموضوع وأشار إلى جميع الذنوب وقال: «وَالْإِثْمَ». أى كل إثم.

والإثم فى الأصل يعنى كل عمل مضر، وكل ما يوجب انحطاط مقام الإنسان وتردّى منزلته، ويمنعه ويحرمه من نيل الثواب والأجر الحسن. وعلى هذا يدخل كل نوع من أنواع الذنوب فى المفهوم الواسع للإثم.

ومرّة اخرى يشير بصورة خاصة إلى عدد من كبريات المعاصى والآثام، فيقول:

«وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقّ». أى كل نوع من أنواع الظلم، والتجاوز على حقوق الآخرين.

«البغى»: يعنى السعى والمحاولة لتحصيل شىء ولكن يراد منه غالباً الجهود المبذولة لغصب حقوق الآخرين، ولهذا يكون مفهومه- فى الغالب- مساوياً لمفهوم الظلم.

ثمّ أشار تعالى إلى مسألة الشرك وقال: «وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا». فهو أيضاً محرّم عليكم.

وآخر ما يؤكّد عليه من المحرمات هو نسبة شىء للّهلايستند إلى علم: «وَأَن تَقُولُوا عَلَى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۸

اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ (۳۴) لكل امة أجل: فى هذه الآية يشير اللَّه تعالى إلى واحدة من سنن الكون والحياة، أى فناء الامم وزوالها، ويلقى ضوءاً أكثر على الأبحاث التى تتعلق بحياة أبناء البشر على وجه الأرض ومصير العصاة، التى سبق الحديث عنها فى الآيات السابقة. فيقول أوّلًا: «وَلِكُلّ أُمَّةٍ أَجَلٌ».

ثم يشير إلى أنّ هذا الأجل لا يتقدم ولا يتأخر إن جاء «فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ». أى إنّ الامم والشعوب مثل الأفراد، لها موت وحياة، وأنّ الامم تندثر وينمحى أثرها من على وجه الأرض، وتحل مكانها امم اخرى، وإنّ سنّة الموت وقانون الفناء لا يختصان بأفراد الإنسان، بل تشمل الجماعات والأقوام والامم أيضاً، مع فارق وهو أنّ موت الشعوب والأمم يكون- فى الغالب- على أثر انحرافها عن جادة الحق والعدل، والإقبال على الظلم والجور، والإنغماس فى بحار الشهوات، والغرق فى أمواج الإفراط فى التجمل والرفاهية.

فعندما تسلك الأمم فى العالم هذه المسالك وتنحرف عن سنن الكون وقوانين الخلقة، تفقد مصادرها الحيوية الواحد تلو الآخر، وتسقط فى النهاية.

ويجب الإلتفات إلى أنّ «الساعة» فى اللغة تعنى أصغر وحدة زمنية، فربّما تكون بمعنى لحظة، وربّما تكون بمعنى أقل قدر من الزمن.

يَا بَنِى آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى فَمَنِ اتَّقَى وَ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۳۵) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۳۶) تعليم آخر لأبناء آدم: مرّة اخرى يخاطب اللَّه سبحانه أبناء آدم وذريته، إذ يقول: «يَا بَنِى ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَتِى فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». أى إذا أتتكم رسلى يتلون عليكم آياتى فاتبعوهم، لأنّ من اتقى منكم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۱۹

واتبعهم وأصلح نفسه والآخرين كان فى أمن من عذاب اللَّه الأليم، فلا يخاف ولا يحزن.

وفى الآية اللاحقة يضيف سبحانه وتعالى قائلًا: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

فتلك عاقبة المؤمنين، وهذه عاقبة المكذبين لهم.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أولئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَ شَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) من هذه الآية فما بعد تتضمن الآيات بيان أقسام مختلفة من المصير السيء الذى ينتظر المفترين والمكذبين لآيات اللَّه تعالى، وفى البداية تشير إلى كيفية حالهم عند الموت، إذ تقول: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بَايَاتِهِ».

ثمّ إنّه تعالى يصف وضعهم عند الموت فيقول: «أُولئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ». أى إنّ هؤلاء سيأخذون ما هو نصيبهم وما هو مقدر مكتوب لهم من النعم المختلفة، حتى إذا استوفوا حظهم من العمر، وانتهوا إلى آجالهم النهائية، حينئذ تأتيهم ملائكتنا الموكلون بقبض أرواحهم.

وعلى كل حال، فإنّ عقوباتهم تبدأ منذ لحظة حلول الموت، ففى البداية يواجهون التوبيخ وعتاب الملائكة المكلفين بقبض أرواحهم، فيسألونهم: أين معبوداتكم التى اتخذتموها من دون اللَّه والتى طالما تحدثتم عنها، وكنتم تسوقون إليها ثرواتكم سفهاً. «قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ».

فيجيبهم هؤلاء بعد أن يرون أنفسهم منقطعين عن كل شىء، ويرون كيف تبددت جميع أوهامهم و تصوراتهم الخاطئة حول آلهتهموذهبت أدراجالرياح، قائلين: لانرى منها أثراً وإنّها لا تملك أن تدافع عنّا، وإنّ جميع ما فعلناه من العبادة لها كان عبثاً وباطلًا: «قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا».

وهكذا يشهدون على أنفسهم بالكفر والضلال: «وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ». أى فى حين أغلق فى وجههم طريق العودة، وهذا هو أوّل سوط جهنمى من سياط العقوبة الإلهية التى تتعرض لها أرواحهم.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٢٠

قَالَ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِى النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَ قَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) تنازع القادة والاتباع فى جهنم: فى هذه الآية يواصل القرآن الكريم بيان المصير المشؤوم للمكذبين بآيات اللَّه، وقد صوّرت لنا الآيات السابقة وضعهم عند حلول الموت، وسؤال الملائكة القابضة للأرواح لهم، وهنا يرسم لنا ما يجرى بين الجماعات المظلة والغاوية، وبين من تعرضوا للإغواء فى يوم القيامة. ففى يوم القيامة يقول اللَّه لهم: التحقوا بمن يشابهكم من الجن والإنس ممن سبقوكم، وذوقوا نفس مصيرهم النار «قَالَ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مّنَ الْجِنّ وَالْإِنسِ فِى النَّارِ».

وعندما يدخل الجميع فى النار تبدأ مصادماتهم مع زملائهم وأشباههم فى المسلك، وهى مصادمات عجيبة، فكلما دخلت جماعة منهم فى النار لعنت الاخرى واعتبرتها سبباً لشقائها ومسؤولة عن بلائها ومحنتها «كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا» «١».

ففى البداية يبدأ المخدوعون المغرّر بهم بعرض شكايتهم، وحيث إنّهم لا يجدون مناصاً ممّا هم فيه يقولون: ربّنا إنّ هؤلاء المغوين هم الذين أضلونا وخدعونا، فضاعف يا ربّ عذابهم، عذاباً لضلالهم وعذاباً لإضلالهم إيّانا، وهذا هو ما يتضمنه قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيهُمْ لِأُولَيهُمْ رَبَّنَا هؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مّنَ النَّارِ».

ولكن العجيب هو أن يقال لهم فى معرض الإجابة على طلبهم: سيكون لكلتا الطائفتين ضعفان من العذاب وليس للمضلين فقط «قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِن لَّاتَعْلَمُونَ».

وفى الآية اللاحقة ينقل القرآن الكريم جواب قادة الضلال والانحراف بأنّه ليس بيننا وبينكم أى تفاوت، فإذا قلنا فقد أيّدتم، وإذا خطونا فقد ساعدتم، وإذا ظلمنا فقد عاونتم،

(۱) التعبير بالاخت كناية عن الإرتباط الفكرى والصِّلة الرّوحية بين هذه الفرق المنحرفة، وحيث إنّ الامّة مؤنث لفظى، لهذا عبّر عنها بالاخت، لا الأخ.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۲۱

وإذن فذوقوا بإزاء أعمالكم عذاب اللّه الأليم «وَقَالَتْ أُولهُمْ لِأُخْرِيهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ».

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ (۴۰) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَ كَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (۴۱) مرّة اخرى يتناول القرآن بالحديث مصير المتكبرين والمعاندين، يعنى اولئك الذين لا يخضعون لآيات اللّه ولا يستسلمون للحق، فيقول: «إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ».

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «أمّا المؤمنون فترفع أعمالهم وأرواحهم إلى السماء فتفتح لهم أبوابها. وأمّا الكافر فيصعد بعمله وروحه حتى إذا بلغ إلى السماء نادى مناد: اهبطوا به إلى سجّين وهو واد بحضرموت يقال له برهوت».

ثمّ أضاف قائلًا: «وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمّ الْخِيَاطِ».

إنّ هذا التعبير كناية لطيفة عن استحالة هذا الأمر، حتى لا يشك أحد فى عدم وجود طريق لدخول المستكبرين إلى الجنة مطلقاً.

وفى خاتمة الآية يضيف تعالى للمزيد من التأكيد والتوضيح قائلًا: «وَكَذلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ».

وفى الآية اللاحقة يشير إلى قسم آخر من عقوبتهم المؤلمة إذ يقول: «لَهُم مّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ» «۱».

ثم يضيف للتأكيد: «وَكَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ».

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۴۲) وَ نَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهذَا وَ مَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْ لَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۴۳)

---

(۱) «المهاد»: جمع مهد وزان عهد أى الفرش؛ و «الغواش»: فى الاصل غواشى جمع غاشية بمعنى كل نوع من أنواع الغطاء.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۲۲

ولقد كان البحث فى الآيات السابقة حول المكذبين لآيات اللّه، والمستكبرين والظالمين، وهنا يشرح ويبين المستقبل المشرق للمؤمنين إذ يقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...

أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

وقد أتى بين المبتدأ والخبر بجملة معترضة توضّح الكثير من الإبهامات إذ يقول: «لَا نُكَلّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا». وهذه الجملة تؤكّد بأنّه لا ينبغى لأحد أن يتصور بأنّ الإيمان باللّه، والإتيان بالعمل الصالح وسلوك سبيل المؤمنين، أمر متعسر غير مقدور إلّالأفراد معدودين، لأنّ التكاليف الإلهية فى حدود الطاقة البشرية وليست أكثر منها.

إنّ هذه الآية- مثل سائر الآيات القرآنية- تحصر وسيلة النجاة والسعادة الأبدية فى الإيمان والعمل الصالح، وهكذا تفنّد العقيدة النصرانية المحرفة الذين يعتبرون صلب المسيح فى مقابل ذنوب البشر وسيلة للنجاة، ويقولون: إنّه قربان لخطايا الإنسانية.

إنّ إصرار القرآن الكريم على مسألة الإيمان والعمل الصالح، فى الآيات المختلفة لتفنيد هذه المقولة وأمثالها.

وفى الآية اللاحقة أشار تعالى إلى واحدة من أهم النعم التى أعطاها اللّه سبحانه لأهل الجنة، والتى تكون سبباً لطمأنينتهم النفسية وسكنتهم الروحية، إذ قال: «وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مّنْ غِلّ».

«الغِل»: فى الأصل بمعنى نفوذ الشىء خفيّة وسرّاً، ولهذا يقال للحسد والحقد والعداوة، الذى يتسلّل إلى النفس الإنسانية بصورة خفية

(الغل).

وإنّ من أكبر عوامل الشقاء التى يعانى منها الناس فى هذه الحياة، ومصدر الكثير من الصراعات الاجتماعية الواسعة التى تؤدّى- مضافاً إلى الخسائر الفادحة فى المال والنفس- إلى زعزعة الاستقرار الروحى، هو الحسد والحقد.

إنّ أهل الجنة معافون من هذه الشقاوات والمحن بالكلية، لأنّهم لا يتصفون بهذه الصفات القبيحة، إنّهم يعيشون معاً فى منتهى التواد والتحابب والصفاء والسكينة، ولهذا راضون عن وضعهم الذى هم فيه.

وبعد ذكر هذه النعمة الروحانية، يشير القرآن الكريم إلى نعمهم المادية الجسدية، فيقول:

«تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ».

ثم يعكس رضى أهل الجنة الكامل الشامل الذى يعبرون عنه بالحمد والشكر للّهوحده

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۲۳

على ما هداهم إليه من النعم «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَينَا لِهذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَينَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقّ».

وهنا يأتيهم النداء بأنّ ما ورثتموه من النعم إنّما هو بسبب أعمالكم: «وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وَ نَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُم مَا وَعَدَ رَبُّكُم حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (۴۴) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (۴۵) بعد البحث فى الآيات السابقة حول مصير أهل الجنة وأهل النار، أشار هنا إلى حوار هذين الفريقين فى ذلك العالم، ويستفاد من ذلك أنّ أهل الجنة وأهل النار يتحادثون بينهم وهم فى مواقعهم فى الجنة أو النار، فيقول أوّلًا: «وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا».

فيجيبهم أهل النار قائلين: نعم وجدنا كل ذلك، عين الحقيقة «قَالُوا نَعَمْ».

ثم يضيف تعالى بأنّه فى هذا الوقت بالذات ينادى مناد بنداء يسمعه الجميع: أن لعنة اللّه على الظالمين «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ».

ثم يعرّف الظالمين ويصفهم بقوله: «الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ» (۱).

جاء فى الأحاديث الإسلامية المفسرة والموضّحة لهذه الآية، تفسير المؤذّن بأمير المؤمنين على عليه السلام.

فى تفسير مجمع البيان: روى الحاكم أبو القاسم الحسكانى بإسناده عن محمّد بن الحنفية عن على عليه السلام أنّه قال: «أنا ذلك المؤذّن».

و بإسناده عن ابن عباس: إنّ لعلىّ عليه السلام فى كتاب اللّه أسماء لا يعرفها الناس، قوله «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ» فهو المؤذن بينهم، يقول: «ألا لعنة اللّه على الذين كذّبوا بولايتى واستخفّوا بحقى».

---

(۱) «يبغونها عوجاً»: بمعنى يطلبونها عوجاً، أى أنّهم يرغبون ويجتهدون فى أن يضلّوا الناس بإلقاء الشبهات والدعايات المسموعة عن الطريق المستقيم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۲۴

وَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَ نَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُم لَمْ يَدْخُلُوهَا وَ هُمْ يَطْمَعُونَ (۴۶) وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۴۷) وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (۴۸) أَ هؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (۴۹) الأعراف معبر مهم إلى الجنة: عقيب الآيات السابقة التى بيّنت جانباً من قصة أهل الجنة وأهل النار، تحدث فى هذه

الآيات حول «الأعراف» التى هى منطقة فى الحد الفاصل بين الجنة والنار مع خصوصياتها، وفى البداية يشير إلى الحجاب الذى أقيم بين أهل الجنة وأهل النار، إذ يقول: «وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ».

ويستفاد من الآيات اللاحقة أنّ الحجاب المذكور هو «الأعراف» وهو مكان مرتفع بين الفريقين يمنع من رؤية كل فريق الفريق الآخر، ولكن وجود مثل هذا الحجاب لا يمنع من أن يسمع كل منهما صوت الآخر ونداءه، كما مرّ فى الآيات السابقة، على أنّ الذين يقفون على الأعراف، أى على الأقسام المرتفعة من هذا المكان المرتفع، يرون كلا الفريقين.

ثمّ إنّ القرآن الكريم يقول: «وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ». يرون كلًّا من أهل الجنة وأهل النار ويعرفونهم بملامح وجوههم.

ثم يقول: إنّ هؤلاء الرجال ينادون أهل الجنة ويسلّمون عليهم، ولكنهم لا يدخلون الجنة وإن كانوا يرغبون فى ذلك «وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ».

ولكن عندما ينظرون إلى الطرف الآخر ويشاهدون أهل النار يصطلون فيها، يتضرعون إلى اللّه طالبين أن لا يجعلهم مع الظالمين: «وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

وفى الآية اللاحقة يضيف: إنّ أصحاب الأعراف ينادون فريقاً من الجهنميين الذين يعرفونهم بملامح وجوههم ويلومونهم قائلين: أمّا ترون أنّ جمعكم للأموال والأفراد والتجبّر والتكبر عن قبول الحق لم ينفعكم شيئاً، فأين تلك الأموال واولئك الأعوان؟ وماذا حصدتم

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢٥

من تلك المواقف والصفات السيئة؟! «وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ».

ومرّة اخرى يقولون موبّخين ومعاتبين، وهم يشيرون إلى جمع من ضعفاء المؤمنين المستقرين فوق الأعراف: «أَهؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَايَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ».

وفى المآل تشمل الرحمة الإلهية هذه الطائفة من ضعفاء المؤمنين، ويقال لهم: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَاخَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ».

يستفاد من مجموع الآيات والروايات أنّ الأعراف معبر صعب العبور على طريق الجنة والسعادة الأبدية.

ومن الطبيعى أنّ الأقوياء الصالحين والطاهرين هم الذين يعبرون هذا المعبر الصعب بسرعة، أمّا الضعفاء الذى خلطوا عملًا صالحاً وآخر سيئاً فيعجزون عن العبور.

كما أنّه من الطبيعى أيضاً أن تقف قيادات الجموع وسادة القوم عند هذه المعابر الصعبة مثل القادة العسكريين الذين يمشون فى مثل هذه الحالات فى مؤخرة جيوشهم ليعبر الجميع، يقفون هناك ليساعدوا ضعفاء الإيمان، فينجو من يصلح للنجاة ببركة مساعدتهم ومعونتهم ونجدتهم.

وعلى هذا الأساس، فأصحاب الأعراف فريقان: ضعفاء الإيمان والمتورطون فى الذنوب الذين هم بحاجة إلى الرحمة، والأئمة السادة (يعنى الأنبياء والأئمة والصلحاء) الذين يساعدون الضعفاء فى جميع الأحوال.

وَ نَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هذَا وَ مَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) نعم الجنة حرام على أهل النار: بعد أن استقر كل من أهل الجنة وأهل النار فى أماكنهم ومنازلهم، تدور بينهم حوارات نتيجتها العقوبة الروحية والمعنوية لأهل النار، وفى البداية يبدأ الكلام من جانب أهل النار: «وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢٦

الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ». فهم يطلبون أن يجودوا عليهم بشىء من الماء أو من نِعم الجنة.

ولكن أهل الجنة يبادرون إلى رفض هذا المطلب «قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ».

بحثان

۱- إنّ عبارة «مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» التى هى عبارة مجملة، وتتسم بالإبهام، تفيد أنّه حتى أهل النار لا يمكنهم أن يعرفوا بشىء من حقيقة النعم الموجودة فى الجنة وأنواعها. وهذا الموضوع يتفق وينسجم مع بعض الأحاديث التى تقول: (إنّ فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر).

ثمّ إنّ عطف الجملة ب «أو» يشير إلى أنّ النعم الاخروية الاخرى وخاصة الفواكه يمكنها أن تحلّ محل الماء وتطفىء عطش الإنسان.

۲- إنّ عبارة «حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ» إشارة إلى أنّ أهل الجنة بأنفسهم، ليسوا هم الذين يمتنعون عن إعطاء شىء من هذه النعم لأهل النار، لأنّه لا يقلّ منها شىء بسبب الإعطاء، ولا أنّهم يحملون حقداً أو ضغينة على أحد فى صدورهم، حتى بالنسبة إلى أعدائهم، ولكن وضع أهل النار بشكل لا يسمح لهم أن يستفيدوا من نعم الجنة.

إنّ هذا الحرمان نوع من «الحرمان التكوينى» مثل حرمان كثير من المرضى من الأطعمة اللذيذة المتنوعة.

فى الآية اللاحقة يبيّن سبب حرمانهم، بذكر صفات أهل النار وأنّ أهل هذا المصير الأسود هم الذين أوقعوا أنفسهم فيه فيقول أوّلًا: إنّ هؤلاء هم الذين اتخذوا دينهم لعباً «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا».

وهذا إلى جانب أنّهم خدعتهم الدنيا واغتروا بها «وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا».

إنّ هذه الامور سببت فى أن يغرقوا فى وحل الشهوات، وينسوا كل شىء حتى الآخرة، وينكروا أقوال الأنبياء، ويكذبوا بالآيات الإلهية، ولهذا أضاف قائلًا: «فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هذَا وَمَا كَانُوا بَايَاتِنَا يَجْحَدُونَ».

كما أنّه يستفاد من هذه الآية أنّ أوّل مرحلة من مراحل الإنحراف والضلال، هو أن لا يأخذ الإنسان قضاياه المصيرية بمأخذ الجدّ، بل يتعامل معها معاملة المتسلّى والهازل، فتؤدّى به هذه الحالة إلى الكفر المطلق، وإنكار جميع الحقائق.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۲۷

وَ لَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵۲) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (۵۳) هذه الآية إشارة إلى أنّ حرمان الكفّار ومصيرهم المشؤوم إنّما هو نتيجة تقصيراتهم أنفسهم وإلّا فليس هناك من جانب اللَّه أى تقصير فى هدايتهم وقيادتهم وإبلاغ الآيات إليهم وبيان الدروس التربوية لهم لهذا يقول تعالى: إنّنا لم نألُ جهداً ولم ندخر شيئاً فى مجال الهداية والإرشاد، بل أرسلنا لهم كتاباً شرحنا فيه كل شىء بحكمة ودراية: «وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَهُ عَلَى عِلْمٍ».

وهو كتاب فيه رحمة وهداية، لا للمعاندين الأنانيين، بل للمؤمنين: «هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

الآية اللاحقة تشير إلى الطريقة الخاطئة فى تفكير العصاة والمنحرفين فى صعيد الهداية الإلهية فيقول: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ». أى كأنّ هؤلاء يتوقعون أن يروا نتيجة الوعد والوعيد الإلهى بعيونهم (أى يروا أهل الجنّة وهم فيها، وأهل النار وهم فيها) حتى يؤمنوا.

ولكنّه توقّع سخيف، لأنّه عندما تُترجم الوعود الإلهية على صعيد الواقع ينتهى الامر، ولم يعد هناك مجال للرجوع ولا طريق للعودة، وهناك سيعترفون بأنّهم قد تناسوا كتاب اللَّه وتجاهلوا التعاليم الإلهية التى أنزلها على رسله بالحق، وكان قولهم حقّاً أيضاً: «يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ».

سيغرقون فى هذا الوقت فى قلق واضطراب، ويفكرون فى مخلّص ينقذهم من هذه المشكلة ويقولون: «فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا».

وإذا لم يكن هناك شفعاء لنا، أو إنّنا لا نصلح أساساً للشفاعة، أفلا يمكن أن نرجع إلى الدنيا ونقوم بأعمال غير ما عملناه سابقاً، ونسلّم للحق والحقيقة «أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ».

ولكن هذا التنبيه جاء متأخراً جداً، فلا طريق للعودة ولا صلاحية لهم للشفاعة لأنّهم

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢٨

قد خسروا كل رؤوس أموالهم وتورطوا فى خسران جميع وجودهم «قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ».

وسوف يثبت لهم أنّ أصنامهم ومعبوداتهم ليس لها أى دور هناك، وفى الحقيقة ضاعت- فى نظرهم- جميعاً «وَضَلَّ عَنْهُم مَّاكَانُوا يَفْتَرُونَ». من هذه الآية يستفاد أوّلًا: أنّ الإنسان حرّ مختار فى أعماله، وإلّا لما طلب العودة والرجوع إلى الدنيا لجبران ما فات، و ثانياً: إنّ العالم الآخر ليس مكان العمل واكتساب الفضائل والنجاة.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (۵۴) هذه الآية تصف المعبود الحقيقى مع ذكر صفاته الخاصة حتى يستطيع الذين يطلبون الحقيقة وينشدونها أن يعرفوه بوضوح فى هذا العالم وقبل حلول يوم القيامة، ويبدأ حديثه هذا بقوله: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ». أى أنّ المعبود لا يمكن أن يكون إلّامن كان خالقاً.

هل خلق العالم فى ستة أيام؟ نظراً إلى المفهوم الواسع للفظة «يوم» وما يعادلها فى مختلف اللغات، يكون جواب هذا السؤال واضحاً، لأنّه كثيراً ما يستعمل اليوم بمعنى الدورة. على هذا الأساس أنّ اللَّه سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض فى ست دورات متوالية، وإن استغرقت كل دورة من هذه الدورات ملايين أو مليارات السنين، والعلم الحديث لم يبيّن أى أمر يخالف هذا الموضوع.

ثمّ يقول القرآن الكريم: إنّ اللَّه تعالى بعد خلق السماوات والأرض أخذ زمام إدارتها بيده (أى ليس الخلق منه فقط، بل منه الإدارة والتدبير أيضاً) فقال تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ».

وهذا جواب لمن يعتقد أنّ الكون محتاج إلى اللَّه تعالى فى الخلق والإيجاد دون البقاء.

«العرش»: فى اللغة هو ما له سقف، وقد يطلق العرش على نفس السقف، وربّما يأتى بمعنى الأسرة الكبيرة المرتفعة، ولكن عندما ينسب إلى اللَّه سبحانه وتعالى ويقال: عرش اللَّه، يراد منه مجموعة عالم الوجود، الذى يعدّ فى الحقيقة سرير حكومة اللَّه تعالى.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٢٩

وعلى هذا تكون عبارة «اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» كناية عن الإحاطة الكاملة للَّهتعالى وسيطرته على تدبير أمور الكون- سماءاً وأرضاً- بعد خلقها.

ثم يقول بأنّه تعالى هو الذى يلقى بالليل- كغشاء- على النهار، ويستر ضوء النهار بالأستار المظلمة «يُغْشِى الَّيلَ النَّهَارَ».

ثم يضيف بعد ذلك قائلًا: إنّ الليل يطلب النهار طلباً حثيثاً «يَطْلُبُهُ حَثِيثًا».

ثم يضيف تعالى أنّه هو الذى خلق الشمس والقمر والنجوم، خاضعة لأمره بعد خلقها:

«وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ».

ثم بعد ذكر خلق العالم ونظام الليل والنهار، وخلق الشمس والقمر والنجوم، قال مؤكّداً:

اعلموا أنّ خلق الكون وتدبير اموره كله بيده سبحانه دون سواه «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ».

إنّ المراد من «الخلق» هو الخلق والإيجاد الأوّل. والمراد من «الأمر» هو السنن والقوانين الحاكمة على عالم الوجود بأسره بأمر اللَّه تعالى، والتى تقود الكون فى مسيره المرسوم له. أى إنّ العالم كما يحتاج فى حدوثه إلى اللَّه، كذلك يحتاج فى تدبيره واستمرار حياته وإدارة شؤونه إلى اللَّه، ولو أنّ اللَّه صرف عنايته ولطفه عن الكون لحظة واحدة لتبدد النظام وانهار وانهدم بصورة كاملة.

ثمّ فى ختام الآية يقول: «تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

إنّ هذه الجملة- بعد ذكر خلق وتدبير عالم الوجود- نوع من الثناء على الذات الربوبية المقدسة.

فهو وجود مبارك أزلى أبدى، وهو بالتالى منشأ جميع البركات والخيرات، ومنبع الخير المستمر «تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (۵۵) وَ لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ

مِنَ الْمُحْسِنِينَ (۵۶) شروط استجابة الدعاء: لقد أثبتت الآية السابقة- فى ضوء ما أقيم من برهان واضح- هذه الحقيقة، وهى أنّ الذى يستحق العبادة فقط هو اللّه، وفى عقيب ذلك ورد الأمر هنا بالدعاء،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۳۰

الذى هو مخ العبادة وروحها، يقول أوّلًا: «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً».

«التضرع»: فى الأصل من مادة «ضَرْع» بمعنى الثدى، وعلى هذا يكون فعل التضرع بمعنى حلب اللبن من الضرع، وحيث إنّه عند حلب اللبن تتحرك الأصابع على حلمة الثدى من جهاتها المختلفة استداراً للحليب، لهذا استعملت هذه الكلمة فى من يظهر حركات خاصة إظهاراً للخضوع والتواضع. وعلى هذا فإنّ الآية المبحوثة، وعبارة «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا» تحثّنا على أن نقبل على اللّه بمنتهى الخضوع والخشوع والتواضع، بل يجب أن تنعكس روح الدعاء فى أعماق روح الإنسان، وعلى جميع أبعاد وجوده.

وأمره تعالى بأن يدعى اللّه «خفية» وفى السّر، لأنّه أبعد عن الرياء، وأقرب إلى الإخلاص، ولأجل أن يكون الدعاء مقروناً بتمركز الفكر وحضور القلب.

ثمّ قال تعالى فى ختام الآية: «إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ». أى إنّ اللّه لا يحب المعتدين.

ولهذه العبارة معنى وسيع يشمل كل نوع من أنواع العدوان والتجاوز، سواء الصراخ ورفع الصوت عالياً جداً حين الدعاء، أو التظاهر وممارسة الرياء، أو التوجه إلى غير اللّه حين الدعاء.

وفى الآية اللاحقة يشير تعالى إلى حكم هو فى الحقيقة شرط من شروط تأثير الدعاء، إذ قال: «وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلحِهَا».

ولهذا فلا تستجاب أدعية المفسدين والعصاة، ولا تنتهى إلى أية نتيجة مرجوّة.

والمراد من «الفساد بعد الإصلاح» يمكن أن يكون الإصلاح من الكفر أو الظلم أو كليهما.

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إنّ الأرض كانت فاسدة فأصلحها اللّه بنبيّه صلى الله عليه و آله».

ومرّة اخرى يعود إلى مسألة الدعاء ويذكر شرطاً آخر من شرائطه فيقول: «وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا». أى لا تكونوا راضين معجبين بأفعالكم بحيث تظنون أنّه لا توجد فى حياتكم أيّة نقطة سوداء، إذ إنّ هذا الظن هو أحد عوامل التقهقر والسقوط، كما لا تكونوا يائسين إلى درجة أنّكم لا ترون أنفسكم لائقين للعفو الإلهى ولإجابة الدعاء، إذ إنّ هذا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۳۱

اليأس والقنوط هو الآخر سبب لإنطفاء شعلة السعى والإجتهاد، بل لابدّ أن تعرجوا نحوه تعالى بجناحى (الخوف) و (الأمل) الخوف من المسؤوليات والعثرات، والأمل برحمته ولطفه.

وفى خاتمة الآية يقول تعالى للمزيد من التأكيد على أسباب الأمل بالرحمة الإلهية: «إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ».

هذه الآيات قد تضمنت الإشارة إلى خمسة من شرائط قبول الدعاء وإجابته، وهى باختصار كالتالى:

۱- أن يكون الدعاء عن تضرع وخفية.

۲- أن لا يتجاوز حد الإعتدال.

۳- أن لا يكون مقروناً بالإفساد والمعصية.

۴- أن يكون مقروناً بالخوف والامل المعتدلين.

۵- أن يكون مقروناً بالبرّ والإحسان، وفعل الخيرات.

وَ هُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۵۷) وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (۵۸) لابد من المربى والقابلية: فى الآيات الماضية مرّت إشارات عديدة إلى مسألة «المبدأ» أى التوحيد ومعرفة اللّه، من

خلال الوقوف على أسرار الكون، وفى هذه الآيات ضمن بيان طائفة من النعم الإلهية وردت الإشارة إلى مسألة «المعاد» والبعث، ليكمل هذان البحثان أحدهما الآخر.

وهذه هى سيرة القرآن الكريم ودأبه فى كثير من الموارد، حيث يقرن بين «المبدأ» و «المعاد»، والملفت للنظر أنّه يستعين لمعرفة اللّه، وكذا لتوجيه الأنظار إلى أمر المعاد معاً بالاستدلال بالأسرار الكامنة فى خلق موجودات هذا العالم، فيقول تعالى أوّلًا: «وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۳۲

ثمّ يقول: إنّ هذه الرياح التى تهب من المحيطات تحمل معها سحباً ثقيلة مشبّعة بالماء «حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا».

ثم يسوق تلك السحب إلى الأراضى الظامئة اليابسة، ويكلّفها بأن تروى تلك الأراضى العطاشى «سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ».

وبذلك ينهمر ماء الحياة فى كل مكان «فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ».

وبمعونة هذا الماء نخرج للبشر أنواعاً متنوعة من الثمار والفواكة «فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ».

ثم عقيب ذلك يضيف: «كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى ونلبسهم حلّة الوجود والحياة مرّة اخرى.

ولقد أتينا بهذا المثال لأجل أن نريكم انموذجاً من المعاد فى هذه الدنيا، الذى يتكرر أمام عيونكم كل يوم «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

وفى الآية اللاحقة- وحتى لا يظن أحد أنّ نزول المطر على نمط واحد يدل على أنّ جميع الأراضى تصير حيّة على نمط واحداً أيضاً، وحتى يتّضح أنّ القابليات والإستعدادات المتفاوتة تسبّبت فى أن تتفاوت حالات الاستفادة والإنتفاع بالمواهب الإلهية يقول: «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ». أى إنّ الأرض الصالحة هى التى تستفيد من المطر، وتثمر خير إثمار بإذن ربها.

أمّا الأراضى السبخة والخبيثة فلا تثمر إلّابعض الأعشاب غير النافعة «وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا» «۱».

ثمّ فى ختام الآية يقول تعالى: إنّ هذه الآيات نبيّنها لمن يشكرونها، ويستفيدون من عِبَرها ومداليلها، ويسلكون فى ضوئها سبيل الهداية «كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ».

إنّ الآية الحاضرة إشارة إلى مسألة مهمّة وهى أنّ فاعلية الفاعل وحدها لا تكفى للإثمار والإنتاج الصحيح المطلوب، بل لابدّ من «قابلية القابل» فهى شرط للتأثير والإثمار.

---

(۱) «النّكد»: هو البخيل الممسك الذى يتعذر أخذ شىء منه بسهولة، ولو أنّه أعطى لأعطى الشىء اليسير الحقير. ولقد شبهت الأراضى المالحة السبخة غير المساعدة للزرع بمثل هذا الشخص.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۳۳

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۵۹) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (۶۰) قَالَ يَا قَوْمِ لَيسَ بِى ضَلَالَةٌ وَ لكِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۶۱) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۶۲) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۶۳) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ (۶۴) رسالة نوح أوّل الرسل من أولى العزم: قد وردت قصة نوح فى سور قرآنية متعددة، مثل سورة هود، الأنبياء، المؤمنون، الشعراء، لكن هنا اكتفى بإعطاء فهرست عن ذلك ضمن ست آيات هى: يقول أوّلًا: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ».

إنّ أوّل شىء ذكّرهم به هو إلفات نظرهم إلى حقيقة التوحيد، ونفى أىّ نوع من أنواع الوثنية «فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ».

وبعد أن أيقظ نوح ضمائرهم وفطرتهم الغافية، حذّرهم من مغبة الوثنية وعاقبتها المؤلمة إذ قال: «إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

والمراد من «عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» يمكن أن يكون الطوفان المعروف بطوفان نوح، كما ويمكن أن يكون إشارة إلى العقوبة الإلهية فى يوم القيامة.

ولكن قوم نوح بدل أن يستقبلوا دعوة هذا النبى العظيم الإصلاحية، المقرونة بقصد الخير والنفع لهم، فينضوون تحت راية التوحيد ويكفون عن الظلم والفساد، قال جماعة من الأعيان والأثرياء الذين كانوا يحسون بالخطر على مصالحهم بسبب يقظة الناس وانتباههم، ويرون الدين مانعاً من عبثهم ومجونهم وشهواتهم، قالوا لنوح بكل صراحة وقحة: نحن نراك فى ضلال واضح «قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَيكَ فِى ضَلَلٍ مُّبِينٍ».

ولقد جابه نوح عليه السلام تعنتهم وخشونتهم بلحن هادىء ولهجة متينة تطفح بالمحبّة والرحمة،

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۳۴

فقال فى معرض الردّ عليهم: أنا لست بضال، بل ليست فىّ أية علامة للضلال، ولكنى مرسل من اللّه «قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى ضَللَةٌ وَلكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ».

وهذه إشارة إلى أنّ الأرباب التى تعبدوها كلها لا- أساس لها من الصحة، ورب العالمين ما هو إلّااللّه الواحد الذى خلقها جميعاً وأوجدها من العدم. ثمّ إنّ هدفى إنّما هو إبلاغ ما حمّلت من رسالة «أُبَلِّغُكُمْ رِسلتِ رَبِّى».

ولن آلو جهداً فى تقديم النصح لكم، وقصد نفعكم، وإيصال الخير إليكم «وَأَنصَحُ لَكُمْ».

ثمّ أضاف تعالى: «وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

إنّ هذه العبارة يمكن أن يكون لها جانب تهديد فى مقابل معارضاتهم ومخالفتهم، وكأنّه يريد أن يقول: أنا أعلم بعقوبات إلهية أليمة تنتظر العصاة لا تعلمون شيئاً عنها، أو تكون إشارة إلى لطف اللّه ورحمته، وتعنى أنّكم إذا أطعتم اللّه، وكففتم عن تعنتكم، فإنّى أعلم مثوبات عظيمة لكم لا تعلمونها ولم تقفوا لحد الآن على سعتها.

وفى الآية اللاحقة نقرأ لنوح كلاماً آخر قاله فى مقابل استغراب قومه من أنّه كيف يمكن لبشر أن يكون حاملًا لمسؤولية إبلاغ الرسالة الإلهية، إذ قال: «أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

يعنى: أىّ شىء فى هذه القضية يدعو إلى الإستغراب والتعجب، لأنّ الانسان الصالح هو الذى يمكنه أن يقوم بهذه الرسالة أحسن من أى كائن آخر.

ولكن بدل أن يقبلوا دعوة مثل هذا القائد المخلص الواعى فقد كذّبه الجميع، فأرسل اللّه عليهم طوفاناً فغرق المكذبون ونجا فى السفينة نوح ومن آمن «فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا».

وفى خاتمة الآية ذكر دليل هذه العقوبة الصعبة، وأنّه عمى القلب الذى منعهم عن رؤية الحق، وأتباعه «إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ» «۱».

---

(۱) «عمين»: جمع عمى، وهو يطلق عادة على من تعطلت بصيرته الباطنية، ولكن الأعمى يطلق على من فقد بصره الظاهرى، وكذلك يطلق على من فقد بصيرته الباطنية أيضاً.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۳۵

وَ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلَا تَتَّقُونَ (۶۵) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى سَفَاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (۶۶) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَ لَكِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۶۷) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَ أَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (۶۸) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۶۹) قَالُوا أَ جِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۷۰) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ أَ تُجَادِلُونَنِى فِى أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ

فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَکَم مِنَ الْمُنْتَظِرِینَ (٧١) فَأَنْجَیْنَاهُ وَ الَّذِینَ مَعَهُ بِرَحْمَـةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنَا دابِرَ الَّذِینَ کَـذَّبُوا بِآیَاتِنَا وَ مَا کَانُوا مُؤْمِنِینَ (٧٢) لمحة عن قصة قوم هود: عقيب ذكر رسالة نوح والدروس الغنية بالعبر الكامنة فيها، عمد القرآن الكريم إلى إعطاء لمحة سريعة عن قصة نبى آخر من الأنبياء العظام، وهو النبى هود عليه السلام وذكر ما جرى بينه وبين قومه. يقول تعالى أوّلًا: ولقد أرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هوداً «وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا».

وقوم «عاد» كانوا امة تعيش فى أرض «اليمن» وكانت امة قوية من حيث المقدرة البدنية والثروة الوافرة التى كانت تصل إليهم عن طريق الزراعة والرعى، ولكنها كانت متخمة بالانحرافات الإعتقادية وبخاصة الوثنية والمفاسد الأخلاقية المتفشية بينهم.

وقد كُلّف «هود» الذى كان منهم- وكان يرتبط بهم بوشيجة القربى- من جانب اللّه بأن يدعوهم إلى الحق ومكافحة الفساد، ولعل التعبير ب «أخاهم» إشارة إلى هذه الوشيجة النسبية بين هود وقوم عاد.

ثمّ إنّه يحتمل أيضاً أن يكون التعبير ب «الأخ» فى شأن النبى هود، وكذا فى شأن عدّة

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٣٦

أشخاص آخرين من الأنبياء الإلهيين مثل نوح عليه السلام (سورة الشعراء، الآية ١٠٦) وصالح (سورة الشعراء، الآية ١٤٢) ولوط (سورة الشعراء، الآية ١٦١) وشعيب (سورة الأعراف، الآية ٨٥) إنّما هو لأجل أنّهم كانوا يتعاملون مع قومهم فى منتهى الرحمة، والمحبة مثل أخ حميم، ولا يألون جهداً فى إرشادهم وهدايتهم ودعوتهم إلى الخير والصلاح.

ثم يذكر تعالى أنّ هود شرع فى دعوته فى مسألة التوحيد ومكافحة الشرك والوثنية:

«قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ».

ولكن هذه الجماعة الأنانية المستكبرة، وبخاصة أغنياؤها المغرورون المعجبون بأنفسهم، والذين يعبّر عنهم القرآن بلفظة «الملأ» باعتبار أنّ ظاهرهم يملأ العيون، قالوا لهود نفس ما قاله قوم نوح لنوح عليه السلام: «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَيكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ».

ولكن هوداً- وهو يتحلى بالوقار والمتانة التى يتحلى بها الأنبياء والهداة الصادقون الطاهرون- من دون أن ينتابه غضب، أو تعتريه حالة يأس «قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلكِنّى رَسُولٌ مِّن رَّبّ الْعَالَمِينَ».

ثم إنّ هوداً أضاف: إنّ مهمته هى إبلاغ رسالات اللّه إليهم، وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم وخيرهم، وانقاذهم من ورطة الشرك والفساد، كل ذلك مع كامل الإخلاص والنصح والأمانة والصدق «أُبَلّغُكُمْ رِسلتِ رَبّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ».

ثم إنّ هوداً أشار- فى معرض الردّ على من تعجب من أن يبعث اللّه بشراً رسولًا- إلى نفس مقولة نوح النبى لقومه: «أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مّن رَّبّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ».

أى هل تعجبون من أن يرسل اللّه رجلًا من البشر نبياً، ليحذركم من مغبة أعمالكم، وما ينتظركم من العقوبات فى مستقبلكم؟

ثم إنّه إستثارة لعواطفهم الغافية، وإثارة لروح الشكر فى نفوسهم، ذكر قسماً من النعم التى أنعم اللّه تعالى بها عليهم، فقال: «وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ»، فقد ورثتم الأرض بكل ما فيها من خيرات عظيمة بعد أن هلك قوم نوح بالطوفان بسبب طغيانهم وبادوا.

ولم تكن هذه هى النعمة الوحيدة، بل وهب لكم قوّة جسدية عظيمة «وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَصْطَةً».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٣٧

وفى خاتمة الآية يذكّر تلك الجماعة الأنانيّة بأن يتذكروا نعم اللّه لتستيقظ فيهم روح الشكر فيخضعوا لأوامره، علّهم يفلحون «فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

ولكن فى مقابل جميع المواعظ والإرشادات المنطقية، والتذكير بنعم اللّه ومواهبه، انبرت تلك الثلة من الناس الذين كانوا يرون

مكاسبهم المادية فى خطر، وقبول دعوة النبى تصدّهم عن التمادى فى أهوائهم وشهواتهم، انبرت إلى المعارضة، وقالوا بصراحة: إنّك جئت تدعونا إلى عبادة اللّه وحده وترك ما كان أسلافنا يعبدون دهراً طويلًا، كلّا، لا يمكن هذا بحال «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا».

وفى النهاية، ولأجل أن يقطعوا أمل هود فيهم تماماً، ويقولوا كلمتهم الأخيرة قالوا: إذا كان حقاً وواقعاً ما تنذرنا به من العذاب، فلتبادر به، أى إنّنا لا نخشى تهديداتك أبداً «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

وعندما بلغ الحوار إلى هذه النقطة، وأطلق اولئك المتعنتون كلمتهم الأخيرة الكاشفة عن رفضهم الكامل لدعوة هود، وأيس هود- هو الآخر- من هدايتهم تماماً، قال: إذن ما دام الأمر هكذا فسيحلّ عليكم عذاب ربّكم «قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ».

يعنى أنّكم قد غرقتم فى دوّامة الانحراف والفساد إلى درجة أنّ روحكم قد دفنت تحت اوزار كثيفة من النجاسات، وبذلك استوجبتم غضب اللّه، وشملكم سخطه.

ثم لأجل أن لا يبقى منطق عبادة الاوثان من دون ردّ أضاف قائلًا: «أَتُجَادِلُونَنِى فِى أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ». فهذه الاصنام التى صنعتموها انتم وآباؤكم ليس لها من الالوهية الّا اسم فارغ وضعها أسلافكم كذباً وزوراً، ثم وجئتم تجادلوننى فى عبادتها فى حين لم ينزل بذلك أى دليل من جانب اللّه.

ثم قال: فإذا كان الأمر هكذا فلننتظر جميعاً، انتظروا أنتم أن تنفعكم أصنامكم ومعبوداتكم وتنصركم، وأنتظر أنا أن يحلّ بكم غضب اللّه وعذابه الأليم جزاء تعنتكم، وسيكشف المستقبل أى واحد من هذين الإنتظارين هو الأقرب إلى الحقيقة والواقع «فَانتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ».

وفى نهاية الآية بيّن القرآن مصير هؤلاء القوم المتعنتين فى عبارة قصيرة موجزة:

«فَأَنجَيْنَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۳۸

أجل، لقد أنجى اللّه هوداً ومن اتبعه من القوم بلطفه ورحمته، وأمّا الذين كذبوا بآيات اللّه، ورفضوا الإنضواء تحت لواء دعوته، والإنصياع للحق، فقد أبيدوا نهائياً. «دابر»: فى اللغة بمعنى آخر الشيء ومؤخرته، وبناء على هذا المفهوم يكون معنى الآية:

أنّنا أبدنا هؤلاء القوم إبادة كاملة واستأصلنا شأفتهم.

وَ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۷۳) وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَ تَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَ لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۷۴) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۷۵) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِى آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (۷۶) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (۷۷) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (۷۸) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (۷۹) قصة قوم صالح وما فيها من عبر: فى هذه الآيات جاءت الإشارة إلى قيام «صالح» النبى الإلهى العظيم فى قومه «ثمود» الذين كانوا يسكنون فى منطقة جبلية بين الحجاز والشام، وبهذا يواصل القرآن أبحاثه السابقة الغنية بالعبر حول قوم نوح وهود، فيقول تعالى فى البداية: «وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صلِحًا».

ولقد كانت أوّل خطوة خطاها نبيهم صالح فى سبيل هدايتهم، هى الدعوة إلى التوحيد،

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۳۹

وعبادة اللّه الواحد «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ».

ثمّ أضاف: إنّه لا يقول شيئاً من دون حجة أو دليل، بل قد جاء إليهم ببيّنة من ربهم «قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً».
ثمّ إنّه يقول لهم: اتركوا الناقة تأكل فى أرض اللّه ولا تمنعوها «فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».
ثم يقول فى الآية اللاحقة: «وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى الْأَرْضِ».
أى: من جانب لا ـ تنسوا نعم اللّه الكثيرة، ومن جانب آخر انتبهوا إلى أنّه قد سبقكم أقوام (مثل قوم عاد) طغوا فحاق بهم عذاب اللّه بذنوبهم وهلكوا.
ثم ركّز على بعض النعم الإلهية كالأرض فقال: «تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا». فالأرض قد خُلقت بنحو تكون سهولها المستوية والمزودة بالتربة الصالحة لإقامة القصور الفخمة، كما تكون جبالها صالحة لأن تنحت فيها البيوت القوية المحصنة لفصل الشتاء والظروف الجوية القاسية.
ويبدو للنظر من هذا التعبير هو أنّهم كانوا يغيرون مكان سكناهم فى الصيف والشتاء.
وفى ختام الآية يقول تعالى على لسان نبيّه صالح: «فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».
ثم إنّنا نلاحظ أيضاً أنّ جماعة الأغنياء والمترفين ذوى الظاهر الحسن، والباطن القبيح الخبيث، الذين عبر عنهم بالملأ أخذوا بزمام المعارضة لهذا النبى الإلهى العظيم.
فقال الفريق المستكبر من قوم صالح للمستضعفين الذين آمنوا بصالح: هل تعلمون يقيناً أنّ صالحاً مرسل من قبل اللّه «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ».
ولكن سرعان ما واجهوا ردّ تلك الجموع المؤمنة القاطع، الكاشف عن إرادتها القوية وعزمها على مواصلة طريقها، حيث قالوا: إنّنا مضافاً إلى اعتقادنا بأنّ صالحاً رسول من قبل اللّه، فنحن مؤمنون أيضاً بما جاء به «قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ».
ولكن هؤلاء المغرورين المتكبرين لم يكفوا عن عملهم، بل عادوا مرّة اخرى إلى إضعاف معنوية المؤمنين «قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِى ءَامَنتُم بِهِ كَافِرُونَ».
عندما يئس من زعزعة الإيمان فى نفوس الجماهير المؤمنة بصالح عليه السلام ومن جانب آخر
مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۴۰
مختصر الامثل ج ۲ ۱۷۹
رأوا أنّ وساوسهم وشائعاتهم لا تجدى نفعاً مع وجود «الناقة» التى كانت تُعَدّ معجزة صالح عليه السلام لهذا قرّروا قتل الناقة، مخالفين بذلك أمر ربهم «فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ» «۱». ولم يكتفوا بهذا أيضاً، بل أتوا إلى صالح نفسه وبصراحة «قَالُوا يَا صٰلِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».
انّ هذا الكلام نوع من الحرب النفسية ضد صالح عليه السلام بهدف إضعاف روحيته وروحية المؤمنين به.
وعندما وصل المعارضون بطغيانهم وتمرّدهم إلى آخر درجة، وأطفأوا فى نفوسهم آخر بارقة أمل فى الإيمان، حلّت بهم العقوبة الإلهية طبقاً لقانون انتخاب الأصلح، وإهلاك ومحو الكائنات الفاسدة والمفسدة «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ».
بأىّ شىء اهلك قوم ثمود: وهنا يطرح سؤال وهو: يستفاد من الآية الحاضرة أنّ الشىء الذى أهلك هؤلاء المتمردون كان هو الزلزال، ولكن يظهر من الآية (۱۳) من سورة فصّلت أنّه كان الصاعقة، بينما نقرأ فى الآية (۵) من سورة الحاقّة: «فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ».
يعنى أنّ قوم ثمود اهلكوا بشىء مدمّر، فهل هناك تناقض بين هذه التعابير؟
إنّ الجواب على هذا السؤال يمكن أن يلخص فى جملة واحدة، وهى جميع هذه العبارات ترجع إلى معنى واحد، أو أنّه يلازم بعضها بعضاً، فكثيراً ما تحدث الرجّة الأرضية فى منطقة ما بفعل صاعقة عظيمة، أى أنّه تحدث صاعقة أوّلًا، ثمّ تحدث على أثرها رجة أرضية.

«الطاغية»: فهى بمعنى كائن تجاوز عن حدّه، وهذا ينسجم مع الزلزلة وكذا مع الصاعقة، ولهذا فلا يوجد أى تناقض بين الآيات.

وفى آخر آيـة من الآيات المبحوثة يقول: «فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلكِن لَّاتُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ».

أى بعد هذه القضية تولى صالح وهو يقول: لقد أديت رسالتى إليكم، ونصحت لكم ولكنكم لا تحبّون من ينصحكم.

---

(١) «العقر»: هو قطع عصب خاص خلف رجل الناقة أو الفرس هو سبب حركتها، فإذا قطع سقط الحيوان، وفقد القدرة على الحركة والتنقل.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٤١

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٨٣) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) مصير قوم لوط المؤلم: فى هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم فصلًا آخر غنياً بالعبر من قصص الأنبياء، وبذلك يواصل هدف الآيات السابقة ويكمله، والقصة هذه المرّة هى قصة النبى الإلهى العظيم «لوط». الآية الاولى تقول فى البدء: اذكروا إذ قال لوط لقومه:

أتركبون فعلًا قبيحاً لم يفعله قبلكم أحد من الناس! «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ».

وفى الآية اللاحقة يشرح المعصية التى ذكرت فى الآية السابقة ويقول: «إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ». وأىّ انحراف أسوأ وأقبح من أن يترك الإنسان وسيلة توليد النسل وإنجاب الأولاد، وهو مقاربة الرجل للمرأة، والذى أودعه اللّه فى كيان كل إنسان بصورة غريزية طبيعية، ويعمد إلى «الجنس الموافق» ويفعل بالتالى ما يخالف- أساساً الفطرة والتركيب الطبيعى للجسم والروح الإنسانيين والغريزة السوية الصحيحة، ويكون نتيجته عقم الهدف المتوخى من المقاربة الجنسية.

ثم يقول تعالى فى نهاية الآية: «بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ». أى تجاوزتم حدود اللّه، ووقعتم فى متاهة الانحراف والتجاوز عن حدود الفطرة.

وفى الآية اللاحقة أشار القرآن الكريم إلى الجواب المتعنت وغير المنطقى لقوم لوط، وقال:

إنّهم لم يكن لديهم أىّ جواب فى مقابل دعوة هذا النبى الناصح المصلح، إلّاأن قالوا:

أخرجوا لوطاً وأتباعه من مدينتكم. ولكن ما كان ذنبهم؟ إنّ ذنبهم هو أنّهم كانوا جماعة طاهرين لم يلوثوا أنفسهم بأدران المعصية «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ».

ويحتمل أيضاً فى تفسير جملة «إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ» أنّ قوم لوط كانوا يريدون بهذه العبارة أن يتهموا ذلك النبى العظيم وأتباعه الأتقياء بالرياء والتظاهر بالتطهر، مع ملاحظة

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٤٢

كل ما قيل فى الآيات الثلاثة أعلاه، يستطيع كل قاض منصف أن يصدر حكمه بحق مثل هذه الجماعات والأقوام، ولهذا قال اللّه تعالى فى الآية اللاحقة: «فَأَنجَيْنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ» «١». أى لمّا بلغ الأمر إلى هذا الحد أنجينا لوطاً وأتباعه الواقعيين وأهله الطيبين، إلّازوجته التى كانت على عقيدة قومه المنحرفين فتركناها. يستفاد من الآية (١٠) من سورة التحريم إجمالًا أنّ زوجة لوط كانت فى البداية امرأة صالحة، ولكنها سلكت سبيل الخيانة فيما بعد، وجرأت أعداء لوط عليه.

وفى آخر آية من الآيات إشارة إلى العقوبة الشديدة والرهيبة التى حلّت بهؤلاء القوم، إذ قال تعالى: «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا». أىّ مطر ... إنّه كان مطراً عجيباً حيث إنهالت عليهم الشهب والنيازك كالمطر وأبادتهم عن آخرهم!

«فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ». إنّ هذا الخطاب وإن كان موجهاً إلى النبى صلى الله عليه و آله ولكنه من الواضح أنّ الهدف هو اعتبار جميع المؤمنين به.

وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۸۵) وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (۸۶) وَ إِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (۸۷) رسالة شعيب فى مدين: فى هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم فصلًا خامساً من قصص الأقوام الماضين، ومواجهة الأنبياء العظام معهم، وهذا الفصل يتناول قوم شعيب.

---

(۱) يقال «الغابر» لمن ذهب أهله وفنوا وبقى هو وحده، كما ذهبت عائلة لوط معه، وبقيت زوجته وحدها، وأصيبت بما أصيب به العصاة.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۴۳

بعث شعيب عليه السلام الذى ينتهى نسبه- حسب كتب التاريخ- إلى إبراهيم عبر خمس طبقات، إلى أهل مدين، وهى مدينة من مدن الشام، كان أهلها أهل تجارة وترف قد سادت فيهم الوثنية، وكذا الحيلة، والتطفيف فى المكيال والميزان، والبخس فى المعاملة.

فى البداية يقول سبحانه: ولقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيباً «وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا».

إنّ «مدين» فى الأصل اسم لأحد أبناء إبراهيم الخليل، وحيث إنّ أبناءه وأحفاده سكنوا فى أرض على طريق الشام سميت تلك الأرض «مدين».

ثم إنّه تعالى أضاف: إنّ شعيباً مثل سائر الأنبياء بدأ دعوته بمسألة التوحيد «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ».

وقال: إنّ هذا الحكم مضافاً إلى كونه من وحى العقل، ثابت بواسطة الأدلة الواضحة التى جاءتهم من جانب اللَّه أيضاً: «قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ».

ثم إنّه عليه السلام بعد الدعوة إلى التوحيد أخذ فى محاربة المفاسد الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية السائدة فيهم، وفى البدء منعهم من ممارسة التطفيف، والغش فى المعاملة، يقول: «فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ» (۱).

ثم يشير إلى عمل آخر من الأعمال الأثيمة، وهو الإفساد فى الأرض بعد أن اصلحت أوضاعها بجهود الأنبياء، وفى ضوء الإيمان فقال: «وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَحِهَا».

ومن المسلّم أنّه لا- يستفيد أحد من إيجاد الفساد ومن الإفساد، سواء كان فساداً أخلاقياً، أو من قبيل فقدان الإيمان، أو عدم وجود الأمن، لهذا أضاف فى آخر الآية قائلًا:

«ذلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

وفى الآية اللاحقة يشير إلى رابع نصيحة لشعيب، وهى منعهم عن الجلوس على الطرقات وتهديد الناس، وصدّهم عن سبيل اللَّه، وتضليل الناس بإلقاء الشبهات وتزييف طريق الحق المستقيم فى نظرهم، فقال: «وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا».

وفى ختام الآية جاءت النصيحة الخامسة لشعيب، التى ذكّر فيها قومه بالنعم الإلهية

---

(۱) «البخس»: يعنى نقص حقوق الأشخاص، والنزول عن الحد بصورة توجب الظلم والحيف.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۴۴

لتفعيل حسّ الشكر فيهم، فيقول: تذكّروا عندما كنتم أفراداً قلائل فزادكم اللَّه فى الأفراد وضاعف من قوتكم: «وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا

فَكَثَّرَكُمْ». ثم يلفت نظرهم إلى عاقبة المفسدين ونهاية أمرهم ومصيرهم المشؤوم حتى لا يتبعوهم فى السلوك فيصابوا بما أصيبوا به، فيقول: «وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ».

إنّ آخر آية من الآيات المبحوثة هنا بمثابة إجابة على بعض استفهامات المؤمنين والكفار من قومه.

فيقول لهم شعيب: إن كانت طائفة منكم آمنت بما بُعِثت به، وأعرضت اخرى فلا ينبغى أن يكون ذلك سبباً لغرور الكفار، ويأس المؤمنين، اصبروا حتى يحكم اللّه بيننا وبينهم.

فالمستقبل سوف يكشف عمن يكون على حق، ومن يكون على باطل «وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ».

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (۸۸) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (۸۹) هذه الآيات تستعرض ردّ فعل قوم شعيب مقابل كلمات هذا النبى العظيم المنطقية، وحيث إنّ الملا والأثرياء المتكبرين فى عصره كانوا أقوياء فى الظاهر، كان ردّ فعلهم أقوى من ردّ فعل الآخرين.

إنّهم كانوا- مثل كل المتكبرين المغرورين- يهددون شعيباً معتمدين على قوتهم وقدرتهم، كما يقول القرآن الكريم: «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا».

على أنّ تهديد المعارضين لم يقتصر على هذا، بل كانت هناك تهديدات اخرى سنبحثها فى سائر الآيات المرتبطة بشعيب.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۴۵

وقد أجابهم شعيب فى مقابل كل تهديداتهم وخشونتهم تلك بكلمات فى غاية البساطة والرفق والموضوعية، إذ قال لهم: وهل فى إمكانكم أن تعيدونا إلى دينكم إذا لم نكن راغبين فى ذلك: «قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ».

وفى الآية اللاحقة يواصل شعيب قوله: «قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجنَا اللَّهُ مِنْهَا».

ثم يضيف شعيب قائلًا: «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا».

ثم من دون إبطاء يضيف: إنّ اللّه لا يأمر بمثل هذا، لأنّ اللّه يعلم بكل شىء ويحط علماً بجميع الامور «وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا».

وعلى هذا الأساس ليس من الممكن أن يعود عن أمر أعطاه، لأنّه لا يعود ولا يرجع عن أمر أعطاه إلّامن كان علمه محدوداً، واشتبه ثم ندم على أمره، أمّا الذى يعلم بكل شىء ويحيط بجميع الامور علماً فيستحيل أن يعيد النظر.

ثم لأجل أن يفهمهم بأنّه لا يخاف تهديداتهم، وأنّه ثابت فى موقفه، قال: «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا».

وأخيراً لأجل أن يثبت حسن نيّته، ويظهر رغبته فى طلب الحقيقة والسلام، حتى لا يتهمه أعداؤه بالشغب والفوضوية والإخلال بالأمن يقول: «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ». أى: يا ربّ أنت أحكم بيننا وبين هؤلاء بالحق، وارفع المشاكل التى بيننا وبين هؤلاء، وافتح علينا أبواب رحمتك، فأنت خير الفاتحين.

وَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ (۹۰) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (۹۱) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (۹۲) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (۹۳) تتحدث الآية الاولى عند الدعايات التى كان يبثّها معارضو شعيب ضدّ من يحتمل فيهم الميل إلى الإيمان به فتقول: «وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۴۶

والمقصود من الخسارة- هنا- الخسارات المادية التى تصيب المؤمنين بدعوة شعيب، إذ من المسلم عدم عودتهم إلى عقيدة الوثنية،

وعلى هذا الأساس كان يجب أن يخرجوا من بلدهم وديارهم بالقهر، ويتركوا بيوتهم وأملاكهم. وعندما وَصَل أمرهم إلى الإصرار على ضلالتهم، وعلى إضلال غيرهم أيضاً، ولم يبق أىّ أمل فى إيمانهم وهدايتهم، حلّت بهم العقوبة الإلهية بحكم قانون حسم مادة الفساد، فأصابهم زلزال رهيب شديد بحيث تهاوى الجميع أجساداً ميتة، فى داخل بيوتهم ومنازلهم «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ».

فى الآية اللاحقة شرح القرآن الكريم أبعاد هذا الزلزال العجيب المخيف الرهيب بالعبارة التالية: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا». أى إنّ الذين كذبوا شعيباً ابيدوا إبادة عجيبة، وكأنّهم لم يكونوا يسكنون تلك الديار.

وفى ختام الآية يقول: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ».

وكأنّ هاتين الجملتين جواباً لأقوال معارضى شعيب، لأنّهم كانوا قد هدّدوا بأن يخرجوه هو وأتباعه فى حالة عدم انصرافهم من دين التوحيد إلى الدين السابق، فقال القرآن: إنّهم ابيدوا كاملة، وكأنّهم لم يسكنوا فى تلك المنازل، فضلًا عن أن يستطيعوا إخراج غيرهم من البلد.

وفى مقابل قولهم: إنّ أتّباع شعيب يستلزم الخسران، قال القرآن الكريم: إنّ نتيجة الأمر أثبتت أنّ مخالفة شعيب هى العامل الأصلى فى الخسران.

وفى آخر آية- من الآيات المبحوثة- نقرأ آخر كلام لشعيب مع قومه بعد اعراضه عنهم حيث قال: لقد بلّغت رسالات ربّى، ونصحتكم بالمقدار الكافى، ولم آلُ جهداً فى إرشادكم:

«فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسلتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ».

ثم قال: «فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ». أى لست متأسفاً على مصير الكافرين، لأنّنى قد بذلت كل ما فى وسعى لهدايتهم وإرشادهم، ولكنهم لم يخضعوا للحق ولم يسلّموا، فكان يجب أن ينتظروا هذا المصير المشؤوم.

وَ مَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩۴) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَ قَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩۵)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١۴٧

إذ لم تنفع المواعظ: إنّ هذه الآيات- التى ذكرت بعد استعراض قصص مجموعة من الأنبياء العظام، مثل نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وقبل أن يعمد القرآن الكريم إلى استعراض قصة موسى بن عمران- أشار إلى عدّة أصول وقواعد عامة تحكم فى جميع القصص والحوادث، وهى قواعد واصول إذا فكّرنا فيها كشفت القناع عن حقائق قيمة ترتبط بحياتنا- جميعاً- ارتباطاً وثيقاً. فى البداية يقول: «وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ». فالصِّعاب والمشاق والبلايا التى تصيب الأفراد إنّما يفعلها اللَّه بهم عسى أن ينتبهوا، ويتركوا طغيانهم، ويرجعوا إلى اللَّه ويتوبوا إليه.

وذلك لأنّ الناس ما داموا فى الرخاء والرفاه فهم فى غفلة وقلما يكون لديهم استعداد وقابلية لقبول الحق. أمّا عندما يتورّطون فى المحنة والبلاء، يشرق نور فطرتهم وتوحيدهم ويتذكرون اللَّه قهراً بلا اختيار، وتستعد قلوبهم لقبول الحق.

ولكن هذه اليقظة والنهضة ليست عند الجميع على حدّ سواء، فهى فى كثير من الناس سريعة وعابرة وغير ثابتة، وبمجرّد أن تزول المشكلات يعودون إلى غفلتهم وغفوتهم، ولكن هذه المشكلات تعتبر بالنسبة إلى جماعة آخرين نقطة تحول فى الحياة، ويعودون إلى الحق إلى الأبد.

ولهذا قال تعالى فى الآية اللاحقة: عندما لم تغيّر تلك الجماعات سلوكها ومسيرها تحت ضغط المشكلات والحوادث، بل بقوا فى الضلال، رفعنا عنهم المشكلات وجعلنا مكانها النعم والرخاء فازدهرت حياتهم وكثر عددهم وزادت أموالهم «ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا».

ثمّ أضاف: أنّهم عند زوال المشكلات بدل أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقة وهى «النعمة» و «النقمة» بيد اللَّه، وأنّهم راجعون إلى اللَّه، يتذرعون- لخداع أنفسهم- بهذا المنطق، وهو إذا تعرضنا للمصائب والبلايا، فإنّ ذلك ليس بجديد، فقد مس آباءنا الضراء والسراء، وكانت لهم حالات رخاء وحالات بلاء، فالحياة لها صعود ونزول، والصعاب أمواج غير ثابتة وسريعة الزوال «وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ». فهى إذن قضية طبيعية، ومسألة إعتيادية.

فيقول القرآن الكريم فى الختام: إنّ الأمر عندما بلغ إلى هذا الحد، ولم يستفيدوا من عوامل التربية- أبداً- بل ازدادوا غروراً وعنجهيّة وتكبراً أهلكناهم فجأة ومن غير سابق انذار، لأنّ ذلك أشد إيلاماً ونكالًا لهم، وعبرة لغيرهم: «فَأَخَذْنَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۴۸

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۹۶) أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَ هُمْ نائِمُونَ (۹۷) أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (۹۸) أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (۹۹) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (۱۰۰) التقدم والعمران فى ظل الإيمان والتقوى: فى الآيات الماضية وقع البحث فيما جرى لأقوام مثل قوم هود وصالح وشعيب ونوح ولوط على نحو الإجمال، وإن كانت تلك الآيات كافية لبيان النتائج المشحونة بالعبر فى هذه القصص، ولكن الآيات الحاضرة تبيّن النتائج بصورة أكثر وضوحاً فتقول: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». أى لو أنّهم سلكوا سبيل الإيمان والتقوى، بدل الطغيان والتمرد وتكذيب آيات اللَّه والظلم والفساد، لم يتخلصوا من غضب اللَّه وعقوبته فحسب، بل لفتحت عليهم أبواب السماء والأرض.

والمراد من «بركات» الأرض والسماء إنّها المطر والنباتات التى تنبت من الأرض.

ولكن- للأسف- تركوا الصراط المستقيم الذى هو طريق السعادة والرفاه والأمن وكذبوا الأنبياء، وتجاهلوا برامجهم الإصلاحية، فعاقبناهم بسبب أعمالهم «وَلكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

فى الآيات اللاحقة ولمزيد من التأكيد على عمومية هذا الحكم وأنّ القانون أعلاه ليس خاصاً بالأقوام الغابرة بل يشمل الحاضر والمستقبل أيضاً- يقول: هل أنّ المجرمين الذين يعيشون فى نقاط مختلفة من الأرض يرون أنفسهم فى أمن من أن تحل بهم العقوبات الإلهية، فتنزل بهم صاعقة أو يصيبهم زلزال فى الليل وهم نائمون «أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ».

وهل هم فى أمان من ذلك العذاب فى النهار وهم غارقون فى أنواع اللهو واللعب «أَوَ أَمِنَ

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۴۹

أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ». يعنى أنّهم فى قبضة القدرة الإلهية فى جميع الأحوال والأوقات، ليلًا ونهاراً، فى اليقظة والنوم، فى ساعات الفرح والترح، وبإشارة واحدة وأمر واحد يقضى عليهم جميعاً، ويطوى صفحة حياتهم نهائياً.

وفى الآية اللاحقة يعود القرآن الكريم إلى ذكر وتأكيد هذه الحقيقة بشكل آخر فيقول:

أفأمن المجرمون من المكر الإلهى فى حين لا يأمن مكره إلّاالخاسرون «أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ».

«المكر»: يعنى فى اللغة العربية كل حيلة ووسيلة لصرف الشخص عن الهدف الذى يمضى إليه، سواء كان حقاً أو باطلًا. والمراد من المكر الإلهى هو أنّ اللَّه تعالى يصرفهم بخططه القوية التى لا تقهر عن حياة الرفاه واللذة دون اختيارهم ويقطعها عليهم. وهذه إشارة إلى العقوبات الإلهية الفجائية والمهلكة.

وفى الآية اللاحقة يقول القرآن الكريم بهدف إيقاظ عقول الشعوب الغافية وإلفات نظرهم إلى العبر التى كانت فى حياة الماضيين: ألا يتنبه الذين ورثوا السيادة على الأرض- من الأقوام الماضية- إلى ما فى حياة الماضيين وقصصهم من عبر، فلو أنّنا أردنا أن نهلكهم بذنوبهم لفعلنا: «أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ».

ویمکننا أیضاً أن نترکهم أحیاء ونسلب منهم الشعور وحس التشخیص والتمییز بالمرّة بسبب توغّلهم فی الذنوب، بحیث لا یسمعون معها حقیقة، ولا یقبلون نصیحة، ویعیشون بقیة حیاتهم حیری «وَنَطْبَعُ عَلَی قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَایَسْمَعُونَ».

تِلْکَ الْقُرَی نَقُصُّ عَلَیْکَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّنَاتِ فَمَا کَانُوا لِیُؤْمِنُوا بِمَا کَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ کَذلِکَ یَطْبَعُ اللَّهُ عَلَی قُلُوبِ الْکَافِرِینَ (۱۰۱) وَ مَا وَجَدْنَا لِأَکْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنَا أَکْثَرَهُمْ لَفَاسِقِینَ (۱۰۲) فی هاتین الآیتین رکّز القرآن الکریم علی العبر المستفادة من بیان قصص الماضین، والخطاب متوجه هنا إلی الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله إلّاأنّ الهدف هو الجمیع، یقول القرآن الکریم أوّلًا: هذه هی القری والأقوام التی نقص علیک قصصهم: «تِلْکَ الْقُرَی نَقُصُّ عَلَیْکَ مِنْ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۰

أَنبَائِهَا». ثم یقول: لم یکن إهلاکهم قبل إتمام الحجّة علیهم، بل لقد جاءهم الأنبیاء أوّلًا بالبراهین الجلیة وبذلوا قصاری جهدهم فی إیقاظهم وإرشادهم «وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَیِّنَاتِ». ولکنهم قاوموا الأنبیاء وخالفوا دعوتهم، وأصروا ولجّوا فی عنادهم، ولم یکونوا علی إستعداد لأن یؤمنوا بما کذبوا به من قبل، بل استمروا علی تکذیبهم حتی مع مشاهدتهم البینات: «فَمَا کَانُوا لِیُؤْمِنُوا بِمَا کَذَّبُوا مِن قَبْلُ».

وفی العبارة اللاحقة یبین تعالی علة هذا التعنت واللجاج: «کَذلِکَ یَطْبَعُ اللَّهُ عَلَی قُلُوبِ الْکَافِرِینَ». یعنی أنّ الذین یسیرون فی درب خاطیء، ویستمرون فی السیر فی ذلک الطریق، ینتقش الانحراف والکفر علی قلوبهم نتیجة تکرار العمل السیء، ویتجذر الفساد فی نفوسهم، کما یثبت النقش علی السکة (والطبع فی اللغة نقش صورة علی شیء کالسکة) وهذا هو أثر العمل وخاصیته.

وقد نسب إلی اللَّه هو تعالی مسبب الأسباب، وهو منشأ تأثیر کل مؤثر، فهو یهب الفعل هذه الخاصّیة عند تکراره، حیث یجعله «مَلَکة» فی نفس الشخص.

ولکن من الواضح والبیّن أنّ مثل الضلال لیس له أی صفة جبریة وقهریة، بل إنّ موجد الأسباب هو الإنسان وإن کان التأثیر بأمر اللَّه تعالی (فتأمل).

وفی الآیة اللاحقة یبیّن تعالی قسمین آخرین من نقاط الضعف الأخلاقی لدی هذه الجماعات، والتی تسببت فی ضلالها وهلاکها. فی البدایة یقول: إنّهم کانوا لا یحترمون العهود والمواثیق بل ینقضونها «وَمَا وَجَدْنَا لِأَکْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ».

وهذا العهد یمکن أن یکون إشارة إلی «العهد الفطری» الذی أخذه اللَّه علی جمیع عباده بحکم الجبلة والفطرة.

کما أنّه یمکن أن یکون إشارة إلی العهد الذی کان الأنبیاء الإلهیّون یأخذونه من الناس، وکان أکثر الناس یقبلونه، ولکنهم ینقضونه.

أو یکون إشارة إلی جمیع المواثیق «الفطریة» و «التشریعیة».

وعلی کل حال فإنّ روح نقض المیثاق کان من أسباب معارضة الأنبیاء والإصرار علی سلوک طریق الکفر والنفاق، والإبتلاء بعواقبها المشؤومة.

ثم یشیر القرآن الکریم إلی عامل آخر إذ یقول: «وَإِن وَجَدْنَا أَکْثَرَهُمْ لَفَاسِقِینَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۱

یعنی أنّ روح التمرد والتجاوز علی القانون، والخروج عن نظام الخلقة والقوانین الإلهیة، کان عاملًا آخر من عوامل استمرارهم علی الکفر، وإصرارهم علی مخالفة الدعوة الإلهیة.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَی بِآیَاتِنَا إِلَی فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ کَیْفَ کَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِینَ (۱۰۳) وَ قَالَ مُوسَی یَا فِرْعَوْنُ إِنِّی رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِینَ (۱۰۴) حَقِیقٌ عَلَی أَنْ لَا أَقُولَ عَلَی اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُکُمْ بِبَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ فَأَرْسِلْ مَعِیَ بَنِی إِسْرَائِیلَ (۱۰۵) قَالَ إِنْ کُنْتَ جِئْتَ بِآیَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ کُنْتَ مِنَ الصَّادِقِینَ (۱۰۶) فَأَلْقَی عَصَاهُ فَإِذَا هِیَ ثُعْبَانٌ مُبِینٌ (۱۰۷) وَ نَزَعَ یَدَهُ فَإِذَا هِیَ بَیْضَاءُ لِلنَّاظِرِینَ (۱۰۸) المواجهة بین موسی وفرعون: بیّن تعالی فی هذه الآیات والآیات الکثیرة اللاحقة قصة موسی بن عمران، وما جری بینه وبین

فرعون وملئه وعاقبة أمره. وعلى العموم يمكن حصر وتلخيص حياة هذا النبى الإلهى العظيم فى خمس دورات ومراحل:

١- مرحلة الولادة، وما جرى عليه من الحوادث حتى ترعرعه فى بلاط فرعون.

٢- مرحلة فراره من مصر، وحياته فى أرض «مدين» فى كنف النبى شعيب عليه السلام.

٣- مرحلة بعثته، ثم المواجهات الكثيرة بينه وبين فرعون وجهازه.

۴- مرحلة نجاته ونجاة بنى إسرائيل من مخالب فرعون.

۵- مرحلة مشاكله مع بنى إسرائيل.

فى الآية الاولى من الآيات الحاضرة يقول تعالى: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بَايَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ». أى من بعد قوم نوح وهود وصالح.

«فرعون»: اسم عام، وهو يطلق على كل ملوك مصر.

ثم يقول تعالى: «فَظَلَمُوا بِهَا».

ثم يقول تعالى فى ختام الآية: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ».

وهذه العبارة إشارة إجمالية إلى هلاك فرعون وقومه الطغاة المتمردين، الذى سيأتى شرحه فيما بعد.

وهذه الآية تشير إشارة مقتضبة إلى مجموع برنامج رسالة موسى، وما وقع بينه وبين فرعون من المواجهة وعاقبة أمرهم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٥٢

أمّا الآيات اللاحقة فتسلّط الأضواء بصورة أكثر على هذا الموضوع، فيقول أوّلًا:

«وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنّى رَسُولٌ مّن رَّبّ الْعَالَمِينَ».

وهذه هى أوّل مواجهة بين موسى وبين فرعون، وهى صورة حية وعملية من الصراع بين «الحق» و «الباطل».

وفى الآية اللاحقة نقرأ أنّ موسى عقيب دعوى الرسالة من جانب اللّه قال: فالآن إذ أنا رسول ربّ العالمين ينبغى ألا أقول عن اللّه إلّاالحق، لأنّ المرسل من قبل اللّه المنزّه عن جميع العيوب لا يمكن أن يكون كاذباً «حَقِيقٌ عَلَى أن لَّاأَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ».

ثم لأجل توثيق دعواه للنّبوة، أضاف: أنا لا أدعى ما أدّعيه من دون دليل، بل إنّ معى أدلة واضحة من جانب اللّه «قَدْ جِئْتُكُم بِبَيّنَةٍ مّن رَّبّكُمْ».

فإذا كان الأمر هكذا «فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ».

وكان هذا قسماً من رسالة موسى بن عمران الذى حرّر بنى إسرائيل من قبضة الاستعمار الفرعونى.

فقال فرعون بمجرّد سماع هذه العبارة- (أى قوله: قد جئتكم ببيّنة)- هات الآية التى معك من جانب اللّه إن كنت صادقاً «قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بَايَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

ومن دون تأخير أخرج موسى معجزتيه العظيمتين التى كانت إحداهما مظهر «الخوف» والاخرى مظهر «الأمل» وكانتا تكملان مقام إنذاره ومقام تبشيره، وألقى فى البداية عصاه:

«فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ».

ثم إنّ الآية اللاحقة تشير إلى المعجزة الثانية للنبى موسى عليه السلام التى لها طابع الرجاء والبشارة. يقول تعالى: «وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ».

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) بدء المواجهة: فى هذه الآيات جاء الحديث عن أوّل ردّ فعل لفرعون وجهازه فى مقابل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۳

دعوة موسى عليه السلام ومعجزاته. الآية الاولى تذكر عن ملأ فرعون أنّهم بمجرد مشاهدتهم لأعمال موسى الخارقة للعادة اتهموه بالسحر، وقالوا: هذا ساحر عليم ماهر فى سحره: «قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ».

ثم أضافوا: إنّ هدف هذا الرجل أن يخرجكم من وطنكم «يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ». يعنى أنّه لا ـ يهدف إلّااستعماركم واستثماركم والحكومة على الناس، وغصب أراضى الآخرين، وهذه الأعمال الخارقة للعادة وادعاء النبوة كلها لأجل الوصول إلى هذا الهدف.

ثم قالوا بعد ذلك: مع ملاحظة هذه الأوضاع فما هو رأيكم: «فَمَاذَا تَأْمُرُونَ».

يعنى أنّهم جلسوا يتشاورون فى أمر موسى، ويتبادلون الرأى فيما يجب عليهم اتّخاذه تجاهه، لأنّ مادة «أمر» بمعنى التشاور.

وعلى كل حال فقد قال الجميع لفرعون: لا تعجل فى أمر موسى وهارون، وأجلّ قرارك بشأنهما إلى ما بعد، ولكن ابعث من يجمع لك السحرة من جميع أنحاء البلاد «قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ».

نعم ابعث من يجمع لك كل ساحر ماهر فى حرفته عليم فى سحره «يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ».

إنّ هذا الإقتراح من جانب حاشية فرعون كان لأجل أنّهم كانوا يريدون افتعال ذريعة سياسية لأىموقف سيتخذونه ضد موسى كما كانوا يفعلون ذلك فى بقية مواقفهم ونشاطاتهم الشخصية، ولهذا اقترحوا أرجاء أمر قتل موسى وأخيه نظراً لمعجزتيه اللتين أورثتا رغبة فى مجموعة كبيرة من الناس نحو دعوته وانحيازهم إليه، ومزجت صورة «نبوته» بصورة «المظلومية والشهادة» وأضفت بضم الثّانية إلى الاولى- مسحة من القداسة والجاذبية عليه وعلى دعوته.

ولهذا فكروا فى بداية الأمر فى إجهاض عمله بأعمال خارقة للعادة مماثلة، ويسقطوا اعتباره بهذه الطريقة، ثمّ يأمرون بقتله لتنسى قصة موسى وهارون وتمحى عن الأذهان إلى الأبد.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۴

وَ جَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (۱۱۳) قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (۱۱۴) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (۱۱۵) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (۱۱۶) وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (۱۱۷) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۱۸) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (۱۱۹) وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (۱۲۰) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (۱۲۱) رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ (۱۲۲) كيف انتصر الحق فى النهاية: فى هذه الآيات جرى الحديث حول المواجهة بين النبى موسى عليه السلام وبين السحرة وما آل إليه أمرهم فى هذه المواجهة، وفى البداية تقول الآية: إنّ السحرة بادروا إلى فرعون بدعوته، وكان أوّل ما دار بينهم وبين فرعون هو: هل لنا من أجر إذا غلبنا العدو «وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ».

فوعدهم فرعون وعداً جيداً وقال: إنّكم لن تحصلوا على الأجر السخى فقط، بل ستكونون من المقربين عندى «قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ».

يستفاد من هذه الآية أنّ التقرب إلى فرعون فى ذلك المحيط، وتلك البيئة كان أعلى وأسمى وأهم من المال والثروة، لأنّه كان يعنى منزلة معنوية كان من الممكن أن تصبح منشأ لأموال كثيرة وثروات كبيرة.

وفى المآل حُدّد موعدٌ معين لمواجهة السحرة لموسى، وكما جاء فى سورة «طه» و «الشعراء» دُعى جميع الناس لمشاهدة هذا النزال.

وحلّ اليوم الموعود، وهيّأ السحرة كل مقدمات العمل ... حفنة من العصىّ والحبال التى يبدو أنّها كانت معبئة بمواد كيمياوية خاصة، تبعث على حركتها إذا سطعت عليها الشمس، لأنّها تتحول إلى غازات خفيفة تحرّك تلك العصى والحبال المجوفة.

وكانت واقعة عجيبة، فموسى وحده (ليس معه إلّاأخوه) يواجه تلك المجموعة الهائلة من السحرة، وذلك الحشد الهائل من الناس

المتفرجين الذين كانوا على الأغلب من أنصار السحرة ومؤيديهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۵

فالتفت السحرة في غرور خاص وكبير إلى موسى عليه السلام وقالوا: إمّا أن تشرع فتلقى عصاك، وإمّا أن نشرع نحن فنلقى عصيّنا؟ «قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ».

فقال موسى عليه السلام بمنتهى الثقة والإطمئنان: بل اشرعوا أنتم «قَالَ أَلْقُوا».

وعندما ألقى السحرة بحبالهم وعصيّهم في وسط الميدان سحروا أعين الناس، وأوجدوا بأعمالهم وأقاويلهم المهرجة ومبالغاتهم خوفاً في قلوب المتفرجين وأظهروا سحراً كبيراً رهيباً: «فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ».

«السحر»: تعنى فى الأساس الخداع والشعوذة، وقد يطلق أيضاً على كل عامل غامض، ودافع غير مرئى.

فى هذه اللحظة التى اعترت الناس فيها حالة من النشاط والفرح، وتعالت صيحات الإبتهاج من كل صوب، وعلت وجوه فرعون وملائه ابتسامة الرضى، ولمع فى عيونهم بريق الفرح، أدرك الوحى الإلهى موسى عليه السلام وأمره بإلقاء العصى وفجأة انقلب المشهد وتغير، وبدت الدهشة على الوجوه، وتزعزت مفاصل فرعون وأصحابه كما يقول القرآن الكريم:

«وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ».

«تلقف»: مشتقة من مادة «لَقْف» (على وزن سَقف) بمعنى أخذ شيء بقوة وسرعة، سواء بواسطة الفم، والأسنان، أو بواسطة الأيدى، ولكن تأتى فى بعض الموارد بمعنى البلع والإبتلاع أيضاً، والظاهر أنّها جاءت فى الآية الحاضرة بهذا المعنى.

«يأفكون»: مشتقّة من مادة «إفك» على وزن «مسك» وهى تعنى فى الأصل الإنصراف عن الشيء، وحيث إنّ الكذب يصرف الإنسان من الحق أطلق على الكذب لفظ «الإفك».

وفى هذا الوقت ظهر الحق، وبطلت أعمالهم المزيفة: «فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». لأنّ عمل موسى كان عملًا واقعياً، وكانت أعمالهم حفنة من الحيل ومن أعمال الشعبذة، ولا شك أنّه لا يستطيع أى باطل أن يقاوم الحق دائماً.

وهذه هى أوّل ضربة توجهت إلى أساس السلطان الفرعونى الجبّار.

ثم يقول تعالى فى الآية اللاحقة: وبهذه الطريقة ظهرت آثار الهزيمة فيهم، وصاروا جميعاً أذلاء: «فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ».

والضربة الأقوى كانت عندما تغير مشهد مواجهة السحرة لموسى عليه السلام تغييراً كلّياً، وذلك عندما وقع السحرة فجأة على الأرض ساجدين لعظمة اللّه «وَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۶

ثم نادوا بأعلى صوتهم و «قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهرُونَ».

ولم يكن فرعون والملأ يتوقعون هذا الأمر مطلقاً.

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُم إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۱۲۳) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُم مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۲۴) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (۱۲۵) وَ مَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (۱۲۶) التهديدات الفرعونية الجوفاء: عندما توجهت ضربة جديدة- بانتصار موسى على السحرة وإيمانهم به- إلى أركان السلطة الفرعونية، استوحش فرعون واضطرب بشدة، لهذا عمد فوراً إلى عملين مبتكرين: فى البداية وجه اتهاماً (لعله مرغوب عند السواد من الناس) إلى السحرة، ثم هددهم بأشدّ التهديدات، ولكن على العكس من توقعات فرعون أظهر السحرة مقاومة عجيبة تجاه هذين الموقفين، وبهذه الطريقة وجهوا ضربة ثالثة إلى أركان السلطان الفرعونى، وقد رسمت الآيات اللاحقة هذا المشهد بصورة رائعة.

فى البداية يقول: إنّ فرعوناً قال للسحرة: هل آمنتم بموسى قبل أن آذن لكم «قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ».

وهذه هى أعلى درجات الإستعباد والاستحمار، أن يكون شعب من الشعوب أسيراً وعبداً بحيث لا يحق له حتى التفكير والإيمان القلبى بأحد أو بعقيدة.

وهذا هو البرنامج الذى يواصله «الاستعمار الجديد»، يعنى أنّ المستعمرين لا يكتفون بالاستعمار الاقتصادى والسياسى والاجتماعى، بل يسعون إلى تقوية جذورهم عن طريق الاستعمار الفكرى.

ثم يضيف فرعون قائلًا: «إِنَّ هذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا».

إنّ مراد فرعون هو أنّ هناك مؤامرة مدروسة وتواطؤاً مبيّتاً قد دبرتموه قبل مدة للسيطرة على أوضاع مصر واستلام زمام السلطة.

وهذه التهمة كانت خاوية ومفضوحة، إلى درجة أنّه لم يكن يقتنع بها إلّاالعوام والجهلة من الناس.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٥٧

ثمّ إنّ فرعون هدّدهم بتهديد غامض ولكنّه شديد ومحكم، إذ قال: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

وفى الآية اللاحقة بيّن تفاصيل ذلك التهديد الذى هدّد به السحرة فاقسم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم ويصلبهم، إذ قال: «لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ».

لقد قاوم السحرة كلتا حربتى فرعون، وأجابوه جواب رجل واحد: إنّنا نرجع إلى ربّنا إذن «قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ». يعنى إذا تحقق تهديدك الثانى (وهو القتل) فمعناه أنّنا سننال الشهادة فى سبيل الدفاع عن الحق، وهذا لا يوجب ضرراً علينا، ولا ينقصنا شيئاً، بل يُعدّ سعادة وفخراً عظيماً لنا.

ثم إنّهم للرد على تهمة فرعون، ولايضاح الحقيقة لجماهير المتفرجين على هذا المشهد، واثبات براءتهم من أى ذنب، قالوا: إنّ الإشكال الوحيد الذى تورده علينا هو أنّنا آمنا بآيات اللّه وقد جاءتنا «وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أن ءَامَنَّا بَايَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا».

ثم إنّهم أشاحوا بوجوههم عن فرعون وتوجهوا إلى اللّه سبحانه، وطلبوا منه الصبر والإستقامة، لأنّهم كانوا يعلمون أنّهم لا يستطيعون أن يقاوموا تلك العقوبات الثقيلة من دون نصره وتأييده وعونه، لهذا قالوا: «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ».

وأخيراً- وكما جاء فى الروايات وكتب التاريخ- استقام اولئك الجماعة من السحرة الذين آمنوا بموسى حتى نفّذ فرعون تهديداته، ومثّل بأجسامهم تمثيلًا مروعاً، وصلبهم على جذوع النخل على مقربة من نهر النيل.

أجل، إذا كان الإيمان مقروناً بالوعى الكامل فإنّه ينتهى إلى مثل هذا العشق الملتهب الذى لا يكون هذا التفانى فى سبيله مثار للعجب.

وَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسَى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٥٨

فى هذه الآيات يبيّن لنا القرآن الكريم مشهداً آخر من الحوار الذى دار بين فرعون وبين ملئه حول وضع موسى عليه السلام. تقول الآية فى البداية: «وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ». يستفاد من هذا التعبير أنّ فرعون بعد هزيمته أمام موسى عليه السلام ترك موسى وبنى إسرائيل أحراراً مدّة من الزمن، ولم يترك بنو إسرائيل بدورهم هذه الفرصة من دون أن يشتغلوا بالدعوة والتبليغ لصالح دين موسى عليه السلام وأنّ فرعون كانت له معبودات وأصنام.

إنّ فرعون- بسبب تحذيرات أعوانه وحاشيته- صمم على اتّخاذ موقف متشدد من بنى إسرائيل، فقال لحاشيته فى معرض الجواب على تحريضهم وتحذيرهم: سأقتل أبناءهم وأستخدم نساءهم ونحن متفوقون عليهم على كل حال: «قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ». و الآية اللاحقة بيّنت خطّة موسى التى اقترحها على بنى إسرائيل لمواجهة تهديدات فرعون، وشرح فيها شروط الغلبة على العدو، وذكرهم بأنّهم إذا عملوا بثلاث مبادىء انتصروا على العدو حتماً:

أوّلها: الإتكال على اللَّه فقط «قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ».

والآخر: أن يثبتوا ولا يخافوا من تهديدات العدو: «وَاصْبِرُوا».

وللتأكيد على هذا المطلب، ومن باب ذكر الدليل، ذكّرهم بأنّ الأرض كلها ملك اللَّه وهو الحاكم عليها والمالك المطلق لها، فهو يعطيها لمن يشاء «إِنّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».

وآخر هذه المبادىء هو أن يعتمدوا التقوى لأنّ العاقبة لمن اتّقى «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ».

هذه المبادىء والشروط الثلاثة ليست شرائط إنتصار قوم بنى إسرائيل وحدهم على العدو، بل كل شعب أراد الغلبة على أعدائه لابدّ له من تحقيق هذه البرامج الثلاثة.

وفى آخر آية من الآيات الحاضرة يعكس القرآن الكريم شكايات بنى إسرائيل وعتابهم من المشكلات التى ابتلوا بها بعد قيام موسى عليه السلام فيقول: «قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا». فإذاً متى يحصل الفرج؟!

وكأنّ بنى إسرائيل مثل كثير منّا كانوا يتوقعون أن تصلح جميع الامور بقيام موسى عليه السلام فى ليلة واحدة ....

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۵۹

ولكن موسى عليه السلام أفهمهم بأنّهم سينتصرون فى المآل، ولكن أمامهم طريقاً طويلًا، وإنّ هذا الإنتصار- طبقاً للسنة الإلهية- يتحقق فى ظل الإستقامة والثبات والسعى والإجتهاد، كما جاء ذلك فى الآية الحاضرة: «قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ».

ثم يقول فى ختام الآية: إنّ اللَّه أعطاكم هذه النعمة، وأعاد إليكم حريتكم المسلوبة كى ينظر كيف تتصرفون أنتم «فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ». يعنى ستبدأ- بعد الإنتصار- مرحلة امتحانكم واختباركم.

وَ لَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۱۳۰) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۱۳۱) العقوبات التنبيهية: لقد كان القانون الإلهى العام فى دعوة الأنبياء- كما قلنا فى تفسير الآية (۹۴) من نفس هذه السورة- هو أنّهم كلّما واجهوا معارضة كان اللَّه تعالى يبتلى الاقوام المعاندين بأنواع المشاكل والبلايا، حتى يحسّوا بالحاجة فى ضمائرهم وأعماق نفوسهم.

وفى أوّل آية من الآيتين الحاضرتين إشارة إلى نفس هذا المطلب فى قصّة فرعون، إذ يقول تعالى: «وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينِ وَنَقْصٍ مّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ».

ولكن بدل أن يستوعب «آل فرعون» هذه الدروس الإلهية، ويستيقظوا من غفلتهم وغفوتهم العميقة، أساءوا استخدام هذا الظرف والحالة، وفسّروها حسب مزاجهم، فإذا كانت الأحوال مؤاتية ومطابقة لرغبتهم، وكانوا يعيشون فى راحة واستقرار قالوا: إنّ الوضع الحسن هو بسبب جدارتنا وصلاحنا «فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هذِهِ».

ولكن عندما تنزل بهم النوائب فإنّهم ينسبون ذلك إلى موسى عليه السلام وجماعته فوراً ويقولون هذا من شؤمهم: «وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ».

ولكن القرآن الكريم قال فى معرض الردّ عليهم: اعلموا أنّ منشأ كل شؤم وبلاء أصابكم إنّما هو من قبل اللَّه، وأنّ اللَّه تعالى أراد أن تصيبكم نتيجة أعمالكم المشؤومة، ولكن أكثرهم لا يعلمون «أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۰

مسألة التطيّر والتفاؤل والتشاؤم قد تكون منتشرة فى مختلف المجتمعات البشرية.

إنّ هذين الأمرين وإن لم يكن لهما أى أثر طبيعى إلّاأنّه يمكن أن يكون لهما أثر نفسى لا- ينكر، وإنّ التفاؤل غالباً يوجب الأمل والتحرك، والتشاؤم يوجب اليأس والوهن والتراجع. ولعله لأجل هذا لم يُنْه فى الروايات والأحاديث الإسلامية عن التفاؤل، بينما نهى

عن التشاؤم بشدة، ففى حديث مروى عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «تفاءلوا بالخير تجدوه».
وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِينَ (۱۳۲) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (۱۳۳) النوائب المتنوعة: فى هاتين الآيتين اشير إلى مرحلة اخرى من الدروس المنبهة التى لقّنها اللّه لقوم فرعون، وفى الآية الاولى من الآيات المبحوثة يقول القرآن الكريم من باب المقدمة لنزول النّوائب: إنّهم بقوا يلجّون فى إنكار دعوة موسى، وقالوا: مهما تأتنا من آية وتريد أن تسحرنا بها فإنّنا لن نؤمن بك: «وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِينَ».
ولكن حيث إنّ اللّه سبحانه لا يعاقب امّة أو قوماً من دون أن يتمّ عليهم الحجّة قال فى الآية اللاحقة: نحن أنزلنا عليهم بلايا كثيرة ومتعددة لعلهم يتنبهون ... فقال أوّلًا: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ».
«الطوفان»: مشتقة من مادة «الطوف» وتعنى الشيء الذى يطوف ويدور، ثم اطلقت هذه اللفظة على الحادثة التى تحيط بالإنسان.
ثم سلط الجراد على زروعهم وأشجارهم «وَالْجَرَادَ».
وكلما كان يُصيبهم بلاء كانوا يلجأون إلى موسى عليه السلام ويسألونه أن يطلب من اللّه أن يرفع عنهم ذلك البلاء، فقد فعلوا هذا بعد الطوفان والجراد أيضاً، وقبل موسى عليه السلام، وارتفع عنهم البلاء ولكنهم مع ذلك لم يكفّوا عن لجاجهم وتعنتهم.
وفى المرة الثالثة سلط عليهم القمل «وَالْقُمَّلَ».
والمراد من «القمل» نوع من الآفات الزراعية التى تصيب الغلات وتفسدها وتتلفها.
مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۱
وعندما خفت أمواج هذا البلاء، واستمرّوا فى عنادهم سلط اللّه عليهم فى المرحلة الرابعة، الضفادع، فقد تزايد نسل الضفادع تزايداً شديداً حتى أنّه تحول إلى بلاء عظيم عكّر عليهم صفو حياتهم: «وَالضَّفَادِعَ».
ولكنهم مع ذلك لم يخضعوا للحق ولم يسلّموا.
وفى هذا الوقت بالذات سلّط اللّه عليهم «الدَّمَ».
وقال تعالى فى ختام ذلك: إنّ هذه الآيات والمعاجز الباهرة- رغم أنّها أظهرت لهم حقانية موسى- ولكنهم استكبروا عن قبول الحق وكانوا مجرمين. «ءَايَاتٍ مُّفَصَّلتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ».
وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّکَ بِما عَهِدَ عِنْدَکَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَکَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَکَ بَنِي إِسْرائِيلَ (۱۳۴) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (۱۳۵) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ (۱۳۶) نقض العهد المتكرر: فى هذه الآيات نلاحظ رد فعل الفرعونيين فى مقابل النوائب والبلايا المتبهة الإلهية، وفى الآية الاولى نقرأ: «وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّکَ بِمَا عَهِدَ عِندَکَ».
إنّهم عند نزول البلاء يلجأون إلى موسى ويطلبون منه أن يدعو لرفع العذاب عنهم، وأن يفى اللّه بما وعده له من استجابة دعائه: «عَهِدَ عِندَکَ».
ثم يقولون: إذا دعوت فرفع عنّا البلاء فإنّنا نحلف لك بأن نؤمن بك، ونرفع طوق العبودية عن بنى إسرائيل: «لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَکَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَکَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ».
«الرجز»: استعملت فى معانى كثيرة: البلايا الصعبة، الطاعون، الوثن والوثنية، وسوسة الشيطان، والثلج أو البَرَد الصلب.
والمراد من عبارة «بِمَا عَهِدَ عِندَکَ» ومن ذلك العهد الإلهى الذى أعطاه سبحانه لموسى هو أن يستجيب دعاءه إذا دعاه.
وفى الآية اللاحقة يشير إلى نقضهم للعهد ويقول: «فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم
مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۲

بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ» «١». إنّ جملة «إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ» إشارة إلى أنّ موسى حدّد لهم وقتاً وعيّن أمداً، فكان يقول لهم: فى الوقت الفلانى سيرفع هذا البلاء عنكم، حتى يتضح لهم أنّ إرتفاع ذلك البلاء عنهم ليس أمراً اتفاقياً وصدفة، بل هو بفضل دعائه وطلبه من اللّه تعالى.

وآخر هذه الآيات تبين- من خلال جملتين قصيرتين- عاقبة كل هذا التعنت، ونقض العهد، فتقول بصورة مجملة: «فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ».

ثم تشرح هذا الإنتقام وتذكر تفصيله: «فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ». الإنتقام يعنى العقوبة والمجازاة.

والمقصود من الإنتقام الإلهى هو أنّ الجماعة الفاسدة وغير القابلة للإصلاح لا يحق لها الحياة فى نظام الخلق، ولابدّ أن تمحى من صفحة الوجود.

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَ دَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ مَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) قوم فرعون والمصير المؤلم: بعد هلاك قوم فرعون، وتحطّم قدرتهم، وزوال شوكتهم، ورث بنو إسرائيل الذين طال رزوحهم فى أغلال الأسر والعبودية أراضى الفراعنة الشاسعة والآية الحاضرة تشير إلى هذا الأمر: «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا».

والمقصود من العبارة هو حكومة بنى إسرائيل على كل اراضى الفراعنة وبلادهم.

والتعبير ب «كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ» إشارة إلى الفرعونيين كانوا يستبقون بنى إسرائيل فى حالة ضعف دائمية: ضعف فكرى وضعف أخلاقى وضعف اقتصادى، ومن جميع الجهات وفى جميع النواحى.

والتعبير ب «مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا» إشارة إلى الأراضى الواسعة العريضة التى كانت تحت تصرّف الفرعونيين.

---

(١) «النكث»: على وزن مَكْث، يعنى فل الحبل المفتول، ثمّ اطلق على نقض الميثاق والعهد.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ١٦٣

وجملة «بَارَكْنَا فِيهَا» إشارة إلى الخصب العظيم الذى كانت تتمتع به هذه المنطقة- يعنى مصر والشام.

ثم يقول: «وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا». أى تحقق الوعد الإلهى لبنى إسرائيل بانتصارهم على الفرعونيين، بسبب صبرهم وثباتهم.

ثم يضيف فى آخر الآية: نحن الذين دمرنا قصور فرعون وقومه العظيمة، وأبنيتهم الجميلة الشامخة، وكذا بساتينهم ومزارعهم العظيمة «وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ».

«صنع»: يعنى الأعمال الجميلة، وقد وردت هذه اللفظة فى الآية الحاضرة بمعنى الهندسة الجميلة الرائعة التى كان يستخدمها الفرعونيين فى أبنيتهم.

«يعرشون»: فى الأصل تعنى الأشجار والبساتين التى تنصب بواسطة العروش والسقف، ولها جمال عظيم وروعة باهرة.

«دمرّنا»: من مادة «التدمير» بمعنى الإهلاك والإبادة.

وَ جَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِى ذلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) الاقتراح على موسى بصنع الوثن: فى هذه الآيات إشارة إلى جانب حساس آخر من قصّة بنى إسرائيل التى بدأت فى أعقاب الإنتصار على الفرعونيين، وذلك هو مسألة توجه بنى إسرائيل إلى الوثنية التى بحثت بداياتها فى هذه الآيات، وجاءت نتيجتها النهائية بصورة مفصلة فى سورة طه من الآية (٨٦- ٩٧)، وبصورة مختصرة فى الآية (١٤٨) فما بعد من هذه السورة.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۶۴

فى الآية الاولى: «وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرَاءِيلَ الْبَحْرَ». أى النيل العظيم.

ولكن فى مسيرهم مرّوا على قوم يعبدون الأصنام: «فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ». «عاكف»: مشتقة من مادة «العكوف» بمعنى التوجه إلى شيء وملازمته المقارنة لإحترامه وتبجيله.

فتأثّر الجهلة الغافلون بهذا المشهد بشدة إلى درجة قالوا لموسى من دون إبطاء: يا موسى اتّخذ لنا معبوداً على غرار معبودات هؤلاء: «قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ».

فانزعج موسى عليه السلام من هذا الإقتراح الأحمق بشدة، وقال لهم: «قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ». لأنّ منشأ الوثنية هو جهل البشر.

وفى الآية اللاحقة نقرأ أنّ موسى عليه السلام- لتكميل حديثه لبنى إسرائيل- قال: إنّ هذه الجماعة الوثنية التى ترونها سينتهى أمرها إلى الهلاك، وإن عملهم هذا باطل لا أساس له «إِنَّ هؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

فعمل هذه الجماعة باطل، وجهودهم غير منتجة، كما أن مصير مثل هؤلاء القوم وكل قوم وثنيين ومشركين هو الهلاك والدمار.

ثم تضيف الآية التوكيد: إنّ موسى عليه السلام «قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ».

وفى الآية اللاحقة يذكر القرآن الكريم إحدى النعم الإلهية الكبرى التى وهبها اللّه سبحانه لبنى إسرائيل، ليبعث بالإلتفات إلى هذه النعمة الكبرى حسّ الشكر فيهم، وليعلموا أنّ اللائق بالخضوع والعبادة هو الذات الإلهية المقدسة فحسب، يقول فى البداية: تذكّروا يوم أنجيناكم من مخالب آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم دائماً «وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ».

ثمّ تمشياً مع أسلوب القرآن فى بيان الامور بتفصيل بعد إجمال شرح هذا العذاب المستمر، وهو: قتل الأبناء، واستبقاء النساء للخدمة والإسترقاق «يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ».

وقد كان فى هذا اختبار عظيم من اللّه لكم «وَفِى ذلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۶۵

وَ وَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَ أَصْلِحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (۱۴۲) الميعاد الكبير: فى هذه الآية إشارة إلى مشهد من مشاهد حياة بنى إسرائيل، ومشكلة موسى عليه السلام معهم، وذلك هو قصة ذهاب موسى إلى ميقات ربه، وتلقى أحكام التوراة عن طريق الوحى وكلامه مع اللّه، والتى ذكرت بعد قصة عبادة بنى إسرائيل للعجل وانحرافهم عن مسير التوحيد، وضجّة السامرى العجيبة. يقول تعالى أوّلًا: «وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلِثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً».

هذه الأيام الأربعون بدأت من أوّل شهر ذى القعدة وختمت باليوم العاشر من شهر ذى الحجة (عيد الأضحى).

«الميقات»: مشتقة من مادة «الوقت» بمعنى الموعد المضروب للقيام بعمل ما، ويطلق عادة على الزمان، ولكنه قد يطلق على المكان الذى يجب أن يتمّ العمل فيه، مثل «ميقات الحج» يعنى المكان الذى لا يجوز أن يجتازه أحد إلّامحرماً.

ثم ذكرت الآية أنّ موسى استخلف هارون وأمره بالإصلاح فى قومه، وأن لا يتبع سبيل المفسدين: «وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هرُونَ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ».

حديث المنزلة: أشار كثير من المفسرين الشيعة والسنّة- فى ذيل الآية مورد البحث- إلى حديث «المنزلة» المعروف، بفارق واحد هو: أنّ الشيعة اعتبروا هذا الحديث من الأدلة الحيّة والصريحة على خلافة على عليه السلام لرسول اللّه صلى الله عليه و آله مباشرة وبلا فصل.

ولكى يتّضح هذا البحث ندرج هنا أوّلًا أسانيد ونص هذا الحديث باختصار، ثم نبحث فى دلالته.

أسانيد حديث المنزلة: روى جمع كبير من صحابة النبى صلى الله عليه و آله حول غزوة تبوك: أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله

خرج إلى تبوك واستخلف علياً فقال: أتخلفنى فى الصبيان والنساء؟ قال: «ألا ترضى أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى إلّاأنّه ليس نبى بعدى».

وهذا النص ورد فى أوثق الكتب الحديثية لدى أهل السنّة، يعنى صحيح البخارى وعن سعد بن أبى وقاص «۱».

---

(۱) صحيح البخارى ۵/ ۱۲۹.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۶

وقد روى هذا الحديث- أيضاً- فى صحيح مسلم الذى يعدّ من المصادر الرئيسية عن أهل السنة: خلف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على بن أبى طالب فى غزوة تبوك فقال: يا رسول اللَّه تخلفنى فى النساء والصبيان؟ فقال: «أما ترضى أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبى بعدى» «۱».

وقد ورد عين هذا الموضوع فى سنن ابن ماجه أيضاً «۲».

وقد أضيف فى سنن الترمذى مطلب آخر، وهو عن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال:

أمر معاوية بن أبى سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسبّ أبا تراب؟ قال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فلن أسبّه، لئن تكون لى واحدة منهنّ أحبّ إلىّ من حُمْر النَعَم. سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول لعلى وخلفه فى بعض مغازيه؟ فقال له يا رسول اللَّه تخلفنى مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «أما ترضى أن تكون منّى بمنزلة هارون من موسى إلّاأنّه لا نبوّة بعدى». وسمعته يقول يوم خيبر: «لاعطين الراية رجلًا يحب اللَّه ورسوله ويحبه اللَّه ورسوله». قال: فتطاولنا لها. فقال: «ادعوا لى علياً». قال فأتاه وبه رمد فبصق فى عينه فدفع الراية إليه ففتح اللَّه عليه. وأنزلت هذه الآية «ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم» الآية دعا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «اللهم هؤلاء أهلى» «۳».

وقد أشير إلى هذا الحديث فى (۱۳) موارد من مسند أحمد بن حنبل، تارة ذكرت فيه غزوة تبوك، وتارة من دون ذكر غزوة تبوك بل بصورة كلية «۴».

والجدير بالذكر أنّ هذا الحديث لم يروه سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه و آله وحده، بل رواه- أيضاً- مجموعة كبيرة من الصحابة الذين يتجاوز عددهم عشرين شخصاً منهم:

جابر بن عبداللَّه، وأبو سعيد الخدرى، وأسماء بنت عميس، وابن عباس، وأم سليم، وعبد اللَّه بن مسعود، وأنس بن مالك، وزيد بن أرقم، وأبو أيوب، والأجدر بالذكر أنّ هذا الحديث رواه عن النبى صلى الله عليه و آله معاوية بن أبى سفيان، وعمر بن الخطاب أيضاً.

---

(۱) صحيح مسلم ۷/ ۱۲۰.

(۲) سنن ابن ماجه ۱/ ۴۵.

(۳) سنن الترمذى ۵/ ۳۰۱.

(۴) مسند أحمد بن حنبل ۱/ ۱۷۰ و ۱۷۳ و ۱۷۵ و ۱۷۷ و ۱۷۹ و ۱۸۲ و ۱۸۴ و ۱۸۵ و ۳۳۱؛ و ۳/ ۳۲؛ و ۶/ ۳۶۹ و ۴۳۸.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۷

حديث المنزلة فى سبعة مواضع: النقطة الاخرى، إنّ النبى صلى الله عليه و آله- وخلافاً لما يتصوره البعض- لم يقل هذا البحث فى على عليه السلام فى غزوة تبوك فقط، بل قال هذه العبارة فى عدّة مواضع منها:

۱- فى المؤاخاة الاولى: يعنى فى المرّة الاولى التى آخى فيها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بين المهاجرين واختار علياً عليه السلام فى هذه المؤاخاة لنفسه وقال: «أنت منّى بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبىّ بعدى» «۱».

۲- فى يوم المؤاخاة الثانية: لمّا آخى النبى صلى الله عليه و آله بين أصحابه، قال علىّ: لقد ذهب روحى وانقطع ظهرى حين رأيتك فعلت بأصحابك ما فعلت غيرى فإن كان هذا من سخط على فلك العتبى والكرامة فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «والذى بعثنى بالحق ما أخرتك إلّالنفسى وأنت منى بمنزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبىّ بعدى وأنت أخى ووارثى» قال: وما أرث منك يا رسول اللّه؟ قال: «ما ورثت الأنبياء من قبلى». قال: وما ورثت الأنبياء من قبلك؟

قال: «كتاب ربهم وسنة نبيهم وأنت معى فى قصرى فى الجنة مع فاطمة بنتى وأنت أخى ورفيقى» «۲».

۳- أم سليم- التى كانت على جانب من الفضل والعقل، وكانت تعدّ من أهل السوابق، وهى من الدعاة إلى الإسلام، واستشهد أبوها وأخوها بين يدى النبى صلى الله عليه و آله وفارقت زوجها لأنّه أبى أن يعتنق الإسلام، وكان رسول اللّه صلى الله عليه و آله يزورها فى بيتها ويسلّيها- تروى أم سليم هذه أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال لها ذات يوم: «إنّ عليّاً لحمه من لحمى ودمه من دمى، وهو منّى بمنزلة هارون من موسى» «۳».

۴- عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب: كفّوا عن ذكر على بن أبى طالب فإنّى سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: فى على ثلاث خصال لئن يكون لى واحدة منهن أحبّ إلى ممّا طلعت عليه الشمس، كنت أنا وأبوبكر وأبو عبيدة ابن الجراح ونفر من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله والنبى صلى الله عليه و آله متكىء على على بن أبى طالب حتى ضرب بيده على منكبه ثم قال: «أنت يا على أوّل المؤمنين إيماناً، وأوّلهم إسلاماً». ثم قال: «وأنت منّى بمنزلة هارون من موسى وكذب على من زعم أنّه يحبنى ويبغضك» «۴».

---

(۱) كنز العمال ۵/ ۷۲۴.

(۲) كنز العمال ۹/ ۱۶۷/ ۲۵۵۵۴.

(۳) كنز العمال ۱۱/ ۶۰۷.

(۴) كنز العمال ۱۳/ ۱۲۲.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۶۸

۵- عن هانئ بن هانئ عن علىّ عليه السلام قال: لما صدرنا من مكة إذا ابنة حمزة تنادى: يا عم يا عم، فتناولها على عليه السلام عنه وأخذها فقال لصاحبته: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها على وزيد وجعفر، فقال علىّ: أنا آخذها وهى بنت عمى. وقال جعفر: ابنة عمى وخالتها تحتى. وقال زيد: ابنة أخى. فقضى رسول اللّه صلى الله عليه و آله لخالتها وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، ثم قال لعلىّ: «أنت منّى بمنزلة هارون وأنا منك» «۱». ۶- عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «يا على إنّه يحلّ لك فى المسجد ما يحلّ لى وإنّك منّى بمنزلة هارون من موسى إلّاأنّه لا نبىّ بعدى» «۲».

هذه الموارد الستّة هى غير غزوة تبوك، أخذناها برمتها من المصادر المعروفة لأهل السنة، وإلّا فإنّ هناك فى الروايات المروية عن طريق الشيعة موارد اخرى قال فيها رسول اللّه صلى الله عليه و آله هذه العبارة فى شأن على عليه السلام أيضاً.

من مجموع ذلك يستفاد أنّ حديث المنزلة لم يكن مختصاً بغزوة تبوك، بل هو أمر عام ودائم فى شأن على عليه السلام.

ومن هنا يتّضح أيضاً أنّ ما تصوره بعض علماء السنّة مثل «الآمدى» من أنّ هذا الحديث يتكفل حكماً خاصّاً فى مجال خلافة على عليه السلام وأنّه يرتبط بظرف غزوة تبوك خاصة، ولا يرتبط بغيره من الظروف والأوقات، تصور باطل أساساً، لأنّ النبى صلى الله عليه و آله كرّر هذه العبارة فى مناسبات متنوعة ممّا يفيد أنّه كان حكماً عاماً.

محتوى حديث المنزلة: لو درسنا- بموضوعية وتجرّد- هذا الحديث، وتجنّبنا الأحكام المسبّقة والتحجبات الناشئة من العصبية، لاستفدنا من هذا الحديث أنّ علياً عليه السلام كان له- بموجب هذا الحديث- جميع المنازل التى كانت لهارون فى بنى إسرائيل-

إلّاالنبوة.

وَ لَمَّا جاءَ مُوسَى لِمِيقاتِنا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِى وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِى فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَ خَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (۱۴۳)

---

(۱) خصائص النسائى/ ۸۸.

(۲) ينابيع المودة ۱/ ۲۶۰.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۶۹

المطالبة برؤية اللَّه: فى هذه الآيات والآيات اللاحقة يشير سبحانه إلى مشهد مثير آخر من مشاهد حياة بنى إسرائيل، وذلك عندما طلب جماعة من بنى إسرائيل من موسى عليه السلام- بإلحاح وإصرار- أن يَروا اللَّه سبحانه، وأنّهم لن يؤمنوا به إذا لم يشاهدوه، فاختار موسى سبعين رجلًا من قومه واصطحبهم معه إلى ميقات ربّه، وهناك رفع طلبهم إلى اللَّه سبحانه، فسمع جواباً أوضح لبنى إسرائيل كل شيء فى هذا الصعيد. ففى الآيات الحاضرة يقول أوّلًا:

«وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ».

ولكن سرعان ما سمع الجواب من جانب المقام الرّبوبى: كلا، لن ترانى أبداً «قَالَ لَن تَرَينِى وَلكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَينِى فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا» (۱).

فلمّا رأى موسى هذا المشهد الرهيب تملكه الرعب إلى درجة أنّه سقط على الأرض مغمىً عليه «وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا».

وعندما أفاق قال: ربّاه سبحانك، أنبتُ إليك، وأنا أوّل من آمن بك «فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ».

هل يمكن رؤية اللَّه أساساً؟ نقرأ فى الآية الحاضرة أنّ اللَّه سبحانه قال لموسى: «انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَينِى» فهل مفهوم هذا الكلام هو أنّ اللَّه قابل للرؤية أساساً؟

الجواب هو أنّ هذا التعبير هو كناية عن استحالة مثل هذا الموضوع، مثل جملة «حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمّ الْخِيَاطِ» وحيث كان من المعلوم أنّ الجبل يستحيل أن يستقر فى مكانه عند تجلّى اللَّه له، لهذا ذكر هذا التعبير، كما أنّ مفهوم جملة «لَن تَرَينِى» إنّك لا ترانى لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآخر.

وعلى هذا الأساس، إذا جاء فى الأحاديث والأخبار الإسلامية أو الآيات القرآنية عبارة «لقاء اللَّه» فإنّ المقصود هو المشاهدة بعين القلب والعقل.

---

(۱) «دك»: فى الأصل بمعنى سوّى الأرض، وعلى هذا فالمقصود من عبارة «جعله دكّاً» هو أنّه حطم الجبال وسواها كالأرض وجاء فى بعض الرّوايات أنّ الجبل تناثر أقساماً، سقط كل قسم منه فى جانب أو غار فى الأرض وتلاشى نهائياً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۰

قَالَ يَا مُوسَى إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِى وَ بِكَلَامِى فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۱۴۴) وَ كَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (۱۴۵) ألواح التوراة: وفى النهاية أنزل اللَّه شرائع وقوانين دينه على موسى عليه السلام. ففى البداية:

«قَالَ يَا مُوسَى إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسلتِى وَبِكلمِى».

فإذا كان الأمر كذلك «فَخُذْ مَا ءَاتَيْتُكَ وَكُن مّنَ الشَّاكِرِينَ».

إنّ هدف الآية هو بيان امتيازين كبيرين لموسى على الناس: أحدهما تلقى رسالات اللَّه وتحمّلها والآخر التكلّم مع اللَّه وكلا هذين

الأمرين من شأنهما تقوية مقام قيادته بين أمته.

ثم أضاف تعالى واصفاً محتويات الألواح التى أنزلها على موسى عليه السلام بقوله: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَىْءٍ».

ثم أمره بأن يأخذ هذه التعاليم والأوامر مأخذ الجد، ويحرص عليها بقوة «فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ».

وأن يأمر قومه أيضاً بأن يختاروا من هذه التعاليم أحسنها «وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا».

كما يحذرهم بأنّ مخالفة هذه الأوامر والتعاليم والفرار من المسؤوليات والوظائف تستتبع نتائج مؤلمة، وأن عاقبتها هى جهنم وسوف يرى الفاسقون مكانهم «سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ».

بحوث

۱- يستفاد من الآيات القرآنية المتنوعة أنّ اللّه تعالى كلّم موسى عليه السلام وكان تكليم اللّه لموسى عن طريق خلق أمواج صوتية فى الفضاء أو فى الأجسام، وربّما انبعثت هذه الأمواج الصوتية من خلال «شجرة الوادى الأيمن» وربّما من «جبل طور» وتبلغ مسمع موسى.

۲- يستفاد من عبارة «مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً» أنّه لم تكن جميع المواعظ والمسائل موجودة فى ألواح موسى عليه السلام لأنّ اللّه يقول: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۱

وهذا لأجل أنّ دين موسى عليه السلام لم يكن آخر دين، ولم يكن موسى عليه السلام خاتم الأنبياء ومن المسلم أنّ الأحكام الإلهية التى نزلت كانت فى حدود ما يحتاجه الناس فى ذلك الزمان، ولكن عندما وصلت البشرية إلى آخر مرحلة حضارية للشرايع السماوية نزل آخر دستور إلهى يشمل جميع حاجات الناس المادية والمعنوية.

وتتّضح من هذا أيضاً علة تفضيل مقام على عليه السلام على مقام موسى عليه السلام فى بعض الروايات، وهى أنّ علياً عليه السلام كان عارفاً بجميع القرآن، الذى فيه تبيان كل شىء «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ» فى حين أنّ التوراة لم يرد فيها إلّابعض المسائل.

۳- فى مجال قوله: «سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ» الظاهر أنّ المقصود منها هو جهنم، وهى مستقرّ كل اولئك الذين يخرجون من طاعة اللّه، ولا يقومون بوظائفهم الإلهية. سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (۱۴۶) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۴۷) مصير المتكبرين: البحث فى هاتين الآيتين هو نوع من عملية استنتاج من الآيات الماضية عن مصير فرعون وملئه والعصاة من بنى إسرائيل، فقد بيّن اللّه فى هذه الآيات الحقيقة التالية وهى: إذا كان الفراعنة أو متمرّدو بنى إسرائيل لم يخضعوا للحق مع مشاهدة كل تلك المعاجز والبينات، وسماع كل تلكم الحجج والآيات الإلهية، فذلك بسبب أنّنا نصرف المتكبرين والمعاندين للحق- بسبب أعمالهم- عن قبول الحق. ولهذا يقول أوّلًا:

«سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ».

ثم أشار تعالى إلى ثلاثة أقسام من صفات هذا الفريق «المتكبر المتعنت» وكيفية سلب توفيق قبول الحق عنهم.

الاولى قوله تعالى: «وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَايُؤْمِنُوا بِهَا» إنّهم لا يؤمنون حتى ولو رأوا جميع المعاجز والآيات، والثانية: «وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَايَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا» والثالثه إنّهم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۲

على العكس: «وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا». بعد ذكر هذه الصفات الثلاث الحاكية برمتها عن تصلب هذا الفريق تجاه الحق، أشار إلى عللها وأسبابها، فقال: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ».

ثم تبین الآیة اللاحقة عقوبة مثل هؤلاء الأشخاص وتقول: «وَالَّذِینَ کَذَّبُوا بَایَاتِنَا وَلِقَاءِ الْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ».

«الحبط»: یعنی بطلان العمل وفقدانه للأثر والخاصیة، یعنی أنّ مثل هؤلاء الأفراد حتی إذا عملوا خیراً فإنّ عملهم لن یعود علیهم بنتیجة. وفی ختام الآیة أضاف بأنّ هذا المصیر لیس من باب الإنتقام منهم، إنّما هو نتیجة أعمالهم هم، بل هو عین أعمالهم ذاتها وقد تجسمت أمامهم «هَلْ یُجْزَوْنَ إِلَّا مَا کَانُوا یَعْمَلُونَ».

إنّ هذه الآیة نموذج آخر من الآیات القرآنیة الدالة علی تجسم الأعمال، وحضور أعمال الإنسان خیرها وشرها یوم القیامة.

وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَی مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِیِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَ لَمْ یَرَوْا أَنَّهُ لَا یُکَلِّمُهُمْ وَ لَا یَهْدِیهِمْ سَبِیلًا اتَّخَذُوهُ وَ کَانُوا ظَالِمِینَ (۱۴۸) وَ لَمَّا سُقِطَ فِی أَیْدِیهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ یَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَ یَغْفِرْ لَنَا لَنَکُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِینَ (۱۴۹) الیهود وعبادتهم للعجل: فی هذه الآیات یقصّ القرآن الکریم إحدی الحوادث المؤسفة، وفی نفس الوقت العجیبة التی وقعت فی بنی إسرائیل بعد ذهاب موسی علیه السلام إلی میقات ربه، وهی قصّة عبادتهم للعجل التی تمّت علی ید شخص یدعی «السامری» مستعیناً بحلی بنی إسرائیل وما کان عندهم من آلات الزّینة. وفی الآیة الحاضرة یقول القرآن الکریم أوّلًا: إنّ قوم موسی علیه السلام بعد ذهابه إلی میقات ربّه صنعوا من حلیّهم عجلًا، وکان مجرّد تمثال لا روح فیه، ولکنه کان له صوت کصوت البقر، واختاروه معبوداً لهم:

«وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَی مِن بَعْدِهِ مِن حُلِیِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ».

کیف کان للعجل الذهبی خوار؟ و «الخوار» هو الصوت الخاص الذی یصدر من البقر أو العجل، وقد ذهب بعض المفسّرین إلی أنّ السامری بسبب ما کان عنده من معلومات وضع

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۳

أنابیب خاصه فی باطن صدر العجل الذهبی، کان یخرج منها هواء مضغوط فیصدر صوت من فم ذلک العجل الذهبیّ شبیه بصوت البقر.

ثم یقول القرآن الکریم معاتباً وموبّخاً: ألم یر بنو إسرائیل أنّ هذا العجل لا یتکلم معهم ولا یهدیهم لشیء، فکیف یعبدونه؟ «أَلَمْ یَرَوْا أَنَّهُ لَایُکَلِّمُهُمْ وَلَا یَهْدِیهِمْ سَبِیلًا». یعنی أنّ المعبود الحقیقی هو من یعرف- علی الأقل- الحسن والقبیح، وتکون له القدرة علی هدایة أتباعه، ویتحدث إلی عبدته ویهدیهم سواء السبیل، ویعرّفهم علی طریقة العبادة.

إنّهم ظلموا بهذا العمل أنفسهم، لهذا یقول فی ختام الآیة: «اتَّخَذُوهُ وَکَانُوا ظَالِمِینَ».

بید أنّه برجوع موسی علیه السلام إلیهم، واتضاح الأمر عرف بنو إسرائیل خطأهم، وندموا علی فعلهم، وطلبوا من اللَّه أن یغفر لهم، وقالوا: إذا لم یرحمنا اللَّه ولم یغفر لنا فإنّنا لا شک خاسرون «وَلَمَّا سُقِطَ فِی أَیْدِیهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ یَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَیَغْفِرْ لَنَا لَنَکُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِینَ».

وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَی إِلَی قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِی مِنْ بَعْدِی أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّکُمْ وَ أَلْقَی الْأَلْوَاحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِیهِ یَجُرُّهُ إِلَیْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِی وَ کَادُوا یَقْتُلُونَنِی فَلَا تُشْمِتْ بِیَ الْأَعْدَاءَ وَ لَا تَجْعَلْنِی مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ (۱۵۰) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِأَخِی وَ أَدْخِلْنَا فِی رَحْمَتِکَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِینَ (۱۵۱) ردة فعل شدیدة تجاه عبادة العجل: فی هاتین الآیتین بیّن تعالی بالتفصیل ما جری بین موسی علیه السلام وبین عبدة العجل عند عودته من میقاته المشار إلیه فی الآیة السابقة. فهاتان الآیتان تعکسان ردة فعل موسی علیه السلام الشدیدة التی أدّت إلی یقظة هذه الجماعة. یقول فی البدء: ولما عاد موسی علیه السلام إلی قومه غضبان ممّا صنع قومه من عبادة العجل، قال لهم: ضیعتم دینی وأسأتم الخلافة «وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَی إِلَی قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِی مِن بَعْدِی».

والمراد هو أنّکم تعجلتم فی الحکم بالنسبة إلی أمر اللَّه تعالی فی قضیة تمدید مدّة المیقات من ثلاثین إلی أربعین، فاعتبرتم عدم مجیئی فی المدة المقررة- أوّلًا- دلیلًا علی موتی، فی حین کان یتعین علیکم أن تتریثوا وتنتظروا قلیلًا ریثما تمرّ أیام ثم تتّضح الحقیقة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۴

فهنا لابدّ أن يظهر موسى عليه السلام غضبه الشديد إذ العودة إلى الحق والصواب عسيرة فى غير هذه الصورة. إنّ القرآن يستعرض ردّة فعل موسى الشديدة فى قبال ذلك المشهد وفى تلك الأزمة، إذ يقول: إنّ موسى ألقى ألواح التوراة التى كانت بيده، وعمد إلى أخيه هارون وأخذ برأسه ولحيته وجرهما إلى ناحيته ساخطاً غاضباً.

وفى الحقيقة كان هذا الموقف يعكس- من جانب- حالة موسى عليه السلام النفسية، وانزعاجه الشديد تجاه وثنية بنى إسرائيل وانحرافهم، ومن جانب آخر كان ذلك وسيلة مؤثرة لهزّ عقول بنى إسرائيل الغافية، والفاتهم إلى بشاعة عملهم.

ثم إنّ القرآن الكريم ذكر أنّ هارون قال- وهو يحاول استعطاف موسى وإثبات براءته فى هذه المسألة-: يابن ام هذه الجماعة الجاهلة جعلونى ضعيفاً إلى درجة أنّهم كادوا يقتلوننى، فإذن أنا برىء، فلا تفعل بى ما سيكون موجباً لشماتة الأعداء بى ولا تجعلنى فى صف هؤلاء الظالمين «قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

لقد هدأ غضب موسى عليه السلام بعض الشىء، وتوجه إلى اللَّه «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

إنّ طلب موسى عليه السلام العفو والمغفرة من اللَّه تعالى لنفسه ولأخيه، لم يكن لذنب اقترفاه، بل كان نوعاً من الخضوع للَّه، والعودة إليه، وإظهار النفرة من أعمال الوثنيين القبيحة، وكذا لإعطاء درس عملى للجميع حتى يفكروا ويروا إذا كان موسى وأخوه- وهما لم يقترفا إنحرافاً- يطلبان من اللَّه العفو والمغفرة هكذا، فالأجدر بالآخرين أن ينتبهوا ويحاسبوا أنفسهم، ويتوجهوا إلى اللَّه ويسألوه العفو والمغفرة لذنوبهم. وقد فعل بنو إسرائيل هذا فعلًا- كما تفيد الآيتان السابقتان.

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَ فِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥۴)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۵

لقد فعلت ردّة فعل موسى عليه السلام الشديدة فعلتها فى المآل فقد ندم عَبَدة العجل الإسرائيليون- وهم أكثرية القوم- على فعلهم، وقد طرح هذا الندم فى عدّة آيات قبل هذه الآية أيضاً (الآية ۱۴۹) ومن أجل أن لا يُتصور أنّ مجرّد الندم من مثل هذه المعصية العظيمة يكفى للتوبة، يضيف القرآن الكريم قائلًا: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا».

وهكذا لأجل أن لا يُتصور أنّ هذا القانون يختص بهم أضاف قائلًا: «وَكَذلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ».

إنّ التعبير ب «اتّخذوا» إشارة إلى أنّ الوثن ليس له أيّة واقعية، ولكن انتخاب عبدة الأوثان هو الذى أعطاه تلك الشخصية والقيمة الوهمية، ولهذا أتى بكلمة «العجل» وراء هذه الجملة فوراً، يعنى أنّ ذلك العجل هو نفس ذلك العجل حتى بعد انتخابه للعبادة.

وفى الآية اللاحقة يكمّل القرآن الكريم هذا الموضوع ويقول فى صورة قانون عام:

«والَّذِينَ عَمِلُوا السَّيَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» فالذين يتوبون من بعد السيئة وتتوفر كل شروط التوبة لديهم يغفر اللَّه لهم ويعفو عنهم.

الآية الأخيرة من الآيات المبحوثة تقول: ولما سكن غضب موسى عليه السلام وحصل على النتيجة التى كان يتوخاها، أخذ الألواح من الأرض، تلك الألواح التى كانت تحتوى- من أوّلها إلى آخرها- على الرحمة والهداية، رحمة وهداية للذين يشعرون بالمسؤولية، والذين يخافون اللَّه، ويخضعون لأوامره وتعاليمه: «وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ».

وَ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّاىَ أَ تُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَ تَهْدِى مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَ اكْتُبْ لَنَا فِى هذِهِ

الـدُّنْیا حَسَـنَةً وَ فِی الْآخِرَةِ إِنَّا هُـدْنا إِلَیْکَ قالَ عَـذابِی أُصِـیبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِی وَسِـعَتْ کُلَّ شَـیْءٍ فَسَأَکْتُبُها لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ الَّذِینَ هُمْ بِآیاتِنا یُؤْمِنُونَ (۱۵۶)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۶

منـدوبو بنی إسـرائیل فی المیقات: فی الآیتین الحاضـرتین یعود القرآن الکریم مرّة اخری إلی قصة ذهاب موسـی إلی المیقات «الطور» فی صحبة جماعة، ویقص قسماً آخر من تلک الحادثة. فقد قال القرآن الکریم فی الآیتین الحاضرتین أوّلًا: «وَاخْتَارَ مُوسَی قَوْمَهُ سَبْعِینَ رَجُلًا لِّمِیقَاتِنَا».

ولکن بنی إسرائیل حیث إنّهم سـمعوا کلام اللَّه طلبوا من موسـی علیه السـلام أن یطلب من اللَّه تعالی أن یریهم نفسه- لبنی إسرائیل- جهرة، وفی هـذا الوقت بالذات أخذهم زلزال عظیم وهلک الجماعة، ووقع موسـی علیه السـلام علی الأرض مغشـیاً علیه، وعندما أفاق قال: ربّاه لو شـئتَ لأهلکتَنا جمیعاً، یعنی بماذا أجیبُ قومی لو هلک هؤلاء: «فَلَمَّا أَخَـذَتْهُمُ الرَّجْفَـةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِـئْتَ أَهْلَکْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِیَّیَ».

ثم قال: ربّاه إنّ هذا المطلب التافة إنّما هو فعل جماعة من السفهاء، فلا تؤاخذنا بفعلهم:

«أَتُهْلِکُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا».

ثم إنّ موسـی علیه السلام قال فی عقیب هذا التضرع والطلب من اللَّه: ربّاه إنّی أعلم أنّ هذا کان اختبارک وامتحانک، فأنت تضلّ من تشاء (وکان مستحِقاً لذلک) وتهدی من تشاء (وکان لائقاً لذلک) «إِنْ هِیَ إِلَّا فِتْنَتُکَ» وإختبارک.

وفی ختام الآیة یقول موسی علیه السلام: ربّاه: «أَنتَ وَلِیُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَیْرُ الْغَافِرِینَ».

من مجموع الآیات والروایات یسـتفاد أنّ الهالکین قـد اسـتعادوا حیاتهم فی المآل وعادوا برفقة موسـی علیه السـلام إلی بنی إسـرائیل، وقصُّوا علیهم کل ما سمعوه وشاهدوه، وأخذوا فی إرشاد الغافلین الجاهلین وهدایتهم.

وفی الآیـة اللاحقـة یشیر إلی طلب موسـی علیه السـلام من ربّه وتکمیـل مسألـة التوبـة التی ذکرت فی الآیات السابقـة، یقول موسـی: «وَاکْتُبْ لَنَا فِی هذِهِ الدُّنْیَا حَسَنَةً وَفِی الْأَخِرَةِ».

«الحسـنة»: تعنی کل خیر وجمال، وعلی هذا الأساس تشـمل جمیع النعم، وکذا التوفیق للعمل الصالح، والمغفرة، والجنّة، وکل نوع من أنواع السعادة.

ولقـد أجـاب اللَّه- فی النهایـة- دعـاء موسـی علیه السـلام وقَبِـل توبته، ولکن لا بصورة مطلقـة، بل جاء ذلک فی ختام الآیـة مشـروطاً بشروط، إذ یقول: «قَالَ عَذَابِی أُصِیبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ» وکان مستحِقاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۷

ثم یضیف تعالی قائلًا: «وَرَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ شَیْءٍ».

إنّ هـذه الرحمـة الواسعـة یمکن أن تکون إشارة إلی أنواع الرحمة المادیة والمعنویة، لأنّ النعم المعنویة لا تختص بقوم دون قوم، وإن کان لها شرائط تتوفر لدی الجمیع.

ولکن حتی لا یظن أحـد أنّ قبول التوبـة، أو سـعة الرحمـة الإلهیـة وشـمولیتها، غیر مقیـدة وغیر مشـروطة، ومن دون حساب أو کتاب، یضیف فی ختام الآیة: سرعان ما أکتب رحمتی للذین تتوفر فیهم ثلاثة أمور: اتقوا، وآتوا الزکاة، وآمنوا بآیاتی «فَسَأَکْتُبُهَا لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ وَیُؤْتُونَ الزَّکَوةَ وَالَّذِینَ هُم بَایَاتِنَا یُؤْمِنُونَ».

«التقوی»: إشارة إلی إجتناب کل معصیة وإثم.

«الزکاة»: مرادة هنا بمعناها الواسع، وحسب الحدیث المعروف «لکل شیء زکاة» یشمل جمیع الأعمال الصالحة والطیبة.

الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ الَّذِی یَجِدُونَهُ مَکْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِیلِ یَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ یُحِلُّ لَهُمُ

الطَّيِّبَاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِی كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۵۷) اتبعوا هذا النبی: هذه الآية تكمل الآية السابقة التی تحدثت عن صفات الذين تشملهم الرحمة الإلهية الواسعة، أی من تتوفر فيهم الصفات الثلاث: التقوى، وأداء الزكاة، والإيمان بآيات اللَّه. وفی هذه الآية يذكر صفات اخرى لهم من باب التوضيح، وهی اتباع الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله لأنّ الإيمان باللَّه غير قابل للفصل عن الإيمان بالنبی صلى الله عليه و آله وإتباع دينه، ولهذا يقول تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ».

ثم يبين ست صفات لهذا الرسول مضافاً إلى مقام الرسالة:

۱- أنّه نبیّ اللَّه «النَّبِیَّ».

والنبی يطلق على كل من يبين رسالة اللَّه إلى الناس، ويوحى إليه وإن لم يكن مكلّفاً بالدعوة والتبليغ، ولكن الرسول مضافاً إلى كونه نبياً- مكلف بالدعوة إلى دين اللَّه، وتبليغه والإستقامة فی هذا السبيل.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۸

۲- أنّه نبی امّی لم يتعلم القراءة والكتابة، وقد نهض من بين جماهير الناس من أرض مكة أم القرى قاعدة التوحيد الأصلية: «الْأُمِّیَّ».

۳- ثم إنّ هذا النبی هو «الَّذِی يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِی التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ».

۴- ومن سمات هذا النبی أنّ دعوته تتطابق لنداء العقل مطابقة كاملة، فهو يدعو إلى كل الخيرات وينهى عن كل الشرور والممنوعات العقلية: «يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ».

۵- كما أنّ محتوى دعوته منسجم مع الفطرة الإنسانية السليمة، فهو يحل ما ترغب فيه الطباع السليمة ويحرم ما تنفر منه «وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ».

۶- أنّه ليس كأدعياء النبوة والرسالة الذين يهدفون إلى توثيق الناس بأغلال الاستعمار والاستثمار والاستغلال، بل هو على العكس من ذلك، إنّه يرفع عنهم إصرهم والأغلال التی تكبّل عقولهم وأفكارهم وتثقل كاهلهم «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَلَ الَّتِی كَانَتْ عَلَيْهِمْ» «۱».

وبما إنّ هذه الصفات الست بالاضافة إلى الصفة السابعة وهی مقام الرسالة تشكّل من حيث المجموع علامة واضحة ودليل قاطع على صدق دعواه، فيضيف القرآن الكريم:

«فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

بحثان

۱- خمسة أدلة على النبوة فی آية واحدة: الأوّل: أنّه «امّی» لم يدرس، ولكنه مع ذلك أتى بكتاب لم يغيّر مصير أهل الحجاز فقط، بل كان نقطة تحول هام فی التاريخ البشری.

الثانی: أنّ دلائل نبوته قد وردت بتعابير مختلفة فی الكتب السماوية السابقة على نحو توجد علماً لدى المرء بحقانيته ....

الثالث: أنّ محتويات دعوته تنسجم انسجاماً كاملًا مع العقل.

الرابع: أنّ محتويات دعوته منسجمة مع الطبع السليم والفطرة السويّة.

الخامس: لو لم يكن من جانب اللَّه لكان عليه أن يقوم بما يضمن مصالحه الخاصة، وفی هذه الصورة كان يتعين عليه أن لا يرفع الأغلال والسلاسل عن الناس، بل عليه أن يبقيهم فی حالة الجهل والغفلة لاستغلالهم بنحو أفضل، فی حين أنّنا نجده يحرر الناس من الأغلال الثقيلة.

أغلال الجهل والغفلة عن طريق الدعوة المستمرة إلى العلم والمعرفة.

(۱) «الإصر»: يعنى فى الأصل عقد الشىء وحبسه، ويطلق على كل عمل يمنع الإنسان من الفعالية والحركة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۷۹

أغلال الوثنية والخرافة عن طريق الدعوة إلى التوحيد.

أغلال التميز بكل أنواعه، والحياة الطبقية بجميع أصنافها، عن طريق الدعوة إلى الأخوة الدينية والإسلامية، والمساواة أمام القانون.

وهكذا سائر الأغلال الاخرى.

إنّ كل واحد من هذه الدلائل لوحده دليل على حقانية دعوته، كما أنّ مجموعها دليل أوضح وأقوى.

۲- البشارات بظهور النبى فى العهدين: إنّ الشواهد التاريخية القطعية، وكذا محتويات كتب اليهود والنصارى المقدسة (التوراة والإنجيل) تفيد أنّ هذه الكتب ليست هى الكتب السماوية التى نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام وأنّ يد التحريف قد طالتهما، بل إنّ بعضها اندرس واندثر، وأن ما هو موجود الآن باسم الكتب المقدسة بينهم ما هى إلّاخليط من نسائج الأفكار والأدمغة البشرية وشيء من التعاليم التى نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام مما بقى فى أيدى تلامذتهم.

ولكن مع هذا فإنّه يلحظ فى ثنايا هذه الكتب المحرفة عبارات تتضمن اشارات معتدّ بها حول ظهور هذا النبى العظيم.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِمَاتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵۸) دعوة النبى العالمية: فى تفسير الصافى عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقالوا: يا محمّد! أنت الذى تزعم أنّك رسول اللّه، وأنّك الذى يوحى إليك كما يوحى إلى موسى بن عمران؟ فسكت النبى ساعة ثم قال: «نعم أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا خاتم النبيين، وإمام المتقين، ورسول ربّ العالمين». قالوا: إلى من، إلى العرب أم إلى العجم، أم إلينا؟ فأنزل اللّه هذه الآية التى صرّحت بأنّ رسالة النبى صلى الله عليه و آله رسالة عالمية.

وفى البداية يأمر اللّه تعالى رسول اللّه قائلًا: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم جَمِيعًا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸۰

مختصر الامثل ج ۲ ۱۹۹

إنّ هذه الآية مثل آيات كثيرة اخرى من القرآن الكريم دليل واضح على عالمية دعوة رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

ثم إنّه وصف الإله الذى يدعو إليه النبى صلى الله عليه و آله بثلاث صفات:

۱- «الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ» فله الحاكمية المطلقة.

۲- «لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ» فلا معبود يليق للعبادة سواه.

۳- «يُحْيِ وَيُمِيتُ» بيده نظام الحياة والموت.

وفى الختام تدعو جميع أهل العالم إلى الإيمان باللّه وبرسوله الذى لم يتعلّم القرآءة والكتابة والقائم من بين الناس «فَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىّ الْأُمّىّ».

النبى الذى لا يكتفى بدعوة الآخرين إلى هذه الحقائق فحسب، بل يؤمن هو فى الدرجة الاولى- بما يقول، يعنى الإيمان باللّه وكلماته «الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ».

إنّه لا يؤمن فقط بالآيات التى نزلت عليه، بل يؤمن بجميع الكتب الحقيقية للأنبياء السابقين.

إنّ تأريخ النبى صلى الله عليه و آله برمّته يشهد بهذه الحقيقة وهى أنّه صلى الله عليه و آله كان أكثر من غيره التزاماً بالتعاليم التى جاء بها.

أجل، لابدّ لكم من اتّباع مثل هذا النبى حتى تسطع أنوار الهداية على قلوبكم، لتهتدوا إلى طريق السعادة «وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

وهذا إشارة إلى أنّه لا يكفي مجرد الإيمان، وإنما يفيد الإيمان إذا إقترن بالإتباع العملي.

وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (۱۵۹) وَ قَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۱۶۰) جانب من نعم اللَّه على بنى إسرائيل: فى الآيات الحاضرة إشارة إلى حقيقة رأينا نظيرها فى القرآن الكريم، وهذه الحقيقة هى تحرى القرآن للحق، واحترامه لمكانة الأقليات

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸۱

الدينية الصالحة، يعنى أنّه لم يكن ليصف جميع بنى إسرائيل بأسرهم بالفساد والإفساد، وبأنّ هذا العرق القومى برمته ضالّ متمرد من دون إستثناء، بل اعترف بأنّ منهم أقلية صالحة غير موافقة على أعمال الأكثرية، وقد أولى القرآن الكريم اهتماماً خاصّاً بهؤلاء فيقول: «وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ».

إنّ هذه الآية تشير إلى الأقلية اليهودية الذين كانوا يعيشون فى عصر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والذين اعتنقوا الإسلام تدريجاً وبعد مطالعة دعوة النبى ومحتوى رسالته، وانضموا إلى صفوف المسلمين الصادقين.

وفى الآية اللاحقة يشير القرآن الكريم إلى عدّة أقسام من نعم اللَّه على بنى إسرائيل.

فيقول أوّلًا: «وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا». وهذا التقطيع والتقسيم إنّما هو لأجل أن يسودهم نظام عادل، بعيد عن المصادمات الخشنة.

«أسباط»: جمع «سبط» (بفتح السين وبكسرها) تعنى فى الأصل الإنبساط فى سهولة، ثم يطلق السبط والأسباط على الأولاد وبخاصّة الأحفاد لأنّهم امتداد العائلة.

والمراد من الأسباط- هنا- هو قبائل بنى إسرائيل وفروعها، الذين كان كل واحد منها منشعباً ومنحدراً من أحد أولاد يعقوب عليه السلام.

والنعمة الاخرى هى: أنّه عندما كان بنو إسرائيل متوجهين إلى بيت المقدس وأصابهم العطش الشديد الخطير فى الصحراء، وطلبوا من موسى عليه السلام الماء، أوحى إليه أن اضرب بعصاك الحجر ... ففعل فنبع الماء فشربوا ونجوا من الهلاك «وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا».

وقد كانت الينابيع هذه مقسمة بين أسباط بنى إسرائيل بحيث عرف كل سبط منهم نبعه الذى يشرب منه «قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ».

والنعمة الثالثة هى: أنّ اللَّه تعالى أرسل لهم- فى تلك الصحارى الملتهبة حيث لا سقف ولا ظلال- سحباً ظلّلتهم «وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ».

والنعمة الرابعة إنزال المنّ والسلوى عليهم كغذائين لذيذين ومقويين: «وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى .

ثم يقول اللَّه تعالى: وقلنا «كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ».

ولكنهم أكلوا وكفروا النعمة ولم يشكروها وبذلك ظلموا أنفسهم «وَمَا ظَلَمُونَا وَلكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸۲

وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (۱۶۱) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (۱۶۲) فى تعقيب الآيات السابقة تشير هاتان الآيتان إلى قسم آخر من المواهب الإلهية لبنى إسرائيل وطغيانهم تجاه تلك النعم، وكفرانهم بها. يقول تعالى: «وَ اذكروا «إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ».

وقلنا لهم اطلبوا من اللَّه حطّ الذنوب عنكم وعفوه عن خطاياكم، وادخلوا من باب بيت المَقدس بخضوع «وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ

سُجَّدًا».

فاذا قمتم بهذه الامور غفرنا لكم خطاياكم، وأعطينا للمحسنين ثواباً أكبر «نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ».

وبالرغم من أنّ اللَّه فتح أمامهم أبواب الرحمة، ولو أردوا إغتنام الفرصة لاستطاعوا حتماً إصلاح ماضيهم وحاضرهم، ولكن لم يغتنم الظالمون من بنى إسرائيل هذه الفرصة فحسب، بل بدّلوا أمر اللَّه، وقالوا خلاف ما أمروا أن يقولوه: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ».

وفى المآل نزل عليهم بسبب هذا الطغيان والظلم للنفس وللآخرين عذاب من السماء «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ».

وَ اسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَ إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١۶۴) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١۶۵) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١۶۶)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٨٣

قصة فيها عبرة: فى هذه الآيات يستعرض مشهداً آخر من تاريخ بنى إسرائيل الزاخر بالحوادث، وهو مشهد يرتبط بجماعة منهم كانوا يعيشون عند ساحل بحر. غاية ما فى الأمر أنّ الخطاب موجه فيها إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فيقول له: «وَسَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ». أى اسأل يهود عصرك عن قضية القرية التى كانت تعيش على ساحل البحر.

ثم تقول: وذكّرهم كيف أنّهم تجاوزوا- فى يوم السبت- القانون الإلهى «إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ» لأنّ يوم السبت كان يوم عطلتهم، وكان عليهم أن يكفوا فيه عن الكسب، وعن صيد السمك ويشتغلوا بالعبادة، ولكنهم تجاهلوا هذا الأمر.

ثم يشرح القرآن العدوان المذكور بالعبارة التالية: «إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا». فالأسماك كانت تظهر على سطح الماء فى يوم السبت، بينما كانت تختفى فى غيره من الأيام.

«السبت»: فى اللغة تعنى تعطيل العمل للإستراحة، وسمّى «يوم السبت» بهذا الإسم لأنّ الأعمال العادية والمشاغل كانت تتعطل فى هذا اليوم، ثمّ بقى هذا الإسم لهذا اليوم علماً له.

إنّ هذا الموضوع سواء كان له جانب طبيعى عادى أم كان له جانب استثنائى وإلهى، كان وسيلة لامتحان واختبار هذه الجماعة، لهذا يقول القرآن الكريم: وهكذا اختبرناهم بشىء يخالفونه ويعصون الأمر فيه «كَذلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

وجملة «بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» إشارة إلى أنّ اختبارهم كان من خلال أدوات موافقة لأهوائهم وما من شأنه أن يدعوهم إلى المعصية والمخالفة، وجميع الاختبارات كذلك، لأن الاختبار يجب أن يبيّن مدى مقاومة الأشخاص أمام جاذبية المعاصى والذنوب.

عندما واجهت هذه الجماعة من بنى إسرائيل هذا الامتحان الكبير الذى كان متداخلًا مع حياتهم تداخلًا كاملًا، انقسموا إلى ثلاث فرق:

«الفريق الأوّل» وكانوا يشكّلون الأكثرية، وهم الذين خالفوا هذا الأمر الإلهى.

«الفريق الثانى» وكانوا على القاعدة يشكلون الأقلية، وهم الذين قاموا- تجاه الفريق الأوّل بوظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

«الفريق الثالث» وهم الساكتون المحايدون الذين لم يوافقوا العصاة، ولا قاموا بوظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ١٨۴

وفى الآية الثانية من الآيات المبحوثة هنا يشرح الحوار الذى دار بين الساكنين، وبين الذين تحركوا للنهى عن ارتكاب هذه المخالفة فيقول: «وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا».

فأجابهم الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر: بأنّنا ننهى عن المنكر لأنّنا نؤدّى واجبنا تجاه اللَّه تعالى، وحتى لا نكون مسؤولين

تجاهه، هذا مضافاً إلى أنّنا نأمل أن يؤثر كلامنا فى قلوبهم، ويكفوا عن طغيانهم وتعنتهم «قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ».

ويستفاد من الجملة الحاضرة أنّه ربّما يجب بيان الحقائق والوظائف الإلهية حتى مع عدم احتمال التأثير، وذلك عندما يكون عدم بيان الأحكام الإلهية، وعدم إنكار المنكر سبباً لتناسى وتنامى البدع، وحينما يعدّ السكوت دليلًا على الرضا والموافقة. ففى هذه الموارد يجب إظهار الحكم الإلهى فى مكان حتى مع عدم تأثيره فى العصاة والمذنبين.

ثم إنّ الآية اللاحقة تقول: وفى المآل غلبت عبادة الدنيا عليهم، وتناسوا الأمر الإلهى، وفى هذا الوقت نجينا الذين كانوا ينهون عن المنكر، وعاقبنا الظالمين بعقاب أليم بسبب فسقهم وعصيانهم «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» (۱).

ثم يشرح العقوبات هكذا: «فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ» (۲).

وواضح أنّ أمر «كونوا» هنا أمر تكوينى مثل: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (۳).

يجب الإلتفات إلى أنّ الممسوخين- حسب الروايات- بقوا على هذه الحالة عدة أيّام ثمّ هلكوا ولم يتولد منهم نسل أبداً.

كيف ارتكبوا هذه المعصية؟ إنّهم فى البداية استخدموا ما يسمى بالحيلة الشرعية، وذلك بواسطة حفر أحواض إلى جانب البحر، أو إلقاء الكلاليب والصنارات، ثم لما صُغِرت هذه المعصية فى نظرهم، جرأهم ذلك على كسر احترام يوم السبت وحرمته، فأخذوا يصيدون السمك فى يوم السبت تدريجاً وعلناً، واكتسبوا من هذا الطريق ثروة كبيرة جداً.

---

(۱) «بئيس»: مشتقة من مادة «بأس» يعنى الشديد.

(۲) «عتوا»: من مادة «عتّو» على وزن «غلوّ»، بمعنى الإمتناع عن طاعة أمر.

(۳) سورة يس/ ۲۸.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸۵

وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّکَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۶۷) وَ قَطَّعْنَاهُمْ فِى الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِکَ وَ بَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۱۶۸) تفرق اليهود وتشتتهم: هاتان الآيتان تشيران إلى بعض العقوبات الدنيوية التى أصابت جماعة من اليهود خالفت أمر اللَّه تعالى، وسحقت الحق والعدل والصدق.

فيقول فى البداية: واذكروا يوم أخبر اللَّه بأنّه سيسلّط على هذه الجماعة العاصية المتمردة فريقاً يجعلها حليفة العذاب والأذى إلى يوم القيامة «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ».

ويستفاد من هذه الآية أنّ هذه الجماعة المتمردة الطاغية لن ترى وجه الإستقرار والطمأنينة أبداً، وإن أسّست لنفسها حكومة وشيّدت دولة.

وفى ختام الآية يضيف تعالى قائلًا: «إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ».

فبالنسبة إلى الكفّار سريع العقاب، وبالنسبة للمذنبين التائبين غفور رحيم.

وهذه الجملة تكشف عن أنّ اللَّه قد ترك الباب مفتوحاً أمامهم حتى لا يظن أحد أنّه قد كُتب عليهم المصير المحتوم والشقاء الابدى الذى لا خلاص منه.

وفى الآية اللاحقة يشير تعالى إلى تفرّق اليهود فى العالم فيقول: «وَقَطَّعْنَاهُمْ فِى الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ» فهم متفرقون منقسمون على أنفسهم بعضهم صالحون، ولهذا عندما سمعوا بنداء الإسلام وعرفوا دعوة النبى محمّد صلى الله عليه و آله آمنوا به، وبعضهم لم يكونوا كذلك بل تركوا الحق وراءهم ظهرياً، ولم يرتدعوا عن معصية فى سبيل ضمان مصالحهم وحياتهم المادية.

ومرّة اخرى تتجلى هذه الحقيقة فى هذه الآية وهى أنّ الإسلام لا يعادى العنصر اليهودى، ولا يشجبهم لكونهم أتباع دين معين، أو منتمين إلى عنصر وعرق معيّن، بل يجعل أعمالهم هى مقياس تقييمهم.

ثمّ يضيف تعالى قائلًا: «وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ». أى ربّما

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸۶

نكرمهم ونجعلهم فى رفاه ونعمة حتى نثير فيهم روح الشكر، ويعودوا إلى طريق الحق. وربّما نغرقهم فى الشدائد والمصاعب والمصائب حتى ينزلوا عن مركب الغرور والأنانية والتكبر، ويقفوا على عجزهم، لعلهم يستيقظون ويعودون إلى اللّه، والهدف فى كلتا الحالتين هو التربية والهداية والعودة إلى الحق.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنَى وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَ دَرَسُوا مَا فِيهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (۱۶۹) وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (۱۷۰) فى الآيات الماضية دار الحديث حول أسلاف اليهود، ولكن فى الآية الحاضرة دار الكلام حول أبنائهم وأخلافهم. وفى البداية يقول تعالى: «فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنَى . إنّهم ورثوا التوراة عن أسلافهم، وكان عليهم أن ينتفعوا بها ويهتدوا، ولكنهم رغم ذلك فُتنوا بمتاع هذه الدنيا وحطامها الرخيص التافه، واستبدلوا الحق والهدى بمنافعهم الماديّة.

ثم يضيف قائلًا: وعندما وقعوا بين مفترق طريقين: بين ضغط الوجدان من جهة، والرغبات والمنافع المادية من جهة اخرى عمدوا إلى الأمانى والآمال الكاذبة وقالوا: لنأخذ المنافع الدنيوية فعلًا سواءً من حلال أو حرام، واللّه سيرحمنا ويغفر لنا «وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا».

إنّ هذه الجملة تكشف عن أنّهم كانوا بعد القيام بمثل هذا العمل يعيشون حالة من الندم العابر والتوبة الظاهرية، ولكن هذه الندامة- كما يقول القرآن الكريم- لم تكن لها أيّة جذور فى أعماق نفوسهم، ولهذا يقول تعالى: «وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ».

«عَرَض»: على وزن «غرض» يعنى الشىء الذى لا ثبات له ولا دوام، ومن هذا المنطق يطلق على متاع العالم المادى اسم العرض، لكونه زائلًا غير ثابت فى الغالب.

إنّ هذه الجملة إشارة إلى عمليات الإرتشاء التى كان يقوم بها بعض اليهود لتحريف الآيات السماوية، ونسيان أحكام اللّه لمضادتها لمصالحهم ومنافعهم المادية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸۷

ولهذا قال تعالى فى عقيب ذلك: «أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّايَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ». أى أنّهم اخذ عليهم الميثاق- بواسطة كتابهم السماوى التوراة- أن لا يفتروا على اللّه كذباً، ولا يحرفوا كلماته، ولا يقولوا إلّاالحق.

ثم يقول: لو كان هؤلاء الذين يرتكبون هذه المخالفات جاهلون بالآيات الإلهية، لكان من الممكن أن ينحتوا لأنفسهم أعذاراً، ولكن المشكلة هى أنّهم رأوا التوراة مراراً وفهموا محتواها ومع ذلك ضيّعوا أحكامها، ونبذوا أمرها وراء ظهورهم «وَدَرَسُوا مَا فِيهِ».

وفى ختام الآية يقول: إنّ هؤلاء يخطئون فى تقديرهم للامور، وإنّ هذه الأعمال لن تجديهم نفعاً «وَالدَّارُ الْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ». ألا تفهمون هذه الحقائق الواضحة «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

وفى مقابل الفريق المشار إليه سابقاً يشير تعالى إلى فريق آخر لم يكتفوا بعدم اقتراف جريمة تحريف الآيات الإلهية وكتمانها فحسب، بل تمسكوا بحذافيرها وطبقوها فى حياتهم حرفاً بحرف، والقرآن يصف هذه الجماعة بأنّهم مصلحو العالم، ويعترف لهم بأجر جزيل وثواب عظيم، ويقول عنهم: «وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ إِنَّا لَانُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ».

إنّ الآيات الحاضرة تكشف لنا بوضوح عن أنّ الإصلاح الواقعى فى الأرض لا يمكن من دون التمسك بالكتب السماوية، ومن دون تطبيق الأوامر والتعاليم الإلهية، وهذا التعبير يؤكد- مرّة اخرى- هذه الحقيقة، وهى أنّ الدين ليس مجرد برنامج يرتبط بعالم ما وراء

الطبيعة، وبدار الآخرة، بل هو برنامج للحياة البشرية، ويهدف إلى حفظ مصالح جميع أفراد البشر، وإجراء مبادىء العدل والسلام والرفاه والإستقرار، وبالتالى كل مفهوم تشمله كلمة «الإصلاح» الواسعة المعنى.

وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۱۷۱) آخر كلام حول اليهود: هذه الآية آخر آية فى هذه السورة تتحدث حول حياة بنى إسرائيل وهى تتضمن تذكير قصة اخرى ليهود عصر النبى صلى الله عليه و آله قصة فيها عبرة، كما أنّها دليل على إعطاء ميثاق وعهد، إذ يقول: واذكروا إذ قلعنا الجبل من مكانه وجعلناه فوق

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸۸

رؤوسهم كأنّه مظلّة «وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ» «۱». وقد ظنّوا أنّه سيسقط على رؤوسهم، فإنتابهم اضطراب شديد وفزع «وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ».

وفى تلك الحالة قلنا لهم: خذوا ما أعطيناكم من الأحكام بقوة وجديّة «خُذُوا مَا ءَاتَيْنكُم بِقُوَّةٍ».

واذكروا ما جاء فيه حتى تتقوا، وخافوا من العقاب الإلهى واعملوا بما أخذناه فيه منكم من المواثيق «وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

يعنى أنّ رسالة موسى عليه السلام وسائر الأنبياء وأعمالهم ومواجهاتهم المستمرة والصعبة وما لقوا من صعاب ومتاعب وشدائد مضنية كانت لأجل تطبيق أوامر اللّه، وتنفيذ مبادىء الحق والعدالة والطهر والتقوى فى المجتمعات البشرية بشكل كامل.

وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذَا غَافِلِينَ (۱۷۲) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (۱۷۳) وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۱۷۴) العهد الأوّل وعالم الذر: الآيات المذكورة أعلاه، تشير إلى «التوحيد الفطرى» ووجود الإيمان فى أعماق روح الإنسان، ولذلك فإنّ هذه الآيات تُكمّل الأبحاث الواردة فى الآيات المتقدمة من هذه السورة فى شأن «التوحيد الإستدلالى». يقول اللّه سبحانه مخاطباً نبيّه فى هذه الآية: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا».

«الذرية»: معناها فى الأصل الأبناء الصغار اليافعون، إلّاأنّها تطلق فى الغالب على عموم الأبناء.

ثم يشير اللّه سبحانه إلى الهدف النهائى من هذا السؤال والجواب، وأخذ العهد من ذرية آدم فى مسألة التوحيد، فيقول: «أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذَا غَافِلِينَ».

---

(۱) «نتقنا»: من مادة «نتق» تعنى فى الأصل قلع وانتزاع شىء من مكانه، وإلقاءه فى جانب آخر.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۸۹

الآية التالية تشير إلى هدف آخر من أخذ هذا العهد، وهو أنّ اللّه تعالى إنّما أخذ هذا العهد من ذرية بنى آدم لئلا يعتذروا «أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ».

أجل ... «وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْأَيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

إنّ المراد من هذا العالم وهذا العهد هو عالم الإستعداد «والكفاءات» و «عهد الفطرة» والتكوين والخلق. فعند خروج أبناء آدم من أصلاب آبائهم إلى أرحام الامهات، وهم نطف لا تعدو الذرات الصغار، وهبهم اللّه الإستعداد لتقبل الحقيقة التوحيدية، وأودع ذلك السرّ الإلهى فى ذاتهم وفطرتهم بصورة إحساس داخلى ... كما أودعه فى عقولهم وأفكارهم بشكل حقيقة واعية بنفسها. فبناءً على هذا، فإنّ جميع أبناء البشر يحملون روح التوحيد، وما أخذه اللّه من عهد منهم أو سؤاله إيّاهم: ألست بربّكم؟ كان بلسان التكوين والخلق، وما أجابوه كان باللسان ذاته.

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (۱۷۵) وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ

اتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ الْکَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَیهِ یلْهَثْ أَوْ تَتْرُکْهُ یلْهَثْ ذلِکَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ یتَفَکَّرُونَ (۱۷۶) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنَا وَ أَنْفُسَهُمْ کَانُوا یظْلِمُونَ (۱۷۷) مَنْ یهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِی وَ مَنْ یضْلِلْ فَأُولئِکَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (۱۷۸) فی هذه الآیات إشارة لقصة اخری من قصص بنی إسرائیل، والآیة الاولی من هذه الآیات یخاطب بها النبی صلی الله علیه و آله حیث یقول تعالی: «وَاتْلُ عَلَیهِمْ نَبَأَ الَّذِی ءَاتَینَهُ ءَایتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّیطنُ فَکَانَ مِنَ الْغَاوِینَ». و الآیة التالیة تکمل هذا الموضوع علی النحو التالی «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَهُ بِهَا».

و لکن من المسلم أنّ إکراه الناس وإجبارهم علی أن یسلکوا سبیل الحق لا ینسجم والسنن الإلهیة وحریة الإرادة ولا یکون ذلک دلیلًا علی عظمة الشخص، لهذا فإنّ الآیة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۰

تضیف مباشرة إنّنا ترکناه وهواه وبدلًا من أن ینتفع من معارفه فإنّه هوی وانحطّ «وَلکِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَی الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَیهُ». «أخلد»: من «الإخلاد» وهی تعنی السکن الدائم فی مکان واحد مع حریة الإرادة، فجملة (أخلد إلی الأرض) تعنی اللصوق الدائم بالأرض، وهی کنایة عن عالم المادة وبهارجها، واللذائذ غیر المشروعة للحیاة المادیة.

ثم تشبّه الآیة هذا الفرد بالکلب الذی یُخرج لسانه لاهثاً دائماً کالحیوانات العطاشی فتقول: «فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ الْکَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَیهِ یلْهَثْ أَوْ تَتْرُکْهُ یلْهَث».

فهو لفرط اتّباعه الهوی وتعلقه بعالم المادة انتابته حالة من العطش الشدید غیر المحدود وراء لذائذ الدنیا، وکل ذلک لم یکن لحاجة، بل لحالة مَرضیّة، فهو کالکلب المسعور الذی یظهر بحالة عطش کاذب لا یمکن إرواؤها وهی حالة العبید الذین لا یهمهم غیر جمع المال واکتناز الثروة فلا یحسون معه بشبع أبداً.

ثم تضیف الآیة: إنّ هذا المثال الخاص لا- یتعلق بفرد معین، بل: «ذلِکَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِینَ کَذَّبُوا بَایاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ یتَفَکَّرُونَ».

العالِم المنحرف «بلعم بن باعوراء»: یستفاد من أغلب الروایات وأحادیث المفسرین أنّ هذا الشخص یسمّی (بلعم بن باعوراء) الذی عاصر النبی موسی علیه السلام وکان من مشاهیر علماء بنی إسرائیل، حتی أنّ موسی علیه السلام کان یعوّل علیه کداعیة مقتدر، وبلغ أمره أن دعاءه کان مستجاباً لدی الباری جلّ وعلا، لکنّه مال نحو فرعون وإغراءاته فانحرف عن الصواب، وفقد مناصبه المعنویة تلک حتی صار بعدئذٍ فی جبهة أعداء موسی علیه السلام.

ویجب علی المؤمنین معرفة مثل هؤلاء الأشخاص والحذر منهم واجتنابهم.

والآیتان التالیتان- کنتیجة عامّة وشاملة لقضیة (بلعم) وعلماء الدین الذین أحبوا الدنیا- فتقول اولاهما: «سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِینَ کَذَّبُوا بَایاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ کَانُوا یظْلِمُونَ».

فما أفحش ظلم الإنسان لنفسه وهو یسخّر ملکاته المعنویة وعلومه النافعة التی بإمکانها أن تعود علیه وعلی مجتمعه بالخیر، ویضعها تحت اختیار المستکبرین وأصحاب القدرة الدنیویة ویبیعها بثمن بخس فیؤدّی ذلک إلی سقوطه وسقوط المجتمع و الآیة الأخیرة تحذّر الإنسان وتؤکّد له أنّ الخلاص من مثل هذا الانحراف وما یکیده الشیاطین لا یمکن إلّا بتوفیق وتسدید من اللَّه عزّ وجلّ: «مَن یهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِی وَمَن یضْلِلْ فَأُولئِکَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۱

وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ کَثِیراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا یفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْینٌ لَا یبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا یسْمَعُونَ بِهَا أُولئِکَ کَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِکَ هُمُ الْغَافِلُونَ (۱۷۹) وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَی فَادْعُوهُ بِهَا وَ ذَرُوا الَّذِینَ یلْحِدُونَ فِی أَسْمَائِهِ سَیجْزَوْنَ مَا کَانُوا یعْمَلُونَ (۱۸۰) وَ مِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ یهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ یعْدِلُونَ (۱۸۱) علائم أهل النار: هذه الآیات تقسم الناس إلی مجموعتین ...

وتحكى عن صفاتهما وهما أهل النار، وأهل الجنة. فتتحدث عن المجموعة الاولى- أهل النار- أوّلًا، فتأتى بالقسم والتوكيد فتقول: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ».

«ذرأنا»: مشتقة من «ذرأ»، وتعنى هنا الإيجاد والخلق، غير أنّها فى أصل اللغة تعنى نشر الشىء وتفريقه.

فإنّ اللَّه سبحانه خلق الناس جميعهم على نسق واحد طاهرين إلّاأنّ قسماً منهم إختاروا بأعمالهم جهنّم فكانوا من أهلها فكان عاقبة أمرهم خسراً ... وأنّ قسماً منهم إختاروا بأعمالهم الجنّة وكان عاقبة أمرهم السعادة ....

ثم يلخّص القرآن صفات أهل النار فى ثلاث جمل، إذ تقول الآية: «لَهُمْ قُلُوبٌ لَّايَفْقَهُونَ بِهَا».

والصفة الثانية التى ذكرتها الآية لأهل النار «وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّايُبْصِرُونَ بِهَا».

والصفة الثالثه الواردة فى حقهم «وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّايَسْمَعُونَ بِهَا أُولئِكَ كَالْأَنْعمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ».

لأنّ البهائم والأنعام لا تملك هذه الإستعدادات والإمكانات، إلّاأنّهم بما لديهم من عقل سالم وعين باصرة وأذن سامعة، بإمكانهم أن يبلغوا كل مراتب الرقى والتكامل، إلّاأنّهم نتيجة لإتباعهم هواهم ورغبتهم- بكل هذه التوافه من الامور تركوا هذه الإستعدادات جانباً ... وكان شقاؤهم كبيراً لهذا السبب: «أُولئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ».

فالمَعين الذى يحييهم ويروى ظمأهم موجود إلى جانبهم وهم على مقربة منه، إلّاأنّهم يتصارخون من الظمأ وأبواب السعادة مفتحة أمامهم لكنّهم لا يلتفتون إليها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۲

وفى الآية التالية إشارة إلى حال أهل الجنة وبيان لصفاتهم، فتبدأ الآية بدعوة الناس إلى التدبر والتوجه إلى أسماء اللَّه الحسنى كمقدمة للخروج من صف أهل النار، فتقول: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا». والمراد من «أسماء اللَّه الحسنى» هى صفات اللَّه المختلفة التى هى حُسنى جميعاً فالمراد من دعاء اللَّه بأسمائه الحسنى، ليس هو ذكر هذه الألفاظ وجريانها على اللسان فحسب، كأن نقول مثلًا: يا عالم يا قادر يا أرحم الراحمين، بل ينبغى أن نتمثّلَ هذه الصفات فى وجودنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا. وبتعبير أخرى: ينبغى أن نتّصف بصفاته ونتخلّق بأخلاقه.

من ذلك الرواية الواردة فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام فى قول اللَّه عزّ وجلّ «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا» قال: «نحن واللَّه الأسماء الحسنى». فهى إشارة إلى أنّ إشعاعاً من صفاته قد انعكس فينا، فمن عرفنا فقد عرف ذاته المقدسة ....

ثم تحذر الآية من هذا الأمر، وهو أن تُحرّف أسماؤه فتقول: «وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». والمقصود من الإلحاد فى أسماء اللَّه هو أن نحرِف ألفاظها أو مفاهيمها، بحيث نصفه بصفات لاـ تليق بساحته المقدسة، كما يصفه المسيحيون بالتثليث «الأب والابن وروح القدس».

وفى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى صفتين من أبرز صفات أهل الجنه، إذ تقول الآية: «وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ».

إنّ لهؤلاء منهجين ممتازين فأفكارهم وأهدافهم ودعواتهم وثقافاتهم حقّة وهى فى اتجاه الحق أيضاً كما أنّ أعمالهم وخططهم وحكوماتهم قائمة على أساس الحق والحقيقة.

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (۱۸۲) وَ أُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ (۱۸۳) الإستدراج: تعقيباً على البحث السابق الذى عالجته الآيات المتقدمة- والذى يبين حال أهل النار- تبين هاتان الآيتان واحدةً من سنن اللَّه فى شأن كثير من عباده المجرمين المعاندين، وهى ما عبّر عنها القرآن «بعذاب الإستدراج».

والإستدراج جاء فى موطنين من القرآن: أحدهما فى الآيتين محل البحث، والآخر فى الآية (۴۴) من سورة القلم، وكلاـ الموطنين يتعلقان بمكذّبى آيات اللَّه ومنكريها.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۹۳

يقول سبحانه فى الآية الاولى: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ». أى سنعذّبهم بالإستدراج شيئاً فشيئاً، ونطوى حياتهم.

و الآية الثانية تؤكّد الموضوع ذاته، وتشير بأنّ اللَّه لا يتعجّل بالعذاب عليهم، بل يمهلهم لعلهم يحذرون ويتعظون، فإذا لم ينتبهوا من نومتهم ابتلوا بعذاب اللَّه؛ فتقول الآية «وَأُمْلِى لَهُمْ».

لأنّ الإستعجال يتذرع به من يخاف الفوت، واللَّه قوى ولا يفلت من قبضته أحد «إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ».

فهذه الآية تنذر جميع المجرمين والمذنبين بأنّ تأخير الجزاء من قبل اللَّه لا يعنى صحة أعمالهم أو طهارتهم، ولا عجزاً وضعفاً من اللَّه، وأن لا يحسبوا أنّ النعم التى غرقوا فيها هى دليل على قربهم من اللَّه، فما أقرب من أن تكون هذه النعم والإنتصارات مقدمة لعقاب الإستدراج. فاللَّه سبحانه يغشّيهم بالنعم ويمهلهم ويرفعهم عالياً، ثمّ يكبسهم على الأرض فجأة حتى لا يبقى منهم أثر، ويطوى بذلك وجودهم وتأريخ حياتهم كله.

فى الكافى: سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قول اللَّه عزّ وجلّ «سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ» قال: «هو العبد يذنب الذنب فتجدّد له النعمة معه، تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار عن ذلك الذنب».

أ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۱۸۴) أ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (۱۸۵) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۸۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله صعد الصفا وكان يدعو قريشاً، فخذاً فخذاً، إلى توحيد اللَّه، ويخوفهم عذاب اللَّه، فقال المشركون: إنّ صاحبهم قد جُنّ، بات ليلًا يصوّت إلى الصباح، فأنزل اللَّه هذه الآية.

التّفسير

التُهم والأباطيل: فى الآية الاولى من الآيات- محل البحث- يردّ اللَّه سبحانه على كلام

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۱۹۴

المشركين الفارغ، بزعمهم أنّ النبى صلى الله عليه و آله قد جُنّ، فيقول سبحانه: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ» «۱». وهذا التعبير يشير إلى أنّ النبى صلى الله عليه و آله لم يكن شخصاً مجهولًا بينهم، وتعبيرهم ب «الصاحب» يعنى المحب والمسامر والصديق وما إلى ذلك، وكان النبى معهم أكثر من أربعين عاماً يرون ذهابه وإيابه وتفكيره وتدبيره دائماً وآثار النبوغ كانت بادية عليه، فمثل هذا الإنسان الذى كان يُعدّ من أبرز الفضلاء والعقلاء قبل الدعوة إلى اللَّه، كيف تلصق به مثل هذه التهمة بهذه السرعة؟! أما كان من الأفضل أن يتفكروا- بدلًا من إلصاق التهم به- فى احتمال أن يكون صادقاً فى دعواه ومرسل من قبل اللَّه سبحانه؟! كما عقّب القرآن الكريم وبيّن ذلك بعد قوله أو لم يتفكروا؟ فقال: «إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

وفى الآية التالية- استكمالًا للموضوع آنف الذكر- دعاهم القرآن إلى النظر فى عالم الملكوت عالم السماوات والأرض، إذ تقول الآية: «أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ». ليعلموا أنّ هذا العالم الواسع، عالم الخلق، عالم السماوات والأرض، بنظامه الدقيق المحيّر المذهل لم يخلق عبثاً، وإنّما هناك هدف وراء خلقه. ودعوة النبى صلى الله عليه و آله هى من أجل ذلك الهدف، وهو تكامل الإنسان وتربيته وارتقاؤه.

ثم تقول الآية معقبة لتنبّههم من نومة الغافلين: «وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ».

وأخيراً فإنّ الآية التالية، تختتم الكلام بالقول: «مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ».

فإنّ هذه التعابیر تختص باولئک الذین یقفون بوجه الحقائق معاندین ألدّاء، حتی کأنّما علی أبصارهم غشاوة وفی سمعهم صمم وعلی قلوبهم طبع، فلا یجدون إلّاأسدالًا من الظلمات تحجب طریقهم. و کل ذلک هو نتیجة أعمالهم، وهو المقصود بالإضلال الإلهی «مَن یُضْلِلِ اللَّهُ».

---

(۱) «الجنّة»: معناها الجنون، ومعناها فی الأصل: الحائل والمانع فکأنّما یُلقی علی العقل حائل عند الجنون. مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۵

یَسْأَلُونَکَ عَنِ السَّاعَةِ أَیَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّی لَا یُجَلِّیهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِی السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا تَأْتِیکُمْ إِلَّا بَغْتَةً یَسْأَلُونَکَ کَأَنَّکَ حَفِیٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لَا یَعْلَمُونَ (۱۸۷)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان عن ابن عباس: جاء قوم من الیهود، فقالوا: یا محمّد أخبرنا عن الساعة متی هی إن کنت نبیاً؟ فنزلت الآیة.

وقیل: قالت قریش یا محمّد! متی الساعة؟ فنزلت الآیة.

التّفسیر

مع أنّ هذه الآیة ذات سبب خاص فی النزول- کما ذکروا- إلّاأنّها فی الوقت ذاته لها علاقة وثیقة بالآیات المتقدمة أیضاً، لأنّه قد وردت الإشارة إلی یوم القیامة ولزوم الإستعداد لمثل ذلک الیوم فی الآیات السابقة. وبالطبع فإنّ موضوعاً کهذا یستدعی السؤال عن موعده وقیامه، ویستثیر کثیراً من الناس أن یسألوه: أیان یوم القیامة؟ لهذا فإنّ القرآن یقول: «یَسْئَلُونَکَ عَنِ السَّاعَةِ أَیَّانَ مُرْسهَا».

«الساعة»: تعنی زمان نهایة الدنیا، إلّاأنّها فی الغالب تأتی بمعنی القیامة فی القرآن الکریم؛ و «أیّان»: تساوی «متی» وهما للسّؤال عن الزمان؛ و «المرسی»: ثبات الشیء أو وقوعه، فبناءً علی ذلک فإنّ «أیّان مرساها» تعنی: فی أیّ وقت تقع القیامة وتکون ثابتةً؟

ثم تضیف الآیة مخاطبة النبی أن یرد علیهم بصراحة قائلة: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّی لَا یُجَلِّیهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ».

إلّا أنّ الآیة تذکر علامتین مجملتین، فتقول أوّلًا: «ثَقُلَتْ فِی السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

أیّة حادثة یمکن أن تکون أثقل من هذه، إذ تضطرب لهولها جمیع الأجرام السماویة «قبیل القیامة» فتخمد الشمس ویُظلم القمر وتندثر النجوم، ویتکون من بقایاها عالم جدید بثوب آخر.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۶

ثمّ إنّ قیام الساعة یکون علی حین غرّة، وبدون مقدمات تدریجیة، بل علی شکل مفاجیء وانقلاب سریع. «لَاتَأْتِیکُمْ إِلَّا بَغْتَةً».

ثمّ تقول الآیة مرّة اخری: «یَسْئَلُونَکَ کَأَنَّکَ حَفِیٌّ عَنْهَا».

وتضیف الآیة مخاطبة النبی الکریم: «قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لَا یَعْلَمُونَ».

قُلْ لَا أَمْلِکُ لِنَفْسِی نَفْعاً وَ لَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَ لَوْ کُنْتُ أَعْلَمُ الْغَیْبَ لَاسْتَکْثَرْتُ مِنَ الْخَیْرِ وَ مَا مَسَّنِیَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِیرٌ وَ بَشِیرٌ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (۱۸۸)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: قیل: إنّ أهل مکة قالوا: یا محمّد! ألا یخبرک ربّک بالسعر الرخیص قبل أن یغلو، فتشتریه فتربح فیه، وبالأرض التی ترید أن تجدب، فنرتحل منها إلی أرض قد أخصبت؟ فأنزل هذه الآیة.

التّفسیر

لا یعلم الغیب إلّااللّه: إنّ الکلام کان فی الآیة السابقة علی عدم علم أحد بقیام الساعة إلّا اللّه، والکلام فی هذه الآیة علی نفی علم الغیب عن العباد بصورة کلیة. ففی الجملة الاولی من هذه الآیة خطاب للنبی صلی الله علیه و آله یقول: «قُلْ لَّاأَمْلِکُ لِنَفْسِی نَفْعًا وَلَا

ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ».

إنّ مالك جميع القوى والقدرات وذو الاختيار المستقل- وبالذات- فى عالم الوجود هو اللّه عزّ وجلّ فحسب، والآخرون حتى الأنبياء والملائكة يكتسبون منه القدرة ويستمدون منه القوة.

وبعد بيان هذا الموضوع تشير الآية إلى مسألة مهمّة اخرى ردّاً على سؤال جماعة منهم فتقول: «وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ».

ثمّ تحكى الآية عن مقام النبى الواقعى ورسالته، فى جملة موجزة صريحة، فتقول على لسانه: «إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۷

هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۱۸۹) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۱۹۰) أَ يُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (۱۹۱) وَ لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (۱۹۲) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (۱۹۳) جحدُ نعمةٍ عظمى: فى هذه الآيات إشارة إلى جانب آخر من حالات المشركين واسلوب تفكيرهم والردّ على تصوّراتهم الخاطئة. لمّا كانت الآية السابقة إشارة إلى توحيد أفعال اللّه، فالآيات محل البحث تعدّ مكملةً لها لأنّ هذه الآيات تشير إلى توحيد أفعال اللّه أيضاً. تقول الآية الاولى من هذه الآيات: «هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا» فجعل الحياة والسكن جنباً إلى جنبٍ «فَلَمَّا تَغَشَّهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ».

وبمرور الأيام والليالى ثقل الحمل «فَلَمَّا أَثْقَلَت» كان كل من الزوجين ينتظر الطفل، ويتمنّى أن يهبه اللّه ولداً صالحاً، فلذلك «دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ». وعندما استجاب اللّه دعاءهما، ورزقهما الولد الصالح أشركا باللّه «فَلَمَّا ءَاتهُمَا صلِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

وتعقيباً على هذا الأمر يردّ القرآن- باسلوب بيّن متين- عقيدة المشركين وأفكارهم مرة اخرى، فيقول: «أَيُشْرِكُونَ مَا لَايَخْلُقُ شَيًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ».

وليس هذا فحسب، فهم ضعاف «وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ».

والأوثان والأصنام فى حالة لو ناديتموها لما استجابت لكم «وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ». فمن كان بهذه المنزلة وبهذا المستوى أنّى له بهداية الآخرين!

ويحتمل بعض المفسرين احتمالًا آخر فى تفسير الآية، أنّ المراد هو أنّكم لو طلبتم منهم الهداية فلن يتحقق دعاؤكم وطلبكم على كل حال «سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۸

أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۱۸۴) أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَىْءٍ وَ أَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (۱۸۵) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۸۶) هاتان الآيتان- محل البحث- تواصلان الكلام على التوحيد ومكافحة الشرك، وتبطلان منطق المشركين بأربعة أدلة، فتقول الآية الاولى من هاتين الآيتين: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ».

فبناءً على ذلك لا معنى لأن يسجد الإنسان لشىء مثله تحكمها قوانين الطبيعة، وأن يمدّ يد الضراعة والحاجة إليه، وأن يجعل مقدّراته ومصيره تحت يده.

ثم تضيف الآية: أنّكم لو تزعمون بأنّ لهم عقلًا وشعوراً «فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

وهذا هو الدليل الثانى على إبطال منطق المشركين.

وفى البيان الثالث تبرهن الآية على أنّ الأصنام أضعف حتى من عبادها المشركين، فتتساءل مستنكرةً: «أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا» «۱».

وهكذا فإنّ الأصنام من الضعة بمكان حتى أنّها بحاجة إلى من يدافع عنها ويحامى عنها، وأخيراً فإنّ الآية تبين ضمن تعبير هو فى حكم الدليل الرابع مخاطبة النبى صلى الله عليه و آله قائلةً: «قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونَ». أى إذا كنت كاذباً، وأنّ الأصنام مقرّبات عنداللّه، وقد تجرأتُ عليها فلِمَ لا تغضب علىّ؟ وليس لها ولا لكم ولمكائدكم أى تأثير علىّ.

إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (۱۹۶) وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (۱۹۷) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَ تَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لَا يُبْصِرُونَ (۱۹۸)

---

(۱) «يبطشون»: فعل مشتق من «البطش» على زنة «العرش» ومعناه الإستيلاء بالشدّة والصولة والقدرة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۱۹۹

المعبودات التى لا قيمة لها: تعقيباً على الآية المتقدمة التى كانت تخاطب المشركين بالقول (على لسان النبى): «ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونَ» متبهة إياهم أنّهم لا يستطيعون أن يصيبوا النبى بأدنى ضرر، فإنّ الآية الاولى- من الآيات- محل البحث- تذكر الدليل على ذلك فتقول: «إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ».

وليس وليى وحدى فحسب، بل هو ولىّ جميع الصالحين «وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ».

ثم يؤكد القرآن بالآية التالية على بطلان عبادة الأوثان مرّة اخرى فيقول: «وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَايَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ».

بل أبعد من ذلك «وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَايَسْمَعُوا». وبالرغم من امتلاكهم العيون التى يخيل إلى الرائى أنّها تنظر: «وَتَرَيهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَايُبْصِرُونَ».

ومضمون الآيتين الأخيرتين ورد فى الآيات السابقة أيضاً، وهذا التكرار إنّما هو لمزيد التأكيد على مكافحة الشرك وقلع جذوره التى نفذت فى أفكار المشركين وأرواحهم عن طريق التلقين والتقرير المتكرر.

خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (۱۹۹) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۰۰) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (۲۰۱) وَ إِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (۲۰۲) وَ إِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْ لَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّى هذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۲۰۳) وساوس الشيطان: فى هذه الآيات يبين القرآن شروط التبليغ وقيادة الناس وإمامتهم باسلوب أخاذ رائق وجيز، وهى فى الوقت ذاته تتناسب والآيات المتقدمة التى كانت تشير إلى مسألة تبليغ المشركين أيضاً. ففى الآية الاولى- من الآيات محل البحث- إشارة إلى ثلاث من وظائف القادة والمبلغين، فتوجّه الخطاب للنبى صلى الله عليه و آله فتقول فى البداية: «خُذِ الْعَفْوَ».

ثم تعقّب الآية بذكر الوظيفة الثانية للنبى صلى الله عليه و آله وتأمره بأن يرشد الناس إلى حميد الأفعال التى يرتضيها العقل ويدعو إليها اللّه عزّ وجلّ قائلةً: «وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۰

مختصر الامثل ج ۲ ۲۳۹

أمّا الوظيفة الثالثة للنبى صلى الله عليه و آله فهى أن يتحمل الجاهلين، فتقول: «وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ».

فالقادة والمبلغون يواجهون فى مسيرهم أفراداً متعصبين جهلة يعانون من انحطاط فكرى وثقافى وغير متخلقين بالأخلاق الكريمة، فيرشقونهم بالتّهم، ويُسيؤون الظن بهم ويحاربونهم.

فطریق معالجة هذه المعضلة لا یکون بمواجهة المشرکین بالمثل، بل الطریق السلیم هو التحمل والجلد وعدم الإکترات بمثل هذه الامور، والتجربة خیر دلیل على أنّ هذا الاسلوب هو الاسلوب الأمثل لمعالجة الجهلة، وإطفاء النائرة، والقضاء على الحسد والتعصب، وما إلى ذلک.

وفی الآیة التالیة دستور آخر، وهو یمثل الوظیفة الرابعة التی ینبغی على القادة والمبلغین أن یتحملوها، وهی أن لا یدعوا سبیلًا للشیطان إلیهم، سواء کان متمثلًا بالمال أم الجاه أم المقام وما إلى ذلک، وأن یردعوا الشیاطین أو المتشیطنین ووساوسهم، لئلا ینحرفوا عن أهدافهم. فالقرآن یقول: «وَإِمَّا یَنزَغَنَّکَ مِنَ الشَّیطنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ».

وفی الآیة التالیة بیان للإنتصار على وساوس الشیطان بهذا النحو: «إِنَّ الَّذِینَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَیِفٌ مِنَ الشَّیطنِ تَذَکَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ». أی یتذکرون ما أنعم اللَّه علیهم، ویفکرون فی سوء عاقبة الذنب وعذاب الاخرة فیتّضح لهم بذلک طریق الحق.

والطائف: هو الذی یطوف ویدور حول الشیء، فکأنّ وساوس الشیطان تدور حول فکر الإنسان وروحه کالطائف حول الشیء لیجد منفذاً إلیه.

وأساساً فإنّ کل إنسان فی أیة مرحلة من الإیمان، أو أیّ عمر کان، یُبتلى بوساوس الشیاطین. وربّما أحس أحیاناً أنّ فی داخله قوة مهیمنة تدفعه نحو الذنب وتدعوه إلیه، ولا شک أنّ مثل هذه الحالة من الوساوس فی مرحلة الشباب أکثر منها فی أیّة مرحلة اخرى، ولا- سیما إذا کانت البیئة أو المحیط کما هو فی العصر الحاضر من التحلّل والحریّة، لا الحریة بمعناها الحقیقی، بل بما یذهب إلیه الحمقى «من الإنسلاخ من کل قید والتزام أخلاقی أو اجتماعی أو دینی» فتزداد الوساوس الشیطانیة عندالشباب.

وطریق النجاة الوحید من هذا التلوّث والتحلل فی مثل هذه الظروف، هو تقویة رصید التقوى أولًا، کما أشارت إلیه الآیة: «إِنَّ الَّذِینَ اتَّقَوْا» ثم المراقبة والتوجه نحو النفس، والإلتجاء إلى اللَّه وتذکر ألطافه ونعمه وعقابه الصارم للمذنب.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۱

وملخص القول: أنّنا لاحظنا فی الآیة السابقة کیف ینجو المتقون من نزغ الشیطان ووسوسته بذکر اللَّه، إلّاأنّ الآثمین إخوة الشیاطین یبتلون بمزید الوساوس فلا ینسلخون عنها، کما تعبّر الآیة التالیة عن ذلک قائلة: «وَإِخْوَانُهُمْ یَمُدُّونَهُمْ فِی الْغَیِّ ثُمَّ لَایُقْصِرُونَ».

«الإخوان»: کنایة عن الشیاطین، والضمیر «هم» یعود على المشرکین والآثمین.

وجملة «ثُمَّ لَایُقْصِرُونَ» تعنی أنّ الشیاطین لا یألون جهداً فی إضلال المشرکین والآثمین.

ثم تذکر الآیة التالیة حال جماعة من المشرکین والمذنبین البعیدین عن المنطق، فتقول:

إنّهم یکذبونک- یا رسول اللَّه- عندما تتلو علیهم آیات القرآن، ولکن عندما لا- تأتیهم بآیة، أو یتأخر الوحی یتساءلون عن سبب ذلک: «وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بَایَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَیْتَهَا» «۱». ولکن قل لهم إنّنی لا- اعمل ولا أقول إلّابما یوحى اللَّه إلیّ: «قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا یُوحَى إِلَیَّ مِن رَّبِّی هذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّکُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ».

وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۲۰۴) وَ اذْکُرْ رَبَّکَ فِی نَفْسِکَ تَضَرُّعاً وَ خِیفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ وَ لا تَکُنْ مِنَ الْغافِلِینَ (۲۰۵) إِنَّ الَّذِینَ عِنْدَ رَبِّکَ لا یَسْتَکْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ یُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ یَسْجُدُونَ (۲۰۶) وإذا قریء القرآن فاستمعوا وانصتوا: لقد بدأت هذه السورة (سورة الأعراف) ببیان عظمة القرآن، وتنتهی بالآیات- محل البحث- التی تتکلم عن القرآن أیضاً. فی البدایة تقول الآیة: «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ».

ویستفاد من ظاهر الآیة أنّ هذا الحکم عام غیر مختص بحال ما ولا وقت معین، أی ینبغی إن قریء القرآن- حیثما کان وکیف کان- أن یستمع الآخرون وینصتوا احتراماً للقرآن، لأنّ القرآن لیس کتاب قراءة فحسب، بل هو کتاب فهم وإدراک، ثم هو کتاب عمل أیضاً.

(۱) «الإجتباء»: مأخوذ من الجبایة، وأصلها جمع الماء فی الحوض ونحوه، ثمّ توسعوا فی الاستعمال فأطلقواعلی جمع الأشیاء وانتخابها واختیار ما یراد منها اجتباءً. فجملة «لولا اجتبیتها» تعنی لولا اخترتها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۲

وهذا الحکم المستحب ورد علیه التأکید إلی درجة أنّ بعض الروایات عبّرت عنه بالوجوب.

والمورد الوحید الذی یجب فیه السکوت أو یکون حکم السکوت فیه واجباً، هو فی صلاة الجماعة، إذ علی المأموم أن یسکت ویستمع لقراءة الإمام، حتی أنّ جمعاً من الفقهاء قالوا: إنّ هذه الآیة تدل علی سقوط الحمد والسورة من قبل المأموم «عند صلاة الجماعة».

وفی الآیة التالیة إکمالًا للأمر السابق یخاطب القرآن النبی الکریم- وهذا الحکم کلی وعام أیضاً وإن کان الخطاب موجهاً للنبی صلی الله علیه و آله کما هو الحال فی سائر آیات القرآن الاخری وأحکامها- إذ یقول سبحانه فی کتابه: «وَاذْکُرْ رَّبَّکَ فِی نَفْسِکَ تَضَرُّعًا وَخِیفَةً».

ثم یضیف قائلًا: «وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوّ وَالْآصَالِ» «۱».

«وَلَا تَکُن مّنَ الْغَافِلِینَ».

فذکر اللَّه فی کل حال وفی کل وقت، صباحاً ومساءً، مدعاة لإیقاظ القلوب وجلائها من الدرن، وإبعاد الغفلة عن الإنسان. ومثله مثل مزنة الربیع، إذا نزلت أحیت القلوب بأزهار التوجه والإحساس بالمسؤولیة والبصیرة، وکل عمل إیجابی بنّاء ....

ثم تختتم سورة الأعراف بهذه العبارة، وهی أنّکم لستم المکلفون فقط بذکر اللَّه بل من یذکر اللَّه من موقع الخشیة والاستکانة هم الملائکة المقربون: «إِنَّ الَّذِینَ عِندَ رَبّکَ لَا یَسْتَکْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَیُسَبّحُونَهُ وَلَهُ یَسْجُدُونَ».

«نهایة تفسیر سورة الأعراف»

---

(۱) «الآصال»: جمع الأصیل، ومعناه قبیل المغرب أو عند الغروب.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۳

۸. سورة الانفال

محتوی السورة: فی بدایة سورة الأنفال إشارة إلی قسم مهم من المسائل المالیة من جملتها الأنفال والغنائم التی یُعدّ کل منهما دعامة لبیت المال کما تضمنت هذه السورة مباحث اخری منها:

صفات المؤمنین الصادقین وما یمتازون به، قصة معرکة بدر، وهی أوّل مواجهة مسلحة بین المسلمین وأعدائهم، وما تضمّنت من أحداث عجیبة تلهم العبر.

بعض أحکام الجهاد ووظائف المسلمین إزاء هجوم العدو المتواصل.

ماجری للنبی صلی الله علیه و آله فی لیلته التاریخیة «لیلة المبیت».

حال المشرکین قبل الإسلام وخرافاتهم.

ضعف المسلمین وعجزهم بادیء الأمر ثم زیادة قوتهم ببرکة الإسلام.

حکم الخمس وکیفیة تقسیمه.

مواجهة المنافقین وطریقة التعرّف علیهم. وأخیراً نجد فی هذه السورة سلسلة مسائل اخری أخلاقیة واجتماعیة بنّاءة.

فلا غرابة أن نقرأ بعض الروایات الواردة فی شأن هذه السورة وفضیلتها، کالروایة الواردة- فی تفسیر مجمع البیان- عن الإمام الصادق

علیه السلام قال: «من قرأ الأنفال وبراءة فی کل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۴

شهر لم یدخله نفاق أبداً، وکان من شیعة أمیر المؤمنین علیه السلام حقّاً، ویأکل یوم القیامة من موائد الجنة معهم حتی یفرغ الناس من الحساب». إنّ فضائل سور القرآن والثواب العظیم لا یتأتّی بمجرد قراءة الألفاظ، بل القراءة مقدمة للتفکر، والتفکر وسیلة للفهم، والفهم مقدمة للعمل.

یَسْأَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَیْنِکُمْ وَ أَطِیعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۱)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان عن ابن عباس: إنّ النبی صلی الله علیه و آله قال یوم بدر: من جاء بکذا، فله کذا، ومن جاء بأسیر، فله کذا، فتسارع الشُبّان وبقی الشیوخ تحت الرایات، فلما انقضی الحرب، طلب الشُبّان ما کان قد نفلهم النبی صلی الله علیه و آله به، فقال الشیوخ: کنا ردءاً لکم، ولو وقعت علیکم الهزیمة لرجعتم إلینا، وجری بین أبی الیسر بن عمرو الأنصاری أخی بنی سلمة، وبین سعد بن معاذ، کلام فنزع اللّه تعالی الغنائم منهم، وجعلها لرسوله، یفعل بها ما یشاء، فقسمها بینهم بالسویة.

التّفسیر

إنّ الآیة- محل البحث- کما قرأنا فی سبب النزول، نزلت بعد معرکة بدر وتتکلم عن غنائم الحرب وتبیّن حکماً إسلامیاً واسعاً بشکل عام، فتخاطب النبی صلی الله علیه و آله بالقول:

«یَسلُونَکَ عَنِ الْأَنفالِ قُلِ الْأَنفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ».

فبناءً علی ذلک: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَیْنِکُمْ وَأَطِیعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن کُنتُم مُّؤْمِنِینَ». أی: إنّ الإیمان لیس بالکلام فحسب، بل هو الطاعة للّهوالرسول دون قید أو شرط وفی جمیع مسائل الحیاة لا فی غنائم الحرب وحدها.

ما هی الأنفال؟ إنّ مفهوم الأنفال لا یقتصر علی غنائم الحرب فحسب، بل یشمل جمیع الأموال التی لیس لها مالک خاص (کالآجام وبطون الأودیة والموات) وهذه الأموال جمیعها للّه وللرسول ولمن یلی أمره ویخلفه، وبتعبیر آخر: إنّ هذه الأموال للحکومة الإسلامیة، وتصرف فی منافع المسلمین العامة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۵

کما قرأنا فی شأن النّزول آنفاً، أنّ مشاجرة وقعت بین بعض الأنصار فی شأن غنائم الحرب، وقطعاً لهذه المشاجرة فقد نفت الآیة أن تکون الغنائم لغیر اللّه والرسول ثم أمرت المسلمین بإصلاح ذات البین.

وأساساً فإنّ إصلاح ذات البین وإیجاد التفاهم وقلع عناصر الکدر والبغضاء من صدور المسلمین، وتبدیل کل ذلک بالمحبة، یعدّ من أهم الأغراض الإسلامیة.

وقد أولت التعالیم الإسلامیة عنایة فائقة لهذا الموضوع حتی عدّته من أفضل العبادات.

فی نهج البلاغة: یقول علی علیه السلام فی آخر وصایاه- لما ضربه ابن ملجم بالسیف- لولدیه:

«إنّی سمعت جدّکما صلی الله علیه و آله یقول: صلاح ذات البین أفضل من عامة الصلاة والصیام».

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ إِذَا ذُکِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذَا تُلِیَتْ عَلَیْهِمْ آیَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِیمَاناً وَ عَلَی رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ (۲) الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلَاةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ یُنْفِقُونَ (۳) أُولئِکَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ (۴) خمس صفات خاصه بالمؤمنین: کان الکلام فی الآیة السابقة عن تقوی اللّه وطاعته وطاعة رسوله بعد المشاجرة اللفظیة بین بعض المسلمین فی شأن الغنائم. وإکمالًا لهذا الموضوع یشیر فی هذه الآیات إلی خمس صفات بارزة فی المؤمنین: ثلاث منها ذات جانب معنوی وروحانی وباطنی، واثنتین منها لها جانب عملی وخارجی ....

فالثلاث الاولى عبارة عن «الإحساس بالمسؤولية» و «الإيمان» و «التوكل»، والإثنتان الاخريان هما الإرتباط باللَّه، والإرتباط بخلق اللَّه سبحانه.

فتقول الآيات أوّلًا: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ».

«الوجل»: حالة الخوف التى تنتاب الإنسان، وهو ناشيءٌ عن أحد أمرين: فقد ينشأ عند إدراك المسؤولية.

وقد ينشأ عند إدراك عظمة مقام اللَّه، والتوجه إلى وجوده المطلق الذى لا نهاية له.

ثم تبين الآية الصفة الثانية للمؤمنين فتقول: «وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا».

والمؤمنون ليسوا كالموتى من الجمود وعدم التحرك، ففى كل يوم جديد يكون لهم فكر جديد وتكون صفاتهم مشرقة جديدة.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۰۶

والصفة الثالثة لهؤلاء المؤمنين هى أنّهم يتّكلون على اللَّه فقط «وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

فهم يعيشون سعة الافق وسلامة التفكير بحيث يرون ضعف جميع المخلوقات مهما كانت فى الظاهر قوية ومقتدرة ولذلك يرفضون الخضوع والاعتماد على أيّ موجود غير اللَّه تعالى، فمنه يقتبسون قوتهم ومنه يطلبون حاجاتهم.

ولا- ينبغى الوقوع فى المفهوم الخاطى للتوكل حيث تصور البعض أنّ التوكل يعنى عدم الأخذ بقانون العلية والابتعاد معن السعى والعمل، والصحيح أنّ مفهومه الحقيقى هو عدم التعلق والاعتماد بالقوى الظاهرية والّا فان الاستفادة من عالم الاسباب‌المسببات فى الطبيعة هو عين التوكل لأنّ كل تثير لهذه الاسباب فى الواقع الخارجى إنّما يحصل باذن اللَّه ومشيئته.

وبعد أن ذكرت الآيات الصفات الروحانية للمؤمنين الحقيقين تقول: «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ».

التعبير ب «يُقِيمُونَ الصَّلَوةَ» ليس إشارة الى ممارستهم الدائمة للصلاة فحسب، بل إنّهم يتحركون فى هذا الاتجاه اتقوية دعائهم الصلاة فى المجتمع وفى كل مكان.

وعبارة «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ» تتضمن معنى واسعاً يستوعب المواهب المادية والمعنوية كافة، فهم ينفقون من جميع مارزقهم اللَّه تعالى من المال والعلم والجاه والمكانة الاجتماعية وأمثال ذلك.

وتتحرك آخر آية من الآيات مورد البحث لبيان مقام هؤلاء ومكانتهم عند اللَّه تعالى وما ينتظرهم من الثواب العظيم، فتقول فى البداية: «أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا».

ثم تذكر الآية ثلاثة أنواع من الثواب لهؤلاء: «لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ».

وللمؤمنين إضافة لدرجاتهم رحمة من اللَّه «وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ».

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (۵) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (۶) قرأنا فى الآية الاولى من هذه السورة أنّ بعض المسلمين من جديدى العهد بالإسلام، كانوا غير راضين عن كيفية تقسيم غنائم معركة بدر (إلى حدّ ما). ففى الآيتين محل البحث يقول اللَّه سبحانه لُاولئك: هذه ليست أوّل مرّة تكرهون شيئاً مع أنّه فيه صلاحكم كما كان

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۰۷

الأمر فى أساس غزوة بدر وكانوا غير راضين باديء الأمر، إلّاأنّهم رأوا كيف تمت هذه المعركة لصالح الإسلام والمسلمين. تقول الآية الاولى من الآيتين محل البحث: إنّ عدم رضا بعض المسلمين فى شأن تقسيم الغنائم يشبه عملية إخراجك من مكة وعدم رضى بعض المؤمنين بذلك: «كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ».

والتعبير «بالحق» إشارة إلى أنّ أمر الخروج كان طبقاً لوحى إلهى ودستور سماوى، وكانت نتيجته الوصول إلى الحق واستقرار المجتمع الإسلامى، إلّاأنّ هؤلاء الأفراد لا- يرون إلّا ظواهر الامور، ولهذا: «يُجَادِلُونَكَ فِى الْحَقّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ

يَنظُرُونَ».

إلّا أنّ الحوادث التالية كشفت لهم عن خطئهم في حساباتهم، وأنّ خوفهم وقلقهم دونما أساس، وأنّ هذه المعركة (معركة بدر) حققت للمسلمين انتصارات مشرقة، فمع رؤية مثل هذه النتائج علام يجادلون في الحق وتمتد ألسنتهم بالإعتراض؟

وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ يَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) أوّل مواجهة مسلحة بين الإسلام والكفر ... لمّا كانت الآيات السابقة قد أشارت إلى معركة بدر، فإنّ الآيتين أعلاه وما بعدهما من الآيات قد أماطت اللثام عن جوانب مهمة وحساسة في تلك المعركة، ولإيضاح الآيتين محل البحث والآيات التالية، من المناسب أن نلقي الضوء على ما جرى في هذه المعركة الحاسمة، لتتجلى لنا دقائق الامور ولطائف ما أشارت إليه الآيات الكريمة في شأن معركة بدر الكبرى.

بدأت معركة بدر- طبقاً لما يقوله المؤرخون والمحدثون والمفسرون- حين كان أبو سفيان- كبير مكة- عائداً بقافلة تجارية مهمة مؤلفة من أربعون راكباً من قريش، وتحوي على ثروة تجارية تقدّر بخمسين ألف دينار من الشام نحو المدينة.

فأمر النبي صلى الله عليه و آله أصحابه أن يتعبأوا ويتهيأوا لمواجهة هذه القافلة الكبيرة التي تحمل جلّ رأس مال العدو معها، وبمصادرة أموال القافلة يتمّ توجيه ضربة اقتصادية نحو العدو وتعقبها ضربة عسكرية قاصمة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۸

إنّ أبا سفيان عرف عن طريق أتباعه وأصدقائه تصميم النبي على مواجهة قافلته، هذا من جهة، كما أنّ القافلة حينما كانت متجهة نحو الشام للإتيان بمال التجارة تعرضت لتحركات من هذا القبيل. لهذا فإنّ أبا سفيان أرسل من يمضي إلى مكة بسرعة ليخبر أهلها بما سيؤول إليه أمر القافلة.

فمضى رسول أبي سفيان بحالة مثيرة كما أوصاه أبو سفيان، إذ خرم أنف بعيره وبتر أذنيه والدماء تسيل على وجه البعير لهيجانه، وقد شقّ ثوبه- أو طمريه- وركب بعيره على خلاف ما يركب الناس «إذ ظهره كان إلى رقبة البعير ووجهه إلى عجزه» ليلفت الناس إليه من كل مكان. فلما دخل مكة أخذ يصرخ قائلًا: أيّها الناس الأعزة، أدركوا قافلتكم، أدركوا قافلتكم وأسرعوا وتعجلوا إليها.

ولما كان أكثر أهل مكة شركاء في هذه القافلة فقد تعبئوا بسرعة وتحركوا نحو القافلة بحوالي ۹۵۰ مقاتلًا و ۷۰۰ بعير ومئة فرس، وكان أبو جهل يقود هذا الجيش.

وكان النبي صلى الله عليه و آله قد قارب بدراً في نحوٍ من ثلاثمائة وثلاث عشر رجلًا كانوا يمثلون رجال الإسلام آنئذ «وبدر منطقة ما بين مكة والمدينة» وقد بلغه خبر تهيؤ أبي جهل ومن معه لمواجهته.

فتشاور النبي صلى الله عليه و آله مع أصحابه: هل يلحقون القافلة ويصادرون أموالها، أو أنّ عليهم أن يتهيأوا لمواجهة جيش العدو؟ فقالت طائفة من أصحابه: نقاتل عدوّنا، وكرهت طائفة اخرى ذلك، إلّاأنّ النبي بالرغم من كل ذلك قبل بالقول الأوّل «أي قتال العدو».

ومن جهة اخرى فإنّ طائفة من المسلمين كانت في قلق وإضطراب وكانت تصرّ على عدم مواجهة هذا الجيش اللجب، إذ لا موازنة بين أصحاب النبي وأصحاب أبي جهل! لكن النبي صلى الله عليه و آله طمأنهم بوعد اللَّه وقال: «إنّ اللَّه عزّ وجل وعدني إحدى الطائفتين ولن يخلف اللَّه وعده، واللَّه لكأنّي أنظر مصرع أبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وفلان وفلان». وأمر رسول اللَّه بالرحيل، وخرج إلى بدر وهو بئر.

وفي هذه الأثناء استطاع أبو سفيان أن يفرّ بقافلته من الخطر المحدق به، واتّجه نحو مكة عن طريق ساحل البحر الأحمر غير المطروق، وأرسل رسولًا إلى قريش: إنّ اللَّه نجّى قافلتكم، ولا أظن أنّ مواجهة محمّد في هذا الظرف مناسبة، لأنّ له أعداء يكفونكم أمره، إلّا أنّ أبا جهل لم يرض باقتراح أبي سفيان وأقسم باللات والعزى أنّه سيواجه محمّداً، بل سيدخل المدينة لتعقيب أصحابه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۰۹

وأقبلت قريش، وبعثوا عبيدها ليستقوا من الماء، فأخذهم أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن عبيد قريش. قالوا: فأين العير؟ قالوا: لا علم لنا بالعير.

فأقبلوا يضربونهم وكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يصلّى فانفتل من صلاته وقال: «إن صدّقوكم ضربتموهم وإن كذّبوكم تركتموهم!» فأتوه بهم، فقال لهم: «من أنتم؟» قالوا: يا محمّد نحن عبيد قريش. قال: «كم القوم؟!» قالوا: لا علم لنا بعددهم. قال: «كم ينحرون فى كل يوم من جزور؟» قالوا: تسعة إلى عشرة. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «القوم تسعمائة إلى ألف رجل». وأمر صلى الله عليه و آله بهم فحبسوا.

كان الجوّ مكفهراً بالرعب والوحشة، إذ كان جيش قريش معبّأ مدججاً بالسلاح، ولديه المؤونة والعُدّد، حتى النساء اللائى ينشدن الأشعار والمغنيات اللائى يثرن الحماسة، وكان جيش أبى جهل يرى نفسه أمام طائفة صغيرة أو قليلة من الناس، ولا يصدّق أنّهم سينزلون الميدان.

المشكلة الاخرى التى كان أصحاب النبى يواجهونها، هى أنّ أرض بدر كانت غير صالحة للنزال لما فيها من الرمال، فنزل المطر تلك الليلة، فأفاد منه أصحاب النبى فاغتسلوا منه وتوضأوا وأصبحت الأرض صُلبة صالحة للنزال، العجيب فى ذلك أنّ المطر كان فى جهة العدو شديداً بحيث أربكهم وأزعجهم.

والخبر الجديد الذى حصل عليه أصحاب النبى من جواسيسهم الذين تحسسوا ليلًا حالة العدو أنّ جيش قريش مع كل تلك الإمكانات العسكرية فى حالة من الرعب بمكانة لا توصف، فكأنّ اللَّه أنزل عليها جيشاً من الرعب والوحشة.

وعند الصباح اصطفّ جيش المسلمين الصغير بمعنويات عالية ليواجهوا عدوهم، ولكن النبى صلى الله عليه و آله- إتماماً للحجة ولئلا يبقى مجال للتذرع بالذرائع الواهية- أرسل إلى قريش ممثلًا عنه ليقول لهم: إنّ النبى لا يرغب فى قتالكم ولا يحبّ أن تكونوا أوّل جماعة تحاربه، فوافق بعض قادة قريش على هذا الإقتراح ورغبوا فى الصلح، إلّاأنّ أبا جهل امتنع وأبى بشدّة.

وأخيراً اشتعلت نار الحرب، فالتقى أبطال الإسلام بجيش الشرك والكفر، ووقف حمزة عمّ النبى وعلى ابن عمّ النبى الذى كان أصغر المقاتلين سنّاً وجها لوجه مع صناديد قريش وقتلوا من بارزهم فإنهار ما تبقى من معنويات العدو، فأصدر أبو جهل أمراً عاماً بالحملة، وكان قد أمر بقتل أصحاب النبى من أهل المدينة «الأنصار» وأن يؤسر المهاجرون من أهل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱۰

مكة. فقال النبى صلى الله عليه و آله لأصحابه: «غضّوا أبصاركم وغضوا على النواجذ ولا تستلوا سيفاً حتى آذن لكم». ثم رفع يده إلى السماء وقال: «يا ربّ إن تهلكك هذه العصابة لم تعبد وإن شئت أن لا تعبد لا تعبد». ثم أصابه الغشى فسرى عنه وهو يسكب العرق عن وجهه ويقول: «هذا جبرئيل قد أتاكم فى ألف من الملائكة مردفين».

فهبت ريح عاصف على العدو، وكان المسلمون يحملون على عدوّهم والرياح تهب من خلفهم بوجه العدو، وأثبت المسلمون جدارة فائقة وصمدوا للقتال حتى قتلوا من المشركين سبعين، وأبو جهل من القتلى، وأسروا سبعين، وانهزم الجمع وولّوا الدُبر، ولم يُقتل من المسلمين إلّانفر قليل، وكانت هذه المعركة أوّل مواجهة مسلحة بين المسلمين وعدوّهم من قريش، وإنتهت بالنصر الساحق للمسلمين على عدوّهم.

التّفسير

فى الآية الاولى- من الآيتين محل البحث- إشارة إلى وعد اللَّه بالنصر فى معركة بدر إجمالًا، إذ تقول الآية: «وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ».

لكنكم لخوفكم من الخسائر واخطار وبلايا الحرب لم تكونوا راغبين فيها «وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ».

«شوكة»: ترمز إلى القدرة وتعنى الشدّة، وأصلها مأخوذ من الشوك، ثم استعملت هذه الكلمة «الشوكة» فى نصول الرماح، ثم اطلق هذا الاستعمال توسعاً على كل نوع من الأسلحة. فبناء على هذا فإنّ ذات الشوكة تعنى الجماعة المسلحة، وغير ذات الشوكة تعنى الجماعة غيرالمسلحة. أى إنّ فيكم من يرغب فى مواجهة العدو مواجهة غير المسلحة، وذلك بمصادرة أموال تجارته، وذلك ابتغاء الراحة أو حبّاً منه للمنافع المادية، فى حين أن الحرب أثبتت بعد تمامها أنّ الصلاح يكمن فى تحطيم قوى العدو العسكرية، لتكون الطريق لاحبةً لإنتصارات كبيرة فى المستقبل، ولهذا فإنّ الآية تعقّب بالقول: «وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ» «۱».

---

(۱) «الدابر»: بمعنى ذيل الشيء وعقبه، فبناءً على هذا يكون معنى «ويقطع دابر الكافرين» هو استئصال جذورهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱۱

ولم يكن هذا درساً لمسلمى ذلك اليوم فحسب، بل ينبغى لمسلمى اليوم أن يستلهموا من ذلك التعليم السماوى، فعليهم ألّا يغضوا أبصارهم عن المبادى الأساسية بسبب المشاكل والأتعاب ويستبدلوها بمناهج غير أساسية قليلة الأتعاب.

وفى آخر آية يماط اللثام عن الأمر بصورة أجلى، إذ تقول الآية الكريمة: «لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ».

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (۹) وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۱۰) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (۱۱) إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (۱۲) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (۱۳) ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (۱۴) دروس مفيدة من ساحة المعركة: إنّ هذه الآيات تتحدث عن اللحظات الحساسة من واقعة بدر، والألطاف الإلهية الكثيرة التى شملت المسلمين لتثير فى نفوسهم الإحساس بالطاعة والشكر. وتشير ابتداء لإمداد الملائكة فتقول: «وإِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ».

فى تفسير مجمع البيان: قيل: إنّ النبى صلى الله عليه و آله لما نظر إلى كثرة عدد المشركين، وقلة عدد المسلمين، استقبل القبلة وقال: «اللّهم أنجز لى ما وعدتنى، اللّهم إن تهلك هذه العصابة لا- تعبد فى الأرض». فما زال يهتف ربّه مادّاً يديه حتى سقط رداؤه من منكبيه، فأنزل اللَّه تعالى «وإِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ» الآية.

وعند ذلك «فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلِكَةِ مُرْدِفِينَ».

«مردفين»: من «الإرداف» بمعنى اتخاذ محل خلف الشيء، فيكون مفهومها أنّ الملائكة كانت تتابع بعضها بعضاً فى النّزول لنصرة المسلمين.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱۲

ولئلا يعتقد بعض بأنّ النصر كان بسبب نصرة الملائكة فحسب، فإنّ الآية تقول: «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

لأنّ اللَّه عزيز ومقتدر لا يستطيع أحد الوقوف مقابل إرادته، وحكيم لا يُنزل نصرته إلّا للأفراد الصالحين والمستحقين لذلك.

ثم تذكر الآية النعمة الثانية التى اكتنفت المؤمنين فتقول: «إِذْ يُغَشّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ».

«يغشى : من مادة «الغشيان» بمعنى تغطية الشيء وإحاطته. فكأنّ النوم كالغطاء الذى وُضع عليهم فغطّاهم.

«النعاس»: يطلق على بداية النوم، أو النوم القليل أو الخفيف الناعم.

والرحمة الثالثة التى وصلتكم هى: «وَيُنَزّلُ عَلَيْكُم مّنَ السَّمَاءِ مَاءً لّيُطَهّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطنِ».

وهذا الرّجز قد يكون وساوس الشيطان، أو رجزاً بدنياً كجنابة بعضهم، أو الأمرين معاً.

ثم إنّ اللّه تعالى أراد بذلك تقوية معنويات المسلمين وكذلك تثبيت الرمال المتحركة تحت أقدامهم بواسط المطر: «وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ».

ويمكن أن يكون المراد من تثبيت الأقدام هو رفع المعنويات وزيادة الثبات والإستقامة ببركة تلك النعمة، أو إشارة إلى هذين الأمرين.

والنعمة الاخرى التى أنعمها اللّه على المجاهدين فى بدر، هى الرعب الذى أصاب به اللّه قلوب أعدائهم، فزلزل معنوياتهم بشدّة، فيقول تعالى: «إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلئِكَةِ أَنّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا». «سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ». وإنّه لمن العجب والغرابة أن ينهار جيش قريش القوى أمام جيش المسلمين القليل، وأن تذهب معنوياتهم- كما ينقل التاريخ- بصورة يخاف معها الكثير منهم من منازلة المسلمين، وحتى أنّهم كانوا يفكرون بأنّ المسلمين ليسوا أشخاصاً مألوفين.

ثم إنّ القرآن يذكّر المسلمين بالأمر الذى أصدره النبى صلى الله عليه و آله للمسلمين بأنّ عليهم اجتناب الضرب غير المؤثر فى المشركين حال القتال لئلا تضيع قوتهم فيه، بل عليهم توجيه

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱۳

ضربات مؤثرة وقاطعة «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ».

«البنان»: جمع «البنانة» بمعنى رؤوس أصابع الأيدى أو الأرجل، أو الأصابع نفسها، وفى هذه الآية يمكن أن تكون كناية عن الأيدى والأرجل أو بالمعنى الأصلى نفسه.

وبعد كل تلك الأحاديث، ولكيلا يقول شخص بأنّ هذه الأوامر الصادقة تخالف الرحمة والشفقة وأخلاق الرجولة، فإنّ الآية تقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

«شاقوا»: من مادة «الشقاق» وهى فى الأصل بمعنى الإنفطار والإنفصال، وبما أنّ المخالف أو العدو ويبتعد عن الآخرين فقد سمى عمله شقاقاً: «وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

ثم يؤكّد هذا الموضوع ويقول: ذوقوا العذاب الدنيوى من القتل فى ميدان الحرب والأسر والهزيمة السافرة، وعلاوة على ذلك انتظروا عذاب الآخرة أيضاً: «ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ».

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ (۱۵) وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۶) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۷) ذلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ (۱۸) هذه الآيات توجّه خطابها للمؤمنين وتأمرهم أمراً عاماً بالقتال: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ».

فالفرار من الحرب يعدّ فى الإسلام من كبائر الذنوب، ولذلك تذكر الآية بعدها جزاء من يفر من ميدان الحرب مع الإشارة لمن يستثنون منهم فتقول: «وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ».

وكما نرى فقد استثنت الآية صورتين من مسألة الفرار، ظاهرهما أنّهما من صور الفرار، غير أنّهما فى الحقيقة والواقع صورتان للقتال والجهاد.

الصورة الاولى: عُبّر عنها ب «مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ» و «متحرف» من مادة (التحرّف) أى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱۴

الإبتعاد جانباً من الوسط نحو الأطراف والجوانب، والمقصود بهذه الجملة هو أنّ المقاتلين يقومون بتكتيك قتالى إزاء الأعداء، فيفرون من أمامهم نحو الأطراف ليلحقهم الأعداء: ثمّ يغافلونهم فى توجيه ضربة قوية إليهم واستخدام فن الهجوم والإنسحاب المتتابع وكما يقول العرب: (الحرب كرّ وفرّ). الصورة الثانية: أن يرى المقاتل نفسه وحيداً فى ساحة القتال، فينسحب للإلتحاق بإخوانه المقاتلين

وليهجم معهم من جديد على الأعداء.

وتختتم الآية محل البحث بالقول: إنّ جزاء من يفرّ مضافاً إلى استحقاقه لغضب اللَّه فإنّ مصيره إلى النار: «وَمَأْوَيهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

ومن ضمن الإمتيازات الكثيرة التى كانت عند الإمام على عليه السلام وربّما يشير إلى نفسه أحياناً ليكون نبراساً للآخرين قوله: «إنّى لم أفر من الزحف قطّ، ولم يبارزنى أحد إلّاسقيت الأرض من دمه» «۱».

ولئلا يصاب المسلمون بالغرور فى انتصارهم، ولئلا يعتمدوا على قواهم الجسمية فحسب، وليذكروا اللَّه فى قلوبهم دائماً، وليتعلقوا به طلباً لألطافه، فإنّ الآية التالية تقول:

«فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمَى .

وتشير الآية فى ختامها إلى لطيفة مهمة اخرى، وهى أنّ ساحة بدر كانت ساحة امتحان واختبار، إذ تقول: «وَلِيُبْلِىَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا».

لهذا فإنّ الآية تختتم بهذه الجملة: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». أى إنّ اللَّه سمعَ صوت استغاثة النبى والمؤمنين، واطلع على صدق نيّاتهم، فأنزل ألطافه عليهم جميعاً ونصرهم على عدوّهم، وأنّ اللَّه يعامل عباده بهذه المعاملة حتى فى المستقبل، فيطلع على ميزان صدق نياتهم وإخلاصهم واستقامتهم.

وفى الآية التالية يقول سبحانه تعميماً لهذا الموضوع وأنّ مصير المؤمنين والكفار هو ما سمعتم، فيقول: «ذلِكُمْ». ثمّ يعقب القرآن مبيناً العلة: «وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ».

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِىَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۹)

---

(۱) تفسير نور الثقلين ۲/ ۱۳۹.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۱۵

لقد جرى بحث كثير بين المفسرين حول الذين توجهت إليهم الآية بالحديث، فبعضهم يعتقد بأنّهم المؤمنون، وأحسن صورة لتفسير الآية على هذا الوجه هى:

لقد حصل بين بعض المؤمنين جدال حول تقسيم الغنائم بعد واقعة بدر ونزلت آيات توبخهم وتضع الغنائم تحت تصرف الرسول بشكل كامل فقام بتقسيمها بينهم بالتساوى، بغية تربيتهم وتعليمهم، ثم ذكّرهم بحوادث بدر وكيف نصرهم اللَّه على عدوّهم القوى.

وهذه الآية تتابع الحديث عن الموضوع نفسه فتخاطب المسلمين وتقول لهم: إنّكم إذا سألتم اللَّه الفتح والنصر فسوف يستجيب لكم وينصركم، وإذا تركتم الإعتراض والجدال عند النبى صلى الله عليه و آله فبذلك مصلحتكم، وإذا عدتم لنفس الاسلوب من الإعتراض فسنعود نحن أيضاً، ونترككم وحيدين فى قبضة الأعداء وحتى إذا كان عددكم كثيراً فبدون نصرة اللَّه لن تقدروا أن تعملوا أى شىء، وإنّ اللَّه مع المؤمنين المخلصين والطائعين لأوامره وأوامر نبيّه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (۲۰) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ هُمْ لَا يَسْمَعُونَ (۲۱) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (۲۲) وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۲۳)

الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون: تتابع هذه الآيات البحوث السابقة، فتدعو المسلمين إلى الطاعة التامة لأوامر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله واسلوب الآيات فيه دلالة على تقصير بعض المؤمنين فى التنفيذ والطاعة، فتبدأ بالقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

وتضيف لتؤكّد الأمر من جديد: «وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ».

ولما كان القول بلا عمل، والإستماع بلا تأثر، أحد الأمراض التى تصاب بها المجتمعات، وأساس الكثير من التخلفات، فقد جاءت الآية الاخرى لتؤكّد على هذه المسألة باسلوب آخر، فقالت: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَايَعْقِلُونَ».

ولما كان القرآن كتاب عمل فإنّه ينظر إلى النتائج دائماً.

وتقول الآية بعدها إنّ اللَّه لايمتنع من دعوة هؤلاء إن كانوا صادقين فى طلبهم وعلى

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۱۶

استعداد لتقبل الحق: «وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيرًا لَّأَسْمَعَهُمْ».

وفى تفسير مجمع البيان قيل معناه: لأسمعهم قول قصى بن كلاب فإنّهم قالوا: أحى لنا قصى، إنّ كلاب ليشهد بنبوتك. ويقول تعالى: «وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ».

فالذين سمعوا دعوة الحق كثيراً، وبلغت آذانهم آيات القرآن، وفهموا مضامينها العالية، لكنهم أنكروها بسبب عتوهم وعصبيّتهم.

كما أنّ هذه الآية تعد جواباً قاطعاً للقائلين بمدرسة الجبر، لأنّها تقرر بأنّ الخير يكمن فى الإنسان نفسه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۲۴) وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (۲۵) وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِى الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۲۶) دعوة للحياة: تتابع هذه الآيات دعوة المسلمين المتقدمة للعلم والعمل والطاعة والتسليم لكنها تتابع الهدف ذاته عن طريق آخر، فتقول ابتداءاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ».

فهذه الآية تقول بصراحة: إنّ دعوة الإسلام هى دعوة للعيش والحياة على جميع الأصعدة والناس فى الجاهلية كانوا يعيشون الحياة الحيوانية والمادية، فجاء القرآن ليدعوهم إلى الحياة.

ثم يقول تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

إنّ اللَّه عزّ وجلّ حاضر وناظر ومهيمن على كل المخلوقات. فإنّ الموت والحياة والعلم والقدرة والأمن والسكينة والتوفيق والسعادة، كلها بيديه وتحت قدرته، فلا يمكن للإنسان كتمان أمر ما عنه، أو أن يعمل أمراً بدون توفيقه، وليس من اللائق التوجه لغيره وسؤال من سواه. لأنّه مالك كل شىء والمحيط بجميع وجود الإنسان.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۱۷

ثم تشير الآية إلى عاقبة السوء لمن يرفض دعوة اللَّه ورسوله إلى الحياة فتقول: «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً».

وكلمة «فتنة»: بمعنى البلاء والمصائب الاجتماعية التى يصاب بها الجميع.

ومفهوم الآية هنا هو أنّ أفراد المجتمع مسؤولون عن أداء وظائفهم، وكذلك فهم مسؤولون عن حثّ الآخرين لأداء وظائفهم أيضاً، لأنّ الاختلاف والتشتت فى قضايا المجتمع يؤدّى إلى إنهياره، ويتضرر بذلك الجميع.

وتُختتم الآية بلغة التهديد فتقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

ويأخذ القرآن الكريم مرّة اخرى بأيدى المسلمين ليعيدهم نحو تاريخهم، فكم كانوا فى بداية الأمر ضعفاء وكيف صاروا، لعلّهم يدركون الدرس البليغ الذى علّمهم إيّاه فى الآيات السابقة فيقول: «وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ».

وهذه عبارة تشير إلى الضعف وقلّة عدد المسلمين فى مكّة قبل الهجرة قبال المشركين الأقوياء. أو فى المدينة بعد الهجرة فى مقابل القوى الكبرى كالفرس والروم: «فَاوَيكُم وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مّنَ الطَّيّبَاتِ لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۲۷) وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ

أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)

سبب النّزول

روى فى تفسير مجمع البيان عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: نزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر الأنصارى، وذلك أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بنى النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات، وأريحاء من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلّاأن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لأنّ عياله وماله وولده كانت عندهم، فبعثه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فأتاهم، قالوا: ما ترى يا أبا لبابة أتنزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه: إنّه الذبح فلا تفعلوا. فأتاه جبرائيل عليه السلام فأخبره بذلك. قال أبو لبابة: فواللَّه ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت إنّى قد خنت اللَّه

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢١٨

ورسوله، فنزلت الآية فيه، فلما نزلت شدّ نفسه على سارية من سوارى المسجد. وقال: واللَّه لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب اللَّه علىّ! فمكث سبعة أيّام، لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه، ثم تاب اللَّه عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك. فقال:

لا واللَّه لا أحل نفسى حتى يكون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله هو الذى يحلّنى. فجاءه فحلّه بيده، ثم قال أبو لبابة: إنّ من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالى.

فقال صلى الله عليه و آله: «يجزئك الثلث أن تصدّق به».

التّفسير

الخيانة وأساسها: يوجه اللَّه سبحانه فى الآية الاولى من الآيتين محل البحث الخطاب إلى المؤمنين فيقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ».

إنّ الخيانة للَّهورسوله، هى وضع الأسرار العسكرية للمسلمين فى تصرف أعدائهم، أو تقوية الأعداء أثناء محاربتهم.

ثم تقول الآية: «وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ».

«الخيانة»: فى الأصل معناها: الإمتناع عن دفع حق أحد مع التعهد به، وهى ضد «الأمانة» والأمانة وإن كانت تطلق على الأمانة المالية غالباً، لكنها فى منطق القرآن ذات مفهوم أوسع يشمل شؤون الحياة الاجتماعية والسياسية والأخلاقية كافة.

ويقول القرآن فى آخر الآية: «وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ». أى إنّه قد يصدر منكم على نحو الخطأ ما هو خيانة، ولكن الاقدام على الخيانة مع العلم.

و الآية بعدها تحذر المسلمين ليجتنبوا الماديات والمنافع العابرة، لئلا يلقى على عيونهم وآذاتهم غشاء فيرتكبون خيانة تعرّض المجتمع إلى الخطر فتقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَ أَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ».

فإذا زلت لنا قدم يوماً، فيجب علينا الإسراع فى تصحيح المسير ك «أبى لبابة» وإذا كان المال هو السبب فى الإنحراف، فعلينا بذله وإنفاقه فى سبيل اللَّه.

وفى نهاية الآية بشارة كبرى لمن يخرج من هذين الامتحانين منتصراً، فتقول: «وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

فمهما كان حبّ الأبناء كبيراً، ومهما كانت الأموال محبوبة وكثيرة، فإنّ جزاء اللَّه وثوابه أعلى وأعظم من كل ذلك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢١٩

الإيمان ووضوح الرّؤية: تناولت الآيات السابقة أوامر حياتية تتضمّن السعادة المادية والمعنوية للإنسان، لكن العمل بها غير ممكن

إلّافی ظلال التقوی لذلک بیّنت الآیة أربعة ثمار ونتائج للتقوی فقالت ابتداءاً: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ یَجْعَل لَّکُمْ فُرْقَانًا».

إنّنا نری علی مدی التاریخ بعض النساء والرجال المتّقین یملکون وضوحاً من الرؤیة لا یمکن بلوغه بوسائل العلم والمعرفة أبداً، فهم یرون الأسباب الخفیّة للکثیر من الحوادث التی تعصف بالمجتمع، ویرون عناصر الشر وأعداء الحق وإن حجبتهم آلاف الستائر الخادعة.

ومن جانب آخر أنّ إهدار القوی والطاقات فی الذنوب یتسبب فی بقاء الناس علی مستویً دانٍ من البصیرة والمعرفة ویعیشون التخلّف الثقافی والانحطاط فی التفکیر حتی وإن کانوا متقدمین فی الصناعة والحیاة المادیة.

ثم یقول: إنّه إضافة إلی معرفة الحق من الباطل فإنّ من آثار التقوی أن یغطی علی ذنوبکم ویمحوا آثارها من وجودکم «وَیُکَفِّرْ عَنکُمْ سَیِّاتِکُمْ».

مضافاً إلی ذلک، فإنّه تعالی سیشملکم بمغفرته «وَیَغْفِرْ لَکُمْ».

وثمار کثیرة اخری تنتظرکم لا یعلمها إلّااللّه: «وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِیمِ». فهذه الآثار الأربعة هی ثمرات فی شجرة التقوی، ووجود روابط طبیعیة بین التقوی وقسم من هذه الآثار لا یمنع من نسبة کل ذلک إلی اللّه تبارک وتعالی.

والفرق بین (تکفیر السیئات) و (الغفران) هو أنّ (تکفیر السیئات) تشیر للآثار النفسیة والاجتماعیة للذنوب والتی تزول بفعل التقوی، ولکن (الغفران) إشارة إلی مسألة العفو الإلهی والخلاص من الجزاء ....

وَ إِذْ یَمْکُرُ بِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِیُثْبِتُوکَ أَوْ یَقْتُلُوکَ أَوْ یُخْرِجُوکَ وَ یَمْکُرُونَ وَ یَمْکُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَیْرُ الْمَاکِرِینَ (۳۰)

سبب النّزول

ذکر المفسرون والمحدثون أنّ الآیة- محل البحث- تشیر إلی الحوادث التی أدّت إلی هجرة الرسول صلی الله علیه و آله من مکة إلی المدینة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۰

فی تفسیر مجمع البیان: قال المفسرون: إنّها نزلت فی قصة دار الندوة وذلک أنّ نفراً من قریش اجتمعوا فیها، وهی دار قصی بن کلاب، وتآمروا فی أمر النبی صلی الله علیه و آله، فقال عروة بن هشام: نتربّص به ریب المنون، وقال أبو البختری: أخرجوه عنکم تستریحوا من أذاه، وقال أبو جهل: ما هذا برأی، ولکن اقتلوه بأن یجتمع علیه من کل بطن رجل فیضربوه بأسیافهم ضربة رجل واحد فیرضی حینئذ بنو هاشم بالدیة، فصوّب إبلیس هذا الرأی، وکان قد جاءهم فی صورة شیخ کبیر من أهل نجد، وخطّأ الأوّلین. فاتفقوا علی هذا الرأی وأعدّو الرجال والسلاح وجاء جبرائیل علیه السلام فأخبر رسول اللّه صلی الله علیه و آله فخرج إلی الغار وأمر علیّاً فبات علی فراشه، فلمّا أصبحوا وفتشوا عن الفراش، وجدوا علیّاً. وقد ردّ اللّه مکرهم فقالوا: أین محمّد؟ فقال: لا أدری. فاقتصّوا أثره وأرسلوا فی طلبه، فلمّا بلغوا الجبل ومرّوا بالغار، رأوا علی بابه نسج العنکبوت، فقالوا: لو کان هاهنا لم یکن نسج العنکبوت علی بابه. فمکث فیه ثلاثاً ثم قدم المدینة.

التّفسیر

هذه الآیة وخمس آیات تلیها، نزلت فی مکة لأنّها تشیر إلی هجرة النبی صلی الله علیه و آله فتقول فی بدایتها: «وَإِذْ یَمْکُرُ بِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِیُثْبِتُوکَ أَوْ یَقْتُلُوکَ أَوْ یُخْرِجُوکَ».

ثم تضیف الآیة قائلة: «وَیَمْکُرُونَ وَیَمْکُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَیْرُ الْمکِرِینَ».

إنّ المشرکین قد بذلوا کل ما فی وسعهم وجهدهم من طاقاتٍ فکریة وجسدیة للقضاء علی نبی الخاتم صلی الله علیه و آله حتی أنّهم أعدّوا جائزة لهذا الغرض وهی مئة ناقة، ولکن اللّه سبحانه أذهب بأتعابهم أدراج الریاح بواسطة نسیج العنکبوت!

ونظراً إلی أنّ هجرة النبی صلی الله علیه و آله تمثل مرحلة جدیدة فی التاریخ الإسلامی، بل التاریخ الإنسانی، فإنّنا نستنتج أنّ اللّه قد

غير مسيرة التاريخ البشرى بما نسجته العنكبوت من خيوط ....

وهذا الأمر لا ينحصر بهجرة النبى صلى الله عليه و آله بل فى جميع تأريخ الأنبياء، فإنّ اللّه سبحانه أذل أعداءهم ودمرهم وأباد قوى الضلال بأسباب هيّنة كالريح- مثلًا- أو كثرة البعوض، أو الطير الصغيرة التى تُسمّى بالأبابيل، ليبين حالة الضعف البشرى والعجز إزاء قدرته اللامتناهية وليردع الإنسان عن التفكير بالطغيان والعناد.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۲۱

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۳۱) وَ إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۳۲) وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (۳۳) وَ ما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۳۴) وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَ تَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۳۵) ذُكر فى الآية السابقة مثل من منطق المشركين على مستوى العمل والممارسة، وفى هذه الآيات مثل آخر من منطقهم الفكرى، ليتّضح أنّ هؤلاء لم يمتلكوا سلامةً فى الفكر ولا صحة فى العمل، فجميع أساليبهم خاوية بغير أساس. تقول الآية الاولى من الآيات محل البحث:

«وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذَا إِنْ هذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

كانوا يقولون مثل هذا الكلام عند ما يعجزون عن مواجهة القرآن ومعارضته، وكانوا يعرفون جيداً أنّهم غير قادرين على معارضة القرآن.

و الآية التالية تتحدث عن منطق عجيب آخر فتقول: «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

لقد كانوا يقولون ذلك لشدّة تعصبهم وعنادهم، وكانوا يتصورون أنّ الدين الإسلامى لا أساس له أبداً، وإلّا فإنّ أحداً يحتمل حقانية الإسلام كيف يمكنه أن يدعو على نفسه بمثل هذا الدعاء؟

وفى ماتقدم من الآيات نلاحظ أنّ المشركين وجّهوا إلى النبى صلى الله عليه و آله اشكالين:

الأوّل منهما: واضح البطلان وهو قولهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا.

والإشكال الثانى: لو كانت هذه الآيات نازلة من قبل اللّه فأنزل علينا العقاب والبلاء، فيردّ عليهم القرآن فى الآية الثالثه، من الآيات محل البحث، بقوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۲۲

ثم تعقب الآية بالقول: «وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ». إنّ مفهوم الآية لا يختص بمعاصرى النبى صلى الله عليه و آله بل هو قانون عام يشمل جميع الناس. لهذا فقد روى فى نهج البلاغة عن الإمام على عليه السلام أنّه قال: «كان فى الأرض أمانان من عذاب اللّه، وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسّكوا به». وقرأ هذه الآية.

و الآية التالية تقول: إنّ هؤلاء جديرون بعذاب اللّه «وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ».

وهذا التعبير فى الآية يشير إلى يوم كان المسلمون فى مكة، ولم يكن لهم الحق أن يقيموا صلاة الجماعة بتمام الحرية والإطمئنان عند المسجد الحرام، إذ كانوا يتعرضون للإيذاء والتعذيب. أو أنّ هذا التعبير يشير إلى منع المشركين المسلمين وصدهم إيّاهم بعد أدائهم مناسك الحج والعمرة، فلم يأذنوا لهم بالتردد إلى المسجد الحرام.

والعجيب أنّ هؤلاء المشركين كانوا يتصورون أنّ لهم حق التصرف كيفما شاءوا فى المسجد الحرام، وأنّهم أولياؤه. إلّاأنّ القرآن يضيف فى هذه الآية قائلًا: «وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ». وبالرغم من زعمهم أنّهم أولياؤه ف «إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

ومع أنّ هذا الحكم ورد فى شأن المسجد الحرام، إلّاأنّه يشمل جميع المراكز الدينية والمساجد فإنّ سدنتها ينبغى أن يكونوا من أطهر

الناس وأتقاهم وأورعهم وأكثرهم إهتماماً بالمحافظة على مراكز العبادة، ليجعلوها منطلقاً للتعليم وبثّ الوعى والإيقاظ.

والأعجب فى هذا الشأن أنّ المشركين كانوا يدّعون أنّهم يصلّون ويعبدون اللّه بما كانوا يقومون به من أعمال قبيحة كالصفير والتصدية عند البيت، ولهذا فقد قالت الآية التالية عنهم: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً».

ونقرأ فى التاريخ أنّ طائفة من الأعراب فى زمان الجاهلية عندما كانوا يطوفون بالبيت العتيق، كانوا يخلعون ثيابهم ويصفرون ويصفقون ويسمّون أعمالهم هذه عبادة.

تعقب الآية على ما تقدم لتقول: إنّ أعمالكم- بل حتى صلاتكم- مدعاة للخجل والسفاهة ولذلك «فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۳

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (۳۶) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (۳۷)

سبب النّزول

فى تفسير على بن إبراهيم القمى: نزلت فى قريش لما وافاهم ضمضم وأخبرهم بخروج رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى طلب العير فأخرجوا أموالهم وحملوا وأنفقوا وخرجوا إلى محاربة رسول اللّه صلى الله عليه و آله ببدر فقتلوا وصاروا إلى النار وكان ما أنفقوا حسرة عليهم.

التّفسير

مفهوم الآية مفهوم جامع يحمل فى معناه كل ما بذله أعداء الحق والعدل من أموال لنيل مقاصدهم المشؤومة، إذ تقول فى مستهلها: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ». إلّاأنّ هذا الإنفاق والبذل لن يحقق لهم نصراً «فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ».

ولا يبتلون بالحسرة والهزيمة فى الدنيا فحسب، بل هم كذلك فى الآخرة أيضاً «وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ».

وبعد أن تكلمت الآية السابقة على ثلاث نتائج مشؤومة لإنفاق أعداء الإسلام، فإنّ الآية التى تليها تقول: «لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ».

هذه سنة إلهية دائمة أن يُعرف المخلص من غير المخلص، والطاهر من غير الطاهر، والمجاهد الصادق من الكاذب، والأعمال الطيبة من الأعمال الخبيثة، فلا يبقى أى من ذلك مجهولًا أبداً، بل لابدّ فى النهاية من أن تمتاز الصفوف بعضها عن بعض ويسفر الحق عن وجهه.

ثم تضيف الآية: «وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ».

فالخبيث من أيّة طائفة وفى أىّ شكل كان سيؤول فى النهاية إلى الخسران، كما تقول الآية فى نهاية المطاف: «أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۴

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (۳۸) وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۳۹) وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (۴۰) من المعلوم فى اسلوب القرآن هو الجمع بين البشارة والإنذار، أى أنّه كما ينذر أعداء الحق بالعقاب والعذاب، فإنّه يفتح لهم فى الوقت نفسه طريق العودة أمامهم. والآية الاولى:

من الآيات محل البحث تتبع هذا الاسلوب ذاته، فتأمر النبى صلى الله عليه و آله قائلةً: «قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ».

ويستفاد من الآية المباركة أنّ قبول الإسلام يوجب محو كل سابقة.

وتضیف الآیة قائلة: إنّهم إن لم یصححوا أسلوبهم «وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ». والمقصود من هذه السنّة هو ما آل إلیه أعداء الحق بعد ما واجهوا الأنبیاء، وما أصاب المشرکین عندما واجهوا النبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی معرکة بدر.

ولما کانت الآیة السابقة قد دعت الأعداء للعودة إلی الحق، وإنّ هذه الدعوة قد تولّد هذه الفکرة لدی المسلمین وهی أنّه قد انتهت فترة الجهاد ولابدّ بعد الآن من اللین والتساهل، ترفعُ هذه الشبهةَ الآیة التالیة وتقول: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ».

فی تفسیر مجمع البیان عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «لم یجیء تأویل هذه الآیة، ولو قام قائمنا بعد، سیری من یدرکه ما یکون من تأویل هذه الآیة، ولیبلغن دین محمّد صلی الله علیه و آله ما بلغ اللیل، حتی لا یکون مشرک علی ظهر الأرض، کما قال اللّه تعالی: «يَعْبُدُونَنِى لَايُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا»».

وأخیراً فإنّ الآیة فی نهایتها، وتزامناً مع الشدة فی العمل، تمدّ ید المحبة والرأفه إلی الأعداء مرّة اخری فتقول: «فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». ولکن إذا تمادوا فی عنادهم وطغیانهم ولم یستسلموا للحق، فاعلموا أنّ النصر حلیفکم والهزیمة من نصیب أعدائکم، لانّ اللّه مولاکم وهو خیر ناصر ومعین: «وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۵

وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبَى وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۱) وجدنا فی بدایة هذه السورة کیف أنّ بعض المسلمین تشاجروا فی شأن تقسیم الغنائم بعد غزوة بدر، وفی هذه الآیة عود إلی مسألة الغنائم. یقول الحق سبحانه: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى [الأئمة من أهل البیت علیهم السلام وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ»- من ذرّیة الرسول صلی الله علیه و آله أیضاً.

ویضیف مؤکّداً: «إِن كُنتُم ءَامَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ أی یوم بدر- يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ».

وتشیر الآیة فی نهایتها إلی قدرة اللّه غیر المحدودة، فتقول: «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

أی: بالرغم من قلتکم یوم بدر وکثرة عدوّکم فی الظاهر، لکن اللّه القادر خذلهم وأیدکم فانتصرتم علیهم.

إنّ الآیة محل البحث جاءت فی سیاق آیات الجهاد، إلّاأنّها تقول: «إنّ أیة فائدة أو ربح تحصلون علیه- ومنه غنائم الحرب- فعلیکم أن تعطوا خمسه».

ما هو المراد من سهم اللّه؟ إنّ ذکر سهم علی أنّه سهم اللّه، للتأکید علی أهمیة مسألة الخمس وإثباتها، ولتأکید ولایة الرسول والقیادة الإسلامیة وحاکمیة النبی صلی الله علیه و آله أیضاً.

أی کما أنّ اللّه جعل سهماً باسمه وهو أحق بالتصرف فیه، فقد أعطی النبی والإمام حق الولایة والتصرف فیه کذلک، وإلّا أنّ سهم اللّه یُجعل تحت تصرف النبی أو الإمام یصرفه فی المکان المناسب، ولیس للّهحاجة فی سهم معین.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۶

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَ لَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (۴۲) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۴۳) وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۴۴) یعود القرآن فی هذه الآیات الکریمة- ولمناسبة الکلام فی الآیات السابقة عن یوم الفرقان یوم معرکة بدر- لیعرب عن أجزاء من فصول تلک المعرکة، لیطلع المسلمون علی أهمیة ذلک النصر العظیم.

فتقول الآیة الاولی من الآیات محل البحث: «إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى .

«العُدوة»: مأخوذة من «العدو» على زنة «السَّرْو» ومعناها فى الأصل التجاوز، ولكنها تطلق على أطراف كل شيء، وحواشيه، لأنّها تتجاوز الحد الوسط إلى إحدى الجوانب، وجاءت هذه الكلمة فى هذه الآية بهذا المعنى أى «الطرف، والجانب».

«الدنيا»: مأخوذة من «الدنّو» على وزن العلوّ وتعنى الأقرب، ويقابل هذا اللفظ الأقصى والقصوى.

وكان المسلمون فى الجانب الشمالى من ميدان الحرب الذى هو أقرب إلى جهة المدينة، وكان الأعداء فى الجانب الجنوبى وهو الأبعد.

ثم تعقّب الآية قائلة: «وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ».

وبغض النظر عن كل ذلك فإنّ عدد قوات المسلمين وإمكاناتهم كان أقلّ من قوات الأعداء من جميع الوجوه، لهذا فإنّ الآية الكريمة تقول: «وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِى الْمِيعَادِ».

لأنّ الكثير منكم سيدركون ضعفهم الظاهرى قبال الأعداء فيتقاعسون عن قتالهم،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۷

ولكن اللَّه جعلكم إزاء أمر مقدر، وكما تقول الآية: «وَلكِن لِّيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا».

وليعرف الحق من الباطل فى ظلال ذلك النصر غير المتوقع والمعجزة الباهرة و «لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَىَّ عَن بَيِّنَةٍ».

وتعقب الآية قائلةً: «وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ».

فقد سمع نداء استغاثاتكم، وكان مطلعاً على نياتكم، ولذلك أيّدكم بنصره على أعدائكم.

وكان النبى صلى الله عليه و آله قد رأى فى منامه من قبل أنّ قلة من المشركين تقاتل المسلمين، وكانت هذه الرؤيا إشارة إلى النصر وبشارة به، فقد رواه صلى الله عليه و آله للمسلمين فازدادت العزائم فى الزحف نحو معركة بدر.

و الآية الثانية من الآيات محل البحث تشير إلى الحكمة من هذا الأمر، والنعمة التى أولاها سبحانه وتعالى للمسلمين عن هذا الطريق، فتقول: «إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَيكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ». ولهبطت معنوياتكم، ولم يقف الامر عند هذا الحدّ، بل لأدّى ذلك إلى التنازع واختلاف الكلمة «وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وَلكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ» وانقذ الأمر بواسطة الرؤيا التى أظهرت الوجه الباطنى لجيش الأعداء، ولأنّ اللَّه يعرف باطنكم «إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

وتُذكّر الآية الاخرى بمرحلة من مراحل معركة بدر تختلف عن سابقتها، ففى هذه المرحلة وفى ظل خطاب النبى المؤثر فيهم والبشائر الربانية، ورؤية حوادث حال التهيؤ للقتال- كنزول المطر لرفع العطش ولتكون الرمال الرخوة صالحة لساحة المعركة- تجددت بذلك المعنويات وكبر الأمل بالنصر وقويت عزائم القلوب، حتى صاروا يرون الجيش المعادى وكأنّه صغير ضعيف لا حول ولا قوة له، فتقول الآية المباركة: «وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا».

أمّا العدو فإنّه لما كان يجهل معنويات المسلمين وظروفهم، فكان ينظر إلى ظاهرهم فيراهم قليلًا جدّاً، بل رآهم أقل مما هم عليه، إذ تقول الآية فى الصدد «وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ».

لهذا فإنّ الآية تعقب على ما سبق قائلة: «لِيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا».

فلم تنته هذه المعركة وحدها وفق سنة اللَّه فحسب، بل إنّ إرادته نافذة فى كل شيء «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۸

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۴۵) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (۴۶) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَ رِئَاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۴۷) فى الآيات محل البحث ستة أوامر للمسلمين هى:

۱- أنها تقول أوّلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا». أى إنّ إحدى علائم الإيمان هى ثبات القدم فى جميع الأحوال، وخاصه

فى مواجهة الأعداء.

۲- «وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». ولا ريب أنّ المراد من ذكر اللّه هنا ليس هو الذكر اللفظى فحسب، بل حضور القلب، فهذا التوجه إلى اللّه يقوّى من عزيمة الجنود المجاهدين، ويُشعر الجندى بأنّ سنداً قوياً لا تستطيع أية قدرة فى الوجود أن تتغلب عليه يدعمه فى ساحة القتال. وإذا قُتل فسينال السعادة الكبرى ويبلغ الشهادة العظمى.

۳- كما أنّ من أهم أسس المبارزة والمواجهة هو الإلتفات للقيادة وإطاعة أوامر القائد والآمر، الآمر الذى لولاه لما تحقق النصر فى معركة بدر، لذلك فإنّ الآية بعدها تقول:

«وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

۴- «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا» لأنّ النزاع والفرقة امام الأعداء يؤدّى إلى الضعف وخور العزيمة، ونتيجة هذا الضعف والفتور هى ذهاب هيبة المسلمين وقوتهم وعظمتهم «وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ».

۵- ثم تأمر الآية بالإستقامة بوجه العدو، وفى قبال الحوادث الصعبة، فتقول: «وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ».

والفرق بين ثبات القدم فى الأمر الأوّل، والإستقامة والصبر فى الأمر الخامس، هو من جهة أنّ ثبات القدم يمثل الناحية الظاهرية «الجسمية» أمّا الإستقامة والصبر فليسا ظاهريين، بل هما أمران نفسيان ومعنويان.

۶- وتدعو الآية الأخيرة من الآيات محل البحث المسلمين إلى اجتناب الأعمال الساذجة البلهاء، ورفع الأصوات الفارغة، وتشير إلى قضية أبى سفيان وأسلوب تفكيره هو

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۲۹

وأصحابه، فتقول: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ».

فأهدافهم غير مقدسة، وكذلك أساليبهم فى الوصول إليها، وتختتم الآية بالقول: «وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ».

وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّی جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنِّی بَرِیءٌ مِنْكُمْ إِنِّی أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّی أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِیدُ الْعِقابِ (۴۸) إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۴۹) وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (۵۰) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (۵۱) انّ أوّل آية من الآيات محل البحث تتكلم عن دفاع الشياطين عن المشركين، فتبدأ بالقول: «وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَنُ أَعْمَالَهُمْ».

إنّ تزيين الشيطان للعمل يكون عن طريق تحريك الأهواء والشهوات والرذائل، فيتزين للإنسان عمله حتى ينظر إليه باعجاب.

ثم تقول الآية: «وَقَالَ لَاغَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ».

ولن آلوَ جهداً فى الدفاع عنكم، كما يدافع الجار عن جاره ويظهر له وفاءه وإخلاصه، والازمكم ملازمة الظل للشاخص.

ثم تقول الآية: «فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِّنكُمْ».

واستدل على نكوصه وتراجعه القهقهرى بدليلين هما:

أوّلًا قوله: «إِنِّى أَرَى مَا لَاتَرَوْنَ».

فإنّه يرى آثار النصر جيداً فى وجوه المسلمين الغاضبة ويشاهد عليها سمات اللطف

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۰

الإلهى والإمداد الغيبى وتأييد الملائكة لهم.

والثانى قوله: «إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ». فإنّ الجزاء الإلهى ليس أمراً يسيراً يمكنه أن يقف بوجهه، بل إنّه هو العذاب الأليم «وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

هل جاء الشيطان عن طريق الوسوسة أو ظهر متجسداً لهم؟ يعتقد بعض المفسرين أنّ الشيطان تجسد لهم فى صورة الإنسان، ففى رواية إنّ قريشاً عندما قررت التحرك والمسير نحو بدر، جاءهم إبليس فى صورة «سراقة بن مالك» الذى كان من رؤوس بنى كنانة وطمأنهم بأنّهم يوافقونهم على هذا الأمر، وأنّهم سينتصرون، انّه نقل ما يشبه هذه القصة فى هجرة النبى صلى الله عليه و آله ومجىء رجل كبير على هيئة شيخ نجدى إلى دار الندوة.

وتشير الآية بعدها إلى روحية جماعة ممن يميلون إلى الشرك فى ساحة بدر، فتقول: «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هؤُلَاءِ دِينُهُمْ». حين تصوروا أنّهم سينتصرون مع قلة العدد والعدة، أو أنّهم سينالون الشهادة والحياة الابدية فى هذا المسار.

لكن هؤلاء لعدم إيمانهم وعدم معرفتهم بالإمداد الإلهى أنكروا تلك الحقائق البينة، لأنّه كما تقول الآية المباركة: «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

المراد من «الْمُنَافِقُونَ» و «الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ» هما المنافقين فى المدينة إمّا أنّهم من المنافقين الذين التحقوا بصفوف المسلمين من المدينة، أو أنّهم من الذين تظاهروا بالإيمان فى مكة لكنهم لم يهاجروا إلى المدينة وانضموا فى معركة بدر إلى صفوف المشركين، فلما رأوا قلة المسلمين فى معركة بدر قبال جيوش الكافرين قالوا: إنّ هؤلاء أصابهم الغرور فى دينهم الجديد وجاءوا إلى هذه الساحة.

وتجسد الآية بعدها كيفية موت الكفار ونهاية حياتهم، فتتوجه بالخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله فتقول: «وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ».

ثم يقال لُاولئك: «ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ».

وتضيف الآية الأخيرة معقبة بالقول: «وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۱

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (۵۲) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۵۳) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (۵۴) فى هذه الآيات إشارة إلى «سنة إلهية دائمة» تتعلق بالشعوب والامم والمجتمعات، فتقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بَايَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

فبناءً على هذا فإنّ قريشاً والمشركين وعبدة الأصنام فى مكة، الذين أنكروا آيات اللّه ووقفوا بوجه الحق وحاربوا قادة الإنسانية، ليسوا وحدهم الذين نالوا جزاء ما إقترفوه، بل أنّ ذلك قانون دائم، وسنّة إلهيّة تشمل من هم أقوى منهم- كآل فرعون- كما تشمل الشعوب الضعيفة كذلك.

ثم توضح الآية التالية أصل هذا الموضوع فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

وبعبارة اخرى: إنّ الرحمة الربانية عامة تسع جميع الخلق، لكنها تبلغ الناس وتصل إليهم بما يناسب كفاءتهم وشأنهم، فإذا استفادوا من تلك النعم فى السير نحو الكمال والإستمداد منها فى سبيل الحق تعالى والشكر على نعمائه، بالإفادة منها إفادةً صحيحة، فإنّ اللّه سبحانه سيثبت نعماءه ويزيدها، أمّا إذا استغلت تلك المواهب فى سبيل الطغيان والانحراف والعنصرية، وكفران النعمة والغرور والفساد، فإنّ اللّه سيسلبهم تلك النعم أو يُبدلها إلى بلاء ومصيبة، بناءً على ذلك فإنّ التغيير يكون من قِبلنا دائماً، وإلّا فإنّ النعماء الإلهية لا تزول ....

وتعقيباً على هذا الهدف يعود القرآن ليشير إلى حال الطغاة- كفرعون وأقوام آخرين- فيقول: «كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

كَذَّبُوا بَايَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَلِمِينَ» ظلموا أنفسهم وظلموا سواهم أيضاً.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۳۲

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (۵۵) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِی كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لَا يَتَّقُونَ (۵۶) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِی الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۵۷) وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (۵۸) وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (۵۹) فی هذه الآيات المباركة إشارة إلى طائفة اخرى من أعداء الإسلام الذين وجهوا ضربات مؤلمة للمسلمين فی حياة النبی صلى الله عليه و آله المليئة بالأحداث، إلّاأنّهم ذاقوا جزاء ما اقترفوه مُرّاً وكانت عاقبة أمرهم خُسراً، وهؤلاء هم يهود المدينة الذين عاهدوا النبی صلى الله عليه و آله عدة مرات. وتبدأ الآيات فتعرّف هذه الطائفة بأنّها شر الأحياء الموجودة فی هذه الدنيا فتقول: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ».

وتقول الآية الاخرى: «الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِی كُلِّ مَرَّةٍ».

والمفروض أن يراعوا الحياد على الأقل فلا يكونوا بصدد الاضرار بالمسلمين وإعانة الأعداء عليهم.

فلاهم يخافون اللَّه تعالى، ولا يحذرون من مخالفة أوامره، ولا يراعون القواعد والاصول الإنسانية: «وَهُمْ لَايَتَّقُونَ». و الآية بعدها توضح كيفية اسلوب مواجهة هؤلاء فتقول: «فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِی الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ». أی قاتلهم بشكل مدمّر بحيث أن الطوائف القابعة خلفهم لإمدادهم يعتبروا بذلك ويتفرقوا عنهم.

«تثقفنهم»: مأخوذة من مادة «الثقف» على زنة «السقف» بمعنى بلوغ الشیء بدقة وسرعة، وهی إشارة إلى وجوب التنبه والإطلاع السريع والدقيق على قراراتهم، والاستعداد لإنزال ضربة قاصمة لها وقع الصاعقة عليهم قبل أن يفاجئوك بالهجوم.

«شرّد»: مأخوذة من مادة «التشريد» وهی بمعنى التفريق المقرون بالاضطراب فينبغی أن يكون الهجوم عليهم بشكل تتفرق معه المجموعات الاخرى من الأعداء وناقضی العهود، ولا يفكروا بالهجوم عليكم.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۳۳

وهذا الأمر إنّما صدر ليعتبر به الأعداء الآخرون، بل حتى الأعداء فی المستقبل أيضاً ويتجنّبوا الحرب مع المسلمين، وليتجنب نقض العهد- كذلك- الذين لهم عهود مع المسلمين، أو الذين سيعاهدونهم مستقبلًا «لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ». «وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» ولا تبدأهم بالهجوم قبل إبلاغهم بإلغاء العهد «إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْخَائِنِينَ».

وفی آخر آية من الآيات محل البحث يوجه تعالى الخطاب إلى ناقضی العهد، فيحذرهم من عاقبة ذلك فيقول: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَايُعْجِزُونَ».

وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَیْءٍ فِی سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (۶۰) وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶۱) وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِی أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ (۶۲) وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِی الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۶۳) يَا أَيُّهَا النَّبِیُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۶۴) تشير أوّل آية هنا- وتواصلًا مع الحديث فی الآيات المتقدمة عن الجهاد- إلى أصل مهم يجب على المسلمين التمسك به فی كل عصر ومصر، وهو لزوم الإستعداد العسكری لمواجهة الأعداء، فتقول: «وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ». أی لا تنتظروا حتى يهجم العدو فتستعدوا عندئذ لمواجهته، بل يجب أن تكون لديكم القدرة والإستعداد اللازم لمواجهة هجمات الأعداء المحتملة.

وتضيف الآية قائلة: «وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ». «الرباط»: بمعنى شدّ الشیء، ويرد هذا الاستعمال كثيراً بمعنى ربط الحيوان فی مكان ما لرعايته والمحافظة عليه.

والتعبير فی الآية واسع إلى درجة أنّه ينطبق على كل عصر ومصر تماماً.

وكلمة «قوّة» تشمل كل أنواع القوى والقدرات التى يكون لها أثراً ما فى الإنتصار على الأعداء، سواء من الناحية المادية أو الناحية المعنوية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۴

إنّ هذا الشعار الإسلامى الكبير: «وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ» إذا أضحى شعاراً شاملًا فى كل مكان، ينادى به الصغير والكبير، والعالم وغير العالم، والمؤلف والخطيب، والجندى والضابط، والفلاح والتاجر، والتزموا به فى حياتهم وطبقوه، كان كافياً لجبران التخلف والتأخر.

إنّ سيرة النبى صلى الله عليه و آله العملية وأئمة الإسلام تدل على أنّهم لم يدخروا وسعاً، واستغلوا كل فرصة لمواجهة العدو، كإعداد الجنود وتهيئة السلاح، وشد الأزر ورفع المعنويات، وبناء معسكرات التدريب، واختيار الزمان المناسب للهجوم، والعمل على استعمال مختلف الأساليب الحربية، ولم يتركوا أية صغيرة ولا كبيرة فى ذلك.

والمعروف أنّ النبى بلغه أن سلاحاً جديداً مؤثراً صنع فى اليمن أيام معركة حنين، فأرسل النبى جماعة إلى اليمن لشرائه فوراً.

الهدف من تهيئة السلاح وزيادة التعبئة العسكرية: ثم ينتقل القرآن بعد ذلك التعليم المهم إلى الهدف المنطقى والإنسانى من وراء هذا الموضوع، فيقول: إنّ الهدف منه ليس تزويد الناس فى العالم أو فى مجتمعكم بأنواع الأسلحة المدمرة التى تهدم المدن وتحرق الاخضر واليابس وليس الهدف منه استغلال أراضى الآخرين وممتلكاتهم، وليس الهدف هو توسعة الإستعباد والاستعمار فى العالم، بل الهدف من ذلك هو «تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ». لأنّ أكثر الأعداء لا يستمعون لكلمة الحق ولا يستجيبون لنداء المنطق والمبادئ الإنسانية، ولا يفهمون غير منطق القوة.

ثم تضيف الآية بأنّ المزيد من استعداداتكم العسكرية يخيف أعداء آخرين لا تعرفونهم فتقول: «وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَاتَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ».

تتضمن الآية تعليماً لمسلمى اليوم أيضاً، وهو أنّه لا ينبغى الإكتفاء بالإستعداد لأعداء الإسلام الذين تعرفونهم، بل عليكم أن تنتبهو للأعداء الاحتماليين أو «بالقوة» وأن تتهيأوا حتى تكونوا فى أعلى حدّ من القوّة والقدرة.

وفى نهاية الآية إشارة إلى موضوع مهم آخر، وهو أنّ الإستعداد العسكرى وجمع الأسلحة والأجهزة الحربية ووسائل الدفاع المختلفة، كل ذلك يحتاج إلى الدعم المالى اللازم له، لذلك تأمر المسلمين بالتعاون الجماعى لتهيئة ذلك المال، وأن ما يبذلونه فى هذا الأمر فهو عطاء فى سبيل اللَّه، ولن ينقص منه شىء أبداً «وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۵

إِلَيْكُمْ» فيرجع إليكم جميعه، بل أكثر ممّا أنفقتم «وَأَنتُمْ لَاتُظْلَمُونَ»، وستنالون ثواب ذلك فى هذه الدنيا فى إنتصار الإسلام وقوته وعظمته.

كما أنّ ثواباً أعظم ينتظركم فى العالم الآخر فى جوار رحمة اللَّه.

إنّ جملة «وأنتم لا تظلمون» معطوفة على جملة «ترهبون» أى أنّكم إذا ما أعددتم القوة اللازمة لمواجهة الأعداء فسيخافون أن يهجموا عليكم، ولن يقدروا على ظلمكم وإيذائكم، وبناءً على ذلك فلن يصيبكم ظلم أبداً.

مع أنّ الآية السابقة أوضحت هدف الجهاد فى الإسلام بقدر كافٍ، فإنّ الآية التالية التى تتحدّث عن الصلح بين المسلمين توضح هذا الأمر بصورة أجلى فتقول: «وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا».

ولما كان الناس يترددون أغلب الأحيان عندما يراد التوقيع على معاهدة الصلح، فإنّ الآية تأمر النبى بعدم التردد فى الأمر إذا كانت الشروط عادلة ومنسجمة مع المنطق السليم والعقل، فتقول: «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

ومع ذلك فهى تحذر النبى صلى الله عليه و آله والمسلمين من احتمال الإحتيال والخداع فى دعوة الأعداء إلى الصلح، فقد تكون

دعوةً للتمويه والرّغبة فى توجيه ضربة مفاجئة، أو يكون هدفهم هو تأخير الحرب ليتمكنوا من إعداد قوات أكثر، إلّاأنّ الآية تطمئن النبى صلى الله عليه و آله أن لا يخشى هذا الأمر أيضاً، لأنّ اللَّه عزّ وجلّ سيكفيه أمرهم وسينصره فى جميع الأحوال، إذ تقول: «وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ».

وسيرتك أيّها النبى- السابقة- شاهدة على هذه الحقيقة، لأنّ اللَّه «هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ».

أضف إلى ذلك أنّ المؤمنين المخلصين قد أحاطوا بك من كل جانب ولم يدخروا وسعاً فى الدفاع عنك، فقد كانوا قبل ذلك متشتتين متعادين، ولكن اللَّه شرح صدورهم بأنوار الهداية «وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ».

وقد كانت الحرب لسنوات طويلة قائمة على قدم وساق بين طائفتى الأوس والخزرج بشكل لم يكن أى أحد يتصور أنّهم سيعيشون بعضهم مع بعض بالحب والصفاء فى يوم ما، ولكن اللَّه القادر المتعال فعل ذلك ببركة الإسلام وفى ظلال القرآن.

ثم تضيف الآية أنّ اتحاد تلك القلوب، أو إيجاد تلك الألفة، لم يكن بوسائل مألوفة أو

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۶

مادية «لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ».

وتضيف الآية معقبة فى الختام: «إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». فعزّته تقتضى عجز الاخرين من الوقوف فى مواجهته، وحكمته تقتضى أن تكون كل اموره جاريةً وفق حساب دقيق ونظام صحيح، ولهذا فإنّ الخطة الدقيقة وحّدت القلوب المتنافرة المتفرقة وجعلتها تنصاع للنبى صلى الله عليه و آله لينشروا أنوار الهداية فى كل أرجاء العالم.

وتخاطب الآية الأخيرة من الآيات محل البحث النبى بالقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (۶۵) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (۶۶) فى هاتين الآيتين تتوالى التعاليم العسكرية وأحكام الجهاد أيضاً. فالآية الاولى منهما تخاطب الرسول فتقول: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ».

هذه الآية توضح أهمية الإعلام والتبليغ وشحذ همم المقاتلين والجنود ومعنوياتهم باعتبار ذلك تعليماً إسلامياً مهماً.

وتعقب الآية بالتعليم الثانى فتقول: «إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا».

فينبغى للمسلمين أن لا- ينتظروا حتى يبلغ عددهم مقداراً يُكافىء قوة العدو وأفراده، ليتحركوا إلى ساحة القتال والجهاد، بل يجب عليهم القيام بواجباتهم حتى إذا كان عدوّهم عشرة أضعافهم.

ثم تشير الآية إلى علة هذا الحكم فتقول: «بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّايَفْقَهُونَ» وهذا التعليل يبدو عجيباً لأوّل وهلة، إذ ما هى العلاقة بين المعرفة والفقاهة وبين النصر أو بين عدم المعرفة والهزيمة؟! لكن الواقع هو أنّ العلاقة بينهما قريبة ومتينة، لأنّ المؤمنين يعرفون نهجهم الذى سلكوه ويدركون الهدف من خلقهم وإيجادهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۷

فهذا السير الواضح المشفوع بالمعرفة يمنحهم الثبات والصبر والإستقامة.

أمّا الذين لا يؤمنون باللَّه واليوم الآخر، كعبدة الأصنام، فلا يعرفون لأىّ أمر يقاتلون؟

الأعمى ولعاداتهم الجاهلية ساروا وراء هذه الأفكار، وهكذا تبعث ظلمات الطريق وعدم معرفتهم الهدف ونتائج أعمالهم على إنهيار أعصابهم وتفتّ فى عضدهم وثباتهم، وتجعل منهم كائنات ضعيفة.

وبعد ذلك الحكم الثقيل بجهاد الأعداء وان كانوا عشرة اضعاف يخفف اللَّه عن المؤمنين ويتنزل فى الحكم الذى يرهقهم فيقول: «الْنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا».

ثم یقول: «فَإِن یَکُن مِّنکُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ یَغْلِبُوا مِائَتَیْنِ وَإِن یَکُن مِّنکُمْ أَلْفٌ یَغْلِبُوا أَلْفَیْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ».

ولکن علی کل حال ینبغی أن لا تنسوا تسدید اللّه «وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِینَ».

مَا کَانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْرَی حَتَّی یُثْخِنَ فِی الْأَرْضِ تُرِیدُونَ عَرَضَ الدُّنْیَا وَ اللَّهُ یُرِیدُ الْآخِرَةَ وَ اللَّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۶۷) لَوْ لَا کِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّکُمْ فِیمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِیمٌ (۶۸) فَکُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَیِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۶۹) یَا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِمَنْ فِی أَیْدِیکُمْ مِنَ الْأَسْرَی إِنْ یَعْلَمِ اللَّهُ فِی قُلُوبِکُمْ خَیْراً یُؤْتِکُمْ خَیْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْکُمْ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۷۰) وَ إِنْ یُرِیدُوا خِیَانَتَکَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْکَنَ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۷۱) بیّنت الآیات السابقة بعض أحکام الجهاد المهمّة ومواجهة الأعداء، وفی هذه الآیات استکمال لما سبق فی عرض قسم من أحکام أسری الحرب، وأوّل موضوع مهم یثار فی هذا الشأن، هو ما قالته الآیة الکریمة من أنّ کل نبی لیس له الحق فی أسر افراد العدو الّا بعد أن یثبت اقدامه فی الارض ویکیل الضربات القاضیة للأعداء: «مَا کَانَ لِنَبِیّ أن یَکُونَ لَهُ أَسْرَی حَتَّی یُثْخِنَ فِی الْأَرْضِ».

«یثخن»: مأخوذ من «الثِخَن» علی زنة «المحَن» ومعناه فی الأصل الضخامة والغلظة والثقل، ثم استعمل هذا اللفظ بمعنی الفوز والقوة والنصر والقدرة.

إنّ معنی الآیة هو التفوق علی العدو تماماً وإظهار القوة والقدرة وإحکام السیطرة علی المنطقة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۸

ثم ألقت باللوم علی اولئک الذین خالفوا هذا الأمر فتقول: «تُرِیدُونَ عَرَضَ الدُّنْیَا وَاللَّهُ یُرِیدُ الْأَخِرَةَ». فلا ینبغی أن نترک المنافع الطویلة الأمد والمستقبلیة رهن الخطر من أجل أن نحصل علی منافع مادیة عابرة.

وتُختتم الآیة بالقول أن التعلیم آنف الذکر- فی الواقع- مزیج من العزة والنصر والحکمة والتدبیر، لأنّه صادر من قبل اللّه تعالی «وَاللَّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ».

الآیة التالیة توجّه اللوم والتقریع ثانیة لأولئک الذین یعرّضون المنفعة العامة والمصلحة الاجتماعیة للخطر من أجل الحصول علی المنافع المادیة العابرة، فتقول الآیة: «لَّوْلَا کِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّکُمْ فِیمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِیمٌ».

إلّا أنّه- کما صرحت الآیات الکریمة فی القرآن- فإنّ سُنة اللّه اقتضت أن تُبین أحکامه ثم یجازی الذی یخالفون عن أمره.

وفی الآیة التالیة إشارة إلی حکم آخر من أحکام أسری الحرب، وهو حکم أخذ الفداء.

فی تفسیر القمی: لما قتل رسول اللّه صلی الله علیه و آله النضر بن الحارث، وعقبة بن أبی معیط، خافت الأنصار أن یقتل الأساری، فقالوا: یا رسول اللّه! قتلنا سبعین وأسرنا سبعین وهم قومک واساراک هبهم لنا یا رسول اللّه وخذ منهم الفداء واطلقهم، فأنزل اللّه علیهم «مَا کَانَ لِنَبِیّ أن یَکُونَ لَهُ أَسْرَی الآیات، فأطلق لهم أن یأخذوا الفداء ویطلقوهم.

إنّ الآیة محل البحث أجازت للمسلمین التصرف فی غنائم المعرکة، والمبلغ الذی یأخذونه فداءً من الأسیر، فقالت: «فَکُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حللًا طَیِّبًا».

ویمکن أن تکون هذه الجملة ذات معنی واسع یشمل حتی الغنائم الاخری غیر الفداء.

ثم تأمرهم الآیة بالتقوی فتقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ». وهذا إشارة إلی أنّ جواز أخذ مثل هذه الغنائم لا ینبغی أن یجعل هدف المجاهدین فی المعرکة هو جمع الغنائم وأن یأسروا العدو حتی یأخذوا فداءه، وإذا کان فی القلوب مثل هذه النیّات السیئة فعلیهم أن یطهروا قلوبهم منها، ویعدهم اللّه بالعفو عمّا مضی فتقول الآیة: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِیمٌ». والمسألة المهمة فی شأن أسری الحرب هی موضوع إصلاحهم وتربیتهم وهدایتهم، ولهذا فإنّ الآیة الرابعة من الآیات محل البحث تخاطب النبی أن یدعو الأسری إلی الإیمان باللّه وإصلاح أنفسهم، ویرغبهم فی کل ذلک، فتقول: «یَا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِّمَن فِی أَیْدِیکُم مِّنَ الْأَسْرَی إِن یَعْلَمِ اللَّهُ فِی قُلُوبِکُمْ خَیْرًا یُؤْتِکُمْ خَیْرًا مِّمَّا أُخَذَ مِنکُمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۳۹

والمراد من كلمة «خيراً» فى الجملة آنفة الذكر «إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا» هو الإيمان وقبول الإسلام أمّا المراد من كلمة «خير» فى الجملة الاخرى «يؤتكم خيراً» فهو الثواب أو الأجر المادى والمعنوى.

ثم إضافة إلى ذلك فسيشملكم لطف اللّه ويعفو عن سيئاتكم «وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وحيث إنّ من الممكن أن يستغل بعض الأسرى إظهار الإسلام ليسىء إلى الإسلام ويخون النبى وينتقم من المسلمين، فإنّ الآية التالية تحذّر النبى والمسلمين من خيانتهم فتقول: «وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ».

وأىّ خيانة أعظم من عدم الإستجابة لنداء الفطرة والعزوف عن نداء الحق والعقل، والشرك باللّه وعليهم أن لا ينسوا نصرة اللّه لك «فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ».

وإذا أرادوا الخيانة فى المستقبل فلن يُفلحوا، لأنّ اللّه مطلع على نيّاتهم، وجميع تعاليم الإسلام فى شأن الأسرى وفق حكمته «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۷۲) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِى الْأَرْضِ وَ فَسَادٌ كَبِيرٌ (۷۳) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۷۴) وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَ أُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۷۵) تبحث هذه الآيات التى تُختتم بها سورة الأنفال- وتُعدّ آخر فصل من فصولها- عن طوائف المهاجرين والأنصار والطوائف الاخرى من المسلمين وبيان قيمة هؤلاء جميعاً،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۰

مختصر الامثل ج ۲ ۲۷۹

فتعطى كل طائفة قيمة، وتستكمل ما تناولته الآيات السابقة فى شأن الجهاد والمجاهدين.

وقد تناولت هذه الآيات خمس طوائف، أربع منها من المسلمين، وواحدة من غير المسلمين، والطوائف الأربع هى:

۱- المهاجرون السابقون.

۲- الأنصار فى المدينة.

۳- المؤمنون الذين لم يهاجروا.

۴- الذين آمنوا من بعدُ وهاجروا.

فتقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ».

إنّ الآية وصفت الطائفة الاولى بأربع صفات هى: الإيمان، والهجرة والجهاد المالى والاقتصادى والصفة الرابعة جهادهم بأنفسهم ودمائهم وأرواحهم.

أمّا الأنصار فقد وصفتهم الآية بصفتين هما: الإيواء، والنصرة.

ثم تشير الآية إلى الطائفة الثالثه فتقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا».

ثم استثنت فى الجملة التى بعدها مسؤولية واحدة فحسب، وأثبتتها فى شأن هذه الطائفة، فقالت: «وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ... إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ».

وحضّت الآيـة على رعايـة العهود والمواثيق والدقـة فى أداء هذه المسؤوليه، ومنبهة إلى علم اللّه بكل الأمور، فقالت: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

فهو يرى جميع أعمالكم ويطلع على ما تفعلون من جهاد، أو أداء للوظيفـة الملقاة على عاتقكم، أو إحساس بالمسؤولية، كما يعلم بمن لم يعتن بالأمر، وكذلك بالوهن والضعف وعدم الإحساس بالمسؤولية إزاء هذه الوظائف الكبيرة.

أمّا الآيـة الثانية فتشـير إلى النقطة المقابلة للمجتمع الإسـلامى، أى مجتمع الكفر وأعداء الإسـلام، فتقول: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ». أى إنّ علاقـاتهم منحصرة فيما بينهم، ولا يحق لكم أن تتعاهـدوا معهم، أو تحاموا عنهم، أو تطلبوا منهم النصـرة لأنفسكم، أو تلجؤوهم وتؤوهم إليكم، أو تأووا وتلتجئوا إليهم.

ثم تنبّه الآية المسلمين وتحذرهم من مخالفة هذا التعليم، فتقول: «إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۱

إنّ المراد من «الفتنـة» هو الإختلاف والتفرق وتزلزل مبانى العقيـدة الإسـلامية على أثر وسوسـة الأعـداء، و «الفساد» يشـمل كل إخلال وتخريب للنظم الاجتماعية المختلفة وخاصة سفك الدماء البريئة والارهاب وأمثال ذلك.

أمّا فى الآيـة التاليـة فنجـد تأكيـداً على مقـام المهـاجرين والأنصـار مرّة اخرى، ومـا لهمـا مـن موقع وأثر فى تحقق أهـداف المجتمع الإسـلامى، فتثنى عليهم الآيـة بقولها: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا». لأنّهم هبوا لنصـرة الإسـلام فى الأيام الصـعبة الشديدة وفى الغربة والمحنة وقد اشترك كل فرد منهم بنوع من النصرة للّهولرسوله صلى الله عليه و آله «لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ». فهم فائزون بثواب اللّه والنعمـة الاخروية، كما أنّهم يتمتعون فى هذه الدنيا بالعزّة ورفعة الرأس والكرامة.

أمّا الآيـة الأخيرة فتشير إلى الطائفة الرابعـة من المسلمين، أى اولئك الـذين آمنوا وهاجروا من بعـد، فتقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنكُمْ». أى إنّ المجتمع الإسلامى ليس مجتمعاً منغلقاً ومحصوراً على نفسه، بل أبوابه مفتوحة لجميع المؤمنين والمهاجرين والمجاهدين.

وتشير الآية فى ختامها إلى ولاية الأرحام بعضهم لبعض، وأوليتها فيما جعله اللّه فى عباده من أحكام، فتقول: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ».

إنّ الآيات السابقة تتكلم عن ولاية المؤمنين والمسلمين العامّة «بعضهم إلى بعض» أمّا هذه الآية محل البحث فتؤكّد هذا الموضوع فى شأن الأرحـام والأقـارب، فهم إضافة إلى ولايـة الإيمان والهجرة يتمتعون بولايـة الأرحام أيضاً، ومن هنا فهم يرثون ويورّثون بعضهم بعضاً، إلّاأنّه لا إرث بين غيرهم من المؤمنين الذين لا علاقة قربى بينهم.

وفى آخر جملة من هذه الآية يقول اللّه سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

فما نزل فى هـذه السورة من أحكـام تتعلق بالأنفال وغنـائم الحرب، وتعـاليم الجهـاد والصـلح، وأحكـام الأسـرى والحرب، وما يتعلق بـالهجرة وغيرهـا، كـل ذلـك كان وفق حساب دقيق يتلاءم وروح المجتمع الإنسانى، والعواطف البشـرية، والمصالـح العامـة فى جميع جوانبها المختلفة.

«نهاية تفسير سورة الأنفال»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۳

۹. سورة التوبة

ينبغى الإلتفات إلى الامور التالية قبل الشروع فى تفسير السورة:

۱- أسماء هذه السورة: ذكر المفسرون لهذه السورة أسماءً عديدة تبلغ العشرة، غير أنّ المشهور منها هو ما يلى: سورة البراءة، وسورة التوبة، والسورة الفاضحة.

۲- متى نزلت هذه السورة؟ هذه السورة هى آخر سورة نزلت على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أو من أواخر السور النازلة عليه فى المدينة.

والمعروف أنّ بداية نزول هذه السورة كانت فى السنة التاسعة للهجرة، وقسماً منها نزل قبل معركة تبوك، وقسماً منها نزل عند الإستعداد للمعركة أو «الغزوة»، وقسماً منها نزل بعد الرجوع من المعركة والفراغ منها.

والآيات الاولى- هذه- والتى تتعلق بمن بقى من المشركين بلّغها أميرالمؤمنين عليه السلام فى موسم الحج.

۳- محتوى السورة: يتعلق قسم من آيات هذه السورة بالبقية الباقية من عبدة الأوثان والمشركين، وقطع العلاقات معهم، وإلغاء المعاهدات التى كانت بينهم وبين المسلمين.

وقسماً مهماً منها تتحدّت عن المنافقين وعاقبتهم، وتحذر المسلمين منهم.

وبعض آيات هذه السورة تتحدّث عن الجهاد فى سبيل اللّه وأهميته، كما أنّ قسماً منه

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۴

يكمل البحوث السابقة التى تناولت انحراف أهل الكتاب «اليهود والنصارى» عن حقيقة التوحيد، وتتكلم عن انصراف علمائهم عن واجبهم فى التبليغ وقيادة المجتمع. وحيث سبّب انتشار الإسلام واتساع رقعة مجتمعه آنئذ ظهور حاجات مختلفة ينبغى توفيرها، فقد عرضت بقية الآيات من هذه السورة موضوع الزكاة وتحريم تراكم الثروات واكتنازها، ووجوب طلب العلم أو التعلّم وتعليم الجهلة، وتناولت بحوثاً متنوعة اخرى كقصة هجرة النبى صلى الله عليه و آله، والأشهر الحرم التى يحرم فيها القتال، وأخذ الجزية من الأقليات الدينية غير الإسلامية كاليهود والنصارى، وما إلى ذلك.

فى تفسير مجمع البيان عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «ما نزل علىّ القرآن إلّاآية آية، وحرفاً حرفاً، خلا سورة البراءة وقل هو اللّه أحد، فإنّهما نزلتا علىّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة، كل يقول يا محمّد استوص بنسبة اللّه خيراً».

۴- لِمَ لَم تبدأ هذه السورة بالبسملة؟ يُجيب استهلال السورة على السؤال آنف الذكر فقد بُدئت بالبراءة- من قبل اللّه- من المشركين، وإعلان الحرب عليهم، واتباع أسلوب شديد لمواجهتهم، وبيان غضب اللّه عليهم، وكل ذلك لا يتناسب والبسملة «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ» الدالة على الصفاء والصدق والسلام والحب، والكاشفة عن صفة الرحمة واللطف الإلهى.

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ (۲) إلغاء عهود المشركين: كانت فى المجتمع الإسلامى ومحيطه طوائف شتى، فطائفة منها مثلًا لم يكن لها أىّ عهد مع النبى صلى الله عليه و آله والنبى كذلك لم يكن له أىّ عهد معها.

وطوائف اخرى عاهدت النبى صلى الله عليه و آله فى الحديبية- وأمثالها- على ترك المخاصمة والمنازعة، وقد نقضت بعض تلك الطوائف عهودها من جانب واحد، وبدون أى سبب يجيز النقض وذلك بمظاهرتها أعداء الإسلام، أو حاولت اغتيال رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

الآية الاولى من الآيتين محل البحث تعلن للمشركين كافة: «بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ».

يستفاد من الروايات أنّ علياً عليه السلام قد امر بإبلاغ أربع مواد إلى الناس فى ذلك اليوم وهى:

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۵

۱- إلغاء عهد المشركين.

۲- لا يحق للمشركين أن يحجّوا فى المواسم المقبلة.

۳- منع العراة والحفاة من الطواف الذى كان شائعاً ومألوفاً حتى ذلك الوقت.

۴- منع المشركين من دخول البيت الحرام.

ثم أمهلتهم مدّة أربعة أشهر ليفكروا فيها ويحدّدوا موقفهم من الإسلام، فإمّا أن يتركوا عبادتهم للأصنام، أو يتهيأوا للمواجهة والقتال، فقالت: «فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ».

وَ أَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (۳) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۴) نلحظ فى هاتين الآيتين البينتين مزيد تأكيد على موضوع إلغاء المعاهدات التى كانت بين النبى صلى الله عليه و آله والمشركين، حتى أنّ تاريخ الإلغاء قد اعلن فى هذه الآية إذ نقول: «وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِىءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ».

إنّ اللَّه سبحانه يريد فى هذا الإعلان العام فى مكّة المكرمة، وفى ذلك اليوم العظيم، أن يوصد كل ذريعة يتذرع بها المشركون والأعداء، ويقطع ألسنة المفسدين.

ثم يتوجه الخطاب فى الآية إلى المشركين أنفسهم ترغيباً وترهيباً، لعلهم يهتدون، إذ تقول الآية: «فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ». أى إنّ الإستجابة لرسالة التوحيد فيها صلاحكم وفيها خير لكم ولمجتمعكم ودنياكم وآخرتكم، فلو تدبّرتم بجد وصدق لرأيتم أن قبول الدعوة هو البلسم الشافى لكل جراحاتكم وليس فى الأمر منفعة للَّهأو لرسوله.

ثم إنّ الآية تحذر المخالفين المعاندين المتعصبين فتقول: «وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرَ مُعْجِزِى اللَّهِ». فلا يمكنكم الخروج من دائرة قدرته المطلقة بحال.

وأخيراً فإنّ الآية أنذرت المعاندين المتعصبين قائلة: «وَبَشّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۶

وكما أشرنا من قبل فإنّ إلغاء هذه العهود من جانب واحد- ورفض عهد المشركين- يختص باولئك الذين دلّت القرائن على استعدادهم لنقض عهدهم وبدت بوادره، لذلك فإنّ الآية استثنت قسماً منهم لوفائهم بالعهد، فقالت «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ».

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵) وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (۶) الشدة المقرونة بالرفق: نقرأ فى الآيتين أعلاه بيان وظيفة المسلمين بعد انتهاء مدّة إمهال المشركين «الأشهر الأربعة» وقد أصدر القرآن أوامره الصارمة فى هذا الصدد فقال:

«فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ».

ثم يقول: «وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ».

وهذه الشدة متناغمة ومتوائمة مع منهج الإسلام وخطته فى إزالة الوثنية وقلعها من جذورها، لأنّ الوثنية ليست عقيدة صحيحة، ولا ديناً كى تُلحظ بعين الإحترام.

وهذه الشدة والقوة والصرامة لا- تعنى سدّ الطريق- طريق الرجوع نحو التوبة- بوجههم، بل لهم أن يثوبوا إلى رشدهم ويعودوا إلى سبيل الحق، ولذلك فإنّ الآية عقبت بالقول: «فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ».

ف «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». يتوب على عباده المنيبين إليه.

وتستكمل الآية التالية هذا الموضوع بأمر آخر، كيما يتّضح بجلاء أن هدف الإسلام من هذا الأمر إنّما هو نشر التوحيد والحق والعدالة،

وليس هو الاستثمار أو الاستعمار وإمتصاص المال، أو الإستيلاء على أراضى الآخرين، إذ تقول الآية: «وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَمَ اللَّهِ». أى عليك أن تعامل من يلجأ اليك من المشركين برفق ولطف، وامنحه المجال للتفكير حتى يتبين له محتوى دعوتك فى كمال الإرادة والحرية،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۷

فإذا أشرقت أنوار الهداية فى قلوبهم فسيؤمنون بدعوتك.

ثم تضيف الآية قائلة: «ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ» وأوصله إلى مكان آمن حتى لا يعترضه أحد فى طريقه.

وأخيراً فإنّ الآية تبين علة هذا الحكم، فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّايَعْلَمُونَ».

فبناءً على ذلك لو فُتحت أبواب المعرفة بوجوهم، فإنّه يؤمّل خروجهم من الوثنية التى هى وليدة الجهل- وإلتحاقهم بركب التوحيد الذى هو وليد العلم والمعرفة.

كَيفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۷) كَيفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَ تَأْبى قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ (۸) اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۹) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (۱۰)

المعتدون الناقضون العهد: كما لاحظنا فى الآيات السابقة أنّ الإسلام ألغى جميع العهود التى كانت بينه وبين المشركين وعبدة الأوثان- إلّاجماعة خاصة- وأمهلهم مدّة أربعة أشهر ليقرروا موقفهم منه، والآيات محل البحث بيان لعلة إلغاء العهود من قِبل الإسلام، فتقول الآية الاولى من هذه الآيات مستفهمة استفهاماً إنكارياً: «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ». أى: إنّهم لا ينبغى لهم أن يتوقعوا أو ينتظروا الوفاء بالعهد من قِبل النبى صلى الله عليه و آله ومن جانب واحد، فى وقت تصدر منهم المخالفات وعدم الوفاء بالعهد.

ثم استثنت الآية مباشرة اولئك الذين لم ينقضوا عهدهم، بل بقوا أوفياء له، فقالت: «إِلَّا الَّذِينَ عهَدتُّم عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ».

وفى الآية التالية يثار هذا الموضوع بمزيد الصراحة والتأكيد، ويستفهم منه استفهاماً إنكارياً أيضاً، إذ تقول الآية: «كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَايَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۸

وتضيف الآيه معقبة بأن هؤلاء يريدون أن يخدعوكم بألفاظهم المزوّقة فقالت:

«يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ». وفى نهاية الآية إشارة إلى جذر هذا الموضوع وأساسه وهو فسقهم، فتقول: «وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ».

وفى الآية التالية بيان لبعض علائم فسقهم وعصيانهم، إذ أعربت الآية عن ذلك على النحو التالى «اشْتَرَوْا بَايَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ».

ثمّ تعقب الآية بالقول: «إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». فقد خسروا طريق السعادة وضيعوها، وحرموا الهداية، وهُم فى الوقت ذاته أوصدوا الطريق بوجه الآخرين، وأى عمل أسوأ من أن يحمل الإنسان وزره ووزر سواه!

أمّا فى آخر آية من الآيات محل البحث فهى تأكيد آخر على ما ورد فى الآيات المتقدمة، إذ تقول الآية: «لَايَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً».

وهذه الخصلة فيهم لم يُبتل بها المؤمنون فحسب بل يعتدون على كل من تناله أيديهم «وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ».

فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۱۱) وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (۱۲) أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ

بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۳) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (۱۴) وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۵) إنّ أحد أساليب الفصاحة والبلاغة أن يكرر المتحدّث المطلب المهم بتعابير مختلفة للتأكيد على أهميه، وليكون له أثر فى النفوس. ولما كانت مسألة تطهير المحيط الإسلامى من

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۴۹

الوثنية وعبادة الأصنام وإزالة آثارها، من المسائل ذات الأهمية القصوى، فإنّ القرآن يكرر هذه المطالب بعبارات جديدة فى الآيات محل البحث، فتقول الآية الاولى: «فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدّينِ».

وتضيف معقبة: «وَنُفَصّلُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

ولكن لو استمر المشركون فى نقض العهود، فتقول الآية التالية: «وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَاأَيْمنَ لَهُمْ».

صحيح أنّهم عاهدوكم على عدم المخاصمة والمقاتلة، إلّاأنّ هذه المعاهدة- بنقضها مراراً، وكونها قابلة للنقض فى المستقبل- لا اعتبار لها أصلًا ولا قيمة لها.

وتعقّب الآية مضيفة: «لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ».

وفى الآية الاخرى خطاب للمسلمين لإثارة هممهم، وإبعاد روح الضعف والخوف والتردد عنهم فى هذا الأمر الخطير، إذ تقول الآية: «أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ».

فعلام تقلقون وأنتم لم تبدأوهم بالقتال وإلغاء العهد من قبلكم «وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

وإذا كان بعضكم يتردد فى مقاتلتهم خشية منهم، فإنّ هذه الخشية لا محل لها «أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

وفى الآية التالية وعد بالنصر الحاسم للمسلمين، إذ تقول: «قَاتِلُوهُمْ يُعَذّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ».

وليس ذلك فحسب، بل، «وَيُخْزِهِمْ» «وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ».

وبهذا يشعر المؤمنون بالراحة والطمأنينة بعد أن كانوا يقاسون الألم والعذاب تحت وطأة هؤلاء المجرمين، ويزيل اللَّه تعالى عن قلوبهم آلام المحنة بهذا النصر «وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ».

أمّا الآية التالية فتضيف: إنّ فى إنتصار المؤمنين وهزيمة الكافرين سروراً للمؤمنين، وإنّ اللَّه يسدّدهم «وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ».

وتُختتم الآية بالقول: «وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

العبارة الأخيرة تحمل البشرى بأنّ مثل هؤلاء سيميلون نحو الإسلام ويشملهم توفيق

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۰

اللَّه، لما لديهم من التهيؤ الروحى والقابلية.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَا رَسُولِهِ وَ لَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (۱۶) فى هذه الآية ترغيب للمسلمين فى الجهاد عن طريق آخر، حيث تُحمّل الآية المسلمين مسؤولية ذات عبء كبير، وهى أنّه لا ينبغى أن تتصوروا أنّ كل شىء سيكون تامّاً بادعائكم الإيمان فحسب، بل يتجلى صدق النية وصدق القول والإيمان الواقعى فى قتالكم الأعداء قتالًا خالصاً من أى نوع من أنواع النفاق، فتقول الآية أوّلًا: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً».

«الوليجة»: مشتقة من «الولوج» ومعناه الدخول، وتطلق الوليجة على من يُعتمد عليه فى الأسرار ومعناها يُشبه معنى البطانة تقريباً.

إنّ الجملة المتقدمة تُنبه المسلمين إلى أنّ الأعمال لا تكمل بإظهار الإيمان فحسب، ولا تتجلى شخصية الأشخاص بذلك، بل يعرف

الناس باختبارهم عن طريقين:

الأوّل: الجهاد فى سبيل اللّه لغرض محو آثار الشرك والوثنية.

الثانى: ترك أيّة علاقة أو أيّ تعاون مع المنافقين والأعداء.

فالأوّل لدفع العدو الخارجى، والثانى يحصّن المجتمع من خطر العدو الداخلى.

وتُختتم الآية بما يدلّ على الإخطار والتأكيد: «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

فلا ينبغى أن يتصور أحدٌ أنّ اللّه لا يعرف العلائق السرية بين بعض الأفراد وبين المنافقين، بل يعرف كل شىء جيداً وهو خبير بالأعمال كلها.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَقَامَ الصَّلَاةَ وَ آتَى الزَّكَاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۱

من جملة المسائل التى يمكن أن تراود أذهان البعض بعد إلغاء عهد المشركين والحكم بجهادهم، هو: لِمَ نُبْعد هذه الجماعة العظيمة من المشركين عن المسجد الحرام لأداء مناسك الحج، مع أنّ مساهمتهم فى هذه المراسم عمارة للمسجد من جميع الوجوه «المادية والمعنوية» إذ يستفاد من إعاناتهم المهمة لبناء المسجد الحرام، كما يكون لوجودهم أثر معنوى فى زيادة الحاج والطائفين حول الكعبة المشرفة وبيت اللّه. فالآيتان محل البحث تردّان على مثل هذه الأفكار الواهية التى لا أساس لها، وتصّرح الآية الاولى منهما بالقول: «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ».

ثم تشير الآية إلى فلسفة هذا الحكم فتقول: «أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ».

ولذلك فهى لا تجديهم نفعاً: «وَفِى النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ».

فاللّه طاهر منزّه، وينبغى أن يكون بيته طاهراً منزهاً كذلك، فلا يصح أن تمسّه الأيدى الملوثة بالشرك. أمّا الآيةالتالية فتذكر شروط عمارة المسجدالحرام- إكمالاًللحديث آنف‌الذكر- فتبيّن خمسة شروط مهمة فى هذا الصدد، فتقول: «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ».

وهذا النص إشارة إلى الشرطين الأوّل والثانى اللذين يمثلان الأساس العقائدى.

ثم تشير الآية إلى الشرطين الثالث والرابع فتقول: «وَأَقَامَ الصَّلَوةَ وَءَاتَى الزَّكَوةَ».

أى: إنّ الإيمان باللّه واليوم الآخر لا يكفى أن يكون مجرّد ادعاء فحسب، بل تؤيده الأعمال الكريمة، فعلاقة الإنسان باللّه ينبغى أن تكون قوية محكمة، وأن يؤدّى صلاته باخلاص، كما ينبغى أن تكون علاقته بعباد اللّه وخلقه قوية، فيؤدى الزكاة إليهم.

وتشير الآية إلى الشرط الخامس والأخير فتقول: «وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ».

فقلبه ملىء بعشق اللّه، ولا يحسّ إلّابالمسؤولية فى امتثال أمره ولايرى لأحد من عبيده أثراً فى مصيره ومصير مجتمعه وتقدمه، هم أقل من أن يكون لهم أثر فى عمارة محل للعبادة.

ثم تضيف الآية معقبة بالقول: «فَعَسَى أُولئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ». فيبلغون أهدافهم ويسعون لعمارة المسجد.

أهمية بناء المساجد: وردت أحاديث كثيرة فى أهمية بناء المساجد. ففى تفسير المنار عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «من بنى للّه‌مسجداً ولو كمفحص قطاة لبيضها بنى اللّه له بيتاً فى الجنة».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۲

إلّا أنّ ما هو أكثر أهمية هذا اليوم هو عمارة المسجد المعنوية، فالمسجد ينبغى أن يكون مركزاً للشباب المؤمن، لا محلًا للعجزة والكسالى والمقعدين، فالمسجد مجال للنشاط الاجتماعى الفعال، لا مجال العاطلين والبطّالين والمرضى.

أَ جَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوَانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: روی الحاکم أبو القاسم الحسکانی عن ابن بریدة، قال: بینا شیبة والعباس یتفاخران، إذا مرّ بهما علی بن أبی طالب علیه السلام فقال: «بماذا تتفاخران؟»

فقال العباس: لقد اوتیت من الفضل ما لم یؤت أحد: سقایة الحاج.

وقال شیبة: أوتیت عمارة المسجد الحرام.

فقال علی علیه السلام: «استحییت لکما، فقد اوتیت علی صغری ما لم تؤتیا!»

فقالا: وما اوتیت یا علی؟

قال: «ضربت خراطیمکما بالسیف حتی آمنتما باللّه ورسوله!»

فقام العباس مغضباً یجرّ ذیله حتی دخل علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله وقال: أما تری إلی ما یستقبلنی به علی؟

فقال: «أدعو لی علیّاً». فدعی له فقال: «ما حملک علی ما استقبلت به عمّک؟» فقال: «یا رسول اللّه! صدمته بالحق، فمن شاء فلیغضب ومن شاء فلیرض!»

فنزل جبرائیل علیه السلام فقال: یا محمّد، إنّ ربّک یقرأ علیک السلام ویقول: اتل علیهم:

«أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجّ» الآیات. فقال العباس: إنّا قد رضینا؛ ثلاث مرات.

التّفسیر

مقیاس الفخر والفضل: مع أنّ للآیات– محل البحث– شأناً فی نزولها، إلّاأنّها فی الوقت

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۳

ذاته تستکمل البحث الذی تناولته الآیات المتقدمة، ونظیر ذلک کثیر فی القرآن. فالآیة الاولی من هذه الآیات تقول: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَايَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

ویحدثنا التاریخ أنّ منصب «سقایة الحاج» قبل الإسلام کان من أهم المناصب وکان یضاهی منصب سدانة الکعبة.

أمّا الآیة التالیة فتوضح ما أجملته الآیة السابقة وتؤکّده بالقول: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ».

وأمّا الآیة الثالثة– من الآیات محل البحث– فتقول: إنّ اللّه أنعم علی المؤمنین والمهاجرین والمجاهدین فی سبیله ثلاث مواهب هی:

۱– «يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ».

۲– «وَرِضْوَانٍ».

۳– «وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ».

وتعقب الآیة الأخیرة لمزید التوکید بالقول: «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَ إِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ وَ إِخْوَانُكُمْ وَ أَزْوَاجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَ تِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَ مَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) کل شیء فداء للهدف: إنّ آخر وسوسة أو ذریعة یمکن أن یتذرع بها جماعة من المسلمین للامتناع عن جهاد المشرکین (وفعلًا فقد تذرع بعضهم

وفقاً لما ورد فی قسم من التفاسیر) بأنّ من بین المشرکین وعبدة الأوثان أقارب لهم، فإذا کان القرار أن یجاهد الجمیع المشرکین فلابدّ أن یغمضوا أعینهم عن أرحامهم وأقاربهم وعشیرتهم الخ. هذا کله من جهة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۴

ثم ومن جهة اخری کانت رؤوس الأموال والقدرة التجاریة بید المشرکین تقریباً، ولهذا یسبب تردد المشرکین إلی مکة إزدهار التجارة.

ومن جهة ثالثة کان للمسلمین فی مکة بیوت عامرة نسبیاً، فإذا قاتلوا المشرکین فمن المحتمل أن یهدمها المشرکون، أو تفقد قیمتها إذا عطل المشرکون مراسم الحاج ومناسکه بمکة. فالآیتان- محل البحث- ناظرتان إلی مثل هؤلاء الأشخاص، وتردّان علیهم ببیان صریح، فتقول الآیة الاولی منهما: «یَا أَیُّهَا الَّذِینَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا ءَابَاءَکُمْ وَإِخْوَانَکُمْ أَوْلِیَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْکُفْرَ عَلَی الْإِیمنِ».

ثم تعقب- علی وجه التأکید- مضیفة: «وَمَن یَتَوَلَّهُم مِّنکُمْ فَأُولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

وأیّ ظلم أسوأ من أن یظلم الإنسان نفسه بتعلقه بأعداء الحق والمشرکین، ویظلم مجتمعه، ویظلم نبیّه أیضاً؟!

أمّا الآیة التالیة فهی تتناول هذا الموضوع بنحوٍ من التفصیل والتأکید والتهدید والتقریع، فتخاطب النبی صلی الله علیه و آله لیعنّف اولئک الذین لا یرغبون فی جهاد المشرکین لما ذکرناه آنفاً، فتقول: «قُلْ إِن کَانَ ءَابَاؤُکُمْ وَأَبْنَاؤُکُمْ وَإِخْوَانُکُمْ وَأَزْوَاجُکُمْ وَعَشِیرَتُکُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ کَسَادَهَا وَمَسَاکِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَیْکُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِی سَبِیلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّی یَأْتِیَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ».

ولما کان ترجیح مثل هذه الامور علی رضا اللّه والجهاد فی سبیله، یعدّ نوعاً من العصیان والفسق البیّن، وإنّ من تشبث قلبه بالدنیا وزخرفها وزبرجها غیر جدیر بهدایة اللّه، فإنّ الآیة تعقب فی الختام قائلة: «وَاللَّهُ لَایَهْدِی الْقَوْمَ الْفَاسِقِینَ».

ما قرأناه فی الآیتین- محل البحث- لیس مفهومه قطع علائق المحبة بین الأرحام، وإهمال رؤوس الأموال الاقتصادیة، والإنسیاق إلی تجاوز العواطف الإنسانیة وإلغائها، بل المراد من ذلک أنّه ینبغی أن لا ننحرف عند مفترق الطرق إلی الأموال والأزواج والأولاد والدور والمقام الدنیوی، بحیث لا نطبّق فی تلک الحالة حکم اللّه، أو لا نرغب فی الجهاد، ویحول عشقنا المادی دون تحقیق الهدف المقدس.

لهذا یلزم علی الإنسان إذا لم یکن علی مفترق الطرق أن یرعی الجانبین «العلاقة باللّه والعلاقة بالرحم».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۵

فعلینا أن نغرس مدلول هاتین الآیتین فی قلوب اطفال المسلمین وشبابهم ونجعله شعاراً لنا، ونحیی فی نفوس المسلمین روح التضحیة والجهاد، لیحافظوا علی ثقافتهم وموروثهم المعرفی.

لَقَدْ نَصَرَکُمُ اللَّهُ فِی مَوَاطِنَ کَثِیرَةٍ وَ یَوْمَ حُنَیْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْکُمْ کَثْرَتُکُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْکُمْ شَیْئاً وَ ضَاقَتْ عَلَیْکُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّیْتُمْ مُدْبِرِینَ (۲۵) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَکِینَتَهُ عَلَی رَسُولِهِ وَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَ عَذَّبَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ذَلِکَ جَزَاءُ الْکَافِرِینَ (۲۶) ثُمَّ یَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِکَ عَلَی مَنْ یَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۲۷) الکثرة وحدها لا تجدی نفعاً: فی الآیات المتقدمة رأینا أنّ اللّه سبحانه یدعوا المسلمین إلی التضحیة والجهاد علی جمیع الصعد فی سبیل اللّه وقلع جذور الشرک وعبادة الأوثان، ویهدد بشدة من یتقاعس منهم عن الجهاد والتضحیة بسبب التعلق بالأزواج والأولاد والأرحام والعشیرة والمال والثروة. أمّا الآیات محل البحث فتشیر إلی مسألة مهمة، وهی أنّ علی کل قائد أن ینبّه أتباعه فی اللحظات الحساسة بأنّه إذا کان فیهم بعض الأشخاص من ضعاف الایمان والذین یحجبهم التعلق بالمال والولد والأزواج وما إلی ذلک عن الجهاد فی سبیل اللّه، فلا ینبغی أن یقلق المؤمنون المخلصون من هذا الأمر، وعلیهم أن یواصلوا طریقهم، لأنّ اللّه لم یتخلّ عنهم یوم کانوا قلة، کما هو الحال فی معرکة بدر، ولا یوم کانوا کثرة ملء العین (کما فی معرکة حنین) وقد أعجبتهم الکثرة فلم تغن عنهم شیئاً، لکن اللّه سبحانه أنزل جنوداً لم تروها، وعذب الذین کفروا،

فاللَّه فى الحالين ينصر المؤمنين ويرسل إليهم مدده ... لهذا فإنّ الآية الاولى من الآيات محل البحث تقول: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ».

ثم تضيف الآية معقبة: «وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيًا». وكان جيش المسلمين يوم حنين زهاء اثنى عشر ألفاً، وهذا الرقم لم يسبق له مثيل فى الحروب الإسلامية قبل ذلك الحين، حتى إغتر بعض المسلمين وقالوا: «لن نُغلب اليوم».

إلّا أنّه قد فرّ كثير من المسلمين ذلك اليوم، لكونهم جديدى عهد بالإسلام ولم يتوغل الإيمان فى قلوبهم فانكسر جيش المسلمين فى البداية وكاد العدو أن يغلبهم لولا أنّ اللَّه أنزل بلطفه مدده وجنوده فنجّاهم.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢٥۶

ويصوّر القرآن هذه الهزيمة بقوله: «وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ».

وفى هذه اللحظات الحساسة حيث تفرق جيش الإسلام هنا وهناك، ولم يبق مع النبى إلّا القلة، وكان النبى مضطرباً ومتألّماً جدّاً لهذه الحالة نزل التأييد الإلهى: «ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا».

ويَذكر القرآن النتيجة النهائية لمعركة حنين الحاسمة فيقول: «وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ». وكان هذا العذاب والجزاء أن قُتل بعض الكافرين، واسر بعضهم، وفرّ بعضهم إلى مناطق بعيدة عن متناول الجيش الاسلامى.

ومع هذا الحال فإنّ اللَّه يفتح أبواب توبته للأسرى والفارين من الكفار الذين يرغبون فى قبول مبدأ الحق «الإسلام» لهذا فإنّ الآية الأخيرة من الآيات محل البحث تقول: «ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وجملة «يتوب» التى وردت بصيغة الفعل المضارع، والتى تدل على الإستمرار، مفهومها أنّ أبواب التوبة والرجوع نحو اللَّه مفتوحة دائماً بوجه التائبين.

غزوة حنين ذات العبرة: «حنين» منطقة قريبة من الطائف، وبما أنّ الغزوة وقعت هناك فقد سمّيت باسم المنطقة ذاتها، وقد عُبّر عنها فى القرآن ب «يوم حنين» ولها من الأسماء:

غزوة أوطاس، وغزوة هوازن أيضاً.

أمّا تسميتها بأوطاس، فلأنّ «أوطاس» أرض قريبة من مكان الغزوة، وأمّا تسميتها بهوازن، فلأنّ إحدى القبائل التى شاركت فى غزوة حنين تُدعى هوازن.

إنّ رؤساء طائفة هوازن جاءوا إلى مالك بن عوف واجتمعوا عنده فى اخريات شهر رمضان أو شوال فى السنة الثامنة للهجرة، وكانوا قد جاءوا بأموالهم وأبنائهم وأزواجهم لئلا يفكر أحدهم بالفرار حال المعركة، وهكذا فقد وردوا منطقة أوطاس.

فعقد النبى صلى الله عليه و آله لواءه، وسلمه علياً عليه السلام.

وكان ألفا شخص قد أسلم فى فتح مكة، فأضيف عددهم إلى العشرة آلاف الذين ساهموا فى فتح مكة، وصاروا حوالى اثنى عشر ألفاً، وتحركوا نحو حنين.

فلما صلّى النبى صلاة الغداة «الصبح» بأصحابه أمر أن ينزلوا إلى حنين، ففوجئوا بهجوم هوازن عليهم من كل جانب وصوب، وأصبح المسلمون مرمى لسهامهم، ففرّت طائفة من

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٢٥٧

المقاتلين جديدى الإسلام (بمكة) من مقدمة الجيش، فكان أن ذُهل المسلمون واضطربوا وفرّ الكثير منهم.

فخلّى اللَّه بين جيش المسلمين وجيش العدو، وترك الجيشين على حالهما، ولم يحم المسلمين لغرورهم- مؤقتاً- حتى ظهرت آثار الهزيمة فيهم.

إلّا أنّ علياً حامل لواء النبى بقى يقاتل فى عدة قليلة معه، فأمر النبى صلى الله عليه و آله عمّه العباس- وكان جهير الصوت- أن يصعد

على تل قريب وينادى: يا معشر المهاجرين والأنصار، يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، إلى أين تفرّون؟ هذا رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

فلّما سمع المسلمون صوت العباس رجعوا وقالوا: لبيك لبيك، ولا سيما الأنصار إذ عادوا مسرعين وحملوا على العدو من كل جانب حملة شديدة، فقتل حوالى مئة شخص من هوازن، وغنم المسلمون أموالهم كما أسروا عدّة منهم.

ونقرأ فى نهاية هذه الحادثة التأريخية أنّ ممثلى هوازن جاءوا النبى وأعلنوا إسلامهم، وأبدى لهم النبى صلى الله عليه و آله صفحه وحبّه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هذَا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۲۸) لا يحق للمشركين أن يدخلوا المسجد الحرام: قلنا: إنّ واحداً من الامور الأربعة التى بلّغها الإمام على عليه السلام فى موسم الحج فى السنة التاسعة للهجرة، هو أنّه لا يحق لأحد من المشركين دخول المسجد الحرام، أو الطواف حول البيت، فالآية محل البحث تشير إلى هذا الموضوع وحكمته، فتقول أوّلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هذَا».

ثم تعقب الآية على ذوى النظرة السطحية الذين كانوا يزعمون بأن المشركين إذا انقطعوا عن المسجد الحرام ذهبت تجارتهم وغدوا فقراء مغوزين فتقول: «وَإِن خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ».

كما فعل ذلك سبحانه على خير وجه، فباتساع رقعة الإسلام فى عصر النبى صلى الله عليه و آله أخذ سيل الزائرين يتجه نحو بيت اللّه فى مكة، وما زال هذا الأمر مستمراً حتى عصرنا الحاضر حيث أصبحت مكة فى أحسن الظروف فهى بين سلسلة جبال صخرية لا ماء فيها ولا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۸

زرع، لكنها مدينة عامرة، وقد صارت بإذن اللّه مركزاً مهماً للبيع والشراء والتجارة.

ويضيف القرآن فى نهاية الآية قائلًا: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». فكل ما يأمركم به اللّه فهو وفق حكمته، وهو عليم بما سيؤول إليه أمره من نتائج مستقبلية، وهو خبير بذلك.

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صَاغِرُونَ (۲۹) مسؤوليتنا إزاء أهل الكتاب: كان الكلام فى الآيات السابقة عن وظيفة المسلمين إزاء المشركين، أمّا الآية محل البحث (وما يليها من الآى) فتبيّن تكليف المسلمين ووظيفتهم إزاء أهل الكتاب. وفى هذه الآيات جعل الإسلام لأهل الكتاب سلسلة من الأحكام تعدّ حدّاً وسطاً بين المسلمين والكفار، لأنّ أهل الكتاب من حيث إتّباعهم لدينهم السماوى لهم شبه بالمسلمين، إلّاأنّهم من جهة اخرى لهم شبه بالمشركين أيضاً.

ولهذا فإنّ الإسلام لا يجيز قتلهم، مع أنّه يجيز قتل المشركين الذين يقفون بوجه المسلمين، لأنّ الخطة تقضى بقلع جذور الشرك والوثنية من الكرة الأرضية، غير أنّ الإسلام يسمح بالعيش مع أهل الكتاب فى صورة ما لو احترم أهل الكتاب الإسلام، ولم يتآمروا ضده، أو يكون لهم إعلام مضاد.

والعلامة الاخرى لموافقتهم على الحياة المشتركة السلمية مع المسلمين هى أن يوافقوا على دفع الجزية للمسلمين، بأن يعطوا كل عام إلى الحكومة الاسلامية مبلغاً قليلًا من المال بحدود وشروط معينة سنتناولها فى البحوث المقبلة إن شاء اللّه.

وفى غير هذه الحال فإنّ الإسلام يصدر أمره بمقاتلتهم، ويوضح القرآن دليل شدة هذا الحكم فى جمل ثلاث فى الآية محل البحث، إذ تقول الآية أوّلًا: «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ».

لكن كيف لا يؤمن أهل الكتاب- كاليهود والنصارى- باللّه وباليوم الآخر، مع أنّنا نراهم فى الظاهر يؤمنون باللّه ويقرون بالمعاد أيضاً؟

والجواب: لأنّ إیمانهم مزیج بالخرافات والأوهام.

ثم تشیر الآیة إلی الصفة الثانیة لأهل الکتاب، فتقول: «وَلَا یُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۵۹

وتذکر الآیة الصفة الثالثه التی کانوا یتصفون بها فتقول: «وَلَا یَدِینُونَ دِینَ الْحَقّ». أی إنّ أدیانهم منحرفة عن مسیرها الأصیل، فنسوا کثیراً من الحقائق والتزموا بکثیر من الخرافات مکانها.

وبعد ذکر هذه الأوصاف الثلاثة، التی هی المسوغ لجهاد المسلمین لأهل الکتاب، تقول الآیة: «مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتَابِ».

ثم تبین الآیة الفرق بین أهل الکتاب والمشرکین فی مقاتلتهم، بالجملة التالیة: «حَتَّی یُعْطُوا الْجِزْیَةَ عَن یَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ».

«الصاغر»: مأخوذ من «الصِغَر» ومعناه الراضی بالذلة. والمراد من الآیة أنّ الجزیة ینبغی أن تُدفع فی حال من الخضوع للإسلام والقرآن.

ما هی الجزیة؟ تُعدّ الجزیة ضریبة مالیة «إسلامیة» وهی تتعلق بالأفراد لا بالأموال ولا بالأراضی. أو بتعبیر آخر: هی ضریبة مالیة سنویة علی الرؤوس. أنّ فلسفة هذه الضرائب أو حکمتها هی الدفاع عن الوطن واستقلاله وأمنه، وهی وظیفة عامة علی جمیع الناس، فبناء علی ذلک متی ما قام جماعة فعلًا بالمحافظة علی الوطن ولم یستطع الآخرون أن یجندوا أنفسهم للدفاع عن الوطن، لأنّهم یکتسبون ویتّجرون- مثلًا- فإنّ علی الجماعة الثانیة أن تقوم بمصارف المقاتلین فتدفع ضرائب سنویة للدولة.

فبناء علی ذلک أنّ الجزیة إعانة مالیة فحسب، یقدمها أهل الکتاب إزاء ما یتحمله المسلمون من مسؤولیة فی الحفاظ علیهم وعلی أموالهم.

وَ قالَتِ الْیَهُودُ عُزَیْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصاری الْمَسِیحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِکَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ یُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّی یُؤْفَکُونَ (۳۰) اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِیحَ ابْنَ مَرْیَمَ وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِیَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا یُشْرِکُونَ (۳۱) یُرِیدُونَ أَنْ یُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ یَأْبَی اللَّهُ إِلَّا أَنْ یُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ کَرِهَ الْکافِرُونَ (۳۲) هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ لَوْ کَرِهَ الْمُشْرِکُونَ (۳۳)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۰

شرک أهل الکتاب: کان الکلام فی الآیات المتقدمة بعد الحدیث عن المشرکین وإلغاء عهودهم وضرورة إزالة دینهم ومعتقداتهم الوثنیة یشیر بعد ذلک إلی أهل الکتاب. وفی الآیات محل البحث بیان لوجه الشبه بین أهل الکتاب والمشرکین، ولا سیما الیهود والنصاری منهم، لیتضح أنّه لو کان بعض التشدد فی معاملتهم، فإنّما هو لانحرافهم عن التوحید، ومیلهم إلی نوع من الشرک فی العقیدة، ونوع من الشرک فی العبادة. فتقول الآیة الاولی من الآیات محل البحث: «وَقَالَتِ الْیَهُودُ عُزَیْرٌ ابنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصرَی الْمَسِیحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِکَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ یُضهُونَ قَوْلَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّی یُؤْفَکُونَ».

من هو عزیر؟ «عزیر» فی لغة العرب هو «عزرا» فی لغة الیهود، فإنّ عزیراً- أو عزرا- له مکانة خاصه فی تاریخ الیهود، حتی أنّ بعضهم زعم أنّه واضع حجر الأساس لُامّة الیهود وبانی مجدهم، وفی الواقع فإنّه خدمةً کبری لدینهم، لأنّ بخت نصر ملک بابل دمر الیهود تدمیراً فی واقعته المشهورة، وجعل مُدُنَهم، تحت سیطرة جنوده فأبادوها، وهدموا معابدهم، وأحرقوا توراتهم، وقتلوا رجالهم، وسبوا نساءهم، وأسروا أطفالهم، وجیء بهم إلی بابل فمکثوا هناک حوالی قرن.

ولمّا فتح کورش ملک فارس بابل جاءه عزرا، وکان من أکابر الیهود، فاستشفعه فی الیهود فشفّعه فیهم، فرجعوا إلی دیارهم وکتب لهم التّوراة- ممّا بقی فی ذهنه من أسلافه الیهود وما کانوا قد حدّثوا به- من جدید. ولذلک فهم یحترمونه أیما احترام، ویعدّونه منقذهم ومحیی شریعتهم. وکان هذا الأمر سبباً أن تلقبه جماعة منهم ب «ابن اللّه».

وفی الآیة التالیة إشارة إلی شرکهم العملی فی قبال الشرک الإعتقادی، أو بعبارة اخری إشارة إلی شرکهم فی العبادة، إذ تقول الآیة: «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِیحَ ابْنَ مَرْیَمَ». «الأحبار» جمع حبر، ومعناه العالم، و «الرهبان» جمع راهب وتطلق

على من ترک دنیاه وسکن الدیر وأکبّ على العبادة.

وممّا لا شک فیه أنّ الیهود والنصارى لم یسجدوا لأحبارهم ورهبانهم، لکن لما کانوا منقادین لهم بالطاعة دون قید أو شرط، بحیث کانوا یعتقدون بوجوب تنفیذ حتى الأحکام المخالفة لحکم اللّه من قبلهم، فالقرآن عبّر عن هذا التقلید الأعمى باتخاذ ربّ.

وفی ختام الآیة تأکید على هذه المسألة، وهی أنّ جمیع هذه العبادات للبشر بدعة، وهی من العبادات الموضوعة: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِیَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّاإِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا یُشْرِکُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۱

إنّ القرآن المجید یعلّم أتباعه فی الآیة محل البحث درساً قیّماً جدّاً، ویبین واحداً من أبرز مفاهیم التوحید فیها، إذ یقول: لا یحق لأیّ مسلم طاعة إنسان آخر دون قید أو شرط، لأنّ هذا الأمر مساو لعبادته، وجمیع الطاعات یجب أن تکون فی إطار طاعة اللّه، وإنّما یصح إتباع الإنسان نظیره متى کانت قوانینه غیر مخالفة لقوانین اللّه، أیّاً کان ذلک الإنسان وفی أیة مکانة أو منزلة.

وفی الآیة الثالثة من الآیات محل البحث تشبیه طریف لسعی الیهود والنصارى، أو سعی جمیع مخالفی الإسلام حتى المشرکین، وجدّهم واجتهادهم المستمر «العقیم» الذی لا یعود علیهم بالنفع أبداً، إذ تقول الآیة: «یُرِیدُونَ أَن یُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَیَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن یُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ کَرِهَ الْکَافِرُونَ».

ولا تعبیر أبلغ من تعبیر القرآن لتجسید هذه المحاولات الیائسة، وفی الواقع فإنّ محاولات مخلوق ضعیف إزاء قدرة اللّه التی لا نهایة لها، لا تکون أحسن حالًا ممّا ذکرته الآیة.

الآیة الأخیرة من الآیات محل البحث فی نهایة المطاف تزف البُشرى للمسلمین باستیعاب الإسلام العالم بأسره، وتکمل ما أشارت إلیه- آنفاً- أنّ أعداء الإسلام لن یفلحوا فی محاولاتهم ومناوآتهم بوجه الإسلام أبداً، وتقول بصراحة: «هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَى الدِّینِ کُلِّهِ وَلَوْ کَرِهَ الْمُشْرِکُونَ».

والمقصود من «الهدى» هو الدلائل الواضحة، والبراهین اللائحة الجلیة التی وُجدت فی الدین الإسلامی.

وأمّا المراد من «دین الحق» فهو هذا الدین الذی اصوله حقة وفروعه حقة أیضاً، وکل ما فیه من تاریخ وبراهین ونتائج حق، ولا شک أنّ الدین الذی محتواه حق، ودلائله وبراهینه حقة، وتأریخه حق جلی، لابدّ أن یظهر على جمیع الأدیان.

وبمرور الزمان وتقدم العلم وسهولة الإرتباطات، فإنّ الواقع سیکشف وجهه ویطلعه من وراء سُدُل الإعلام المضللة، وستزول کل العقبات والموانع والسدود التی وضعت فی طریق انتشار الإسلام.

وهکذا فإنّ دین الحق سیستوعب کل مکان، ولا یحول بینه وبین تقدمه شیء أبداً، لأنّ الحرکات المضادة للإسلام حرکات مخالفة لسیر التاریخ وسنن الخلق.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۲

القرآن وظهور المهدی: إنّ الآیة محل البحث عینها وبالالفاظ ذاتها، وردت فی سورة الصف، الآیة (۹) کما وردت فی الآیة (۲۸) من سورة الفتح باختلاف یسیر؛ والآیة تخبر عن حدث مهمّ کبیر استدعت أهمّیته هذه أن تتکرر الآیة فی القرآن، وهذا الحدث الذی أخبرت عنه الآیة هو استیعابُ الإسلام للعالم بأسره.

فمفهوم الآیة إنتصار الإسلام کلیاً- ومن جمیع الجهات- على جمیع الأدیان، ومعنى هذا الکلام أنّ الإسلام سیُهیمن على الکرة الأرضیة عامة، وسینتصر على جمیع العالم.

ینقل الشیخ الصدوق رحمه الله فی کتابه إکمال الدین عن الإمام الصادق علیه السلام فی تفسیر هذه الآیة أنّه قال: «واللّه ما نزل تأویلها بعدُ، ولا ینزل تأویلها حتى یخرج القائم، فإذا خرج القائم لم یبق کافر باللّه العظیم».

کما فی تفسیر مجمع البیان عن الإمام الباقر علیه السلام أنّه قال: «إنّ ذلک یکون عند خروج المهدی من آل محمّد، فلا یبقى أحد

إلّاأقرّ بمحمّد».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَ الرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (۳۴) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (۳۵) كنز الأموال: كان الكلام فى الآيات المتقدمة عن أعمال اليهود والنصارى المشوبة بالشرك، إذ كانوا يعبدون الأحبار والرهبان من دون اللَّه. الآية الاولى محل البحث تقول: إنّ اولئك مضافاً إلى كونهم غير جديرين بالالوهية فهم غير جديرين بقيادة الناس أيضاً، وخير دليل على ذلك أعمالهم المتناقضة المضطربة. فالآية هنا تلتفت نحو المسلمين فتخاطبهم بالقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ».

لكن كيف يأكلون أموال الناس دون مسوّغ أو مجوز، فقد أشرنا سابقاً إلى ذلك فى آيات اخرى كما ورد فى التاريخ شيء منه أيضاً، وذلك:

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۶۳

أوّلًا: إنّهم كتموا حقائق التعاليم التى جاء بها موسى عليه السلام فى توراته وعيسى عليه السلام فى إنجيله، لئلا يميل الناس إلى الدين الجديد، «الدين الإسلامى» فتنقطع هداياهم وتغدو منافعهم فى خطر، كما أشارت إلى ذلك الآيات (۴۱) و (۷۹) و (۱۷۴) من سورة البقرة.

والثانى: إنّهم بأخذهم «الرشوة» كانوا يقلبون الحق باطلًا والباطل حقاً، وكانوا يحكمون لصالح الأقوياء، كما أشارت إلى ذلك الآية (۴۱) من سورة المائدة.

ومن أساليبهم غير المشروعة فى أخذ المال هو ما يسمّى ب «صكوك الغفران وبيع الجنة» فكانوا يتسلمون أموالًا باهظة من الناس.

وأمّا صدّهم عن سبيل اللَّه فهو واضح، لأنّهم كانوا يحرفون آيات اللَّه، أو أنّهم كانوا يكتمونها رعاية لمنافعهم الخاصة.

وتعقيباً على موضوع حب اليهود والنصارى لدنياهم وأكل المال بالباطل، فإنّ القرآن يتحدث عن قانون كلى فى شأن أصحاب المال وذوى الثراء، الذين يكنزون أموالهم، فيقول:

«وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشّرهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

فالآية محل البحث تحرم الكنز وجمع المال، والثروة، وتأمر المسلمين أن ينفقوا أموالهم فى سبيل اللَّه وما فيه نفع عباد اللَّه، وأن يتجنبوا كنزها ودفنها وإبعادها عن تحرك السوق، وإلّا فلينتظروا «العذاب الأليم».

وهذا العذاب الأليم ليس جزاءهم فى يوم القيامة فحسب، بل يشملهم فى الدنيا- لإرباكهم الحالة الاقتصادية ولإيجاد الطبقية بين الناس «الفقير والغنى» أيضاً.

متى يعدّ جمع الثروة كنزاً؟ وفق كثير من الروايات أنّه يجب على الإنسان دفع زكاته سنوياً لا- غير، فإذا دفع الإنسان زكاة سنته فلا يكون مشمولًا بحكم الكنز وإن جمع المال؟

ففى تفسير المنار عن ابن عباس قال: لمّا نزلت هذه الآية «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ» كبر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منا لولده ما لا يبقى بعده، ثم سألوا النبى صلى الله عليه و آله فقال: «إنّ اللَّه لم يفرض الزكاة إلّاليطيب بها ما بقى من أموالكم، وإنّما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم».

إلّا أنّنا نقرأ روايات اخرى فى المصادر الإسلامية لا تنسجم ظاهراً- ولأوّل وهلة- والتفسير الآنف الذكر، ومنها ما ورد- فى تفسير مجمع البيان- عن الإمام على عليه السلام أنّه قال:

«ما زاد على أربعة آلاف «۱» فهو كنز أدّى زكاته أو لم يؤدّ، وما دونها فهو نفقة».

(۱) المقصود بها أربعة آلاف درهم لأنّها مخارج السنة.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۶۴

ويمكن الإستنتاج من مجموع الأحاديث- آنفة الذكر- منضمةً إليها الآية محل البحث، أنّه فى الظروف الاعتيادية المألوفة، حيث يرى الناس آمنين، أو غير محدق بهم الخطر، والمجتمع فى حال مستقر، فيكفى عندئذ دفع الزكاة وما تبقى لا يعد كنزاً.

وأمّا فى الحالات غيرالطبيعية وغير الاعتيادية، وعندما يقتضى حفظ مصالح المجتمع الإسلامى ذلك، فإنّ الحكومة الإسلامية، تحدّد لجمع المال مقداراً، كما مرّ فى حديث الإمام على عليه السلام أو تطالب الناس بالكنوز وما جمعوه من المال كلياً.

جزاء من يكنز: فى الآية التالية إشارة إلى واحد ممّا يحيق بمثل هؤلاء ممّن يكنز المال، فى العالم الآخر، إذ تقول الآية: «يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ».

ويخاطبهم ملائكة العذاب وهم فى هذه الحال: «هذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ».

وهذه الآية تؤكّد مرّة اخرى هذه الحقيقة، وهى أنّ أعمال الإنسان لا تمضى سدى، بل تبقى وتتجسّد له يوم القيامة، وتكون مدعاة سروره أو مدعاة شقائه.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِى كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (۳۶) إِنَّمَا النَّسِىءُ زِيَادَةٌ فِى الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (۳۷) وقف القتال الإجبارى: لما كانت هذه السورة تتناول أبحاثاً مفصلةً حول قتال المشركين، فالآيتان محل البحث تشيران إلى أحد مقررات الحرب والجهاد فى الإسلام، وهو إحترام الأشهر الحرم. فتقول الآية الاولى: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمواتِ وَالْأَرضَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۶۵

والتعبير ب «كتاب اللَّه» إشارة إلى كتاب الخلق وعالم الوجود.

فمنذ ذلك اليوم الذى استقرت عليه المجموعة الشمسية بنظامها الخاص حدثت السنين والأشهر، فالسنة عبارة عن دوران الأرض حول الشمس دورة كاملة والشهر دوران القمر حول الأرض دورة كاملة.

ثم تضيف الآية- آنفة الذكر- معقبّة: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ».

ثم تضيف الآية مؤكّدة: «ذلِكَ الدّينُ الْقَيّمُ».

ويستفاد من بعض الروايات أنّ تحريم القتال فى هذه الأشهر الحرم، كان مشرّعاً فى الديانة اليهودية والمسيحية وسائر الشرائع السماوية، إضافة إلى شريعة إبراهيم الخليل عليه السلام.

ثم تقول الآية: «فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ».

إلّا أنّه لما كان تحريم هذه الأشهر قد يتخذ ذريعة من قبل العدو لمهاجمة المسلمين فيها، فقد عقبت الآية بالقول: «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً». فبالرغم من أنّ هؤلاء مشركين، والشرك أساس التشتت والتفرقة، إلّاأنّهم يقاتلونكم فى صف واحد «كافة» فينبغى عليكم أن تقاتلوهم كافة، فذلك منكم أجدر لأنّكم موحدون فلابد من توحيد كلمتكم أمام عدوكم ولتكونوا كالبنيان المرصوص.

وتختتم الآية بالقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ».

وفى الآية الثانية- من الآيتين محل البحث- إشارة إلى إحدى السنن الخاطئة فى الجاهلية، وهى سنة النسىء «تغيير الأشهر الحرم» إذ تقول الآية: «إِنَّمَا النَّسِىءُ زِيَادَةٌ فِى الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا» ففى أحد الاعوام يقرّرون حليّة الشهر الحرام ويحرمون أحد الأشهر

الحلال للمحافظة على العدد أربعة «يُحِلّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللّهُ». فهؤلاء يضيعون بتصرفهم هذا فلسفة تحريم الأشهر، ويتلاعبون بحكم اللّه بحسب ما تمليه عليهم أهوائهم، والعجيب أنّهم يرضون عن عملهم، وفعلهم هذا كما تقول الآية: «زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ». فهم يغيرون الأشهر الحرم ويبدلونها، ويعدّون ذلك تدبيراً لحياتهم ومعاشهم، أو يتصورون أنّ طول فترة إيقاف القتال يقلل من حماس المقاتلين فلابد من إثارة الحرب.

فاللّه سبحانه إذا علم أنّ فى عباده من ليس أهلًا للهداية والتوفيق، خلاه ونفسه: «وَاللّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكافِرِينَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۶۶

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللّهِ اثّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِى الْآخِرَةِ إِلّا قَلِيلٌ (۳۸) إِنْ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَ اللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۳۹)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قالوا لما رجع رسول اللّه صلى الله عليه و آله من (الطائف)، أمر بالجهاد لغزوة الروم، وذلك فى زمان إدراك الثمار، فأحبّوا المقام فى المسكن والمال، وشقّ عليهم الخروج إلى القتال، وكان صلى الله عليه و آله قلّما خرج فى غزوة إلّاكنّى عنها وورّى بغيرها إلّا (غزوة تبوك)، لبعد شقتها، وكثرة العدو، ليتأهب الناس، فأخبرهم بالذى يريد، فلما علم اللّه سبحانه تثاقل الناس، أنزل الآية.

التّفسير

كما أشرنا آنفاً فى شأن نزول الآيتين، فإنّهما نزلتا فى غزوة «تبوك».

وتبوك منطقة بين المدينة والشام، وتعدّ الآن من حدود الحجاز، وكانت آنئذ على مقربة من أرض الروم الشرقية المتسلطة على الشامات «۱».

وقد حدثت هذه الواقعة فى السنة التاسعة للهجرة، أى بعد سنة من فتح مكة تقريباً.

ففى الآية الاولى- من الآيتين محل البحث- يدعو القرآن المسلمين إلى الجهاد بلسان الترغيب تارة وبالعتاب تارة اخرى وبالتهديد ثالثة فهو يدعوهم ويهيؤهم إلى الجهاد، ويدخل إليهم من كل باب. إذ تقول الآية: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللّهِ اثّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ».

ثمّ تقول الآية مخاطبة إيّاهم بلهجة الملامة: «أَرَضِيتُم بِالْحَيوةِ الدُّنْيا مِنَ الْأَخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَيوةِ الدُّنْيا فِى الْأَخِرَةِ إِلّا قَلِيلٌ».

فكيف يتسنى للإنسان العاقل أن يساوم مساومة الخسران، وكيف يعوّض متاعاً غالياً

(۱) الفاصلة بين تبوك والمدينة ۶۱۰ كم والفاصلة بينها وبين الشام ۶۹۲ كم.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۶۷

لا يزول بمتاع زائل لا يعد شيئاً؟!

ثم تتجاوز الآية مرحلة الملامة والعتاب إلى لهجة أشدّ وأسلوب تهديدى جديد، فتقول:

«إِلّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيمًا».

فإذا كنتم تتصورون أنّكم إذا توليتم وأعرضتم عن الذهاب إلى سوح الجهاد، فإنّ عجلة الإسلام ستتوقف وينطفىء نور الإسلام، فأنتم فى غاية الخطأ واللّه غنى عنكم «وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ» قوماً أفضل منكم من كل جهة، لا من حيث الشخصية فحسب، بل من حيث الإيمان والإرادة والشهامة والإستجابة والطاعة «وَلا تَضُرُّوهُ شَيًا».

وهذه حقيقة وليست ضرباً من الخيال أو أمنية بعيدة المدى، فاللّه عزيز حكيم: «واللّهُ عَلى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

إِنْ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۴۰) المدد الإلهی للرسول فی أشد اللحظات: کان الکلام فی الآیات المتقدمة عن موضوع الجهاد ومواجهة العدو، وکما أشرنا فقد جاء الکلام عن الجهاد مؤکّداً بعدّة طرق، من ضمنها أنّه لا- ینبغی أن تتصوروا أنّکم إذا تقاعستم من الجهاد ونصرة النبی صلی الله علیه و آله فستذهب دعوته والإسلام أدراج الریاح. فالآیة محل البحث تعقّب علی ما سبق لتقول: «إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ».

وکان ذلک عندما تآمر مشرکو مکة علی اغتیال النبی صلی الله علیه و آله وقتله، وقد مرّ بیان ذلک فی ذیل الآیة (۳۰) من سورة الأنفال بالتفصیل.

ولکن النبی صلی الله علیه و آله اطّلع- بأمر اللَّه- علی هذه المکیدة، فتهیأ للخروج من (مکة) والهجرة إلی (المدینة).

وقد سعی الأعداء سعیاً حثیثاً للعثور علی النبی، إلّاأنّهم عادوا آیسین، وبعد بضعة أیّام وصل صلی الله علیه و آله المدینة سالماً، وبدأت مرحلة جدیدة من تأریخ الإسلام هناک.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۸

فالآیة آنفة الذکر تشیر إلی أشدّ اللحظات حرجاً فی هذا السفر التاریخی، فتقول: «إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» وبالطبع فإنّهم لم یریدوا إخراجه بل أرادوا قتله، لکن لما کانت نتیجة المؤامرة خروج النبی صلی الله علیه و آله من مکة فراراً منهم، فقد نسبت الآیة إخراجه إلیهم.

ثم تقول: کان ذلک فی حال هو «ثَانِيَ اثْنَيْنِ».

وهذا التعبیر إشارة إلی أنّه لم یکن معه فی هذا السفر الشاق إلّارجل واحد، وهو أبو بکر «إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ». أی غار ثور، فاضطرب أبو بکر وحزن فأخذ النبی صلی الله علیه و آله یسرّی عنه، وکما تقول الآیة: «إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَاتَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا».

ولعل هذه الجنود الغیبیة هی الملائکة التی حفظت النبی صلی الله علیه و آله فی سفره الشاق المخیف، أو الملائکة التی نصرته فی معرکتی بدر وحنین وأضرابهما.

«وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا».

وهی إشارة إلی أنّ مؤامراتهم قد باءت بالخیبة والفشل وحبطت أعمالهم وآراؤهم، وشعّ نور اللَّه فی کل مکان، وکان الإنتصار فی کل موطن حلیف محمّد صلی الله علیه و آله، ولم لا- یکون الأمر کذلک «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». فبعزته وقدرته نصر نبیه، وبحکمته أرشده سبل الخیر والتوفیق والنجاح.

انْفِرُوا خِفَافاً وَ ثِقَالًا وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴۱) لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَ لَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (۴۲) الکسالی الطامعون: قلنا: إنّ معرکة تبوک کانت لها حالة استثنائیة، وکانت مقترنة بمقدمات معقّدة وغامضة تماماً، ومن هنا فإن عدداً من ضعاف الإیمان أو المنافقین أخذ «یتعلّل» فی الإعتذار عن المساهمة فی هذه المعرکة. وقد وردت فی الآیات المتقدمات ملامة للمؤمنین من قبل اللَّه سبحانه، وتعقیباً علی هذا الکلام یدعو المؤمنین جمیعاً مرّة اخری- دعوة عامة- نحو الجهاد ویعنف المتسامحین فیقول سبحانه: «انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۶۹

«الخفاف»: جمع الخفیف؛ «الثقال»: جمع الثقیل، ولهاتین الکلمتین مفهوم شامل یستوعب جمیع حالات الإنسان. أی انفروا فی أیّة حالة کنتم شباباً أم شیوخاً، تعولون أحداً أم لا تعولون، أغنیاءً أم فقراء، أصحابَ تجارة أو زراعة أم لستم من اولئک.

ثم تضيف الآيـة قائلـة: «وَجَاهِـدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِـكُمْ فِى سَبِيـلِ اللَّهِ». أى جهاداً مطلقاً عاماً من جميع الجهات، لأنّهم كانوا يواجهون عدوّاً قويّاً مستكبراً.

ولئلا يتوهّم أحد أنّ هذه التضحية يريدها اللّه لنفسه ولا تنفع أصحابها، فإنّ الآية تضيف قائلة: «ذلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ». أى إن كنتم تعلمون بأنّ الجهاد مفتاح عزتكم ورفعتكم ومنعتكم.

وإن كنتم تعلمون بـأنّ سبيـل الوصول إلى مرضـاة اللّه والسعادة الأبديـة وأنواع النعم والمواهب الإلهيـة، كـل ذلـك إنّما هو فى هـذه النهضة المقدسة العامة والتضحية المطلقة.

ثم يتناول القرآن ضعاف الإيمان الكسالى الـذين يتشبثون بالحجج الواهية للفرار من ساحة القتال، فيخاطب النبى مبيّناً واقعهم فيقول: «لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ» (۱).

والعجيب أنّهم لاـ يكتفون بالأعـذار الواهيـة، بل «وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ». فعـدم ذهابنا إلى ساحات القتال إنّما هو لضعفنا وعدم اقتدارنا وابتلائنا! «يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ».

فهم قـادرون على الـذهاب إلى ساحـات القتـال، لكن حيث إنّ السفر ذو مشـقة، ويواجهون صـعوبةً وحرجاً، فإنّهم يتشبثون بالكـذب والباطـل. ولـم يكن هـذا الأمـر منحصـراً بغزوة تبـوك وعصـر النبى صـلى الله عليه و آله فحسب، ففى كـل مجتمـع فئـة من الكسالى والمنـافقين والطـامعين والانتهازيين الـذين ينتظرون لحظات الإنتصار ليقحموا أنفسهـم فى الصـفوف الاولى، ويصـرخوا بعالى الصوت أنّهم المجاهدون الأوائل والمخلصون البواسل، ليصادروا ثمرات جهود الآخرين فى إنتصارهم دون أن يبذلوا أىّ جهد!

غير أنّ هؤلاـء «المجاهـدين» المخلصـين! كمـا يزعمون، حين يواجهون الشدائـد والأزمـات يلوذون بالفرار ويتشبثون بالأعـذار الباطلة والحجج الواهية، كأن يقول أحدهم: إنّى

---

(۱) «العَرَض»: ما يعرض ويزول عاجلًا ولا دوام له، ويطلق عادةً على مواهب الـدنيا الماديـة؛ و «القاصد»: معناه السـهل، لأنّه فى الأصـل من قصد، والناس يسعون فى قصدهم إلى المسائل السهلة.

«الشقة»: تعنى الأرض الصخرية أو الطريق الطويل البعيد الذى يجلب على عابره المشقة والنصب.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۷۰

مريض، ويقـول الآـخر: إنّى مبتلىً بطفلى، ويقول الثـالث: زوجى مُقرب وعلى وشـك الولاـدة، ويقول الرابع: يـا ليتنى كنت معكم لولا ضعف فى عينىّ لا أبصر بهما، ويقول الخامس: أنا أتدارك مقدمات الأمر وأنا على أثركم، وهكذا .... إلّا أنّ على القادة والصفوة من الناس أن يعرفوا هذه الفئة من بداية الأمر، وإذا لم يكونوا أهلًا للإصلاح فينبغى إخراجهم وطردهم من صفوف المجاهدين.

عَفَـا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَـكَ الَّذِينَ صَـدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكَـاذِبِينَ (۴۳) لَـا يَسْـتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِـدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِـهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (۴۴) إِنَّمَـا يَسْـتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَـا يُؤْمِنُونَ بِـاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (۴۵) التعرّف على المنافقين: يستفاد من الآيات- محل البحث- أنّ جماعة من المنافقين جاؤوا إلى النبى صلى الله عليه و آله وبعـد أن تذرعوا بحجج واهية مختلفة- حتى أنّهم أقسموا على صدق مدعاهم- إستأذنوا النبى فى الانصراف عن المساهمة فى معركة تبوك، فأذن لهم النبى بالإنصراف. فاللّه سبحانه يعتب على النبى فى الآية الاولى من الآيات محل البحث فيقول:

«عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ».

وهناك كلام طويل بين المفسّرين فى المراد من عتاب اللّه نبيّه المشـفوع بالعفو عنه، أهو دليل على أنّ إذن النبى صـلى الله عليه و آله كان مخالفة، أم هو من باب ترك الاولى؟!

يُحتمل فى تفسير الآيـة هو أنّ العتاب أو الخطاب المذكور آنفاً إنّما هو على سبيل الكناية، ولم يكن فى الأمر حتى «ترك الاولى» بل

المراد بیان روح النفاق فی المنافقین ببیان لطیف وکنایة فی المقام.

ویمکن أن یتّضح هذا الموضوع بذکر مثال، فلنفرض أنّ ظالماً یرید أن یلطم وجه ابنک، إلّا أنّ أحد أصدقائک یحول بینه وبین مراده فیمسک یده، فقد تکون راضیاً عن سلوکه هذا، بل وتشعر بالسرور الباطنی، إلّاأنّک ولإثبات القبح الباطنی للطرف المقابل تقول لصدیقک:

لم لا ترکته یضربه علی وجهه ویلطمه؟ وهدفک من هذا البیان إنّما هو إثبات قساوة قلب هذا الظالم ونفاقه، الذی ورد فی ثوب عتاب الصدیق وملامته من قِبلک.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۷۱

ثم یتناول القرآن أحد علامات المؤمنین والمنافقین، فیقول: «لَایَسْتَذِنُکَ الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْیَوْمِ الْأَخِرِ أَن یُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ».

بل ینهضون مسرعین دون سأم أو ملل عند صدور الأمر بالجهاد ویدعوهم الإیمان باللّه والیوم الآخر ومسؤولیاتهم وإیمانهم بمحکمة القیامة، کل ذلک یدعوهم إلی هذا الطریق ویوصد بوجوههم الأعذار والحجج الواهیة: «وَاللَّهُ عَلِیمٌ بِالْمُتَّقِینَ».

ثمّ یضیف القرآن: «إِنَّمَا یَسْتَذِنُکَ الَّذِینَ لَایُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْیَوْمِ الْأَخِرِ».

ویعقّب مؤکّداً عدم إیمانهم بالقول: «وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِی رَیْبِهِمْ یَتَرَدَّدُونَ».

وهاتان العلامتان لا تختصان بالمؤمنین والمنافقین فی صدر الإسلام ومعرکة تبوک فحسب، بل یمکن فی عصرنا الحاضر أن نمیز المؤمنین الصادقین من المدّعین الکاذبین بهاتین الصفتین. فالمؤمن شجاع ذو إرادة وتصمیم وخطی واثقة، والمنافق جبان وخائف ومتردد وحائر ویبحث عن المعاذیر دائماً.

وَ لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لکِنْ کَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِیلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِینَ (۴۶) لَوْ خَرَجُوا فِیکُمْ ما زادُوکُمْ إِلَّا خَبالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَکُمْ یَبْغُونَکُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِیکُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ بِالظَّالِمِینَ (۴۷) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَکَ الْأُمُورَ حَتَّی جاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ کارِهُونَ (۴۸) عدم وجودهم أفضل: فی الآیة الاولی- من الآیات أعلاه- بیان لعلامة اخری من علائم کذبهم، وهی فی الحقیقة تکمل البحث الوارد فی الآیات المتقدمة آنفاً، إذ جاء فیها «وَاللَّهُ یَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَکَاذِبُونَ». فالآیة محل البحث تقول: «وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً» ولم ینتظروا الإذن لهم: «وَلکِن کَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِیلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِینَ» «۱».

هذا أمر تکوینی نهض من باطنهم المظلم، وإنّه مقتضی عقیدتهم الفاسدة وأعمالهم القبیحة، ویستفاد من الآیة محل البحث أنّ لکل عمل ونیّة اقتضاءً یُبتلی به الإنسان شاء أم

---

(۱) «ثبّطهم»: مشتق من التثبیط ویعنی الوقوف بوجه العمل المزمع إجراؤه بوجه من الوجوه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۷۲

أبی، ولیس لکل أحد قابلیة السیر فی سبیل اللّه وتحمّل الأعباء الکبری، بل هو توفیق من قِبَل اللّه یولیه من یجد فیه طهارة النیة والإستعداد والإخلاص. وفی الآیة التالیة إشارة إلی هذه الحقیقة، وهی أنّ عدم مساهمة مثل هؤلاء الأفراد فی ساحة الجهاد لیس مدعاة للتأثر والأسف فحسب، بل لعله مدعاة للسرور، والآیة تعطی درساً للمسلمین أن لا یکترثوا بکثرة المقاتلین أو قلّتهم وکمیتهم وعددهم، بل علیهم أن یفکروا فی اختیار المخلصین المؤمنین وإن کانوا قلّة، فهذا درس لمسلمی الماضی والحاضر والمستقبل. وتقول الآیة: «لَوْ خَرَجُوا فِیکُم». أی إلی تبوک للقتال «مَّا زَادُوکُمْ إِلَّا خَبَالًا».

فبناءً علی ذلک فإنّ حضورهم بتلک الروحیة الفاسدة المقرونة بالتردد والنفاق لا أثر له سوی إیجاد الشک والتردد وتثبیط العزائم بین جنود الإسلام.

وتضیف الآیة قائلة: «وَلَأَوْضَعُوا خِلَلَکُمْ یَبْغُونَکُمُ الْفِتْنَةَ» (۱).

ثم تنذر المسلمین من المتأثرین بهم فی صفوف المسلمین: «وَفِیکُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ».

فبناءً علی ذلک فإنّ وظیفة المسلمین الراسخین فی الإیمان مراقبت مثل هؤلاء الضعفاء لئلا یقعوا فریسة المنافقین الذئاب. والمراد من السمّاع فی الآیة هو الجاسوس الذی یتجسّس بین المسلمین ویجمع الأخبار للمنافقین.

وتُختتم الآیة بالقول: «وَاللَّهُ عَلِیمٌ بِالظَّالِمِینَ».

وفی آخر آیة من الآیات محل البحث إنذار للنبی صلی الله علیه و آله بأنّ هؤلاء المنافقین لم یبادروا لأوّل مرّة إلی التخریب والتفرقة وبذر السموم، بل ینبغی أن تتذکر- یا رسول اللَّه- أنّ هؤلاء ارتکبوا من قبل مثل هذه الامور وهم یتربصون الفرص الآن لینالوا مُناهم «لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ».

وهذه الآیة تشیر إلی ما جری فی معرکة احد حیث رجع عبداللَّه بن أبی وأصحابه وانسحبوا وهم فی منتصف الطریق، أو أنّها تشیر إلی مؤامرات المنافقین عامة التی کانوا یکیدونها للنبی صلی الله علیه و آله أو للمسلمین، ولم یغفل التاریخ أن یسجلها علی صفحاته.

«وَقَلَّبُوا لَکَ الْأُمُورَ» وخطّطوا للإیقاع بالمسلمین، أو لمنعهم من الجهاد بین یدیک، إلّا أنّ کل تلک المؤامرات لم تفلح، وإنما رَقَموا علی الماء ورشقوا سهامهم علی الحجر «حَتَّی جَاءَ

(۱) «أوضعوا»: من مادة الإیضاع ومعناه، الإسراع فی الحرکة، ومعناه هنا الإسراع فی النفوذ بین صفوف المقاتلین، و «الفتنة»: هنا بمعنی التفرقة واختلاف الکلمة.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۷۳

الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ کَارِهُونَ». غیر أنّ مشیئة العباد وإرادتهم لا أثر لها إزاء مشیئة اللَّه وإرادته، فقد شاء اللَّه أن ینصرک وأن یُبلغ رسالتک إلی أصقاع المعمورة، ویزیل العراقیل والموانع عن منهاجک، وقد فعل.

وَ مِنْهُمْ مَنْ یَقُولُ ائْذَنْ لِی وَ لَا تَفْتِنِّی أَلَا فِی الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَةٌ بِالْکَافِرِینَ (۴۹)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: قیل: إنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لما استنفر الناس إلی تبوک، قال: «إنفروا لعلکم تغنمون بنات الأصفر». فقام جد بن قیس، أخو بنی سلمة من بنی الخزرج، فقال یا رسول اللَّه! ائذن لی، ولا تفتنّی ببنات الأصفر، فإنّی أخاف أن افتتن بهنّ. فقال: «قد أذنت لک». فأنزل اللَّه تعالی «وَمِنْهُم مَّن یَقُولُ ائْذَن لِّی وَلَا تَفْتِنِّی» الآیة.

فلما نزلت هذه الآیة قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لبنی سلمة: «من سیّدکم»؟ قالوا: جدّ بن قیس غیر أنّه بخیل جبان! فقال صلی الله علیه و آله: «وأیّ داء أدوی من البخل، بل سیدکم الفتی الأبیض الجعد بشر بن البراء بن المعرور».

التّفسیر

المنافقون المتذرّعون: یکشف شأن النزول المذکور أنّ الإنسان متی أراد أن یتنصل من تحمل المسؤولیة یسعی للتذرّع بشتی الحیل. فإنّ القرآن یوجه الخطاب للنبی صلی الله علیه و آله لیردّ علی مثل هذه الذرائع المفضوحة قائلًا: «وَمِنْهُم مَّن یَقُولُ ائْذَن لِّی وَلَا تَفْتِنِّی» بالنساء والفتیات الرومیات الجمیلات.

ولکن القرآن یقول مجیباً علیه وأمثاله: «أَلَا فِی الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَةٌ بِالْکَافِرِینَ». أی إنّ أمثال اولئک الذین تذرّعوا بحجّة الخوف من الذنب- هم الآن واقعون فیه فعلًا، وأن جهنم محیطة بهم، لأنّهم ترکوا ما أمرهم اللَّه ورسوله به وراء ظهورهم وانصرفوا عن الجهاد بذریعة الشبهة الشرعیة!

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۷۴

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) فى الآيات- آنفة الذكر- إشارة إلى إحدى صفات المنافقين وعلاماتهم وبهذا تتابع البحث الذى يتناول صفات المنافقين فى ذيل الآيات المتقدمة والآيات اللاحقة.

تقول الآيات أوّلًا: «إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ».

وهذه المساءة دليل على العداوة الباطنية وفقدان الإيمان.

ولكنهم على خلاف هذه الحال عند الشدة والخطب: «وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ».

هؤلاء المنافقون عُمى القلوب ينتهزون أيّة فرصة لصالحهم ومنافعهم، ويزعمون أن ما نالوه كان بتدبيرهم وعقلهم، إذ لم نُساهم فى المعركة الفلانية ولم نقع فى أىّ مأزق! كما ابتلى به الآخرون الذين لم يكن لهم نصيب من التعقل والتدبر، وبهذه المزاعم يعودون إلى أوكارهم وهم يكادون أن يطيروا فرحاً.

ولكنك- يا رسول اللَّه- عليك أن تردّ عليهم بجواب منطقى متين وذلك:

أوّلًا: «قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَنَا». أجلْ فلا يريد بنا إلّاالخير والصلاح: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ». فهم يعشقون اللَّه فحسب، ومنه يطلبون المدد والعون، ويتوكلون عليه ويلتجؤون إليه عند الخطوب.

ثانياً: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ». فإمّا أن نُبير الأعداء فى ساحة الحرب ونُبيدهم ونعود منتصرين، أو نُقتل فننهل ورد الشهادة العذب، فكلاهما محبّب لنا ومصدر افتخارنا.

وهكذا يختلف حالنا عن حالكم، فنحن نتوقع لكم مساءتين: إمّا أن تصيبكم سهام البلايا والمصائب والعقوبات الإلهية سواء فى الدنيا أو الآخرة، أو يكون هلاككم على أيدينا:

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٧٥

«وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ». تربصوا غبطتنا وسعادتنا ونحن نتربص شقاءكم وسوء عاقبتكم.

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ (٥٣) وَ مَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسَالَى وَ لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (٥٥) تشير هذه الآيات إلى قسم آخر من علامات المنافقين وعواقب أعمالهم ونتائجها، وتبيّن بوضوح كيف أن أعمالهم لا أثر لها ولا قيمة، ولا تعود عليهم بأىّ نفع.

ولمّا كان- من بين الأعمال الصالحة- الإنفاق فى سبيل اللَّه «الزكاة بمعناها الواسع» والصلاة «وهى العلاقة بين الخلق والخالق»- لهما موقع خاص، فقد اهتمّت الآيات بهذين القسمين اهتماماً خاصاً. تخاطب الآيات النبى الكريم فتقول: «قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ».

ثم تشير الآية إلى سبب ذلك فتقول: «إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ». فنيّاتكم غير خالصة، وأعمالكم غير طاهرة، وقلوبكم مظلمة، وإنّما يتقبل اللَّه العمل الطاهر من الورع التقى.

والمراد من «الفسق» هنا الكفر والنفاق، أو تلوّث الإنفاق بالرياء والتظاهر.

وفى الآية التالية يوضح القرآن مرّة اخرى السبب فى عدم قبول نفقاتهم فيقول: «وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ».

والقرآن يعوّل كثيراً على أنّ قبول الأعمال الصالحة مشروط بالإيمان، حتى أنّه لو قام الإنسان بعمل صالح وهو مؤمن، ثمّ كفر بعد

ذلک فإنّ الکفر یحبط عمله ولا یکون له أی أثر.

وبعد أن أشار القرآن إلی عدم قبول نفقاتهم، یشیر إلی حالهم فی العبادات فیقول: «وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَوةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى كما أنّهم «وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ».

وأنّ نفقاتهم لا تقبل لسببین:

الأوّل: هو أنّهم «كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۷۶

والثانی: أنّهم إنّما ینفقون عن کره وإجبار.

کما أنّ صلواتهم لا تُقبل لسببین أیضاً:

الأوّل: لأنّهم «كَفَرُوا بِاللَّهِ ...».

والثانی: أنّهم «لَايَأْتُونَ الصَّلَوةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى .

وفی آخر آیة من الآیات محل البحث یتوجه الخطاب نحو النبی قائلًا: «فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَدُهُمْ».

فهی وإن کانت نعمةً بحسب الظاهر، إلّاأنّه: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ».

وفی الواقع فإنّهم یعذبون عن طریقین بسبب هذه الأموال والأولاد، أی القوة الاقتصادیة والإنسانیة:

فالأوّل: إنّ مثل هؤلاء الأبناء لا یکونون صالحین عادة، ومثل هذه الأموال لا برکة فیها، فیکونان مدعاة قلقهم وألمهم فی الحیاة الدنیا، إذ علیهم أن یسعوا لیل نهار من أجل أبنائهم الذین هم مدعاة أذاهم وقلقهم، وأن یجهدوا أنفسهم لحفظ أموالهم التی اکتسبوها عن طریق الإثم والحرام.

والثانی: لما کانوا متعلقین بهذه الأموال والأولاد، ولا یؤمنون بالحیاة بعد الموت ولا بالدار الآخرة الواسعة ولا بنعیمها الخالد، فلیس من الهیّن أن یغمضوا عن هذه الأموال والذریة، وبالتالی یخرجون من هذه الدنیا- بحال مزریة وفی حال الکفر.

فالمال والبنون قد یکونان موهبة وسعادة ومدعاة للرفاه والهدوء والاطمئنان والدعة إذا کانا طاهرین طیبین وإلّا فهما مدعاة العذاب والشقاء والألم.

وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (۵۶) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ (۵۷) علامة اخری للمنافقین: ترسم الآیتان أعلاه حالة اخری من أعمال المنافقین بجلاء، إذ تقول الآیة الاولی: «وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ» ومن شدّة خوفهم وَفرقهم یخفون کفرهم ویظهرون الإیمان.

و الآیة التالیة تصوّر شدّة عداوة المنافقین للمؤمنین ونفورهم منهم، فی عبارة موجزة إلّا أنّها فی غایة المتانة والبلاغة، إذ تقول: «لَوْ يَجِدُونَ مَلْجًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۷۷

فهذه الآیة واحدة من أبلغ الآیات والتعابیر التی یسوقها القرآن فی وصف المنافقین، وبیان هلعهم وخوفهم وبغضهم إخوانهم المؤمنین، بحیث لو کان لهم سبیل للفرار من المؤمنین، ولو علی قمم الجبال أو تحت الأرض، لَولّوا إلیه وهم یجمحون، ولکن ما عسی أن یفعلوا مع الروابط التی تربطهم معکم من القبیلة والأموال والثروة، کل ذلک یضطرهم إلی البقاء علی رغم أنوفهم.

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (۵۸) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (۵۹)

سبب النّزول

فی تفسیر الدرّ المنثور عن أبی سعید الخدری قال: بینما النبی صلی الله علیه و آله یقسم قسماً- وقال ابن عباس: کانت غنائم هوازن

يوم حنين- إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى فقال: اعدل يا رسول اللّه. فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل». فقال عمر: يا رسول اللّه إئذن لى فأضرب عنقه! فقال النبى صلى الله عليه و آله: «دعه فإنّ له أصحاباً يحتقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فينظر فى قذذه فلا يوجد فيه شىء ثم ينظر فى نصله فلا يوجد فيه شىء ...» فنزلت فيهم الآيتان.

التّفسير

الأنانيون السفهاء: فى الآية الاولى أعلاه إشارة إلى حالة اخرى من حالات المنافقين، وهى أنّهم لا يرضون أبداً بنصيبهم. فمتى مُلئت جيوبهم رضوا (عن صاحبهم) ومتى ما اعطوا حقهم وروعى العدل فى ايتاء الآخرين حقوقهم سخطوا عليه. لذا فإنّ الآية تقول: «وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ». لكنهم ينظرون إلى منافعهم الخاصة: «فَإِن أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ».

فهؤلاء يرون أنّ النبى صلى الله عليه و آله غير منصف ولا عادل، ويتهمونه فى تقسيمه المال!

«وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٧٨

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسَاكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِى الرِّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ وَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶۰) موارد صرف الزكاة ودقائقها: فى تاريخ صدر الإسلام مرحلتان يمكن ملاحظتهما بوضوح، إحداهما فى مكة، حيث كان هدف النبى صلى الله عليه و آله والمسلمين فيها تعليم الأفراد وتربيتهم ونشر التعاليم الإسلامية. والثانية فى المدينة، حيث أقدم النبى صلى الله عليه و آله على تشكيل حكومة إسلامية أجرى من خلالها الأحكام والتعاليم الإسلامية.

ومما لا شك فيه أنّ أوّل وأهم مسألة واجهت تشكيل الحكومة هى إيجاد بيت المال، إذ عن طريقه تُؤمّن حاجات الدولة الاقتصادية، وهى حاجات طبيعية توجد فى كل دولة بدون استثناء، ومن هنا كان إيجاد بيت المال من أوائل أعمال النبى صلى الله عليه و آله فى المدينة، وتشكل الزكاة أحد موارده، وعلى المشهور فإنّ هذا الحكم شُرّع فى السنة الثانية للهجرة النبوية.

إنّ الآية التى نبحثها قد بيّنت الموارد الحقيقية التى تصرف فيها الزكاة، وأنهت التوقعات غير المنطقية وحددت موارد صرف الزّكاة فى ثمانية أصناف:

١- الفقراء.

٢- المساكين: وسيأتى البحث عن الفرق بين الفقير والمسكين.

٣- العاملين عليها: وهم الذين يسعون فى جباية الزكاة، وإدارة بيت المال.

۴- المؤلفة قلوبهم: وهم الذين لا يوجد لديهم الحافز والدافع المعنوى القوى من أجل النهوض بالأهداف الإسلامية وتحقيقها، ولكن ويمكن استمالتهم بواسطة بذل المال لهم، والاستفادة منهم فى الدفاع عن الإسلام وتحكيم دولته، وإعلاء كلمته.

وكما جاء فى المباحث الفقهية، فإنّ لهذه الآية، وكذلك للروايات الواردة فى هذا الموضوع مفهوماً واسعاً، ولهذا فإنّها تشمل كل من يمكن استمالته من أجل نفع وتحكيم الإسلام، ولا دليل على تخصيصها بالكفار.

۵- فى الرقاب: وهذا يعنى أن قسماً من الزكاة يخصّص لمحاربة العبودية والرق وإنهاء هذه الحالة غير الإنسانية.

۶- الغارمون: وهم الذين عجزوا عن أداء ديونهم، ولم يكن هذا العجز نتيجة لتقصيرهم.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٢٧٩

٧- فى سبيل اللّه: والمراد منه جميع السبل التى تؤدّى إلى تقوية ونشر الدين الإلهى، وهى أعم من مسألة الجهاد والتبليغ وأمثالها.

٨- ابن السبيل: وهم الذين تخلفوا فى الطريق لعلة ما، وليس معهم من الزاد والراحلة ما يوصلهم إلى بلدانهم أو إلى الجهة التى يقصدونها، حتى ولو لم يكونوا فقراء فى واقعهم، لكنهم افتقروا الآن نتيجة سرقة أموالهم أو مرضهم أو لأسباب أخر.

وفى خاتمة الآية نلاحظ التأكيد على صرفها فى الجهات السابقة، ولذلك قال سبحانه:

«فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ» ولا شك أنّ هذه الفريضة قد حُسبت بصورة دقيقة جدّاً، وبصورة تحفظ مصالح الفرد والمجتمع، لأنّ «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

بحثان

۱- الفرق بين الفقير والمسكين: إنّ «الفقير» هو الشخص الذى يعانى من حاجة مالية فى حياته ومعاشه مع أنّه يعمل ويكتسب، لكنه لا يسأل أحداً مطلقاً رغم حاجته لعفته وعزّة نفسه، أمّا «المسكين» فهو أشد حاجة من الفقير، وهو العاجز عن العمل، فهو مضطر لأنّ يستعطى الناس ويسألهم.

۲- دور الزكاة فى الإسلام: إذا علمنا أنّ الإسلام ظهر إلى الوجود كدين وقانون كامل وشامل عولجت فيه كل الحاجات المادية والمعنوية فى الحياة، وكذلك إذا علمنا أنّ تشكيل وتأسيس الدولة الإسلامية قد لازم ظهور الإسلام منذ عصر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وإذا علمنا أنّ الإسلام يهتم اهتماماً خاصاً بنصرة المحرومين ومكافحة الطبقية فى المجتمع اتضح لنا أنّ دور بيت المال والزكاة التى تشكل أحد موارده، من أهم الأدوار.

لا شك أنّ فى كل مجتمع أفراداً عاجزين عن العمل، مرضى، يتامى، معوقين، وأمثالهم، وهؤلاء يحتاجون حتماً إلى من يحميهم ويرعاهم ويقوم بشؤونهم، وكذلك يحتاج هذا المجتمع إلى جنود مضحين من أجل حفظ وجوده وكيانه، أمّا مصاريف هؤلاء الجنود ونفقاتهم فإنّ الدولة هى التى تلتزم بتأمينها ودفعها إليهم.

وعلى هذا الأساس أولى الإسلام الزكاة- التى تعتبر نوعاً من الضرائب على الإنتاج والأرباح وعلى الأموال الراكدة- اهتماماً خاصاً، حتى أنّه اعتبرها من أهم العبادات، وقد ذكرت- جنباً إلى جنب- مع الصلاة فى كثير من الموارد، بل إنّه اعتبرها شرطاً لقبول الصلاة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۰

مختصر الامثل ج۲ ۳۰۰

وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۶۱)

سبب النّزول

هذا حسن لا قبيح: فى تفسير مجمع البيان قيل: نزلت فى جماعة من المنافقين منهم الجلاس بن سويد بن صامت، وشأس بن قيس وجحش بن حمير ورفاعة بن عبد المنذر وغيرهم، قالوا ما لا ينبغى، فقال رجل منهم: لا تفعلوا فإنّا نخاف أن يبلغ محمّداً ما تقولون، فيوقع بنا. فقال الجلاس: بل نقول ما شئنا، ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول، فإنّ محمّداً اذُن سامعة، فأنزل اللّه الآية.

التّفسير

تتحدّث الآية- كما يفهم من مضمونها- عن فرد أو أفراد كانوا يؤذون النبى صلى الله عليه و آله بكلامهم ويقولون أنّه اذن ويصدّق كل ما يقال له سريعاً: «وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ».

هؤلاء المنافقون اعتبروا هذه الصفة- والتى هى سمة إيجابية للنبى صلى الله عليه و آله والتى يجب توفرها فى أى قائد كامل- نقطة ضعف فى سيرته ومعاملته صلى الله عليه و آله.

من هنا نلاحظ أنّ القرآن قد ردّهم مباشرة، وأمر النبى صلى الله عليه و آله أن يقول لهم بأنّه إذا كان يصغى لكلامكم، ويقبل أعذاركم، أو كما تظنون بأنّه اذن، فإنّ ذلك فى مصلحتكم ولمنفعتكم «قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ». فإنّه بذلك يحفظ ماء وجوهكم وشخصيتكم، ولا يجرح شعوركم وعواطفكم، وبذلك- أيضاً- يسعى لحفظ وحدتكم واتحادكم ومودتكم، ولو أراد أن يرفع الستار عن أفعالكم القبيحة، ويفضح الكاذبين على رؤوس الأشهاد، لضرّكم ذلك وشق عليكم.

ومن أجل أن لا يستغل المتتبعون لعيوب الناس ذلك، ولا يجعلون هذه الصفة وسيلة لتأكيد كلامهم، أضاف اللّه تعالى أنّ النبى صلى الله عليه و آله يؤمن باللّه ويطيع أوامره، ويصغى إلى كلام المؤمنين المخلصين ويقبله ويرتب عليه الأثر، «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ». وهذا يعنى أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان له طريقان واسلوبان فى عمله:

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۱

أحدهما: الحفاظ على الظاهر والحيلولة دون هتك الأستار وفضح أسرار الناس.

والثانى: فى مرحلة العمل، فقد كان صلى الله عليه و آله فى البداية يسمع من كل أحد، ولا ينكر على أحد ظاهراً، أمّا فى الواقع العملى فإنّه لا يعتنى ولا يقبل إلّاأوامر اللّه واقتراحات وكلام المؤمنين المخلصين، والقائد الواقعى يجب أن يكون كذلك فإن تأمين مصالح المجتمع لا يتم إلّا عن هذا الطريق، لذلك عبر عنه بأنّه رحمة للمؤمنين: «وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ».

بقى هنا شىء واحد، وهو أنّ هؤلاء الذين يؤذون النبى صلى الله عليه و آله بكلامهم ويتتبعون أحواله لعلّهم يجدون عيباً يشهّرون به يجب أن لا- يتصوروا أنّهم سوف يبقون بدون جزاء وعقاب، ولهذا قال تعالى فى نهاية الآية: «وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (۶۲) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (۶۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: لمّا نزلت الآيات التى ذمت المتخلفين عن غزوة تبوك ووبختهم قالوا المنافقين: لئن كان ما يقول محمّد حقّاً فنحن شرٌّ من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس، فقال: واللّه إنّ ما يقول محمّد حق، وأنتم شرٌّ من الحمير، ثم أتى النبى صلى الله عليه و آله فأخبره فدعاهم فسألهم فحلفوا أنّ عامراً كذّاب، فنزلت الآية.

التّفسير

المنافقون والتظاهر بالحق: إنّ إحدى علامات المنافقين وأعمالهم القبيحة والتى أشار إليها القرآن مراراً هى إنكارهم الأعمال القبيحة والمخالفة للدين والعرف، وهم إنّما ينكرونها من أجل التغطية على واقعهم السىء وإخفاء الصورة الحقيقية لهم، ولما كان المجتمع يعرفهم ويعرف كذبهم فى هذا الإنكار فقد كانوا يلجؤون إلى الأيمان الكاذبة من أجل مخادعة الناس وإرضائهم.

وفى الآيات السابقة الذكر نرى أنّ القرآن المجيد يكشف الستار عن هذا العمل القبيح ليفضح هؤلاء من جهة، ويحذّر المسلمين من تصديق الأيمان الكاذبة من جهة اخرى. فى البداية يخاطب القرآن الكريم المسلمين وينبههم إلى أنّ هدف هؤلاء من القَسَم هو إرضاؤكم «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۲

فلو كان هدفهم هو إرضاء المؤمنين الحقيقيين عنهم، فإنّ إرضاء اللّه ورسوله أهم من إرضاءالمؤمنين، غير أنا نرى أنّهم بأعمالهم هذه قد أسخطوا اللّه ورسوله، ولذا عقبت الآية فقالت: «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ».

وفى الآية الثانية نرى أنّ القرآن يهدد المنافقين تهديداً شديداً، فقال: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا».

ومن أجل أن يؤكّد ذلك أضاف تعالى: «ذلِكَ الْخِزْىُ الْعَظِيمُ».

«يحادد»: مأخوذ من «المحادّة» وأصلها «حدّ»، ومعناها نهاية الشىء وطرفه، ولما كان الأعداء والمخالفون يقفون فى‌الطرف الآخر المقابل، لذا فإنّ مادة «المحادّة» قد وردت بمعنى العداوة أيضاً.

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (۶۴) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا

نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (۶۵) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (۶۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى إثنى عشر رجلًا وقفوا على العقبة، ليفتكوا برسول اللَّه صلى الله عليه و آله عند رجوعه من تبوك، فأخبر جبرئيل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بذلك وأمره أن يرسل إليهم ويضرب وجوه رواحلهم.

وعمار كان يقود دابة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وحذيفة يسوقها، فقال لحذيفة: إضرب وجوه رواحلهم فضربها حتى نحاهم. فلما نزل قال لحذيفة: من عرفت القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحداً. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إنّه فلان وفلان حتى عدّهم كلهم فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: «أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم».

التّفسير

يستفاد من الآية الاولى أنّ اللَّه سبحانه وتعالى يكشف الستار عن أسرار المنافقين

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۳

أحياناً، وذلك لدفع خطرهم عن النبى صلى الله عليه و آله وفضحهم أمام الناس ليعرفوا حقيقتهم، ويحذروهم وليعرف المنافقون موقع اقدامهم ويكفّوا عن تآمرهم، ويشير القرآن إلى خوفهم من نزول سورة تفضحهم وتكشف خبيئة أسرارهم فقال: «يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ».

إلّا أنّ العجيب فى الأمر أنّ هؤلاء ولشدة حقدهم وعنادهم لم يكفّوا عن استهزائهم وسخريتهم، لذلك تضيف الآية: بأنّهم مهما سخروا من أعمال النبى صلى الله عليه و آله فإنّ اللَّه لهم بالمرصاد وسوف يظهر خبيث أسرارهم ويكشف عن دنىء نيّاتهم، فقال: «قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ».

أمّا الآية الثانية فإنّها أشارت إلى اسلوب آخر من أساليب المنافقين، وقالت: «وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ» (۱). أى إذا سألتهم عن الدافع لهم على هذه الأعمال المشينة قالوا: نحن نمزح وبذلك ضمنوا طريق العودة.

غير أنّ القرآن الكريم واجه هؤلاء بكل صرامة، وجابههم بجواب لا- مفرّ معه من الإذعان للواقع، فأمر النبى صلى الله عليه و آله أن يخاطبهم: «قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ».

أى إنّه يسألهم: هل يمكن المزاح والسخرية حتى باللَّه ورسوله وآيات القرآن؟

هل يمكن إخفاء قضية تنفير البعير وسقوط النبى صلى الله عليه و آله من تلك العقبة الخطيرة، والتى تعنى الموت، تحت عنوان ونقاب المزاح؟

ثم يأمر القرآن النبى صلى الله عليه و آله أن يقول للمنافقين بصراحة: «لَاتَعْتَذِرُوا» والسبب فى ذلك أنّكم «قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ». فهذا التعبير يُشعر أنّ هذه الفئة لم تكن منذ البداية فى صف المنافقين، بل كانوا مؤمنين لكنّهم ضعيفو الإيمان، بعد هذه الحوادث الآنفة الذكر سلكوا طريق الكفر.

واختتمت الآية بهذه العبارة: «إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ» فهى تبيّن أنّ طائفة قد استحقت العذاب نتيجة الذنوب والمعاصى، وهذا دليل على أنّ أفراد الطائفة الاخرى إنّما شملهم العفو الإلهى لأنّهم غسلوا ذنوبهم ومعاصيهم بماء التوبة من أعماق وجودهم.

---

(۱) «خوض»: على وزن «حوض» وهو بمعنى الدخول التدريجى فى الماء، ثم أطلقت على الدخول فى مختلف الأعمال من باب الكناية، إلّاأنّها جاءت فى القرآن غالباً بمعنى الدخول أو الشروع بالأعمال أو الأقوال القبيحة البذيئة.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۸۴

الْمُنَافِقُونَ وَ الْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (۶۷) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (۶۸) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (۶۹) أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۷۰) البحث فی هذه الآيات يدور كالسابق حول سلوك المنافقين وعلاماتهم وصفاتهم، فالآية الاولى من هذه الآيات تشير إلى أمر كلى، وهو أنّ روح النفاق يمكن أن تتجلّى بأشكال مختلفة وتبدو فی صور متفاوتة بحيث لا تلفت النظر فی أوّل الأمر، خصوصاً أنّ روح النفاق هذه يمكن أن تختلف بين الرجل والمرأة، لكن يجب أن لا يُخدع الناس بتغيير صور النفاق بين المنافقين، لذلك يقول اللَّه سبحانه: «الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ».

وبعد ذلك يشرع القرآن الكريم فی ذكر خمس صفات لهؤلاء:

الاولى والثانية: إنّهم يدعون الناس إلى فعل المنكرات ويرغبونهم فيها من جهة، ويُبعدونهم وينهونهم عن فعل الأعمال الصالحة من جهة اخرى «يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ». أی إنّهم يسلكون طريقاً ويتّبعون منهاجاً هو عكس طريق المؤمنين تماماً، فإنّ المؤمنين يسعون دائماً- عن طريق الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر- إلى أن يصلحوا المجتمع وينقوه من الشوائب والفساد، بينما يسعى المنافقون إلى إفساد كل زاوية فی المجتمع

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۸۵

واقتلاع جذور الخير والأعمال الصالحة من بين الناس من أجل الوصول إلى أهدافهم المشؤومة، ولا شك أنّ وجود مثل هذا المحيط الفاسد والبيئة الملوّثة ستساعدهم كثيراً فی تحقيق أهدافهم.

الثالثة: إنّ هؤلاء بخلاء لا يتمتعون بروح الخير للناس فلا ينفقون فی سبيل اللَّه، ولا يعينون محروماً، ولا يستفيد أقوامهم ومعارفهم من أموالهم، فعبّر عنهم القرآن: «وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ».

الرابعة: إنّ كل أعمالهم وأقوالهم وسلوكهم يوضح أنّ هؤلاء قد نسوا اللَّه، والوضع الذی يعيشونه يبيّن أنّ اللَّه قد نسيهم فی المقابل، وبالتالی فإنّهم قد حُرموا من توفيق اللَّه وتسديده ومواهبه السنية، أی إنّه سبحانه قد عاملهم معاملة المنسيين، وآثار وعلامات هذا النسيان المتقابل واضحة فی كل مراحل حياتهم، وإلى هذا تشير الآية: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ».

الخامسة: إنّ المنافقين فاسقون وخارجون من دائرة طاعة أوامر اللَّه سبحانه وتعالى، وقالت الآية: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

فی الآية التی تليها نلاحظ الوعيد الشديد والإنذار بالعذاب الأليم والجزاء الذی ينتظر هؤلاء حيث تقول: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ» وأنّهم سيخلدون فی هذه النار المحرقة «خَالِدِينَ فِيهَا» وأنّ هذه المجازاة التی تشمل كل أنواع العذاب والعقوبات تكفی هؤلاء إذ «هِىَ حَسْبُهُمْ». وبعبارة اخرى: إنّ هؤلاء لا يحتاجون إلى عقوبة اخرى غير النار، حيث يوجد فی نار جهنم كل أنواع العذاب: الجسمية منها والروحية.

وتضيف الآية فی خاتمتها أنّ اللَّه تعالى قد أبعد هؤلاء عن ساحة رحمته وجازاهم بالعذاب الأبدی «وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ»، بل إنّ البعد عن اللَّه تعالى يعتبر بحد ذاته أعظم وأشد عقوبة وآلمها.

تكرر التاريخ والإعتبار به: من أجل توعية هؤلاء المنافقين، وضعت الآية الآتية مرآة التاريخ أمامهم، ودعتهم إلى ملاحظة حياتهم وسلوكهم ومقارنتها بالمنافقين والعتاة المردة الذين تمردوا على أوامر اللَّه سبحانه وتعالى، وأعطتهم أوضح الدروس وأكثرها عبرة، فذكّرهم بأنّهم كالمنافقين الماضين ويتبعون نفس المسير وسيلقون نفس المصير: «كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ» علماً أنّ هؤلاء «كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ

قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالًا وَأَوْلدًا».

وكما أنّ هؤلاء قد تمتعوا بنصيبهم فى هذه الحياة الدنيا، وصرفوا أعمارهم فى طريق قضاء

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۶

الشهوات والمعصيهٔ والفساد والإنحراف، فإنّكم قد تمتعتم بنصيبكم كهؤلاء: «فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلقِهِمْ».

«الخلاق»: فى اللغة بمعنى النصيب والحصة. ثم تقول بعد ذلك: إنّكم كمن مضى من أمثالكم قد أوغلتم وسلكتم مسلك الإستهزاء والسخريه، تماماً كهؤلاء: «وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا» «۱».

ثم تبين الآيهٔ عاقبهٔ أعمال المنافقين الماضين لتحذّر المنافقين المعاصرين للنبى صلى الله عليه و آله وكل منافقى العالم فى جملتين:

الاولى: إنّ كل أعمال المنافقين قد ذهبت أدراج الرياح، فى الدنيا والآخرة، ولم يحصلوا على أىّ نتيجهٔ حسنهٔ، فقالت: «حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِى الدُّنْيَا والْأَخِرَةِ».

الثانيهٔ: إنّ هؤلاء هم الخاسرون الحقيقيون بما عملوه من الأعمال السيئهٔ: «وَأُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

إنّ هؤلاء المنافقين يمكن أن يستفيدوا ويحققوا بعض المكاسب والإمتيازات من أعمال النفاق، لكن ما يحصلون عليه مؤقت ومحدود، فإنّنا إذا أمعنّا النظر فسنرى أنّ هؤلاء لم يجنوا من سلوك هذا الطريق شيئاً، لا فى الدنيا ولا فى الآخرهٔ.

وبعد هذه الآيات يتحول الحديث من المنافقين ويتوجه إلى النبى صلى الله عليه و آله ويتبع اسلول الإستفهام الإنكارى، فتقول الآيهٔ: «أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ» «۲».

إنّ هذه الحوادث المرعبهٔ تهز وجدان وأحاسيس كل إنسان إذا امتلك أدنى إحساس وشعور عند مطالعتها وتحقيقها.

ورغم طغيان هؤلاء وتمردّهم فإنّ اللّه الرؤوف الرحيم لم يحرم هؤلاء من رحمته وعطفه لحظهٔ، وقد أرسل إليهم الرسل بالآيات البينات لهدايتهم وإنقاذهم من الضلالهٔ إذ «أَتَتْهُمْ

---

(۱) إنّ جملهٔ «كالذى خاضوا» فى الواقع بمعنى: كالذى خاضوا فيه. وبعبارهٔ اخرى، فإنّها تشبيه لفعل منافقى اليوم بفعل المنافقين السابقين، كما شبهت الجملهٔ السابقهٔ استفادهٔ هؤلاء من النعم والمواهب الإلهيهٔ فى طريق الشهوات كالسابقين منهم، وعلى هذا فإنّ هذا التشبيه ليس تشبيه شخص بشخص لنضطر إلى أن نجعل (الذى) بمعنى (الذين) أى المفرد بمعنى الجمع، بل هو تشبيه عمل بعمل.

(۲) «المؤتفكات»: مأخوذهٔ من مادهٔ الإئتفاك، بمعنى انقلاب الأسفل إلى الأعلى وبالعكس، وهى إشارهٔ إلى مدن قوم لوط التى قلب عاليها سافلها نتيجهٔ الزلزلهٔ.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۸۷

رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ» إلّاأنّ هؤلاء لم يصغوا إلى أيّهٔ موعظهٔ ولم يقبلوا نصيحهٔ من أنبياء اللّه وأوليائه، ولم يقيموا وزناً لجهاد ومتاعب هؤلاء الأبرار وتحملهم كل المصاعب فى سبيل هدايهٔ خلق اللّه، وإذا كان العقاب قد نالهم فلا يعنى أن اللّه عزّ وجلّ قد ظلمهم، بل هم ظلموا أنفسهم بما أجرموا فاستحقوا العذاب: «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۷۱) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۷۲) مرّ فى الآيات السابقهٔ، ذكر خمس الصفات المشتركهٔ بين المنافقين، الرجال منهم والنساء، وتذكر هذه الآيات صفات وعلامات المؤمنين والمؤمنات، وتتلخص فى خمس صفات أيضاً، وتشرع الآيهٔ بذكر صفات المؤمنين والمؤمنات، وتبدأ ببيان أنّ بعضهم لبعض ولى وصديق «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

بَعْضٍ».

وبعد بيان هذه القاعدة الكلية، تشرع ببيان الصفات الجزئية للمؤمنين:

۱- ففى البداية تبيّن أنّ هؤلاء قوم يدعون الناس إلى الخيرات «يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ».

۲- إنّهم ينهون الناس عن الرذائل والمنكرات «وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ».

۳- إنّهم بعكس المنافقين الذين كانوا قد نسوا اللّه، فإنّهم يقيمون الصلاة، ويذكرون اللّه فتحيا قلوبهم وتشرف عقولهم «وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ».

۴- إنّهم- على عكس المنافقين والذين كانوا يبخلون بأموالهم- ينفقون أموالهم فى سبيل اللّه وفى مساعدة عباد اللّه وبناء المجتمع وإصلاح شؤونه، ويؤدون زكاة أموالهم «وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ».

۵- إنّ المنافقين فسّاق ومتمردون، وخارجون من دائرة الطاعة لأوامر اللّه، أمّا المؤمنون فهم على عكسهم تماماً، إذ «وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

أمّا ختام الآية فإنّه يتحدث عن إمتيازات المؤمنين، والمكافأة والثواب الذى ينتظرهم،

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۸۸

وأوّل ما تعرضت لبيانه هو الرحمة الإلهية التى تنتظرهم ف «أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ».

ولا- شك أنّ وعد اللّه للمؤمنين قطعى ويقينى لأنّ اللّه قادر وحكيم، ولا يمكن للحكيم أن يعد بدون سبب، وليس اللّه القادر بعاجز عن الوفاء بوعده حين وعد «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». الآية الثانية شرحت جانباً من هذه الرحمة الإلهية الواسعة التى تعم المؤمنين فى بُعديها المادى والمعنوى. فهى أوّلًا تقول: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَتِ جَنتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ»، ومن خصائص هذه النعمة الكبيرة أنّها لا زوال لها ولا فناء، بل الخلود الأبدى، لذا فإن المؤمنين والمؤمنات سيكونون «خَالِدِينَ فِيهَا».

ومن المواهب الإلهية الاخرى التى سوف ينعمون بها هى المساكن الجميلة، والمنازل المرفهة التى أعدها اللّه لهم وسط الجنان «وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ».

ويتّضح من الاحاديث أنّ جنات عدن حدائق خاصة فى الجنة سيستقر فيها النبى صلى الله عليه و آله وجماعة من خلّص أصحابه وأتباعه.

بعد ذلك تشير الآية إلى الجزاء المعنوى المعد لهؤلاء، وهو رضى اللّه تعالى عنهم المختص بالمؤمنين الحقيقيين، وهو أهم وأعظم جزاء، ويفوق كل النعم والعطايا الاخرى «وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ».

إنّ اللذة المعنوية والإحساس الروحى الذى يحس ويلتذ به الإنسان عند شعوره برضى اللّه سبحانه وتعالى عنه لا يمكن أن يصفه أى بشر.

وفى النهاية أشارت الآية إلى جميع هذه النعم المادية والمعنوية، وعبرت عنها بأنّ «ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنَافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۷۳) جهاد الكفار والمنافقين: وأخيراً، صدر القرار الإلهى للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى وجوب جهاد الكفار والمنافقين بكل قوة وحزم «يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ» ولا تأخذك بهم رأفة ورحمة، بل شدد «وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ». وهذا العقاب هو العقاب الدنيوى، أمّا فى الآخرة فإنّ محلهم «وَمَأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۸۹

إن طريقة جهاد الكفار واضحة ومعلومة، فإنّ جهادهم يعنى التوسل بكل الطرق والوسائل فى سبيل القضاء عليهم، وبالذات الجهاد المسلح والعمل العسكرى.

والمقصود من جهاد المنافقين هو الأشكال والطرق الاخرى للجهاد غير الجهاد الحربى والعسكرى، كالذم والتوبيخ والتهديد والفضيحة، وربّما تشير جملة «وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ» إلى هذا المعنى.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَ هَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَ مَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ فِى الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (۷۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت فى جلاس بن سويد بن الصامت، وذلك أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله خطب ذات يوم بتبوك وذكر المنافقين فسمّاهم رجساً وعابهم، فقال الجلاس: واللَّه لئن كان محمّد صادقاً فيما يقول، فنحن شرّ من الحمير! فسمعه عامر بن قيس فقال: أجل واللَّه! إنّ محمّداً لصادق وأنتم شر من الحمير! فلما انصرف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس، فقال الجلاس: كذب يا رسول اللَّه. فأمرهما رسول اللَّه أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر فحلف باللَّه ما قال، ثم قام عامر فحلف باللَّه لقد قاله. ثم قال: اللهم أنزل علىّ نبيّك الصادق منا الصدق. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والمؤمنون: آمين.

فنزل جبرائيل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية، حتى بلغ «فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ» فقام الجلاس، فقال: يا رسول اللَّه أسمع اللَّه قد عرض علىّ التوبة صدق عامر بن قيس فيما قال لك، لقد قلته وأنا أستغفراللَّه وأتوب إليه. فقبل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ذلك منه.

التّفسير

مؤامرة خطرة: إنّ هذه الآية تزيح الستار عن عمل آخر من أعمال المنافقين، وهو أنّ هؤلاء عندما رأوا أنّ أمرهم قد انكشف، انكروا ما نُسب إليهم بل أقسموا باليمين الكاذبة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۰

على مدّعاهم. فى البداية تذكر الآية أنّ هؤلاء المنافقين لا يرتدعون عن اليمين الكاذبة فى تأييد إنكارهم، ولدفع التهمة فإنّهم «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا» فى الوقت الذى يعلمون أنّهم إرتكبوا ما نسب إليهم من الكفر «وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ» وعلى هذا فإنّهم قد إختاروا طريق الكفر بعد إعلانهم الإسلام «وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلِمِهِمْ». ومن البديهى أنّ هؤلاء لم يكونوا مسلمين منذ البداية، بل إنّهم أظهروا الإسلام فقط، وعلى هذا فإنّهم بإظهارهم الكفر قد هتكوا ومزّقوا حتى هذا الحجاب المزيف الذى كانوا يتسترون به. وفوق كل ذلك فقد صمّموا على أمر خطير لم يوفقوا لتحقيقه «وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا» ويمكن أن يكون هذا إشارة إلى تلك المؤامرة لقتل النبى صلى الله عليه و آله فى ليلة العقبة، والتى مرّ ذكرها آنفاً، أو أنّه إشارة إلى كل أعمال المنافقين التى يسعون من خلالها إلى تحطيم المجتمع الإسلامى وبثّ بذور الفرقة والفساد والنفاق بين أوساطه، لكنّهم لن يصلوا إلى أهدافهم مطلقاً.

الجملة الاخرى تبين واقع المنافقين القبيح ونكرانهم للجميل فتقول الآية: إنّ هؤلاء لم يروا من النبى صلى الله عليه و آله أى خلاف أو أذى، ولم يتضرروا بأى شىء نتيجة للتشريع الإسلامى، بل على العكس، فإنّهم قد تمتعوا فى ظل حكم الإسلام بمختلف النعم المادية والمعنوية «وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ» وهذه قمة اللؤم.

غير أنّ القرآن- كعادته- رغم هذه الأعمال لم يغلق الأبواب بوجه هؤلاء، بل فتح باب التوبة والرجوع إلى الحق على مصراعيه إن أرادوا ذلك، فقال: «فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ».

وهذه علامة واقعية الإسلام واهتمامه بمسألة التربية، ومعارضته لاستخدام الشدّة فى غير محلّها وهكذا فتح باب التوبة حتى بوجه المنافقين الذين طالما كادوا للإسلام وتآمروا على نبيّه وحاكوا الدسائس والتهم ضده، بل إنّه دعاهم إلى التوبة أيضاً.

وفى نفس الوقت ومن أجل أن لا يتصور هؤلاء أنّ هذا التسامح الإسلامى صادر من منطق الضعف، حذّرهم بأنّهم إن استمروا فى

غيهم وتنكّروا لتوبتهم، فإنّ العذاب الشديد سينالهم فى الدّارين «وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ» وإذا كانوا يظنون أنّ أحداً يستطيع أن يمدّ لهم يد العون مقابل العذاب الإلهى فإنّهم فى خطأ كبير، فإنّ العذاب إذا نزل بهم فساء صباح المنذرين: «وَمَا لَهُمْ فِى الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۱

وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (۷۵) فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۷۶) فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (۷۷) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (۷۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت فى ثعلبة بن حاطب، وكان من الأنصار، فقال للنبى صلى الله عليه و آله أن ادع اللَّه أن يرزقنى مالًا. فقال «يا ثعلبة! قليل تؤدّى شكره، خير من كثير لا تطيقه، أما لك فى رسول اللَّه اسوة حسنة؟ والذى نفسى بيده لو أردت أن تسير الجبال معى ذهباً وفضة، لسارت». ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول اللَّه ادع اللَّه أن يرزقنى مالًا، والذى بعثك بالحق لئن رزقنى اللَّه مالًا، لأعطينّ كل ذى حق حقّه! فقال صلى الله عليه و آله: «اللهم ارزق ثعلبة مالًا».

قال: فاتخذ غنماً، فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، ثم كثرت نموّاً حتى تباعد عن المدينة، فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة، وبعث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إليه المصدق ليأخذ الصدقة، فأبى وبخل وقال: ما هذه إلّااخت الجزية! فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة!» وأنزل اللَّه الآيات.

التّفسير

المنافقون وقلّة الاستيعاب: هذه الآيات تشير إلى صفة اخرى من صفات المنافقين السيّئة، وهى أنّ هؤلاء إذا مسّهم البؤس والفقر والمسكنة عزفوا على وتر الإسلام بشكل لا يصدق معه أحد أنّ هؤلاء يمكن أن يكونوا يوماً من جملة المنافقين، إلّاأنّ هؤلاء أنفسهم، إذا تحسّن وضعهم المادى فإنّهم سينسون كل عهودهم ومواثيقهم مع اللَّه والناس، ويغرقون فى حبّ الدنيا. فالآية الاولى تتحدث عن بعض المنافقين الذين عاهدوا اللَّه على البذل والعطاء لخدمة عباده إذا ما أعطاهم اللَّه المال الوفير: «وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَنَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ».

إلّا أنّهم يؤكّدون هذه الكلمات والوعود مادامت أيديهم خالية من الأموال «فَلَمَّا ءَاتَهُم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۲

مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ» غير أنّ عملهم هذا ومخالفتهم للعهود التى قطعوها على أنفسهم بذرت روح النفاق فى قلوبهم وسيبقى إلى يوم القيامة متمكناً منهم «فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ» وإنّما استحقوا هذه العاقبة السيئة غير المحمودة «بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ». وفى النهاية وبّخت الآية هؤلاء النفر ولامتهم على النوايا السيئة التى يضمرونها، وعلى انحرافهم عن الصراط المستقيم، واستفهمت بأنّهم: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَيهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلمُ الْغُيُوبِ».

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۷۹) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۸۰)

سبب النّزول

وردت عدّة روايات فى سبب نزول هذه الآيات فى كتب التفسير والحديث، يستفاد من مجموعها أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان قد صمّم على إعداد جيش المسلمين لمقابلة العدو- وربّما كان ذلك فى تبوك- وكان محتاجاً لمعونة الناس فى هذا الأمر، فلما أخبرهم

بذلك سارع الأغنياء إلى بذل الكثير من أموالهم، سواء كان هذا البذل من باب الزكاة أو الإنفاق، ووضعوا هذه الأموال تحت تصرف النبى صلى الله عليه و آله.

أمّا الفقراء، فقد عمدوا إلى مضاعفة عملهم، واستقاء الماء ليلًا، فحصلوا على صاعين من التمر، وشاركوا بهذا الشيء اليسير- الذى لا قيمة له ظاهراً- فى هذا المشروع الإسلامى الكبير. غير أنّ المنافقين الذين لا- همّ لهم إلّاتتبع ما يمكن التشهير به بدلًا من التفكير بالمساهمة الجدية فإنّهم عابوا كلا الفريقين، أمّا الأغنياء فاتهموهم بأنّهم إنّما ينفقون رياءً وسمعة، وأمّا الفقراء الذين لا يستطيعون إلّاجهدهم، والذين قدموا اليسير وهو عند اللَّه كثير، فإنّهم سخروا منهم بأنّ جيش الإسلام هل يحتاج إلى هذا المقدار اليسير؟ فنزلت هذه الآيات، وهددتهم تهديداً شديداً وحذرتهم من عذاب اللَّه.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۹۳

التّفسير

خبث المنافقين: فى هذه الآيات إشارة إلى صفة اخرى من الصفات العامة للمنافقين، وهى أنّهم أشخاص لجوجون معاندون وهمهم التماس نقاط ضعف فى أعمال الآخرين واحتقار كل عمل مفيد يخدم المجتمع ومحاولة إجهاضه بأساليب شيطانية خبيثة من أجل صرف الناس عن عمل الخير. لكن القرآن المجيد ذم هذه الطريقة غير الإنسانية التى يتبعها هؤلاء، وعرّفها للمسلمين لكى لا يقعوا فى حبائل مكر المنافقين ومن ناحية اخرى أراد أن يفهم المنافقون أنّ سهمهم لا يصيب الهدف فى المجتمع الإسلامى. ففى البداية يقول: إنّ هؤلاء «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَايَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

والمراد من جملة: «سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ» أنّ اللَّه سبحانه تعالى سيجازيهم على ما عملوا من الأعمال السيئة، أو أنّه تعالى سيحقرهم كما حقروا عباده وسخروا منهم.

ونلاحظ فى الآية التى تليها تأكيداً أشد على مجازاة هؤلاء المنافقين، وتذكر آخر تهديد بتوجيه الكلام وتحويله من الغيبة إلى الخطاب، والمخاطب هذه المرّة هو النبى صلى الله عليه و آله فقالت:

«اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَاتَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ».

وإنّما لن يغفر اللَّه لهم لأنّهم قد أنكروا اللَّه ورسالة رسوله، واختاروا طريق الكفر، وهذا الاختيار هو الذى أرداهم فى هاوية النفاق وعواقبه المشؤومة «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ». ومن الواضح أنّ هداية اللَّه تشمل السائرون فى طريق الحق وطلب الحقيقة، أمّا الفساق والمجرمون والمنافقون فإنّ الآية تقول: «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ».

إنّ نوع العمل هو المهم لا مقداره، وهذه الحقيقة فى القرآن واضحة جلية، فالإسلام لم يستند فى أىّ مورد إلى كثرة العمل ومقداره، بل هو يؤكّد دائماً- وفى كل الموارد- على أنّ الأساس هو نوع العمل وكيفيته.

المهم أنّ كل فرد يجب أن يبذل ما يستطيع، ولا يلتفت إلى مقدار عطائه، فليس المعيار كثرة العطاء وقلّته، بل الإحساس بالمسؤولية والإخلاص فى العمل.

ومن هذه الواقعة تتّضح حقيقة اخرى، وهى أنّ المسلمين فى المجتمع الإسلامى الواقعى السالم يجب أن يحسّوا جميعاً بالمسؤولية تجاه المشاكل التى تعترض المجتمع وتظهر فيه، ولا يجب أن ينتظروا الأغنياء والمتمكنين يقوموا وحدهم بحل هذه المشاكل والمصاعب، بل

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۹۴

على الضعفاء أيضاً أن يساهموا بما يستطيعون، مهما صغر وقل ما يقدمونه، لأنّ الإسلام يتعلق بالجميع لا بفئة منهم، وعلى هذا، فعلى الجميع أن يسعوا فى حفظ الإسلام ولو ببذل النفوس والدماء ويعملوا بكل وجودهم من أجل حياته وصيانته.

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ قَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِی الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (۸۱) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۸۲) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِیَ أَبَداً وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِیَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (۸۳) يستمر الحديث فی هذه الآيات حول تعريف المنافقين وأساليب عملهم وسلوكهم وأفكارهم ليعرفهم المسلمون جيداً، ولا يقعوا تحت تأثير وسائل إعلامهم وخططهم الخبيثة وسمومهم. فی البداية تتحدث الآية عن هؤلاء الذين تخلفوا عن الجهاد فی تبوك، وتعذّروا بأعذار واهية كبيت العنكبوت، وفرحوا بالسلامة والجلوس فی البيت بدل المخاطرة بأنفسهم والاشتراك فی الحرب رغم أنها مخالفة لأوامر اللَّه ورسوله: «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلفَ رَسُولِ اللَّهِ». وبدل أن يضعوا كل وجودهم وإمكاناتهم فی سبيل اللَّه لينالوا افتخار الجهاد وعنوان المجاهدين، فإنّهم امتنعوا «وَكَرِهُوا أَن يُجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِی سَبِيلِ اللَّهِ».

إلّا أنّ هؤلاء النفر لم يكتفوا بتخلفهم وتركهم لهذا الواجب المهم، بل إنّهم سعوا فی تخذيل الناس عن الجهاد بوساوسهم الشّيطانية ومحاولة إخماد جذوة الحماسة الملتهبة فی صدور المسلمين وتشبث المنافقون بكلّ عذر يمكن أن يحقق الهدف حتى ولو كان العذر الحرّ! «وَقَالُوا لَاتَنفِرُوا فِی الْحَرّ».

ثم تتغير وجهة الخطاب إلى النبی صلی الله علیه و آله فيأمره اللَّه سبحانه وتعالى أن يجيبهم بلهجة شديدة واسلوب قاطع: «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ». لكنّهم للأسف لضعف إيمانهم، وعدم الإدراك الكافی لا يعلمون أيّة نار تنتظرهم، فشرارة واحدة من تلك النار أشدّ حرارة من جميع نيران الدّنيا وأشدّ حرقة وألماً.

وتشير الآية الثانية إلى أنّ هؤلاء ظنوا بأنّهم قد حققوا نصراً بتخلفهم وتخذيلهم المسلمين وصرف أنظارهم عن مسألة الجهاد، وضحكوا لذلك وقهقهوا بملء أفواههم، وهذا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۵

هو حال المنافقين فی كل عصر وزمن، إلّاأنّ القرآن حذّرهم من مغبة أعمالهم فقال:

«فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا».

نعم، ليبكوا على مستقبلهم المظلم: ليبكوا على العذاب الأليم الذی ينتظرهم: ليبكوا على أنّهم أغلقوا كل أبواب العودة بوجوههم، وأخيراً ليبكوا على ما أنفقوا من قوتهم وقدراتهم وعمرهم الثمين، واشتروا به الخزی والفضيحة وسوء العاقبة وتعاسة الحظ.

وفی نهاية الآية يبين اللَّه تعالى أنّ هذه العاقبة التی تنتظرهم هی «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

وفی آخر آية- من الآيات محل البحث- إشارة إلى طريقة اخرى دقيقة وخطرة من طرق المنافقين، وهی أنّهم حينما يرتكبون ما يخالف القانون الإسلامی، فإنّهم يُظهرون أعمالًا يحاولون بها جبران ما صدر منهم، ومحاولة تبرئة ساحتهم مما يستحقون من العقوبة، وبهذه الأعمال المناقضة لأعمالهم المخالفة للقانون فإنّهم يخفون وجوههم الحقيقية، أو يسعون إلى ذلك. إنّ الآية الكريمة تقول: «فإن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِیَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِیَ عَدُوًّا». أی إنّ النبی صلی الله علیه و آله يجب أن يزرع اليأس فی نفوس هؤلاء، ويُعلمهم أن هذا التلون سوف لا ينطلی على أحد، ولن يُخدع بهم أحد.

جملة «طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ» توحی أنّ هؤلاء المنافقين لم يكونوا بأجمعهم يمتلكون الشجاعة حتى يحضروا ويطلبوا من النبی صلی الله علیه و آله السماح لهم فی الخروج إلى الجهاد.

ثم تبين الآية أنّ سبب عدم قبول اقتراح هؤلاء وطلبهم ب «إِنَّكُم رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ».

وَ لَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَ لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ مَاتُوا وَ هُمْ فَاسِقُونَ (۸۴) وَ لَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِی الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (۸۵) بعد أن أزاح المنافقون الستار عن عدم مشاركتهم فی ميدان القتال، وعلم الناس تخلفهم الصريح، وفشا سرّهم، أمر اللَّه سبحانه وتعالى نبيّه بأن يتبع أسلوباً أشدّ وأكثر صراحة ليقتلع وإلى

الأبد- جذور النفاق والأفكار الشيطانية، وليعلم المنافقون بأنّهم لا محل لهم فى المجتمع الإسلامى، وكخطوة عملية فى مجال تطبيق هذا الأسلوب الجديد، صدر الأمر الإلهى «وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۶

إنّ هذا الأسلوب- فى الواقع- هو نوع من الكفاح السلبى الفاعل فى مواجهة المنافقين.

إنّ هذا البرنامج والأسلوب الدقيق كان قد أعد لمقابلة منافقى ذلك العصر، ويجب أن يستفيد المسلمون من هذه الأساليب. وفى آخر الآية يتّضح سبب هذا الأمر الإلهى ب «إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» ورغم ذلك فإنّهم لم يفكروا بالتوبة ولم يندموا على أفعالهم ليغسلوها بالتوبة، بل إنّهم بقوا على أفعالهم «وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ».

وهنا يمكن أن يسأل أحدكم: إنّ المنافقين إذا كانوا- حقيقة- بهذا البعد عن رحمة اللَّه، وعلى المسلمين أن لا يُظهروا أى ود أو محبّة تجاههم، فلماذا فضّلهم اللَّه تعالى ومنحهم كل هذه القوى الاقتصادية من الأموال والأولاد؟

فى الآية الاخرى يوجه اللَّه سبحانه وتعالى الخطاب إلى النبى: «وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَدُهُمْ». فإنّها ليست منحة ومحبّة من اللَّه تعالى لهؤلاء المنافقين، بل على العكس تماماً، فإنّ هذه الأموال والأولاد ليست لسعادتهم، بل «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ».

إنّ هذه الآية تشير إلى حقيقة وهى أنّ هذه الإمكانيات والقدرات الاقتصادية والقوى الإنسانية للأشخاص الفاسدين ليست غير نافعة لهم فحسب، بل هى- غالباً- سبب لإبتلائهم وتعاستهم، لأنّ أشخاصاً كهؤلاء لا هم يصرفون أموالهم فى مواردها الصحيحة ليستفيدوا منها الفائدة البناءة، ولا يتمتعون بأبناء صالحين كى يكونوا قرة عين لهم ومعتمدهم فى حياتهم. بل إنّ أموالهم تصرف غالباً فى طريق الشهوات والمعاصى ونشر الفساد وتحكيم أعمدة الظلم والطغيان، وهى السبب فى غفلتهم عن اللَّه سبحانه وتعالى، وكذلك أولادهم فى خدمة الظلمة والفاسدين، ومبتلين بمختلف الانحرافات الأخلاقية، وبذلك سيكونون سبباً فى تراكم البلايا والمصائب.

غاية الأمر إنّ الذين يظنون أنّ الأصل فى سعادة الإنسان هو الثروة والقوة البشرية فقط، أمّا كيفية صرف هذه الثروة والقوة فليس بذلك الأمر المهم، تكون لوحة حياتهم مفرحة ومبهجة ظاهراً، إلّاأنّنا لو اقتربنا منها واطلعنا على دقائقها، وعلمنا أنّ الأساس فى سعادة الإنسان هو كيفية الاستفادة من هذه الإمكانيات والقدرات لعلمنا أنّ هؤلاء ليسوا سعداء مطلقاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۲۹۷

وَ إِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (۸۶) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (۸۷) لكِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۸۸) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۸۹) دناءة الهمّة:

الكلام فى هذه الآيات يدور كذلك حول المنافقين، فالآية الاولى تتحدث عن حال المنافقين إذا ما دعا الرسول صلى الله عليه و آله الناس إلى الثبات على الإيمان والجهاد فى سبيل اللَّه، فإنّهم- أى المنافقون- رغم قدرتهم الجسمية والمالية سيطلبون العذر والسماح لهم بعدم المشاركة والبقاء مع ذوى الأعذار: «وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَئْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ».

وفى الآية التى تليها وبخ القرآن هؤلاء وذمّهم وقبحهم بأنّهم «رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ».

والمقصود من «الخوالف» فى هذه الآية كل الذين عُذروا عن المشاركة فى الجهاد بشكل أو آخر، أعم من أن يكونوا نساء أو مسنّين أو مرضى أو صبيان.

ثم أضافت الآية: بأنّ هؤلاء نتيجة لكثرة الذنوب والنفاق وصلوا إلى مرحلة «وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَفْقَهُونَ».

ثم تحدثت الآية التى تليها فى الجانب المقابل عن صفات وروحيات الفئة التى تقابل المنافقين، وهم المؤمنون المخلصون، وعن

أعمالهم الحسنة، وبالتالى عاقبة أعمالهم المعاكسة تماماً لعاقبة اولئك، فهى تقول: «لكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ» فكانت عاقبتهم أن يتمتعوا بكل الخيرات والسعادة واللذائذ المادية والمعنوية فى الدنيا والآخرة «وَأُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

«الخيرات»: تعبير جامع لكل توفيق وخير ونصر وموهبة، وهى تشمل المادية منها والمعنوية.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۹۸

ويستفاد بوضوح من هذه الآية أنّ «الإيمان» و «الجهاد» إذا اتحدا فى شخص، فسيصحبهما كل خير وبركة، ولا سبيل إلى الفلاح والإخلاص، أو إلى شيء من الخيرات والبركات المادية والمعنوية إلّافى ظل هذين العامليْن.

وفى آخر آية من الآيات التى نبحثها إشارة إلى قسم من الجزاء الاخروى المعد لهؤلاء المؤمنين، فهى تبشرهم بأنّهم قد «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» وتوكّد لهم بأنّ هذه المواهب والنعم سوف لا تفنى ولا تنفد، بل سيبقون «خَالِدِينَ فِيهَا»، ثمّ تبيّن أنّ «ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

وَ جَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۹۰) فى هذه الآية- ولمناسبة البحث هنا للأبحاث السابقة حول المنافقين الذين يتعذرون بكل عذر ويتمسكون بأتفه الحجج- إشارة إلى وضع وواقع مجموعتين من المتخلفين عن الجهاد. ففى البداية تقول الآية أنّ هؤلاء الأعراب رغم أنّهم كانوا معذورين فى عدم الاشتراك فى الجهاد، فإنّهم حضروا بين يدى النبى صلى الله عليه و آله وطلبوا منه أن يأذن لهم فى الجهاد:

«وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ». وفى مقابل ذلك فإنّ الفئة الاخرى التى كذبت على اللَّه ورسوله قد تخلف أفرادها دون أى عذر، «وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

وفى النهاية هددت الآية المجموعة الثانية تهديداً شديداً وأنذرتهم بأنّه «سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَ لَا عَلَى الْمَرْضَى وَ لَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۱) وَ لَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَنْ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (۹۲) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۹۳)

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۲۹۹

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: إنّ الآية الاولى نزلت فى عبد اللَّه بن زائدة وهو ابن أم مكتوم، وكان ضرير البصر، جاء إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: يا نبى اللَّه إنّى شيخ ضرير، خفيف الحال، نحيف الجسم، وليس لى قائد فهل لى رخصة فى التخلف عن الجهاد؟ فسكت النبى صلى الله عليه و آله، فأنزل اللَّه الآية.

والآية الثانية نزلت فى البكائين وهم سبعة نفر من فقراء الأنصار جاءوا إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالوا: يا رسول اللَّه! احملنا فإنّه ليس لنا ما نخرج عليه. فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه».

التّفسير

هذه الآيات قسمت المسلمين فى مجال المشاركة فى الجهاد لتوضيح حال سائر المجاميع من ناحية القدرة على الجهاد، أو العجز عنه، وأشارت إلى خمس مجموعات: أربع منها معذورة حقيقة وواقعاً، والخامسة هم المنافقون.

الآية الاولى تقول: إنّ الضعفاء، والعاجزين لكبر أو عمى أو نقص فى الأعضاء، والذين لا وسيلة لهم يتنقلون بها ويستفيدون منها فى المشاركة فى الجهاد، لا حرج عليهم إذا تخلفوا عن هذا الواجب الإسلامى المهم: «لَّيسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ

لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ».

هـذه الأقسام الثلاث تعـذر فى كل قانون إذا لم تشارك، والعقل والمنطق يمضى هذا التسامح، ومن المسلم أنّ القوانين الإسلامية لا تنفصل عن المنطق والعقل فى أى مورد.

«الحرج»: فى الأصل تعنى مركز اجتماع الشىء، ولما كان اجتماع الناس وكثرتهم فى مكان ومركز ما ملازم لضيق ذلك المكان، فقد استعملت هـذه الكلمـة بمعنى الضيق والإزعاج والمسؤوليـة والتكليف، ويكون معناها فى هـذه الآية هو المعنى الأخير، أى المسؤولية والتكليف.

ثم بيّنت الآية شرطاً مهماً فى السماح لهؤلاء بالإنصراف، وهو إخلاصهم وحبّهم للّه ورسوله، ورجاؤهم وعملهم كل خير لهذا الدين الحنيف، لـذا قالت: «إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ». أى إنّ هؤلاء قادرون على استعمال سلاح الكلمة والسلوك الإسلامى الأمثل، وبهذا يستطيعون ترغيب المجاهدين.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۰

ويجب أن لا يقصروا فى هدم وتضعيف معنويات العدو، وتهيئة أرضية الهزيمة فى نفوس أفراده قدر المستطاع.

ثم تـذكر الآيـة الـدليل على هـذا الموضوع، فتـذكر أن مثل هؤلاء الأفراد الـذين لا يألون جهـداً فى عمل الخير، لا يمكن أن يعاتبوا أو يُوبّخوا أو يُعاقبوا، إذ «مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ».

بعـد ذلك اختتمت الآية بذكر صفتين عظيمتين من صفات اللّه عزّ وجل- وكل صفاته عظيمة- كدليل آخر على جواز تخلف هؤلاء المندرجين ضمن المجموعات الثلاث فقالت:

«وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

«غفور»: مأخوذة من مادة الغفران، أى الستر والإخفاء، أى إنّ اللّه سبحانه وتعالى سيلقى الستار على أعمال هؤلاء المعذورين ويقبل أعـذارهم، وكون اللّه «رحيماً» يقتضى أن لا يكلف أحداً فوق طاقته، بـل يعفيه من ذلك، وإذا اجبر هؤلاء على الحضور فى ميدان القتال، فإنّ ذلك لا يناسب غفران اللّه ورحمته، وهذا يعنى أنّ اللّه الغفور الرحيم سيعفى هؤلاء عن الحضور حتماً، ويعفو عنهم.

ثم تشير الآيـة إلى الفئة الرابعة من المعفو عنهم وهؤلاء هم الـذين حضـروا- بشوق- عنـد النبى صلى الله عليه و آله وطلبوا منه أن يحملهم على الدواب للمشاركة فى الجهاد، فاعتذر النبى صلى الله عليه و آله بأنّه لا يملك ما يحملهم عليه، فخرجوا من عنده وعيونهم تفيض من الدمع حزناً وأسفاً على ما فاتهم، وعلى أنّهم لا يملكون ما ينفقونه فى سبيل اللّه: «وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَاأَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ».

«تفيض»: من مـادة الفيضـان، أى الإنسـكاب والتساقط بعـد الإمتلاء، فإنّ الإنسان إذا أهمه أمر أو دهمته مصيبة، فإذا لم تكن شديـدة اغرورقت عيناه بالدموع وامتلأت دون أن تجرى، أمّا إذا وصلت إلى مرحلة يضعف الإنسان عن تحملها سالت دموعه.

أمّا آخر آيـة فتبين وضع الفئـة الخامسـة، وهم الـذين لم يعـذروا، ولن يُعـذروا عنـد اللّه تعالى، فـإنّهم قـد توفرت فيهم كل الشروط، ويملكون كل مستلزمات الجهاد، فوجب عليهم حتماً، لكنهم رغم ذلك يحاولون التملّص من أداء هذا الواجب الإلهى الخطير، فجاؤوا إلى النبى صلى الله عليه و آله يطلبون الإذن فى الإنصراف عن الحرب، فبينت الآيـة أنّهم سيؤاخذون بتهرّبهم ويعاقبون عليه: «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَئْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۱

مختصر الامثل ج ۲ ۳۳۹

وتضيف الآيـة بـأنّ هؤلاء يكفيهم عـاراً وخزيـاً أن يرضوا بالبقـاء مع العاجزين والمرضـى رغم سـلامتهم وقـدرتهم، ولم يهتموا بأنّهم سيحرمون من فخر الإشتراك فى الجهاد: «رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ».

وكفى به عقاباً أن يسلبهم اللّه القدرة على التفكر والإدراك نتيجة أعمالهم السيئة هذه، ولذلك أبغضهم اللّه «وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

تتّضح من هذه الآيات المعنويات القوية العالية لجنود الإسلام، وكيف أن قلوبهم كانت تتطلع بشوق، وتتحرق عشقاً للجهاد والشهادة، وهذا الفخر والوسام مقدم على جميع الأوسمة والصفات الاخرى التى كانوا يمتلكونها، ومن هنا يتّضح عامل هو من أهم عوامل التقدم السريع للإسلام وتطوره وانتشاره فى ذلك اليوم، وتخلفنا فى الوقت الحاضر لفقداننا هذا الوسام.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۴) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۹۵) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (۹۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: نزلت الآيات فى جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلًا، ولما قدم النبى صلى الله عليه و آله المدينة راجعاً من تبوك قال:

«لا تجالسوهم، ولا تكلموهم».

التّفسير

تستمر هذه السلسلة من الآيات فى الحديث عن الأعمال الشيطانية للمنافقين. الآية الاولى تبين للمسلمين أنّ هؤلاء إذا علموا بقدومكم فسيأتون: «يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۲

ثم يتوجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله- باعتباره قائد المسلمين- بأن يواجه المنافقين: «قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ» لأنّا على علم بأهدافكم الشيطانية وما تضمرون وما تعلنون، إذ:

«قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ». إلّاأنّه فى الوقت نفسه سيبقى باب التوبة والرجوع إلى الصواب مفتوحاً أمامكم «وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ».

ثم قالت الآية: إنّ كل أعمالكم ونيّاتكم ستثبت اليوم فى كتبكم «ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وفى الآية التالية إشارة اخرى إلى أيمان المنافقين الكاذبين، وتنبيه للمسلمين على أنّ هؤلاء سيتوسلون باليمين الكاذبة لتغفروا لهم خطيئاتهم وتصفحوا عنهم «سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ».

إنّ هؤلاء يطرقون كل باب ليردوا منه، فتارةً يريدون إثبات براءتهم وعدم تقصيرهم بالإعتذار، وتارةً يعترفون بالتقصير ثمّ يطلبون العفو عن ذلك التقصير، إذ ربّما استطاعوا عن إحدى هذه الطرق النفوذ إلى قلوبكم، لكن لا تتأثروا بأى اسلوب من هذه الأساليب، بل إذا جاؤوكم ليعتذروا إليكم «فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ».

ولتأكيد المطلب وتوضيحه وبيان دليله عقّبت الآية بأنّ السبب فى الاعراض عن هؤلاء «إِنَّهُمْ رِجْسٌ»، ولأنّهم كذلك فإنّ مصيرهم «وَمَأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ». إنّ كل العواقب السيئة التى سيلقونها إنّما يرونها «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

فى الآية الأخيرة التى نبحثها هنا إشارة إلى يمين اخرى من أيمان هؤلاء، الهدف منها جلب رضى المسلمين: «يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ».

الملفت للنظر هنا أنّ اللّه تعالى لم يقل: لا ترضوا عنهم، بل عبّر سبحانه بتعبير تُشم منه رائحة التهديد، إذ يقول عزّ وجل: «فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَايَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ».

لا شك أنّ هؤلاء من الناحية الدينية والأخلاقية لا يعيرون اهتماماً لرضى المسلمين، بل إنّ الهدف من عملهم هذا هو رفع النظرة

السلبیة والغضب علیهم من أفکار وقلوب المسلمین، لیکونوا فی مأمن من ردود الفعل ضدهم إذا بدرت منهم أعمال منافیة.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۰۳

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ کُفْراً وَ نِفَاقاً وَ أَجْدَرُ أَنْ یَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَی رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۹۷) وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ یَتَّخِذُ مَا یُنْفِقُ مَغْرَماً وَ یَتَرَبَّصُ بِکُمُ الدَّوَائِرَ عَلَیْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۹۸) وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ یَتَّخِذُ مَا یُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَیُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِی رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۹۹) فی هذه الآیات الثلاث- استمراراً للبحث المتقدم حول منافقی المدینة- حدیث وبحث حول وضع منافقی الأعراب- وهم سکان البوادی- وعلاماتهم وأفکارهم، وکذلک قد تحدثت حول المؤمنین الخلص منهم.

وربّما کان السبب فی تحذیر المسلمین من هؤلاء، هو أن لا یتصور المسلمون أنّ المنافقین هم- فقط- هؤلاء المتواجدون فی المدینة، بل إنّ المنافقین من الأعراب أشدّ وأقسی فالآیة الاولی تقول: إنّ الأعراب، بحکم بعدهم عن التعلیم والتربیة، وعدم سماعهم الآیات الربانیة وکلام النبی صلی الله علیه و آله، أشدّ کفراً ونفاقاً من مشابهیهم فی المدینة: «الْأَعْرَابُ أَشَدُّ کُفْرًا وَنِفَاقًا» ولهذا البعد والجهل فمن الطبیعی، بل الأولی أن یجهلوا الحدود والأحکام الإلهیة التی نزلت علی النبی صلی الله علیه و آله: «وَأَجْدَرُ أَلَّا یَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَی رَسُولِهِ».

کلمة «الأعراب» من الکلمات التی تعطی معنی الجمع، وهذه الکلمة تطلق علی سکان البادیة فقط، ومختصة بهم، وإذا أرادوا اطلاقهم علی شخص واحد فإنّهم یستعملون نفس هذه الکلمة ویلحقون بها یاء النسب، فیقولون: أعرابی.

«أجدر»: فهی مأخوذة من الجدار، ومن ثم اطلقت علی کل شیء مرتفع ومناسب، ولهذا فإنّ «أجدر» تستعمل- عادةً- بمعنی الأنسب والألیق.

وتقول الآیة أخیراً: «وَاللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ». أی: إنّه تعالی عندما یحکم علی الأعراب بمثل هذا الحکم، فلأنّه یناسب الوضع الخاص لهم، لأنّ محیطهم یتصف بمثل هذه الصفات.

لکن ومن أجل أن لا یُتوهم بأنّ کل الأعراب أو سکان البوادی یتصفون بهذه الصفات، فقد أشارت الآیة التالیة إلی مجموعتین من الأعراب. ففی البدایة تتحدث عن أنّ قسماً من هؤلاء الأعراب- لنفاقهم أو ضعف إیمانهم- عندما ینفقون شیئاً فی سبیل اللّه، فإنّهم

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۰۴

یعتبرون ذلک ضرراً وخسارة لحقت بهم، لا أنه توفیق ونصر وتجارة رابحة: «وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن یَتَّخِذُ مَا یُنفِقُ مَغْرَمًا» «۱». ومن الصفات الاخری لهؤلاء أنّهم دائماً ینتظرون أن تحیط بکم المصائب والنوائب والمشاکل، ویرمیکم الدهر بسهمه: «وَیَتَرَبَّصُ بِکُمُ الدَّوَائِرَ».

«الدوائر»: جمع دائرة، ومعناها معروف، ولکن العرب یقولون للحادثة الصعبة والألیمة التی تحل بالإنسان: دائرة، وجمعها «دوائر».

فی الواقع أنّ هؤلاء أفراد ضیقو النظر، وبخلاء وحسودون.

ثم تقول الآیة- بعد ذلک- إنّ هؤلاء ینبغی أن لا یتربصوا بکم، وینتظروا حلول المصائب والدوائر بکم، لأنّها فی النهایة ستحل بهم فقط: «عَلَیْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ».

ثمّ تختم الآیة الحدیث بقولها: «وَاللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ»، فهو تعالی یسمع کلامهم، ویعلم بنیاتهم ومکنون ضمائرهم.

أمّا الآیة الأخیرة فقد أشارت إلی الفئة الثانیة من الأعراب، وهم المؤمنون المخلصون، إذ تقول: «وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن یُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْیَوْمِ الْآخِرِ». ولهذا السبب فإنّهم لا یعتبرون الإنفاق فی سبیل اللّه خسارة أبداً، بل وسیلة للتقرب إلی اللّه ودعاء الرسول صلی الله علیه و آله لإیمانهم بالجزاء الحسن والعطاء الجزیل الذی ینتظر المنفقین فی سبیل اللّه: «وَیَتَّخِذُ مَا یُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ».

هنا یؤیّد اللّه تعالی ویصدّق هذا النوع من التفکیر، ویؤکّد علی أنّ هذا الإنفاق یقرب هؤلاء من اللّه قطعاً: «أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ» ولهذا

«سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ» وإذا ما صدرت من هؤلاء هفوات وعثرات، فإنّ اللّه سيغفرها لهم لإيمانهم وأعمالهم الحسنة، ف «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۰۰)

---

(۱) «مغرم»: مأخوذة من مادة (غرم) على وزن (جرم)، وهي في الأصل بمعنى ملازمة الشيء، ولهذه المناسبة قيل للدائن والمدين اللذين لا يدع كل منهما صاحبه: غريم، وأيضاً قيل: غرامة، لنفس هذه المناسبة لأنّها تلازم الإنسان ولا تنقطع عنه إلّاأدائها.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۰۵

هذه الآية تشير إلى مجموعات وفئات مختلفة من المسلمين المخلصين، وقسمتهم إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: السابقون في الإسلام والهجرة: «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ».

الثاني: السابقون في نصرة وحماية النبي صلى الله عليه و آله وأصحابه المهاجرين: «وَالْأَنصَارَ».

الثالث: الذين جاؤوا بعد هذين القسمين واتبعوا خطواتهم ومناهجهم، وقبولهم الإسلام والهجرة، ونصرتهم للدين الإسلامي، فإنّهم إرتبطوا بهؤلاء السابقين: «وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ».

والملفت للنظر هنا فقد قالوا بالإجماع، إنّ أوّل من أسلم من النساء خديجة زوجة النبي صلى الله عليه و آله الوفية المضحية، وأمّا من الرجال فكل علماء الشيعة ومفسريهم، وفريق كبير من أهل السنّة قالوا: إنّ علياً عليه السلام أوّل من أسلم ولبّى دعوة النبي الأكرم صلى الله عليه و آله.

وبعد ذكر هذه الأقسام الثلاثة قالت الآية: «رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ».

إنّ رضى اللّه سبحانه وتعالى عن هؤلاء هو نتيجة لإيمانهم وأعمالهم الصالحة التي عملوها، ورضاهم عن اللّه لما أعد لهم من الجزاء والعطايا المختلفة التي لا تدركها عقول البشر.

ومع أنّ الجملة السابقة قد تضمنت كل المواهب والنعم الإلهية، المادية منها والمعنوية، الجسمية والروحية، لكن الآية أضافت من باب التأكيد، وبيان التفصيل بعد الإجمال:

«وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ». ومن إمتيازات هذه النعمة أنّها خالدة، وسيبقى هؤلاء «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا». وإذا نظرنا إلى مجموع هذه المواهب المادية والمعنوية أيقنا أن «ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». أيّ فوز أعلى وأكبر من أن يدرك الإنسان أن خالقه ومعبوده ومولاه قد رضي عنه، وقد وقّع على قبول أعماله؟

وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (۱۰۱) مرّة اخرى يدير القرآن المجيد دفة البحث إلى أعمال المنافقين وفئاتهم، فيقول: «وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ».

أي يجب أن تأخذوا بنظر الاعتبار المنافقين المتواجدين في أطراف المدينة، وتحذروهم، وتراقبوا أعمالهم ونشاطاتهم الخطرة.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۰۶

ثمّ تضيف الآية بأنّ في المدينة نفسها قسماً من أهلها قد وصلوا في النفاق إلى أقصى درجاته، وثبتوا عليه، وأصبحوا ذوي خبرة في النفاق: «وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ».

«مردوا»: مأخوذة من مادة «مرد» بمعنى الطغيان والعصيان والتمرد المطلق، وهي في الأصل بمعنى التعري والتجرد.

إنّ هؤلاء المنافقين قد انسلخوا من الحق والحقيقة، وتسلطوا على أعمال النفاق إلى درجة أنّهم كانوا يستطيعون أن يظهروا في مصاف المؤمنين الحقيقين، دون أن ينتبه أحد إلى حقيقتهم ومراوغتهم.

إنّ هذا التفاوت فی التعبیر عن المنافقین الداخلیین والخارجیین فی الآیة یلاحظ جلیاً، وربّما کان ذلک إشارة إلی أنّ المنافقین الداخلیین أکثر تسلطاً علی النفاق، وبالتالی فهم أشد خطراً، فعلی المسلمین أن یراقبوا هؤلاء بدقة، لکن یجب أن لا- یغفلوا عن المنافقین الخارجین، بل یراقبونهم أیضاً. لذلک تقول الآیة مباشرة بعد ذلک: «لَاتَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» ومن الطبیعی أنّ هذا إشارة إلی العلم الطبیعی للنبی صلی الله علیه و آله ولکن هذا لا ینافی أن یقف کاملًا علی أسرارهم عن طریق الوحی والتعلیم الإلهی.

وفی النهایة تبین الآیة صورة العذاب الذی سیصب هؤلاء: «سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَیْنِ ثُمَّ یُرَدُّونَ إِلَی عَذَابٍ عَظِیمٍ».

إنّ العذاب العظیم إشارة إلی عذاب یوم القیامة، وفی نوعیة العذابین الآخرین وماهیتهما الذی یرجّحه النظر أنّ واحداً من هذین العذابین هو العقاب الاجتماعی لهؤلاء، والمتمثل فی فضیحتهم وهتک أسرارهم، والکشف عمّا فی ضمائرهم من خبیث النوایا.

والعذاب الثانی هو ما أشارت إلیه الآیة (۵۰) من سورة الأنفال، حیث تقول هناک:

«وَلَوْ تَرَی إِذْ یَتَوَفَّی الَّذِینَ کَفَرُوا الْمَلَئِکَةُ یَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ».

وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحاً وَ آخَرَ سَیِّئاً عَسَی اللَّهُ أَنْ یَتُوبَ عَلَیْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۰۲)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: قال أبو حمزة الثمالی: بلغنا أنّهم ثلاثة نفراً من الأنصار: أبو لبابة بن

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۷

عبد المنذر، وثعلبة بن ودیعة، وأوس بن حذام، تخلّفوا عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله عند مخرجه إلی تبوک، فلما بلغهم ما أنزل اللّه فیمن تخلف عن نبیّه، أیقنوا بالهلاک وأوثقوا أنفسهم بسواری المسجد، فلم یزالوا کذلک حتی قدم رسول اللّه صلی الله علیه و آله، فسأل عنهم، فذکر له أنّهم أقسموا أن لا یحلّون أنفسهم حتی یکون رسول اللّه صلی الله علیه و آله یحلّهم وقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «وأنا أقسم لا أکون من حلّهم إلّاأن اؤمر فیهم بأمر». فلما نزل «عَسَی اللَّهُ أَن یَتُوبَ عَلَیْهِمْ» عمد رسول اللّه صلی الله علیه و آله إلیهم، فحلّهم فانطلقوا فجاءوا بأموالهم إلی رسول اللّه، فقالوا: هذه أموالنا التی خلفتنا عنک فخذها، وتصدّق بها عنّا. قال صلی الله علیه و آله: «ما امرت فیها». فنزل «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً» الآیات.

التّفسیر

بعد أن أشارت الآیة السابقة إلی وضع المنافقین فی داخل المدینة وخارجها، أشارت هذه الآیة هنا إلی وضع جمع من المسلمین العاصین الذین أقدموا علی التوبة لجبران الأعمال السیئة التی صدرت منهم، ورجاء لمحوها: «وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صلِحًا وَءَاخَرَ سَیِّئًا عَسَی اللَّهُ أَن یَتُوبَ عَلَیْهِمْ» ویشملهم برحمته الواسعة ف «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِیمٌ».

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَکِّیهِمْ بِهَا وَ صَلِّ عَلَیْهِمْ إِنَّ صَلَاتَکَ سَکَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۱۰۳) أَ لَمْ یَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ یَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ یَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ (۱۰۴) وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَیَرَی اللَّهُ عَمَلَکُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلَی عَالِمِ الْغَیْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَیُنَبِّئُکُمْ بِمَا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۰۵) الزکاة مطهرة للفرد والمجتمع: فی الآیة الاولی من هذه الآیات إشارة إلی أحد الأحکام الإسلامیة المهمة، وهی مسألة الزکاة، حیث تأمر النبی صلی الله علیه و آله بشکل عام أن: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً».

إنّ حکم «خذ» دلیل واضح علی أنّ رئیس الحکومة الإسلامیة یستطیع أن یأخذ الزکاة من الناس، لا أنه ینتظر الناس فإن شاؤوا أدّوا الزکاة، وإلّا فلا.

ثمّ تشیر إلی قسمین من الفلسفة الأخلاقیة والاجتماعیة للزکاة، حیث تقول: «تُطَهّرُهُمْ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۸

وَتُزَکّیهِم بِهَا». فهی تطهرهم من الرذائل الأخلاقیة، ومن حبّ الدنیا وعبادتها، ومن البخل وغیره من مساویء الأخلاق، وتزرع مکانها خلال الحب والسخاء ورعایة حقوق الآخرین فی نفوسهم. وفوق کل ذلک فإنّ المفاسد الاجتماعیة والانحطاط الخلقی والاجتماعی

المتولد من الفقر والتفاوت الطبقى والذى يؤدّى إلى وجود طبقة محرومة، كل هذه الامور ستقتلع بتطبيق هذه الفريضة الإلهية وأدائها.
ثم تضيف الآية فى خطابها للنبى صلى الله عليه و آله بأنّك حينما تأخذ الزكاة منهم فادع لهم «وَصَلِّ عَلَيْهِمْ». إنّ هذا يدل على وجوب شكر الناس وتقديرهم، حتى إذا كان مايؤدونه واجباً عليهم وحكماً شرعياً يقومون به، وترغيبهم بكل الطرق، وخاصة المعنوية والنفسية.

فى المجمع روى عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللّهمّ صلّ عليهم».

ثم تقول الآية: «إِنَّ صَلَوتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ» لأنّ من بركات هذا الدعاء أن تنزل الرحمة الإلهية عليهم، وتغمر قلوبهم ونفوسهم إلى درجة أنّهم كانوا يحسون بها.

وفى نهاية الآية نقرأ: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» وهذا الختام هو المناسب لما سبق من بحث فى الآية، إذ إنّ اللّه سبحانه يسمع دعاء النبى صلى الله عليه و آله، ومطلع على نيات المؤدين للزكاة.

ولما كان بعض المذنبين- كالمتخلفين عن غزوة تبوك- يصرّون على النبى صلى الله عليه و آله فى قبول توبتهم، أشارت الآية الثانية من الآيات التى بين يدينا إلى أنّ قبول التوبة ليس مرتبطاً بالنبى صلى الله عليه و آله، بل باللّه الغفور الرحيم، لذا قالت: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ». ولا ينحصر الأمر بتوقف قبول التوبة على قبول اللّه لها، بل إنّه تعالى هو الذى يأخذ الزكاة والصدقات الاخرى التى يعطيها العباد تقرباً إليه، أو تكفيراً لذنوبهم: «وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ».

إنّ هذا التعبير من ألطف التعبيرات التى تجسّد عظمة هذا الحكم الإسلامى- أى الزكاة- فبالرغم من ترغيب كل المسلمين ودعوتهم إلى القيام بهذه الوظيفة الإلهية الكبيرة، فإنّها تحذرهم بشدّة وتأمرهم بأن يراعوا الآداب الإسلامية ويتقيّدوا باحترام من يؤدّونها إليه، لأنّ من يأخذها هو اللّه عز وجل.

فى المجمع عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «إنّ الصدقة تقع فى يد اللّه قبل أن تصل إلى يد السائل».

وفى تفسير العياشى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما من شىء إلّاوكّل به ملك إلّاالصدقة فإنّها تقع فى يد اللّه».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۰۹

ثم قالت الآية فى النهاية من باب التأكيد: «وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

وتؤكّد الآية التى تليها البحوث التى مرّت بصورة جديدة، وتأمر النبى صلى الله عليه و آله أن يبلغ الناس: «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ». فهى تشير إلى أن لا يتصور أحد أنّه إذا عمل عملًا، سواء فى خلوته أو بين الناس فإنّه سيخفى على علم اللّه سبحانه، بل إنّ الرسول صلى الله عليه و آله والمؤمنين يعلمون به إضافةً إلى علم اللّه عزّ وجلّ.

إنّ هذا الإطلاع هو مقدمة للثواب أو العقاب الذى ينتظره فى العالم الآخر، لذا فإنّ الآية الكريمة تعقب على ذلك مباشرة وتقول: «وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

مسألة عرض الأعمال: إنّ بين أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام ونتيجة للأخبار الكثيرة الواردة عن الأئمّة عليهم السلام عقيدة معروفة ومشهورة، وهى أنّ النبى صلى الله عليه و آله والأئمّة عليهم السلام يطلعون على أعمال كل الامّة، أى أنّ اللّه تعالى يعرض أعمالها بطرق خاصه عليهم.

إنّ مسألة عرض الأعمال لها أثر عظيم على المعتقدين بها، فإنّى إذا علمت أنّ اللّه الموجود فى كل مكان معى، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ نبيى وأئمتى عليهم السلام يطلعون على كل أعمالى، الحسنة والسيئة فى كل يوم، أو فى كل اسبوع، فلا شك أنّى سأكون أكثر مراقبة ورعاية لما يبدر منّى من أعمال، وأحاول تجنب السيئة منها ما أمكن.

وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۰۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت الآية فى (ثلاثة من المتخلفين عن تبوك وهم:) هلال بن امية الواقفى، ومرارة بن ربيع، وكعب بن مالك، وهم من الأوس والخزرج وكان كعب بن مالك رجل صدق غير مطعون عليه، وإنّما تخلف توانياً عن الإستعداد، حتى فاته المسير وانصرف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: واللَّه ما لى من عذر ولم يعتذر إليه بالكذب فقال صلى الله عليه و آله: «صدقت، فمر حتى يقضى اللَّه فيك». وجاء الآخران فقالا مثل ذلك وصدقا. فنهى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن مكالمتهم وأمر نساءهم باعتزالهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فأقاموا على ذلك خمسين ليلة وبنى كعب خيمة على سلع يكون فيها وحده. ثم نزلت التوبة عليهم بعد الخمسين فى الليل وهو قوله تعالى «وَعَلَى الثَّلَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا» الآية (١١٨) من هذه السورة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ٣١٠

التّفسير

فى هذه الآية إشارة إلى مجموعة من المذنبين الذين لم تتّضح جيداً عاقبة أمرهم، فلا هم مستحقون حتماً للرحمة الإلهية، ولا من المغضوب عليهم حتماً، لذا فإنّ القرآن الكريم يقول فى حقّهم: «وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ».

وتضيف الآية- بعد ذلك- أنّ اللَّه سبحانه سوف لا يحكم على هؤلاء بدون حساب، بل يقضى بعلمه وحكمته: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

سبب النّزول

تتحدث الآيات أعلاه عن جماعة اخرى من المنافقين الذين أقدموا- من أجل تحقيق أهدافهم المشؤومة- على بناء مسجد فى المدينة، عرف فيما بعد ب (مسجد الضرار).

فى تفسير مجمع البيان: قال المفسرون: إنّ بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء وبعثوا إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يأتيهم فأتاهم وصلّى فيه فحسدهم عن جماعة من المنافقين من بنى غنم بن عوف، فقالوا: نبنى مسجداً فنصلّى فيه ولا نحضر جماعة محمّد. فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء فلما فرغوا منه، أتوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهو يتجهّز إلى تبوك فقالوا: يا رسول اللَّه! إنّا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنّا نحبّ أن تأتينا فتصلّى فيه لنا وتدعو بالبركة. فقال: «إنّى على جناح سفر، ولو قدمنا أتيناكم إن شاء اللَّه

مختصر الامثل، ج۲، ص: ٣١١

فصلّينا لكم فيه». فلما انصرف رسول اللَّه من تبوك، نزلت عليه الآية فى شأن المسجد.

وكشف الستار عن أعمال هؤلاء، فأمر النبى صلى الله عليه و آله بحرق المسجد المذكور، وبهدم بقاياه، وأن يُجعل مكانه محلًا لرمى القاذورات والأوساخ.

التّفسير

معبد وثنى فى صورة مسجد: أشارت الآيات السابقة إلى وضع مجاميع مختلفة من المخالفين، وتُعرّف الآيات التى نبحثها مجموعة اخرى منهم، المجموعة التى دخلت حلبة الصراع بخطة دقيقة وذكية، إلّاأنّ اللطف الإلهى أدرك المسلمين، وبدد أحلام المنافقين بإبطال مكرهم وإحباط خطتهم. فالآية الاولى تقول: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا» وأخفوا أهدافهم الشريرة تحت هذا الإسم المقدس، ثم لخصت أهدافهم فى أربعة أهداف:

١- إنّ هؤلاء كانوا يقصدون من هذا العمل إلحاق الضرر بالمسلمين، فكان مسجدهم «ضِرَارًا».

۲- تقوية اسس الكفر، ومحاولة إرجاع الناس إلى الحالة التى كانوا يعيشونها قبل الإسلام: «وَكُفْرًا».

۳- إيجاد الفرقة بين المسلمين، لأنّ اجتماع فئة من المسلمين فى هذا المسجد سيقلل من عظمة التجمع فى مسجد قبا الذى كان قريباً منه، أو مسجد النبى صلى الله عليه و آله الذى كان يبعد عنه «وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ».

ويظهر من هذه الجملة- وكذلك فهم بعض المفسرين- أنّ المسافة بين المساجد يجب أن لا تكون قليلة بحيث يؤثر الاجتماع فى مسجد على جماعة المسجد الآخر.

۴- والهدف الأخير لهؤلاء هو تأسيس مقر ومركز لإيواء المخالفين للدين وأصحاب السوابق السيئة، والإنطلاق من هذا المقر فى سبيل تنفيذ خططهم ومؤامراتهم: «وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ».

إلّا أنّ مما يثير العجب أنّ هؤلاء قد أخفوا كل هذه الأغراض الشريرة والأهداف المشؤومة فى لباس جميل ومظهر خداع، وأنّهم لايريدون إلّاالخير: «وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى .

إلّا أنّ القرآن الكريم يبين أنّ اللّه تعالى الذى يعلم السرائر وما فى مكنون الضمائر، والذى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۲

تساوى لديه الظاهر والباطن، والغيب والشهادة يشهد على كذب هؤلاء: «وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ». يؤكّد اللّه سبحانه وتعالى فى الآية التالية تأكيداً شديداً على مسألة حياتية مهمة، ويأمر نبيّه بصراحة أن «لَاتَقُمْ فِيهِ أَبَدًا» بل «لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ» لا المسجد الذى أسس من أوّل يوم على الكفر والنفاق وتقويض أركان الدين.

ثمّ يضيف القرآن الكريم أنّه بالإضافة إلى أنّ هذا المسجد قد أسس على أساس التقوى، فإنّ «فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ».

إنّ للطهارة هنا معنى واسعاً يشمل كل أنواع التطهير، سواء التطهير الروحى من آثار الشرك والذنوب، أو التطهير الجسمى من الأوساخ والنجاسات.

وفى الآية الثالثه من الآيات مقارنة بين فريقين وفئتين: المؤمنين الذين بنوا مساجد كمسجد قبا على أساس التقوى، والمنافقين الذين بنوه على أساس الكفر والنفاق والتفرقة والفساد. فهى تقول أوّلًا: «أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ».

إنّ التشبيه الوارد أعلاه يعطى صورة فى منتهى الوضوح عن عدم ثبات أعمال المنافقين وتزلزلها، وفى المقابل استحكام ودوام أعمال المؤمنين ونشاطاتهم وبرامجهم.

ومن هنا، فإنّ المنافقين يظلمون أنفسهم ويظلمون المجتمع أيضاً ولذلك فإنّ الآية اختتمت بقوله: «وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

وفى آخر آية إشارة إلى إصرار المنافقين وعنادهم، فهى تعبّر عن تعصبهم وإصرارهم فى أعمالهم، وعنادهم فى نفاقهم، وحيرتهم فى ظلمة كفرهم، فهم فى شك من بنيانهم الذى بنوه، أو فى النتيجة المرجوة منه، وسيبقون فى هذه الحال حتى موتهم: «لَايَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ».

وتقول الآية أخيراً: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

فإنّه تعالى إنّما أمر نبيّه صلى الله عليه و آله بهدم هذا البناء الذى يحمل صفة الحق ظاهراً، حتى تتبيّن نيّات السوء التى انطوى عليها هؤلاء، وتنكشف حقائقهم وبواطنهم وهذا الحكم الإلهى هو عين الحكمة، وحسب صلاح المجتمع الإسلامى، وقد صدر على هذا الأساس.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۳

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِى التَّوْرَاةِ وَ

الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۱۱) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۲) لمّا كان الكلام فی الآيات السابقة عن المتخلفين عن الجهاد، فإنّ هاتين الآيتين قد بيّنتا المقام الرفيع للمجاهدين المؤمنين مع ذكر مثال رائع. لقد عرّف اللّه سبحانه وتعالى نفسه فی هذا المثال بأنّه مشترٍ، والمؤمنين بأنّهم بائعون، وقال: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ».

ولمّا كانت كل معاملة تتكون فی الحقيقة من خمسة أركان أساسية، فقد أشار اللّه سبحانه إلى كل هذه الأركان، فجعل نفسه مشترياً، والمؤمنين بائعين، وأموالهم وأنفسهم متاعاً وبضاعة، والجنة ثمناً لهذه المعاملة، غاية ما فی الأمر أنه بيّن طريقة تسليم البضاعة بتعبير لطيف، فقال: «يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ».

ثم يشير بعد ذلك إلى سند المعاملة الثابت، والذی يشكل الركن الخامس فيها، فقال:

«وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَيةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْءَانِ».

ثم، ومن أجل التأكيد على هذه المعاملة، تضيف الآية: «وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ». أی إنّ ثمن هذه المعاملة وإن كان مؤجلًا، إلّاأنّه مضمون، ولا وجود لأخطار النسيئة، لأنّ اللّه تعالى لقدرته واستغنائه عن الجميع أوفى من الكل بعهده.

والأروع من كل شیء أنّه تعالى قد بارك للطرف المقابل صفقته، ويتمنى لهم أن تكون صفقة وفيرة الربح، تماماً كما هو المتعارف بين التجار، فيقول عزّ وجل: «فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۴

كما هی طريقة القرآن المجيد، حيث إنّه يُجمِل الكلام فی آية، ثم يعمد إلى التفصيل فی الآية التی تليها، فقد بيّن سبحانه فی الآية الثانية حال البائعين للروح والمال لربّهم عزّ وجل، فذكر تسع صفات مميزة لهم: ۱- فهم يغسلون قلوبهم وأرواحهم من رين الذنوب بماء التوبة: «التَّئِبُونَ».

۲- وهم يطهرون أنفسهم فی نفحات الدعاء والمناجاة مع ربّهم: «الْعَبِدُونَ».

۳- وهم يحمدون ويشكرون كل نعم اللّه المادية والمعنوية: «الْحَمِدُونَ».

۴- وهم يتنقلون من مكان عبادة إلى آخر: «السَّئِحُونَ».

وبهذا الترتيب فإنّ برامج تربية النفس عند هؤلاء لا تنحصر فی العبادة، أو فی إطار محدود، بل إنّ كل مكان هو محل عبادة للّهوجهاد للنفس وتربية لها بالنسبة لهؤلاء، وكل مكان يوجد فيه درس وعبرة لهؤلاء فإنّهم سيقصدونه.

۵- وهم يركعون مقابل عظمة اللّه: «الرَّاكِعُونَ».

۶- ويضعون جباههم على التراب أمام خالقهم ويسجدون له: «السَّاجِدُونَ».

۷- وهم يدعون الناس لعمل الخير: «الْأَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ».

۸- ولم يقتنعوا بهذه الدعوة للخير، بل حاربوا كل منكر وفساد: «وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ».

۹- وبعد أدائهم وظيفة الأمر بالمعروف والنهی عن المنكر، يقومون بأداء آخر وأهم واجب اجتماعی، أی حفظ الحدود الإلهية وإجراء قوانين اللّه، وإقامة الحق والعدالة:

«وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ».

وبعد ذكر هذه الصفات التسع فإنّ اللّه يرغّب- مرّة اخرى- أمثال هؤلاء المؤمنين المخلصين الذين هم ثمرة منهج الإيمان والعمل، ويقول للنبی صلى الله عليه و آله: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ».

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (۱۱۳) وَ مَا كَانَ

اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (۱۱۴)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۵

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: إنّ المسلمين قالوا للنبى صلى الله عليه و آله: ألا تستغفر لآبائنا الذين ماتوا فى الجاهلية؟ فأنزل اللّه سبحانه هذه الآية وبيّن أنّه لا ينبغى لنبى، ولا مؤمن، أن يدعو لكافر، ويستغفر له.

التّفسير

نهت الآية الاولى النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين عن الاستغفار للمشركين بلهجة قاطعة وحادة، فهى تقول: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ». ولكى تؤكّد ذلك قالت:

«وَلَوْ كَانُوا أُولِى قُرْبَى .

ثم أنّ القرآن الكريم بيّن سبب ودليل هذا الحكم فقال: «مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ».

فإنّ هذا العمل- أى الاستغفار للمشركين- عمل لا معنى له وفى غير محله، لأنّ المشرك لا يمكن العفو عنه بأى وجه، ولا سبيل لنجاة من سار فى طريق الشرك.

ولما كان المسلمون العارفون بالقرآن قد قرأوا من قبل أن إبراهيم استغفر لعمه آزر، ولذا فمن الممكن جدّاً أن يتبادر إلى اذهانهم هذا السؤال: ألم يكن آزر مشركاً؟ وإذا كان هذا العمل منهياً عنه فكيف يفعله هذا النبى الكبير؟

لهذا نرى أنّ الآية الثانية تتطرق لهذا السؤال وتجيب عليه مباشرة لتطمئن القلوب، فقالت: «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ».

وفى آخر الآية توضيح بأنّ إبراهيم كان إنساناً خاضعاً بين يدى اللّه عزّ وجلّ، وخائفاً من غضبه، وحليماً واسع الصدر، فقالت: «إِنَّ إِبْرهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ».

ضرورة قطع كل رابطة بالأعداء: إنّ هذه الآية ليست الوحيدة التى تتحدث عن قطع كل رابطة بالمشركين، بل يستخلص من عدّة آيات فى القرآن الكريم أنّ كل إرتباط وتضامن وعلاقة، العائلية منها وغيرها، يجب أن تخضع لإطار العلاقات العقائدية، ويجب أن يحكم الانتماء إلى اللّه ومحاربة كل أشكال الشرك والوثنية، كل أشكاليات الترابط بين المسلمين، لأنّ هذا الإرتباط هو الأساس والحاكم على كل مقدراتهم الاجتماعية، ولا تستطيع

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۶

العلاقات والروابط السطحية والفوقية أن تنفيه.

إنّ هذا درس كبير للأمس واليوم، وكل الأعصار والقرون.

وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۱۵) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (۱۱۶)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: مات قوم من المسلمين على الإسلام قبل أن تنزل الفرائض، فقال المسلمون: يا رسول اللّه! إخواننا الذين ماتوا قبل الفرائض، ما منزلتهم؟ فنزل «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا» الآية.

التّفسير

إنّ الآية الاولى تشير إلى قانون كلّى وعام، يؤيده العقل أيضاً، وهو أنّ اللّه سبحانه وتعالى مادام لم يبيّن حكماً، ولم يصل شىء من الشرع حوله، فإنّه تعالى سوف لا يحاسب عليه أحداً، وبتعبير آخر: فإنّ التكليف والمسؤولية تقع دائماً بعد بيان الأحكام، وهذا هو

الـذى يعبر عنه فى علم الاصول بقاعـدة (قبح العقاب بلا بيان). ولـذلك فأوّل ما تطالعنا به الآيـة قوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ».

وأخيراً تقول الآيـة: «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ». أى إنّ علم اللّه يحتم ويؤكّـد على أنّ اللّه سبحانه مادام لم يبين الحكم الشرعى لعباده، فإنّه سوف لايؤاخذهم أو يسألهم عنه.

وتستند الآيـة التاليـة على هـذه المسألـة وتؤكد: «إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ» وأنّ نظام الحياة والموت أيضاً بيد قدرته، فإنّه هو الذى «يُحْيِ وَيُمِيتُ» وعلى هذا: «وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ». وهو إشارة إلى أنّه لما كانت كل القدرات والحكومات فى عالم الوجود بيده، وخاضعة لأمره، فلا ينبغى لكم أن تتكلوا على غيره، وتلتجئوا إلى البعيدين عن اللّه وإلى أعدائه وتوادّوهم، وتوثّقوا علاقتكم بهم عن طريق الاستغفار وغيره.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۷

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِیِّ وَ الْمُهَاجِرِینَ وَ الْأَنْصارِ الَّذِینَ اتَّبَعُوهُ فِی سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا کَادَ یَزِیغُ قُلُوبُ فَرِیقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَیْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِیمٌ (۱۱۷) وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِینَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَیْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ ضَاقَتْ عَلَیْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَیْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَیْهِمْ لِیَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ (۱۱۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيـان: نزلت الآيـة الاولى فى غزاة تبوك، وما لحق المسلمين فيها من العسرة، حتى همّ قوم بالرجوع، ثم تـداركهم لطف اللّه سبحانه.

وأمّا الآيـة الثانيـة: فإنّها نزلت فى شأن كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن اميـة وذلك أنّهم تخلفوا عن رسول اللّه صلـى الله عليه و آله ولم يخرجوا معه، لا عن نفاق، ولكن عن توان، ثم ندموا. فلما قدم النبى صلـى الله عليه و آله المدينة، جاؤوا إليه، واعتذروا، فلم يكلّمهم النبى صلـى الله عليه و آله وتقـدم إلى المسـلمين بـأن لا يكلّمهم أحـد منهم، فهجرهم الناس حتى الصبيان. فضاقت عليهم المدينـة، فخرجوا إلى رؤوس الجبـال، وكـان أهـاليهم يجيئون لهم بالطعـام، ولاـ يكلّمونهم، فقال بعضـهم لبعض: قـد هجرنا الناس ولا يكلّمنـا أحـد منهم، فهلا نتهاجر نحن أيضاً! فتفرقوا، ولم يتجمع منهم اثنان، وبقوا على ذلك خمسـين يوماً، يتضـرعون إلى اللّه تعالى، ويتوبون إليه فقبل اللّه تعالى توبتهم، وأنزل فيهم هذه الآية.

التّفسير

تتحدّث هـذه الآيـات أيضـاً عن غزوة تبوك، فتشير الآيـة الاولى إلى رحمـة اللّه اللامتناهيـة التـى شـملت النبى صـلى الله عليه و آله والمهاجرين والأنصار فى اللحظات الحساسة، وتقول:

«لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِىِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ».

ثم تُبين أنّ شـمول هذه الرحمة الإلهية لهم كان فى وقت اشـتدت فيه الحوادث والضـغوط والاضـطرابات إلى الحد الذى أوشـكت أن تزل فيه أقدام بعض المسلمين عن جادة الصواب، (وصمّموا على الرجوع من تبوك) فتقول: «مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۸

ثم تؤكّـد مرّة اخرى على أنّ اللّه سبحانه قد تاب عليهم، فتقول: «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ». ولم تشـمل الرحمة الإلهية هذا القسم الكبير الـذى شارك فى الجهاد فقط، بل شـملت حتى الثلاثـة الـذين تخلفوا عن القتال ومشاركـة المجاهدين فى ساحة الجهاد: «وَعَلَى الثَّلَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا».

إلّا أنّ اللطف الإلهى لم يشـمل هؤلاء المتخلفين بهذه السهولة، بل عندما عاش هؤلاء- وهم كعب بن مالك ومرارة بن ربيع وهلال بن أمية، الذين مرّ شـرح حالهم فى سبب النزول- مقاطعةً اجتماعية شديدة، وقاطعهم كل الناس بالصورة التى تصورها الآية، فتقول: «حَتَّى

إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ».

بـل إنّ صـدور هؤلاء امتلأت همّاً وغمّاً بحيث ظنوا أن لا مكان لهم فى الوجود، فكأنّه ضاق عليهم «وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ» فابتعد أحدهم عن الآخر وقطعوا العلاقة فيما بينهم.

عند ذلك رأوا كل الأبواب مغلقة بوجوههم فأيقنوا «وَظَنُّوا أن لَّامَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ» فأدركتهم رحمة اللّه مرّة اخرى، وسهلت ويسّرت عليهم أمر التوبة الحقيقية، والرجوع إلى طريق الصواب ليتوبوا: «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (۱۱۹) كونوا مع الصادقين: فى الآيات السابقة كان الحديث حول جماعة من المتخلفين الذين نقضوا عهدهم مع اللّه ورسوله، أمّا هذه الآية فقد أشارت إلى النقطة المقابلة لهؤلاء، فهى تأمر بتحكيم الروابط مع الصادقين الذين حافظوا على عهدهم وثبتوا عليه. فى البداية تقول الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ». ولأجل أن يستطيعوا سلوك طريق التقوى الملىء بالمنعطفات والاخطار بدون اشتباه وانحراف أضافت: «وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ».

والصادقين هم الذين يؤدون تعهداتهم أمام الإيمان باللّه على أحسن وجه دون أى تردد أو تماهل ولا يخافون سيل المصاعب والعقبات، بل يُثبتون صدق إيمانهم بأنواع الفداء والتضحية.

ولا شك أنّ لهذه الصفات درجات، فقد يكون البعض فى قمّتها، وهم الذين نسمّيهم بالمعصومين، والبعض فى درجات أقل وأدنى منها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۱۹

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ لَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لَا نَصَبٌ وَ لَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۱۲۰) وَ لَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لَا كَبِيرَةً وَ لَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۱)

كان البحث فى الآيات السابقة حول توبيخ وملامة الممتنعين عن الاشتراك فى غزوة تبوك، وتبحث هاتان الآيتان البحث النهائى لهذا الموضوع كقانون كلّى. فالآية الاولى تقول:

«مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَن حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ» لأنّه قائد الامّة، ورسول اللّه، ورمز بقاء وحياة الامّة الإسلامية.

من البديهى أنّ التأكيد على أهل المدينة وأطرافها إنّما هو لأنّ المدينة كانت مقرّ الإسلام يومئذ ومركزه المشع، وإلّا فإنّ هذا الحكم غير مختص بالمدينة وأطرافها، وغير مختص بالنّبى صلى الله عليه و آله فإنّ واجب كل المسلمين، وفى جميع العصور أن يحترموا ويكرموا قادتهم كأنفسهم، بل أكثر، ويبذلون قصارى جهدهم فى سبيل الحفاظ عليهم، ولا يتركوهم يواجهون الصعاب والأخطار وحدهم، لأنّ الخطر الذى يحدق بهؤلاء يحدق بالامّة جميعاً.

ثمّ تشير الآية إلى مكافآت المجاهدين المعدة مقابل كل صعوبة يلاقونها فى طريق الجهاد، وتذكر سبعة أقسام من هذه المشاكل والصعاب وثوابها، فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لَايُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صلِحٌ». ومن المحتم أنّهم سيقبضون جوائزهم من اللّه سبحانه، واحدة بواحدة، ف «إِنَّ اللَّهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ». وكذلك فإنّهم لا يبذلون شيئاً فى أمر الجهاد:

«وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً» ولا يقطعون أرضاً فى ذهابهم للوصول إلى ميدان القتال، أو عند رجوعهم منه إلّاثبت كل ذلك فى كتبهم: «وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ» وإنّما يثبت ذلك «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۰

وَ مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ

(۱۲۲)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إذا خرج غازياً، لم يتخلف عنه إلّا المنافقون والمعذرون. فلما أنزل اللَّه تعالى عيوب المنافقين، وبيّن نفاقهم فى غزاة تبوك، قال المؤمنون: واللَّه لا نتخلف عن غزاة يغزوها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولا سرية أبداً! فلما أمر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بالسرايا إلى الغزو، نفر المسلمون جميعاً وتركوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وحده فأنزل اللَّه سبحانه «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا» الآية.

التّفسير

محاربة الجهل وجهاد العدو: إنّ لهذه الآية إرتباطاً بالآيات السابقة حول موضوع الجهاد، وتشير إلى حقيقة حياتية بالنسبة للمسلمين، وهى: أنّ الجهاد وإن كان عظيم الأهمية، والتخلف عنه ذنب وعار، إلّاأنّه فى غير الحالات الضرورية لا لزوم لتوجه المؤمنين كافة إلى ساحات الجهاد، خاصة فى الموارد التى يبقى فيها النبى صلى الله عليه و آله فى المدينة، بل يبقى منهم جماعة لتعلم أحكام الدين ويتوجه الباقون إلى الجهاد: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدّينِ».

فإذا رجع أصحابهم من الجهاد يقومون بتعليمهم هذه الأحكام والمعارف الإسلامية، ويحذرونهم من مخالفتها: «وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ» والهدف من ذلك أن يحذر هؤلاء عن مخالفة أوامر اللَّه سبحانه بانذارهم «لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ».

المسألة المهمة التى يمكن استخلاصها من الآية، هى الأهمية الخاصة التى أولاها الإسلام لمسألة التعليم والتعلم، إلى الدرجة التى ألزم فيها المسلمين بأن لا يذهبوا جميعاً إلى ميدان الحرب، بل يجب أن يبقى قسم منهم لتعلم الأحكام والمعارف الإسلامية.

إنّ هذا يعنى أنّ محاربة الجهل واجب كمحاربة الأعداء، ولا تقل أهمية أحد الجهادين عن الآخر. بل إنّ المسلمين مالم ينتصروا فى محاربتهم للجهل واقتلاع جذوره من المجتمع فإنّهم سوف لا ينتصرون على الأعداء (لأنّ الامة الجاهلة محكومة بالهزيمة دائماً).

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۱

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (۱۲۳) قتال الأقرب فالأقرب: أشارت الآية فى سياق أحكام الجهاد التى ذكرت لحد الآن فى هذه السورة- إلى أمرين آخرين فى هذا الموضوع الإسلامى المهم، فوجهت الخطاب أوّلًا إلى المؤمنين وقالت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ».

إنّ هذه الآية بالرغم من أنها تتحدث عن العمل المسلح والبعد المكانى، إلّاأنّه ليس من المستبعد أنّ روح الآية حاكمة فى الأعمال المنطقية والفواصل المعنوية، أى إنّ المسلمين عندما يعزمون على المجابهة المنطقية والإعلامية والتبليغية يجب أن يبدؤوا بمن يكون أقرب إلى المجتمع الإسلامى وأشدّ خطراً عليه، فمثلًا فى عصرنا الحاضر نرى أنّ خطر الإلحاد والمادية يهدد كل المجتمعات، فيجب تقديم التصدّى لها على مواجهة المذاهب الباطلة الاخرى وهذا لا يعنى نسيان هؤلاء، بل يجب اعطاء الأهمية القصوى للهجوم نحو الفئة الأخطر، وهكذا فى مواجهة الاستعمار الفكرى والسياسى والاقتصادى التى تحوز الدرجة الاولى من الأهمية.

والأمر الثانى فيما يتعلق بالجهاد فى الآية، هو اسلوب الحزم والشدّة، فهى تقول: إنّ العدو يجب أن يلمس فى المسلمين نوعاً من الخشونة والشدّة: «وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً» وهى تشير إلى أنّ الشجاعة والشهامة الداخلية والإستعداد النفسى لمقابلة العدو ومحاربته ليست كافية بمفردها، بل يجب اظهار هذا الحزم والصلابة للعدو ليعلم أنّكم على درجة عالية من المعنويات، وهذا بنفسه سيؤدى إلى هزيمتهم وانهيار معنوياتهم.

وبعبارة اخرى فإنّ امتلاك القدرة ليس كافياً، بل يجب استعراض هذه القوة أمام العدو.

وفى النهاية تبشر الآية المسلمين بالنصر من خلال هذه العبارة: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ». ويمكن أن يشير هذا التعبير- إضافةً لما قيل- إلى أنّ استعمال الشدّة والخشونة يجب أن يقترن بالتقوى، ولا يتعدى الحدود الإنسانية فى أى حال.

وَ إِذا مـا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هـذِهِ إِيمانـاً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۱۲۴) وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ (۱۲۵)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۲

تأثير آيات القرآن المتباين على القلوب: تشير هاتان الآيتان إلى واحدة من علامات المؤمنين والمنافقين البارزة، تكملةً لما مرّ من البحوث حولهما. فتقول أوّلًا: «وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هـذِهِ إِيمنًا». وهم يريدون بكلامهم هذا أن يبينوا عدم تأثير سور القرآن فيهم، وعدم اعتنائهم بها، ويقولون: إنّ هذه الآيات لا تحتوى على الشيء المهم والمحتوى الغنى، بل هى كلمات عادية ومعروفة.

ولكن القرآن يجيبهم بلهجة قاطعة، ويقول ضمن تقسيم الناس إلى طائفتين: «فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ».

وهذا على خلاف المنافقين ومرضى القلوب من الجهل والحسد والعناد «وأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ».

وفى النهاية فإنّ هؤلاء بعنادهم يغادرون الدنيا على الكفر: «وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ».

إنّ القرآن الكريم يؤكّد من خلال هاتين الآيتين على حقيقة، وهى أنّ وجود البرامج والقوانين الحياتية لا تكفى بمفردها لسعادة فرد أو جماعة، بل يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار وجود الأرضية المهيئة والإستعداد للتلقى كشرط أساسى.

أَ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَ لا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (۱۲۶) وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (۱۲۷) يستمر الكلام فى هذه الآيات حول المنافقين، وهى توبّخهم وتذمهم فتقول: «أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ». والعجيب أنّهم رغم هذه الامتحانات المتلاحقة لا يعتبرون «ثُمَّ لَايَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ».

يظهر من تعبير الآية أنّ هذا الاختبار يختلف عن الاختبار العام الذى يواجهه كل الناس فى حياتهم، بل انّ هذا الاختبارات التى ينبغى أن تكون سبباً فى توعية هذه المجموعة كإزاحة الستار عن أعمال هؤلاء السيئة وظهور باطنهم وحقيقتهم.

ثم تشير الآية إلى الموقف الإنكارى لهؤلاء فى مقابل الآيات الإلهية، فتقول: «وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۳

إنّ خوف هؤلاء وقلقهم ناشئ من أنّ تلك السورة تتضمن فضيحة جديدة لهم، أو لأنّهم لا يفهمون منها شيئاً لعمى قلوبهم، والإنسان عدوّ ما يجهل.

وعلى كل حال، فإنّهم كانوا يخرجون من المسجد حتى لا يسمعوا هذه الأنغام الإلهية، إلّا أنّهم كانوا يخشون أن يراهم أحد حين خروجهم، ولذلك كان أحدهم يهمس فى أذن صاحبه ويسأله: «هَلْ يَرَيكُم مِّنْ أَحَدٍ»؟ وإذا ما أطمأنوا إلى أنّ الناس منشغلون بسماع كلام النبى صلى الله عليه و آله وغير ملتفتين إليهم خرجوا: «ثُمَّ انصَرَفُوا».

وتطرّقت الآية فى الختام إلى ذكر علة هذا الموضوع فقالت: إنّ هؤلاء إنّما لا يريدون سماع كلمات اللَّه سبحانه ولا يرتاحون لذلك لأنّ قلوبهم قد حاقت بها الظلمات لعنادهم ومعاصيهم فصرفها اللَّه سبحانه عن الحق، وأصبحوا أعداءً للحق لأنّهم أناس جاهلون لا فكر لهم: «صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّايَفْقَهُونَ».

لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (۱۲۸) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (۱۲۹) آخر آيات القرآن المجيد: إنّ هذه الآيات برأى بعض المفسّرين، هى آخر الآيات التى نزلت على النبى صلى الله عليه و آله وبها تنتهى سورة التوبة، فهى فى الواقع إشارة إلى كل المسائل التى مرّت فى هذه السورة. ومن هنا فإنّ خطاب الآية الاولى موجّه للناس، فهى تقول: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ». خاصة وأنّه قد وردت لفظة «مِّنْ أَنفُسِكُمْ» وهى تشير إلى شدة إرتباط النبى صلى الله عليه و آله بالناس، حتى كأنّ قطعة من روح الناس والمجتمع قد ظهرت بشكل النبى صلى الله

عليه و آله.

فبعد ذكر هذه الصفة «مِّنْ أَنفُسِكُمْ» أشارت الآية إلى أربع صفات اخرى من صفات النبى صلى الله عليه و آله السامية، والتى لها الأثر العميق فى إثارة عواطف الناس وجلب انتباههم وتحريك أحاسيسهم. ففى البداية تقول: «عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ». أى أنّ الأمر لا ينتهى فى أنّه لا يفرح لأذاكم ومصاعبكم، بل إنّه لا يقف موقف المتفرج تجاه هذا الأذى، فهو يتألم لألمكم.

ثم تضيف أنّه: «حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ» ويتحمس لهدايتكم.

ثم تشير إلى الصفتين الثالثة والرابعة وتقول: «بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ». وعلى هذا فإنّ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۴

كل الأوامر الصعبة التى يصدرها، (حتى المسير عبر الصحارى المحرقة فى فصل الصيف المقرون بالجوع والعطش لمواجهة عدو قوى فى غزوة تبوك) فإنّ ذلك نوع من محبته ولطفه، لنجاتكم ولتخليصكم من قبضة الظلم والاستبداد والمعاصى والتعاسة.

وفى الآية التى تليها، وهى آخر آية فى هذه السورة، وصف للنبى صلى الله عليه و آله بأنّه شجاع وصلب فى طريق الحق، ولا ييأس بسبب عصيان الناس وتمردهم، بل يستمر فى دعوتهم إلى دين الحق: «فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ». فهو حصنه الوحيد... أجل لا حصن لى إلّا اللّه، فإليه استندت و «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

إنّ الذى بيده العرش والعالم العلوى وما وراء الطبيعة بكلّ عظمتها، وهى تحت حمايته ورعايته، كيف يتركنى وحيداً ولا يعيننى على الأعداء؟ فهل توجد قدرة لها قابلية مقاومة قدرته؟ أم يمكن تصور رحمة وعطف أشد من رحمته وعطفه؟

«نهاية تفسير سورة التوبة»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۵

۱۰. سورة يونس

محتوى وفضيلة السورة: هذه السورة- على قول بعض المفسّرين- نزلت بعد سورة الإسراء وقبل سورة هود، وتؤكّد على عدة مسائل أساسية، وأهمها مسألة المبدأ والمعاد.

غاية ما فى الأمر أنّها تتحدث أوّلًا عن مسألة الوحى ومقام النبى صلى الله عليه و آله، ثمّ تتطرق إلى نماذج وعلامات الخلقة العظيمة التى تدل على عظمة اللّه عزّ وجلّ، وبعد ذلك تدعو الناس إلى الإلتفات إلى عدم بقاء الحياة المادية فى هذه الدنيا، وحتمية زوالها، ووجوب التوجه إلى الآخرة والتهيؤ لها عن طريق الإيمان والعمل الصالح.

وقد ذكرت السورة- كدلائل وشواهد على هذه المسائل- أقساماً مختلفة من حياة كبار الأنبياء، ومن جملتهم نوح وموسى ويونس عليهم السلام ولهذا سمّيت بسورة يونس.

وأخيراً فإنّها تستغل كل فرصة للبشارة والإنذار، البشارة بالنعم الإلهية التى لا- حدود لها للصالحين، والإنذار والإرعاب للطاغين والعاصين، لتكملة ما ورد فيها من بحوث.

فى كتاب ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة يونس فى كل شهرين أو ثلاثة، لم يخف عليه أن يكون من الجاهلين، وكان يوم القيامة من المقربين». وذلك لأنّ آيات التحذير والوعيد وآيات التوعية كثيرة فى هذه السورة.

ربّما لا نحتاج أن نذكّر بأنّ فضائل السور لا يمكن تحصيله بمجرد تلاوة الآيات من دون

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۶

إدراك معناها، ومن دون العمل بمحتواها، لأنّ التلاوة مقدمة للفهم، والفهم مقدمة للعمل.

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (۱) أَ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ

عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (۲) رسالة النبى: فى هذه السورة نواجه- مرّة اخرى- الحروف المقطعة فى القرآن، والتى ذكرت بصورة «الر». بعد هذه الحروف تشير الآية أوّلًا إلى عظمة آيات القرآن وتقول:

«تِلْكَ ءَايتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ». إنّ التعبير ب «تلك» وهى إسم إشارة للبعيد، بدل (هذه) التى تشير للقريب، والذى جاء نظيره فى بداية سورة البقرة، يعتبر من التعبيرات الجميلة واللطيفة فى القرآن، وهو كناية عن عظمة ورفعة مفاهيم القرآن.

إنّ توصيف الكتاب السماوى- أى القرآن- بأنّه «حكيم» هو إشارة إلى أنّ آيات القرآن محكمة ومنظمة ودقيقة، بحيث لا يمكن أن يأتيها أو يخالطها أىّ شكل من أشكال الباطل والخرافة، فهى لا تقول إلّاالحق، ولا تدعو إلّاإلى طريق الحق.

أمّا الآية الثانية فإنّها تبيّن- ولمناسبة تلك الإشارة التى مرّت إلى القرآن والوحى الإلهى فى الآية السابقة- واحداً من إشكالات المشركين على النبى صلى الله عليه و آله وهو نفس الإشكال الذى جاء فى القرآن بصورة متكررة، وهذا التكرار يبيّن أنّ هذا الإشكال من إشكالات المشركين المتكررة، وهو: لماذا نزل الوحى الإلهى من اللَّه على إنسان مثلهم؟ ولماذا لم تتعهد الملائكة بمسؤولية هذه الرسالة الكبيرة؟ فيجيب القرآن عن هذه الأسئلة فيقول: «أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ».

إنّ كلمة «منهم» تضمنت الجواب على سؤالهم، أى إنّ القائد والمرشد إذا كان من جنس أتباعه، ويعلم أمراضهم، ومطلع على احتياجاتهم، فلا مجال للتعجب، بل العجب أن يكون القائد من غير جنسهم، بحيث يعجز عن قيادتهم نتيجة عدم اطلاعه على وضعهم.

ثم تشير إلى محتوى الوحى الإلهى وتلخصه فى أمرين:

الأوّل: إنّ الوحى الذى أرسلناه، مهمته إنذار الناس وتحذيرهم من عواقب الكفر

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۲۷

والمعاصى: «أَن أَنذِرِ النَّاسَ».

والثانى: هو «وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ».

إنّ «قدم الصدق» هذا إشارة إلى أنّ الإيمان له «سابقة فطرية» أو إشارة إلى مسألة المعاد ونعيم الآخرة، أو أنّ القدم بمعنى القدوة والزعيم والقائد، أى إنّنا أرسلنا للمؤمنين قائداً ومرشداً صادقاً.

وأن تكون البشارة بكل هذه الامور هى المرادة من التعبير أعلاه.

وتنهى الآية حديثها بذكر إتهام طالما كرّره المشركون واتهموا به النبى صلى الله عليه و آله فقالت: «قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ».

إنّ أمثال هذه التعبيرات التى كانت تصدر من ناحية الأعداء ضد النبى صلى الله عليه و آله دليل بنفسها على أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يقوم بأعمال خارقة للعادة، بحيث تجذب القلوب والأفكار نحوها، خاصه وأنّ التأكيد على السحر فى شأن القرآن المجيد هو بنفسه دليل قاطع وقوى على الجاذبية الخارقة الموجودة فى هذا الكتاب السماوى، ولأجل خداع الناس فإنّهم كانوا يجعلونه فى إطار السحر.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم فَاعْبُدُوهُ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (۳) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُم جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (۴) معرفة اللَّه والمعاد: بعد أن أشار القرآن الكريم إلى مسألة الوحى والنبوة فى بداية هذه السورة، انتقل فى حديثه إلى أصلين أساسيين فى تعليمات وتشريعات جميع الأنبياء، ألا وهما المبدأ والمعاد، وبيّن هذين الأصلين ضمن عبارات قصيرة فى هاتين الآيتين.

فيقول أوّلًا: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ». أى إنّ اللَّه سبحانه قد خلق السماء والأرض فى ستة مراحل.

ثم تضيف الآية: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۲۸

«العرش»: تأتى أحياناً بمعنى السقف، وأحياناً بمعنى الشىء الذى له سقف، وتارةً بمعنى الأسرّة المرتفعة، هذا هو المعنى الأصلى لها، أمّا معناها المجازى فهو القدرة. وبعد أن تبيّن أنّ الخالق والموجد هو اللَّه سبحانه، اتّضح أنّ الأصنام- هذه الموجودات الميتة والعاجزة- لا يمكن أن يكون لها أىّ تأثير فى مصير البشر، ولهذا قالت الآية فى الجملة التالية: «مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ».

وتتحدث الآية التالية- كما أشرنا- عن المعاد، وتبيّن فى جمل قصار أصل مسألة المعاد، والدليل عليها، والهدف منها. فتقول أوّلًا: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا». وبعد الإستناد إلى هذه‌المسألة المهمة والتأكيد عليها تضيف: «وَعْدَ اللَّهُ حَقًّا». ثم تشير إلى الدليل على ذلك بقولها: «إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ».

إنّ الآيات المرتبطة بالمعاد فى القرآن توضح أنّ العلة الأساسية فى تشكيك وتردد المشركين والمخالفين، هى أنّهم كانوا يشكّون فى إمكان حدوث مثل هذا الشىء، وكانوا يسألون بتعجب بأنّ هذه العظام النخرة التى تحولت إلى تراب، كيف يمكن أن تعود لها الحياة وترجع إلى حالتها الاولى؟ ولهذا نرى أنّ القرآن يقول: فإنّ من أوجد العالم فى البداية يستطيع أن يعيد ذلك الايجاد.

ثم تبيّن الهدف من المعاد بأنّه لمكافأة المؤمنين على جميع أعمالهم الصالحة حيث لا تخفى على اللَّه سبحانه مهما صغرت: «لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصلِحتِ بِالْقِسْطِ». أمّا اولئك الذين اختاروا طريق الكفر والإنكار، ولم تكن لديهم أعمال صالحة- لأنّ الإعتقاد الصالح أساس العمل الصالح- فإنّ العذاب الأليم وأنواع العقوبات بانتظارهم: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ».

هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۵) إِنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (۶) جانب من آيات عظمة اللَّه: لقد مرّت فى الآيات السابقة إشارة عابرة إلى مسألة المبدأ

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۲۹

والمعاد، إلّاأنّ هذه الآيات وما بعدها تبحث بصورة مفصلة هذين الأصلين الأساسيين اللذين يمثلان أهم دعامة لدعوة الأنبياء. لقد أشارت الآية الاولى التى نبحثها إلى جوانب من آيات عظمة اللَّه سبحانه فى عالم الخلقة فقالت: «هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا».

إنّ الشمس التى تعم العالم بنورها لا- تعطى النور الحرارة للموجودات فحسب، بل هى العامل الأساس فى نمو النباتات وتربية الحيوانات، وإذا ما انقطعت هذه الأشعة الحياتية عن كرتنا الأرضية يوماً فإنّ السكون والظلمة والموت سيخيّم على كل شىء فى فاصلة زمنية قصيرة.

والقمر بنوره الجميل هو مصباح لليالينا المظلمة، ولا تقتصر مهمّته على هداية المسافرين ليلًا وإرشادهم إلى مقاصدهم، بل هو بنوره المناسب يبعث الهدوء والنشاط لكل سكان الأرض.

ثمّ أشارت الآية إلى فائدة اخرى لوجود القمر فقالت: «وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ». بل إنّه تقويم طبيعى دقيق جدّاً يستطيع الجاهل والعالم قراءته، ويقرأ فيه تأريخ أعماله وامور حياته.

ثمّ تضيف الآية: إنّ هذا الخلق والدوران ليس عملًا غير هادف، أو هو من باب اللعب، بل «مَا خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقّ».

وفى النهاية تؤكد الآية: «يُفَصِّلُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» إلّاأنّ هؤلاء الغافلين وفاقدى البصيرة بالرغم من أنّهم يمرون كثيراً على هذه الآيات والدلائل، إلّاأنّهم لا يدركون أدنى شىء منها.

وتتطرق الآية الثانية إلى قسم آخر من العلامات والدلائل السماوية والأرضية الدالّة على وجوده سبحانه، فتقول: «إِنَّ فِى اخْتِلفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ لَأَيتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ». أى إنّ الذين يدركون تلك الآيات هم الذين سمت أرواحهم وصفت

نتيجة لتقواهم وبعدهم عن المعاصى.

لقد عدت الآيات أعلاه اختلاف الليل والنهار من آيات اللّه سبحانه، وذلك لأنّ نور الشمس إذا استمر فى إشعاعه على الأرض، فإنّ من المسلّم أن درجة الحرارة سترتفع إلى الحد الذى تستحيل معه الحياة على وجه الأرض.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳۰

وكذلك الليل إذا استمر فإنّ كل شيء سينجمد لشدّة البرودة.

إلّا أنّ اللّه سبحانه قد جعل هذين الكوكبين يتبع أحدهما الآخر لتهيئة أسباب الحياة والمعيشة على وجه الكرة الأرضية.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَ رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ اطْمَأَنُّوا بِهَا وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (۷) أُولئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۸) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۹) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۱۰) أهل الجنّة والنار: هذه الآيات تفصيل حول المعاد ومصير الناس فى العالم الآخر. ففى البداية يقول: «إِنَّ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا». فهم لا يعتقدون بالمعاد وتجاهلوا الآيات البينات فلم يتدبروا فيها كيما تستيقظ قلوبهم ويتحرك فيهم روح الاحساس بالمسؤولية «وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَتِنَا غَافِلُونَ». فكلتا هاتين الطائفتين مصيرهم إلى النار: «أُولَئِكَ مَأْوَيهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

إنّ النتيجة الطبيعية والحتمية لعدم الإيمان بالمعاد هى الإرتباط بهذه الحياة المحدودة والعلائق المادية، والاطمئنان بها والإعتماد عليها.

وكذلك فإنّ الغفلة عن الآيات الإلهية هى أساس البعد عن اللّه سبحانه، والإبتعاد عن اللّه هو العلّة لعدم الإحساس بالمسؤولية والتلوّث بالظلم والفساد والمعصية، وعاقبة ذلك لا تكون إلّاالنار.

إنّ هاتين الآيتين تؤكّدان مرّة اخرى هذه الحقيقة، وهى أنّ إصلاح مجتمع ما وإنقاذه من نار الظلم والفساد، يتطلب تقوية رُكنى الإيمان باللّه والمعاد اللذين هما شرطان ضروريان وأساسيان، فإنّ عدم الإيمان باللّه سبحانه سيقتلع الإحساس بالمسؤولية من وجود الإنسان، والغفلة عن المعاد يذهب بالخوف من العقاب، وعلى هذا فإنّ هذين الأساسين العقائديين هما أساس كل الإصلاحات الاجتماعية.

ثم يشير القرآن إلى وضع فئة اخرى فى مقابل هذه الفئة، فيقول: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳۱

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ». فإنّ نور الهداية الإلهية الذى ينبعث من نور إيمانهم يضيء كل آفاق حياتهم، وقد اتّضحت لهم الحقائق باشراقات هذا النور بحيث لم تعد شراك المذاهب المادية وزبارجها، ولا الوساوس الشيطانية وبريق المطامع الدنيوية قادرة على التعتيم على افكارهم ودفعهم فى طريق الانحراف عن الصواب والحق.

إنّ وضع هؤلاء فى الحياة الاخرى أنّهم «تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ».

إنّ هؤلاء يرفلون فى محيط مملوء بالصلح والصفاء وعشق اللّه وأنواع النعم، ففى كل وقت تنير وجودهم نفحة ورشحة من ذات اللّه وصفاته، فإنّ «دَعْوَيهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ».

وكلما التقى بعضهم بالآخر فإنّهم يتحدثون عن الصفاء والسلام «وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلمٌ».

وأخيراً فإنّهم كلما إلتذوا بنعم اللّه المختلفة شكروا ذلك «وَءَاخِرُ دَعْوَيهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۱) وَ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲) الهمج الرّعاع: الكلام فى هذه الآيات يدور كذلك حول عقاب المسيئين، فتقول الآية الاولى بأنّ اللّه سبحانه إذا جازى المسيئين على أعمالهم بنفس العجلة التى يحب بها هؤلاء تحصيل النعم والخير، فستنتهى أعمار الجميع ولا يبقى لهم أثر: «وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ

الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ». إلّاأنّ لطف اللّه سبحانه لما كان شاملًا لجميع العباد، حتى المسيئين والكافرين والمشركين، فلا يمكن أن يعجل بعذابهم وجزائهم لعلهم يعون ويتوبون، ويرجعون عن الضلال إلى الحق والهدى.

وفى الختام تقول الآية: يكفى عقاباً لهؤلاء أن نتركهم وشأنهم ليبقوا فى حيرتهم، فلا هم يميزون الحق من الباطل، ولا هم يجدون سبيل النجاة من متاهاتهم: «فَنَذَرُ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ».

عند ذلك تشير الآية إلى وجود نور التوحيد فى فطرة الإنسان وأعماق روحه وتقول:

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣٢

«وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانِ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا».

نعم ... إنّ خاصية المشاكل والشدائد الخطيرة، أنّها تزيل الحجب عن فطرة الإنسان الطاهرة، ويسطع عندها- ولو لمدّة قصيرة- نور التوحيد. ثم تقول الآية: إنّ هؤلاء الأفراد إلى درجة من الجهل وضيق الافق بحيث إنّهم يعرضون بمجرد كشف الضرّ عنهم، حتى كأنّهم لم يدعونا ولم نساعدهم: «فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

إنّ اللّه سبحانه هو الذى يزين الأعمال، وذلك بجعل هذه الخاصية فى الأعمال القبيحة والمحرّمة، بحيث أن الإنسان كلما تلوّث بها أكثر، فإنّه سيتطبع عليها، وبمرور الزمن يزول قبحها تدريجياً، بل وتصل الحال إلى أن يراها حسنة وجميلة.

وأمّا لماذا سمّت الآية أمثال هؤلاء «مسرفين» فلأنّه لا إسراف أكثر من أن يهدر الإنسان أهم رأس مال فى وجوده، ألا وهو العمر والسلامة والشباب والقوى، ويصرفه فى طريق الفساد والمعصية أو فى طريق تحصيل متاع الدنيا التافه الفانى ولا يربح من ذلك شيئاً.

وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١۴) الإعتبار بالظالمين السابقين: تشير هذه الآيات أيضاً إلى معاقبة الأفراد الظالمين والمجرمين فى هذه الدنيا، وقد نبّهت المسلمين- بعد أن أطلعتهم على تاريخ من قبلهم- إلى أنّهم إذا سلكوا نفس طريق هؤلاء، فسينتظرهم نفس المصير. فالآية الاولى تقول: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا». ثمّ تضيف:

«كَذلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ».

ثمّ تبيّن الآية التالية هذا الأمر بصورة أكثر صراحة وتقول: «ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلفَ فِى الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ».

يستفاد من جملة: «وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا» أنّ اللّه سبحانه يهلك فقط اولئك الذين لا أمل فى إيمانهم حتى فى المستقبل، وعلى هذا فإنّ الأقوام التى يمكن أن تؤمن فى المستقبل لا يشملها مثل هذا العقاب.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٣٣

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِى إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١۵) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (١۶) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت فى خمسة نفر (من عبدة الأوثان)، قالوا للنبى صلى الله عليه و آله: ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزّى ومناة وهبل، وليس فيه عيبها، أو بدّله تكلّم به من تلقاء نفسك.

التّفسير

كتعقيب للآيات السابقة التى كانت تتحدث عن المبدأ والمعاد، تبحث هذه الآيات نفس الموضوع والمسائل المتعلقة به. فى البداية تشير إلى واحد من الإشتباهات الكبيرة لعباد الأصنام، وتقول: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرءَانٍ غَيْرِ

هذَا أَوْ بَدّلْهُ».

إنّ هؤلاء الجهلة العاجزين لم يرضوا بالنّبى صلى الله عليه و آله قائداً ومرشداً لهم، بل كانوا يدعون لاتباع خرافاتهم وأباطيلهم.

إنّ القرآن الكريم يلفت نظر هؤلاء إلى هذا الإشتباه الكبير، ويأمر النبى صلى الله عليه و آله أن يقول لهم: «قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدّلَهُ مِن تِلْقَاىِ نَفْسِى». ثم يضيف للتأكيد: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَىَّ». ولست عاجزاً عن تغيير أو تبديل هذا الوحى الإلهى- فحسب- بل: «إِنّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

ثم تتطرق الآية التالية إلى دليل هذا الموضوع وتقول: قل لهم بأنّى لست مختاراً فى هذا الكتاب السماوى: «قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَيكُم بِهِ». والدليل على ذلك:

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۳۴

«فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ». لكنكم لم تسمعوا منّى مثل هذا الكلام مطلقاً، ولو كانت هذه الآيات من عندى لتحدثت بها لكم خلال هذه الأربعين سنة، فهل لا تدركون أمراً بهذه الدرجة من الوضوح: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ». وكذلك، ومن أجل التأكيد يضيف: بأنّى أعلم أنّ أقبح أنواع الظلم هو أن يفترى الإنسان على اللّه الكذب: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا». وعلى هذا فكيف يمكن أن أرتكب مثل هذا الذنب الكبير.

وكذلك فإنّ التكذيب بآيات اللّه سبحانه من أشدّ الكبائر وأعظمها: «أَوْ كَذَّبَ بَايَاتِهِ».

فإذا كنتم جاهلين بعظمة ما ترتكبونه من الاثم فى تكذيب وإنكار آيات الحق، فإنّى لست بجاهل بها، وعلى كل حال فإنّ عملكم هذا جرم كبير، و «إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ».

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِى الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) آلهة بدون خاصية: واصلت الآية الحديث عن التوحيد أيضاً، وذلك عن طريق نفى الوهية الأصنام، وذكرت عدم أهلية الأصنام للعبادة وإنتفاء قيمتها وأهميتها: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَايَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ».

ثمّ تتطرق إلى إدعاءات عبدة الأوثان الواهية، «وَيَقُولُونَ هؤُلَاءِ شُفَعؤُنَا عِندَ اللَّهِ».

أى إنّ هذه الأصنام والآلهة تستطيع بشفاعتها أن تكون سبباً للضر والنفع رغم عجزها عن أى عمل بصورة مستقلة.

لقد كان الإعتقاد بشفاعة الأصنام أحد أسباب عبادتها.

إنّ القرآن يقول فى دفع هذا الوهم: «قُلْ أَتُنَبُّونَ اللَّهَ بِمَا لَايَعْلَمُ فِى السَّموَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ». وهو كناية عن أنّ اللّه سبحانه لو كان له مثل هؤلاء الشفعاء. فإنّه يعلم بوجودهم فى أىّ نقطة كانوا من السماء والأرض، لأنّ سعة علم اللّه لا تدع أصغر ذرة فى السماء والأرض إلّاوتحيط بها علماً.

وفى آخر الآية تأكيد لهذا الموضوع حيث تقول: «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۳۵

وَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) إنّ هذه الآية- تتمة للبحث الذى مرّ فى الآية السابقة حول نفى الشرك وعبادة الأصنام- تشير إلى فطرة التوحيد لكل البشر، وتقول: «وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً».

إنّ فطرة التوحيد هذه، والتى كانت سالمة فى البداية، إلّاأنّها قد اختلفت وتلوّثت بمرور الزمن نتيجة الأفكار الضيقة، والميول الشيطانية والضعف، فانحرف جماعة عن جادة التوحيد وتوجهوا إلى الشرك، وقد انقسم المجتمع الإنسانى إلى قسمين مختلفين: قسم موحّد، وقسم مشرك: «فَاخْتَلَفُوا». بناءً على هذا فإنّ الشرك فى الواقع نوع من البدعة والانحراف عن الفطرة، الانحراف المترشح من الأوهام والخرافات التى لا أساس لها.

وقد يطرح هنا هذا السؤال، وهو: لماذا لا يرفع اللَّه هذا الاختلاف بواسطة عقاب المشركين السريع، ليرجع المجتمع الإنسانى جميعه موحّداً؟

ويجيب القرآن الكريم مباشرة عن هذا السؤال بأنّ الحكمة الإلهية تقتضى حرية البشر فى مسير الهداية، فهى رمز التكامل والرقى، ولو لم يكن أمره كذلك فإنّ اللَّه سبحانه كان سيقضى بينهم فى اختلافاتهم: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ». وَ يَقُولُونَ لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (۲۰) المعجزات المقترحة: مرّة اخرى يتطرق القرآن الكريم إلى اختلاق المشركين للحجج عند امتناعهم عن الإيمان والإسلام: «وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ».

إنّ هؤلاء كانوا يظنون أنّ الإعجاز أمر بيد النبى صلى الله عليه و آله وهو يستطيع أن يقوم به فى أى وقت وبأية كيفية يريد، ولهذا فإنّ القرآن الكريم يأمر النبى صلى الله عليه و آله مباشرة: «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ». وبناء على هذا، فإنّ المعجزة ليست بيدى لآتيكم كل يوم بمعجزة جديدة إرضاءً لأهوائكم وحسب ميولكم ورغباتكم ثمّ لا تؤمنون بعد ذلك بأعذار واهية وحجج ضعيفة.

وفى النهاية تقول الآية بلهجة التهديد: «فَانتَظِرُوا إِنّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ». فانتظروا العقاب الإلهى، وأنا أنتظر النصر!

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳۶

وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِى آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (۲۱) هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَ جَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۲۲) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۳) يدور الكلام فى هذه الآيات- أيضاً- حول عقائد وأعمال المشركين، ثم دعوتهم إلى التوحيد ونفى كل أنواع الشرك. فالآية الاولى تشير إلى بعض سلوكيات المشركين الحمقاء، وتقول: إنّنا عندما نبتلى الناس بالمشاكل والنكبات من أجل إيقاظهم وتنبيههم، ثم نرفع هذا البلاء عنهم ونذيقهم طعم الراحة والهدوء بعد تلك الضراء، فإنّهم بدلًا من أن ينتبهوا لهذه الآيات ويرجعوا إلى الصواب، يسخرون بها، أو يفسرونها بتفسيرات غير صحيحة، فمثلًا يفسرون الإبتلاءات والمشاكل بأنّها نتيجة غضب الأصنام، والنعم والطمأنينة بأنّها دليل على شفقتها، أو أنّهم يعدون كل هذه الامور صدفة محضة: «وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِى ءَايَاتِنَا».

إنّ كلمة «مكر» فى الآية أعلاه، والتى تعنى بشكل عام إعمال الفكر، تشير إلى التوجيهات الخاطئة وطرق التهرّب التى يفكر بها المشركون عند مواجهة الآيات الإلهية، وظهور أنواع البلايا والنعم. إلّاأنّ اللَّه سبحانه حذر هؤلاء بواسطة نبيّه، وأمره أن «قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا».

و «المكر»: فى الأصل هو كل نوع من التخطيط المقترن بالعمل المخفى، وعلى هذا فإنّه يصدق على اللَّه سبحانه كما يصدق على العباد. ومصداق المكر الإلهى فى هذه الآية إشارة إلى نفس تلك العقوبات الإلهية التى يحلّ بعضها فى نهاية الخفاء وبدون أية مقدمة وبأسرع ما يكون، بل إنّه يعاقب ويعذب بعض المجرمين بأيديهم أحياناً. وبتعبير آخر فإنّ اللَّه

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳۷

سبحانه فى أى وقت يريد إنزال العقاب بأحد العباد أو تنبيهه، فإنّ هذا العقاب سيتحقق مباشرة، فى حين أنّ الآخرين ليسوا كذلك.

ثم يهدد هؤلاء بأن لا تظنوا أنّ هذه المؤامرات والخطط ستُنسى، بل إنّ رسلنا- أى الملائكة- يكتبون كل هذه المخططات التى تهدف إلى إطفاء نور الحق: «إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ» ولذلك يجب أن تهيئوا أنفسكم للجواب والعقاب فى الحياة الاخرى

وتغوص الآية التالية فى أعماق فطرة البشر، وتوضح لهؤلاء حقيقة التوحيد الفطرى، وكيف أنّ الإنسان عندما تلّم به المشاكل الكبيرة وفى أوقات الخطر، ينسى كل شىء إلّااللَّه تبارك وتعالى ويتعلق به. تقول الآية: «هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ». فى هذا الحال

بالضبط تذكروا اللّه ودعوه بكل إخلاص وبدون أية شائبة من الشرك، و «دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ». فيرفعون أيديهم فى هذا الوقت للدعاء:

«لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ». فلا نظلم احداً ولانشرك بعبادتك غيرك.

ورغم أنّ هذه اليقظة مؤقتة، وليس لها أثر تربوى فى الأفراد الملوّثين جدّاً، أنّها تقيم الحجّة عليهم، وستكون دليلًا على محكوميتهم.

أمّا الذين تلوثوا بالمعاصى قليلًا، فإنّهم سيتنبهون فى هذه الحوادث ويصلحون مسارهم.

ولكن ما أن أنجاهم اللّه وأوصلهم إلى شاطىء النجاة بدؤوا بالظلّم والجور: «فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ». لكن يجب أن تعلموا- أيّها الناس- إنّ نتيجة ظلمكم ستصيبكم أنتم «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم». وآخر عمل تستطيعون عمله هو أن تتمتعوا قليلًا فى هذه الدنيا: «مَّتَاعَ الْحَيوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

ملاحظتان

۱- لقد ذكرت «الرحمة» فى الآيات أعلاه مقابل «الضراء» ولم تذكر السراء، وهى إشارة إلى أنّ أى حسن ونعمة تصل إلى الإنسان فهى من اللّه سبحانه ورحمته اللامتناهية، فى حين أنّ السوء والنقمات إذا لم تكن للعبرة، فإنّها من آثار أعمال الإنسان نفسه.

۲- إنّ جملة «أُحِيطَ بِهِمْ» تعنى أنّ هؤلاء قد أحاطت بهم الأمواج المتلاطمة من كل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳۸

جانب، إلّاأنّها هنا كناية عن الهلاك والفناء الحتمى لهؤلاء.

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۲۴) وَ اللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۲۵) لوحة الحياة الدنيا: مرّت الإشارة فى الآيات السابقة إلى عدم استقرار ودوام الحياة الدنيا، ففى الآية الاولى من الآيات التى نبحثها تفصيل لهذه الحقيقة ضمن مثال لطيف وجميل لرفع حجب الغرور والغفلة من أمام نواظر الغافلين والطغاة «إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَهُ مِنَ السَّمَاءِ».

إنّ قطرات المطر هذه تسقط على الأراضى التى لها قابلية الحياة. وبهذه القطرات ستنمو مختلف النباتات التى يستفيد من بعضها الإنسان، ومن بعضها الآخر الحيوانات «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعمُ».

إنّ هذه النباتات علاوة على أنّها تحتوى على الخواص الغذائية المهمة للكائنات الحيّة الاخرى، فإنّها تغطى سطح الأرض وتضفى عليها طابعاً من الجمال «حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ». فى هذه الأثناء حيث تتفتح الجنابذ وتورق أعالى الأشجار وتعطى ذلك المنظر الزاهى وتبتسم الأزهار وتتلألأ الأعشاب تحت أشعة الشمس، وتتمايل الأغصان طرباً مع النسيم، وتُظهر حبات الغذاء والأثمار أنفسها شيئاً فشيئاً وتجسم جانباً دائب الحركة من الحياة بكلّ معنى الكلمة، وتملأ القلوب بالأمل، والعيون بالسرور والفرح، بحيث «وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا». فى هذه الحال وبصورة غير مرتقبة يصدر أمرنا بتدميرها، سواء ببرد قارص، أو ثلوج كثيرة، أو إعصار مدمّر، ونجعلها كأن لم تكن شيئاً مذكوراً «أَتَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ».

إنّ جملة «لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ» تعنى أنها لم تكن بالأمس هنا، وهذا كناية عن فناء الشىء بالكلية بصورة كأنّه لم يكن له وجود مطلقاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۳۹

وللتأكيد تقول الآية فى النهاية: «كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

إنّ الآية التالية أشارت بجملة قصيرة إلى الحياة المقابلة لهذه الحياة، وقالت: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلمِ».

فلا خبر هناك عن مطاحنات واعتداءات المتكالبين على الحياة المادية، ولا حرب ولا إراقة دماء ولا استعمار ولا استثمار.

ثم تضيف الآية: إنّ اللّه سبحانه يهدى من يشاء- إذا كان لائقاً لهذه الهداية- إلى صراطه المستقيم، ذلك الصراط التى ينتهى إلى دار

السلام ومركز الأمن والأمان «وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَ زِيَادَةٌ وَ لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لَا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۲۶) وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۲۷) بيض الوجوه وسود الوجوه: مرّت الإشارة فى الآيات السابقة إلى عالم الآخرة ويوم القيامة، ولهذه المناسبة فإنّ هذه الآيات تبيّن مصير الصالحين وعاقبة المذنبين فتقول فى البداية: «لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ». والمقصود من الزيادة فى هذه الجملة، هو الثواب المضاعف الكثير، الذى يتضاعف أحياناً عشر مرات، واخرى آلاف المرات حسب نسبة الإخلاص والطهارة والتقوى وقيمة العمل.

ثم تضيف الآية: «وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ». «يرهق»: مأخوذة من مادة «رهق» وهى بمعنى التغطية القهرية والجبرية، و «القتر»: بمعنى «الغبار» والدخان.

وفى النهاية تقول: «أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». التعبير بالأصحاب إشارة إلى التناسب الموجود بين روحية هذه المجموعة ومحيط الجنة.

ثم يأتى الحديث فى الآية التالية عن أصحاب النار الذين يشكلون الطرف المقابل للمجموعة الاولى، فتقول: «وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا». وهنا لا يوجد كلام عن الزيادة، لأنّ الزيادة فى الثواب فضل ورحمة، أمّا فى العقاب فإنّ العدالة توجب أن

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۴۰

مختصر الامثل ج ۲ ۳۷۹

يكون بقدر الذنب ولا يزيد ذرة واحدة. إلّاأنّ هؤلاء عكس الفريق الأوّل مسودة وجوههم «وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ». وهذه هى خاصية وأثر العمل الذى ينعكس من داخل روح الإنسان إلى الخارج.

فقد يظن المسيئون أنّهم سوف يكون لهم طريق للهرب أو النجاة، أو أنّ الأصنام وأمثالها تستطيع أن تشفع لهم، إلّاأنّ الجملة التالية تقول بصراحة: «مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ».

إنّ وجوه هؤلاء مظلمة ومسودة إلى الحد الذى «كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ الَّيْلِ مُظْلِمًا أُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَ قَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (۲۸) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (۲۹) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (۳۰) مشهد من قيامة عبدة الأوثان: تتابع هذه الآيات أيضاً البحوث السابقة حول المبدأ والمعاد ووضع المشركين، فتقول أوّلًا: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ».

ثم تضيف: أنّنا سوف نعزل هاتين الفئتين - أى العابدون والمعبودون - عن بعضهم البعض، ونسأل كلًّا منهما على انفراد، تماماً كما هو المتداول فى كل المحاكم حيث يسأل كل واحد على انفراد، فنسأل العابدين: بأى دليل جعلتم هذه الأصنام شريكة للّهوعبدتموها؟ ونسأل المعبودين: لماذا أصبحتم معبودين؟ أو لماذا رضيتم بهذا العمل؟ «فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ».

فى هذه الأثناء ينطق الشركاء الذين صنعتهم أوهام هؤلاء: «وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ» فأنتم كنتم تعبدون أهواءكم وميولكم وأوهامكم.

ثمّ، ومن أجل التأكيد الأشد، يقولون: «فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ».

والمراد من الأصنام والشركاء فى هذه الآية أنّها تشمل كل المعبودات، غاية ما فى الأمر أنّ المعبودات التى لها عقل وشعور تعيد الحقائق وتذكرها بلسانها، أمّا المعبودات التى لا

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۴۱

عقل لها ولا شعور فإنّ الكلام عن لسان حالها، وتتحدث عن طريق انعكاس آثار العمل.

ففى ذلك اليوم وذلك المكان وذلك الحال- كما يتحدث القرآن فى آخر آية من آيات البحث- فإنّ كل إنسان سيختبر كل أعماله التى عملها سابقاً ويرى نتيجتها، بل نفس أعماله، سواء العابدون والمعبودون المضلون الذين كانوا يدعون الناس إلى عبادتهم، وسواء المشركون والمؤمنون من أىّ قوم ومن أىّ قبيل: «هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ». وفى ذلك اليوم سيرجع الجميع إلى اللَّه مولاهم الحقيقى، ومحكمة المحشر تبيّن أن الحكم لايتم إلّا بأمره «وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمُ الْحَقّ».

وأخيراً فإنّ جميع هذه الأصنام والمعبودات المختلقة التى جعلها هؤلاء شريكة للّه كذباً ستفنى وتمحى: «وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» فإنّ القيامة ساحة ظهور كل الأسرار الخفية للعباد، ولا تبقى أية حقيقة إلّاوتُظهر نفسها.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ (۳۱) فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (۳۲) كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۳۳) الحديث فى هذه الآيات عن علامات ودلائل وجود اللَّه سبحانه وأهليته للعبادة، وتعقب أبحاث الآيات السابقة حول هذا الموضوع. ففى البداية تقول: قل لهؤلاء المشركين وعبدة الأوثان الحائرين التائهين عن طريق الحق: من يرزقكم من السماء والأرض؟ «قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

«الرزق»: يعنى العطاء والبذل المستمر، ولما كان الواهب لكل المواهب هو اللَّه سبحانه، فإنّ «الرازق» و «الرزّاق» بمعناهما الحقيقى لا يستعملان إلّافيه فقط، وإذا استعملت هذه الكلمة فى حق غيره فلا شك أنّها من باب المجاز.

والأرض وحدها هى التى تغذى جذور النباتات بواسطة موادها الغذائية، وربّما كان هذا هو السبب فى أن تتحدث الآية أوّلًا عن أرزاق السماء، ثم عن أرزاق الأرض حسب تفاوت درجة الأهمية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۲

ثم تشير الآية إلى حاستين من أهم حواس الإنسان، واللتان لايمكن كسب العلم وتحصيله بدونهما، فقالت: «أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ».

فإنّ هذه الآية أشارت إلى النعم المادية أوّلًا، ثمّ إلى المواهب والأرزاق المعنوية التى تصبح النعم المادية بدونها فاقدة للهدف والمحتوى.

ثم تطرقت الآية إلى ظاهرتى الموت والحياة اللتين هما أعجب ظواهر عالم الخلقة، فتقول: «وَمَن يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيّتَ مِنَ الْحَىّ».

وهذا هو نفس الموضوع الذى حيّر عقول علماء الطبيعة وعلماء الاحياء، وهو كيف أتى الموجود الحى إلى الوجود من موجود ميت؟ هذه الآية تشمل الموت والحياة المعنويين إضافة إلى الموت والحياة الماديين، لأنّنا نرى أناساً عقلاء طاهرين ورعين مؤمنين يولدون أحياناً من أبوين ملوثين منحرفين لا إيمان لهما، ويلاحظ أيضاً عكس ذلك.

ثم تضيف الآية: «وَمَن يُدَبّرُ الْأَمْرَ». والكلام فى الواقع بدأ عن خلق المواهب، ثم عن حافظها وحارسها ومدبرها، وبعد أن يطرح القرآن الكريم هذه الأسئلة الثلاثة يقول مباشرة بأنّ هؤلاء سيجيبون بسرعة: «فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ».

يستفاد من هذه الجملة جيداً أنّه حتى مشركى وعبدة الأصنام فى الجاهلية كانوا يعلمون أنّ الخالق والرازق والمحيى ومدبر أمور عالم الوجود هو اللَّه سبحانه.

وفى آخر الآية يأمر اللَّه نبيّه: «فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ».

وبعد أن عرضت الآية السابقة نماذج من آثار عظمة وتدبير اللَّه فى السماء والأرض، وأيقظت وجدان وعقل المخالفين ودعتهم للحكم فى أمر الخالق، واعترف هؤلاء بذلك، خاطبتهم الآية التالية بلهجة قاطعة وقالت: «فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ». لا الأصنام، ولا سائر

الموجودات التى جعلتموها شريكة للبارى عزّ وجل، والتى تسجدون أمامها وتعظمونها.

ثم تنتهى إلى ذكر النتيجة: «فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقّ إِلَّا الْضَّلَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ». وأنّى تولوا وجوهكم عن عبادة اللَّه وأنتم تعلمون ألّا خالق ولا معبود حقاً سواه؟

إنّ هذه الآية تطرح طريقاً منطقياً واضحاً لمعرفة الباطل وتركه، وهو أن يخطو الإنسان أوّلًا فى سبيل معرفة الحق بآليات الوجدان والعقل، فإذا عرف الحق فإنّ كل ما خالفه باطل وضلال، ويجب أن يضرب عرض الحائط.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۳

وتقول آخر آية فى بيان العلة فى عدم اتباع هؤلاء للحق رغم وضوح الأمر وظهور الحق:

«كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَايُؤْمِنُونَ». وفى الواقع فإنّ هذه خاصية الأعمال السيئة المستمرة لهؤلاء بحيث تُظلم قلوبهم وتلوث أرواحهم إلى درجة لا يرون معها الحق رغم وضوحه وتجلّيه، ويسلكون نتيجة لذلك طريق الضلال.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُم مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۳۴) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَ فَمَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهِدِّى إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۳۵) وَ مَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (۳۶) واحدة من علامات الحق والباطل: تعقب هذه الآيات أيضاً الإستدلالات المرتبطة بالمبدأ والمعاد، وتأمر الآية الاولى النبى صلى الله عليه و آله أن «قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ». ثمّ تضيف: «قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ». ولماذا تصرفون وجوهكم عن الحق وتتجهون نحو الضلال؟

ثم تأمر الآية الاخرى النبى صلى الله عليه و آله مرّة اخرى: «قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِى إِلَى الْحَقّ».

لأنّ المعبود يجب أن يكون هادياً ومرشداً لعباده، خاصة وأنّها هداية نحو الحق، فى حين أنّ آلهة المشركين، أعم من الجمادات أو الأحياء، غير قادرة أن تهدى أحداً إلى الحق بدون الهداية الالهية، لأنّ الهداية إلى الحق تحتاج إلى منزلة العصمة والصيانة من الخطأ والاشتباه، وهذا لايمكن من دون هداية اللَّه سبحانه وتسديده، ولذلك فإنّها تضيف مباشرة: «قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقّ». وإذا كان الحال كذلك «أَفَمَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّايَهِدّى إِلَّا أَن يُهْدَى .

وتقول الآية فى النهاية بلهجة التوبيخ والتقريع والملامة: «فَمَا لَكُمْ كَيفَ تَحْكُمُونَ».

وفى آخر آية إشارة إلى المصدر الأساس والعامل الأصل لهذه الانحرافات وهو الأوهام والظنون «وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَايُغْنِى مِنَ الْحَقّ شَيًا».

وفى النهاية تخاطب الآية- باسلوب التهديد- مثل هؤلاء الأفراد الذين لا يتبعون أى منطق سليم وتقول: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۴

إنّ الآيات أعلاه تبين أنّ من برامج اللَّه الأصلية لعباده أن يهديهم إلى الحق، ويتمّ ذلك عن طريق منح العقل، وإعطاء الدروس المختلفة عن طريق الفطرة، وإرادة وإظهار آياته فى عالم الخلقة، وكذلك عن طريق إرسال الأنبياء والكتب السماوية.

وَ مَا كَانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۳۷) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۳۸) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (۳۹) وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (۴۰) عظمة دعوة القرآن وحقانيته: تتطرق هذه الآيات إلى الإجابة عن قسم آخر من كلمات المشركين السقيمة، فإنّ هؤلاء لم يجانبوا الصواب فى معرفة المبدأ وحسب، بل كانوا يفترون على نبى الخاتم صلى الله عليه و آله بأنّه هو الذى اختلق القرآن ونسبه إلى اللَّه، فالآية الاولى تقول:

«وَمَا كَانَ هذَا الْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ».

ثم تتطرق الآيـة إلى ذكر الـدليل على أصالـة القرآن وكونه وحياً سـماوياً: فتقول «وَلكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ». أى إنّ كل البشارات والـدلالات الحقـة التى جاءت فى الكتب السـماوية السابقة تنطبق على القرآن ومن جاء به تماماً، وهذا بنفسه يثبت أنّه ليس افتراءً على اللَّه بل هو حق.

ثم تذكر الآية دليلًا آخر على أصالة هذا الوحى السماوى وهو: إنّ فى هذا القرآن شرح كتب الأنبياء السابقين الأصيلة، وبيان أحكامهم الأساسية وعقائدهم الأصولية، ولهذا فلاشك فى كونه من اللَّه تعالى، فتقول: «وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَارَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ».

وبتعبير آخر: لايوجـد فيه أى تضاد وتناقض مع برامـج وأهـداف الأنبياء السابقين، بل يلاحظ فيه تكامل تلك التعليمات والبرامج، وإذا كان هذا القرآن مختلقاً فلابد أن يخالفها ويناقضها.

وذكر فى الآيـة التاليـة دليل ثالث على أصالـة القرآن، وخاطبت الـذين يدعون أنّ النبى صـلى الله عليه و آله قد افترى هذا القرآن على اللَّه، بأنّكم إن كنتم صادقين فى دعواكم فأتوا بسورة من

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٤٥

مثله، واسـتعينوا فى ذلك بمن شـئتم غير اللَّه، ولكنكم لاتسـتطيعون فعل ذلك أبداً، وبهذا الدليل يثبت أنّ القرآن من وحى السماء «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

إنّ هذه الآيات من جملة الآيات التى تبيّن إعجاز القرآن بصـراحة، لا إعجاز كل القرآن فحسب، بل حتى إعجاز السورة الواحدة، وقد خاطبت كل العالمين- بدون استثناء- بأنّكم إن كنتم معتقدين بأنّ هذه الآيات ليست من اللَّه فأتوا بمثله، أو بسورة منه على الأقل.

وفى الآيـة التاليـة إشارة إلى واحـدة من العلـل الأساسـية لمخالفـة المشـركين، فتقول: إنّ هؤلاـء لم ينكروا القرآن بسـبب الإشـكالات والإيرادات، بل إنّ تكذيبهم وإنكارهم إنّما كان بسبب عدم اطلاعهم وعلمهم به: «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ».

فى الحقيقـة لم يكن لهؤلاـء أىّ دليـل على نفى المبـدأ والمعاد، وكـان الجهـل والتخلف الناشـىء من الخرافات والتعود على مـذهب الأجداد هو السد الوحيد فى طريقهم.

أو الجهل بأسرار الأحكام.

أو الجهل بمفهوم بعض الآيات المتشابهة.

أو الجهل بمعنى الحروف المقطعة.

أو الجهل بالدروس والعبر التى هى الهدف النهائى من ذكر تاريخ الماضين.

إنّ مجموع هـذه الجهالات والضـلالات كانت تحملهم على الإنكار والتكـذيب، فى حين أنّ تأويل وتفسير وتحقق المسائل المجهولة بالنسبة لهؤلاء لم يبيّن بعد «وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ».

«التأويـل»: فى أصل اللغـة بمعنى إرجاع الشـىء وعلى هـذا فإنّ كل عمل أو قول يصل إلى هـدفه النهائى نقول عنه: إنّ تأويله قـد حان وقته.

ثم يضـيف القرآن مبيناً أن هـذا المنهـج الزائف لاينحصـر بمشـركى عصـر الجاهليـة، بـل إنّ الأقوام السابقين كانوا مبتلين أيضاً بهـذه المسألة، فإنّهم كانوا يكذبون الحقائق وينكرونها دون السعى لمعرفة الواقع، أو إنتظار تحققه: «كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».

فى حين أنّ العقل والمنطق يحكمان بأنّه لا ينبغى للانسان انكار ما يجهله مطلقاً، بل يبدأ بالبحث والتحقيق.

وفى النهاية وجهت الآية الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله وقالت: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ». أى إنّ هؤلاء سيلاقون أيضاً نفس المصير.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٤٦

وأشـارت الآيـة الأـخيرة من آيـات البحث إلى فئتين عظيمتين من المشـركين، فتقول: إنّ هؤلاء لايبقون جميعاً على هـذا الحال، بل إنّ

جماعة منهم لم تخمد فيهم روح البحث عن الحق وطلبه وسيؤمنون بالقرآن فى النهاية. فى حين أن الفئة الاخرى ستبقى فى عنادها وإصرارها وجهلها، وسوف لا تؤمن أبداً: «وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّايُؤْمِنُ بِهِ».

ومن الواضح أنّ أفراد الفئة الثّانية فاسدون ومفسدون، ولذلك قالت الآية فى النهاية:

«وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ». وهى إشارة إلى أنّ الذين لا يذعنون للحق، هم أفراد يسعون لحل عرى المجتمع، ولهم دور مهم فى إفساده.

وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِى عَمَلِى وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (۴۱) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (۴۲) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَ لَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (۴۳) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَ لَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۴۴) تتابع هذه الآيات البحث الذى مرّ فى الآيات السابقة حول إنكار وتكذيب المشركين، وإصرارهم على ذلك، فقد علّمت الآية الاولى النبى صلى الله عليه و آله طريقة جديدة فى المواجهة، فقالت: «وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ».

إنّ لإعلان الترفع وعدم الاهتمام هذا، والمقترن بالاعتماد والإيمان القاطع بالمذهب، أثراً نفسياً خاصاً، وبالذات على المنكرين المعاندين، فهو يفهمهم بعدم وجود أى إجبار وإصرار على قبولهم الدعوة الإسلامية، بل إنّهم بعدم تسليمهم أمام الحق سيحرمون أنفسهم، ولا يضرون إلّاأنفسهم.

وتشير الآيتان التاليتان إلى سبب انحراف هؤلاء وعدم إذعانهم للحق، وتبيّن أنّ التعليمات الصحيحة، والآيات المعجزة التى تهزّ الوجدان والدلالات الاخرى الواضحة لا تكفى بمفردها لهداية الإنسان، بل إنّ إستعداد التقبل ولياقة قبول الحق لازمة أيضاً، كما أنّ البذر لوحده ليس كافياً لإنبات النبات والأوراد، بل إنّ الأرض بدورها يجب أن تكون مستعدة. ولهذا قالت الآية: «وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۴۷

وهناك فئة ثانية يشخصون بأبصارهم إليك، وينظرون إلى أعمالك المتضمنة أحقيتك وصدق قولك، إلّاأنّهم عمى لايبصرون: «وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَايُبْصِرُونَ».

ولكن إعلم وليعلم هؤلاء أنّ قصور الفكر هذا، وعدم البصيرة والعمى عن رؤية وجه الحق، والصمم عن سماع كلام اللّه ليس شيئاً ذاتياً لهم نشؤوا عليه منذ ولادتهم، وإنّ اللّه تعالى قد ظلمهم، بل إنّهم هم الذين ظلموا أنفسهم بأعمالهم السيئة وعدائهم وعصيانهم للحق، وعطلوا بذلك عين بصيرتهم وأذن أفئدتهم عن سماع الحق وإتباعه، ف «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيًا وَلكِنَّ النَّاسُ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (۴۵) وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (۴۶) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (۴۷) بعد بيان بعض صفات المشركين فى الآيات السابقة، أشير هنا إلى وضعهم المؤلم فى القيامة. تقول الآية: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ».

الاحساس بقلة مقدار الإقامة فى دار الدنيا وقصره، إمّا لأنّه بالنسبة للحياة الاخروية لا يبلغ سوى ساعة واحدة، أو لأنّ هذه الدنيا الفانية انقضت بسرعة بحيث كأنّها لم تكن أكثر من ساعة، أو لأنّهم لما لم يستفيدوا من عمرهم الاستفادة الصحيحة، فيتصورون أنّها لا تساوى أكثر من قيمة ساعة.

يستفاد من الآيتان (۵۵ و ۵۶) من سورة الروم، أنّ مجموعة من المجرمين يُقسمون فى القيامة أنّ فترة برزخهم لم تكن أكثر من ساعة، إلّاأنّ المؤمنين يقولون لهم: إنّ المدّة كانت طويلة، والآن قد قامت القيامة وأنتم لاتعلمون، ونحن نعلم أن البرزخ ليس متساوياً بالنسبة للجميع، وسنذكر تفصيل ذلك فى ذيل الآيات المناسبة.

ثم تضيف الآية أنّه سيثبت لكل هؤلاء فى ذلك اليوم: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۸

اللَّهِ». وأنفقوا كل ملكاتهم وطاقاتهم الحيوية دون جدوى «وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» بسبب هذا التكذيب والإنكار والإصرار على الذنب، ولأنّ قلوبهم وأرواحهم كانت مظلمة. وتقول الآية التالية تهديداً للكفّار، وتسلية لخاطر النبى صلى الله عليه و آله: «وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ».

وتبيّن الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث قانوناً كلياً فى شأن كل الأنبياء، ومن جملتهم نبى الخاتم صلى الله عليه و آله، وكل الامم ومن جملتها الامة التى كانت تحيا فى عصر النبى صلى الله عليه و آله فتقول: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ». فإذا جاء رسولها وبلغ رسالته، وآمن قسم منهم وكفر آخرون، فإنّ اللَّه سبحانه يقضى بينهم بعدله، ولا يظلم ربّك أحداً، فيبقى المؤمنون والصالحون يتمتعون بالحياة، أمّا الكافرون فمصيرهم الفناء او الهزيمة: «فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ».

وهذا ما حصل لنبى الخاتم صلى الله عليه و آله وامته المعاصرة له، وبناء على هذا فإنّ القضاء والحكم الذى ورد فى هذه الآية هو القضاء التكوينى فى هذه الدنيا.

وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۸) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرّاً وَ لا نَفْعاً إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (۴۹) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (۵۰) أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۵۱) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (۵۲) العذاب الإلهى واختيارات الرسول: بعد التهديدات التى ذكرت فى الآيات السابقة المتعلقة بعذاب وعقاب منكرى الحق، فإنّ هذه الآيات تنقل أوّلًا استهزاء هؤلاء بالعذاب الإلهى وسخريتهم وانكارهم. فتقول: «وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

فإنّ هؤلاء أرادوا بهذه الكلمات أن يظهروا عدم اهتمامهم بتهديدات النبى صلى الله عليه و آله.

وفى مقابل هذا السؤال، فإنّ اللَّه سبحانه أمر نبيّه صلى الله عليه و آله أن يجيبهم بعدّة طرق:

فيقول أوّلًا: «قُلْ لَّاأَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ». فإنّى لست إلّارسوله ونبيّه، وإنّ تعيين موعد نزول العذاب بيده فقط.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۴۹

إنّ هذه الجملة إشارة إلى توحيد الأفعال حيث يرتبط كل شىء فى هذا العالم باللَّه سبحانه، وكل الحركات والأفعال معلولة لإرادته ومشيئته، فهو الذى ينصر المؤمنين بحكمته، وهو الذى يجازى المنحرفين بعدالته.

من البديهى أنّ ذلك لا ينافى أنّ اللَّه قد أعطانا قوى وطاقات نملك بواسطتها جلب النفع ودفع الضرر، ونستطيع أن نختار ما يتعلق بمصيرنا.

ثم يتطرق القرآن إلى جواب آخر ويقول: «لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ».

إنّ القرآن الكريم يحذر المشركين الذين كانوا يتعجلون العذاب الإلهى بأن لا يعجلوا، فعندما يحل موعدهم فإنّ هذا العذاب سوف لن يتأخر أو يتقدم لحظة.

وتطرح الآية الاخرى الجواب الثالث، فتقول: «قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا».

فهل تستطيعون أن تدفعوا عن أنفسكم هذا العذاب المفاجىء غير المرتقب؟ وإذا كان الحال كذلك ف «مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ».

وفى الآية التالية ورد جواب رابع لهؤلاء، فهى تقول: إذا كنتم تفكرون أن تؤمنوا حين نزول العذاب، وأنّ إيمانكم سيقبل منكم، فإنّ ظنّكم هذا باطل لا صحّة له: «أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِ». لأنّ أبواب التوبة ستغلق بوجوهكم بعد نزول العذاب، وليس للإيمان حينئذ أدنى أثر، بل يقال لكم: «ءَالْنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ».

هذا بالنسبة لعقاب هؤلاء الدنيوى، وفى الآخرة: «ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ». فإنّ أعمالكم هى التى أخذت بأطرافكم، وهى التى تتجسد أمامكم وتؤذيكم على الدوام.

وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۵۳) وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (۵۴) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (۵۵) هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۵۶) لا معنى للشك فى العذاب الإلهى: كان البحث فى الآيات السابقة عن جزاء وعقاب

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۰

المجرمين فى هذه الدنيا والعالم الآخر، وتكمل هذه الآيات هذا البحث أيضاً. فالآية الاولى تقول: إنّ هؤلاء يسألونك بتعجب واستفهام عن حقيقة هذا الوعيد بالعذاب الإلهى فى هذا العالم والعالم الآخر: «وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ». ويأمر اللَّه سبحانه نبيّه أن يجيبهم على هذا السؤال بما أوتى من التأكيد: «قُلْ إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ». وإذا ظننتم أنّكم تستطيعون أن تفلتوا من قبضة العقاب الإلهى فأنتم على خطأ كبير:

«وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ».

وتؤكّد الآية الاخرى على عظمة هذه العقوبة، وخاصة فى القيامة، فتقول: «وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ».

إنّ هؤلاء مستعدون لأن يدفعوا أكبر رشوة يمكن تصورها من أجل الخلاص من قبضة العذاب الإلهى، لكن لا أحد يقبل من هؤلاء شيئاً، ولا ينقص من عذابهم مقدار رأس ابرة، خاصة وأنّ لبعض هذه العقوبات صبغة معنوية، وهى أنّهم: يرون العذاب والفضيحة فى مقابل أتباعهم مما يوجب لهم اظهار الندم مزيداً من الخزى والعذاب النفسى فلذلك يحاولون عدم ابراز الندم: «وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ».

ثم تؤكّد الآية على أنّه بالرغم من كل ذلك، فإنّ الحكم بين هؤلاء يجرى بالعدل، ولا يظلم أحد منهم: «وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ».

ثم، ومن أجل أن لا يأخذ الناس هذه الوعود والتهديدات الإلهية مأخذ الهزل، ولكى لايظنوا أنّ اللَّه عاجز عن تنفيذ هذه الوعود، تضيف الآية: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ». لأنّ جهلهم قد حجب بصيرتهم وجعل عليها غشاوة فلم يعوا الحقيقة.

وتؤكّد آخر آية على هذه المسألة الحياتية مرّة اخرى، حيث تقول: «هُوَ يُحْىِ وَيُمِيتُ».

وبناء على ذلك فإنّ له القدرة على إماتة العباد، كما أنّ له القدرة على إحيائهم لمحكمة الآخرة، وفى النهاية: «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» وستلاقون جزاء كل أعمالكم هناك.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (۵۷) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (۵۸)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۱

القرآن رحمة إلهية كبرى: لقد جاءت فى بعض الآيات السابقة بحوث فى شأن القرآن عكست جوانب من مخالفات المشركين. وفى هذه الآيات تجدد الكلام عن القرآن بهذه المناسبة أيضاً، ففى البداية تخاطب جميع البشرية خطاباً عالمياً وشمولياً وتقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ».

لقد بيّنت هذه الآية أربع صفات للقرآن وتشرح وتبيّن أربع مراحل من مراحل تربية وتكامل الإنسان فى ظل القرآن:

المرحلة الاولى: مرحلة الموعظة والنصيحة.

المرحلة الثانية: مرحلة تطهير روح الإنسان من مختلف أنواع الرذائل الأخلاقية.

المرحلة الثالثة: مرحلة الهداية التى تجرى بعد مرحلة التطهير.

المرحلة الرابعة: هى المرحلة التى يصل فيها الإنسان إلى أن يكون لائقاً لأن تشمله رحمة اللّه ونعمته.

وتقول الآية الاخرى من أجل تكميل هذا البحث والتأكيد على هذه النعمة الإلهية الكبرى- أى القرآن المجيد-: «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا» ولا- يفرحوا بمقدار الثروات، وعظم المراكز، وعزة القوم والقبيلة، لأنّ رأس المال الحقيقى والأساس للسعادة الحقيقية هو هذا القرآن، فهو أفضل من كل ما جمعوه، ولا يمكن قياسه بذلك المجموع، إذاً «هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ».

قُلْ أَ رَأَيْتُم مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَ حَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (۵۹) وَ مَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (۶۰) وَ مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ مَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ وَ لَا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (۶۱) هو الشاهد فى كل مكان: كان الحديث فى الآيات السابقة عن القرآن، والموعظة الإلهية والهداية والرحمة فى هذا الكتاب السماوى، وتتحدث هذه الآيات عن قوانين المشركين

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۲

المبتدعة والخرافية وأحكامهم الكاذبة. الآية الاولى وجهت الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله وقالت:

«قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا». إذ أنّهم طبقاً لسننهم الخرافية حرموا قسماً من الدواب وكذلك حرّموا جزءاً من محاصيلهم الزراعية. ثم تقول: «قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ».

الآن وقد أصبح من المسلم أنّ هؤلاء بهذه الأحكام الخرافية المبتدعة، إضافةً إلى أنّهم حُرموا من النعم الإلهية، فإنّهم قد افتروا على الساحة الإلهية المقدسة، ولذلك تضيف الآية:

«وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ» ولذلك فإنّه لسعة رحمته لا يعاقب هؤلاء فوراً على أعمالهم القبيحة.

إلّا أنّ هؤلاء بدل أن يستغلوا هذه الفرصة الإلهية ويشكروا اللّه على ذلك وينيبوا إليه، فإنّ أكثرهم غافلون: «وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَشْكُرُونَ».

وحتى لا يتصور أحد أنّ هذه المهلة الإلهية دليل على عدم إحاطة علم اللّه سبحانه بكل أعمال هؤلاء، فإنّ آخر آية من آيات البحث تبيّن هذه الحقيقة بأبلغ عبارة وتوضح أنّ اللّه مطّلع على كل ذرات الموجودات فى خفايا السماء والأرض، ومطّلع على دقائق أعمال العباد، فتقول: «وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ».

ثم تعقب الآية على مسألة اطلاع اللّه على كل شىء بتأكيد أكبر، فتقول: «وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ».

«يعزب»: مأخوذة من العزوب، وهو فى الأصل بمعنى الإبتعاد عن البيت والأهل فى سبيل إيجاد وتهيئة المراتع للأغنام والحيوانات، ثمّ استعملت بمعنى الغيبة والإختفاء بصورة مطلقة.

و «الذّرة»: بمعنى الجسم الصغير جدّاً، ولذلك يقال للنمل الصغير: ذرة، ولمزيد التوضيح راجع تفسير الآية (۴۰) من سورة النساء.

«الكتاب المبين» إشارة إلى علم اللّه الواسع، والذى يعبر عنه أحياناً باللوح المحفوظ، وقد تحدثنا عن هذا الموضوع فى تفسير الآية (۵۹) من سورة الأنعام.

لقد بيّنت آخر هذه الآيات درساً كبيراً لكلّ المسلمين ... درس يستطيع أن يسلك بهم طريق الحق ويصرفهم عن الإنحرافات والطرق الملتوية ... درس فيه صلاح المجتمع مع

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۳

التوجّه اليه، وهو: إنّنا يجب أن نعى هذه الحقيقة، وهى أنّ كل خطوة نخطوها، وكل كلام نقوله، وكل فكرة تخطر فى أذهاننا، ولأى جهة ننظر، وعلى أىّ حال نكون، فليس اللّه سبحانه وحده يراقبنا ونحن على هذه الأحوال والأفعال، بل إنّ ملائكته تراقبنا أيضاً، وينظرون إلينا بكل دقّة وانتباه.

فى المجمع عن الإمام الصادق عليه السلام: «كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذا قرأ هذه الآية بكى بكاءً شديداً».

فإذا كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله مع كل ذلك الإخلاص والعبودية، ومع كل تلك الخدمة للخلق والعبادة للخالق خائفاً من عمله فى مقابل علم اللّه، فإنّ حالنا وحال الآخرين معلوم.

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۲) الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (۶۳) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۶۴) وَ لَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶۵) طمأنينة الروح فى ظل الإيمان: لمّا شرحت الآيات السابقة بعضاً من حالات المشركين والأفراد غير المؤمنين، بيّنت هذه الآيات حال المؤمنين المخلصين المجاهدين المتقين الذين يقعون فى الطرف المقابل لُاولئك تماماً، تقول الآية أوّلًا: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». إنّ المقصود من الغموم هى الغموم المادية والأخاويف الدنيوية، وإلّا فإنّ وجود أولياء اللّه مملوء بالخوف والخشية ... الخوف من عدم أداء الواجبات والمسؤولية.

والأسف والحسرة على أن يكون قد فاتهم شىء من الموفقية، ولهذا الخوف والحسرة صفة معنوية، فهما أساس تكامل وجود الإنسان ورقيّه، بعكس الخوف والحزن الدنيويين فهما أساس الإنحطاط والتسافل.

إنّ أولياء اللّه هم الذين لا يوجد حاجب وحائل بينهم وبين اللّه، فقد زالت الحجب عن قلوبهم ويتقلبون فى نور المعرفة والإيمان والعمل الخالص، ويرون اللّه بعيون قلوبهم بحيث لا يجد الشك أى طريق إلى تلك القلوب الوالهة، وبالنظر لهذه المعرفة باللّه الأزلى والقدرة اللامحدودة والكمال المطلق، فإنّ كل شىء سوى اللّه حقير فى نظرهم ولا قيمة له، وفانٍ لا أهمية له.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۵۴

إنّ الآية الثانية وضحت المقصود من «أولياء اللّه» فهى تقول: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ».

وتؤكّد الآية الثالثة على مسألة عدم وجود الخوف والغم والوحشة فى شخصية وقلوب أولياء الحق بهذه العبارة: «لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْأَخِرَةِ».

ثم تضيف من أجل التأكيد أيضاً: «لَاتَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ». بل هى ثابتة حقّة، وأنّ اللّه سبحانه سيفى بما وعد به أولياءه، و «ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

وحولت الآية الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله الذى يمثل رأس سلسلة أولياء اللّه وأحبائه مخاطبةً له بلحن المواساة وتسلية الخاطر: «وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا». ولا يمكن أن يقوم العدو بعمل مقابل إرادة الحق، فإنّه تعالى عالم بكل خططهم ودسائسهم. ف «هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ مَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (۶۶) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۶۷) جانب من آيات عظمته: تعود الآيات أعلاه مرّة اخرى إلى مسألة التوحيد والشرك والتى تعتبر واحدة من أهم مباحث الإسلام، وبحوث هذه السورة، وتجرّ المشركين إلى المحاكمة وتثبت عجزهم. فتقول أوّلًا: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّموَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ». وإذا كان الأشخاص ملكه ومنه، فمن الاولى أن تكون الأشياء الموجودة فى هذا العالم ملكه ومنه، وبناءً على هذه فإنّه مالك كل عالم الوجود.

ثمّ تضيف الآية: «وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ». إذ لا دليل ولا برهان لهم على كلامهم «وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ».

وأساساً، فإنّ إتباع الظن والحدس الذى لا يستند إلى أساس ثابت يجرّ الإنسان فى النهاية إلى وادى الكذب عادة.

ثمّ ومن أجل إكمال هذا البحث، وتبيّن طرق معرفة اللّه، والإبتعاد عن الشرك وعبادة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۵

الأوثان، أشارت الآية الثانية إلى جانب من المواهب الإلهية التى أودعت فى نظام الخلقة والدالة على عظمة وقدرة وحكمة اللّه عزّ وجل، فقالت: «هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا».

نعم «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ». اولئك الذين يسمعون ويدركون، وبعد إدراك الحقيقة يتبعونها ويسيرون على نهجها.

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهذَا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۶۸) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (۶۹) مَتَاعٌ فِى الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (۷۰) تستمر هذه الآيات- أيضاً- فى بحثها مع المشركين، وتذكر واحدة من أكاذيب واتهامات هؤلاء لساحة اللّه المقدسة، فتقول أوّلًا: «قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا».

إنّ هذا الكلام قاله المسيحيون فى حق المسيح عليه السلام ثمّ عبدة الأوثان فى عصر الجاهلية فى حق الملائكة، حيث كانوا يظنون أنّها بنات اللّه، وقاله اليهود فى شأن عزير. ويجيبهم القرآن بطريقين:

الأوّل: إنّ اللّه سبحانه منزّه عن كل عيب ونقص، وهو مستغن عن كل شيء: «سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ». وهذا إشارة إلى أنّ الحاجة إلى الولد، إمّا للحاجة الجسمية إلى قوته ومساعدته، أو للحاجة الروحية والعاطفية، ولما كان اللّه سبحانه منزّه عن كل عيب ونقص وحاجة، فلا يمكن أن يتخذ لنفسه ولداً.

«لَهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ». ومع هذا الحال فأى معنى لأن يتخذ لنفسه ولداً ليطمئنه ويهدئه، أو يعينه ويساعده.

والجواب الثانى الذى يذكره القرآن لهؤلاء هو: إنّ من يدعى شيئاً يجب عليه أن يقيم دليلًا على مدعاه: «إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطنٍ بِهذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

وتعيد الآية التالية عاقبة الإفتراء على اللّه المشؤومة، فتوجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله وتقول: «قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَايُفْلِحُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۶

وعلى فرض أنّ هؤلاء يستطيعون بافتراءاتهم وأكاذيبهم أن ينالوا المال والمقام لعدّة أيام، فإنّ ذلك «مَتعٌ فِى الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ». إنّ التعبير ب «نذيقهم» يشير إلى أنّ هذا العذاب الذى سينال هؤلاء بدرجة من الشدّة بحيث كأنّهم يذوقونه بألسنتهم وأفواههم، وهذا التعبير أبلغ جداً من المشاهدة، بل وحتى من لمس العذاب.

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِى وَ تَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لَا تُنْظِرُونِ (۷۱) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۷۲) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَ جَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (۷۳) جانب من جهاد نوح: الآيات أعلاه بداية لبيان قسم من تأريخ الأنبياء، فيأمر اللّه نبيّه أن يتابع حديثه السابق مع المشركين بشرح تاريخ الماضين ليكون عبرة لهم. فى البداية تطرقت إلى قصة نوح، فقالت: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بَايتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ». ولهذا فإنّى لا أخاف غيره.

ثم تضيف: «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ». أى ادعوا أصنامكم أيضاً لتعينكم فى المشورة، حتى لا- يبقى شيء خافياً على أحد ولا يتعرض منكم إلى الهم والغم أحد «ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً». بل اتّخذوا قراركم فى شأنى بكل وضوح.

ثم يقول: «ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونَ».

وإذا علمنا أنّ هذه الآيات نزلت في مكة في الوقت الذي كان يعيش فيه النبي صلى الله عليه و آله ظروفاً تشبه ظروف نوح، وكان المؤمنون قلّة، سيتّضح أنّ القرآن يريد أن يعطي للنبي- أيضاً- نفس هذا الدرس بأن لا يهتم بقدرة العدو، بل يسير ويتقدم بكلّ حزم وجرأة وشجاعة، لأنّ اللَّه يسنده وينصره.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۵۷

وهذا درس كبير لكل القادة الإسلاميين بأن لا يخافوا ولا ينهاروا أمام عظمة الأعداء وكثرتهم، بل إنّهم باتكالهم على اللَّه كانوا يدعون هؤلاء إلى الميدان بكل حزم واقتدار ويستصغرون قوتهم، فكان هذا عاملًا مهماً في تقوية معنويات الأتباع والمؤيدين، وتدمير معنويات العدو وانهيارها.

وذكرت الآية التالية بياناً آخر عن نوح من أجل إثبات أحقيّته، هناك حيث تقول:

«فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ»، فإنّى أعمل له، ولا أريد الأجر إلّا منه «وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

إنّ مقولة نوح هذه درس آخر للقادة الإلهيين بأن لا يتوقعوا أي جزاء مادي ومعنوي من الناس لقاء دعوتهم وتبليغهم، لأنّ هذا التوقع يوجد نوعاً من التعلق النفسي الذي يؤدّي إلى عرقلة أساليب الدعوة الصريحة والنشاطات الحرة.

وتبيّن الآية الأخيرة عاقبة ومصير أعداء نوح، وصدق توقعه وقوله السابق بهذه الصورة: «فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ». ولم ننقذهم وحسب، بل «وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايتِنَا».

وفي النهاية توجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه و آله وتقول: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ».

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (۷۴)

الرسل بعد نوح: بعد انتهاء البحث الإجمالي حول قصّة نوح، أشارت هذه الآية إلى الأنبياء الآخرين الذين جاؤوا بعد نوح وقبل موسى عليهما السلام لهداية الناس كإبراهيم وهود وصالح ولوط ويوسف عليهم السلام فقالت: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ».

فقد كانوا مسلّحين كنوح بسلاح المنطق والإعجاز والبرامج البناءة، إلّاأنّ الذين سلكوا طريق العناد وكذّبوا الأنبياء السابقين، كذّبوا هؤلاء الأنبياء أيضاً ولم يؤمنوا بهم «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ». وكان ذلك نتيجة للعصيان والتمرّد وعداء الحق الذي أوصد تلك القلوب «كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۵۸

جانب من جهاد موسى وهارون: لقد جرى ذكر قصص الأنبياء والامم السابقة كنماذج حيّة، وبدأ الحديث أوّلًا عن نوح عليه السلام ثمّ عن الأنبياء بعد نوح، ووصل الدور في هذه الآيات إلى موسى وهارون عليهما السلام ومواجهاتهم المستمرة مع فرعون وأتباعه، فتقول الآية الاولى:

«ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهرُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ بَايَاتِنَا».

إلّا أنّ فرعون وأتباعه امتنعوا عن قبول دعوة موسى، وعن التسليم في مقابل الحق:

«فَاسْتَكْبَرُوا». ونظراً للتكبر والاستعلاء وعدم امتلاكهم لروح التواضع فإنّهم لم يلتفتوا إلى الحقائق الواضحة في دعوة موسى، وأصرّوا واستمروا في إجرامهم: «وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ».

وتتحدث الآية التالية عن مراحل مواجهة الفراعنة لموسى وأخيه هارون، وأوّل تلك المراحل هي مرحلة الإنكار والتكذيب والإفتراء واتهامهما بسوء النية، وابطال سنن الأجداد، والإخلال بالنظام الاجتماعي، كما يقول القرآن: «فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ».

إلّا أنّ موسى عليه السلام نهض للدفاع عن نفسه، فأزاح الستار وأوضح كذب هؤلاء وأبطل تهمتهم، ففي البداية: «قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ

لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذَا».

صحيح أنّ لكل من السحر والمعجزة نفوذاً وتأثيراً، وأنّ من الممكن أن يؤثر الحق والباطل على ادراكات الناس ونفسياتهم، إلّاأنّ السحر الذى هو أمر باطل يتميز تماماً عن المعجزة التى هى حق، إذاً لا يمكن المقارنة بين نفوذ الأنبياء ونفوذ السحرة، فإنّ أعمال السحرة تفتقد إلى الهدفية ومحدودة ولا قيمة لها، ومعجزات الأنبياء لها أهداف إصلاحية وتغييرية وتربوية واضحة، وتعرض بشكل واسع وغير محدود.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۵۹

إضافة إلى أنّه: «وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ». وهذا التعبير دليل آخر على امتياز عمل الأنبياء عن السحر.

إنّ السحرة لا يرون وجه الفلاح مطلقاً، ولا يعملون إلّامن أجل المال والثروة والمنصب والمنافع الشخصية، فى حين أنّ هدف الأنبياء هداية خلق اللّه وإصلاح المجتمع الإنسانى من جميع جوانبه المادية والمعنوية.

ثمّ يستمر فرعون وملئه فى رمى موسى عليه السلام بسيل الإتهامات الصريحة، حيث «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا».

الواقع، أنّهم قدموا صنم «سنة الآباء» وعظمتهم الخيالية والأسطورية حتى يوجهوا الرأى العام ضد موسى وهارون، بأنّهما يريدان أن يعبثا بمقدّسات مجتمعكم وبلادكم.

ثمّ استمروا فى هذا التشويه، وقالوا بأنّ دعوتكم إلى دين اللّه ما هى إلّاكذب محض، وكل هذه مصائد وخطط خيانية بهدف التسلط على الناس: «وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِى الْأَرْضِ».

إنّ هؤلاء لما كانوا يسعون دائماً من أجل الحكم الظالم على الناس كانوا يظنون أنّ الآخرين مثلهم، وهكذا كانوا يفسرون مساعى المصلحين والأنبياء.

«وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ» لأنّا على علم بنواياكم وخططكم الهدامة.

وكانت هذه هى المرحلة الاولى من المواجهة السلبية مع موسى.

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ائْتونِى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (۷۹) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (۸۰) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (۸۱) وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (۸۲) المرحلة الثّانية: فعندما لاحظ فرعون قسماً من معجزات موسى، كاليد البيضاء والحية العظيمة، ورأى أنّ ادّعاء موسى ليس واهياً بدون دليل وبرهان، وأنّ هذا الدليل سيؤثر فى جميع أنصاره أو الآخرين قليلًا أو كثيراً، فكّر بجواب عملى كما يقول القرآن: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِى بِكُلِّ سحِرٍ عَلِيمٍ».

«فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ». فإنّ هؤلاء قد عبؤوا كل ما يملكون من قدرة، وألقوا كل ما أتوا به معهم فى وسط الحلبة: «فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۰

بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ». فأنتم أفراد فاسدون ومفسدون لأنّكم تخدمون حكومة جبارة وظالمة وتعملون على تقوية دعائم هذه الحكومة الغاشمة الدكتاتورية وهذا بنفسه أقوى دليل على كونكم مفسدين، و «إِنَّ اللَّهَ لَايُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ».

وفى الآية الأخيرة، إنّ موسى قال لهؤلاء: إنّ النصر والغلب لنا فى هذه المبارزة حتماً، لأنّ اللّه سبحانه قد وعد أن يظهر الحق بواسطة المنطق القاطع، ومعجزات أنبيائه القاهرة، ويفضح ويخزى المفسدين وأهل الباطل وإن كره المجرمون ذلك: «وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ».

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (۸۳) وَ قَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُم آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (۸۴) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۸۵) وَ نَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (۸۶) المرحلة الثالثة: عكست هذه الآيات مرحلة اخرى من المواجهة الثورية بين موسى وفرعون،

ففی البدایة تبیّن وضع المؤمنین فتقول: «فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَی إِلَّا ذُرِّیَّهٌ مِّن قَوْمِهِ».

إنّ هذه المجموعة الصغیرة القلیلة، والتی کان الشباب والأشبال یشکّلون أکثریتها بمقتضی ظاهر کلمة ذریّة، کانت تواجه ضغوطا شدیدة من فرعون وأتباعه إلی درجة أنّهم خافوا أن یصل بهم الأمر إلی ترک دین موسی نتیجة هذه الضغوط الشدیدة: «عَلَی خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِیهِمْ أَن یَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِی الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِینَ».

فقد حدّث موسی هؤلاء بلسان المحبّة والمودة من أجل تهدئة خواطرهم وتسکین قلوبهم: «وَقَالَ مُوسَی یَا قَوْمِ إِن کُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَیْهِ تَوَکَّلُوا إِن کُنتُم مُّسْلِمِینَ».

إنّ حقیقة التوکل هی إلقاء العمل والتصرف فی الامور علی کاهل الوکیل، ولیس معنی التوکل أن یترک الإنسان الجد والسعی، بل معناه أن یبذل قصاری جهده، فإذا لم یستطع أن یحل المشکلة فلا یدع للخوف طریقاً إلی نفسه، بل یصمد أمامها بالتوکل والإعتماد علی لطف اللّه والاستعانة بذاته المقدسة وقدرته اللامتناهیة، ویستمر فی جهاده المتواصل.

إنّ هؤلاء المؤمنین المخلصین أجابوا دعوة موسی بالتوکل: «فَقَالُوا عَلَی اللَّهِ تَوَکَّلْنَا». ثمّ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۱

رجوا من اللّه سبحانه أن ینجیهم من شر الأعداء ووساوسهم وضغوطهم ویؤمّنهم: «رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَهً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِینَ». «وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِکَ مِنَ الْقَوْمِ الْکَافِرِینَ».

وَ أَوْحَیْنَا إِلَی مُوسَی وَ أَخِیهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِکُمَا بِمِصْرَ بُیُوتاً وَ اجْعَلُوا بُیُوتَکُمْ قِبْلَهً وَ أَقِیمُوا الصَّلَاهَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِینَ (۸۷) وَ قَالَ مُوسَی رَبَّنَا إِنَّکَ آتَیْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِینَهً وَ أَمْوَالًا فِی الْحَیَاهِ الدُّنْیَا رَبَّنَا لِیُضِلُّوا عَنْ سَبِیلِکَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَی أَمْوَالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلَی قُلُوبِهِمْ فَلَا یُؤْمِنُوا حَتَّی یَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِیمَ (۸۸) قَالَ قَدْ أُجِیبَتْ دَعْوَتُکُمَا فَاسْتَقِیمَا وَ لَا تَتَّبِعَانِّ سَبِیلَ الَّذِینَ لَا یَعْلَمُونَ (۸۹) المرحلة الرابعة: مرحلة البناء من أجل الثورة: شرحت هذه الآیات مرحلة اخری من نهضة وثورة بنی إسرائیل ضد الفراعنة. فتقول أوّلًا: «وَأَوْحَیْنَا إِلَی مُوسَی وَأَخِیهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِکُمَا بِمِصْرَ بُیُوتًا وَاجْعَلُوا بُیُوتَکُمْ قِبْلَهً». فالأمر الإلهی یقرر اختیار البیوت لبنی اسرائیل بمصر وأن تکون هذه البیوت متقاربة ومتقابلة.

ثم تطرقت إلی مسألة تربیة النفس معنویاً وروحیاً، فقالت: «وَأَقِیمُوا الصَّلَوهَ». ومن أجل أن تطرد آثار الخوف والرعب من قلوب هؤلاء وتعید وتزید من قدرتهم المعنویة والثوریة قالت: «وَبَشّرِ الْمُؤْمِنِینَ».

یستفاد من مجموع هذه الآیة أنّ بنی إسرائیل کانوا فی تلک الفترة بصورة جماعة متشتتة مهزومة ومتطفلة وملوّثة وخائفة، فلا مأوی لهم ولا اجتماع مرکزی.

لذلک فإنّ موسی وأخاه هارون قد تلقوا مهمة وضع برنامج فی عدّة نقاط من أجل تطهیر مجتمع بنی إسرائیل، وخاصه فی الجانب الروحی:

۱- الإهتمام أوّلًا بمسألة بناء المساکن، وعزل مساکنهم عن الفراعنة.

۲- أن یبنوا بیوتهم متقاربة ویقابل بعضها الآخر.

۳- التوجه إلی العبادة، وخاصه الصلاة التی تحرر الإنسان من عبودیة العباد.

الملفت للنظر أنّ بنی إسرائیل من أولاد یعقوب، وجماعة منهم من أولاد یوسف طبعاً، وقد حکم هو واخوته مصر سنین طویلة، وسعوا فی عمران هذا الوطن، إلّاأنّه نتیجة لترکهم طاعة اللّه والغفلة والخلافات الداخلیة وصلوا إلی مثل هذا الوضع المأساوی.

وَ جَاوَزْنَا بِبَنِی إِسْرَائِیلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْیاً وَ عَدْواً حَتَّی إِذَا أَدْرَکَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِی آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِیلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِینَ (۹۰) آلْآنَ وَ قَدْ عَصَیْتَ قَبْلُ وَ کُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِینَ (۹۱) فَالْیَوْمَ نُنَجِّیکَ بِبَدَنِکَ لِتَکُونَ لِمَنْ خَلْفَکَ آیَهً وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آیَاتِنَا لَغَافِلُونَ (۹۲) وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِی إِسْرَائِیلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّیِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّی جَاءَهُمُ الْعِلْمُ

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٦٢

ثم أشارت إلى إحدى علل طغيان فرعون وأزلامه، فتقول على لسان موسى: «وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ».

إنّ اللام فى «ليضلوا» لام العاقبة، أى إنّ جماعة الأشراف الأثرياء المترفين سيسعون من أجل إضلال الناس شاؤوا أم أبوا، وسوف لا تكون عاقبة أمرهم شيئاً غير هذا، لأنّ دعوة الأنبياء والأطروحات الإلهية توقظ الناس وتوحدّهم وبذلك لا يبقى مجال لتسلط الظالمين وكيد المعتدين وستضيق الدنيا عليهم، فلا يجدوا بدّاً من معارضة الانبياء. ثم يطلب موسى عليه السلام من اللّه طلباً فيقول: «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ».

«الطمس»: فى اللغة بمعنى المحو وسلب خواص الشيء، واللطيف فى الأمر أنّ ماورد فى بعض الروايات من أنّ أموال الفراعنة قد أصبحت خزفاً وحجراً بعد هذه اللعنة، ربّما كان كناية عن أنّ التدهور الاقتصادى قد بلغ بهم أن سقطت فيه قيمة ثرواتهم تماماً وأصبحت كالخزف لا قيمة لها!

ثم اضافت: «وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ». أى: أسلبهم قدرة التفكير والتدبر أيضاً لأنّهم بفقدانهم هاتين الدعامتين (المال والفكر) سيكونون على حافة الزوال والفناء، وسينفتح أمامنا طريق الثورة، وتوجيه الضربه النهائية لهؤلاء.

اللّهم إن كنت قد طلبت ذلك منك فى حق الفراعنة فليس ذلك نابعاً من روح الإنتقام والحقد بل لأنّ هؤلاء قد فقدوا أرضية الإيمان أبداً: «فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ».

ثم خاطب اللّه سبحانه وتعالى موسى وأخاه بأنّه: الآن وقد أصبحتما مستعدين لتربية وبناء قوم بنى إسرائيل «قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا» فى سبيل اللّه ولا تخافا سيل المشاكل، وكونا حازمين فى أعمالكما ولا تستسلما أمام اقتراحات الجاهلين، بل استمرّا فى برنامجكما الثورى «وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ».

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٦٣

الفصل الأخير من المجابهة مع الظالمين: هذه الآيات جسّدت آخر مرحلة من المواجهة بين بنى إسرائيل والفراعنة وبيّنت مصير هؤلاء فى عبارات قصيرة، فتقول أوّلًا:

إنّنا جاوزنا ببنى إسرائيل البحر- وهو نهر النيل العظيم أطلق عليه اسم البحر لعظمته- أثناء مواجهتهم للفراعنة، وعندما كانوا تحت ضغط ومطاردة هؤلاء: «وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَاءِيلَ الْبَحْرَ». إلّاأنّ فرعون وجنوده طاردوا هؤلاء من أجل القضاء على بنى إسرائيل:

«فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا». «البغى»: يعنى الظلم، «والعدو»: بمعنى التعدى، أى إنّ هؤلاء إنّما طاردوهم وتعقبوهم لغرض الظلم والتعدى عليهم، أى على بنى إسرائيل.

جملة «فأتبعهم» توحى بأنّ فرعون وجنوده قد تتبعوا بنى إسرائيل طوعاً.

فإنّ هذه الأحداث قد استمرت حتى أوشك فرعون على الغرق، وأصبح كالقشة تتقاذفه الأمواج وتلهو به، فعنذاك زالت حجب الغرور والجهل من أمام عينه، وسطع نور التوحيد الفطرى وصدع بالإيمان: «حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا الَّذِى ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَاءِيلَ». فلست مؤمناً بقلبى فقط، بل إنّى من المسلمين عملياً: «وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

ولمّا تحققت تنبؤات موسى عليه السلام الواحدة تلو الاخرى وأدرك فرعون صدق هذا النبى الكبير أكثر فأكثر وشاهد قدرته وقوته، اضطر إلى إظهار الإيمان على أمل أن ينقذه ربّ بنى إسرائيل كما أنجاهم من هذه الأمواج المتلاطمة ولذلك يقول: آمنت أنّه لا إله إلّاالذى آمنت به بنو إسرائيل!

إلّا أنّ من البديهى أنّ مثل هذا الإيمان الذى يتجلّى عند نزول البلاء ونشوب أظفار الموت، إيمان اضطرارى يتشبث به كل جان

ومجرم ومذنب وليست له أيّة قيمة، أو يكون دليلًا على حسن نيّته أو صدق قوله، ولهذا فإنّ اللّه سبحانه خاطبه فقال: «ءَالْنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ».

لكن «فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً». آية للحكام المستكبرين ولكلّ الظالمين والمفسدين، وآية للفئات المستضعفة.

والمراد من البدن هنا، جسد فرعون الذى فارقته الروح، لأنّ عظمة فرعون فى أفكار الناس فى ذلك المحيط بلغت حدّاً بحيث إنّ الكثير لولا ـ ذلك لم يكن يصدق أن فرعون يمكن أن يغرق، وكان من الممكن أن تنسج الأساطير والخرافات الكاذبة حول نجاة وحياة فرعون بعد هذه الحادثة، لذلك ألقى اللّه سبحانه جسده خارج الماء.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣٦٤

ويقول فى نهاية الآية: إنّه وبالرغم من كل هذه الآيات والدلالات على قدرة اللّه، ومع كل الدروس والعبر التى ملأت تاريخ البشر فإنّ الكثير معرضون عنها «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ». وتبيّن آخر آية من هذه الآيات النصر النهائى لبنى إسرائيل، والرجوع إلى الأرض المقدسة بعد الخلاص من قبضة الفراعنة، فتقول: «وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ».

إنّ التعبير ب «مُبَوَّأَ صِدْقٍ» يمكن أن يكون إشارة إلى أرض مصر، أم أراضى الشام وفلسطين.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ». إلّاأنّ هؤلاء لم يعرفوا قدر هذه النعمة «فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ». وبعد مشاهدة كل تلك المعجزات التى جاء بها موسى، وأدلة صدق دعوته، إلّا «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

وإذا لم يتذوقوا طعم عقاب الاختلاف اليوم، فسيذوقونه غداً.

فَإِنْ كُنْتَ فِى شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩۴) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩۵) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩۶) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧) لا ـ تدع للشك طريقاً إلى نفسك: لمّا كانت الآيات السابقة قد ذكرت جوانب من ماضى الأنبياء والامم السابقة، وكان من الممكن أن يشكك بعض المشركين ومنكرى دعوة النبى صلى الله عليه و آله فى صحة ذلك، فقد طلب القرآن من هؤلاء أن يراجعوا أهل الكتاب للتأكد والعلم بصحة هذه الأقوال، وليسألوهم عن ذلك، لأنّ كثيراً من هذه المسائل قد ورد فى كتب هؤلاء. إلّاأنّه بدل أن يوجه الخطاب لهؤلاء، خاطب النبى صلى الله عليه و آله فقال: «فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ». ليثبت عن هذا الطريق بأنّه: «لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ».

ثم تضيف الآية التالية: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ» من بعد ما اتّضحت لك آيات اللّه وصدق هذه الدعوة.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٣۶۵

إنّ الآية السابقة تقول بأنّك إن كنت فى شك فاسأل اولئك المطلعين العالمين، وتقول هذه الآية بأنّك يجب أن تسلم مقابل هذه الآيات بعد أن ارتفعت عوامل الشك، وإلّا فإنّ مخالفة الحق لا عاقبة لها إلّاالخسران.

ثم أنّها تخبر النبى صلى الله عليه و آله بأنّ من بين مخالفيك جماعة متعصبين عنودين لا فائدة من انتظار إيمانهم، فإنّهم قد مسخوا من الناحية الفكرية، وتوغّلوا فى طريق الباطل إلى الحدّ الذى فقدوا معه الضمير الإنسانى الحى تماماً، وتحولوا إلى موجودات لايمكن اختراقها، غاية ما فى الأمر أنّ القرآن الكريم يبيّن هذا الموضوع بهذا التعبير: «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ».

وحتى إذا جاءتهم كل الآيات والدلالات فإنّهم لا يؤمنون: «وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» ولا أثر لإيمانهم فى ذلك الوقت.

فَلَوْ لَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)

الامّة التى آمنت فى الوقت المناسب: تحدثت الآيات السابقة عن فرعون خاصة، والأقوام السابقة بصورة عامّة، وهى أنّ هؤلاء امتنعوا

من الإیمان باللّه فی وقت الإختیار والسلامة، إلّاأنّهم لما أشرفوا علی الموت والعذاب الإلهی أظهروا الإیمان الذی لم یکن نافعاً لهم آنذاک. وتطرح الآیة التی نبحثها هذه المسألة کقانون عام، فتقول: «فَلَوْلَا کَانَتْ قَرْیَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِیمَانُهَا». ثمّ استثنت قوم یونس فقالت: «إِلَّا قَوْمَ یُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا کَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْیِ فِی الْحَیَوةِ الدُّنْیَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَی حِینٍ». أی إلی آخر عمرهم.

قصة إیمان قوم یونس: کانت قصّة هؤلاء علی ما جاء فی التواریخ، أنّه عندما یئس یونس من إیمان قومه القاطنین أرض نینوی فی العراق، دعا علی قومه باقتراح من عابد کان یعیش بینهم، فی حین أنّ عالماً کان معهم أیضاً اقترح علی یونس أن یدعو لهؤلاء لا علیهم، وأن یستمر فی إرشاده أکثر من قبل ولا ییأس.

یونس علیه السلام اعتزل قومه بعد الدعاء علیهم، فاغتنم هؤلاء الفرصة وعملوا بنصیحة العالم وخرجوا معه خارج المدینة للتضرع والدعاء، وأظهروا الإیمان والتوبة.

إنّ هذه التوبة والإیمان والرجوع إلی اللّه، الذی تمّ فی الوقت المناسب وعن وعی مقترن

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۶

بالإخلاص قد أثر أثره، وارتفعت علامات العذاب وعادت المیاه إلی مجاریها، ولمّا رجع یونس إلی قومه بعد احداث ووقائع کثیرة وقعت له قبلوه بأرواحهم وقلوبهم. ثم إنّ القصة أعلاه تبیّن بصورة ضمنیة مدی تأثیر القائد الواعی الرشید الحریص فی القوم أو الامّة، فی حین أن العابد الذی لا یمتلک الوعی الکافی یعتمد علی الخشونة أکثر، وهکذا یفهم من هذه الروایة منطق الإسلام فی المقارنة بین العبادة الجاهلة، والعلم الممتزج بالاحساس بالمسؤولیة.

وَ لَوْ شَاءَ رَبُّکَ لَآمَنَ مَنْ فِی الْأَرْضِ کُلُّهُمْ جَمِیعاً أَ فَأَنْتَ تُکْرِهُ النَّاسَ حَتَّی یَکُونُوا مُؤْمِنِینَ (۹۹) وَ مَا کَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ یَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَی الَّذِینَ لَا یَعْقِلُونَ (۱۰۰) لا- خیر فی الإیمان الإجباری: لقد طالعنا فی الآیات السابقة أنّ الإیمان الاضطراری لا یجدی نفعاً أبداً، ولهذا فإنّ الآیة الاولی من هذه الآیات تقول: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّکَ لَأَمَنَ مَن فِی الْأَرْضِ کُلُّهُمْ جَمِیعًا». وبناء علی هذا فلا یعتصر قلبک ألماً لعدم إیمان جماعة من هؤلاء، فإنّ من مستلزمات أصل حریة الإرادة والاختیار أن یؤمن جماعة ویکفر آخرون، وإذا کان الأمر کذلک «أَفَأَنتَ تُکْرِهُ النَّاسَ حَتَّی یَکُونُوا مُؤْمِنِینَ».

إنّ هذه الآیة تنفی بصراحة مرّة اخری التهمة الباطلة التی قالها ویقولها أعداء الإسلام بصورة مکررة، حیث یقولون: إنّ الإسلام دین السیف، وقد فرض بالقوة والإجبار علی شعوب العالم، فتجیب الآیة- ککثیر من آیات القرآن الاخری- بأنّ الإیمان الإجباری لا قیمة له، والدین والإیمان شیء ینبع عادة من أعماق الروح، لا من الخارج وبواسطة السیف، خاصه وأنّها حذرت النبی صلی الله علیه و آله من إکراه وإجبار الناس علی الإیمان والإسلام.

الآیة التالیة قد ذکرت هذه الحقیقة أیضاً، وهی أنّ البشر وإن کانوا أحراراً فی اختیارهم، إلّا أنّه «وَمَا کَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» ولهذا فإنّ هؤلاء قد ساروا فی طریق الجهل وعدم التعقل، ولم یکونوا مستعدین للاستفادة من رأس مال فکرهم وعقلهم، وسوف لا یوفقون للإیمان وهم علی هذا الحال، إذ «وَیَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَی الَّذِینَ لَایَعْقِلُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۷

قُلِ انْظُرُوا مَا ذَا فِی السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا تُغْنِی الْآیَاتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا یُؤْمِنُونَ (۱۰۱) فَهَلْ یَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَیَّامِ الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَکُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِینَ (۱۰۲) ثُمَّ نُنَجِّی رُسُلَنَا وَ الَّذِینَ آمَنُوا کَذلِکَ حَقّاً عَلَیْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِینَ (۱۰۳) الموعظة والنصیحة: کان الکلام فی الآیات السابقة عن أنّ الإیمان یجب أن یکون اختیاریاً لا بالجبر والاکراه، ولهذا فإن الآیة الاولی هنا ترشد الناس إلی الإیمان الاختیاری، وتخاطب النبی صلی الله علیه و آله فتقول: «قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِی السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

إنّ هذه الجملة تنفی بوضوح مسألة الجبر وسلب حریة الإرادة، فهی تقول: إنّ الإیمان هو نتیجة التدبر فی عالم الخلقة، أی إنّ هذا الأمر فی اختیارکم.

ثم تضيف أنّه رغم كل هذه الآيات والعلامات الدالة على الحق، فلا داعى للعجب من عدم إيمان البعض، لأنّ الآيات والدلالات والإنذارات تنفع الذين لهم الإستعداد لتقبل الحق، أمّا هؤلاء فإنّه «وَمَا تُغْنِى الْأَيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَايُؤْمِنُونَ» (۱).

ثم تقول- بنبرة التهديد المتلبسة بلباس السؤال والإستفهام-: هل ينتظر هؤلاء المعاندون الكافرون إلّاأن يروا مصيراً كمصير الأقوام الطغاة والمتمردين السابقين الذين عمهم العقاب الإلهى، مصير كمصير الفراعنة والنماردة وشدّاد وأعوانهم وأنصارهم؟! «فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ».

وتحذرهم الآية أخيراً فتقول: يا أيّها النبى «قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ».

فأنتم بانتظار هزيمة دعوة الحق، ونحن بانتظار المصير المشؤوم الذى ستلاقونه، مصير المتكبرين الماضين.

ومن أجل أن لايتوهم متوهم أنّ اللّه سبحانه يصيب بعذابه الصالح والطالح، تضيف الآية: إنّنا إذا ما تحققت مقدمات نزول العذاب على الأمم السابقة، نقوم بانقاذ عبادنا الصالحين: «ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا».

---

(۱) «نذر»: جمع نذير، أى المنذر، وهو كنايه عن الأنبياء والقادة الإلهيين أو هى جمع إنذار، بمعنى تحذير وتهديد الغافلين والمجرمين الذى هو من برامج هؤلاء القادة الإلهيين.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۸

ثم تقول فى النهاية: إنّ هذا ليس مختصاً بالامم السالفة والرسل والمؤمنين الماضين، بل «كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ».

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى شَكٍّ مِنْ دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۰۴) وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۰۵) وَ لَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَ لَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (۱۰۶) وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۱۰۷) الحزم فى التعامل مع المشركين: هذه الآيات والآيات التى تليها، هى آخر آيات هذه السورة، وتتحدث جميعاً حول مسألة التوحيد ومحاربة الشرك والدعوة إلى الحق، وهى فهرست أو خلاصة لبحوث التوحيد وتأكيد على محاربة ومجابهة عبادة الأصنام التى بيّنت مراراً فى هذه السورة.

إنّ سياق الآية يوحى بأنّ المشركين كانوا يتوهمون أحياناً أن من الممكن أن يلين النبى ويتسامح فى عقيدته فى شأن الأصنام ويعترف ويقرّ لهم عبادة الأصنام ولو جزئياً إلى جانب الإعتقاد باللّه بنحو من الانحاء. إلّاأنّ القرآن ينسف هذا التوهم الواهى بصورة قاطعة وحاسمة ويقطع عليهم احلامهم هذه إلى الأبد، فلا معنى لأىنوع من المساومة واللين فى مقابل الأصنام، ولا معبود إلّااللّه، لاتزيد كلمة ولا تنقص اخرى. ففى البداية يأمر النبى صلى الله عليه و آله أن يخاطب جميع الناس: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ» ولا تكتفى الآية بنفى آلهة اولئك، بل تثبت كل العبادة للّهسبحانه زيادة فى التأكيد فتقول: «وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوَفكُمْ». ومن أجل تأكيد أكبر تضيف: أنّ هذه ليست إرادتى فقط، بل «وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

وبعد أن بيّنت الآية العقيدة الحقة فى نفى الشرك وعبادة الأوثان بكل صراحة وقوة، تطرقت إلى بيان دليل ذلك، دليل من الفطرة، ودليل من العقل:

«وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا» وهنا أيضاً لم يكتف بجانب الإثبات، بل نفى الطرف

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۶۹

المقابل لتأكيد الأمر، فقالت الآية: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

«الحنيف»: تعنى الشخص الذى يميل ويتحول عن طريق الانحراف إلى جادة الصواب والاستقامة.

وبعد الإشارة إلى بطلان الشريك بالدليل الفطرى، تشير إلى دليل عقلى واضح، فتقول:

«وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَايَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ». إذ تكون قد ظلمت نفسك ومجتمعك الذى تعيش فيه.

وهنا أيضاً لم تكتف الآية بجانب النفى، بل إنّها تؤكّد إضافةً إلى النفى على جانب الإثبات فتقول: «وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ»، وكذلك «وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ» لأنّ عفوه ورحمته وسعت كل شىء «وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (۱۰۸) وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (۱۰۹) الكلمة الأخيرة: هاتين الآيتين تضمّنت إحداهما موعظة ونصيحة لعامة الناس، واختصت الثانية بالنبى صلى الله عليه و آله وقد كملتا الأوامر والتعليمات التى بيّنها اللَّه سبحانه على مدى هذه السورة ومواضعها المختلفة. وبذلك تنتهى سورة يونس. فتقول أوّلًا، وكقانون عام:

«قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ». هذه التعليمات وهذا الكتاب السماوى، وهذا الدين وهذا النبى كلها حق، والأدلّة على كونها حقّاً واضحة، وبملاحظة هذه الحقيقة: «فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ». أى إنّى لست مأموراً بإجباركم على قبول الحق، لأنّ الإجبار على قبول الإيمان لا معنى له، ولا أستطيع إذا لم تقبلوا الحق ولم تؤمنوا أن أدفع عنكم العذاب الإلهى، بل إنّ واجبى ومسؤوليتى هى الدعوة والإبلاغ والإرشاد والهداية والقيادة.

ثم تبيّن وظيفة وواجب النبى صلى الله عليه و آله فى جملتين: الاولى «وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ». فإنّ اللَّه قد حدّد مسيرك من خلال الوحى، ولا يجوز لك أن تنحرف عنه قيد أنملة.

والثانية: إنّه ستعترضك فى هذا الطريق مشاكل مضنية ومصاعب جمة، فلا تدع للخوف

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۷۰

من سيل المشاكل إلى نفسك طريقاً، بل «وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ».

فإنّ أمره حق، وحكمه عدل، ووعده متحقق لا محالة.

«نهاية تفسير سورة يونس»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۷۱

۱۱. سورة هود

محتوى السورة: إنّ هذه السورة بأكملها نزلت بمكة ... وطبقاً لما ورد فى «تاريخ القرآن» أنّها السورة التاسعة والأربعون فى ترتيب السور النازلة على المرسل صلى الله عليه و آله.

ونزلت فى السنوات الأخيرة التى قضاها النبى صلى الله عليه و آله بمكة، أى بعد وفاة عمّه أبى طالب عليه السلام وزوجته خديجة عليها السلام ... وبطبيعة الحال فإنّ هذه السورة جاءت فى فترة من أشد الفترات صعوبة فى حياة النبى صلى الله عليه و آله ولذلك يلاحظ فى بداية السورة تعابير فيها جانب من التسلية للنبى صلى الله عليه و آله وللمؤمنين.

ويُشكل القسم المهم والعمدة من آيات هذه السورة قصص الأنبياء الماضين وخاصة قصة نوح النبى عليه السلام الذى انتصر بالفئة القليلة التى معه على الأعداء الكثيرين.

إنّ سرد هذه القصص فيه تسلية لخاطر النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين معه وهم أمام الكم الهائل من الأعداء، كما أنّ فيه درساً لمخالفيهم من الاعداء.

إنّ آيات هذه السورة- كسائر السور المكية- تتناول أصول المعارف الإسلامية ولا سيما المواجهة مع الشرك وعبادة الأصنام، ومسألة

المعاد والعالم بعد الموت، وصدق دعوة النبی.

فی هذه السورة- إضافة إلی قصّة نوح النبی- إشارة إلی قصص الأنبیاء هود وصالح وإبراهیم ولوط وموسی علیهم السلام ومواقفهم الشجاعة بوجه الشرک والکفر والانحراف والظلم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۷۲

شیبتنی سورة هود: إنّ آیات هذه السورة تقرر أن علی المسلمین أن لا یترکوا السوح والمیادین- فی الحرب والسلم- لکثرة الأعداء ومواجهاتهم الحادة، بل علیهم أن یواصلوا مسیرتهم ویستقیموا أکثر فأکثر ویوماً بعد یوم.

وعلی هذا فإنّنا نقرأ فی الدرّ المنثور عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه قال: «شیّبتنی هود وأخواتها».

إنّ هذه السورة فیها آیات مؤثرة اخری تتعلق بیوم القیامة والمحاسبة فی محکمة العدل الإلهی، وآیات تتعلق بما ناله الأقوام السابقون من جزاء، وما جاء مع بعضها من أوامر فی الوقوف بوجه الفساد بحیث یحمل جمیعها طابع المسؤولیة ... فلا عجب إذاً أن یشیب الإنسان عندما یفکر فی مثل هذه المسؤولیات ...

مسألة دقیقة اخری ینبغی الإلتفات إلیها فی هذا المجال، وهی أنّ کثیراً من هذه الآیات تؤکّد ما ورد فی السورة السابقة- أی سورة یونس.

التأثیر المعنوی لهذه السورة: فی تفسیر البرهان عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه قال: «من قرأ هذه السورة اعطی من الأجر والثواب بعدد من صدّق هوداً والأنبیاء علیهم السلام ومن کذّب بهم وکان یوم القیامة فی درجة الشهداء وحوسب حساباً یسیراً».

ومن الوضوح بمکان أنّ مجرد التلاوة لا یعطی هذا الأثر، وإنّما یکون هذا الأثر إذا کانت تلاوة هذه السورة مقرونة بالتفکر والعمل بعدها. وهذا هو الذی یقرّب الإنسان إلی المؤمنین السالفین ویبعده عن الذین أنکروا علی الأنبیاء وجحدوا دعواتهم.

الر کِتَابٌ أُحْکِمَتْ آیَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ (۱) أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ وَ بَشِیرٌ (۲) وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ یُمَتِّعْکُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَی أَجَلٍ مُسَمًّی وَ یُؤْتِ کُلَّ ذِی فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّی أَخَافُ عَلَیْکُمْ عَذَابَ یَوْمٍ کَبِیرٍ (۳) إِلَی اللَّهِ مَرْجِعُکُمْ وَ هُوَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۴) الاصول الأربعة فی دعوة الأنبیاء: تبدأ هذه السورة ببیان أهمیة الکتاب العزیز المنزل من السماء، لیلتفت الناس إلی محتویاته أکثر ویتفکروا فیه بنظرة أدق. وذکر الحروف المقطعة «الر»- نفسه- دلیل علی أهمیة هذا الکتاب السماوی العزیز الذی یتشکل من حروف

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۷۳

بسیطة معروفة للجمیع مثل الألف واللام والراء مع ما فیه من عظمة وإعجاز بالغین، ثم یبیّن بعد هذه الحروف المقطعة واحدة من خصائص القرآن الکریم فی جملتین.

أوّلًا: إنّ جمیع آیاته متقنة ومحکمة «کِتَابٌ أُحْکِمَتْ ءَایَاتُهُ». و ثانیاً: إنّ تفصیل حاجات الإنسان فی حیاته الفردیة والاجتماعیة- مادیة کانت أو معنویة- مبیّن فیها أیضاً «ثُمَّ فُصِّلَتْ».

هذا الکتاب العظیم مع هذه الخصیصة، من أین انزل، وکیف؟! انزل من عند ربّ حکیم وخبیر «مِن لَّدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ». فبمقتضی حکمته احکمت آیات القرآن، وبمقتضی أنّه خبیر مطلع بیّن آیات القرآن فی مجالات مختلفة طبقاً لحاجات الإنسان.

إنّ کل واحدة من صفات القرآن التی جاءت فی هذه الآیة تسترفد من واحدة من صفات اللَّه ... فاستحکام القرآن من حکمته، وشرحه وتفصیله من خبرته.

إنّ القرآن مجموعة واحدة مترابطة کالبنیان المرصوص الثابت، کما تدل علی أنّه نازل من إله فرد، ولهذا فلا یوجد أی تضاد فی آیاته، ولا یُری بینها أی اختلاف.

وفی الآیة التالیة یبیّن أهم مایحتویه القرآن وما هو أساسه وهو التوحید والوقوف بوجه الشرک «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ».

والثانی من محتویات الدعوة السماویة: «إِنَّنِی لَکُم مِّنْهُ نَذِیرٌ وَبَشِیرٌ». نذیر لکم من الظلم والفساد والشرک والکفر، واحذرکم من عنادکم وعقاب اللّه لکم!

وثالث ما فی منهج دعوتی إلیکم هو أن تستغفروا من ذنوبکم وتطهروا أنفسکم من الأدران: «وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ».

ورابعها هو أن تعودوا إلی اللّه بالتوبة، وأن تتصفوا- بعد غسل الذنوب والتطهر فی ظل الاستغفار- بصفات اللّه، فإنّ العودة إلیه تعالی لا تعنی إلّاالإقتباس من صفاته «ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ».

ثم تبیّن الآیات النتائج العملیة لموافقة هذه الأصول الأربعة أو مخالفتها بالنحو التالی «یُمَتِّعْکُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَی أَجَلٍ مُّسَمًّی». فاذا عملنا بهذه الاصول فإنّ اللّه سبحانه یهبنا حیاة سعیدة إلی نهایة العمر، وفوق کل ذلک فإنّ کُلّا یُعطی بمقدار عمله ولا یهمل التفاوت والتفاضل بین الناس فی کیفیة العمل بهذه الأصول ... «وَیُؤْتِ کُلَّ ذِی فَضْلٍ فَضْلَهُ». وأمّا فی صورة المخالفة والعناد فتقول الآیة: «وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّی أَخَافُ عَلَیْکُمْ عَذَابَ یَوْمٍ کَبِیرٍ». حین تمثلون للوقوف فی محکمة العدل الإلهی.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۷۴

واعلموا أنّ «إِلَی اللَّهِ مَرْجِعُکُمْ» کائنا من کنتم، وفی أی محل ومقام أنتم، وهذه الجملة تشیر إلی الأصل الخامس من الأصول التفصیلیّة للقرآن وهی مسألة «المعاد والبعث» ولکن لا تتصوروا أنّه لا یستطیع أن یجمع عظامکم النخرة بعد الموت ویکسوها ثوباً جدیداً من الحیاة ... «وَهُوَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ».

أَلَا إِنَّهُمْ یَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِیَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِینَ یَسْتَغْشُونَ ثِیَابَهُمْ یَعْلَمُ مَا یُسِرُّونَ وَ مَا یُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (۵) هذه الآیة تشیر- علی العموم- إلی أحد الأسالیب الحمقاء التی کان یتبعها أعداء الإسلام والنبی صلی الله علیه و آله وذلک بالاستفادة من طریقة النفاق والإبتعاد عن الحق، فکانوا یحاولون أن یخفوا حقیقتهم وماهیتهم عن الأنظار لئلا یسمعوا قول الحق. لذلک فإنّ الآیة تقول: «أَلَا إِنَّهُمْ یَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِیَسْتَخْفُوا مِنْهُ».

«یثنون»: مشیرة إلی کل عمل خفی- ظاهری وباطنیّ- قام به أعداء النبی صلی الله علیه و آله. لذلک فإنّ القرآن یعقّب مباشرة: أن أحذروهم، فإنّهم حین یستخفون تحت ثیابهم فإنّ اللّه یعلم ما یخفون وما یعلنون ... «أَلَا حِینَ یَسْتَغْشُونَ ثِیَابَهُمْ یَعْلَمُ مَا یُسِرُّونَ وَمَا یُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِیمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ».

وَ مَا مِنْ دَابَّةٍ فِی الْأَرْضِ إِلَّا عَلَی اللَّهِ رِزْقُهَا وَ یَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا کُلٌّ فِی کِتَابٍ مُبِینٍ (۶) جمیع الأحیاء ضیوف مأدبته: الآیة السابقة أشارت إلی سعة علم اللّه وإحاطته بالسر وما یخفون وما یعلنون، والآیة محل البحث تُعدّ دلیلًا علی تلک الآیة المتقدمة، فإنّها تتحدث عن الرازق لجمیع الموجودات ولایمکن یتمّ ذلک إلّابالإحاطة الکاملة بجمیع العالم وما فیه.

تقول الآیة «وَمَا مِن دَابَّةٍ فِی الْأَرْضِ إِلَّا عَلَی اللَّهِ رِزْقُهَا وَیَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا».

ویعلم تقلّبها وتنقلها من مکان لآخر، وحیثما کانت فإنّ الرزق یصل إلیها منه.

وهذه الحقائق مع جمیع حدودها ثابتة فی کتاب مبین ولوح محفوظ فی علم اللّه «کُلٌّ فِی کِتَابٍ مُّبِینٍ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۷۵

ملاحظات

۱- بالرغم من أنّ کلمة «دابّة» مشتقة من مادة «دبیب» التی تعنی السیر ببطء وبخطی قصیرة، ولکنها من الناحیة اللغویة تشمل کل حیوان یتحرک فی سیره ببطء أو بسرعة.

۲- «الرزق»: هو العطاء المستمر، ومن هنا کان عطاء اللّه المستمر للموجودات رزقاً.

۳- «المستقر»: تعنی المقر، لأنّ جذر هذه الکلمة فی اللغة مأخوذ من «قرّ» علی وزن «حرّ» وتعنی کلمة القرّ البرد الشدید الذی یجعل الإنسان والموجودات الاخری یرکنون إلی بیوتهم، ومن هنا جاءت بمعنی التوقف والسکون أیضاً.

و «المستودع» و «الوديعة»: من مادة واحدة، وهاتان الكلمتان فى الأصل تعنيان «اطلاق الشىء وتركه».

۴- «الكتاب المبين»: معناه المكتوب الواضح البيّن، ويشير إلى علم اللَّه الواسع، وقد يعبر عنه أحياناً باللوح المحفوظ أيضاً.

تقسيم الأرزاق والسعى من أجل الحياة: طريقة إيصال الرزق من اللَّه تعالى إلى الموجودات المختلفة مذهلة ومحيرة حقّاً. من الجنين الذى يعيش فى بطن امّه ولا يعلم أحد من أسراره شيئاً، إلى الحشرات المختلفة التى تعيش فى طيّات الأرض، وفى الأشجار وعلى قمم الجبال أو فى أعماق البحر، وفى الأصداف ... جميع هذه الموجودات يتكفل اللَّه برزقها ولا تخفى على علمه، وكما يقول القرآن: «عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا».

الطريف فى الآيات آنفة الذكر أنّها تعّبر عن الموجودات التى تطلب الرزق ب «الدابّة» وفيها إشارة لطيفة إلى العلاقة بين موضوع «الطاقة» و «الحركة». ونعلم أنّه حيثما تكن حركة فلابد لها من طاقة، أى ما يكون منشأً للحركة.

وفى جواب السؤال هل أنّ رزق كل أحد مقدر ومعين من أوّل عمره إلى آخره، وهل أنّه يصل إليه شاء أم أبى

نقول: إنّ رزق كل أحد مقدّر وثابت، إلّاأنّه مشروط بالسعى والجد، وإذا لم يتوفر الشرط لم يحصل المشروط.

المسألة المهمّة فى هذا المجال أنّ الآيات والرّوايات المتعلقة بتقدير الرزق- فى الواقع- بمثابة الكابح للاشخاص الحريصين وعبّاد الدنيا الذين يلجون كل باب، ويرتكبون أنواع الظلم والجنايات، ويتصورون أنّهم إذا لم يفعلوا ذلك لم يؤمّنوا حياتهم!

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۷۶

إنّ آيات القرآن والأحاديث الإسلامية تحذر هذا النمط من الناس ألّا يمدّوا أيديهم وأرجلهم عبثاً، بل يكفى أن يسعوا لتحصيل الرزق عن طريق مشروع، واللَّه سبحانه يضمن لهم الرزق. وبالطبع أنّ بعض الأرزاق مثل نور الشمس والمطر والعقل والفكر والاستعداد تصل إلى الإنسان سعى لها أم لم يسع.

ولكن هذه المواهب إذا لم نحافظ عليها بالجد والسعى بطريقة صحيحة فستضيع من أيدينا، أو أنّها ستبقى بلا أثر!

إنّ النقطة الأساسية هنا أنّ جميع التعاليم الإسلامية تأمرنا أن نسعى أكثر فأكثر لتأمين نواحى الحياة المادية والمعنوية، وأنّ الفرار من العمل- بزعم أنّ الرزق مقسوم وأنّه آت لا محالة- غير صحيح ...

وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّام وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُم أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (۷) الهدف من الخلق: فى هذه الآية بُحثت ثلاث نقاط أساسية:

المطلب الأوّل: يبحث عن خلق عالم الوجود- وخصوصاً بداية الخلق- الذى يدل على قدرة اللَّه وعظمته سبحانه «وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّام».

إنّ المقصود من كلمة «اليوم» هو الزمان، سواء كان قصيراً أو مديداً جدّاً بحيث يبلغ مليارات السنوات مثلًا، وقد نبّهنا على هذا المعنى فى ذيل الآية (۵۴) من سورة الأعراف بشرح واف فى هذا المجال، فلا حاجة للتكرار والإعادة.

ثم يضيف سبحانه أنّ عرشه كان على الماء «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

«العرش»: فى الأصل يعنى السقف أو ما يكون له سقف، كما يطلق على الأسرّة العالية كأسرّة الملوك والسلاطين الماضين، ويطلق أيضاً على خشب بعض الأشجار، وغير ذلك.

ولكن هذه الكلمة استعملت بمعنى القدرة أيضاً ويقال «استوى فلان على عرشه» كناية عن بلوغه القدرة كما يقال «ثُلّ عرش فلان» كناية عن ذهاب قدرته. كما ينبغى الإلتفات إلى هذه الدقيقة، وهى أنّ العرش يطلق أحياناً على عالم الوجود، لأنّ عرش قدرة اللَّه يستوعب جميع هذا العالم.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۷۷

إنّه فى بداية الخلق كان الكون بصورة مواد ذائبة «مع غازات مضغوطة للغاية، بحيث كانت على صورة مواد ذائبة أو مائعة».

وبعدئذ حدثت اهتزازات شديدة وانفجارات عظيمة فى هذه المواد المتراكمة الذائبة، وأخذت تتقاذف أجزاء من سطحها إلى الخارج، وأخذ هذا الوجود المترابط بالإنفصال، ثم تشكلت بعد ذلك الكواكب السيارة والمنظومات الشمسية والأجرام السماوية.

فعلى هذا نقول: إنّ عالم الوجود ومرتكزات قدرة اللَّه كانت مستقرة بادىء الأمر على المواد المتراكمة الذائبة.

والمطلب الثانى: الذى تشير إليه الآية آنفة الذكر هو الهدف من خلق الكون، والقسم الأساس من ذلك الهدف يعود للإنسان نفسه الذى يمثل ذروة الخلائق ... هذا الإنسان الذى كتب عليه أن يسير فى طريق التعليم والتربية ويشقّ طريق التكامل نحو اللَّه تعالى. يقول اللَّه سبحانه: «لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا». أى ليختبركم ويمتحنكم أيّكم الأفضل والأحسن عملًا بهذه الدار الدنيا.

«ليبلوكم»: كلمة مشتقة من مادة «البلاء» و «الإبتلاء» ومعناها الاختبار والامتحان.

والمطلب الثالث: الذى تشير إليه الآية آنفة الذكر- هو مسألة المعاد الذى لا ينفصل ولا يتجزأ عن مسألة خلق العالم، وفيها بيان الهدف من الخلق وهو تكامل الإنسان وتكامل الإنسان يعنى التهيؤ إلى الحياة فى عالم أوسع وأكمل، ولذلك يقول سبحانه: «وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ».

وكلمة «هذا» التى وردت- فى الآية آنفة الذكر- على لسان الكفار، إشارة إلى كلام النبى صلى الله عليه و آله فى شأن المعاد ... أى إنّ ما تدّعيه أيها النبى فى شأن المعاد سحر مكشوف وواضح، فعلى هذا تكون كلمة السحر هنا بمعنى الكلام العارى عن الحقيقة، والقول الذى لا أساس له.

وَ لَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۸) وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (۹) وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (۱۰) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (۱۱)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۷۸

استيعاب المؤمنين وعدم استيعاب غيرهم: فى هذه الآيات- وبمناسبة البحث السابق عن غير المؤمنين- بيان لزوايا الحالات النفسية ونقاط الضعف فى أخلاق هؤلاء الأفراد والتى تجر الإنسان إلى هاوية الظلام والفساد.

وأوّل صفة تذكر لهؤلاء هى السخرية من الحقائق وعدم الإكتراث بها وبالمسائل المصيرية، فهؤلاء بسبب جهلهم وعدم معرفتهم وغرورهم حين يسمعون تهديد الانبياء فى مؤاخذة المسيئين ومعاقبتهم، ثم تمرّ عليهم عدة أيام يؤخر اللَّه تعالى بلطفه فيها العذاب عنهم، نراهم يقولون باستهزاء مبطّن: ما السبب فى تأخر العذاب الإلهى، وأين عقاب اللَّه:

«وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ».

فهذه عادة الجاهلين والمغترين، فكلما وجدوا شيئاً لا ينسجم مع ميولهم وطباعهم عدّوه سخرية.

لكن القرآن يحذرهم وينذرهم بصراحة فى ردّه على كلامهم، ويبيّن لهم أن لا دافع لعذاب اللَّه إذا جاءهم «أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ» وأنّ الذين يسخرون منه واقع بهم ومدمّرهم «وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

ومن نقاط الضعف عند هؤلاء قلة الصبر بوجه المشاكل والصعاب وانحسار البركات الإلهية. حيث نجد فى الآية التالية قوله تعالى عنهم: «وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ».

والمراد من «الإنسان» فى مثل هذه الآيات هو الأفراد الذين لم يتلقوا تربية سليمة والمنحرفون عن جادة الحق.

ونقطة الضعف الثالثه عند هؤلاء أنّهم حين يتنعمون بنعمة ويشعرون بالترف والرفاه يبلغ بهم الفرح والتكبر والغرور درجة ينسون معها كل شىء، ولذلك يشير القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة بقوله تعالى: «وَلَئِنْ أَذَقْنَهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيَاتِ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ». ثمّ يستثنى اللَّه سبحانه المؤمنين الذين يواجهون الشدائد والمصاعب بصبر، ولا يتركون الأعمال الصالحة على كل حال، فهؤلاء بعيدون عن الغرور والتكبر وضيق الأفق، حيث يقول سبحانه: «إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

هؤلاء لا يَغترّون عند وفور النعمة فينسون اللّه، ولا ييأسون عند الشدائد والمصائب

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۷۹

فيكفرون باللّه، بل إنّ أرواحهم الكبيرة وافكارهم السليمة جعلتهم يهضمون النعم والبلايا فى أنفسهم دون الغفلة عن ذكر اللّه وأداء مسؤولياتهم ولذلك فإنّ لهؤلاء ثواباً ومغفرة من اللّه «أُولئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ».

الامة المعدودة وأصحاب المهدى عليه السلام: فى روايات عديدة وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام أنّ الامة المعدودة تعنى النفر القليل، وفيها إشارة إلى أصحاب المهدى عليه السلام وأنصاره.

ولكن أنّ ظاهر الآية من الامة المعدودة هو الزمان المعدود والمعين، وقد وردت رواية عن الإمام على عليه السلام فى تفسير الامة المعدودة تشير إلى ما بيناه، وهو الزمان المعين، فيمكن أن تكون الروايات الآنفة تشير إلى المعنى الثانى من الآية، وهو ما اصطلح عليه ب «بطن الآية».

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحى إِلَيْكَ وَ ضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (۱۲) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۱۳) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۴)

سبب النّزول

وردت فى شأن نزول الآيات المتقدمة روايتان، ويحتمل أن تكون كليهما صحيحتين جميعاً. الاولى: فى تفسير مجمع البيان روى عن ابن عباس: إنّ رؤساء مكة من قريش، أتوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقالوا: يا محمّد! إن كنت رسولًا فحوّل لنا جبال مكة ذهباً أو ائتنا بملائكة يشهدون لك بالنبوة. فأنزل اللّه تعالى «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ» الآية. والثانية: روى العياشى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال لعلى عليه السلام: «إنّى سألت ربّى أن يوالى بينى وبينك ففعل، وسألت ربّى أن يؤاخى بينى وبينك ففعل، وسألت ربّى أن يجعلك وصيى ففعل». فقال رجلان من قريش: واللّه لصاع من تمر فى شنّ بال أحبّ إلينا مما سأل محمّد ربّه، فهلا سأله مُلكاً يعضده على عدوه، أو كنزاً يستعين به على فاقته. فنزلت الآية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۸۰

مختصر الامثل ج۲ ۴۱۹

التّفسير

القرآن المعجزة الخالدة: يبدو من هذه الآيات أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يوكل إبلاغ الآيات- نظراً للجاجة الأعداء ومخالفتهم- لآخر فرصة، لذا فإنّ اللّه سبحانه ينهى نبيّه فى أوّل آية نبحثها عن ذلك بقوله: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ». لئلا يطلبوا منك معاجز مقترحة كنزول كنز من السماء، أو مجىء الملائكة لتصديقه «أن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ».

إنّ هؤلاء لا يطلبون هذه المعاجز ليصدقوا دعوى النبى ويتبعوا الحق، بل هدفهم اللجاجة والعناد والتحجج الواهى، فلذلك تأتى الآية معقبة: «إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ». سواءً قبلوا دعواك أم لم يقبلوا، وسخروا منك أم لم يسخروا، فاللّه هو الحافظ والناظر على كل شىء «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ». أى لا تكترث بكفرهم وإيمانهم فإنّ ذلك لا يعنيك، وإنّما وظيفتك أن تبلغهم، واللّه سبحانه هو الذى يعرف كيف يحاسبهم، وكيف يعاملهم.

وبما أنّ الذين يتذرعون بالحجج ويشكلون على النبى كانوا أساساً منكرين لوحى اللّه، ويقولون: إنّ هذه الآية ليست نازلة من قبل اللّه، وإنّ هذا الكلام افتراه محمّد- وحاشاه من ذلك- على اللّه كذباً، لذلك تأتى الآية التالية لتبيّن بصراحة تامة: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيهُ».

فقل لهم يا رسول اللّه- إن كانوا صادقين فى دعواهم أنّ ما تقوله ليس من اللّه وأنّه من صنع الإنسان- فليأتوا بعشر سور مثل هذا

الكلام مفتريات، وليدعوا- سوى اللَّه- ما شاؤوا «قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ». أمّا إذا لم يستجيبوا لدعوتك ولا للمسلمين، ولم يلبوا طلبك على الإتيان بعشر سور مفتريات كسور القرآن، فاعلموا أنّ ذلك الضعف وعدم القدرة دليل على أنّ هذه الآيات نزلت من خزانة علم اللَّه، ولو كانت من صنع بشر، فهم بشر أيضاً ... فلماذا لا يقدرون على ذلك: «فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ». واعلموا أيضاً أنّه لا معبود سوى اللَّه، ونزول هذه الآيات دليل على هذه الحقيقة «وَأَن لَّاإِلَهَ إِلَّا هُوَ». فهل يسلم المخالفون مع هذه الحالة «فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ». أى بعد ما دعوناكم للإتيان بمثل هذه السور، وظهر عجزكم وعدم قدرتكم على ذلك، فهل يبقى شك فى أنّ هذه الآيات منزلة من قبل اللَّه، ومع هذه المعجزة البينة ما زلتم منكرين، أم أنّكم تسلمون وتقرّون حقاً؟

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۸۱

إنّ الآيات- المذكورة- تؤكّد إعجاز القرآن مرّة اخرى وتقول: ليس هذا كلاماً عادياً، بل هو وحى السماء الذى ينزل بعلم اللَّه اللامحدود وقدرته الواسعة، وعلى هذا فإنّه يتحدى جميع البشر أن يواجهوه بمثله.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَ هُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (۱۵) أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۶) الآيات أعلاه أكملت الحجة مع «دلائل إعجاز القرآن» على المشركين والمنكرين، ولكن جماعة منهم امتنعوا عن القبول- لحفظ منافعهم الشخصية- بالرغم من وضوح الحق، فالآيات هذه تشير إلى مصير هؤلاء فتقول: «مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا» من رزق مادى وشهرة وتلذذ بالنعم «نُوَفّ إِلَيْهِمْ» نتيجة «أَعْمَالَهُمْ فِيهَا» فى هذه الدنيا «وَهُمْ فِيهَا لَايُبْخَسُونَ». أى لا ينقص من حقهم شيء فى الدنيا.

«البخس»: فى اللغة نقصان الحق، وجملة «وَهُمْ فِيهَا لَايُبْخَسُونَ» إشارة إلى أنّهم سينالون نتيجة أعمالهم بدون أقل نقصان من حقوقهم.

هذه الآية سنة إلهية دائمة، وهى أنّ الأعمال «الإيجابية» والمؤثرة لاتضيع نتائجها، مع فارق وهو أنّه إذا كان الهدف الأصلى منها هو الوصول إلى الحياة المادية فى هذه الدنيا فإنّ ثمراتها فى الدنيا فحسب، وأمّا إذا كان الهدف هو «اللَّه» وكسب رضاه فإنّ تأثيرها ونتائجها ستكون فى الدنيا وفى الآخرة أيضاً حيث تكون النتائج كثيرة الثمار.

وهذا من قبيل مانراه بوضوح على أرض الواقع المعاش، فالعالم الغربى فتح أسراراً كثيرة من العلم بسعيه المتواصل والمنسّق، وأصبح متسلطاً على قوى الطبيعة وحصل على مواهب كثيرة لتصديه الدائب لمشاكل الحياة الدنيوية بصبر واستقامة وجد، فلا كلام فى نيل العالم الغربى جزاء أعماله وتحقيقه انتصارات مشرقة، ولكن لأنّ هدفه الحياة المادية فحسب، فإنّ أعماله لا تثمر غير توفر الإمكانات المادية.

فلذلك يقول سبحانه عنهم فى الآية التالية: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الْأَخِرَةِ إِلَّا النَّارُ» ليزول كل أثر اخروى لما عملوا فى هذه الدنيا ولا ينالون عليه أى ثواب «وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا» وكل ما كان لغير اللَّه فسيزول أثره «وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۸۲

فى الدرّ المنثور- فى تفسير هذه الآيات- عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «إذا كان يوم القيامة صارت امتى ثلاث فرق: فرقة يعبدون اللَّه خالصاً، وفرقة يعبدون اللَّه رياءً، وفرقة يعبدون اللَّه يصيبون به دنيا. فيقول للذى كان يعبد اللَّه للدنيا: بعزّتى وجلالى، ما أردت بعبادتى؟ فيقول: الدنيا. فيقول:

لا جرم لا ينفعك ما جمعت ولا ترجع إليه، انطلقوا به إلى النار.

ويقول للذى يعبد اللَّه رياءً: بعزّتى وجلالى، ما أردت بعبادتى؟ قال: الرياء. فيقول: إنّما كانت عبادتك التى كنت ترائى بها لا يصعد إلىّ منها شيء ولا ينفعك اليوم، انطلقوا به إلى النار.

ويقول للذى كان يعبد اللَّه خالصاً: بعزّتى وجلالى، ما أردت بعبادتى؟ فيقول: بعزّتك وجلالك لأنت أعلم به منّى، كنت أعبدك

لوجهك ولدارك، قال: صدق عبدى، انطلقوا به إلى الجنة».

أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (۱۷) هناك أقوال كثيرة- فى تفسير الآية أعلاه- ولكن تفسير منها أشد وضوحاً. فى بداية الآية يقول الحق سبحانه: «أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ». أى من اللّه تعالى: «وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً». أى التوراة التى تؤيّد صدقه وعظمته، مثل هذا الشخص هل يستوى ومن لا يتمتع بهذه الخصال والدلائل البينة؟

هذا الشخص هو النبى صلى الله عليه و آله ودليله الواضح هو القرآن المجيد، والشاهد المصدق بنبوته كل مؤمن حق أمثال على عليه السلام ومن قَبلُ وردت صفاته وعلائمه فى التوراة، فعلى هذا ثبتت دعوته عن طرق ثلاثة حقة واضحة.

الأوّل: القرآن الكريم الذى هو بيّنة ودليل واضح فى يده.

الثانى: الكتب السماوية التى سبقت نبوّته وأشارت إلى صفاته بدقّة، وأتباع هذه الكتب السماوية فى عصر النبى كانوا يعرفونه حقّاً، ولهذا السبب كانوا ينتظرونه.

والثالث: أتباعه وأنصاره المؤمنون المضحّون الذين كانوا يبيّنون دعوته ويتحدثون عنه.

ومع وجود هذه الدلائل الحيّة، هل يمكن أن يقاس مع غيره من المدّعين، أم هل ينبغى التردد فى صدق دعوته؟!

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۸۳

ثم يشير بعد هذا الكلام إلى طلاب الحقّ والباحثين عن الحقيقة، يدعوهم إلى الإيمان دعوة ضمنية فيقول: «أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ». أى النبى الذى لديه هذه الدلائل الواضحة.

ثم يعقب بعد ذلك ببيان عاقبة المنكرين ومصيرهم بقوله تعالى: «وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ».

وفى ختام الآية- كما هى الحال فى كثير من آيات القرآن- يوجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله ويبيّن درساً عاماً لجميع الناس، ويقول: بعد هذا كله من وجود الشاهد والبيّنة والمصدق بدعوتك، فلا تتردد فى الطريق ذاته «فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ». لأنّه من قبل اللّه سبحانه «إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ». ولكن كثيراً من الناس ونتيجةً لجهلهم وأنانيتهم لا يؤمنون «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايُؤْمِنُونَ».

وعلى هذا فالآية تشير إلى امتيازات الإسلام والمسلمين الصادقين واستنادهم إلى الدلائل المحكمة فى اختيار مذهبهم هذا ... وفى قبال ذلك تذكر ما يصير إليه المنكرون والمستكبرون من مآل مشؤوم أيضاً ...

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَ يَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (۱۸) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (۱۹) أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ ما كانُوا يُبْصِرُونَ (۲۰) أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۲۱) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (۲۲) أخسر الناس أعمالًا: بعد الآية المتقدمة التى كانت تتحدث عن القرآن ورسالة النبى محمّد صلى الله عليه و آله تأتى آيات اخر تشرح عاقبة المنكرين وعلاماتهم ومآل أعمالهم. ففى أوّل آية من هذه الآيات يقول سبحانه: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا». ويعنى أنّ تكذيب دعوة النبى الصادق فى الواقع هو تكذيب لكلام اللّه وافتراء عليه بالكذب.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۸۴

ثم يبيّن ما ينتظرهم من مستقبل مشؤوم يوم القيامة حين يُعرضون على محكمة العدل الإلهى «أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ». حينئذ يشهد «الأشهاد» على أعمالهم وأنّ هؤلاء هم الذين كذبوا على اللّه العظيم الرحيم وولى النعمة .... «وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ» ثم ينادون بصوت عال «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ». و الآية التى بعدها تبيّن صفات الظالمين فى ثلاث جمل:

الاولى تقول: إنّهم يمنعون الناس بمختلف الأساليب عن سبيل اللّه «الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» فمرّة عن طريق إلقاء الشُبهة، ومرّة بالتهديد، وأحياناً عن طريق الإغراء والطمع، وجميع هذه الأساليب ترجع إلى أمر واحد، وهو الصدّ عن سبيل اللّه.

الثانية تقول: إنّهم يسعون فى أن يُظهروا سبيل اللّه وطريقه المستقيم عوجاً «وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا». أى بأنواع التحريف من قبيل الزيادة أو النقصان أو التّفسير بالرأى وإخفاء الحقائق حتى لا تتجلى الصورة الحقيقية للصراط المستقيم. ولا يستطيع الناس وطلاب الحق السير فى هذا الطريق.

والثالثه تقول: إنّهم لا يؤمنون بيوم النشور والقيامة «وَهُم بِالْأَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ».

وعدم إيمانهم بالمعاد هو أساس الانحرافات.

فى الآية التالية يبيّن أنّ هؤلاء لا يستطيعون الهرب من عقاب اللّه فى الأرض ولا أن يخرجوا من سلطانه «أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ» كما أنّهم لا يجدون وليّاً وحامياً لهم غير اللّه «وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ».

وأخيراً يشير سبحانه إلى عقوبتهم الشديدة حيث تكون مضاعفة: «يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ».

لماذا؟! لأنّهم كانوا ضالين ومخطئين ومنحرفين، وفى الوقت ذاته كانوا يجرّون الآخرين إلى هذا السبيل، فلذلك سيحملون أوزارهم وأوزار الآخرين، دون التخفيف عن الآخرين من أوزارهم «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ» «۱».

وفى ختام الآية يبيّن اللّه سبحانه أساس شقاء هؤلاء بقوله: «مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ».

---

(۱) سورة العنكبوت/ ۱۳.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۸۵

فهم بإهمالهم هاتين الوسيلتين المؤثرتين وسيلتى السمع والبصر لدرك الحقائق، ضلّوا السبيل وأضلّوا سواهم أيضاً ...

وبديهى أنّ عدم استطاعة دركهم الحقائق كانت نتيجة لجاجتهم الشديدة وعدائهم للحق والحقيقة، وهذا لا يسلب عنهم المسؤولية.

و الآية التى بعدها تبيّن فى جملة واحدة حصيلة سعيهم وجدهم فى طريق الباطل، فتقول:

«أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ». وهذه أعظم خسارة يمكن أن تصيب الإنسان، إذ يخسر وجوده الإنسانى ...

ثم تضيف الآية: أنّهم اتخذوا آلهة ومعبودين مصطنعين «مزيفين» ولكن تلاشت هذه الآلهة المصنوعة والمزيفة أخيراً ... «وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

وفى نهاية الآية بيان الحكم النهائى لمآلهم وعاقبتهم بهذا التعبير: «لَاجَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْأَخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ».

والسبب واضح؛ لأنّهم حُرموا من نعمة السمع الحاد والبصر النافذ، وخَسِروا كل إنسانيتهم ووجودهم، ومع هذه الحال فقد حملوا أثقالَ مسؤوليتهم وأثقال الآخرين مع أثقالهم.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۲۳) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (۲۴) تعقيباً على الآيات المتقدمة التى أوضحت حال منكرى الوحى، تأتى الآيتان هنا لتوضحا من فى قبالهم، وهم المؤمنون حقّاً. فالآية الاولى تقول: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ». أى: استسلموا وانقادوا خاضعين لأمر اللّه ووعده الحق، «أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

وفى الآية الاخرى بيان لحالة هذين الفريقين فى مثال حيّ وواضح ... حال الأعمى والأصم، وحال السميع والبصير، فتقول الآية: «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا». ثمّ تعقّب الآية: «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ».

حال منكرى الوحى، فبسبب لجاجتهم وعدائهم للحق ووقوعهم أسرى بمخالب

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۸۶

التعصب والأنانية وعبادة الذات، فقدوا بصرهم وسمعهم للحقيقة البيّنة، فلا يستطيعون ادراك الحقائق المرتبطة بعالم الغيب، وتأثير الإيمان، والتلذذ بعبادة اللَّه، وعظمة التسليم لأمره. هؤلاء الأفراد يعيشون أبداً عمياناً صمّاً فى ظلام مطبق وسكوت مميت ... فى حين أنّ المؤمنين الصادقين يرون كل حركة بأعين بصيرة، ويسمعون كل صوت بآذان سميعة، وبالتوجه إلى طريقهم يكون مصيرهم «السعادة».

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۲۵) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللّهَ إِنِّى أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (۲۶) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِىَ الرَّأْىِ وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (۲۷) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَ آتانِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَ نُلْزِمُكُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (۲۸) قصّة نوح المثيرة مع قومه: تقدم أنّ هذه السورة تحمل بين ثناياها قصص الأنبياء السابقين وتاريخهم، فى البداية تذكر قصّة نوح عليه السلام وهو أحد الأنبياء أولى العزم، وضمن (۲۶) آية تُرسم النقاط الأساسية لتاريخه المثير ... والآيات المتقدمة تبيّن بداية هذه الدعوة العظيمة فتقول: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

وفى الآية الاخرى يُلخّص محتوى رسالته فى جملة واحدة ويقول: رسالتى هى «أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ». ثم يعقب دون فاصلة بالإنذار والتحذير مرّة اخرى: «إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ».

إنّ مسألة التوحيد والعبودية للَّهالواحد الأحد هى أساس دعوة الأنبياء جميعاً، فإذا كان جميع أفراد المجتمع موحدون ولا يعبدون إلّااللَّه، ولا ـ ينقادون للأوثان الوهمية الخارجية منها والداخلية من قبيل الأنانية والهوى والشهوات والمقام والجاه والنساء والبنين فلا يبقى أثر للسلبيات والخبائث فى المجتمع البشرى.

فلننظر الآن أوّل ردّ فعل من قبل الطواغيت واتّباع الهوى والمترفين وامثالهم إزاء إنذار الأنبياء، كيف كان وماذا كان؟!

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۸۷

فقد أجاب اولئك دعوة نوح بثلاثة إشكالات:

الأوّل: إنّ الأشراف والمترفين من قوم نوح عليه السلام قالوا له أنت مثلنا ولا فرق بيننا وبينك:

«فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَيكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا». زعماً منهم أنّ الرسالة الإلهية ينبغى أن تحملها الملائكة إلى البشر لا أنّ البشر يحملها إلى البشر! وظنّاً منهم أنّ مقام الإنسان أدنى من مقام الملائكة، أو أنّ الملائكة تعرف حاجات الإنسان أكثر منه.

والإشكال الثانى: إنّهم قالوا: يا نوح؛ لا نرى متبعيك ومن حولك إلّاحفنةً من الأراذل وغير الناضجين الذين لم يسبروا مسائل الحياة: «وَمَا نَرَيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ».

الإشكال الثالث: الذى أوردوه على نوح عليه السلام أنّهم قالوا: بالاضافة إلى أنّك إنسان ولست ملكاً، وأنّ الذين آمنوا بك والتفوا حولك هم من الأراذل، فإنّنا لا نرى لكم علينا فضلًا «وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ».

والآيات التى تعقبها تبيّن ردّ نوح عليه السلام وإجاباته المنطقية على هؤلاء حيث تقول: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتِنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ».

وفى ختام الآية يقول النبى نوح عليه السلام لهم: هل أستطيع أن ألزمكم الإستجابة لدعوتى وأنتم غير مستعدّين لها وكارهون لها: «أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ».

وَ يا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مالًا إِنْ أَجرِىَ إِلَّا عَلَى اللّهِ وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَ لكِنِّى أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۹) وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۳۰) وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزائِنُ اللّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِما فِى أَنْفُسِهِمْ إِنِّى إِذاً لَمِنَ الظّالِمِينَ (۳۱) ما أنا بطارد الذين آمنوا: هذه الآيات تتابع ما ردّ به نوح عليه السلام على قومه المنكرين.

فالآية الاولى التى تحمل واحداً من دلائل نبوّة نوح، ومن أجل أن تنير القلوب المظلمة من قومه تقول على لسان نوح: «وَيَا قَوْمِ

لَاأَسْلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا». فأنا لا أطلب لقاء دعوتى مالًا أو ثروة منكم، وإنّما جزائى وثوابى على اللَّه سبحانه الذى بعثنى بالنبوة وأمرنى بدعوة خلقه إليه: «إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۸۸

وَ لَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (۸) وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (۹) وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (۱۰) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (۱۱) وهذا معيار وميزان لمعرفة القادة الصادقين من غيرهم الذين يتحيّنون الفرص ويهدفون إلى تأمين المنافع المادية فى كل خطوة يخطونها سواء كان بشكل مباشر أو غير مباشر.

ويعقب نوح عليه السلام بعد ذلك فى ردّه على مقولة طرد المؤمنين به من الفقراء والشباب فيقول بصورة قاطعة: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا». لأنّهم سيلاقون ربّهم ويخاصموننى فى الدار الآخرة «إِنَّهُمْ مُّلقُوا رَبِّهِمْ».

ثم تُختتم الآية ببيان نوح لقومه بأنّكم جاهلون «وَلَكِنِّى أَرَيكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ». وأىّ جهل وعدم معرفة أعظم من أن تضيعوا مقياس الفضيلة وتبحثون عنها فى الثروة والمال الكثير والجاه والمقام الظاهرى.

ثمّ أنتم تتصورون- بجهلكم- أن يكون النبى من الملائكة، فى حين ينبغى أن يكون قائد الناس من جنسهم ليحسّ بحاجاتهم ويعرف مشاكلهم وآلامهم.

وفى الآية التى بعدها يقول لهم موضحاً: إنّنى لو طردت من حولى فمن ينصرنى من عدل اللَّه يوم القيامة وحتى فى هذه الدنيا «وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ».

فطرد المؤمنين الصالحين ليس بالأمر الهيّن، إذ سيكونون خصومى يوم القيامة بطردى لهم، ولا أحد هناك يستطيع أن يدافع عنّى ويخلصنى من عدل اللَّه، ولربّما أصابتنى عقوبة اللَّه فى هذه الدنيا، أم أنّكم لا تفكرون فى أنّ ما أقوله هو الحقيقة عينها «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ».

وآخر ما يجيب به نوح قومه ويردّ على إشكالاتهم الواهية ... إنّكم إذا كنتم تتصورون أن لى امتيازاً آخر غير الإعجاز الذى لدىّ عن طريق الوحى فذلك خطأ، وأقول لكم بصراحة: «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ». ولا أستطيع أن أحقق كل شىءٍ أريده وكل عمل أطلبه، حيث تحكى الآية عن لسانه «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ». ولا أقول لكم إنّنى مطلع على الغيب «وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ». ولا أدعى أنّنى غيركم كأن أكون من الملائكة مثلًا «وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ» فهذه الادّعاءات الفارغة والكاذبة يتذرع بها المدّعون الكذبة، وهيهات أن يتذرع بها الأنبياء الصادقون.

وفى ذيل الآية يكرر التأكيد على المؤمنين المستضعفين بالقول: «وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا»، بل على العكس تماماً، فخير هذه الدنيا وخير الآخرة لهم وإن كانوا حُفاة لخلوّ أيديهم من المال والثروة فأنتم الذين تحسبون الخير منحصراً فى المال والمقام والسن، تجهلون الحقيقة ومعناها تماماً.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۸۹

وعلى فرض صحة مدّعاكم أراذل و «أوباش» ف «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ».

أنا الذى لا أرى منهم شيئاً سوى الصدق والإيمان يجب علىّ قبولهم، لأنّى مأمور بالظاهر، والعارف بأسرار العباد هو اللَّه سبحانه، فإن عملت غير عملى هذا كنت آثماً «إِنِّى إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ».

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۳۲) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۳۳) وَ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۳۴) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَ أَنَا بَرِىءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (۳۵) كفانا الكلام فأين ما تعدنا به؟ الآية الاولى من الآيات اعلاه تتحدث عن قوم نوح عليه السلام أنّهم: «قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا». فأين ما تعدنا به من عذاب اللَّه «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

فاختيار هذه الطريقة إزاء كل ذلك اللطف وتلك المحبة من قبل أنبياء اللّه ونصائحهم التى تجرى كالماء الزلال على القلوب، إنّما تحكى عن مدى اللجاجة والتعصب الأعمى لدى تلك الأقوام.

لقد أجاب نوح عليه السلام على هذه اللجاجة والحماقة وعدم الإعتناء بقوله: «قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ». فذلك خارج من يدى على كل حال وليس باختيارى، إنّما أنا رسوله ومطيع لأمره، فلا تطلبوا منّى العذاب والعقاب! ولكن حين يحل عذابه فاعلموا أنّكم لا تقدرون أن تفرّوا من يد قدرته أو تلجأوا إلى مأمن آخر «وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ».

ثم يضيف: وإذا كان اللّه يريد أن يضلّكم ويغويكم- لما أنتم عليه من الذنوب والتلوّث الفكرى والجسدى- فلا فائدة من نصحى لكم إذاً «وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ» فهو وليكم وأنتم فى قبضته «هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

سؤال: هل يمكن أن يريد اللّه الغواية والضلال لعباده؟

الجواب: قد تصدر من الإنسان- أحياناً- سلسلة من الأعمال التى تكون نتيجتها الغواية والانحراف الدائمى وعدم العودة إلى الحق.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۰

وفى آخر الآيـة- محل البحث- ورد كلام بمثابة الجملة المعترضة ليؤكّد المواضيع التى بحثت قصة نوح فى الآيات السابقة واللاحقة، فتبيّن الآية أنّ الأعداء يقولون: إنّ هذا الموضوع صاغه «محمّد» من قبل نفسه ونسبه إلى اللّه «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيهُ».

ففى جواب ذلك قل يا رسول اللّه: إن كان ذلك من عندى ونسبته إلى اللّه فذنبه علىّ «قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى» ولكنى برىء من ذنوبكم «وَأَنَا بَرِىءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ».

«الإجرام»: مأخوذ من مادة «جرم» على وزن «جهل» وكما أشرنا إلى ذلك- سابقاً- فإنّ معناه قطف الثمرة غير الناضجة، ثم اطلقت على كل ما يحدث من عمل سىء، وتطلق على من يحث الآخر على الذنب أنّه أجرم، وحيث إنّ الإنسان له إرتباط فى ذاته وفطرته مع العفاف والنقاء، فإنّ الإقدام على الذنوب يفصل هذا الإرتباط الإلهى منه.

وَ أُوحِىَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (۳۶) وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحْيِنَا وَ لَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۳۷) وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (۳۸) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (۳۹) إنّ قصة نوح عليه السلام الواردة فى آيات هذه السورة، بُيّنت بعدّة عبارات وجمل، كل جملة مرتبطة بالاخرى، وكل منها يمثل سلسلة من مواجهة نوح عليه السلام فى قبال المستكبرين، ففى الآيات السابقة بيان لمرحلة دعوة نوح عليه السلام المستمرة والتى كانت فى غاية الجدية، وبالاستعانة بجميع الوسائل المتاحة، وفى الآيات محل البحث إشارة إلى المرحلة الثالثة من هذه المواجهة، وهى مرحلة انتهاء دورة التبليغ والتهيؤ للتصفية الإلهية. ففى الآية الاولى نقرأ ما معناه: يا نوح، إنّك لن تجد من يستجيب لدعوتك ويؤمن باللّه غير هؤلاء: «وَأُوحِىَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ».

وهى إشارة إلى أنّ الصفوف قد أمتازت بشكل تام، والدعوة للإيمان والإصلاح غير مجدية، فلابدّ إذاً من الإستعداد للتصفية والتحول النهائى.

وفى نهاية الآية تسلية لقلب نوح عليه السلام أن لا تحزن على قومك حين تجدهم يصنعون مثل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۱

هذه الأعمال «فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ». ونستفيد من هذه الآيـة- ضمناً- أنّ اللّه يطلع نبيّه نوحاً على قسم من أسرار الغيب بمقدار ما ينبغى.

وعلى كل حال لابدّ من إنزال العقاب بهؤلاء العصاة اللجوجين ليطهر العالم من التلوّث بوجودهم، وليكون المؤمنون فى منأى عن مخالبهم.

وجاء الأمر لنوح أن «وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا».

وفى نهاية الآية ينذر اللَّه نوحاً أن لا يشفع فى قومه الظالمين، لأنّهم محكوم عليهم بالعذاب وإن الغرق قد كتب عليهم حتماً «وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ».

هذه الجملة تبيّن بوضوح أنّ الشفاعة لا تتيسر لكلّ شخص، بل للشفاعة شروطها فإذا لم تتوفر فى أحد الأشخاص فلا يحق للنبى أن يشفع له ويطلب من اللَّه العفو لأجله.

أمّا عن قوم نوح فكان عليهم أن يفكروا بجد- ولو لحظة واحدة- فى دعوة النبى نوح عليه السلام ويحتملوا على الأقل أنّ هذا الإصرار وهذه الدعوات المكررة كلها من «وحى اللَّه» فتكون مسألة العذاب والطوفان حتمية! إلّاأنّهم واصلوا استهزاءهم وسخريتهم مرّة اخرى وهى عادة الأفراد المستكبرين والمغرورين «وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ».

ولكن نوحاً كان يواصل عمله بجدية فائقة وأناة واستقامة منقطعة النظير لأنّها وليدة الإيمان، وكان لا يكترث بكلمات هؤلاء الذين رضوا عن أنفسهم وعميت قلوبهم، وإنّما يواصل عمله ليكمله بسرعة. ويوماً بعد يوم كان هيكل السفينة يتكامل ويتهيأ لذلك اليوم العظيم، وكان نوح عليه السلام أحياناً يرفع رأسه ويقول لقومه الذين يسخرون منه هذه الجملة القصيرة «قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ».

ذلك اليوم الذى يطغى فيه الطوفان فلا تعرفون ماتصنعون، ولا ملجأ لكم، وتصرخون معولين بين الأمواج تطلبون النجاة .. ذلك اليوم يسخر منكم المؤمنين ومن غفلتكم وجهلكم وعدم معرفتكم ويضحكون عليكم.

«فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ».

سفينة نوح: لا شكّ أنّ سفينة نوح لم تكن سفينة عاديّة ولم تنته بسهولة مع وسائل ذلك الزمان وآلاته، إذ كانت سفينة كبيرة تحمل بالإضافة إلى المؤمنين الصادقين زوجين اثنين من كل نوع من الحيوانات، وتحمل متاعاً وطعاماً كثيراً يكفى للمدة التى يعيشها المؤمنون

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۳۹۲

والحيوانات فى السفينة حال الطوفان، ومثل هذه السفينة بهذا الحجم وقدرة الاستيعاب لم يسبق لها مثيل فى ذلك الزمان، فهذه السفينة ستجرى فى بحر بسعة العالم، وينبغى أن تمرّ سالمةً عبر أمواج كالجبال فلا تتحطم بها. لذلك تقول بعض روايات المفسرين: إنّ طول السفينة كان ألفاً ومئتى ذراع، وعرضها كان ستمائة ذراع (كل ذراع يعادل نصف متر تقريباً).

ونقرأ فى بعض الروايات أنّ النساء ابتلين قبل الطوفان بأربعين عامّاً بالعقم وعدم الإنجاب، وكان ذلك مقدمة لعذابهم وعقابهم.

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ مَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (۴۰) وَ قَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَ مُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۴۱) وَ هِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَ نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كَانَ فِى مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَ لَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (۴۲) قَالَ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَ حَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (۴۳) شروع الطوفان: رأينا فى الآيات المتقدمة كيف صنع نوح عليه السلام وجماعته المؤمنون سفينة النجاة بصدق. وواجهوا جميع المشاكل واستهزاء الأكثرية من غير المؤمنين، وهيأوا أنفسهم للطوفان، ذلك الطوفان الذى طهّر سطح الأرض من لوث المستكبرين الكفرة. والآيات- محل البحث- تتعرض لموضوع ثالث، وهو كيف كانت النهاية؟ وكيف تحقق نزول العذاب على القوم المستكبرين، فتبيّنه بهذا التعبير: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ».

ولعل قوم نوح الغافلين رأوا هذه الآية. وهى فوران التنور بالماء فى بيوتهم ولكن غضّوا أجفانهم وصمّوا آذانهم كعادتهم عند ظهور مثل العلائم الكبيرة حتى أنّهم لم يسمحوا لأنفسهم بالتفكير فى هذا الأمر وأن إنذارات نوح حقيقية.

فى هذه الحالة بلغ الأمر الإلهى نوحاً «قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَن ءَامَنَ».

لكن كم هم الذين آمنوا معه؟ «وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۳

هـذه الآية تشير من جهة إلى امرأة نوح وابنه كنعان وقد قطعا علاقتهما بنوح على أثر انحرافهما وتآمرهما مع المجرمين، فلم يكن لهما حق فى ركوب السفينة ليكونا من الناجين، لأنّ الشرط الأوّل للركوب كان هو الإيمان.

وتشير الآية من جهة اخرى إلى أنّ ثمرة جهاد نوح عليه السلام بعد هذه السنين الطوال والسعى الحثيث المتواصل فى التبليغ لدعوته، لم يكن سوى هذا النفر المؤمن القليل.

جمع نوح عليه السلام ذويه وأصحابه المؤمنين بسرعة، وحين أزف الوعد واقترب الطوفان وأوشك أن يحل عذاب اللّه أمرهم أن يركبوا فى السفينة «وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَيهَا وَمُرْسَهَا».

لماذا؟ لكى يعلمهم أنّه ينبغى أن تكونوا فى جميع الحالات فى ذكر اللّه تعالى وتستمدوا العون من اسمه وذكره «إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ».

فبمقتضى رحمته جعل هذه السفينة تحت تصرفكم واختياركم لتنجيكم من الغرق وبمقتضى عفوه وغفرانه يتجاوز عن أخطائكم.

وأخيراً حانت اللحظة الحاسمة، إذ صدر الأمر الإلهى فتلبّدت السماء بالغيوم كأنّها قطع الليل المظلم، وتراكم بعضها على بعض بشكل لم يسبق له مثيل، وتتابعت أصوات الرعد وومضات البرق فى السماء كلها تخبر عن حادثة «مهولة ومرعبة جدّاً».

شرع المطر وتوالى مسرعاً منهمراً أكثر فأكثر.

وهكذا إتصلت مياه الأرض بمياه السماء، فلم يبق جبل ولا واد ولا تلعة ولا نجد إلّا استوعبه الماء وصار بحراً محيطاً خضمّاً ... أمّا الأمواج فكانت على أثر الرياح الشديدة تتلاطم وتغدو كالجبال. وسفينة نوح ومن معه تمضى فى هذا البحر «وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَا بُنَىَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ». فإنّ مصيرك إلى الفناء إذا لم تركب معنا.

ولكن- للأسف- كان أثر المحيط السيء عليه أكبر من تأثير قلب أبيه المتحرق عليه.

لذلك فإنّ هذا الولد اللجوج الأحمق، وظنّاً منه أن ينجو من غضب اللّه أجاب والده نوحاً و «قَالَ سَاوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ».

ولكن نوحاً لم ييأس مرّة اخرى فنصحه أن يترك غروره ويركب معه و «قَالَ لَاعَاصِمُ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ». ولا ينجو من هذا الغرق إلّا من شمله لطف اللّه «إِلَّا مَن رَّحِمَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۴

وفى هذه الحالة التى كان ينادى نوح إبنه ولا يستجيب الابن له ارتفعت موجة عظيمة والتهمت كنعان بن نوح وفصل الموج بين نوح وولده «وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ».

بحوث

۱- دروس تربوية من طوفان نوح: إنّ هدف القرآن الأصلى من ذكر قصص الماضين بيان دروس وعبر ومسائل تربوية، وفى هذا القسم من قصة نوح مسائل مهمة جدّاً نشير إلى قسم منها:

تطهير وجه الأرض: صحيح أنّ اللّه رحيم ودود، ولكن لا ينبغى أن ننسى أنّه حكيم أيضاً، فبمقتضى حكمته أنّه عندما لا تؤثر دعوة الناصحين والمربّين الإلهيين فى قوم فاسدين، فلا حق لهم بعد ذلك فى الحياة وسينتهون نتيجة للثورات الاجتماعية أو الطبيعية وتحت وطأة التنظيم الحياتى.

وهذا الأمر غير منحصر فى قوم نوح ولا بزمان معين، إنّما هو سنة اللّه فى خلقه وعباده فى جميع العصور والأزمان حتى فى عصرنا الحاضر، وأى إشكال فى أن تكون كل من الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية صورة من صور «تطهير الأرض».

۲- لِمَ كان العقاب أو الطوفان؟ صحيح أنّ قوماً أو امة كانوا فاسدين وينبغى زوالهم ومهما تكن وسائل إزالتهم فالنتيجة واحدة، ولكن بالتدقيق فى الآيات المتقدمة نستفيد أنّ هناك تناسباً بين الذنوب وعقاب اللَّه دائماً وأبداً «فتدبر جيداً».

كان فرعون يرى قدرته وعظمته تتجلى فى «نهر النيل» ومياهه كثير البركات، لكن الطريف أنّ هلاك فرعون ونهايته كان فى النيل.

وكان قوم نوح أهل زراعة و «أنعام» وكانوا يجدون كل خيراتهم فى «حبات المطر» لكن نهايتهم كانت بالمطر أيضاً ...

ومن هنا يتّضح جلياً أنّ حساب اللَّه فى غاية الدقة، ولو لاحظنا الطغاة العتاة فى عصرنا وفى الحرب العالمية الاولى والثانية كيف ابيدوا بأسلحتهم الحديثة والمتطورة لاتضح المعنى أكثر.

فلا ينبغى أن نعجب أنّ هذه الصناعات المتقدمة التى اعتمدوا عليها فى استعمار الشعوب واستثمار خيراتهم واستضعافهم ... أدت إلى زوالهم.

۳- المرتكزات الجوفاء: من الطبيعى أنّ كل أحد يعتمد فى التغلّب على الصعاب ومواجهة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۵

المشاكل فى حياته إلى أمر ما، فجماعة يعتمدون على الثروة والمال، وجماعة على المقام والمنصب، وجماعة يلجأون إلى القدرة الجسمية، وآخرون إلى أفكارهم .. ولكن- كما تخبرنا الآيات المتقدمة ويرينا التاريخ- لا أحد من هؤلاء يستطيع أن يقاوم أدنى مقاومة أمام أمر اللَّه وقدرته، حيث يكون مثله كمثل خيط العنكبوت يتلاشى أمام هبوب الرياح الشديدة.

فابن نوح لغروره وغفلته كان غارقاً فى مثل هذا الوهم، وظن أنّ الجبل سيعصمه من طوفان غضب اللَّه ويحميه ولكن موجة واحدة من ذلك الطوفان المتلاطم كشفت سراب ظنّه وأنهت حياته.

۴- سفينة النجاة: وردت روايات كثيرة عن النبى صلى الله عليه و آله تعبر عن أهل بيته- وهم الأئمة الطاهرون وحملة الإسلام- بأنّهم «سفينة النجاة». أى أنّه حين يطغى الطوفان الفكرى والعقائدى والاجتماعى فى المجتمع الإسلامى، فإنّ طريق النجاة الوحيد هو الإلتجاء إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام.

وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَ يَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْمَاءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۴۴) نهاية الحادث: كان نوح عليه السلام قد أودع زمام السفينة بيد اللَّه سبحانه، وكانت الأمواج تتقاذف السفينة فى كل صوب، وفى روايات استمرت هذه الحال ستة أشهر تماماً (من بداية شهر رجب حتى نهاية شهر ذى الحجة) وعلى رواية (من عاشر شهر رجب حتى عاشر محرّم) وطافت السفينة نقاطاً متعددة من الأرض، وطبقاً لما جاء فى بعض الرّوايات أنّها سارت على أرض مكّة وحول الكعبة.

وأخيراً صدر الأمر الإلهى بانتهاء العقاب وأن ترجع الأرض إلى حالتها الطبيعية، والآية- محل البحث- تبيّن هذا الأمر وجزئياته ونتيجته فى عبارات وجيزة جدّاً، وفى الوقت ذاته بليغة وأخّاذة، وقد جاءت الآية فى جمل ست:

۱- «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ» صدر الأمر للأرض أن تبلع الماء.

۲- «وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي» وصدر الأمر للسماء أن لا تمطرى.

۳- «وَغِيْضَ الْمَاءُ» ونزل الماء فى جوف الأرض.

۴- «وَقُضِيَ الْأَمْرُ» انتهى حكم اللَّه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۶

۵- «وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيّ» واستقرت السفينة على طرف جبل الجودى.

۶- «وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» عندئذ لُعن المجرمون بالدعاء عليهم أن يبتعدوا من رحمة اللَّه.

طائفة من علماء العرب: إنّ هذه الآية تعدّ أفصح آيات القرآن وأبلغها وإن كانت آياته جميعاً فى غاية البلاغة والفصاحة.

الشاهد على هذا الكلام هو أنّنا نقرأ فى تفسير مجمع البيان أنّ كفار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن، فعكفوا على لباب البر،

ولحوم الضأن، وسلاف الخمر أربعين يوماً لتصفو أذهانهم. فلمّا أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية، فقال بعضهم لبعض: هذا كلام لا يشبهه شيء من الكلام، ولا يشبه كلام المخلوقين. وتركو ما أخذوا فيه، وافترقوا. وَ نَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (۴۵) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (۴۶) قَالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَ إِنْ تَغْفِرْ لِى وَ تَرْحَمْنِى أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۴۷) حادثة ابن نوح المؤلمة: قرأنا فى الآيات المتقدمة أنّ ابن نوح لم يسمع نصيحة والده وموعظته، ولم يترك لجاجته وحماقته حتى النفس الأخير، فكانت نهايته الغرق فى أمواج الطوفان. وهذه الآيات- محل البحث- تتحدث عن قسم آخر من هذه القصة، وهو أنّه حين رأى نوح إبنه تتقاذفه الأمواج ثارت فيه عاطفة الأبوّة وتذكّر وعد اللّه فى نجاة أهله فالتفت إلى ساحة اللّه منادياً «فَقَالَ رَبّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ».

وهذا الوعد هو ما أشارت إليه الآية (۴۰) من هذه السورة، ولكنه سمع الجواب مباشرة ... جواب يهزّ هزّاً كما أنّه يكشف عن حقيقة كبيرة ... حقيقة أنّ الرّباط الدينى أسمى من رباط النسب والقرابة «قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صلِح».

فهو فرد غير لائق، حيث لا أثر لرباط القرابة بعد أن قطع رباط الدين. «فَلَا تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ».

فأحسّ نوح أنّ طلبه هذا من ساحة رحمة اللّه لم يكن صحيحاً، ولا ينبغى أن يتصور نجاة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۷

ولده مما وعد اللّه به فى نجاة أهله، لذلك توجه إلى اللّه معتذراً مستغفراً و «قَالَ رَبّ إِنّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ».

فى العيون عن الرضا عليه السلام: «كيف يقرأون هذه الآية؟» قيل: من الناس من يقرأ: أنّه عمل غير صالح ومنهم من يقرأ: أنّه عمل غير صالح فمن قرأ أنّه عمل غير صالح نفاه عن أبيه، فقال عليه السلام: «كلّا لقد كان إبنه، ولكن لمّا عصى اللّه نفاه عن أبيه، كذا من كان منّا لم يطع اللّه فليس منّا».

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (۴۸) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (۴۹) هبوط نوح بسلام: هاتان الآيتان هما نهاية الآيات التى تتحدث عمّا جاء فى نوح وقصته المليئة بالدروس والعبر فى سورة هود، وفيهما إشارة إلى هبوط نوح عليه السلام من سفينته وعودة الحياة والعيش الطبيعى على الأرض. يقول القرآن فى الآية الاولى من هاتين الآيتين: «قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ».

لا شك أنّ الطوفان كان قد دمّر كل آثار الحياة ... فالأراضى العامرة والمراتع الخُضر والغابات النضرة كلها ابيدت، فالحالة كانت تنذر بأزمة خانقة لنوح وأصحابه بالنسبة للمعاش والغذاء، لكن اللّه سبحانه طمأن هذه الجماعة المؤمنة إزاء البركات الإلهية والسلامة وأنّ كل ذلك سيكون مهيّأً وموفّراً لهم فلا ينبغى الحزن على شيء ...

ثم يضيف القرآن مخاطباً نوحاً أنّه ستعقب الامم التى معك امم من نسلها، ولكن هذه الامم ستغتر وتغفل عن نعم اللّه فتنال جزاءها من اللّه «وَأُمَمٌ سَنُمَتّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وفى آخر آية تختم بها قصة نوح- فى هذه السورة- إشارة كلية عامة إلى ما حدث فى عهد نوح فتقول: «تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذَا».

فالخطاب هنا للنبى محمّد صلى الله عليه و آله يؤكّد عليه أن يصبر ويستقيم كما صبر واستقام نوح عليه السلام

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۳۹۸

عندما واجه المشاكل، وهكذا تكون عاقبة الصبر النصر «فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ».

يستفاد من هذه الآية أنّ الأنبياء كانوا يعلمون الغيب عن طريق تعليم اللَّه وبالمقدار الذى كان يريده اللَّه لهم، لا أنّهم يعلمون الغيب من أنفسهم.

والآن نودع قصّة نوح بكلّ ما تحمل من عبر وأعاجيب، ونتوجه إلى نبى عظيم آخر وهو هود الذى سُمّيت هذه السورة باسمه.

وَ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَ يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَ لَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) فى الآيات السابقة كان الكلام حول نوح عليه السلام وأمّا الآن فالحديث عن هود عليه السلام. يقول سبحانه فى الآية الاولى من هذه القصة: «وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا». ونلاحظ فى الآية أنّها وصفت هوداً بكونه «أخاهم».

وهذا التعبير جار فى لغة العرب. حيث يطلقون كلمة أخ على جميع أفراد القبيلة لانتسابهم إلى أصل واحد ...

أو أنّ هذا التعبير يشير إلى أنّ معاملة هود لهم كانت أخوية بالرغم من كونه نبيّاً، وهذه الحالة هى صفة الأنبياء جميعاً، فهم لا يعاملون الناس من منطق الزعامة والقيادة أو معاملة أب لأبنائه، بل من منطلق أنّهم إخوة لهم ....

معاملة خالية من أيّة شائبة وأىّ امتياز أو استعلاء.

كان أوّل دعوة هود- كما هو الحال فى دعوة الأنبياء جميعاً- توحيد اللَّه ونفى الشرك عنه «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ».

فهذه الأصنام ليست شركاءه، ولا منشأ الخير أو الشر، ولا يصدر منها أى عمل، وأى افتراء أعظم وأكبر من نسبتكم كل هذا المقام والتقدير لهذه الموجودات «الأصنام» التى لا قيمة لها إطلاقاً.

ثم يضيف هود قائلًا لقومه: لا تتصوروا أنّ دعوتى لكم من أجل المادة، فأنا لا اريد منكم أىّ أجر «يَا قَوْمِ لَاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا». فأجرى وحده على من فطرنى ووهبنى

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٣٩٩

الروح وأنا مدين له بكل شىء، فهو الخالق والرازق «إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى».

وأساساً فإنّى فى كل خطوة أخطوها لسعادتكم، إنّما أفعل ذلك طاعةً لأمره، ولذلك ينبغى طلب الأجر منه وحده لا منكم، وإضافة إلى ذلك فهل لديكم شىء من عندكم، فكل ما هو لديكم منه سبحانه: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

ثم شرع هود ببيان الأجر المادى للإيمان لغرض التشويق والاستفادة من جميع الوسائل الممكنة لإيقاظ روح الحق فى قومه الظالين، فبيّن أن هذا الأجر المادى مشروط بالايمان فيقول: «وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ». فإذا فعلتم ذلك فإنّه «يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا» «١». لئلا تصاب مزارعكم بقلة الماء أو القحط، بل تظل خضراء مثمرة دائماً، وزيادة على ذلك فإنّ اللَّه بسبب تقواكم وابتعادكم عن الذنوب والتوجه إليه يرعاكم «وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ».

فلا تتصوروا أنّ الإيمان والتقوى يضعفان من قوتكم أبداً، فعلى هذا إيّاكم والإبتعاد عن طريق الحق «وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ».

التوحيد أساس دعوة الأنبياء: يبين تاريخ الأنبياء أنّهم بدأوا دعوتهم جميعاً من التوحيد ونفى الشرك ونفى عبادة الأصنام أيّاً كانت، والواقع فإنّ أىّ إصلاح فى المجتمعات الإنسانية لا يتيسر بغير هذه الدعوة، لأنّ وحدة المجتمع والتعاون والإيثار كلها امور تسترفد من منبع واحد وهو توحيد المعبود.

وأمّا الشرك فهو أساس كل فرقة وتعارض وتضاد وأنانية ... وما إلى ذلك ... وإرتباط هذه المفاهيم بالشرك وعبادة الأصنام بالمفهوم الواسع غير خاف على أحد!

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَارِكِى آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ

إِنِّى أَشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (۵۴) مِنْ دُونِه فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (۵۵) إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَ رَبِّكُم مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۶) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (۵۷)

---

(۱) «المدرار»: مشتق من «درّ» وهو انصباب حليب الأثداء، ثمّ استعمل فى انصباب المطر.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۰

قوّة المنطق: والآن لننظر ماذا كان ردّ فعل القوم المعاندين والمغرورين- قوم عاد- مقابل نصائح أخيهم هود وتوجيهاته إليهم: «قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ». أى لم تأتنا بدليل مقنع لنا «وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ» الذى تدعونا به إلى عبادة اللّه وترك الأوثان «وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ».

وأضافوا إلى هذه الجمل الثلاث غير المنطقية، أنّك يا هود مجنون و «إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَيكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ». ولا شك أنّ هوداً- كأى نبى من الأنبياء- أدّى دوره ووظيفته وأظهر المعجز أو المعجزات لقومه للتدليل على حقانيته، ولكنهم لغرورهم- مثل سائر الأقوام- أنكروا معاجزه وعدّوها سحراً.

إنّ على هود أن يردّ على هؤلاء الضالين اللجوجين رداً مقروناً بالمنطق، من منطلق القوة أيضاً ... يقول القرآن فى جواب هود لهم: «قَالَ إِنّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ».

يشير بذلك إلى أنّ الأصنام إذا كانت لها القدرة فاطلبوا منها هلاكى وموتى لمحاربتى لها علناً فعلام تسكت هذه الأصنام؟ وماذا تنتظر بى؟

ثم يضيف أنّه ليست الأصنام وحدها لا تقدر على شىء، فأنتم مع هذا العدد الهائل لا تقدرون على شىء، فإذا كنتم قادرين «مِن دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَاتُنظِرُونَ».

فأنا لا تردعنى كثرتكم ولا أعدها شيئاً، ولا أكترث بقوتكم وقدرتكم أبداً، وأنتم المتعطشون لدمى ولديكم مختلف القدرات، إلّاأننى واثق بقدرة فوق كل القدرات، «إِنّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبّى وَرَبّكُم».

فلو فكرتم جيداً لكان هذا وحده معجزاً حيث ينهض إنسان مفرد وحيد بوجه الخرافات والعقائد الفاسدة فى مجتمع قوى ومتعصب، لكنّه فى الوقت ذاته لا يشعر فى نفسه بالخوف منهم، ولا يستطيع الأعداء أن يقفوا بوجهه! ثمّ يضيف: لستم وحدكم فى قبضة اللّه، فإنّه «مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا»، فما لم يأذن به اللّه، لا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً.

ولكن إعلموا أيضاً أنّ ربّى القدير ليس كالأشخاص المقتدرين الذين يستخدمون قدرتهم للهوى واللعب والأنانية وفى غير طريق الحق، بل هو اللّه الذى لا يفعل إلّاالحكمة والعدل «إِنَّ رَبّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

ثم إنّ هوداً قال لقومه فى آخر كلامه معهم كما تحكيه الآية: «فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۱

إشارة إلى أن لا يتصوروا أنّ هوداً سيتراجع إن لم يستجيبوا لدعوته، فإنّه أدّى واجبه ووظيفته، وأداء الواجب انتصار بحد ذاته حتى لو لم تقبل دعوته.

وكما هدّد القوم هوداً، فإنّه هددهم بأشدّ من تهديدهم، وقال: إن لم تستجيبوا لدعوتى فإنّ اللّه سيبيدكم فى القريب العاجل «وَيَسْتَخْلِفُ رَبّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيًا».

هذه سنّة اللّه فى خلقه وقانونه العام، إنّه متى كان قوم غير لائقين لاستجابة الدعوة والهداية والنعم الاخرى التى أنعمها عليهم فإنّه سيبعدهم ويستخلف قوماً لائقين بمكانهم «إِنَّ رَبّى عَلَى كُلّ شَىْءٍ حَفِيظٌ». فلا تفوته الفرصة، ولا يهمل أنبياءه ومحبيه، ولا يعزب عنه

مثقال ذرة من حساب الآخرين بل هو عالم بكل شيء وقادر على كل شيء.

وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (۵۸) وَ تِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (۵۹) وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (۶۰)

اللعن الأبدى على القوم الظالمين: فى آخر الآيات التى تتحدث عن قصة قوم عاد ونبيّهم هود إشارة إلى العقاب الأليم للمعاندين، فتقول الآيات: «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا». وتؤكّد أيضاً نجاة المؤمنين «وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ».

وفى قوله تعالى: «نَجَّيْنَا» وتكرار هذه الكلمة فى الآية مرّتين أقوال مختلفة للمفسرين، ف «نجّينا» الأولى تعنى خلاصهم من عذاب الدنيا و «نجّينا» الثانية تعنى نجاتهم فى المرحلة المقبلة من عذاب الآخرة، وينسجم هذا التعبير مع وصف العذاب بالغلظة أيضاً.

ويشير بعض المفسرين إلى مسألة لطيفة هنا، وهى أنّ الكلام لمّا كان على رحمة اللّه فمن غير المناسب أن تتكرر كلمة العذاب مباشرة، فأين الرحمة من العذاب؟ لذلك تكررت كلمة «نجّينا» لتفصل بين الرحمة والعذاب دون أن ينقص شيء من التأكيد على العذاب.

كما ينبغى الإلتفات إلى هذه المسألة الدقيقة أيضاً، وهى أنّ آيات القرآن وصفت العذاب

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۲

بالغليظ فى أربعة موارد «۱». وبملاحظة تلك الآية بدقّة نستنتج أنّ العذاب الغليظ مرتبط بالدار الآخرة، وخصوصاً الآيات التى جاءت فى سورة ابراهيم وذكر فيها العذاب الغليظ، فإنّها تصف بصراحة حال أهل جهنم وأهوالها، وهكذا يكون، وذلك لأنّ عذاب الدنيا مهما كان شديداً فإنّه أخفّ من عذاب الآخرة!

وهناك تناسب ينبغى ملاحظته أيضاً، وهو أنّ قوم عاد- كما سيأتى بيان حالهم إن شاء اللّه- ورد ذكرهم فى سورة القمر، والحاقة، وكانوا قوماً ذوى أبدان طوال خشنين، فشبّهت أجسامهم بالنخل، ولهذا السبب كانت لديهم عمارات عالية عظيمة، بحيث نقرأ فى تاريخ ما قبل الإسلام أن العرب كانوا ينسبون البناءات الضخمة والعالية إلى عاد ويقولون مثلًا: «هذا البناء عادى» لذلك كان عذابهم مناسباً لهم لا فى العالم الآخر بل فى هذه الدنيا كان عذابهم خشناً وعقابهم صارماً، كما مرّ فى تفسير السور الآنفة الذكر.

ثمّ تلخّص الآيات ذنوب قوم عادٍ فى ثلاثة مواضيع:

الأوّل: بإنكارهم لآيات اللّه وعنادهم أيضاً لم يتركوا دليلًا واضحاً وسنداً بيّناً على صدق نبوّة نبيّهم إلّاجحدوه «وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بَايَاتِ رَبِّهِمْ».

والثانى: إنّهم من الناحية العملية لم يتّبعوا أنبياء اللّه «وَعَصَوْا رُسُلَهُ».

والثالث من الذنوب: إنّهم تركوا طاعة اللّه ومالوا لكل جبار عنيد «وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ». فأى ذنب أعظم من هذه الذنوب: ترك الإيمان، ومخالفة الأنبياء، والخضوع لطاعة كل جبار عنيد.

و «الجبار»: يطلق على من يُجبر سواه على إتباعه ويريد أن يغطى نقصه بادعاء العظمة والتكبر الظاهرى.

و «العنيد»: هو من يخالف الحق والحقيقة أكثر مما ينبغى، ولا يرضخ للحق أبداً.

---

(۱) وهى فى السور التالية: ۱- ابراهيم/ ۷؛ ۲- لقمان/ ۳۴؛ ۳- فصّلت/ ۵۰؛ ۴- هود/ ۵۸.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۳

هاتان الصفتان تتجليان فى الطواغيت والمستكبرين فى كل عصر وزمان، الذين لا يستمعون لكلام الحق أبداً ويعمدون إلى من يخالفهم بانزال أشد انواع العقاب به بلا رحمة.

وفى الآية الأخيرة التى تنتهى بها قصة «هود» وقومه «عاد» بيان لنتيجة أعمالهم السيئة و الباطلة حيث تقول الآية: «وَأُتْبِعُوا فِى هذِهِ

الدُّنْيَالَعْنَةً» و بعدالموت لايبقى إلّاخزيهم والصيت السيء «وَيَوْمَ الْقِيمَةِ» يقال لهم: «أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ».

وكان يكفى تعريف هـذه الجماعة بلفظ «عاد» ولكن بعد ذكر عاد جاء لفظ «قوم هود» أيضاً لتؤكّد عليهم أوّلًا، ولتشير إلى أنّهم القوم الذين آذوا نبيّهم الناصح لهم ثانياً، ولذلك فقد أبعدهم اللَّه عن رحمته.

وَ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ (۶۱) قصة ثمود: انتهت قصة عاد، قوم هود، بجميع دروسها بشكل مضغوط، وجاء الدور الآن لثمود «قوم صالح» وهم الذين عاشوا فى وادى القرى بين المدينة والشام، حسب ما تنقله التواريخ عنهم.

ونرى هنا أيضاً أنّ القرآن حين يتحدث عن نبيّهم «صالح» يذكره على أنّه أخوهم، وأىّ تعبير أروع وأجمل منه حيث بيّنا قسماً من محتواه فى الآيات المتقدمة، أخ محترق القلب ودود مشفق ليس له هدف إلّاالخير لجماعته «وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صلِحًا».

ونجد أيضاً أنّ منهج الأنبياء جميعاً يبدأ بمنهج التوحيد ونفى أى نوع من أنواع الشرك وعبادة الأوثان التى هى أساس جميع المتاعب «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ».

ولكى يحرك إحساسهم بمعرفة الحق أشار إلى عدد من نعم اللَّه المهمة التى استوعبت جميع وجودهم فقال: «هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ».

ثمّ يُذكّر هؤلاء المعاندين بعد أن أشار إلى نعمة الخلقة بنعم اخرى موجودة فى الأرض حيث قال: «وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا».

الطريف هنا أنّ القرآن لم يقل: إنّ اللَّه عمر الأرض وجعلها تحت تصرفكم، وإنّما قال:

وفوّض إليكم إعمار الأرض «وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا» وهى إشارة إلى أنّ الوسائل معدّة فيها لكل شىء وعليكم إعمارها بالعمل والسعى المتواصل والسيطرة على مصادر الخيرات فيها.

وبدون ذلك لا حظّ لكم فى الحياة الكريمة.

فإذا كان الأمر كذلك: «فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ» لدعواتكم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۴

قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هـذَا أَ تَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَ إِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (۶۲) قَالَ يَا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَ آتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ (۶۳) وَ يَا قَوْمِ هذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (۶۴) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (۶۵) والآن لنلاحظ ما الذى كان جواب المخالفين لنبىّ اللَّه «صالح عليه السلام» إزاء منطق الحى الداعى إلى الحق.

لقد استفادوا من عامل نفسى للتأثير على النبى «صالح» أو على الأقل للمحاولة فى عدم تأثير كلامه على المستمعين له من جمهور الناس، وبالتعبير العامّى الدارج: أرادوا أن يضعوا البطيخ تحت إبطه، فقالوا: «يَا صلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذَا». وكنّا نتوجه إليك لحل مشاكلنا ونستشيرك فى امورنا ونعتقد بعقلك وذكائك ودرايتك، ولم نشك فى إشفاقك واهتمامك بنا، لكن رجاءنا فيك ذهب ادراج الرياح، حيث خالفت ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان وهو منهج اسلافنا ومفخرة قومنا، فأبديت عدم احترامك للأوثان وللكبار وسخرت من عقولنا «أَتَنْهنَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا». والحقيقة أنّنا نشكّ فى دعوتك للواحد الأحد «وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ».

لكن هذا النبى الكبير لم ييأس من هدايتهم ولم تؤثر كلماتهم المخادعة فى روحه الكبيرة فأجابهم قائلًا: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَبِّى وَءَاتِنِى مِنْهُ رَحْمَةً». أفأسكت عن دعوتى ولا أبلغ رسالة اللَّه ولا أواجه المنحرفين «فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ».

ولكن اعلموا أنّ كلامكم هذا واحتجاجكم بمنهج السلف والآباء لا- يزيدنى إلّاإيماناً بضلالتكم وخسرانكم: «فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ

تَخْسِيرٍ».

وبعد هذا كلّه ومن أجل البرهان على صدق دعوته، وبيان المعاجز الإلهية التى دونها

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۵

قدرة الإنسان جاءهم بالناقة التى هى آية من آيات اللّه وقال: «وَيَا قَوْمِ هذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ».

«الناقة»: فى اللغة هى انثى الجمل، وقد اضيفت إلى لفظ الجلالة «اللّه» وهذه الإضافة تدل على أنّ هذه الناقة لها خصائص معينة، ومع الإلتفات إلى ما عبّر عنها فى الآية المتقدمة بأنّها «آية» وعلامة إلهيّة ودليل على الحقانيّة، يتّضح أنّها لم تكن ناقة عادية، بل كانت خارقة للعادة من جهة أو جهات متعددة.

إنّ القرآن ذكر قصة ناقة صالح بشكل مجمل غير أنّنا نقرأ فى روايات كثيرة، أنّ هذه الناقة خرجت من قلب الجبل، ولها خصائص اخرى ليس هنا مجال سردها.

وعلى كل حال، فمع جميع ما أكّده نبيّهم العظيم «صالح» فى شأن الناقة، فقد صمّموا أخيراً على القضاء عليها، لأنّ وجودها مع ما فيها من خوارق مدعاة لتيقظ الناس والتفافهم حول النبى صالح عليه السلام، لذلك فإنّ جماعة من المعاندين لصالح من قومه الذين كانوا يجدون فى دعوة صالح خطراً على مصالحهم، ولا يرغبون أن يستفيق الناس من غفلتهم فتتعرض دعائم استعمارهم للتقويض والانهيار، فتآمروا للقضاء على الناقة وهيأوا جماعة لهذا الغرض، وأخيراً أقدم أحدهم على مهاجمتها وضربها بالسكين فهوت إلى الأرض «فَعَقَرُوهَا».

«عقروها»: مشتقة من مادة «العُقر» على وزن «الظلم» ومعناه: أصل الشىء وأساسه وجذره، لأنّ نحر البعير يستلزم زوال وجوده من الأصل.

العلاقة الدينية: إنّ الإسلام يعدّ الرضا الباطنى فى أمر ما والإرتباط معه إرتباطاً عاطفياً بمنزلة الاشتراك فيه. يقول الإمام على عليه السلام فى الخطبة (۲۰۱) فى نهج البلاغة: «وإنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم اللّه بالعذاب لما عمّوه بالرضا».

وهناك روايات متعددة فى المضمون ذاته نقلت عن نبى الخاتم وأهل بيته الكرام، وهى تكشف غاية الإهتمام من قبل هؤلاء السادة العظام بالعلاقة العاطفية والمناهج الفكرية المشتركة بجلاء.

وفى نهاية الآية نقرأ أنّ النبى «صالحاً» بعد أن رأى تمرّد قومه وعقرهم الناقة أنذرهم «فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ». فهو وعد اللّه الذى لا يتغير وما أنا من الكاذبين.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۶

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (۶۶) وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (۶۷) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ (۶۸) نهاية ثمود؛ قوم صالح: فى هذه الآيات يتبيّن كيف نزل العذاب على قوم صالح المعاندين بعد أن أمهلهم وقال لهم: «تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَثَةَ أَيَّامٍ» فتقول الآيات: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صلِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا» لا من العذاب الجسمانى والمادى فحسب، بل «وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ» (۱). لأنّ اللّه قوى وقادر على كل شىء، وله السلطة على كل أمر، ولا يصعب عليه أىّ شىء ولا قدرة فوق قدرته «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ».

وعلى هذا فإنّ نجاة جماعة من المؤمنين من بين جماعة كثيرة تبتلى بعذاب اللّه ليس بالأمر المشكل بالنسبة لقدرة اللّه تعالى.

إنّ رحمة اللّه تستوجب ألّا يحترق الأبرياء بنار الأشقياء المذنبين، وألّا يؤاخذ المؤمنون بجريرة غير المؤمنين «وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ». وهكذا هلكوا وصاروا «شذر مذر» ومضت آثارهم مع الريح «كَأَنْ لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ» عن لطف اللّه ورحمته.

وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (۶۹) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ (۷۰) وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (۷۱) قالَتْ يا وَيْلَتا أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (۷۲) قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (۷۳)

---

(۱) «الخزى»: فى اللغة الإنكسار الذى يصيب الإنسان سواءً من نفسه أو من سواه ويشمل كل أنواع الذل أيضاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۷

جانب من حياة محطّم الأصنام: والآن جاء الدور للحديث عن جانب من حياة «إبراهيم عليه السلام» هذا البطل العظيم الذى حطم الأصنام، وما جرى له مع قومه، وهنا تذكر الآيات قسماً من حياته المرتبطة بقصة «قوم لوط» وعقاب هؤلاء الجماعة الملوّثين بالآثام والعصيان، فتقول فى البداية: «وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرهِيمَ بِالْبُشْرَى .

وهؤلاء الرسل هم الملائكة الذين امروا بتدمير مدن قوم لوط، ولكنهم قبل ذلك جاؤوا إلى إبراهيم ليسلموه بلاغاً يتضمّن بشرى سارة.

أمّا عن ماهية هذه البشرى فهناك احتمالان، ولا مانع من الجمع بينهما.

الإحتمال الأوّل: البشرى بتولّد إسماعيل وإسحاق ويعدّ بشارة عظمى.

والإحتمال الثانى: إنّ إبراهيم كان مستاءً مما وجده فى قوم لوط من الفساد والعصيان، فحين أخبروه بأنّهم امروا بهلاكهم سُرّ، وكان هذا الخبر بشرى له.

فحين جاءوا إبراهيم «قَالُوا سَلمًا» فأجابهم أيضاً و «قَالَ سَلمٌ» ورحّب بهم «فَمَا لَبِثَ أن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ». «العجل»: فى اللغة ولد البقر؛ و «الحنيذ»: معناه المشوى.

ويستفاد من هذه الجملة أنّ من آداب الضيافة أن يعجّل للضيف بالطعام، خاصة إذا كان الضيف مسافراً، فإنّه غالباً ما يكون متعباً وجائعاً وبحاجة إلى طعام، فينبغى أن يقدم له الطعام عاجلًا ليخلد إلى الراحة.

ولكن حدث لإبراهيم حادث عجيب مع أضيافه عند تقديم العجل الحنيذ لهم، فقد رآهم لا يمدّون أيديهم إلى الطعام، وهذا العمل كان مريباً له وجديداً عليه، فأحسّ بالإستيحاش واستغرب ذلك منهم «فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَاتَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً».

ومن السنن والعادات القديمة التى لا تزال قائمة بين كثير من الناس الذين لهم التزام بالتقاليد الطيبة للاسلاف، هى أنّ الضيف إذا تناول من طعام صاحبه (وبما اصطلح عليه:

تناول من ملحه وخبزه) فهو لا يكنّ له قصد سوء، وعلى هذا فإنّ من له قصد سوء مع أحد- واقعاً- يحاول ألّا يأكل من طعامه «وخبزه وملحه» ومن هذا المنطلق شك إبراهيم فى نيّاتهم، وأساء الظن بهم، واحتمل أنّهم يريدون به سوءاً.

أمّا الرسل فإنّهم لمّا اطلعوا على ما فى نفس إبراهيم، بادروا لرفع ما وقع فى نفسه و «قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۰۸

وفى هذه الحال كانت امرأته «سارة» واقفة هناك فضحكت كما تقول الآية: «وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ».

هذا الضحك من سارة يحتمل أن يكون لأنّها كانت مستاءةً من قوم لوط وفجائعهم، واطّلاعها على قرب نزول العذاب عليهم كان سبباً لسرورها وضحكها.

ثم تضيف الآية أنّ إسحاق سيعقبه ولد من صلبه اسمه يعقوب: «فَبَشَّرْنهَا بِإِسْحقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحقَ يَعْقُوبَ».

الواقع أنّ الملائكة بشّروها بالولد وبالحفيد، فالأوّل إسحاق والثّانى يعقوب، وكلاهما من أنبياء اللّه.

ومع التفات «سارة» امرأة إبراهيم إلى كبر سنّها وسنّ زوجها فإنّها كانت آيسة من الولد بشدّة، فاستنكرت بصوت عال متعجبة من هذا

الأمر و «قَالَتْ يَا وَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ».

إنّ رسل اللّه ازالوا التعجب عنها فوراً وذكّروها بنعم اللّه «الخارقة للعادة» عليها وعلى اسرتها ونجاتهم من الحوادث الجمّة، فالتفتوا إليها و «قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ». ذلك الربّ الذى نجّى إبراهيم من مخالب نمرود الظالم، ولم يصبه سوء وهم فى قلب النار.

وهذه الرحمة الإلهية لم تكن خاصة بذلك اليوم فحسب، بل هى مستمرة فى أهل هذا البيت، وأى بركة أعظم من وجود رسول اللّه محمّد صلى الله عليه و آله والأئمة الطاهرين عليهم السلام فى هذه الاسرة وفى هذا البيت بالذات.

وقالت ملائكة اللّه لمزيد التأكيد على بشارتهم وكلامهم فى شأن اللّه: «إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ».

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَ جَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) رأينا فى الآيات السابقة أنّ إبراهيم عرف فوراً أنّ أضيافه الجدد لم يكونوا أفراداً خطرين أو يخشى منهم، ولمّا ذهب الهلع والخوف عن إبراهيم من اولئك الأضياف، ومن ناحية اخرى فقد بشروه بالوليد السعيد، شرع فوراً بالتفكير فى قوم لوط الذين ارسل إليهم

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٤٠٩

هؤلاء الرُسل «الملائكة» فأخذ يجادلهم ويتحدث معهم فى أمرهم «فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ» «١».

وهنا يمكن أن ينقدح هذا السؤال، وهو: لِمَ تباحث إبراهيم عليه السلام مع رسل اللّه وجادلهم فى قوم آثمين ظالمين- كقوم لوط- وقد امروا بتدميرهم، فى حين أنّ هذا العمل لا يتناسب مع نبىّ، خاصة إذا كان إبراهيم عليه السلام فى عظمته وشأنه؟

لهذا فإنّ القرآن يعقّب مباشرة فى الآية عن شفقة إبراهيم وتوكله على اللّه فيقول: «إِنَّ إِبْرهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ» «٢».

هذه الاصاف الثلاث المجملة جواب على السؤال المشار إليه آنفاً. وتوضيح ذلك: إنّ هذه الصفات المذكورة لإبراهيم تشير إلى أنّ مجادلته كانت ممدوحة، وذلك لأنّ إبراهيم لم يتّضح له أنّ أمر العذاب صادر من قبل اللّه بصورة قطعية، ويحتمل أنّهم سيرتدون عن غيهم ويتّعظون، ومن هنا فما زال هناك مجال للشفاعة لهم ....

وتقول الآية التالية: إنّ الرسل قالوا لإبراهيم- مباشرةً- أن أعرض عن اقتراحك لأنّ أمر ربّك قد تحقق والعذاب نازل لا محالة. «يَا إِبْرهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ».

والتعبير ب «ربّك» لا يدل على أنّ هذا العذاب خال من الطابع الانتقامى فحسب، بل يدل أيضاً على أنّه علامة لتربية العباد وإصلاح المجتمع الإنسانى.

وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قَالَ هذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَ جَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)

---

(١) «روع»: على وزن «نوع» معناها «الخوف و الوحشة» و كلمة «روع» على وزن «نوح» معناها «الروح» أو قسم منها الذى هو محل الخوف و مركزه، لمزيد الإيضاح تراجع المعاجم اللغوية.

(٢) «الحليم»: مشتق من «الحلم» و هو: الأناة والصبر فى سبيل الوصل إلى هدف مقدس، والأواه فى الأصل: كثير التحسر والآه سواء من الخوف من المسؤولية التى يحملها أو من المصائب، والمنيب من الإنابة أى الرجوع.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٤١٠

قوم لوط وحياة الخزى: مرّت فى آيات من سورة الأعراف إشارة إلى شىء من مصير قوم لوط، وفسّرنا ذلك فى محلّه، وهنا يتناول القرآن الكريم- وبمناسبة ما ذكره من قصص الأنبياء وأقوامهم وبما ورد فى الآيات المتقدمة عن قصة لوط وقومه- قسماً آخر من حياة هؤلاء القوم المنحرفين الضالين ليتابع بيان الهدف الأصلى ألا وهو سعادة المجتمع الإنسانى ونجاته بأسره. يبيّن القرآن الكريم فى هذا الصدد أوّلًا ... أنّه لما جاءت رسلنا لوطاً طار هلعاً وضاق بهم ذرعاً وأحاط به الهمّ من كل جانب «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا».

وقد ورد فى الروايات الإسلامية أنّ لوطاً كان فى مزرعته حيث فوجىء بعدد من الشباب الوسيمين الصِباح الوجوه قادمون نحوه وراغبون فى النزول عنده ولرغبته باستضافتهم من جهة، ولعلمه بالواقع المرير الذى سيشهده فى مدينته الملوّثة بالانحراف الجنسى من جهة اخرى، كل ذلك أوجب له الهم ...

ومرّت هذه المسائل على شكل أفكار وصور مرهقة فى فكره، وتحدث مع نفسه «وَقَالَ هٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ»، لاحتمال الفضيحة والتورط فى مشاكل عويصة.

«سيىء»: مشتقة من ساء، ومعناها عدم الإرتياح وسوء الحال؛ و «الذرع»: تعنى «القلب» على قول؛ وكلمة «عصيب»: مشتقة من «العصب» ومعناه ربط الشىء بالآخر وشده شدّاً محكماً، وبما ان الحوادث الصعبة تشدّ الإنسان وكأنها تسلبه راحته فيظل مبلبل الأفكار سُميت «عصيبة» وتطلق العرب على الأيام شديدة الحر أنّها عصيبة أيضاً.

وورد فى بعض الروايات أنّ لوطاً أخّر ضيوفه كثيراً حتى حلول الليل، فلعله يستطيع أن يحفظ ماء وجهه من شرور قومه، ويقوم بواجب الضيافة دون أن يُساء إلى أضيافه، ولكن ما عسى أن يفعل الإنسان إذا كان عدوه داخل بيته، وكانت امرأة لوط امرأة كافرة وتساعد قومه الظالمين، وقد اطلعت على ورود هؤلاء الأضياف إلى بيتها، فصعدت إلى أعلى السطح وصفقت بيديها أوّلًا، ثم بإشعال النار وتصاعد الدخان أعلمت جماعة من هؤلاء القوم بأنّ طعمة دسمة قد وقعت فى «الشِباك».

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد: «وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ» «١». وكانت حياة هؤلاء

---

(١) «يُهرعون»: مشتقّة من الإهراع ومعناها السياقة الشديدة، فكأنّما تسوق غريزة هؤلاء إيّاهم بشدّة إلى أضيافه.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٤١١

القوم مسودّة وملطخة بالعار «وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ» فكان من حق لوط أن يضيق ذرعاً ويصرخ ممّا يرى من شدّة استيائه و «قَالَ يَا قَوْمِ هٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ» فأنا مستعد أنّ أزوجهن إياكم «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ» يصدكم عن هذه الأعمال المخزية وينصحكم بالإقلاع عنها.

تعبير لوط «أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ» فى آخر كلامه مع قومه المنحرفين يكشف عن هذه الحقيقة، وهى أنّ وجود رجل- ولو رجل واحد رشيد- بين قوم ما وقبيلة ما يكفى لردعهم من أعمالهم المخزية، أى لو كان فيكم رجل عاقل ذو لبّ ورشد لما قصدتم بيتى ابتغاء الإعتداء على ضيفى!

ولكن هؤلاء القوم المفسدين أجابوا لوطاً بكل وقاحة وعدم حياء و «قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ».

وهنا وجد لوط- هذا النبى العظيم- نفسه محاصراً فى هذه الحادثة المريرة فنادى و «قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً» أو سند من العشيرة والأتباع والمعاهدين الأقوياء حتى اتغلّب عليكم «أَوْ ءَاوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ».

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) عاقبة الجماعة الظالمة: وأخيراً حين شاهد الملائكة (رسل اللّه) الأضياف، ما عليه لوط من

عذاب النفس كشفوا «ستاراً» عن أسرار عملهم و «قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ».

نقرأ فى الآية (۳۷) من سورة القمر: «وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ». ونقرأ فى بعض الروايات- أيضاً- أنّ أحد الملائكة غشّى وجوههم بحفنة من التراب فعموا جميعاً.

إنّ اطلاع لوط عليه السلام على حال أضيافه ومأموريتهم، دنا زمن السرور والنجاة من مخالب هؤلاء القوم المنحرفين المتوحشين.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۲

ثم أمر الأضياف لوطاً- مباشرة- أن يرحل هو وأهله من هذه البلدة وقالوا: «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ».

ولكن كونوا على حذر «وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ» إلى الوراء «إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ» لتخلّفها عن أمر اللّه وعصيانها مع العُصاة الظَلَمة.

وخلاصة الأمر فإنّ آخر ما قاله رسل اللّه- أى الملائكة- للوط عليه السلام: إنّ العذاب سينزل قومه صباحاً. ومع أوّل شعاع للشمس سيحين غروب حياة هؤلاء: «إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ».

ونقرأ فى بعض الرّوايات أنّ الملائكة حين وعدوا لوطاً بنزول العذاب صباحاً، سأل لوط الملائكة لشدة ما لقيه من قومه مما ساءه، وجرح قلبه وملأه همّاً وغمّاً أن يعجلوا عليهم بالعذاب فى الحال فإنّ الأفضل الإسراع، ولكن الملائكة طمأنوه بقولهم: «أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ».

وأخيراً دنت لحظة العذاب وتصرّمت ساعات انتظار لوط النبى عليه السلام وكما يقول القرآن الكريم: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ».

وكلمة «سجّيل»: فارسية الأصل، وهى مركبة من «سنگ» ومعناها الحجارة و «گل» ومعناها الطين، فعلى هذا هى شىء لاصلباً كالحجارة ولا رخواً كالزهرة، وإنّما هى برزخ «وسط» بينهما. و «المنضود»: من مادة «نضد» ومعناه كون الشىء مصفوفاً وموضوعاً بشكل متتابع ومتراكم، أى إنّ هذا المطر كان متتابعاً سريعاً إلى درجة حتى كأنّ هذه الأحجار تتراكب بعضها فوق بعض فتكون «منضودة».

ولكن هذه الأحجار ليست أحجاراً عاديه، بل هى أحجار فيها علامات عند اللّه «مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ».

ولا تتصوروا أنّ هذه الأحجار مخصوصة بقوم لوط، بل «وَمَا هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ».

هؤلاء القوم المنحرفون ظلموا أنفسهم وظلموا مجتمعهم، لعبوا بمصير امتهم كما استهزؤوا بالإيمان والأخلاق الإنسانية، وكلّما نصحهم نبيّهم باخلاص وحرقة قلب لم يسمعوا له وسخروا منه.

تحريم الانحراف الجنسى: يُعدّ الميل الجنسى إلى المماثل «سواء وقع ذلك بين الرجال أو بين النساء» من الذنوب الكبيرة فى الإسلام، وقد جعل الإسلام لكل من الحالتين حداً شرعياً.

والرّوايات التى تذم الميل الجنسى إلى المماثل والمنقولة عن قادة الإسلام كثيرة ومذهلة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۳

والمطالع لهذه الروايات يحسّ أنّ قبح هذا الذنب ليس له مثيل بين الذنوب.

نقرأ مثلًا من هذه الروايات رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال: «من جامع غلاماً جاء يوم القيامة جنباً لا ينقّيه ماء الدنيا، وغضب اللّه عليه ولعنه وأعدّ له جهنم وساءت مصيراً. ثمّ قال: إنّ الذّكر يركب الذّكر فيهتزّ العرش لذلك» «۱».

وَ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَ لَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَ الْمِيزَانَ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (۸۴) وَ يَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۸۵) بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (۸۶) مدين بلدة شعيب: مع انتهاء قصة قوم لوط تصل النوبة إلى قوم شعيب وأهل مدين، اولئك الذين حادوا عن طريق التوحيد وهاموا على وجوههم فى شركهم وعبادة الأصنام، ولم يعبدوا الأصنام

فحسب، بل الدرهم والدينار والثروة والمال، ومن أجل ذلك فإنّهم لوّثوا تجارتهم الرابحة وكسبهم الوفير بالغش والبخس والفساد. فى بداية القصة تقول الآية: «وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا». وكلمة «أخاهم» تستعمل فى مثل هذا التعبير لبيان منتهى المحبّة من قِبَل الأنبياء لقومهم.

و «مدين»: اسم لمدينة شعيب وقبيلته، وتقع المدينة شرق خليج العقبة، وأهلها من أبناء إسماعيل، وكانوا يتاجرون مع أهل مصر ولبنان وفلسطين.

هذا النبى وهذا الأخ الودود المشفق على قومه- كأى نبى فى اسلوبه وطريقته فى بداية الدعوة- دعاهم أوّلًا إلى ما هو الأساس والعماد والمعتقد وهو «التوحيد» وقال: «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ».

ثم أشار إلى أحد المفاسد الاقتصادية التى هى من افرازات عبادة الأصنام والشرك، وكانت رائجة عند أهل مدين يومئذ جدّاً، وقال: «وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ». أى حال البيع والشراء.

---

(۱) وسائل الشيعة ۱۴/ ۲۴۹.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۴

ويشير هذا النبى العظيم بعد هذا الأمر إلى علتين: العلة الاولى: هى قوله «إِنِّى أَرَيكُم بِخَيْرٍ».

يقول أوّلًا: إنّ قبول نصحى يكون سبباً لتفتح أبواب الخير عليكم وتقديم التجارة وهبوط سطح القيمة واستقرار المجتمع.

ويحتمل أيضاً فى تفسير هذه الجملة «إِنِّى أَرَيكُم بِخَيْرٍ» أنّ شعيباً يقول لهم: إنّى أراكم منعمين وفى خير كثير، فعلى هذا لا مدعاة لعبادة الأصنام وإضاعة حقوق الناس والكفر بدلًا من الشكر على نعم اللّه سبحانه.

وثانياً: «وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ» بسبب إصراركم على الشرك والتطفيف فى الوزن وكفران النعمة ... الخ.

وكلمة «محيط»: جاءت صفة ليوم، أى يوم شامل ذو إحاطة، وشمول اليوم يعنى شمول العذاب والعقاب فى ذلك اليوم، وهذا التعبير فيه إشارة إلى عذاب الآخرة كما يشير إلى عقاب الدنيا الشامل.

و الآية الاخرى تؤكّد على نظامهم الاقتصادى، فإذا كان شعيب قد نهى قومه عن قلة البيع والبخس فى المكيال، فهنا يدعوهم إلى إيفاء الحقوق والعدل والقسط حيث يقول: «وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ».

ويجب أن يحكم هذا الأصل «وهو اقامة القسط والعدل، وإعطاء كل ذى حق حقه» على مجتمعكم بأسره.

ثم يخطو خطوة أوسع ويقول: «وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ».

و «البخس»: معناه فى اللغة التقليل، وجاء هنا بمعنى الظلم أيضاً.

ونجد فى نهاية الآية أنّ شعيباً يخطو خطوةً اخرى أوسع ويقول لقومه: «وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

فالفساد يقع عن طريق البيع ويقع عن طريق غصب حقوق الناس والإعتداء على حقوق الآخرين، والفساد أيضاً يقع فى الإخلال بالموازين والمقاييس الاجتماعية، ويقع أيضاً ببخس الناس أشياءهم وأموالهم، وأخيراً يقع الفساد على الحيثيات بالإعتداء على حرمتها وعلى النواميس وأرواح الناس.

إنّ الآيتين المتقدمتين تعكسان هذه الواقعية بجلاء، وهى أنّه بعد الإعتقاد بالتوحيد والنظر الفكرى الصحيح، يُنظر إلى الاقتصاد السليم بأهمية خاصة، كما تدلّان على أنّ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۵

الإخلال بالنظام الاقتصادى سيكون أساساً للفساد الوسيع فى المجتمع.

ثم يخبرهم أنّ زيادة الثروة- التى تصل إلى أيديكم عن طريق الظلم واستثمار الآخرين- ليست هى السبب فى غناكم، بل ما يغنيكم

هو «بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».

التعبير ب «بقيت اللّه» إمّا لأنّ الربح الحلال القليل المترشح عن أمر اللّه فهو «بقيت اللّه» وإمّا لأنّ الحصول على الرزق الحلال باعث على دوام نعم اللّه وبقاء البركات ... وإمّا لأنّه يشير إلى الجزاء والثواب المعنوى الذى يبقى إلى الأبد.

وقد قلنا مراراً إنّ آيات القرآن بالرغم من نزولها فى موارد خاصة، إلّاأنّها تحمل مفاهيم جامعة وكلية، بحيث يمكن أن يكون لها مصداق فى العصور والقرون التالية وتنطبق على مجال أوسع أيضاً.

صحيح أنّ المخاطبين فى الآية المتقدمة هم قوم شعيب، والمراد من (بقيت اللّه) هو الربح ورأس المال الحلال أو الثواب الإلهى، إلّاأنّ كل موجود نافع باق من قبل اللّه للبشرية، ويكون أساس سعادتها وخيرها يعدّ (بقيت اللّه) أيضاً.

ومن هنا فإنّ «المهدى الموعود عليه السلام» آخر إمام وأعظم قائد ثورى بعد النبى صلى الله عليه و آله من أجلى مصاديق (بقيت اللّه) وهو أجدر من غيره بهذا اللقب، خاصة أنّه الوحيد الذى بقى بعد الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

وفى نهاية الآية- محل البحث- نقرأ على لسان شعيب: «وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ». إذ وظيفته هى البلاغ وليس مسؤولًا على «إجبار» أحد أبداً.

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَ صَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (۸۷) قَالَ يَا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَ مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ مَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (۸۸) وَ يَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَ مَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (۸۹) وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (۹۰)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۶

المنطق الواهى: والآن فلنَر ما كان ردّ القوم اللجوجين إزاء نداء هذا المصلح السماوى «شعيب». فبما إنّهم كانوا يتصورون أنّ عبادة الأصنام من آثار سلفهم الصالح، ودلالة على أصالة ثقافتهم، وكانوا لا يرفعون اليد عن الغش فى المعاملة وتحقيق الربح الوفير عن هذا الطريق قالوا: «يَا شُعَيْبُ أَصَلَوتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا». ونترك حريتنا فى التصرف بأموالنا فلا نستطيع الاستفادة منها «أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا نَشؤُا». إنّ هذا بعيد منك «إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ».

لقد كان قوم شعيب واقعين فى مثل هذا الخطأ حيث كانوا يتصورون أنّه من الخطأ القول بتحديد التصرف بالأموال من قِبَل مالكيها، فى حين يجب أن تكون الامور المالية تحت ضوابط صحيحة ومحسوبة كما عرضها الأنبياء على الناس، وإلّا فستجرّ الحرية المطلقة المجتمع نحو الانحراف والفساد.

وعلى كل حال هؤلاء الأغنياء فلعلهم كانوا يتصورون متساءلين: إنّ هذه الأذكار والأدعية ما عسى أن تؤثر فى هذه الامور؟ على حين لو كان اولئك يفكرون جيداً لأدركوا هذا الأمر الواقعى وهو أنّ الصلاة توقظ فى الإنسان الإحساس بالمسؤولية والتقوى ومخافة اللّه ومعرفة الحقوق، وتذكره باللّه وبمحكمة عدل اللّه، ولذلك فهى تخلّصه من الشرك وعبادة الأصنام والتقليد الأعمى للسلف الجاهل وبخس الناس أشياءهم، وعن أنواع الغش والخداع ... الخ.

ولكن شعيباً ردّ على من اتّهمه بالسفه وقلة العقل بكلام متين و «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا».

ثمّ يضيف هذا النبى العظيم قائلًا: «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهكُمْ عَنْهُ». فلا تتصوروا أنّنى أقول لكم لا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تنقصوا المكيال، وأنا أبخس الناس أو أنقص المكيال، أو أقول لكم لا تعبدوا الأوثان وأنا أفعل ذلك كله، كلا فإنّنى لا أفعل شيئاً من ذلك أبداً.

ويستفاد من هذه الجملة أنّهم كانوا يتهمون شعيباً بأنّه كان يريد الربح لنفسه، ولهذا فهو ينفى هذا الموضوع صراحةً ويقول تعقيباً على ما سبق «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَحَ مَا اسْتَطَعْتُ».

وهذا هو هدف الأنبياء جميعاً، حيث كانوا يسعون إلى إصلاح العقيدة، وإصلاح الأخلاق، وإصلاح العمل، وإصلاح العلائق والروابط الاجتماعية وأنظمتها «وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۷

بِاللَّهِ» للوصول إلى هذا الهدف.

وعلى هذا فإنّنى، ولأجل أداء رسالتى والوصول إلى هذا الهدف الكبير «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ».

وأسعى للإستعانة به على حل المشاكل، وأتوكل عليه فى تحمّل الشدائد فى هذا الطريق، وأعوذ إليه أيضاً.

ثم ينبههم إلى مسألة أخلاقية، وهى أنّه كثيراً ما يحدث للإنسان أنّه لا يعرف مصالحه وينسى مصيره، وذلك بسبب بغضه وعدائه بالنسبة لشخص آخر أو التعصب الأعمى واللجاجة فى شىء ما، فيقول لهم «وَيَا قَوْمِ لَايَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى» فتبتلوا بما ابتلى به غيركم و «أن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صلِحٍ» وما حدث لقوم لوط من البلاء العظيم حيث أمطرهم اللَّه بحجارة من سجيل منضود وقلب مدنهم فجعل عاليها سافلها «وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ».

و «مدين»: التى كانت موطن شعيب لم تكن بعيدة عن موطن قوم لوط، لأنّ الموطنين كلاهما كانا من مناطق «الشامات» وأمّا من الناحية العملية فالفرق كبير بين الانحراف الجنسى الذى كان عليه قوم لوط والانحراف الاقتصادى الذى كان عليه قوم شعيب، لكن كليهما يتشابهان فى توليد الفساد فى المجتمع والإخلال بالنظام الاجتماعى وإماتة الفضائل الخُلقية وإشاعة الانحراف.

ثم يأمر شعيب قومه الضالين بشيئين هما ما كان يؤكّد عليه جميع الأنبياء المتقدمين.

الأوّل: قوله: «وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ». أى لتطهروا من الذنوب وتجتنبوا الشرك وعبادة الأوثان والخيانة فى المعاملات. والثانى: قوله: «ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» أى ارجعوا إليه.

والواقع أنّ الاستغفار توقف فى مسير الذنب وغسل النفس، والتوبة عودة إلى اللَّه الكمال المطلق.

واعلموا أنّه مهما يكن الذنب عظيماً والوزر ثقيلًا فإنّ طريق العودة إليه تعالى مفتوح وذلك لأنّ «رَبِّى رَّحِيمٌ وَدُودٌ».

«الودود»: صيغة مبالغة مشتقة من الود ومعناه المحبة، وذكر هذه الكلمة بعد كلمة «رحيم» إشارة إلى أنّ اللَّه يلتفت بحكم رحمته إلى المذنبين التائبين، بل هو إضافة إلى ذلك يحبّهم كثيراً لأنّ رحمته ومحبّته هما الدافع لقبول الاستغفار وتوبة العباد.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۸

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَ لَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (۹۱) قَالَ يَا قَوْمِ أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۹۲) وَ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ (۹۳) التهديدات المتبادلة بين شعيب وقومه: إنّ شعيباً هذا النبى العظيم- الذى لُقّب بخطيب الأنبياء «۱» لخطبه المعروفة والواضحة، والتى كانت أفضل شاهد أمين للحياة المادية والمعنوية لهذه الجماعة- واصل محاججته لقومه بالصبر والأناة والقلب المحترق، ولكن تعالوا لنرى كيف ردّ عليه هؤلاء القوم الضالون؟!

لقد أجابوه بأربع جمل كلها تحكى عن جهلهم ولجاجتهم:

فأوّلها: أنّهم قالوا: «يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ».

والثانية: قولهم «وَإِنَّا لَنَرَيكَ فِينَا ضَعِيفًا».

والثالثة: هى أنّه لا تظنّ أنّنا نتردد فى القضاء عليك بأبشع صورة خوفاً منك ومن بأسك، ولكن احترامنا لعشيرتك هو الذى يمنعنا من ذلك «وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنكَ».

«الرهط»: تطلق فى لغة العرب على الجماعة التى مجموع أنصارها ثلاثة إلى سبعة، أو عشرة، أو على قول- وهو الحد الأكثر- تطلق على أربعين نفراً.

وهم يشيرون بذلك إلى أنّ قبيلتك تتمتع بالقوة الكافية مقابل قوتنا، ولكن تمنعنا أمور اخرى.

وقولهم الأخير: «وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» فمهما كانت منزلتك فى عشيرتك، ومهما كنت كبيراً فى قبيلتك إلّاأنّه لا منزلة لك عندنا لسلوكك المخالف والمرفوض.

ولكن شعيباً دون أن يتأثر بكلماتهم الرخيصة واتهاماتهم الواهية أجابهم بمنطقه العذب وبيانه الشائق متعجباً وقال: «يَا قَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ» أفتذروني من أجل

---

(۱) بحار الأنوار ۱۲/ ۳۸۷.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۱۹

رهطى وقبيلتى التى لا تتجاوز عدّة أنفار ولا تصغون لكلامى فى اللّه؟ وهل يمكن أن نقارن عدة أفراد بعظمة اللّه سبحانه ... وأنتم لم تهابوه وتوقّروه «وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا».

وفى الختام يقول لهم: لا تظنوا أنّ اللّه غافل عنكم أو أنّه لا يرى أعمالكم ولا يسمع كلامكم، بل «إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ».

فحيث أنّ المشركين من قوم شعيب هددوهُ فى آخر كلامهم بالرجم، وأبرزوا قوتهم أمامه، كان موقف شعيب من تهديداتهم على النحو التالى: «وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ» «۱».

وَ لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (۹۴) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (۹۵) عاقبة المفسدين فى مدين: قرأنا فى قصص الأقوام السابقين مراراً، أنّ الأنبياء كانوا فى المرحلة الاولى يدعونهم إلى اللّه، وفى المرحلة التى بعدها حيث لم ينفع النصح للجماعة ينذرها نبيّها ويخوّفها من عذاب اللّه، وفى المرحلة الثالثه، تبدأ مرحلة التصفية وينزل العقاب. وفى شأن قوم شعيب- أى أهل مدين- وصل الأمر إلى المرحلة النهائية أيضاً، إذ يقول القرآن الكريم فيهم: «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ». «الصيحة»: معناها فى اللغة كل صوت عظيم، والقرآن الكريم يحكى عن هلاك أقوام متعددين بالصيحة السماوية، هذه الصيحة يحتمل أن تكون صاعقة من السماء أو ما شابهها.

ثم يعقّب القرآن فيقول: «فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ». أى: أجساداً هامدة بلا روح، لتبقى أجسادهم هناك عبرة لمن اعتبر ...

وهكذا طُوى سجلّ وطومار حياتهم «كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا». وانطفأ بريق كل شىء، فلا ثروة ولا قصور ولا ظلم ولا زينة كل ذلك تلاشى وانعدم.

وكما كانت نهاية عاد وثمود- وقد حكى عنهما القرآن- فهو يقول عن نهاية مدين أيضاً

---

(۱) «الرقيب»: معناه الحافظ والمراقب وهو مشتق فى الأصل من الرقبة وإنّما سُمّى بذلك لأنّه يكون حافظاً على رقبة شخص ما «كناية عن أنّه مراقب على روحه» أو يحرك الرقبة ليؤدّى دور الرقابة والحفظ.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۰

مختصر الامثل ج۲ ۴۴۹

«أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ». والمقصود من كلمة «مدين» أهل مدين الذين كانوا بعيدين عن رحمة اللّه وكانوا من الهالكين.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ (۹۶) إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ مَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (۹۷) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (۹۸) وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (۹۹) البطل المبارز لفرعون: بعد انتهاء

قصّة شعيب وأهل مدين، يُشير القرآن الكريم إلى زاوية من قصة موسى ومواجهته لفرعون وهذه القصة هى القصة السابعة من قصص الأنبياء فى هذه السورة. تحدث القرآن الكريم عن قصة موسى عليه السلام وفرعون وبنى اسرائيل أكثر من مائة مرّة. وخصوصية قصة موسى عليه السلام بالنسبة لقصص الأنبياء- كشعيب وصالح وهود ولوط عليهم السلام التى قرأناها فى ما سبق- هى أنّ اولئك الأنبياء عليهم السلام واجهوا الأقوام الضالين، لكن موسى عليه السلام واجه إضافة إلى ذلك حكومة «ديكتاتور» طاغ مستبد هو فرعون الجبار. ولكن ينبغى الإلتفات إلى أنّنا نقرأ فى هذا القسم من قصة موسى زاوية صغيرة فحسب ولكنها فى الوقت ذاته تحمل رسالة كبيرة للناس جميعاً. يقول القرآن الكريم أوّلًا:

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بَايَاتِنَا وَسُلْطنٍ مُّبِينٍ».

«السلطان»: بمعنى التسلط، يستعمل تارةً فى السلطة الظاهرية، وأحياناً فى السلطة المنطقية، السلطة التى تحاصر المخالف فى طريق مسدود بحيث لا يجد طريقاً للفرار.

ويبدو فى الآية المتقدمة أنّ «السلطان» استعمل فى المعنى الثانى، والمراد ب «الآيات» هى معاجز موسى الجليلة.

إنّ موسى ارسل بتلك المعجزات القاصمة وذلك المنطق القوى «إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ».

«الملأ»: تُطلق على الذين يملأ مظهرهم العيون بالرغم من خلوّ المحتوى الداخلى، وفى منطق القرآن تطلق هذه الكلمة غالباً على الوجوه والأشراف والأعيان الذين يحيطون بالمستكبرين وبالقوى الظالمة ... إلّاأنّ جماعة فرعون الذين وجدوا منافعهم مهددة بالخطر بسبب دعوة موسى، فإنّهم لم يكونوا مستعدين للاستجابة ... لمنطقه الحق ومعجزاته

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۱

«فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ». ولكن فرعون ليس من شأنه هداية الناس إلى الحياة السعيدة أوضمان نجاتهم وتكاملهم: «وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ».

ويوم الحشر حين يأتى الناس عرصات القيامة فإنّ زعماؤهم وقادتهم فى الدنيا هم الذين سيقودوهم هناك حين يُرى فرعون هناك: «يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيمَةِ» وبدلًا من أن ينقذهم ويخلصهم من حرارة المحشر وعطشه يوصلهم إلى جهنم «فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ». فبدلًا من أن يسكن عطش أتباعه هناك يحرق وجودهم وبدلًا من الإرواء يزيدهم ظمأ إلى ظمأ.

ثم يقول القرآن: «وَأُتْبِعُوا فِى هذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيمَةِ». فأسماؤهم الذليلة تثبت على صفحات التاريخ أبداً على أنّهم قوم ضالون وجبابرة، فقد خسروا الدنيا والآخرة وساءت النار لهم عطاء وجزاءً «بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ».

«الرفد»: فى الأصل معناه الإعانة على القيام بعمل معين، ثمّ أطلقت هذه الكلمة على العطاء لأنّه إعانة من قِبَل المُعطى إلى المُعطى له.

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَ حَصِيدٌ (۱۰۰) وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِى يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ مَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (۱۰۱) وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَ هِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (۱۰۲) إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (۱۰۳) وَ مَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (۱۰۴) فى آيات هذه السورة تبيان لقصص سبعة أقوام من الأقوام السابقين ولمحات من تاريخ أنبيائهم، وهنا إشارة إلى جميع تلك القصص، فيتحدث القرآن عن صورة مستجمعة لما مرّ من الحوادث والأنباء حيث يقول: «ذلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ».

«قائم»: تشير إلى المدن والعمارات التى لا تزال باقية من الأقوام السابقين.

«حصيد»: معناها اللغوى قطع النباتات بالمنجل، وفى هذه الكلمة إشارة إلى بعض

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۲

الأراضى البائرة، كأرض قوم نوح وأرض قوم لوط، حيث إنّ واحدة منهما دمرها الغرق والثانية امطرت بالحجارة. «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ» حيث ركنوا ولجأوا إلى الأصنام والآلهة «المزعومة» «فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا

جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ» بل زادوهم ضرراً وخسراناً «وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ» «١».

«وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ» فلا يدعها على حالها و «إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ».

هذا قانون إلهى عام ومنهج دائم، فما من قوم أو امة من الناس يتجاوزون حدود اللَّه ويمدون أيديهم للظلم ولا يكترثون لنصائح أنبيائهم ومواعظهم، إلّاأخذهم اللَّه أخذاً شديداً واعتصرتهم قبضة العذاب.

وبالطبع فإنّ الظلم بمعناه الواسع يشمل جميع الذنوب، ووصِفت القرية أو المدينةُ بأنّها «ظالمة» مع أنّ الوصف ينبغى أن يكون لساكنيها، فكأنّما هناك مسألة دقيقة وهى أنّ أهل هذه المدينة انغمسوا فى الظلم إلى درجة حتى كأنّ المدينة أصبحت مغموسة فى الظلم أيضاً.

وبما إنّ هذا قانون كلى فإنّ القرآن يقول مباشرة: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ». لأنّ الدنيا لا تعدّ شيئاً إزاء الآخرة، وجميع ما فى الدنيا حقير حتى ثوابها وعقابها، والعالم الآخر أوسع- من جميع النواحى- من هذه الدنيا، فالمؤمنون بيوم القيامة ينظرون بعين العبرة لدى مشاهدة هذه المُثُل والنماذج فى الدنيا، ويواصلون طريقهم.

وفى ختام الآية إشارة إلى وصفين من أوصاف يوم القيامة حيث يقول القرآن: «ذلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ».

هى إشارة إلى أنّ القوانين والسنن الإلهية كما هى عامّة فى هذا العالم، فإنّ اجتماع الناس فى تلك المحكمة الإلهية أيضاً عام.

وبما أنّ البعض قد يتوهم أنّ الحديث عن ذلك اليوم لم يحن أجله فهو نسيئة وغير معلوم وقت حلوله، لهذا فإنّ القرآن يقول مباشرة: «وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ».

وذلك أيضاً لمصلحة واضحة جليّة ليرى الناس ميادين الاختبار والتعلم، وليتجلى آخر منهج للأنبياء.

---

(١) «التتبيب»: مشتق من مادة «تبّ» ومعناه الاستمرار فى الضرر، وقد يأتى بمعنى الهلاك أيضاً.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٤٢٣

والتعبير بكلمة «معدود» إشارة إلى قرب يوم القيامة، لأنّ كل شىء يقع تحت العدّ والحساب فهو محدود وقريب.

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) السعادة والشقاوة: أشير فى الآيات المتقدمة إلى مسألة القيامة واجتماع الناس كلهم فى تلك المحكمة العظيمة ... وهذه الآيات- محل البحث- بيّنت زاوية من عواقب الناس ومصيرهم فى ذلك اليوم، إذ تقول الآيات أوّلًا: «يَوْمَ يَأْتِ لَاتَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ».

إنّ الناس يقطعون فى ذلك اليوم مراحل مختلفة ... وكل مرحلة لها خصوصياتها، ففى قسم من المراحل لا يُسألون أبداً حتى أنّ أفواههم يُختم عليها فلا يتكلمون، وإنّما تنطق أعضاء أجسادهم التى حفظت آثار أعمالها بلغة من دون لسان، وفى المراحل الاخرى يرفع الختم أو القفل عن أفواههم ويتكلمون بإذن اللَّه فيعترفون بأخطائهم وذنوبهم ويلوم المخطئون بعضهم بعضاً، بل يحاولون أن يُلقوا تبعات أوزارهم على غيرهم.

ويشار فى نهاية الآية إلى تقسيم الناس جميعاً إلى طائفتين: طائفة محظوظة، واخرى بائسة تعيسة «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ». وليس هذا الشقاء وتلك السعادة سوى نتيجة الأعمال والأقوال والنيّات التى سلفت من الإنسان فى الدنيا.

ثم تشرح الآيات حالات السعداء والأشقياء حيث تقول: «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ». وتضيف حاكية عن حالهم أيضاً: «خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّموَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ* وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّموَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ».

الطريف أنّ لفظ «شقوا» فى الآيات المتقدمة ورد بصيغة المبنى للمعلوم، ولفظ «سعدوا» ورد بصيغة المبنى للمجهول، ولعل فى هذا الاختلاف فى التعبير إشارة لطيفة إلى هذه المسألة الدقيقة، وهى أنّ الإنسان يطوى طريق الشقاء بخطاه، ولكن لابد لطىّ طريق السعادة من

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۴

الإمداد والعون الإلهى، وإلّا فإنّه لا يوفّق فى مسيره، ولا شك أنّ هذا الإمداد والعون يشمل اولئك الذين يخطون خطواتهم الاولى بإرادتهم واختيارهم فحسب وكانت فيهم اللياقة والجدارة لهذا الإمداد. (فلاحظوا بدقة).

بحثان

۱- مسألة الخلود فى القرآن: معنى «الخلود» لغة البقاء الطويل، كما جاء بمعنى الأبد أيضاً، فكلمة «الخلود» لا تعنى الأبد وحده لأنّه تشمل كل بقاء طويل. ولكن ذُكرت فى كثير من آيات القرآن مع قيود يفهم منها معنى الأبد، فمثلًا فى الآية (۱۰۰) من سورة التوبة، والآية (۱۱) من سورة الطلاق، والآية (۹) من سورة التغابن، حين تذكر هذه الآيات أهل الجنّة تأتى بالتعبير عنهم «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا» ومفهومها أبدية الجنة لهؤلاء، ونقرأ فى آيات القرآن الاخرى وصف أهل النار كالآية (۱۶۹) من سورة النساء، والآية (۲۳) من سورة الجن هذا التعبير أيضاً «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا» وهو دليل على عذابهم الأبدى.

وتعبيرات اخرى مثل الآية (۳) من سورة الكهف «مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا» والآية (۱۰۸) من سورة الكهف أيضاً: «لَايَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا» وأمثالها تدل بصورة قطعية على أنّ طائفة من أهل الجنة وطائفة من أهل النار سيبقون فى العذاب أو النعمة.

فالآيات- محل البحث- أيضاً تبيّن الدوام.

۲- أسباب السعادة والشقاء: السعادة ضالة كل الناس، وهى توفّر أسباب تكامل الفرد فى المجتمع، والنقطة المقابلة لها هى الشقاء وهو عبارة عن عدم مساعدة الظروف للنجاح والتقدم والتكامل. ولكن ينبغى الإلتفات إلى أنّ أساس السعادة أو الشقاء هو إرادة الإنسان نفسه، فهو يستطيع أن يوفر الوسائل لترشيد نفسه وحتى مجتمعه، وهو الذى يستطيع أن يواجه عوامل الشقاء ويهزمها أو يستسلم لها.

وليس الشقاء أو السعادة فى منطق الوحى ومدرسة الأنبياء شيئاً من ذات الإنسان وحتى النواقص فى المحيط والعائلة والوراثة كل ذلك قابل للتغيير بتصميم الإنسان وإرادته إلّا أن ننكر أصل الإرادة فى الإنسان وحريته، ونعدّه محكوماً بالظروف الجبرية، وكل من سعادته أو شقائه ذاتى أو هو نتيجة جبرية لمحيطه، وما إلى ذلك.

وهذا الرأى مرفوض فى نظر الأنبياء وفى نظر المذهب العقلى أيضاً.

الطريف أنّنا نجد فى الرّوايات المنقولة عن النبى صلى الله عليه و آله وأهل البيت عليهم السلام إشارات إلى مسائل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۵

مختلفة على أنّها أسباب السعادة، أو أسباب الشقاء ... بحيث يتعرف الإنسان خلال مطالعتها على طريقة التفكير الإسلامى فى هذه المسألة المهمّة، وسيقفُ على الواقعيات العينية وأسباب السعادة الحقيقية.

فى كتاب الخصال عن الإمام الصادق عليه السلام عن جدّه أميرالمؤمنين على عليه السلام أنّه قال: «حقيقة السعادة أن يختم للرجل عمله بالسعادة، وحقيقة الشقاوة أن يختم للمرء عمله بالشقاوة».

ويقول نبى الخاتم صلى الله عليه و آله أيضاً: «أربع من السعادة وأربع من الشقاوة، فالأربع التى من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب البهىّ. والأربع التى من الشقاوة: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق، والمركب السوء» (۱).

وإذا لاحظنا أسباب السعادة والشقاوة فى الأحاديث المتقدمة وحقيقتهما وأثرهما البالغ فى حياة البشر، وقارنّاهما مع الأسباب والمسائل الخرافية التى يعتقد بها جمع كثير- حتى فى عصرنا- لوصلنا إلى هذا الواقع الذى يؤكّد أنّ التعاليم الإسلامية منطقية ومدروسة إلى

أقصی حد.

فَلَا تَکُ فِی مِرْیَةٍ مِمَّا یَعْبُدُ هؤُلَاءِ مَا یَعْبُدُونَ إِلَّا کَمَا یَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِیبَهُمْ غَیْرَ مَنْقُوصٍ (۱۰۹) وَ لَقَدْ آتَیْنَا مُوسَی الْکِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِیهِ وَ لَوْ لَا کَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّکَ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِی شَکٍّ مِنْهُ مُرِیبٍ (۱۱۰) وَ إِنَّ کُلًّا لَمَّا لَیُوَفِّیَنَّهُمْ رَبُّکَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا یَعْمَلُونَ خَبِیرٌ (۱۱۱) فَاسْتَقِمْ کَمَا أُمِرْتَ وَ مَنْ تَابَ مَعَکَ وَ لَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (۱۱۲) الاستقامة والثبات: هذه الآیات بمثابة تسلیة لخاطر النبی صلی الله علیه و آله کما أنّها نازلة لبیان وظیفته ومسؤولیته، وفی الواقع إنّ من أهم النتائج التی یُتوصل إلیها من القصص السابقة للُامم الماضیة هی أن لا یکترث النبی ومن معه من أتباعه المؤمنون حقاً من کثرة الأعداء، ولا یخافوا منهم، ولا یشکّوا أو یتردّدوا فی هزیمة عبدة الأصنام والظالمین الذی یقفون بوجوههم، وأن یواصلوا طریقهم ویعتمدوا علی اللَّه واثقین به. لذلک یقول القرآن الکریم فی

---

(۱) بحار الأنوار ۷۳/ ۱۵۴/ ۳۴.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۶

هذا الصدد: «فَلَا تَکُ فِی مِرْیةٍ مِّمَّا یَعْبُدُ هؤُلَاءِ مَا یَعْبُدُونَ إِلَّا کَمَا یَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ» «۱».

ویقول بعدها مباشرة: «وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِیبَهُمْ غَیْرَ مَنقُوصٍ». إنّ هذه الآیة تجسّم هذه الحقیقة، وهی أنّ ما قرأناه من قصص الامم السابقة لم یکن أسطورة، کما أنّها لا تختص بالماضین، فهی سنّة أبدیة وخالدة وهی لجمیع الناس ماضیاً وحاضراً ومستقبلًا.

ویسلّی القرآن قلب النبی صلی الله علیه و آله مرّة اخری، فیحدّثه عن موسی وقومه قائلًا: «وَلَقَدْ ءَاتَیْنَا مُوسَی الْکِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِیهِ».

ویقول إذا ما رأیت أنّ اللَّه لا یعجل العذاب علی قومک، فلأنّ مصلحة الهدایة والتعلیم والتربیة لقومک توجب ذلک وإلّا فإنّ القرار الالهی المسبق یقتضی التعجیل بعملیة التحکیم والقضاء وبالتالی إنزال العقاب «وَلَوْلَا کَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّکَ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِی شَکٍّ مِّنْهُ مُرِیبٍ».

«مریب»: مشتقة من «الریب» ومعناه الشک المقترن بسوء الظن والنظرة السیئة والقرائن المخالفة، وعلی هذا فیکون مفهوم هذه الکلمة أنّ عبدة الأصنام ما کانوا یترددون فی مسألة حقیقة القرآن أو نزول العذاب علی المفسدین فحسب، بل کانوا یدّعون بأنّ لدیهم قرائن تخالف ذلک أیضاً.

ویضیف القرآن لمزید التأکید: «وَإِنَّ کُلًّا لَّمَّا لَیُوَفِّیَنَّهُمْ رَبُّکَ أَعْمَالَهُمْ». وهذا الأمر لیس فیه صعوبة علی اللَّه ولا- حرج إذ: «إِنَّهُ بِمَا یَعْمَلُونَ خَبِیرٌ».

الطریف أنّ القرآن یقول: «لَیُوَفِّیَنَّهُمْ رَبُّکَ أَعْمَالَهُمْ» لیشیر مرّة اخری إلی مسألة تجسم الأعمال وأنّ الجزاء والثواب هما فی الحقیقة أعمال الإنسان نفسه التی تتخذ شکلًا آخر وتصل إلیه ثانیة.

وبعد ذکر قصص الأنبیاء والأمم السابقة ورمز نجاحهم ونصرهم، وبعد تسلیة قلب النبی صلی الله علیه و آله وتقویة إرادته، یبیّن القرآن- عن هذا الطریق- أهمّ دُستور امر به النبی صلی الله علیه و آله وهو «فَاسْتَقِمْ کَمَا أُمِرْتَ».

«استقم» فی طریق الإرشاد والتبلیغ وأداء الوظائف الإلهیة ونشر التعلیمات القرآنیة.

ولکن هذه الإستقامة لیست لینال فلان أو فلان مستقبلًا زاهراً، بل هی لمجرد طاعة اللَّه

---

(۱) «المِریة»: معناها التردد فی التصمیم علی أمر ما ....

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۷

واتّباع أمره. کما أنّ هذه الإستقامه لیست علیک وحدک، فعلیک أن تستقیم أنت «وَمَن تَابَ مَعَکَ» استقامة خالیة من کل زیادة

ونقصان وإفراط أو تفريط «وَلَا تَطْغَوْا» إذ «إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» ولا تخفى عليه حركة ولا قول ولا أى خطة اخرى ... الخ.

المسؤولية الكبيرة: فى تفسير الدرّ المنثور عن ابن عباس أنّ الصحابة قالوا يا رسول اللّه لقد أسرع إليك الشيب؟ قال: «أجل، شيبتنى هود وأخواتها».

وفى رواية اخرى أنّ النبى صلى الله عليه و آله لما نزلت هذه الآية قال: «شمّروا شمّروا فما رُئى ضاحكاً».

والدليل واضح، لأنّ أربعة أوامر مهمة موجودة فى هذه الآية يلقى كل واحد منها عبئاً ثقيلًا على الكتف.

واليوم مسؤوليتنا المهمة- نحن المسلمين أيضاً، وبالخصوص قادة الإسلام- تتلخص فى هذه الكلمات الأربعة. وهى: الاستقامة، والإخلاص، وقيادة المؤمنين، وعدم الطغيان والتجاوز. ودون ربط هذه الامور بعضها إلى بعض فإنّ النصر على الأعداء الذين أحاطونا من كل جانب من الداخل والخارج، واستفادوا من جميع الأساليب الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ... هذا النصر لايكون سوى أوهام فى مخيلة المسلمين.

وَ لَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (۱۱۳) الركون إلى الظالمين: إنّ هذه الآية تبيّن واحداً من أقوى وأهم الاسس والبرامج الاجتماعية والسياسية والعسكرية والعقائدية، فتخاطب عامة المسلمين ليؤدوا وظيفتهم القطعية فتقول: «وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» (۱). والسبب واضح «فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ» ومعلوم عندئذ حالكم «ثُمَّ لَاتُنصَرُونَ».

فى أى الامور لا ينبغى الركون إلى الظالمين؟ بديهى أنّه فى الدرجة الاولى لا يصح الإشتراك معهم فى الظلم أو طلب الإعانة منهم، وبالدرجة الثانية الاعتماد عليهم فيما يكون فيه ضعف المجتمع الإسلامى وسلب استقلاله واعتماده على نفسه وتبديله إلى مجتمع تابع

---

(۱) «الركون»: مشتق من مادة «رُكن» ومعناه العمود الضخم من الحجر أو الجدار الذى يربط البناء أو الأشياءالاخرى بعضها إلى بعض، ثمّ اطلق هذا اللفظ على الإعتماد أو الاستناد إلى الشىء.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۸

وضعيف لا يستحق الحياة، لأنّ هذا الركون ليس فيه نتيجة سوى الهزيمة والتبعية للمجتمع الإسلامى. وأمّا ما نلاحظه أحياناً من مسائل التبادل التجارى والروابط العلمية بين المسلمين والمجتمعات غير الإسلامية على أساس حفظ منافع المسلمين واستقلال المجتمعات الإسلامية وثباتها، فهذا ليس داخلًا فى مفهوم الركون إلى الظالمين ولم يكن شيئاً ممنوعاً من وجهة نظر الإسلام، وفى عصر النبى نفسه صلى الله عليه و آله والأعصار التى تلته كانت هذه الامور موجودة وطبيعية أيضاً.

وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (۱۱۴) وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۱۱۵) الصلاة والصبر: هذه الآيات تشير إلى أمرين من أهمّ الأوامر الإسلامية، وهما فى الواقع روح الإيمان وقاعدة الإسلام، فيأتى الأمر أوّلًا بالصلاة: «وَأَقِمِ الصَّلَوةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ».

وظاهر التعبير من «طَرَفَيِ النَّهَارِ» هو بيان صلاة الصبح وصلاة المغرب اللتين يقعان طرفى النهار؛ و «الزلف»: جمع «زلفة» التى تعنى القرب، ويشار بها إلى أوّل الليل القريب من النهار فتنطبق على صلاة العشاء.

ولأهمية الصلوات اليومية- خاصة- وجميع العبادات والطاعات والحسنات- عموماً- فإنّ القرآن يشير بهذا التعبير: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ».

والآية آنفة الذكر كسائر آيات القرآن تبيّن تأثير الأعمال الصالحة فى محو أثر الأعمال السيئة.

العمل الصالح الصادر من الهدف الإلهى يهب روح الإنسان لطافةً بامكانها أن تغسل آثار الذنوب وأن تبدّل ظلمات نفسه إلى أنوار.

الأهمية القصوى للصلاة: تلاحظ فى الرّوايات المتعددة المنقولة عن النبى صلى الله عليه و آله والأئمة الطاهرين عليهم السلام تعبيرات

تكشف عن الأهمية الكبرى للصلاة فى نظر الإسلام. فى تفسير مجمع البيان عن على بن أبى طالب عليه السلام أنّه قال: «كنّا مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى المسجد، ننتظر الصلاة فقام رجل فقال: يا رسول اللَّه إنّى أصبت ذنباً. فأعرض عنه، فلمّا قضى النبى صلى الله عليه و آله الصلاة قام الرجل فأعاد القول، فقال النبى صلى الله عليه و آله: أليس قد صلّيت معنا هذه الصلاة، وأحسنت لها الطهور؟ قال بلى. قال: فإنّها كفارة ذنبك».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۲۹

متى ما أدّيت الصلاة بشرائطها فإنّها تنقل الإنسان إلى عالم من المعنوية والروحانية بحيث توثق علائقه الإيمانية باللَّه، وتغسل عن قلبه وروحه الأدران وآثار الذنوب.

الصلاة تجير الإنسان من الذنب، وتجلو صدأ القلوب.

الصلاة تجذّر الملكات السامية للإنسان فى أعماق الروح البشرية، والصلاة تقوى الإرادة وتطهر القلب والروح، وبهذا الترتيب فإن الصلاة الواعية الفاعلة هى مذهب تربوى عظيم.

وتعقيباً على تأثير الصلاة فى بناء شخصية الإنسان وبيان تأثير الحسنات على محو السيئات، يأتى الأمر بالصبر فى الآية الاخرى بعدها: «وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ». ومعنى ذلك أنّ العمل الصالح لا يتيسر دون صبر ومقاومة.

إنّ «الصبر» فى هذه الآية يشمل كل أنواع الصبر أمام المشاكل والمخالفات والأذى والطغيان والمصائب المختلفة، فالصمود أمام جميع هذه الحوادث يندرج تحت مفهوم الصبر.

«الصبر» أصل كلى وأساس إسلامى، يأتى أحياناً فى القرآن مقروناً بالصلاة، ولعل ذلك آت من أنّ الصلاة تبعث فى الإنسان الحركة، والأمر بالصبر يوجد المقاومة، وهذان الأمران، أى «الحركة والمقاومة» حين يكونان جنباً إلى جنب يثمران كل اشكال النجاح والموفقية.

فَلَوْ لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كَانُوا مُجْرِمِينَ (۱۱۶) وَ مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (۱۱۷) عامل الإنحراف والفساد فى المجتمعات: من أجل إكمال البحوث السابقة ذكر فى هاتين الآيتين أصل أساسى اجتماعى يضمن نجاة المجتمعات من الفساد، وهو أنّه مادام هناك فى كل مجتمع طائفة من العلماء المسؤولين والملتزمين الذين يحاربون كل اشكال الفساد والانحراف، ويأخذون على عاتقهم قيادة المجتمع فكرياً وثقافياً ودينياً، فإنّ هذا المجتمع سيكون مصوناً من الزيغ والانحراف.

لكن متى ما سكت عن الحق أهله وحماته، وبقى المجتمع دون مدافع أمام عوامل الفساد، فإنّ انتشار الفساد ومن ورائه الهلاك أمر حتمى.

الآية الاولى أشارت إلى القرون والأمم المتقدمة الذين ابتلوا بأشد أنواع البلاء قائلة:

«فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الْأَرْضِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۰

إنّ أثر «أُولُوا بَقِيَّةٍ» فى بقاء المجتمع حساس للغاية، حتى يمكن القول: إنّ المجتمع من دون «اولى بقية» يُسلب حق الحياة، ومن هنا فقد وردت الإشارة إليهم فى الآية المتقدمة.

ثم تستثنى جماعة فتقول: «إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ».

هذه الجماعة القليلة وإن كانت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ولكنها كحال لوط عليه السلام واسرته الصغيرة، ونوح والمعدودين ممّن آمن به، وصالح وجماعة من أتباعه، فإنّهم كانوا قلّة لم توفق للإصلاح العام والكلى فى المجتمع. إنّ الظالمين الذين كانوا يشكلون القسم الأكبر من المجتمع اتبعوا لذاتهم وتنعمهم، وكما تقول الآية: «وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ». يعنى

متى كان المجتمع ظالماً ولكنه مقبل على اصلاح نفسه، فهذا المجتمع يبقى، ولكن إذا كان المجتمع ظالماً ولم يُقبل على نفسه فيصلحها أو يطهرها فإنّ مصيره إلى الفناء والهلاک.

فهذا التنعم والتلذذ غير المقيد وغير المشروط أساس الانحرافات فی المجتمعات المرفهة، لأنّ سكرها من شهواتها يصدها عن إعطاء القيم الإنسانية الأصيلة حقها ودرک الواقعيات الاجتماعية، ويغرقها فی العصيان والآثام.

وللتأكيد على هذه الحقيقة، تأتی الآية الثانية لتقول: إنّ هذا الذی ترون من إهلاک اللَّه للأمم، إنّما كان لعدم وجود المصلحين فيهم «وَمَا كَانَ رَبُّکَ لِيُهْلِکَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ».

وَ لَوْ شاءَ رَبُّکَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (۱۱۸) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّکَ وَ لِذلِکَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّکَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (۱۱۹) فی الآية الاولى محل البحث إشارة إلى واحدة من سنن الخلق والوجود والتی تمثّل اللبنات التحتية لسائر المسائل المرتبطة بالإنسان ... وهی مسألة الاختلاف والتفاوت فی بناء الإنسان روحاً وفكراً وجسماً وذوقاً وعشقاً، ومسألة حرية الإرادة والاختيار. تقول الآية: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّکَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ». لئلا يتصور أحد من الناس أنّ تأكيد اللَّه وإصراره على طاعة أمره دليل على عدم قدرته على أن يجعلهم فی سير واحد ومنهج واحد.

لكن مثل هذا الإيمان لا تكون فيه فائدة ولا فی مثل هذا الاتحاد ... فالإيمان القسری

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۱

الذی ينبع من هدف غير إرادی لا يكون علامة على شخصية الفرد ولا وسيلة للتكامل، ولا يوجب الثواب.

إلّا أنّ قيمة الإنسان وامتيازه وأهم ما يتفاوت فيه عن سائر الموجودات هی هذه الموهبة، وهی حرية الإرادة والاختيار، وكذلک امتلاک الأذواق والأطباع والأفكار المتفاوتة التی يصنع كل واحد منها قسماً من المجتمع ويؤمّن بُعداً من أبعاده.

ومن طرف آخر فإنّ الاختلاف فی انتخاب العقيدة والمذهب أمر طبيعی.

ولهذا يقول القرآن الكريم فی الآية الاخرى: «إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّکَ». ولكن هذه الرحمة الإلهية ليست خاصه بجماعة معينة، فالجميع يستطيعون «شريطة رغبتهم» أن يستفيدوا منها «وَلِذلِکَ خَلَقَهُمْ».

الأشخاص الذين يريدون أن يستظلوا برحمة اللَّه فإنّ الطريق مفتوح لهم ... الرحمة التی أفاضها اللَّه لجميع عباده عن طريق تشخيص العقل وهداية الأنبياء.

ومتى ما استفادوا من هذه الرحمة والموهبة، فإنّ أبواب الجنة والسعادة الدائمة تفتح بوجوههم، وإلّا فلا: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّکَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

إنّ هذا الأمر المحتوم فيه شرط واحد وهو الخروج من دائرة رحمة اللَّه، والتقهقر عن هداية الرسل والادلّاء من قِبله، وبهذا الترتيب.

وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْکَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَکَ وَ جاءَکَ فِی هذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (۱۲۰) وَ قُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ (۱۲۱) وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (۱۲۲) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ ما رَبُّکَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۱۲۳) أربع معطيات لقصص الماضين: بانتهاء هذه الآيات تنتهی سورة هود، وفی هذه الآيات استنتاج كلی لمجموع بحوث هذه السورة، وبما أنّ القسم الأهم من هذه السورة يتناول القصص التی تحمل العبر من سيرة الأنبياء والامم السابقة، فإنّ هذه القصص تعطی نتائج قيّمة ملخّصة فی أربعة مواضيع. تقول هذه الآيات أوّلًا: «وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْکَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَکَ». وكلمة «كُلًّا» إشارة إلى تنوع هذه القصص.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۲

ثم تشير الآية إلى النتيجة الكبرى الثانية فتقول الآيات: «وَجَآءَکَ فِی هذِهِ الْحَقُّ».

أمّا ثالث الآثار ورابعها اللذان يستلفتان النظر هما: «وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ».

إنّ هذه الآية تؤكّد مرّة اخرى أنّه لا ينبغى أن نعدّ قصص القرآن ملهاة أو يستفاد منها لإشغال السامعين، بل هى مجموعة من أحسن الدروس الحياتية فى جميع المجالات، وطريق رحب لجميع الناس فى الحاضر والمستقبل. ثم تخاطب الآيات النبى صلى الله عليه و آله وهو يواجه أعداءه الذين يؤذونه ويظهرون اللجاجة والعناد إن واصل الطريق: «وَقُل لِّلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ».

فستعلمون من الذى سينتصر، انتظروا هزيمتنا كما تزعمون انتظاراً غير مُجد، ونحن ننتظر العذاب من اللّه عليكم، وهو ما ستذقونه من قِبَلنا أو من قِبَل اللّه مباشرةً.

و آخر آية من هذه السورة تتحدث عن التوحيد كما تحدثت الآيات الاولى من هذه السورة عن التوحيد أيضاً.

هذه الآية تشير إلى ثلاث شعب من التوحيد: توحيد علم اللّه أوّلًا، فغيب السماوات والأرض خاص باللّه وهو المطلع عليها جميعاً «وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». أمّا سواه فعلمه محدود، وفى الوقت ذاته فإنّ هذا العلم ناشىء من التعليم الإلهى، فعلى هذا فإنّ العلم غير المحدود، والعلم الذاتى بالنسبة لجميع ما فى السماوات والأرض مخصوص بذات اللّه المقدسة.

ومن جهة ثانية فإنّ أزمّة جميع الأفعال مرهونة بقدرته «وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ». وهذه مرحلة توحيد الأفعال.

ثم تستنتج الآية أنّه إذا علمت أنّ الإحاطة والعلم غير المحدود والقدرة التى لا تنتهى ...

جميعها مخصوص بذات اللّه المقدّسة «فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ» وهذه مرحلة توحيد العبادة.

فينبغى اجتناب العصيان والعناد والطغيان «وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

بحثان

۱- علم الغيب خاص باللّه: إنّ الإطلاع على الأسرار الخفية أو الأسرار الماضية والآتية كله خاص باللّه ... والآيات المختلفة من القرآن تؤكّد هذه الحقيقة وتؤيدها أيضاً.

وإذا وجدنا فى قسم من آيات القرآن بيان أنّ الأنبياء قد يعلمون بعض الامور الغيبية،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۳

أو قرأنا فى بعض الآيات أو الروايات الكثيرة أنّ النبى صلى الله عليه و آله والإمام عليّاً والأئمة المعصومين عليهم السلام قد يخبرون عمّا يجرى فى المستقبل من حوادث ويبيّنون أسراراً خفية منها، فينبغى أن نعرف أنّ كل ذلك بتعليم اللّه سبحانه. فهو سبحانه حيث يجد المصلحة يطلع عباده وأولياءه على قسم من أسرار الغيب، ولكن هذا العلم لا هو علم ذاتى ولا غير محدود، بل هو من تعليم اللّه وهو محدود بمقدار ما يريده اللّه.

وليس الإطلاع على علم الغيب من قبل اللّه خاصاً بالأنبياء أو الأئمة فقد يطلع اللّه غير النبى والأئمة على غيبه أيضاً ... فنحن نقرأ فى قصة ام موسى فى الآية (۷) من سورة القصص أنّ اللّه قال لها: «وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

وقد يطلع اللّه لضرورة الحياة- أحياناً- الطيور والحيوانات على الأسرار الخفية وحتى على المستقبل البعيد نسبياً مما يصعب علينا تصوره وبهذا الترتيب قد تكون بعض المسائل التى نحسبها غيباً، هذه المسائل نفسها بالنسبة للطيور أو الحيوانات لا تعد من الغيب.

۲- العبادة للّهوحده: فى الآية المتقدمة دليل لطيف على أنّ العبادة للّهوحده، وهو أنّه لو كانت العبادة من أجل العظمة وصفات الجمال، والجلال فهذه الصفات قبل كل شىء موجودة فى اللّه، وأمّا الآخرون فلا شىء بالنسبة إليه، وأكبر دليل على عظمة اللّه علمه الواسع غير المحدود وقدرته اللامتناهية، وقد أشارت الآية الآنفة إلى أنّهما مختصان باللّه.

وإذا كانت العبادة لأجل الإلتجاء- فى حل المشاكل- إلى المعبود ... فإنّ مثل هذا العمل جدير بمن هو عليم بجميع حاجات العباد وأسرارهم الخفية. وما يغيب عليهم، وهو قادر على إجابة دعوتهم، وبالنتيجة فإنّ توحيد الصفات يكون سبباً لتوحيد العبادة (لاحظوا بدقة).

«نهاية تفسير سورة هود»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۵

۱۲. سورة يوسف

بداية سورة يوسف: قبل الدخول فى تفسير آيات هذه السورة ينبغى ذكر عدّة أمور:

۱- جميع آيات هذه السورة سوى الآيات القليلة التى تقع فى نهاية السورة تبيّن قصة نبى اللَّه يوسف عليه السلام. القصة الطريفة والجميلة والتى تحمل بين طيّاتها العِبَر، ولذلك سمّيت هذه السورة باسم «يوسف» وبهذه المناسبة- أيضاً- ورد ذكر يوسف- من مجموع (۲۷) مرة فى القرآن- (۲۵) مرّة فى هذه السورة ومرة واحدة فى سورة غافر الآية (۳۴) ومرة اخرى فى سورة الأنعام الآية (۸۴).

ومحتوى هذه السورة- على خلاف سور القرآن الاخرى- مرتبط بعضه ببعض ويبيّن جوانب مختلفة من قصة واحدة وردت فى أكثر من عشرة فصول، مع بيان أخاذ موجز، عميق، وطريف ومثير.

وبالرغم من أنّ القصّاصين غير الهادفين، أو من لهم اغراض رخيصة سعوا إلى أن يحوّلوا هذه القصة المهذبة إلى قصة عشق يحرك أهل الهوى والشهوة! وأن يمسخوا الوجه الواقعى ليوسف عليه السلام بحيث بلغت الحال أن يصوروا «فيلماً سينمائياً» وينشروه بصورة مبتذلة ... إلّا أنّ القرآن- وكل ما فيه أسوة وعبرة- عكس فى ثنايا هذه القصة أسمى دروس العفة وضبط النفس والتقوى والإيمان، حتى لو أنّ إنساناً قرأها عدة مرات فإنّه يتأثر- بدون اختيار- بأسلوبها الجذاب فى كل مرة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۳۶

ولذا فقد عبّر القرآن عنها ب «أَحْسَنَ الْقَصَصِ» وجعل فيها العبر للمعتبرين «أُولِي الْأَلْبابِ».

۲- التدقيق فى آيات هذه السورة يكشف هذه الحقيقة للإنسان، وهى أنّ القرآن معجز فى جميع أبعاده، لأنّ الأبطال الذين يقدمهم فى قصصه أبطال حقيقيّون لا خياليّون، وكل واحد فى نفسه منهم منعدم النظير:

فإبراهيم عليه السلام: البطل الذى حطّم الأصنام بروحه العالية التى لا تقبل المساومة مع الطغاة.

وموسى عليه السلام: البطل المربّى لقومه اللجوجين، والذى وقف بوجه فرعون المتكبر الطاغى.

ويوسف عليه السلام: بطل الورع والتقوى والطهارة ... أمام امرأة محتالة جميلة عاشقة.

بعد هذا كلّه تتجلّى القدرة البيانية للوحى القرآنى بصورةٍ تحيّر الإنسان، لأنّ هذه القصّة- كما نعرف- تنتهى فى بعض مواردها إلى مسائل العشق ودون أن يمسخها القرآن أو يتجاوزها يتعرض إلى الأحداث فى مسرحها بدقة بحيث لا يحس السامع شيء غير مطلوب فيها، ويذكر القضايا بأجمعها فى المتن، ولكن تحفّها أشعة قوية من التقوى والطهارة.

۳- قصة يوسف قبل الإسلام وبعده: لا شك أنّ قصة يوسف كانت مشهورة ومعروفة بين الناس قبل الإسلام، لأنّها مذكورة فى (۱۴) فصلًا من (سفر التكوين) فى التوراة بين (الفصل ۳۷- ۵۰) ذكراً مفصلًا.

وبطبيعة الحال فإنّ المطالعة الدقيقة فى هذه الفصول الأربعة عشر تكشف مدى الاختلاف بين ما جاء فى التوراة وما جاء فى القرآن.

وبالمقارنة بين نصّ التوراة ونصّ القرآن نجد أنّ نصّ القصة فى القرآن فى غاية الصدق وتخلو من أى خرافة.

وما يقوله القرآن للنبى صلى الله عليه و آله: «وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ» يشير إلى قصة يوسف التى عبّر عنها بأحسن القصص، حيث لم يكن النبى مطّلعاً على حقيقتها الخالصة.

وعلى كل حال فإنّ هذه القصة- بعد الإسلام- تناقلتها أقلام مؤرخى الشرق والغرب ...

وأحياناً مع أغصان وأوراق إضافية.

۴- لِمَ ذكرت قصة يوسف فى مكان واحد بخلاف قصص سائر الأنبياء؟ إنّ من خصائص قصة يوسف البارزة أنّ هذه القصة ذكرت

فى مكان واحد من القرآن، على خلاف قصص الأنبياء التى ذكرت على شكل فصول مستقلة فى سور متعددة من القرآن.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٤٣٧

والحكمة فى ذلك تعود إلى أنّ تفكيك فصول هذه القصة مع ملاحظة وضعها الخاص يفقدها ترابطها وانسجامها، فلهذا ينبغى أن تذكر كاملة فى مكان واحد للحصول على النتيجة المتوخاة.

والخصيصة الاخرى من خصائص هذه السورة هى أنّ قصص الأنبياء التى وردت فى السور الاخرى من القرآن تبيّن عادة مواجهة الأنبياء لقومهم المعاندين والطغاة.

أمّا فى قصة يوسف فلا كلام عن هذا الموضوع، بل أكثر ما فيها بيان حياة يوسف نفسه ونجاته من المزالق الخطيرة التى تنتهى أخيراً إلى استلامه سدّة الحكم، وهى فى حدّ ذاتها «أنموذج» خاص.

٥- فضيلة تلاوة سورة يوسف: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«من قرأ سورة يوسف فى كل يوم أو فى كل ليلة، بعثه اللَّه يوم القيامة وجماله مثل جمال يوسف، ولا يصيبه فزع يوم القيامة، وكان من خيار عباد اللَّه الصالحين».

إنّ الروايات التى وردت فى فضائل سور القرآن- كما قلنا مراراً- ليس معناها القراءة السطحية دون تفكر وعمل، بل تلاوة تكون مقدمة للتفكر ....

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) أحسن القصص بين يديك: تبدأ هذه السورة بالحروف المقطعة «الر» وهى دلالة على عظمة القرآن، وإنّ تركيب هذه الآيات ذات المحتوى العميق متكوّن من أبسط الأجزاء، وهى حروف الهجاء «ألف- باء ... الخ».

وربّما كان لهذا السبب أن تأتى الإشارة- بعد هذه الحروف المقطعة مباشرةً- إلى بيان عظمة القرآن فى هذه السورة، فتقول: «تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ».

ثم يأتى البيان عن الهدف من نزول الآيات فيقول: «إِنَّا أَنزَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ». فالهدف إذن ليس القراءة أو التلاوة أو التيمّن أو التبرك بتلاوة هذه الآيات فحسب، بل الهدف الأساسى هو الإدراك ... الإدراك القوى الذى يدعو الإنسان إلى العمل بجميع وجوده.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٤٣٨

فالتعبير بكون القرآن عربياً- الذى تكرر فى عشرة موارد من القرآن- جواب لأولئك الذين يتهمون النبى صلى الله عليه و آله بأنّه تعلم القرآن من أعجمى، وأنّ محتوى القرآن مستورد وليس وحياً إلهياً.

وهذه التعبيرات المتتابعة تحتم ضمناً وظيفة مفروضة على جميع المسلمين، وهى أن يسعوا جميعاً إلى معرفة اللغة العربية وأن تكون اللغة الثانية إلى جانب لغتهم، لأنّها لغة الوحى ومفتاح فهم حقائق الإسلام.

ثم يقول سبحانه: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ».

يعتقد بعض المفسرين أنّ «أَحْسَنَ الْقَصَصِ» إشارة إلى مجموع القرآن.

إنّ اللَّه سبحانه عبّر ب «أَحْسَنَ الْقَصَصِ» عن مجموع هذا القرآن الذى جاء فى أجمل البيان والشرح، وأفصح الألفاظ وأبلغها، مقرونةً بأسمى المعانى وأدقّها، بحيث يبدو ظاهره عذباً جميلًا، ومن حيث الباطن فمحتواها عظيم.

ولكن إرتباط الآيات المقبلة التى تبيّن قصة يوسف عليه السلام مع هذه الآية- محل البحث- بشكل يشدّ ذهن الإنسان إلى هذا المعنى، وهو أنّ اللَّه عبر عن قصة يوسف ب «أَحْسَنَ الْقَصَصِ» وقلنا مراراً أنّه لا مانع من أن تكون مثل هذه الآيات للمعنيين جميعاً ... فالقرآن هو أحسن القصص بصورة عامة، وقصة يوسف هى أحسن القصص بصورة خاصة.

أثر القصة فی حیاة الناس: مع ملاحظة أنّ القسم المهم من القرآن قد جاء علی صورة تأریخ للُامم السابقة وقصص الماضین، فقد یتساءل البعض: لِم یحمل هذا الکتاب التربوی کل هذا «التاریخ» والقصص؟!

وتتضح العلة الحقیقیة للموضوع بملاحظة عدّة نقاط:

۱- إنّ التاریخ مختبر لنشاطات البشریة المختلفة، وما رسمه الإنسان فی ذهنه من الأفکار والتصورات یجده بصورة عینیة علی صفحات التاریخ.

۲- ثم بعد هذا فإنّ للتاریخ والقصة جاذبیة خاصة، والإنسان واقع تحت هذا التأثیر الخارق للعادة فی جمیع أدوار حیاته من سنّ الطفولة حتی الشیخوخة.

والعلة فی ذلک قد تکون أنّ الإنسان حسی بالطبع قبل أن یکون عقلیاً ویتخبط فی المسائل المادیة قبل أن یتعمق فی المسائل الفکریة.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۳۹

وکلما ابتعد الانسان عن میدان الحسّ، باتجاه المسائل العقلیة کانت هذه المسائل أثقل علی الذهن وأبطأ هضماً.

ومن هنا نلاحظ أنّه لأجل بیان الاستدلال العقلی یستمدّ المفکرون فی المسائل الاجتماعیة والحیاتیة المختلفة من الأمثلة الحسیة، وأحیاناً یکون للمثال المناسب والمؤثر فی الاستدلال قیمة مضاعفة، ولذلک فإنّ العلماء الناجحین هم اولئک الذین لهم هیمنة علی انتخاب أحسن الأمثلة.

۳- القصة والتاریخ مفهومان عند کل أحد، وعلی هذا فإنّ الکتاب الشامل الذی یرید أن یستفید منه البدوی الامّی والمتوحش ... إلی الفیلسوف والمفکر الکبیر، یجب أن یکون معتمداً علی التاریخ والقصص والأمثلة.

ومجموعة هذه الجهات تبیّن أنّ القرآن خطا أحسن الخطوات فی بیان التواریخ والقصص فی سبیل التعلیم والتربیة.

إِذْ قالَ یُوسُفُ لِأَبِیهِ یا أَبَتِ إِنِّی رَأَیْتُ أَحَدَ عَشَرَ کَوْکَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَیْتُهُمْ لِی ساجِدِینَ (۴) قالَ یا بُنَیَّ لا تَقْصُصْ رُؤْیاکَ عَلی إِخْوَتِکَ فَیَکِیدُوا لَکَ کَیْداً إِنَّ الشَّیْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِینٌ (۵) وَ کَذلِکَ یَجْتَبِیکَ رَبُّکَ وَ یُعَلِّمُکَ مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحادِیثِ وَ یُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکَ وَ عَلی آلِ یَعْقُوبَ کَما أَتَمَّها عَلی أَبَوَیْکَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِیمَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبَّکَ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۶) بارقة الأمل وبدایة المشاکل: بدأ القرآن بذکر قصة یوسف من رؤیاه العجیبة ذات المعنی الکبیر، لأنّ هذه الرؤیا فی الواقع تعدّ أوّل فصل من فصول حیاة یوسف المتلاطمة.

جاء یوسف فی أحد الأیام صباحاً إلی أبیه وهو فی غایة الشوق لیحدثه عن رؤیاه، ولیکشف ستاراً عن حادثة جدیدة لم تکن ذات أهمیة فی الظاهر، ولکنها کانت إرهاصاً لبدایة فصل جدید من حیاته: «إِذْ قَالَ یُوسُفُ لِأَبِیهِ یَا أَبَتِ إِنِّی رَأَیْتُ أَحَدَ عَشَرَ کَوْکَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَیْتُهُمْ لِی سَاجِدِینَ».

یقول ابن عباس: إنّ یوسف رأی رؤیاه لیلة الجمعة التی صادفت لیلة القدر (لیلة تعیین الأقدار والآجال).

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۴۰

والمقصود من السجود هنا هو الخضوع والتواضع، وإلّا فإنّ السجود المعروف عند الناس لا مفهوم له بالنسبة للکواکب والشمس والقمر. إنّ هذه الرؤیا المثیرة ذات المغزی ترکت یعقوب النبی غارقاً فی التفکیر ... فالقمر والشمس والکواکب، وأی الکواکب! إنّها أحد عشر یسجدون جمیعاً لولدی یوسف، کم هی رؤیا ذات مغزی! لا شک أنّ الشمس والقمر «أنا وامه أو خالته» والکواکب الأحد عشر إخوته، هکذا یرتفع قدر ولدی حتی تسجد له الشمس والقمر وکواکب السماء.

إنّ ولدی «یوسف» عزیز عند اللّه إذا رأی هذه الرؤیا المثیرة! لذلک توجه إلی یوسف بلهجة یشوبها الإضطراب والخوف المقرون «بالفرحة» و «قَالَ یَا بُنَیَّ لَاتَقْصُصْ رُءْیَاکَ عَلَی إِخْوَتِکَ فَیَکِیدُوا لَکَ کَیْدًا» وأنا أعرف «إِنَّ الشَّیْطَنَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِینٌ» وهو منتظر الفرصة لیوسوس لهم ویثیر نار الفتنة والحسد ولیجعل الإخوة یقتتلون فیما بینهم.

ولكن هذه الرؤيا لم تكن دليلًا على عظمة يوسف فى المستقبل من الوجهة الظاهرية والمادية فحسب، بل تدل على مقام النبوة التى سيصل إليها يوسف فى المستقبل.

ولذلك فقد أضاف يعقوب- لولده يوسف- قائلًا: «وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرهِيمَ وَإِسْحقَ» «١».

أجل فإنّ اللَّه على كل شىء قدير و «إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

الرؤيا والحُلم: إنّ الرؤيا والأحلام على أقسام:

١- الرؤيا المرتبطة بماضى الحياة حيث تشكل الرغبات والأمنيات قسماً مهماً من هذه الأحلام.

٢- الرؤيا غير المفهومة والمضطربة وأضغاث الأحلام التى تنشأ من التوهم والخيال وإن كان من المحتمل أن يكون لها دافع نفسى.

٣- الرؤيا المرتبطة بالمستقبل والتى تخبر عنه.

---

(١) «التأويل»: فى الأصل إرجاع الشىء، وكل عمل أو كل حديث يصل إلى الهدف النهائى يطلق عليه «تأويل» وتحقق الرؤيا فى الخارج مصداق للتأويل ... و «الأحاديث»: جمع الحديث، وهو نقل ما يجرى، والحديث هنا كناية عن الرؤيا لأنّ الإنسان ينقلها للمعبرين.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ۴۴۱

ونقرأ فى الحديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عن الرؤيا قوله: «الرؤيا ثلاثة: بُشرى من اللَّه، وتحزين من الشيطان، والذى يحدّث به الإنسان نفسه فيراه فى منامه» «١».

وواضح أنّ أحلام الشيطان ليست شيئاً حتى يكون لها تعبير، ولكن ما يكون من اللَّه فى الرؤيا فهى تحمل بشارة حتماً ... ويجب أن تكون رؤيا تكشف الستار عن المستقبل المشرق.

من الدروس التى نستلهمها من هذا القسم من الآيات أن نحفظ الأسرار، وينبغى أن يُطبق هذا الدرس أحياناً حتى أمام الإخوة، فدائماً تقع فى حياة الإنسان أسرار لو أذيعت وفشت بات مستقبله أو مستقبل مجتمعه معرضاً للخطر، والمواظبة على حفظ هذه الأسرار دليل على سعة الروح وتملك الإرادة.

وورد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «سرّك من دمك فلا يجرينّ من غير أوداجك» «٢».

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) المؤامرة: من هنا تبدأ قصة مواجهة إخوة يوسف واشتباكهم معه: ففى الآية الاولى- من الآيات محل البحث- إشارة إلى الدروس التربوية الكثيرة التى توحيها القصة، إذ تقول الآية: «لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ».

وأىّ درس أعظم من أن يجتمع عدّة أفراد لإهلاك فرد ضعيف ووحيد- فى الظاهر- وبخطط أعدّها الحسدُ، ويبذلون أقصى جهودهم لهذا الأمر، ولكن نفس هذا العمل- ودون شعور وإرادة منهم- بات سبباً فى تربّعه على سرير الملك وصيرورته آمراً على البلد الكبير «مصر» ثم يأتى إخوته فى النهاية ليطأطئوا برؤوسهم إعظاماً له، وهذا يدلّ على أنّ اللَّه إذا

---

(١) بحار الأنوار ۵۸/ ۱۹۱.

(٢) بحار الأنوار ۷۲/ ۷۱.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۲

أراد أمراً فهو قادر على أن يجريه حتى على أيدى من يخالفون ذلك الأمر، ليتجلى أنّ الإنسان المؤمن الطاهر ليس وحيداً فى هذا العالم، فلو سعى جميع أفراد هذا العالَم إلى إزهاق روحه واللَّه لا يريد ذلك، فإنّهم لا يستطيعون أن يسلبوا منه شعرة واحدة. كان ليعقوب اثنا عشر ولداً، واثنان منهم: يوسف وبنيامين وهما من ام واحدة اسمها راحيل، وكان يعقوب يولى هذين الولدين محبة خاصة، لا سيما يوسف. لأنهما أوّلًا: أصغر أولاده، وبالطبع فهما يحتاجان إلى العناية والرعاية والمحبة.

وثانياً: لأنّ امّهما ارتحلت من الدنيا- طبقاً لبعض الروايات- وبعد هذا كله كانت بوادر النبوغ والذكاء الحادّ ترتسم على يوسف، وهذه الامور أدّت إلى أن يولى يعقوب ابنه هذا عناية أكثر.

إلّا أنّ الإخوة الحساد- دون أن يلتفتوا إلى هذه الجهات- تألّموا من حبّ أبيهم ليوسف وأخيه، وخاصه بعد اختلافهم فى الام والمنافسة الطبيعية المترتبة على هذا الأمر. لهذا اجتمعوا فيما بينهم وتدارسوا الأمر وصمموا على المؤامرة «إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ».

وحكموا على أبيهم من جانب واحد بقولهم: «إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَلٍ مُّبِينٍ».

وبالطبع فإنّ اتهامهم لأبيهم بالضلالة، لم يكن المقصود منها الضلالة الدينية، لأنّ الآيات الآتية تكشف عن اعتقادهم بنبوّة أبيهم، وإنّما استنكروا طريقة معاشرته فحسب.

ثمّ أدّى بهم الحسد إلى أن يخططوا لهذا الأمر، فاجتمعوا وقدموا مقترحين وقالوا:

«اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا- أرسلوه إلى منطقة بعيدة- يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ».

ومن الحق أن تشعروا بالذنب والخجل فى وجدانكم لأنّكم تقدمون على هذه الجناية فى حق أخيكم الصغير، ولكن يمكن أن تتوبوا وتغسلوا الذنب «وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ».

إنّ هذه الجملة تدلّ على إحساسهم بالذنب من هذا العمل، وكانوا يخافون اللَّه فى أعماق قلوبهم، ولذلك قالوا: نتوب ونكون من بعده قوماً صالحين.

ولكن المسألة المهمّة هنا هى أنّ الحديث عن التوبة قبل الجريمة- فى الواقع- هو لأجل خداع «الوجدان» وإغرائه وفتح الباب للدخول إلى الذنب، فلا يعدّ دليلًا على الندم أبداً.

ولكن كان من بين الاخوة من هو أكثر ذكاءً وأرق عاطفة ووجداناً، لأنّه لم يرض بقتل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۳

يوسف أو إرساله إلى البقاع البعيدة التى يُخشى عليه من الهلاك فيها ... فاقترح عليهم اقتراحاً ثالثاً، وهو أن يلقى فى البئر (بشكل لا يصيبه مكروه) لتمرّ قافلة فتأخذه معها، ويغيب عن وجه أبيه ووجوههم، حيث تقول الآية فى هذا الصدد: «قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَاتَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَتِ الْجُبّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ». «الجبّ»: معناه «البئر» التى لم تنضّد بالطابوق والصخور، ولعلّ أغلب آبار الصحراء على هذه الشاكلة.

يستفاد من جملة «إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ» أنّ القائل لم يكن يرغب- أساساً- حتى بهذا الاقتراح ولعلّه كان لا يوافقهم على إيذاء يوسف أصلًا.

أثر الحسد المدمّر فى حياة الناس: الدرس الآخر الذى نتعلّمه من هذه القصة، وهو أنّ الحسد يمكن أن يدفع الإنسان حتى إلى قتل أخيه، أو ايجاد المشاكل له، فنار الحسد إذا لم يمكن إخمادها فإنّها ستحرق صاحبها بالإضافة إلى إحراق الآخرين بها.

ولهذا نجد فى الأحاديث الإسلامية تعابير مؤثرة تدعو إلى مكافحة هذه الرذيلة، وعلى سبيل المثال نورد منها ما يلى:

۱- فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال اللَّه عزّ وجلّ لموسى بن عمران عليه السلام:

يابن عمران لا تحسدنّ الناس على ما آتيتهم من فضلى ولا تمدّن عينيك إلى ذلك ولا تتبعه نفسك فإنّ الحاسد ساخط لنعمى صادّ لقسمى الذى قسمت بين عبادى، ومن يك كذلك فلست منه وليس منّى».

۲- وفى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «آفة الدين الحسد والعجب والفخر». كما نقرأ له حديثاً يقول: «إنّ المؤمن يغبط ولا يحسد، والمنافق يحسد ولا يغبط».

كما نستنتج درساً آخر من هذا المقطع فى القصة، وهو أنّ الوالدين ينبغى أن يلاحظا أبناءها الآخرين عند إبراز عنايتهما ومحبتهما لواحد منهم، لأنّ إبراز العلاقة لبعض الأبناء دون بعض توجد عقدةً فى نفوس الآخرين، إلى درجة أنّها تجرّهم إلى كل عمل مخرّب، حيث يجدون شخصياتهم منهزمة ولابدّ من تحطيم شخصية أخيهم للتعويض عن هذه الهزيمة، فيكون الإقدام على هذا العمل دون لحاظ الرحمية ووشائج القربى.

وإذا لم يستطع الإنسان أن يقوم بعمل معاكس، فإنّه يظل يلوم نفسه ويحرضها حتى يبتلى بالمرض النفسى.

وفى هذا الصدد نقرأ فى الروايات الإسلامية أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال يوماً: «واللّه إنّى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۴

لُاصانع بعض ولدى، وأجلسته على فخذى، وأفكر له فى الملح، وأكثر له الشّكر، وإنّ الحق لغيره من ولدى، ولكن مخافة عليه منه ومن غيره، لئلا يصنعوا به ما فعلوا بيوسف إخوته، وما أنزل اللّه سورة يوسف إلّاأمثالًا لكيلا يحسد بعضنا بعضاً كما حسد يوسف إخوته، وبغوا عليه، فجعلها حجة ورحمة على من تولّانا، ودان بحبّنا وحجّة على أعدائنا ومن نصب لنا الحرب» (۱).

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَکَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَ إِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (۱۱) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (۱۲) قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (۱۳) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ (۱۴) المؤامرة المشؤومة: بعد أن صوّب إخوة يوسف إقتراح أخيهم فى عدم قتل يوسف، وإلقائه فى الجبّ، أخذوا يفكرون فى كيفية فصل يوسف عن أبيه، لذلك أقدموا على تخطيط آخر، فجاؤوا إلى أبيهم بلسان ليّن يدعو إلى الترحم، وفى شكل يتظاهرون به أنّهم مخلصون له وحدثوا أباهم و «قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَکَ لَاتَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ».

تعال يا أبانا وارفع اليد عن اتهامنا، فإنّه أخونا وما يزال صبياً وبحاجة إلى اللهو واللعب، وليس من الصحيح حبسه عندك فى البيت، فخلّ سبيله «أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ» (۲).

وإذا كنت تخشى عليه من سوء فنحن نواظب على حمايته «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».

ولكن يعقوب- دون أن يتهم إخوة يوسف بسوء القصد- أظهر تردّده فى إرسال يوسف لأمرين: الأوّل: أنّه سيبتعد عنه فيحزن عليه، والثانى: ربّما يوجد خارج المدينة بعض الذئاب المفترسة فتأكله، فاعتذر إليهم و «قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ».

وبديهى أنّ الإخوة لم يكن لهم جواب بالنسبة للأمر الأوّل الذى أشار إليه أبوهم يعقوب، لأنّ الحزن والإغتمام على فراق يوسف لم يكن شيئاً عادياً حتى يعوّض عنه، وربّما كان هذا التعبير مثيراً لنار الحسد فى إخوة يوسف أكثر.

---

(۱) وسائل الشيعة ۱۳/ ۳۴۴/ ۲۴۵۱۶.

(۲) «يرتع»: من مادة «رتع» على وزن «قطع» ومعناه فى الأصل رعى الأغنام والأنعام بصورة عامّة للنباتات وشبعها منها، ولكن قد يطلق هذا اللفظ (رتع، يرتع) ويراد به تنزّه الإنسان وكثرة الأكل والشرب أيضاً.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۵

ومن جهة اخرى فإنّ هذا الموضوع الذى أشار إليه يعقوب، وهو حزنه على ابتعاد يوسف عنه يمكن ردّه، وهو لا يحتاج إلى بيان، لأنّ

الولد لابدّ له من الإبتعاد عن أبيه من أجل أن ينمو ويرشد.

لذلك فإنّهم لم يجيبوه عن الشقّ الأوّل من كلامه، بل أجابوه عن الشقّ الثانى لأنّه كان مهماً وأساسياً بالنسبة لهم إذ «قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ». أى:

أترانا موتى فلا ندافع عن أخينا، بل نتفرج على الذئب كيف يأكله.

وعلى كل حال فقد استطاع إخوة يوسف بما أوتوا من الحيل، وبتحريك أحاسيس يوسف النقية وترغيبه إلى التنزه خارج المدينة، استطاعوا أن يأخذوا يوسف معهم وأن يستسلم الأب لهذا الأمر فيوافق على طلبهم.

ومن الطريف أنّه كما أنّ إخوة يوسف استغلّوا علاقة الإنسان- ولا سيما الشاب- بالتنزّه واللعب من أجل الوصول إلى هدفهم الغادر ... ففى حياتنا المعاصرة- أيضاً- نجد أعداء الحق والعدالة يستغلّون مسألة الرياضة واللعب فى سبيل تلويث أفكار الشباب، فينبغى أن نحذر المستكبرين «الذئاب» الذين يخططون لاضلال الشباب وحرفهم عن رسالتهم تحت اسم الرياضة والمسابقات المحلّية والعالمية.

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَةِ الْجُبِّ وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذَا وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (۱۵) وَ جَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (۱۶) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَ لَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (۱۷) وَ جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (۱۸) الكذب المفضوح: وأخيراً إنتصر إخوة يوسف وأقنعوا أباهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، فباتوا ليلتهم مطمئنى البال بانتظار الصبح لتنفيذ خطتهم وإزاحة أخاهم الذى يقف عائقاً فى طريقهم ... وكان قلقهم الوحيد أن يندم أبوهم ويسحب كلامه ووعده بإرسال يوسف معهم. فجاؤوا صباحاً إلى أبيهم فأمرهم بالمحافظة على يوسف، وكرر توصياته فى شأنه، فأظهر الأبناء طاعتهم لأبيهم وأبدوا احترامهم الفائق ومحبتهم العميقة، وتحركوا إلى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۶

خارج المدينة.

يقال: إنّ أباهم ودعهم إلى بوابة المدينة ثم أخذ منهم يوسف وضمّه إلى صدره ودمعت عيناه، ثم أودع يوسف عندهم وفارقهم، ولكن يعقوب كان يودعهم بنظراته، وكان إخوة يوسف لا- يقصرون عن مدارة أخيهم يوسف وإظهار عنايتهم به ومحبتهم له طالما كانت تلاحظهم عينا أبيهم، ولكن ما أن غاب عنهم أبوهم واطمأنوا إلى أنّه لا يراهم، حتى انفجرت عقدتهم وصبوا «جام غضبهم» وحقدهم وحسدهم المتراكم لعدّة سنوات على رأس يوسف، فالتفّوا حوله يضربونه بأيديهم ويلتجىء من واحد لآخر ويستجير بهم فلا يجيره أحد منهم.

نقرأ فى رواية أنّ يوسف كان يبكى تحت وابل اللكمات والضربات القاسية، ولكن حين أرادوا أن يلقوه فى الجبّ شرع بالضحك فجأة ... فتعجب إخوته كثيراً وحسبوا أنّ أخاهم يظنّ الأمر لا يعدو كونه مزاحاً ... ولكنه رفع الستار عن ضحكه وعلّمهم درساً كبيراً إذ قال: لا أنسى أننى نظرت- أيّها الإخوة- إلى عضلات أيديكم القوية وقواكم الجسدية الخارقة، فسررت وقلت فى نفسى: ما عسى أن يخشى ويخاف من الحوادث والملمّات من كان عنده مثل هؤلاء الإخوة، فاعتمدت عليكم وربطت قلبى بقواكم، والآن وقد أصبحت أسيراً بين أيديكم وأستجير بكم من واحد للآخر فلا اجار، وقد سلطكم اللّه علىّ لأتعلم هذا الدرس، وهو ألّا أعتمد وأتوكّل على أحد سواه ... حتى ولو كانوا إخوتى.

وعلى كل حال فالقرآن الكريم يقول فى هذا الصدد: «فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَتِ الْجُبِّ».

ثم تبيّن الآية أنّ اللّه أوحى إلى يوسف وهدأ روعه وألهمه ألّا يحزن فالعاقبة له، إذ تقول:

«وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هذَا وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

وهذا الوحى الإلهى لم يكن وحى النبوة، بقرينة الآية (۲۲) من السورة ذاتها، بل كان إلهاماً لقلب يوسف ليعلم أنّه ليس وحيداً، بل له

حافظ ورقيب، وهذا الوحى بثّ فى قلب يوسف نور الأمل وأزال عن روحه ظلمات اليأس والحيرة.

لقد نفّذ إخوة يوسف خطتهم كما أردوا، ولكن ينبغى أن يفكروا عند العودة كيف كى يصدّق أبوهم أنّ يوسف إنتهى بصورة طبيعية. وكانت الفكرة التى أوصلتهم إلى هذا الهدف هى ما تخوّف أبوهم منه، فأقنعوه- ظاهراً-

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۷

عن هذا الطريق مدّعين بأنّ الذئب قد أكل يوسف وجاؤوا إليه بدلائل مزيّفة!

يقول القرآن الكريم: «وَجَاءُو أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ» بكاءً كاذباً، وهذا يدلّ على أنّ البكاء الكاذب ممكن ... ولا يمكن أن يُخدع العاقل ببكاء العين وحدها.

أمّا الأب الذى كان ينتظر مجيىء ولده (يوسف) بفارغ الصبر، فقد اهتزّ وارتجف حين رأى الجمع وليس بينهم يوسف، وسأل عنه مستفسراً ... فأجابوه و «قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا» لصغر سنه ولأنه لا يعرف التسابق، وانشغلنا عنه «فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ».

ومن أجل أن يبرهنوا على صحة كلامهم فقد «وَجَاءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ». إذ لطخوا الثوب بدم الغزال أو الخروف أو التيس .... ولكن حيث إنّ الكاذب لا- يمتلك حافظة قوية، فقد غفل إخوة يوسف عن هذه المسألة الدقيقة ... وهى- على الأقل- أن يخرقوا قميص يوسف الملطخ بالدم ليدل على هجوم الذئب ... فقد قدّموا القميص سالماً غير مخرق فأحس الأب بمؤامرتهم، فما إن وقعت عيناه على القميص حتى فهم كل شىء و «قَالَ بَلْ سَوَّلَت لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا».

فى تفسير القرطبى عن ابن عباس: إنّهم أخذوا ظبياً فذبحوه فطلخوا بدمه القميص ولما جاؤوا به جعل يقلّبه فيقول: «ما أرى أثر ناب ولا ظفر إنّ هذا السبع رحيم». وفى رواية أنّه أخذ القميص وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص، وقال: «تاللّه ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا، أكل إبنى ولم يمزّق عليه قميصه». وجاء أنّه بكى وصاح وخرّ مغشيّاً عليه فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك ونادوه فلم يجب ووضع يهوذا يده على مخارج نفسه فلم يحس بنفس ولا تحرك له عرق، فقال: ويل لنا من ديّان يوم الدين، ضيعنا أخانا وقتلنا أبانا فلم يفق إلّابرد السحر.

وبالرغم من احتراق قلبه ولهيب روحه لم يجر على لسانه ما يدل على عدم الشكر أو اليأس أو الفزع أو الجزع، بل قال: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ». ثم قال: «وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» وأسأله أن يبدل مرارة الصبر فى فمى إلى «حلاوة» ويرزقنى القوة والقدرة على التحمل أكثر أمام هذا الطوفان العظيم، لئلا أفقد زمامى ويجرى على لسانى كلام غير لائق.

ملاحظتان

۱- حول الترك الأولى: فى تفسير البرهان عن الثمالى قال: صلّيت مع علىّ بن

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۸

الحسين عليه السلام الفجر بالمدينة يوم الجمعة فلمّا فرغ من صلاته وسُبحته نهض إلى منزله وأنا معه، فدعا مولاةً له تسمّى سكينة فقال لها: «لا يعبُر على بابى سائلٌ إلّاأطعَمتُموه فإنّ اليوم يوم الجمعة». قلت له: ليس كل من يسأل مستحِقّاً؟ فقال: «يا ثابت، أخاف أن يكون بعض من يسألنا محقّاً فلا- نُطعمه ونردّه فينزل بنا- أهل البيت- ما نزل بيعقوب وآله. أطعِموهم أطعموهم. إنّ يعقوب كان يَذبح كل يوم كبشاً فيتصدّق منه ويأكل هو وعياله منه، وإنّ سائلًا مؤمناً صوّاماً محقّاً له عند اللّه منزلة، وكان مجتازاً غريباً اعترّ على باب يعقوب عشيّة جمعة عند أوان إفطاره يهتِف على بابه: أطعموا السائل المجتاز الغريب الجائع من فضل طعامكم. يهتف بذلك على بابه مراراً وهم يسمعونه، قد جهلوا حقّه ولم يصدقوا قوله، فلمّا أيس أن يطعموه وغشيه الليل استرجع واستعبر وشكا جوعه إلى اللّه عزّ وجلّ وبات طاوياً، وأصبح صائماً جائعاً صابراً حامداً للّه تعالى، وبات يعقوب وآل يعقوب شباعاً بطاناً وأصبحوا وعندهم فضل من طعامهم».

قال: «فأوحى اللّه عزّ وجلّ إلى يعقوب فى صبيحة تلك الليلة: لقد أذللت- يا يعقوب- عبدى ذلّة استجررت بها غضبى، واستوجبت بها

أدبى، ونزول عقوبتى وبلواى عليك وعلى ولدك. يا يعقوب، إنّ أحبّ أنبيائى إلىّ وأكرمهم علىّ من رحم مساكين عبادى وقرّبهم اليه وأطعمهم، وكان لهم مأوىً وملجأ. يا يعقوب، أما رحمت ذميال عبدى المجتهد فى عبادته، القانع باليسير من ظاهر الدنيا عشاء أمس، لمّا اعترّ ببابك عند أوان افطاره وهتف بكم: أطعموا السائل الغريب المجتاز القانع. فلم تطعموه شيئاً، فاسترجع واستعبر وشكا ما به إلىّ وبات طاوياً حامداً لى وأصبح لى صائماً، وأنت- يا يعقوب- ووُلدك شِباعٌ، وأصبحت وعندكم فضل من طعامكم.

أوما علمت- يا يعقوب- أنّ العقوبة والبلوى إلى أوليائى أسرع منها إلى أعدائى؟»

فقلت لعلىّ بن الحسين عليه السلام: جعلت فداك، متى رأى يوسف الرؤيا؟ فقال: «فى تلك الليلة التى بات فيها يعقوب وآل يعقوب شباعاً ...».

يستفاد من هذا الحديث أنّ زلّة بسيطة أو بعبارة أدق: «ترك الأولى» وهو لا يعدّ خطيئة أو إثماً، لأنّ يعقوب لم يتّضح له حال السائل ... هذا الترك من قبل الأنبياء والأولياء يكون سبباً لأن يبتليهم اللّه بلاءً شديداً ... وما ذلك إلّالمقامهم الكبير الذى يوجب عليهم أن يراقبوا كل حركاتهم وسكناتهم، لأنّ «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

۲- دعاء يوسف البليغ الجذّاب: فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: لما طرح إخوة يوسف فى الجبّ أتاه جبرئيل عليه السلام فدخل عليه فقال: يا غلام ما تصنع ههنا؟ فقال: إنّ إخوتى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۴۹

ألقونى فى الجبّ. قال: فتحبّ أن تخرج منه؟ قال: ذاك إلى اللّه عزّ وجلّ، إن شاء أخرجنى.

قال: فقال له: إنّ اللّه ادعنى بهذا الدعاء حتى أخرجك من الجبّ فقال له: وما الدعاء؟ فقال:

قل: «اللّهم إنّى أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلّاأنت المنّان، بديع السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام، أن تصلى على محمّد وآل محمّد وأن تجعل لى ممّا أنا فيه فرجاً ومخرجاً».

وَ جاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ (١٩) وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) نحو أرض مصر: قضى يوسف فى ظلمة الجب الموحشة والوحدة القاتلة ساعات مرّةً، ولكنه بإيمانه باللّه وسكينته المنبثقة عن الإيمان شع فى قلبه نور الأمل، وألهمه اللّه تعالى القوة والقدرة على تحمل الوحدة الموحشة، وأن ينجح فى هذا الإمتحان.

ولكن ... اللّه أعلم كم يوماً قضى يوسف فى هذه الحالة؟

قال بعض المفسرين: قضى ثلاثة أيام، وقال آخرون: يومين.

وعلى كل حال تبلج النور «وَجاءَتْ سَيّارَةٌ».

وانتخبت منزلها على مقربة من الجبّ، وطبيعى أنّ أوّل ما تفكر القافلة فيه- فى منزلها الجديد- هو تأمين الماء وسد حاجتها منه «فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ».

فانتبه يوسف إلى صوت وحركة من أعلى البئر، ثم رأى الحبل والدلو يسرعان إلى النزول، فانتهز الفرصة وانتفع من هذا العطاء الإلهى وتعلق بالحبل بوثوق.

فأحسّ المأمور بالإتيان بالماء أن الدلو قد ثقُل أكثر مما ينبغى، فلما سحبه بقوة إلى الأعلى فوجىء نظره بغلام كأنّه فلقة قمر، فصرخ وقال: «يَا بُشْرَى هذَا غُلَمٌ».

وشيئاً فشيئاً سرى خبر يوسف بين جماعة من أهل القافلة، ولكن من أجل أن لا يذاع هذا الخبر وينتشر، ولكى يمكن بيع هذا الغلام الجميل فى مصر، أخفوه «وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً» «١».

وقالوا: هذا متاع لأصحاب هذا الجبّ أودعوه عندنا لنبيعه فى مصر.

وتقول الآیة فی نهایتها: «وَاللّهُ عَلِیمٌ بِمَا یَعْمَلُونَ». والذین شروا یوسف بثمن بخس،

---

(۱) «البضاعة»: فی الأصل من مادة «بضع» علی وزن «نذر» ومعناها: القطعة من اللحم، ثمّ توسعوا فی المعنیوأطلقوا هذا اللفظ علی القطعة المهمّة من المال. (راجع المفردات للراغب).

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۰

مختصر الامثل ج۲ ۴۹۹

هو من کان فی القافلة.

وباعوا یوسف بثمن قلیل، أو کما عبّر عنه القرآن: «وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ». ولکن هذا أمر مألوف فإنّ السُراق أو اولئک الذین تأتیهم بضاعة مهمة دون أی تعب ونصب یبیعونها سریعاً لئلا یطلع الآخرون.

ومن الطبیعی أنّهم لا یستطیعون بهذه الفوریة أن یبیعوه بسعر غال.

«البخس»: فی الأصل معناه تقلیل قیمة الشیء ظلماً.

وتقول الآیة فی نهایتها: «وَکَانُوا فِیهِ مِنَ الزَّاهِدِینَ».

وهذا البیع البخس إمّا لأنّ أهل القافلة اشتروا یوسف بثمن بخس، أو إنّهم کانوا یخافون أن یفتضح سرّهم ویجدون من یدّعیه.

وَ قَالَ الَّذِی اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَکْرِمِی مَثْوَاهُ عَسَی أَنْ یَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ کَذلِکَ مَکَّنَّا لِیُوسُفَ فِی الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحَادِیثِ وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَی أَمْرِهِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لَا یَعْلَمُونَ (۲۱) وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَیْنَاهُ حُکْماً وَ عِلْماً وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ (۲۲) فی قصر عزیز مصر: انتهت حکایة یوسف مع إخوته الذین ألقوه فی غیابة الجبّ وبیناها تفصیلًا، بدأ فصل جدید من حیاة هذا الغلام الحدث فی مصر ... فقد جیء بیوسف إلی مصر وعرض للبیع، ولما کان تحفة نفیسة فقد صار من نصیب «عزیز مصر» الذی کان وزیراً لفرعون أو رئیساً لوزرائه. یقول القرآن الکریم فی شأن یوسف: «وَقَالَ الَّذِی اشْتَرَیْهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَکْرِمِی مَثْوَیهُ عَسَی أَن یَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا» «۱». فلا ینبغی أن تنظری إلیه کما ینظرإلی العبید.

یستفاد من سیاق الآیة أنّ عزیز مصر لم یرزق ولداً وکان فی غایة الشوق للولد، وحین وقعت عیناه علی هذا الصبی الجمیل والسعید تعلّق قلبه به لیکون مکان ولده.

ثم یضیف القرآن الکریم: «وَکَذلِکَ مَکَّنَّا لِیُوسُفَ فِی الْأَرْضِ».

---

(۱) «المثوی»: من مادة (ثوی) ومعناه المقام، ولکن معناه هنا الموقعیة والمنزلة والمقام کذلک.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۱

هذا «التمکین» فی الأرض إمّا أن یکون لمجییء یوسف إلی مصر، وخاصه أن خطواته فی محیط مصر مقدمة لما سیکون علیه من الإقتدار والمکانة القصوی، وإمّا أنّه لا قیاس، بین هذه الحیاة فی مصر «العزیز».

ویضیف القرآن أیضاً: «وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِیلِ الْأَحَادِیثِ».

والمراد من «تأویل الأحادیث»- کما أشرنا سابقاً- هو علم تفسیر الأحلام وتعبیر الرؤیا حیث کان یوسف قادراً علی أن یطلع علی بعض أسرار المستقبل من خلاله.

ثم یختتم القرآن هذه الآیة بالقول: «وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَی أَمْرِهِ وَلکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لَا یَعْلَمُونَ».

لقد واجه یوسف فی هذا المحیط الجدید، الذی یعدّ واحداً من المراکز السیاسیة المهمة فی مصر مسائل مستحدثة ... فمن جهة کان یری قصور الطغاة المدهشة وثرواتهم ومن جهة اخری کانت تتجسد فی ذهنه صورة أسواق النخاسین وبیع الممالیک والعبید ومن

خلال الموازنة بين هاتين الصورتين كان يفكر فى كيفية القضاء على هموم المستضعفين من الناس لو أصبح مقتدراً على ذلك.

فاشتغل بتهذيب نفسه وبنائها، يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ».

«أشدّ»: من مادة «شدّ» وهى هنا إشارة إلى الإستحكام الجسمانى والروحانى.

والمراد من «الحكم» و «العلم» الواردين فى الآية المتقدمة التى تقول: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا» إمّا أن يكون مقام النبوة، وإمّا أن يكون المراد من الحكم العقل والفهم والقدرة على القضاء الصحيح الخالى من اتباع الهوى والإشتباه، والمراد من العلم الإطلاع الذى لا يقترن معه الجهل، ومهما كان فإنّ الحكم والعلم موهبتان نادرتان وهبهما اللّه ليوسف لتقواه وصبره وتوكله عليه.

فإنّه ليس مستبعداً أن يهب اللّه سبحانه لعباده المخلصين المنتصرين فى ميادين «جهاد النفس للهوى والشهوات» مواهب من المعارف والعلوم التى لا تقاس بأىّ معيار مادى.

وَ رَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَ قَالَتْ هَيْتَ لَکَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ کَذلِکَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢۴)

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ۴۵٢

العشق الملتهب: لم يأسر جمال يوسف الملكوتى عزيز مصر فحسب، بل أسر قلب امرأة العزيز كذلك وأصبح متيّماً بجماله. وامتدّت مخالب العشق إلى أعماق قلبها، وبمرور الزمن كان هذا العشق يتجذّر يوماً بعد يوم ويزداد إشتعالًا ... لكنّ يوسف هذا الشاب الطاهر التقى، لم يفكّر بغير اللّه، ولم يتعلق قلبه بغير عشق اللّه سبحانه.

وهناك امور اخرى زادت من عشق امرأة العزيز ليوسف ... فمن جهة لم تُرزق الولد، ومن جهة اخرى إنغمارها فى حياة مترفة مفعمة بالبذخ ... ومن جهة ثالثة عدم إبتلائها بأىّ نوع من البلاء كما هى حال المتنعمين، وعدم الرقابة الشديدة على هذا القصر من قبل العزيز من جهة رابعة ... كل ذلك ترك امرأة العزيز- الفارغة من الإيمان والتقوى- تهوى فى وساوسها الشيطانية إلى الحضيض، بحيث أفضت ليوسف أخيراً عمّا فى قلبها وراودته عن نفسه.

واتّبعت جميع الأساليب والطرق للوصول إلى هدفها، وسعت لكى تلقى فى قلبه أثراً من هواها وترغيبها وطلبها، كما يقول عن ذلك القرآن الكريم: «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ». وجملة «راودته»: مأخوذة من مادّة «المراودة» وأصلها البحث عن المرتع والمرعى، ثم توسّعوا فى هذا اللفظ فاطلق على كل ما يُطلب بالمداراة والملاءمة.

وهذا التعبير يشير إلى أنّ امرأة العزيز طلبت من يوسف أن ينال منها بطريق المسالمة والمساومة وبدون أى تهديد، وأبدت محبتها القصوى له بمنتهى اللين.

وأخيراً فكّرت فى أن تخلو به وتوفّر له جميع ما يثير غريزته، من ثياب فضفاضة، وعطور عبقة شذية، وتجميلات مرغبة، حتى تستولى على يوسف وتأسره.

يقول القرآن الكريم: «وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَکَ».

«غلّقت»: تدل على المبالغة وأنها أحكمت غلق الأبواب.

وفى هذه الحال، حين رأى يوسف أنّ هذه الامور تجرى نحو الإثم، ولم ير طريقاً لخلاصه منها، توجّه يوسف إلى زليخا و «قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ». وبهذا الكلام رفض يوسف طلب امرأة العزيز غير المشروع. وبهذه الجملة إعترف يوسف بوحدانية اللّه تعالى من الناحية النظرية، وكذلك من الناحية العملية أيضاً، ثم أضاف: «إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ» ... أليس التجاوز ظلماً وخيانة واضحة «إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

وهنا يبلغ أمر يوسف وامرأة العزيز إلى أدقّ مرحلة وأخطرها، حيث يعبّر القرآن عنه تعبيراً ذا مغزى كبير «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَنَ رَبِّهِ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ۴۵٣

إنّ امرأة العزیز کانت ترید أن تقضی وطراً مع یوسف، وبذلت وسعها فی ذلک، وکاد یوسف یستجیب لرغبتها بطبیعة کونه بشراً شابّاً لم یتزوج ویری نفسه إزاء المثیرات الجنسیة وجهاً لوجه ... لولا أن رأی برهان اللّه ... أی روح الإیمان والتقوی وتربیة النفس، أضف إلی کل ذلک مقام العصمة الذی کان حائلًا دون هذا العمل.

الطریف أنّ هذا التفسیر نقل عن الإمام الرضا علیه السلام فی عیون الأخبار للصدوق رحمه الله باسناده إلی علی بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرّضا علیه السلام فقال له المأمون:

یابن رسول اللّه ألیس من قولک: أنّ الأنبیاء معصومون؟ قال: «بلی». قال المأمون: فما معنی قول اللّه عزّ وجلّ إلی أن قال: فأخبرنی عن قول اللّه تعالی «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَنَ رَبِّهِ». فقال الرّضا علیه السلام: «لقد همّت به، ولولا أن رأی برهان ربّه لهمّ بها کما همّت به، لکنّه کان معصوماً والمعصوم لا یهُمّ بذنب ولا یأتیه». فقال المأمون: للّهدرُّک یا أبا الحسن.

والآن لنتوجّه إلی تفسیر بقیة الآیة إذ یقول القرآن المجید: «کَذلِکَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِینَ». وهی إشارة إلی أنّ هذا الإمداد الغیبی والإعانة المعنویة لإنقاذ یوسف من السوء والفحشاء من قبل اللّه لم یکن إعتباطاً، فقد کان عبداً عارفاً مؤمناً ورعاً ذا عمل صالح طهّر قلبه من الشرک وظلماته.

وبیان هذا الأمر یدل علی أنّ مثل هذه الإمدادات الغیبیة، فی لحظات الشدة والأزمة التی تدرک الأنبیاء- کیوسف مثلًا- غیر مخصوصة بهم، فإنّ کل من کان فی زمرة عباد اللّه الصالحین المخلصین فهو جدیر بهذه المواهب أیضاً.

العفة والمتانة فی البیان: من عجائب القرآن وواحدة من أدلّة الإعجاز، أنّه لا یوجد فی تعبیره رکّة وإبتذال وعدم العفة وما إلی ذلک، کما أنّه لا یتناسب مع اسلوب الفرد العادی الامّی الذی تربّی فی محیط الجاهلیّة، مع أنّ حدیث کل أحد یتناسب مع محیطه وأفکاره.

وبین جمیع قصص القرآن وأحداثه التی ینقلها توجد قصة غرام وعشق واقعیة، وهی قصة (یوسف وامرأة عزیز مصر).

قصة تتحدّث عن عشق امرأة جمیلة والهة ذات أهواء جامحة لشاب جمیل طاهر القلب.

ولکن القرآن یمزج فی رسم هذه المیادین الحسّاسة من هذه القصة- باسلوب معجب- الدقة فی البیان مع المتانة والعفة، دون أن یغض الطرف عن ذکر الوقائع، أو أن یظهر العجز، وقد استعمل جمیع الاصول الأخلاقیة والامور الخاصة بالعفة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۴

وَ اسْتَبَقَا الْبابَ وَ قَدَّتْ قَمِیصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْفَیا سَیِّدَها لَدَی الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِکَ سُوءاً إِلَّا أَنْ یُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۲۵) قالَ هِیَ راوَدَتْنِی عَنْ نَفْسِی وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ کانَ قَمِیصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْکاذِبِینَ (۲۶) وَ إِنْ کانَ قَمِیصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَکَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِینَ (۲۷) فَلَمَّا رَأی قَمِیصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ کَیْدِکُنَّ إِنَّ کَیْدَکُنَّ عَظِیمٌ (۲۸) یُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَ اسْتَغْفِرِی لِذَنْبِکِ إِنَّکِ کُنْتِ مِنَ الْخاطِئِینَ (۲۹) فضیحة امرأة العزیز: المقاومة الشدیدة التی أبداها یوسف جعلت امرأة العزیز آیسة منه تقریباً ... ولکن یوسف الذی إنتصر فی هذا الدور علی تلک المرأة المعاندة أحسّ أنّ بقاءه فی بیتها- فی هذا المزلق الخطر- غیر صالح، وینبغی أن یبتعد عنه، ولذلک أسرع نحو باب القصر لیفتحه ویخرج، ولم تقف امرأة العزیز مکتوفة الأیدی، بل أسرعت خلفه لتمنعه من الخروج، وسحبت قمیصه من خلفه فقدّته «وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِیصَهُ مِن دُبُرٍ». «الإستباق»: فی اللغة هو المسابقة بین شخصین أو أکثر.

و «قدّ»: بمعنی مَزّق طولًا، کما أنّ «قطّ» بمعنی مَزّق عرضاً.

فقد أوصل یوسف نفسه نحو الباب وفتحه فرأیا «یوسف وامرأة العزیز» عزیز مصر خلف الباب فجأةً. یقول القرآن الکریم: «وَأَلْفَیَا سَیِّدَهَا لَدَی الْبَابِ».

والتعبیر عن الزوج ب «السید» کان طبقاً للعرف السائد فی مصر، حیث کانت تخاطب المرأة زوجها بالسید.

فی هذه اللحظة التی رأت امرأة العزیز نفسها علی أبواب الفضیحة من جهة، وشعلة الإنتقام تتأجّج فی داخلها من جهة اخری، کان أوّل

شیء توجّهت إلیه أن تخاطب زوجها متظاهرة بمظهر الحق متهمة یوسف إذ «قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِکَ سُوءًا إِلَّا أَن یُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِیمٌ».

ولکن یوسف أدرک أنّ السکوت هنا غیر جائز ... فأماط اللثام عن عشق امرأة العزیز «قَالَ هِیَ رَاوَدَتْنِی عَن نَّفْسِی».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۵۵

وطبیعی أنّ مثل هذا الحادث من العسیر تصدیقه فی البدایة، أی إنّ شاباً یافعاً غیر متزوج لا یُعدّ آثماً، ولکن امرأة متزوجة ذات مکانة اجتماعیة- ظاهراً- آثمة! فلذلک کانت أصابع الإتهام تشیر إلی یوسف أکثر من امرأة العزیز.

ولکن حیث إنّ اللّه حامی الصالحین والمخلصین فلا یرضی أن یحترق هذا الشاب المجاهد بشعلة الإتهام، لذلک یقول القرآن فی هذا الصدد: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن کَانَ قَمِیصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْکَاذِبِینَ وَإِن کَانَ قَمِیصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَکَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِینَ».

أمّا عزیز مصر فقد قبل هذا الحکم الدقیق، وتحیّر فی قمیص یوسف ذاهلًا: «فَلَمَّا رَءَا قَمِیصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن کَیْدِکُنَّ إِنَّ کَیْدَکُنَّ عَظِیمٌ».

فی هذه الحال، ولخوف عزیز مصر من إنتشار خبر هذا الحادث المؤسف علی الملأ، فتسقط منزلته وکرامته فی مصر رأی أنّ من الصلاح کتمان القضیة، فالتفت إلی یوسف وقال:

«یُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذَا». أی: اکتم هذا الأمر ولا تخبر به أحداً ... ثم التفت إلی امرأته وقال: «وَاسْتَغْفِرِی لِذَنبِکِ إِنَّکِ کُنتِ مِنَ الْخَاطِینَ».

الشاهد الذی ختم «ملفّ یوسف وامرأة العزیز» بسرعة، هو أحد أقارب امرأة العزیز، وکلمة «من أهلها» دلیل علی ذلک. وعلی القاعدة فهو رجل حکیم وعارف ذکی ویقال: إنّ هذا الرجل کان من مشاوری عزیز مصر وکان معه.

حمایة اللّه فی الأزمات: الدرس الکبیر الآخر الذی نتعلّمه من قصة یوسف، هو حمایة اللّه ورعایته للإنسان الأکیدة فی أشدّ الحالات، وبمقتضی قوله: «یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَیَرْزُقْهُ مِنْ حَیْثُ لَایَحْتَسِب». فمن جهة کان یوسف لا یُصدّق أبداً أنّ نافذة من الأمل ستفتح له، ویکون قدّ القمیص سنداً للطهارة والبراءة، ذلک القمیص الذی یصنع الحوادث، فیوماً یفضح إخوة یوسف لأنّهم جاؤوا أباهم وهو غیر ممزّق، ویوماً یفضح امرأة العزیز لأنّه قدّ من دُبر، ویوماً آخر یهب البصر والنور لیعقوب، وریحه المعروف یسافر مع نسیم الصباح من مصر إلی أرض کنعان ویبشّر العجوز «الکنعانی» بقدوم موکب البشیر.

إنّ للّه ألطافاً خفیة لا یسبر غورها أحد، وحین یهبّ نسیم هذه الألطاف تتغیر الأسباب والمسببات بشکل لا یمکن حتی لأذکی الأفراد أن یتنبّأ عنها.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۵۶

وَ قَالَ نِسْوَةٌ فِی الْمَدِینَهِ امْرَأَةُ الْعَزِیزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِی ضَلَالٍ مُبِینٍ (۳۰) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَکْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَیْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّکَأً وَ آتَتْ کُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِکِّیناً وَ قَالَتِ اخْرُجْ عَلَیْهِنَّ فَلَمَّا رَأَیْنَهُ أَکْبَرْنَهُ وَ قَطَّعْنَ أَیْدِیَهُنَّ وَ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هذَا بَشَراً إِنْ هذَا إِلَّا مَلَکٌ کَرِیمٌ (۳۱) قَالَتْ فَذلِکُنَّ الَّذِی لُمْتُنَّنِی فِیهِ وَ لَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ یَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَیُسْجَنَنَّ وَ لَیَکُوناً مِنَ الصَّاغِرِینَ (۳۲) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَیَّ مِمَّا یَدْعُونَنِی إِلَیْهِ وَ إِنْ تَصْرِفْ عَنِّی کَیْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَیْهِنَّ وَ أَکُنْ مِنَ الْجَاهِلِینَ (۳۳) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ کَیْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۳۴) مؤامرة اخری: بالرغم من أنّ عشق امرأة العزیز- المذکور آنفاً- کان مسألة خصوصیة بحیث أکّد حتی العزیز علی کتمانها، ولکن حیث إنّ هذه الأسرار لا تبقی خافیة، ولا سیّما فی قصور الملوک وأصحاب المال والقوّة- التی فی حیطانها آذان صاغیة- فسوف تتسرّب إلی خارج القصر کما یقول القرآن فی هذا الشأن: «وَقَالَ نِسْوَةٌ فِی الْمَدِینَهِ امْرَأَتُ الْعَزِیزِ تُرَاوِدُ فَتَهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا». ثم لُمْنَها وعنّفنها بهذه الجملة: «إِنَّا لَنَرَیهَا فِی ضَلَالٍ مُّبِینٍ».

وواضح أنّ المتحدث بمثل هذا الكلام كنّ نساء أشراف مصر.

لم يكن فساد هؤلاء النسوة بأقلّ من امرأة العزيز ولكن أيديهن لم تصل إلى يوسف، فكنّ يرين امرأة العزيز بسبب هذا العشق فى ضلال مبين.

«الشغف»: من مادة «الشغاف» ومعناه أعلى القلب أو الغشاء الرقيق المحيط بالقلب، وشغفها حبّاً معناه أنّها تعلّقت به إلى درجة بحيث نفذ حبّه إلى قلبها واستقر فى أعماقه.

أمّا امرأة العزيز فقد وصلها ما دار بين النسوة من إفتضاحها «فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا».

هذا العمل دليل على أنّ امرأة العزيز لم تكن تكترث بزوجها، ولم تأخذ الدرس من فضيحتها، ثم أمرت يوسف أن يتخطّى فى المجلس «وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ».

نساء مصر- وطبقاً لبعض الروايات التى تقول: كن عشراً ... أو أكثر- فوجئن بظهور

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۷

يوسف كأنّه البدر أو الشمس الطالعة، فتحيّرن من جماله «فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ» وفقدن أنفسهن «وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ» مكان الفاكهة، وحين وجدن الحياء والعفة تشرقان من عينيه وقد احمر وجهه خجلًا صحن جميعاً و «قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هذَا بَشَرًا إِن هذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ».

وفى هذه الحال التى كانت الدماء تسيل من أيدى النسوة وقد لاحظن ملامح يوسف كلها وصرن أمامه «كَالْخُشُبِ المسنّدة» كشفن عن أنّهن لسن بأقل من امرأة العزيز عشقاً ليوسف، فاستغلّت امرأة العزيز هذه الفرصة ف «قَالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ».

وهكذا أحسّت امرأة العزيز بالغرور لأنّها وُفّقت فى ما ألقته من فكرة وأعطت لنفسها العذر، وإعترفت بكل صراحة بكل ما فعلت وقالت: «وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ».

وبدلًا من أن تظهر الندم على كلامها أو تتحفّظ على الأقل أمام ضيوفها، أردفت القول بكل جدّ يحكى عن إرادتها القطعية: «وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ» ... ولا أكتفى بسجنه، بل «وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ».

ينقل البعض روايات عجيبة مؤدّاها أنّ بعضاً من نسوة مصر أعطين الحق لامرأة العزيز ودرن حول يوسف ليرغبنه بأن يستسلم لحبّها وكل واحدة تكلّمت بكلام.

فقالت واحدة: أيّها الشاب ما هذا الصبر والدلال، ولِم لا ترحم هذه العاشقة الواهبة قلبها لك، ألا ترى هذا الجمال الآسر؟ أليس عندك قلب؟! ألست شابّاً؟ ألا تستلذ بالعشق.

وقالت الثانية: إذا كنت لا- ترغب فى جمالها المثير ولا تحتاج إلى مقامها ومالها، ولكن ألا تعرف أنّها ستنتقم لنفسها بما اوتيت من وسائل الإنتقام الخطرة.

تهديد امرأة العزيز من جانبها بالسجن من جهة، ووساوس النسوة من جهة اخرى، أوقعا يوسف فى أزمة شديدة، وأحاط به طوفان المشاكل، ولكن حيث إنّ يوسف كان قد صنع نفسه، فقد صمّم بعزم وشجاعة والتفت نحو السماء ليناجى ربّه وهو فى هذه الشدة «قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ».

وحيث كان يدرى أن لا مهرب له إلّاإلى اللّه فى جميع الأحوال ولا سيما فى الساعات الحرجة، فقد أودع نفسه عند اللّه بهذا الكلام «وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ».

وحيث إنّ وعد اللّه حقّ، وأنّه يُعين المجاهد (لنفسه أو لعدوّه) فإنّه لم يترك يوسف سُدىً وتلقفته رحمته ولطفه كما يقول القرآن الكريم: «فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۵۸

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ». فهو يسمع نجوى عبيده، وهو مطلع على أسرارهم، ويعرف طريق الحلّ لهم.

ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥) وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّی أَرَانِی أَعْصِرُ خَمراً وَ قَالَ الْآخَرُ إِنِّی أَرَانِی أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِی خُبزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣۶) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِی رَبِّی إِنِّی تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِی إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَیْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) السجن بسبب البراءة: انتهى المجلس العجيب لنسوة مصر مع يوسف فى قصر العزيز فى تلك الغوغاء والهياج، فإنّ الخوف من فضيحة جنسية فى اسرة العزيز كان يزداد يوماً بعد يوم. فكان الرأى بعد تبادل المشورة بين العزيز ومستشاريه هو إبعاد يوسف عن الأنظار لينسى الناس اسمه وشخصه، وأحسن السبل لذلك إيداعه قعر السجن المظلم أوّلًا، وليشيع بين الناس أنّ المذنب الأصلى هو يوسف ثانياً، لذلك يقول القرآن فى هذا الصدد: «ثُمَّ بَدَا لَهُم مّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ».

أجل ... فى المحيط المنحرف تكون الحرية من نصيب المنحرفين وليست الحرية وحدها من نصيبهم فحسب، ... بل إنّ الأفراد النجباء كيوسف ينبغى أن يقبعوا فى زاوية النسيان ...

ولكن إلى متى؟ هل تستمر هذه الحالة؟ ... قطعاً لا ....

ومن جملة السجناء الداخلين مع يوسف فتيان «وَدَخَلَ مَعَهُ السّجْنَ فَتَيَانِ».

وحيث إنّ الظروف لم تكن تسمح للإنسان أن يحصل فيها على الأخبار بطريق عادى، فإنّه يأنس لأحاسيس الآخرين ليبحث عن مسير الحوادث ويتوقّع ما سيكون، حتى أنّ الرؤيا وتعبيرها عنده يكون مطلباً مهماً.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴۵۹

من هذا المنطلق جاء ليوسف يوماً هذان الفتيان اللذان يقال: إنّ أحدهما كان ساقياً فى بيت الملك، والآخر كان مأموراً للطعام والمطبخ، وبسبب وشاية الأعداء وسعايتهم بهما دخلا السجن بتهمة التصميم لسمّ الملك، وتحدّث كل منهما عن رؤيا رآها الليلة الفائتة وكانت بالنسبة له أمراً عجيباً.

«قَالَ أَحَدُهُمَا إِنّى أَرَينِى أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْأَخَرُ إِنّى أَرَينِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ». ثم أضافا: «نَبّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ».

فقد إغتنم يوسف مراجعة السجينين له لتعبير الرؤيا- وكان لا يدع فرصة لإرشاد السجناء ونصحهم- وبحجة التعبير كان يبيّن حقائق مهمة تفتح لهم السُبل ولجميع الناس أيضاً.

فى البداية، ومن أجل أن يستلفت إهتمامهما وإعتمادهما على معرفته بتأويل الأحلام الذى كان مثار إهتمامهما وتوجّههما «قَالَ لَايَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا».

ثم إنّ يوسف أضاف إلى كلامه مقروناً بالإيمان باللّه والتوحيد الجارى بجميع أبعاده فى أعماق وجوده، ليبيّن بوضوح أن لا شىء يتحقق إلّاباِرادة اللّه قائلًا: «ذلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبّى» ولئلا يتصور أنّ اللّه يمنح مثل هذه الامور دون حساب، قال: «إِنّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْأَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ».

والمقصود بهذه الملة أو الجماعة هم عبدة الأصنام بمصر أو عبدة الأصنام من كنعان.

وينبغى لى أن أترك مثل هذه العقائد لأنّها على خلاف الفطرة الإنسانية النقية، ثم إنّى تربّيت فى اسرة الوحى والنبوة «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَاءِى إِبْرهِيمَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ».

ثم يضيف على نحو التأكيد: «مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ». لأنّ اسرتنا اسرة التوحيد ... اسرة إبراهيم محطّم الأصنام «ذلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ». وهى الموهبة العامة التى تشمل جميع عباد اللّه المودعة فى أرواحهم المسمّاة بالفطرة حيث يتكاملون

بقيادة الأنبياء «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَشْكُرُونَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۶۰

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (۳۹) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۴۰) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (۴۱) وَ قَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (۴۲) السجن أو مركز التربية: حين هيّأ يوسف فى البحث السابق قلوب السجينين لقبول حقيقة التوحيد، توجّه إليهما وقال: «يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

فكأنّ يوسف يريد أن يفهم السجينين أنّه لِم تريان الحرية فى النوم ولا تريانها فى اليقظة؟

فلِم لا تجتمعون تحت رايـة التوحيد، وتعتصموا بحبل الواحد القهار، لتطردوا من مجتمعكم هؤلاء الظالمين والجبابرة الذين يسوقونكم إلى السجن أبرياء دون ذنب؟!

ثم يضيف قائلًا: «مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَنٍ» بل هى صنع عقولكم العاجزة وأفكاركم المنحرفة ... «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ» فلا ينبغى أن تطأطئوا رؤوسكم لسواه من الطغاة والفراعنة، ثمّ أضاف زيادة فى التأكيد قائلًا: «أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدّينُ الْقَيِّمُ».

أى إنّ التوحيد فى جميع أبعاده- فى العبادة، فى الحكومة، فى المجتمع، فى المسائل الثقافية، وفى كل شىء- هو الدين الإلهى المستقيم والثابت. «وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ» ولذلك خضعوا لحكومة غير (اللَّه) فذاقوا الشقاء والسجون فى هذا السبيل.

ثم التفت إليهما وقال: «يَا صَاحِبَيِ السّجْنِ أَمَّا أَحَدُ كُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْأَخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ».

ثم أضاف مؤكداً: «قُضِىَ الْأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ». وهو إشارة إلى أنّ هذا التعبير ليس

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۶۱

تعبيراً ساذجاً، بل هو من أنباء الغيب التى تعلّمها من اللَّه، فلا مجال للترديد والكلام بعد هذا.

وحين أحسّ يوسف أنّ السجينين سينفصلان عنه عاجلًا، ومن أجل أن يجد يوماً يُطلق فيه ويُبرأ من هذه التهمة، أوصى أحد السجينين الذى كان يعلم أنّه سيطلق أن يذكره عند الملك «وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبّكَ» لكن هذا الغلام «الناسى» مثله مثل الأفراد قليلى الإستيعاب، ما إن يبلغوا نعمةً ما حتى ينسوا صاحبها، وهكذا نسى يوسف تماماً، ولكن القرآن عبّر عن ذلك بقوله: «فَأنسهُ الشَّيْطنُ ذِكْرَ رَبّهِ» وهكذا أصبح يوسف منسيّاً «فَلَبِثَ فِى السّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ».

أمّا عدد السنوات التى قضاها يوسف فى السجن، فهناك أقوال بين المفسرين، والمشهور أنّها سبع سنوات، إلّاأنّ بعضهم قال: إنّ يوسف بقى فى السجن إثنتى عشرة سنة، خمس قبل رؤيا صاحبى سجنه، وسبع بعدها، وكانت سنوات ملأى بالتعب والنَصب إلّاأنّها من جهة الإرشاد كانت سنوات مفعمة بالبركة والخير.

وَ قَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (۴۳) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَ مَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (۴۴) وَ قَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (۴۵) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ سَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (۴۶) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (۴۷) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (۴۸) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ (۴۹) رؤيا ملك مصر وما جرى له: بقى يوسف سنين فى السجن المظلم كأى إنسان منسىّ، ولم يكن لديه من عمل إلّابناء شخصيته، وإرشاد السجناء وعيادة مرضاهم وتسلية الموجعين

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۶۲

منهم، حتى غيّرت (حظّه وطالعه) حادثة صغيرة بحسب الظاهر ... ولم تغيّر هذه «الظاهرة» حظّه فحسب، بل حظّ امّة مصر وما حولها.

لقد رأى ملك مصر الذى يقال أنّ اسمه هو «الوليد بن الريان» وكان «عزيز مصر وزيره» رأى هذا الملك رؤيا مهولة، فأحضر عند الصباح المعبّرين للرؤيا ومن حوله فقصّ عليهم رؤياه «وَقالَ الْمَلِكُ إِنّى أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ». ثم إلتفت إليهم طالباً منهم تعبير رؤياه فقال: «يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونى فِى رُءْيى إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيا تَعْبُرُونَ». ولكن حاشية السلطان وجموا إزاء هذه الرؤيا و «قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ».

«الأضغاث»: جمع «ضِغْث» ومعناه المجموعة من الحطب أو العشب اليابس أو الأخضر أو شىء آخر؛ و «الأحلام»: جمع «حُلم» معناه الطيف والرؤيا، فيكون معنى «أَضْغاثُ أَحْلامٍ» هو الأطياف المختلطة، فكأنّها متشكلة من مجموعة مختلفة ومتفاوتة من الأشياء.

وهنا تذكّر ساقى الملك ما حدث له ولصاحبه فى السجن مع يوسف، ونجا من السجن كما بشّره يوسف «وَقالَ الَّذى نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونَ».

وهكذا حرّك كلام الساقى المجلس وشخصت الأبصار نحوه، وطلبوا منه الإسراع بالذهاب إليه والإتيان بالخبر.

مضى الساقى إلى السجن ليرى صديقه القديم ... ذلك الصديق الذى لم يف بوعده له، لكنّه ربّما كان يعرف أنّ شخصية يوسف الكريمة تمنعه من فتح «باب العتاب» فالتفت إليه وقال: «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ لَّعَلّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ».

إنّ يوسف دون أن يطلب شرطاً أو قيداً أو أجراً لتعبيره، عبّر الرؤيا فوراً تعبيراً دقيقاً لا غموض فيه ولا حجاب مقروناً بما ينبغى عمله فى المستقبل و «قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَما حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ».

ثم أنّه يحلّ بكم القحط لسبع سنين متوالية فلا أمطار ولا زراعة كافية، فعليكم بالاستفادة مما جمعتم فى سنىّ الرخاء «ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ».

ولكن عليكم أن تحذروا من إستهلاك الطعام «إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ» وإذا واظبتم على هذه الخطّة فحينئذ لا خطر يهدّدكم لأنه «ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۶۳

و «يُغاثُ النَّاسُ». أى يدركهم الغيث فتكثر خيراتهم، وليس هذا فحسب، بل «وَفِيهِ يَعْصِرُونَ» المحاصيل لإستخراج الدهن والفاكهة لشراب عصيرها ... الخ.

كم كان تعبير يوسف لهذه الرؤيا دقيقاً ومحسوباً. فى الحقيقة لم يكن يوسف مفسّراً بسيطاً للأحلام، بل كان قائداً يخطّط من زاوية السجن لمستقبل البلاد، وقد قدّم مقترحاً من عدّة مواد لخمسة عشر عاماً على الأقل، وكما سنرى فإنّ هذا التعبير المقرون بالمقترح للمستقبل حرّك الملك وحاشيته وكان سبباً لإنقاذ أهل مصر من القحط القاتل من جهة، وأن ينجو يوسف من سجنه وتخرج الحكومة من أيدى الطغاة من جهة اخرى.

وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (۵۰) قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصّادِقِينَ (۵۱) ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى كَيْدَ الْخائِنِينَ (۵۲) وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلّا ما رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵۳) تبرئة يوسف من كل إتهام: لقد كان تعبير يوسف لرؤيا الملك دقيقاً ومدروساً ومنطقياً، لقد فهم الملك إجمالًا أنّ يوسف لم يكن رجلًا يستحق السجن، بل هو شخص أسمى مقاماً من الإنسان العادى، دخل السجن نتيجة حادث خفى، لذلك تشوّق لرؤيته، ولكن لا ينبغى للملك أن ينسى غروره ويسرع إلى زيارته، بل أمر أن يُؤتى به إليه كما

يقول القرآن: «وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ» لم يوافق يوسف على الخروج من السجن دون أن يثبت براءته، فالتفت إلى رسول الملك و «قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ». إذن ... فيوسف لم يرغب أن يكون كأىّ مجرم، أو على الأقل كأىّ متهم يعيش مشمولًا ب «عفو الملك» ... لقد كان يرغب أوّلًا أن تثبت براءته وطهارة ذيله، ويخرج من السجن مرفوع الرأس، كما يُثبت ضمناً تلوّث النظام الحكومى وما يجرى فى قصر وزيره.

ثم يضيف يوسف: إذا لم يعلم سبب سجنى شعب مصر ولا جهازه الحكومى وبأى سبب وصلت السجن، فاللّه مطلع على ذلك «إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۴

عاد المبعوث من قبل الملك إلى يوسف مرّة ثانية إلى الملك، وأخبره بما طلبه يوسف مع ما كان من إبائه وعلوّ همّته، لذا عظم يوسف فى نفس الملك وبادر مسرعاً إلى إحضار النسوة اللاتى شاركن فى الحادثة، والتفت إليهن و «قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ». يجب أن تقلن الحق ... هل إرتكب يوسف خطيئة أو ذنباً؟

فتيقّظ فجأةً الوجدان النائم فى نفوسهن، وأجبن جميعاً بكلام واحد، متفق على طهارته و «قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ».

أمّا امرأة العزيز التى كانت حاضرة أيضاً، أحسّت بأنّ الوقت قد حان لأن تنزّه يوسف وأن تعوّض عن تبكيت وجدانها وحيائها وذنبها بشهادتها القاطعة فى حقه، وخاصه أنّها رأت كرم يوسف المنقطع النظير من خلال رسالته إلى الملك، إذ لم يعرّض فيها بالطعن فى شخصيتها وكان كلامه عامّاً ومغلقاً تحت عنوان «نسوة مصر».

فكأنّما حدث إنفجار فى داخلها فجأةً وصرخت و «قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ».

ثم واصلت امرأة العزيز كلامها «ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» لأنّى عرفت بعد هذه المدة الطويلة وما عندى من التجارب «أَنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ».

وتواصل امرأة العزيز القول: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى» وبحفظه وإعانته نبقى مصونين، وأنا أرجو أن يغفر لى ربّى هذا الذنب «إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

فامرأة العزيز التى تدعى «زليخا» أو «راعيل» وإن ابتُليت فى عملها بأشدّ الهزائم، لكن هذه الهزيمة فى مسير الذنب كانت سبباً لأن تنتبه ويتيقّظ وجدانها النائم، وأن تندم على ما فات من عملها ... والتفتت إلى ساحة اللّه.

السعداء هم اولئك الذين يصنعون من الهزائم إنتصاراً، ومن سوء الحظّ حظّاً حسناً، ومن أخطائهم طريقاً صحيحاً للحياة.

وَ قَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (۵۴) قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ (۵۵) وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَ لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۵۶) وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (۵۷)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۵

يوسف أميناً على خزائن مصر: رأينا أنّ يوسف- هذا النبى العظيم- ثبتت براءته أخيراً للجميع، وحتى الأعداء شهدوا بطهارته ونزاهته، وظهر لهم أنّ الذنب الوحيد الذى أودع من أجله السجن لم يكن غير التقوى والأمانة التى كان يتحلّى بهما.

إضافةً إلى هذا فقد ثبت لهم أنّ هذا السجين منهل العلم والمعرفة والنباهة وطاقة فذّة وعالية فى الإدارة.

ثم يستمر القرآن بذكر القصة فيقول: «وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى» وهكذا أمر الملك باحضاره لكى يجعله مستشاره الخاص ونائبه فى المهمّات فيستفيد من علمه ومعرفته وخبرته لحلّ المشاكل المستعصية.

ثم أرسل الملك مندوباً لزيارته فى السجن، فدخل عليه وأبلغه تحيات الملك وعواطفه القلبية تجاهه ثم قال له: إنّه قد لبّى طلبك فى البحث والتحقيق عن نساء مصر وإتهامهن إيّاك، قم لنذهب إلى الملك.

فدخل يوسف على الملك وتكلّم معه فعندما سمع من يوسف الأجوبة التى تحكى عن علمه وفراسته وذكائه الحادّ، إزداد حبّاً له وقال: إنّ لك اليوم عندنا منزلة رفيعة وسلطات واسعة وإنّك فى موضع ثقتنا وإعتمادنا «فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّکَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ» فلابدّ أن تتصدّى للمناصب الهامّة فى هذا البلد، وتهتمّ بإصلاح الامور الفاسدة.

فاختار يوسف منصب الأمانة على خزائن مصر، وقال إجعلنى مشرفاً على خزائن هذا البلد فإنّى حفيظ عليم وعلى معرفة تامّة بأسرار المهنة وخصائصها «قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ».

كان يوسف يعلم أنّ جانباً كبيراً من الاضطراب الحاصل فى ذلك المجتمع الكبير المليء بالظلم والجور يكمن فى القضايا الاقتصادية، والآن وبعد أن عجزت أجهزة الحكم من حلّ تلك المشاكل واضطرّوا لطلب المساعدة منه، فمن الأفضل له أن يسيطر على اقتصاد مصر حتى يتمكن من مساعدة المستضعفين وأن يخفّف عنهم- قدر ما يستطيع- الآلام والمصاعب ويستردّ حقوقهم من الظالمين.

وهنا نقطة اخرى يجب التنبيه عليها وهى إنّنا نلاحظ أنّ يوسف عليه السلام يخاطب الملك ويقول له: «إِنّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ» وهذه إشارة إلى أهمية عنصر الإدارة إلى جانب عنصر الأمانة وأنّ توفّر عنصر الأمانة والتقوى فقط فى شخص لا يؤهّله لأن يتصدّى لأحد

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۶

المناصب الاجتماعية الحساسة، بل لابد من إجتماع ذلك العامل مع العلم والتخصص والقدرة على الإدارة. ثم يقول اللّه سبحانه وتعالى مُنهياً بذلك قصة يوسف عليه السلام: «وَكَذلِکَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ».

نعم إنّ اللّه سبحانه وتعالى ينزل رحمته وبركاته ونعمه المادية والمعنوية على من يشاء من عباده الذين يراهم أهلًا لذلك «نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ».

وأنّه سبحانه وتعالى لا ينسى أن يجازى المحسنين، وإنّه مهما طالت المدّة فإنّه يجازيهم بجزائه الأوفى «وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ».

ولكن لا يقتصر سبحانه وتعالى على مجازاة المحسنين فى الدنيا، بل يجازى المتقين والمحسنين بأحسن من ذلك فى الآخرة وهو الجزاء الأوفى «وَلَأَجْرُ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ».

وَ جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (۵۸) وَ لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَ لَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (۵۹) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِى وَ لَا تَقْرَبُونِ (۶۰) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَ إِنَّا لَفَاعِلُونَ (۶۱) وَ قَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۶۲) إقتراح جديد من يوسف لُاخوته:

وكما كان متوقّعاً، فقد تحسّنت الزراعة فى مصر خلال سبع سنوات متتالية وذلك على أثر توالى الأمطار ووفرة ماء النيل وكثرته، ويوسف قد أجبر أبناء الشعب على أن يبيعوا للدولة الفائض عن حاجتهم من الإنتاج الزراعى، وهكذا امتلأت المخازن بالمنتوجات الزراعية والإستهلاكية ومرّت سبع سنوات من الرخاء والوفرة، وبدأ القحط والجفاف يُظهر وجهه الكريه، ومنعت السماء قطرها، فلم تينع ثمرة، ولم تحمل نخلة.

وهكذا أصاب عامّة الشعب الضيق وقلّت منتوجاتهم الزراعية، لكنّهم كانوا على علم بخزائن الدولة وإمتلائها بالمواد الغذائية، وساعدهم يوسف حيث استطاع- بخطّة محكمة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۷

ومنظمة مع الأخذ بعين الاعتبار الحاجات المتزايدة، فى السنين القادمة- أن يرفع الضيق عن الشعب بأن باع لهم المنتوجات الزراعية مراعياً فى ذلك العدالة بينهم.

وهذا القحط والجفاف لم يكن مقتصراً على مصر وحدها، بل شمل البلدان المحطية بها أيضاً، ومنهم شعب فلسطين وأرض كنعان المتاخمة لمصر والواقعة على حدودها فى الشمال الشرقى، وكانت عائلة يوسف تسكن هناك وقد تأثّرت بالجفاف، واشتدّ بهم الضيق، بحيث اضطرّ يعقوب أن يرسل جميع أولاده- ما عدا بنيامين الذى أبقاه عنده بعد غياب يوسف- إلى مصر، حيث سافروا مع قافلة

كانت تسير إلى مصر ووصلوا إليها- كما قيل- بعد ۱۸ يوماً.

وتذكر المصادر التاريخية أنّ الأجانب عند دخولهم إلى الأراضى المصرية كانوا ملزمين بتسجيل أسمائهم فى قوائم معينة لكى تعرض على يوسف، ومن هنا فحينما عرض الموظفون تقريراً على يوسف عن القافلة الفلسطينية وطلبهم للحصول على المؤن والحبوب رأى يوسف أسماء اخوته بينهم وعرفهم وأمر بإحضارهم إليه، دون أن يتعرف أحد على حقيقتهم وأنّهم اخوته ....

يقول القرآن الكريم: «وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ». وكان طبيعياً أن لا يتعرف إخوة يوسف عليه لأنّه فى جانب كان قد مضى على فراقهم إياه منذ أن أودعوه الجبّ وخرج منه ودخل إلى مصر ما يقرب من أربعين سنة، ومن جهة اخرى كان لا يخطر ببالهم أنّ أخوهم صار عزيزاً لمصر، وحتى لو رأوا الشبه بين العزيز وبين أخيهم لحملوه على الصدفة.

كما أنّ احتمال بقاء يوسف على قيد الحياة بعد هذه المدة كان ضعيفاً عندهم، وعلى أية حال فإنّ إخوة يوسف قد اشتروا ما طلبوه من الحبوب.

أمّا يوسف فإنّه قد رحّب بإخوته ولاطفهم وفتح باب الحديث معهم، قالوا: نحن عشرة إخوة من أولاد يعقوب، ويعقوب هو ابن إبراهيم الخليل نبى اللّه العظيم، وأبونا أيضاً من أنبياء اللّه العظام، وقد كبر سنّه وألمّ به حزن عميق ملك عليه وجوده.

فسألهم يوسف: لماذا هذا الغم والحزن؟

قالوا: كان له ولد أصغر من جميع إخوته وكان يحبّه كثيراً، فخرج معنا يوماً للنزهة والتفرج والصيد وغفلنا عنه فأكله الذئب، ومنذ ذلك اليوم وأبونا يبكى لفراقه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۶۸

نقل بعض المفسرين أنّه كان من عادة يوسف أن لا يعطى ولا يبيع لكل شخص إلّاحمل بعير واحد، وبما أنّ إخوته كانوا عشرة فقد باع لهم ۱۰ أحمال من الحبوب، فقالوا: إنّ لنا أباً شيخاً كبيراً عاجزاً عن السفر وأخاً صغيراً يرعى شؤون الأب الكبير، فطلبوا من العزيز أن يدفع إليهم حصّتهما، فأمر يوسف أن يضاف إلى حصصهم حملان آخران، ثمّ توجّه إليهم مخاطباً إيّاهم وقال: فأتوا بأخيكم الصغير فى سفركم القادم لتثبتوا صدقكم، وتدفعوا التّهمة عن أنفسكم. وهنا يقول القرآن الكريم: إنّه حينما جهّزهم يوسف بجهازهم وأرادوا الرحيل عن مصر «وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ». لكنّه ختم كلامه بتهديد مبطّن لهم، وهو إنّنى سوف أمنع عنكم المؤن والحبوب إذا لم تأتونى بأخيكم: «فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ»، وكان يوسف يحاول بشتّى الطرق، تارة بالتهديد، واخرى بالتحبب، أن يلتقى بأخيه بنيامين ويبقيه عنده، وظهر من سياق الآيات، أمران: أنّ الحبوب كانت تباع وتشترى فى مصر بالكيل لا بالوزن، واتّضح أيضاً أنّ يوسف كان يستقبل الضيوف- ومنهم اخوته- الذين كانوا يفدون إلى مصر بحفاوة بالغة ويستظيفهم بأحسن وجه.

وأجاب إخوة يوسف على طلب أخيهم: «قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ».

ويستفاد من قوله «إِنَّا لَفَاعِلُونَ» وإجابتهم الصريحة لعزيز مصر، أنّهم كانوا مطمئنين إلى قدرتهم على التأثير على أبيهم وأخذ الموافقة منه، وكيف لا يكونون مطمئنين بقدرتهم على ذلك وهم الذين استطاعوا بإصرارهم وإلحاحهم أن يفرّقوا بين يوسف وأبيه؟!

وأخيراً أمر يوسف رجاله بأن يضعوا الأموال التى اشتروا بها الحبوب فى رحالهم- جلباً لعواطفهم- «وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

لماذا لم يظهر يوسف حقيقته لإخوته؟ بالنسبة للآيات السابقة فإنّ أوّل ما يتبادر إلى الذهن هو إنّه لماذا لم يعرّف يوسف نفسه لإخوته، حتى يقفوا على حقيقة حاله ويرجعوا إلى أبيهم ويخبرونه عن مصير يوسف، وبذلك تنتهى آلامه لأجل فراق يوسف؟

حاول جمع من المفسرين- كالعلّامة الطبرسى فى مجمع البيان والعلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان والقرطبى فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن- الإجابة على هذا السؤال، وذكروا له عدّة أجوبة، ولعل أحسنها وأقربها هو أنّ يوسف لم يكن مجازاً من قبل اللّه

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۶۹

سبحانه وتعالى فى إخبار أبيه، لأنّ قصة يوسف مع غض النظر عن خصائصه الذاتية كانت ساحة لاختبار يعقوب وحقلًا لإمتحانه، فلابدّ من أن يؤدّى يعقوب إمتحانه ويجتاز فترة الاختبار قبل أن يسمح ليوسف بإخباره، وإضافة إلى هذا فإنّ إسراع يوسف فى إخبار إخوته قد يؤدّى إلى عواقب غير محمودة، مثلًا قد يستولى عليهم الخوف والهلع من إنتقام يوسف منهم لما إرتكبوه سابقاً فى حقه فلا يرجعوا إليه.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (۶۳) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۶۴) وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِى هذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَ نَمِيرُ أَهْلَنَا وَ نَحْفَظُ أَخَانَا وَ نَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (۶۵) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (۶۶) موافقة يعقوب: رجع اخوة يوسف إلى كنعان فرحين حاملين معهم المتاع الثمين، لكنّهم كانوا يفكّرون بمصيرهم فى المستقبل وأنّه لو رفض الأب ولم يوافق على سفر أخيهم الصغير (بنيامين) فإنّ عزيز مصر سوف لن يستقبلهم، كما إنّه لا يعطيهم حصّتهم من الحبوب والمؤن. ومن هنا يقول القرآن: «فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ» ولا سبيل لنا للحصول عليه إلّاأن ترسل معنا أخانا «فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ» وكن على يقين من أنّنا سوف نحافظ عليه ونمنعه من الآخرين «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».

ثم أضاف: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ».

ثم إنّ الاخوة حينما عادوا من مصر «وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ» فشاهدوا أنّ هذا الأمر هو برهان قاطع على صحّة طلبهم، فجاؤوا إلى أبيهم و «قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِى هذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّت إِلَيْنَا».

فيا أبانا ليس هناك مجال للتأخير- ابعث معنا أخانا لكى نسافر ونشترى الطعام «وَنَمِيرُ أَهْلَنَا» وسوف نكون جادّين فى حفظ أخينا «وَنَحْفَظُ أَخَانَا»، وهكذا نتمكن من أن نشترى كيل بعير من الحبوب «وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ» وإنّنا على يقين فى أنّ سماحة

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۷۰

العزيز وكرمه سوف يسهّلان حصوله «ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ». وفى كل الأحوال رفض يعقوب إرسال إبنه بنيامين معهم، ولكنّه كان يواجه إصرار أولاده بمنطقهم القوى بحيث اضطر إلى التنازل على مطلبهم ولم ير بدّاً من القبول، ولكنّه وافق بشرط: «قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ إِلَّا أن يُحاطَ بِكُمْ».

والمقصود من قوله «مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ» هو العهد واليمين المتضمن لإسم اللّه سبحانه وتعالى.

فقد وافق اخوة يوسف بدورهم على شرط أبيهم، وحينما أعطوه العهد والمواثيق المغلّظة قال يعقوب: «فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ».

وَ قَالَ يَا بَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَ مَا أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَىْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (۶۷) وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِى عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۶۸) وأخيراً توجّه إخوة يوسف صوب مصر للمرّة الثانية بعد إذن أبيهم وموافقته على إصطحاب أخيهم الصغير معهم، وحينما أرادوا الخروج ودعهم أبوهم موصياً إيّاهم بقوله:

«وَقَالَ يَا بَنِىَّ لَاتَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ».

ثم أضاف: إنّه ليس فى مقدورى أن أمنع ما قد قدّر لكم فى علم اللّه سبحانه وتعالى «وَمَا أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ».

ثم قال أخيراً: «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ».

لا شك فى أنّ عاصمة مصر كانت تمتلك أبواباً متعددة، ذهب جمع من المفسرين إلى أنّ سبب هذه النصيحة هو أنّ إخوة يوسف

كانوا يتمتعون بقسط وافر من الجمال وبأجسام قوية رشيقة، وكان الأب الحنون فى قلق شديد من الفات نظر الناس إلى هذه المجموعة المكوّنة فيصيبهم الحسد من تلك العيون الفاحصة.

وهناك سبب آخر وهو أنّ دخول هذه المجموعة إلى مصر بوجوههم المشرقة وأجسامهم الرشيقة القويمة قد يثير الحسد والبغضاء فى بعض النفوس الضعيفة فيسعون ضدّهم عند السلطان.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۱

واصل الاخوة سيرهم نحو مصر، وبعد أن قطعوا مسافة طويلة وشاسعة بين كنعان ومصر دخلوا الأراضى المصرية، وعند ذاك «وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ». فهم برغم تفرّقهم إلى جماعات صغيرة- طبقاً لما وصّاهم به أبوهم- فإنّ الفائدة والثمرة الوحيدة التى ترتّبت على تلك النصيحة ليس «إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضهَا». وهذه إشارة إلى أنّ أثرها لم يكن سوى الهدوء والطمأنينة التى إستولت على قلب الأب الحنون الذى بعد عنه أولاده، وبقى ذهنه وفكره مشغولًا بهم وبسلامتهم وخائفاً عليهم من كيد الحاسدين وشرور الطامعين، فما كان يتسلّى به فى تلك الأيّام لم يكن سوى يقينه القلبى بأنّ أولاده سوف يعملون بنصيحته.

ثمّ يستمرّ القرآن فى مدح يعقوب ووصفه بقوله: «وَإِنَّهُ لَذُو عِلْم لِّمَا عَلَّمْنهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ». وهذه إشارة إلى أنّ كثيراً من الناس يتيهون فى الأسباب وينسون قدرة اللَّه سبحانه وتعالى، إلّاأنّ يعقوب كان عالماً بأنّه بدون إرادة اللَّه سبحانه وتعالى لا يحدث شىء، فكان يتوكّل فى الدرجة الاولى على اللَّه سبحانه وتعالى ويعتمد عليه، ثم يبحث عن عالم الأسباب.

وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۶۹) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (۷۰) قَالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَا ذَا تَفْقِدُونَ (۷۱) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ (۷۲) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ وَ مَا كُنَّا سَارِقِينَ (۷۳) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (۷۴) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (۷۵) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (۷۶)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۲

يوسف يخطّط للإحتفاظ بأخيه: وأخيراً دخل الاخوة على يوسف وأعلموه بأنّهم قد نفّذوا طلبته واصطحبوا معهم أخاهم الصغير برغم إمتناع الأب فى البداية، ولكنّهم أصرّوا عليه وإنتزعوا منه الموافقة لكى يثبتوا لك إنّهم قد وفوا بالعهد، أمّا يوسف فإنّه قد إستقبلهم بحفاوة وكرم بالغين ودعاهم لتناول الطعام على مائدته، فأمر أن يجلس كل إثنين منهم على طبق من الطعام، ففعلوا وجلس كل واحد منهم بجنب أخيه على الطعام، وبقى بنيامين وحيداً فتألّم من وحدته وبكى وقال: لو كان أخى يوسف حيّاً لعطف علىّ ولأجلسنى إلى جنبه على المائدة لأنّنا إخوة من أب واحد وامّ واحدة، قال يوسف مخاطباً إيّاهم: إنّ أخاكم بقى وحيداً وإنّنى سأجلسه بجنبى على المائدة ونأكل سويّة من الطعام، ثم بعد ذلك أمر يوسف بأن تهيّأ لهم الغرف ليستريحوا فيها وليناموا، ومرّة اخرى بقى بنيامين وحيداً، فاستدعاه يوسف إلى غرفته وبسط له الفراش إلى جنبه، لكنّه لاحظ فى تقاسيم وجهه الحزن والألم وسمعه يذكر أخاه المفقود (يوسف) متأوهاً، عند ذاك نفذ صبر يوسف وكشف عن حقيقة نفسه، والقرآن الكريم يصف هذه الوقائع بقوله: «وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

«تبتئس»: مأخوذ من مادّة «البؤس» وهو أصل بمعنى الضرر والشدّة، لكن فى الآية الشريفة استعملت بمعنى: لا تسلط الغمّ على نفسك ولا تكن حزيناً من معاملتهم لك، والمراد بقوله «يعملون» هو معاملة الاخوة السيئة لأخيهم بنيامين حيث خطّطوا لإبعاده وطرده من بينهم كما فعلوا بيوسف.

وتقول بعض الروايات: إنّه عند ذاك إقترح يوسف على أخيه بنيامين وقال له: هل تودّ أن تبقى عندى ولا تعود معهم؟

قال بنيامين: نعم، ولكن إخوتى لا يوافقون على ذلك.

قال يوسف: لا تهتمّ بهذا الأمر فإنّى سوف أضع خطّة محكمة بحيث يضطرّون لتركك عندى والرجوع دونك.

وبدأ يوسف بتنفيذ الخطّة، وأمر بأن يعطى لكلّ واحد منهم حصّة من الطعام والحبوب ثم عند ذاك «فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ».

لا شك فى أنّ يوسف قام بهذا العمل بسرية تامة، ولعله لم يطلع على هذه الخطة سوى موظف واحد وعند ذاك إفتقد العاملون على تزويد الناس بالمؤونة الكيل الملكى الخاص،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۳

وبحث عنه الموظفون والعمّال كثيراً لكن دون جدوى وحينئذ «أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ».

وحينما سمع إخوة يوسف هذا النداء إرتعدت فرائصهم وإستولى عليهم الخوف، حيث لم يخطر ببالهم أن يتهموا بالسرقة بعد الحفاوة التى قوبلوا بها من جانب يوسف، فتوجّهوا إلى الموظفين والعمال وقالوا لهم: ماذا فقدتم؟ «قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ».

قالوا: قد فقدنا صواع الملك ونظنّ إنّه عندكم «قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ» وبما أنّ الصواع ثمين ومورد علاقة الملك فإنّ لمن يعثر عليه جائزة، وهى حمل بعير من الطعام «وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ». ثم أضاف المؤذن والمسؤول عن البحث عن الصواع المفقود: إنّنى شخصياً أضمن هذه الجائزة «وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ».

فاشتدّ إضطراب الاخوة لسماعهم هذه الامور وزادت مخاوفهم، وتوجّهوا إلى الموظف مخاطبين إياه «قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ».

إلّا أنّ الموظفين توجّهوا إليهم و «قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ».

أجاب الاخوة: إنّ عقاب من وجد الصواع فى رحله هو أن يؤخذ الشخص نفسه بدل الصواع «قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ». وإنّ هذا العقاب هو جزاء السارق «كَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ». وحينئذ أمر يوسف الموظفين والعمال بأن تنزل رحالهم من على ظهور الجمال ويفتح متاعهم وأن يبحثوا فيها واحداً بعد واحد ودون استثناء، وتجنّباً عن إنكشاف الخطة أمر يوسف بأن يبدأوا البحث والتفتيش فى أمتعة الاخوة أوّلًا قبل أمتعة أخيه بنيامين، لكنهم وجدوه أخيراً فى أمتعة بنيامين «فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ».

بعد أن عثر على الصاع فى متاع بنيامين، إستولى الإرتباك والدهشة على الاخوة، وصعقتهم هذه الواقعة ورأوا أنفسهم فى حيرة غريبة، فمن جهة قام أخوهم بعمل قبيح وسرق صواع الملك، وهذا يعود عليهم بالخزى والعار، ومن جهة اخرى إنّ هذا العمل سوف يفقدهم اعتبارهم ونفوذهم عند الملك خصوصاً مع حاجتهم الشديدة إلى الطعام، وإضافةً إلى كل هذا، كيف يجيبون على استفسارات أبيهم؟ وكيف يقنعونه بذنب ابنه وعدم تقصيرهم فى ذلك؟

ثم يستمرّ القرآن الكريم ويبين كيف استطاع يوسف أن يأخذ أخاه بالخطة التى رسمها

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۴

اللّه له دون أن يثير فى اخوته أى نوع من المقاومة والرفض «كَذلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ». والأمر المهم فى هذه القضية هو أنّه لو أراد يوسف أن يعاقب أخاه بنيامين،- وطبقاً للقانون المصرى- لكان عليه أن يضرب أخاه ويودعه السجن لكن مثل هذه المعاملة كانت تخالف رغبات وأهداف يوسف للإحتفاظ بأخيه، ومن هنا وقبل القبض على بنيامين، سأل إخوته عن عقوبة السارق عندهم، فاعترفوا عنده بأنّ السنة المتّبعة عندهم فى معاقبة السارق أن يعمل السارق عند المعتدى عليه كالعبد.

لا ريب إنّ للعقوبة والجزاء طرقاً عديدة منها أن يعاقب المعتدى على طبق ما يعاقب به فى قومه، وهكذا عامل يوسف أخاه بنيامين، وتوضيحاً لهذه الحالة وأنّ يوسف لم يكن بإمكانه أخذ أخيه طبقاً للدستور المصرى يقول القرآن الكريم: «مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ

الْمَلِكِ». لكن اللّه سبحانه وتعالى يستثنى بقوله: «إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ». وهو إشارة إلى أنّ ما فعله يوسف بأخيه لم يكن إلّابأمر منه سبحانه وتعالى وطبقاً لإرادته فى الإحتفاظ ببنيامين، واستمراراً لإمتحان يعقوب وأولاده.

وأخيراً يضيف القرآن الكريم ويقول: إنّ اللّه سبحانه يرفع درجات من استطاع أن يفوز فى الامتحان ويخرج مرفوع الرأس كما حدث ليوسف «نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ» ولكن فى كل الأحوال فإنّ اللّه تعالى عليم يهدى الإنسان إلى سواء السبيل وهو الذى أوقع هذه الخطة فى قلب يوسف وألهمه إيّاها «وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ».

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (۷۷) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (۷۸) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ (۷۹) موقف إخوة يوسف: وأخيراً إقتنع اخوة يوسف بأنّ أخاهم (بنيامين) قد إرتكب فعلًا شنيعاً وقبيحاً وإنّه قد شوّه سمعتهم وخذلهم عند عزيز مصر، فأرادوا أن يبرّأوا أنفسهم ويعيدوا ماء وجههم «قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ». أى إنّه لو قام بالسرقة فهذا ليس بأمر عجيب منه فإنّ أخاه يوسف وهو أخوه لأبويه قد إرتكب مثل هذا العمل القبيح،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۵

ونحن نختلف عنهما فى النسب.

وحينما سمع يوسف كلامهم تأثر بشدة لكنه كتم ما فى نفسه: «فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ» لأنّه كان عالماً بأنّهم قد افتروا عليه واتّهموه كذباً، إلّاأنّه لم يرد عليهم وقال لهم باختصار وإقتضاب: «قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا». أى: إنّكم أحقر وأشرّ مكاناً ممّن تتّهمونه وتنسبون إليه السرقة، أو أنتم أحقر الناس عندى.

ثم أضاف يوسف: إنّ اللّه سبحانه وتعالى أعلم بما تنسبون «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ».

وعندما لاحظ الإخوة أنفسهم محاصرين بين أمرين، فمن جهة- وطبقاً للسنّة والدستور المتعيّن عندهم- لابدّ وأن يبقى أخوهم الصغير بنيامين عند عزيز مصر ويقوم بخدمته كسائر عبيده، ومن جهة اخرى فإنّهم قد أعطوا لأبيهم المواثيق والأيمان المغلّظة على أن يحافظوا على أخيهم بنيامين ويعودوا به سالماً إليه، حينما وقعوا فى هذه الحالة توجّهوا إلى يوسف الذى كان مجهول الهوية عندهم، مخاطبين إيّاه «قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ» لكى نرجعه إلى أبيه ونكون قد وفينا بالوعد الذى قطعناه له، فإنّه شيخ كبير ولا طاقة له بفراق ولده العزيز، فنرجو منك أن تترحّم علينا وعلى أبيه ف «إِنَّا نَرَيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ».

أمّا يوسف فإنّه قد واجه هذا الطلب بالإنكار الشديد و «قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ» فإنّ العدل والإنصاف يقتضى أن يكون المعاقب هو السارق، وليس بريئاً رضى بأن يتحمل أوزار عمل غيره، ولو فعلنا لأمسينا من الظالمين «إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ».

والطريف أنّ يوسف لم ينسب لأخيه السرقة وإنّما عبّر عنه ب «مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ» وهذا برهان على السلوك الحسن والسيرة المستقيمة التى كان ينتهجها يوسف فى حياته.

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (۸۰) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَ مَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَ مَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (۸۱) وَ اسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَ الْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (۸۲)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۶

رجوع الاخوة إلى أبيهم خائبين: حاول الاخوة أن يستنقذوا أخاهم بنيامين بشتّى الطرق، إلّاأنّهم فشلوا فى ذلك، ورأوا أنّ جميع سبل النجاة قد سدّت فى وجوههم، إستولى عليهم اليأس وصمموا على الرجوع والعودة إلى كنعان لكى يخبروا أباهم، يقول القرآن واصفاً إيّاهم «فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا». أى: إنّهم بعد أن يئسوا من عزيز مصر أو من إنقاذ أخيهم، إبتعدوا عن الآخرين واجتمعوا فى جانب وبدأوا بالتشاور والنجوى فيما بينهم.

قوله تعالى «خلصوا»: بمعنى الخلوص، وهو كناية عن الإبتعاد عن الآخرين والاجتماع فى جلسة خاصه، أمّا قوله تعالى «نجيّاً»: فهو من مادّة «المناجاة» وأصله من «نجوة» بمعنى الربوة والأرض المرتفعة، فباعتبار أنّ الربوات منعزلة عن أراضيها المجاورة، سمّيت الجلسات الخاصة البعيدة عن عيون الغرباء والحديث فى السر قياساً عليها ب «النجوى».

وفى ذلك الاجتماع الخاص خاطبهم الأخ الكبير قائلًا: «قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ» بأن تردّوا إليه بنيامين سالماً، فالآن بماذا تجيبونه؟ وقد سوّدنا صفحتنا فى المرّة السابقة بما عاملنا به أخانا يوسف «وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ» فالآن والحالة هكذا، فإنّنى لا اغادر أرض مصر وسوف أعتصم فيها «فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ». والظاهر أنّ قصده بحكم اللّه، إمّا الموت الذى هو حكم إلهى، أى لا أبرح من هذه الأرض حتى أموت فيها، وإمّا أن يفتح اللّه سبحانه وتعالى له سبيلًا للنجاة، أو عذراً مقبولًا عند أبيه.

ثم أمرهم الأخ الأكبر أن يرجعوا إلى أبيهم ويخبروه بما جرى عليهم «ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ». وهذه شهادة نشهدها بمقدار علمنا عن الواقعة حيث سمعنا بفقد صواع الملك، ثمّ عثر عليه عند أخينا، وظهر للجميع إنّه قد سرقها «وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا» ولكن نحن لا نعلم إلّاما شهدناه بأعيننا وهذا غاية معرفتنا «وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ».

ثم أرادوا أن يزيلوا الشك والريبة عن قلب أبيهم فقالوا يمكنك أن تتحقق وتسأل من المدينة التى كنا فيها «وَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا» «۱». ومن القافلة التى سافرنا معها إلى مصر

---

(۱) «القرية»: يشمل جميع الأرياف والمدن والقرى الصغيرة منها والكبيرة. والمقصود منها فى الآية هى مصر.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۷۷

ورجعنا معها، حيث إنّ فيها اناساً يعرفونك وتعرفهم، وبمقدورك أن تسألهم عن حقيقة الحال وواقعها «وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا» «۱».

وفى كل الأحوال كن على ثقة بأنّنا صادقون ولم نقص عليك سوى الحقيقة والواقع «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ».

يستفاد من مجموع هذه الكلمات والحوار الذى دار بين الأولاد والأب أنّ قضية سرقة بنيامين كانت قد شاعت فى مصر، وأنّ جميع الناس علموا بأنّ أحد أفراد العير والقافلة القادمة من كنعان حاول سرقة صواع الملك، لكن موظفى الملك تمكّنوا بيقظتهم من العثور عليها والقبض على سارقها.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (۸۳) وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (۸۴) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (۸۵) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَ حُزْنِى إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (۸۶) يعقوب والألطاف الإلهية: وأخيراً غادروا مصر متّجهين إلى كنعان فى حين تخلف أخواهم الكبير والصغير، ووصلوا إلى بيتهم منهوكى القوى وذهبوا لمقابلة أبيهم، وحينما رأى الأب الحزن والألم مستولياً على وجوههم (خلافاً للسفرة السابقة والتى كانوا فيها فى غاية الفرح) علم أنّهم يحملون إليه أخباراً محزنة وخاصه حينما إفتقد بينهم بنيامين وأخاه الأكبر، وحينما أخبروه عن الواقعة بالتفصيل، إستولى عليه الغضب وقال مخاطباً إيّاهم بنفس العبارة التى خاطبهم بها حينما أرادوا أن يشرحوا له خديعتهم مع يوسف «قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا». أى: إنّ أهواءكم الشيطانية هى التى إستولت عليكم وزيّنت لكم الأمر بهذه الصورة التى أنتم تصفونه.

لكن بعد هذا العتاب الملىء بالحزن والأسى رجع يعقوب إلى قرارة نفسه وقال: «فَصَبْرٌ

---

(۱) «عير»: تعنى الجماعة التى تصحب معها الإبل والدواب المحمّلة بالغذاء، أى يطلق على المجموع «عير» فعلى هذا يكون السؤال منهم ممكناً لأنّ الكلمة تشمل الأشخاص أيضاً ولا حاجة للتقدير.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۷۸

جَمِيلٌ». أى: أنّنى سوف أمسك بزمام نفسى، ولا أسمح لها بأن تطغى علىّ بل أصبر صبراً جميلًا على أمل بأنّ اللَّه سبحانه وتعالى سوف يعيد لى أولادى (يوسف وبنيامين وأخوهم الأكبر) «عَسَى اللَّهُ أن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا». فإنّه هو العالم بواقع الامور والخبير بحوادث العالم ما مضى منها وما سوف يأتى، ولا يفعل إلّاعن حكمة وتدبير «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ». ثم بعد هذه المحاورات بين يعقوب وأولاده، إستولى عليه الحزن والألم، وحينما رأى مكان بنيامين خالياً عادت ذكريات ولده العزيز يوسف إلى ذهنه، وتذكّر تلك الأيام الجميلة التى كان يحتضن فيها ولده الجميل ذا الأخلاق الفاضلة والصفات الحسنة والذكاء العالى فيشمّ رائحته الطيّبة ويستعيد نشاطه، أمّا اليوم فلم يبق منه أثر ولا عن حياته خبر، كما أنّ خليفته (بنيامين) أيضاً قد ابتلى مثل يوسف بحادث مؤلم وذهب إلى مصير مجهول لا تعرف عاقبته.

حينما تذكّر يعقوب هذه الامور إبتعد عن أولاده واستعبر ليوسف «وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ». واشتدّ حزن يعقوب وبكاؤه على المصائب المتكرّرة وفقد أعزّ أولاده «وابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ». لكن يعقوب كان مسيطراً على حزنه ويخفّف من آلامه ويكظم غيظه ولا يتفوّه بما لا يرضى به اللَّه سبحان وتعالى «فَهُوَ كَظِيمٌ».

أمّا الإخوة فكانوا متألّمين من جميع ما جرى لهم، فمن جهة كان عذاب الوجدان لا يتركهم مما أحدثوه ليوسف، وفى قضية بنيامين شاهدوا أنفسهم فى وضع صعب وامتحان جديد، ومن جهة ثالثة كان يصعب عليهم أن يشاهدوا أباهم يتجرّع غصص المرارة والألم ويواصل بكاءه الليل بالنهار، فلذلك توجهوا إلى أبيهم وخاطبوه معاتبين: «قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ» «۱». أى: إنّك تردّد ذكر يوسف وتتأسّف عليه حتى وتقع على فراش المرض وتشرف على الهلاك وتموت.

لكن شيخ كنعان هذا النبى العظيم صاحب الضمير اليقظ ردّ عليهم بقوله: «إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ» «۲». لا إليكم، أنتم الذين تخونون الوعد وتنكثون العهد لأنّنى «وَأَعْلَمُ مِنَ

---

(۱) «حرض»: بمعنى الشيء الفاسد والمؤلم، والمقصود منه هنا هو المريض الذى ضعف جسمه وصار مشرفاًعلى الموت.

(۲) «بثّ»: بمعنى التفرقة والشيء الذى لا يمكن اخفاؤه، والمقصود منه هنا هو الألم والحزن الظاهر الذى لايخفى على أحد.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۷۹

اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ» فهو اللطيف الكريم الذى لا أطلب سواه.

يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (۸۷) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ (۸۸) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (۸۹) قَالُوا أَ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هذَا أَخِى قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۹۰) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَ إِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (۹۱) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۹۲) اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيراً وَ أْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (۹۳) اليأس علامة الكفر: كان القحط والغلاء وشحّة الطعام يشتدّ يوماً بعد آخر فى مصر وما حولها ومنها كنعان، ومرّة اخرى أمر يعقوب أولاده بأن يتّجهوا صوب مصر للحصول على الطعام، لكنّه هذه المرّة طلب منهم بالدرجة الاولى أن يبحثوا عن يوسف وأخيه بنيامين، حيث قال لهم: «يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ».

لكن بما أنّ أولاد يعقوب كانوا مطمئنين إلى هلاك يوسف وعدم بقاءه، تعجبوا من توصية أبيهم وتأكيده على ذلك، لكن يعقوب نهاهم عن اليأس والقنوط ووصّاهم بالإعتماد على اللَّه سبحانه والإتكال عليه بقوله: «وَلَا تَايَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ». فإنّه القادر على حلّ الصعاب و «إِنَّهُ لَايَايَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ».

«تحسّسوا»: أصله من «حس» بمعنى البحث عن الشىء المفقود بأحد الحواس، والفرق بينه وبين «تجسّس» أنّ التحسّس هو البحث عن الخير، والتجسّس هو البحث عن الشر.

قوله تعالى «روح» بمعنى الرحمة والراحة والفرج والخلاص من الشدة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۰

وأخيراً جمع الاخوة متاعهم وتوجّهوا صوب مصر، وهذه هى المرة الثالثة التى يدخلون فيها أرض مصر، هذه الأرض التى سبّبت لهم المشاكل وجرّت عليهم الويلات. لكن فى هذه السفرة- خلافاً للسفرتين السابقتين- كانوا يشعرون بشىء من الخجل يعذّب ضمائرهم فإنّ سمعتهم عند أهل مصر أو العزيز ملوّثة للوصمة التى لصقت بهم فى المرة السابقة، ولعلّهم كانوا يرونهم بمثابة (مجموعة من لصوص كنعان) الذين جاؤوا للسرقة. إلّا أنّ الذى كان يبعث فى نفوسهم الأمل ويعطيهم القدرة على تحمل الصعاب هو وصية أبيهم «لَا تَايَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ».

وأخيراً استطاعوا أن يقابلوا يوسف، فخاطبوه- وهم فى غاية الشدّة والألم- بقولهم:

«فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ». أى: إنّ القحط والغلاء والشدّة قد ألمّت بنا وبعائلتنا ولم نحمل معنا من كنعان إلّامتاعاً رخيصاً «وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ» «۱».

لا قيمة لها ولكن- فى كل الأحوال- نعتمد على ما تبذل لنا من كرمك ونأمل فى معروفك «فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ» بمنّك الكريم وصدقاتك الوافرة «وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا» ولا تطلب منّا الأجر، بل اطلبه من اللَّه سبحانه وتعالى حيث: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ».

والطريف أنّ إخوة يوسف لم ينفذوا وصيّة أبيهم فى البحث عن إخوتهم أوّلًا، بل حاولوا الحصول على الطعام، ولأجل ذلك قابلوا العزيز وطلبوا منه المؤن والحبوب، ولعل السبب فى ذلك ضعف أملهم فى العثور على يوسف، أو لعلّهم أرادوا أن يظهروا أنفسهم أمام العزيز والمصريين وكأنّهم اناس جاؤوا لشراء الطعام والحبوب فقط، ثمّ يطرحون مشكلتهم أمام العزيز ويطلبون منه المساعدة، فعند ذاك يكون وقع الطلب أقوى واحتمال تنفيذه أكثر.

ونقرأ فى روايات وردت فى هذا المقام، أنّ الإخوة كانوا يحملون معهم رسالة من أبيهم إلى عزيز مصر، حيث مدح يعقوب فى تلك الرسالة عزيز مصر وأكبر عدالته وصلاحه وشكره على ما بذله له ولعائلته من الطعام والحبوب، ثم عرّف نفسه والأنبياء من أهل بيته وأخبره برزاياه وما تحمله من المصائب والمصاعب من فقده أعزّ أولاده وأحبّهم إلى نفسه يوسف وأخيه بنيامين، وما أصابهم من القحط والغلاء، وفى ختام الرسالة طلب من العزيز أن يمنّ عليه ويطلق سراح ولده بنيامين، وذكّره أنّ بنيامين سليل بيت النبوة والرسالة وأنّه

---

(۱) «البضاعة»: أصلها «البضع» على وزن جزء، وهى بمعنى القطعة من اللحم المقطوعة من الجسم، كما يطلق على جزء من المال الذى يقتطع منه ثمناً لشىء. «مزجاة»: من «الإزجاء» بمعنى الدفع، وبما أنّ الشىء التافه والقليل الثمن يدفعه الآخذ عن نفسه، اطلق عليه (مزجاة).

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۱

لا يتلوّث بالسرقة وغيرها من الدناءات والمعاصى.

وحينما قدّم الأولاد رسالة أبيهم إلى العزيز شاهدوا أنّه فضّ الرسالة بإحترام وقبلها ووضعها على عينيه وبدأ يبكى بحيث أنّ الدموع بلّت ثيابه.

وفى تلك اللحظة، وبعد أن مضت أيّام الامتحان الصعب وكان قد إشتدت محنة الفراق على يوسف وظهرت عليه آثار الكآبة والهمّ، أراد أن يعرّف نفسه لإخوته فابتدرهم بقوله:

«هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ اذْ أَنتُمْ جاهِلُونَ».

ويستفاد من بعض الرّوايات أنّ يوسف حينما استفسر عمّا فعلوه معه ومع أخيه ختم إستفساره بإبتسامة عريضة ليدفع عن أذهانهم احتمال أنّه سوف ينتقم منهم فظهرت لإخوته أسنانه الجميلة ولاحظوا وتذكّروا الشبه بينه وبين أسنان أخيهم يوسف.

أمّا هم، فإنّهم حينما لاحظوا هذه الامور مجتمعة، وشاهدوا أنّ العزيز يتحدّث معهم ويستفسرهم عمّا فعلوه بيوسف، تلك الأعمال التى لم يكن يعلمها أحد غيرهم إلّايوسف.

ومن جهة اخرى أدهشهم يوسف وما أصابه من الوجد والهياج حينما إستلم كتاب يعقوب، وأحسّوا بعلاقة وثيقة بينه وبين صاحب الرسالة.

وثالثاً: كلّما أمعنوا النظر فى وجه العزيز ودقّقوا فى ملامحه، لاحظوا الشبه الكبير بينه وبين أخيهم يوسف ... لكنهم فى نفس الوقت لم يدر بخلدهم ولم يتصوروا أنّه يمكن أن يكون أخوهم يوسف قد إرتقى منصب الوزارة وصار عزيزاً لمصر، أين يوسف وأين الوزارة والعزّة؟! لكنهم تجرّأوا أخيراً وسألوه مستفسرين منه «قَالُوا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ».

كانت اللحظات تمرّ بسرعة لكن يوسف لم يدع اخوته يطول بهم الإنتظار ورفع الحجاب بينه وبينهم وأظهر لهم حقيقة نفسه و «قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِى». لكن لكى يشكر اللَّه سبحانه وتعالى على ما أنعمه من جميع هذه المواهب والنعم، ولكى يعلّم إخوته درساً آخر من دروس المعرفة قال: إنّه «قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ».

هذه اللحظات الحساسة كانوا لا يطيقون النظر إلى وجه أخيهم يوسف لعلمهم بالذنب والجريمة التى اقترفوها فى حقه، فترقّبوا إجابة يوسف وأنّه هل يغفر لهم إساءتهم إليه ويعفو

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۲

عن جريمتهم أم لا؟ فابتدأوا مستفسرين بقولهم: «قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا» «۱». أى:

إنّ اللَّه سبحانه وتعالى قد فضّلك علينا بالعلم والحلم والحكومة «وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ». أمّا يوسف الذى كانت نفسه تأبى أن يرى إخوته فى حال الخجل والندامة- خاصه فى هذه اللحظات الحساسة وبعد إنتصاره عليهم، فخاطبهم بقوله: «قَالَ لَاتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» «۲». أى:

إنّ العتاب والعقاب مرفوع عنكم اليوم، اطمئنوا وكونوا مرتاحى الضمير ولا تجعلوا للآلام والمصائب السابقة منفذاً إلى نفوسكم، ثم لكى يبيّن لهم أنّه ليس وحده الذى أسقط حقّه وعفا عنهم، بل إنّ اللَّه سبحانه وتعالى أيضاً عفا عنهم حينما أظهروا الندامة والخجل قال لهم: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». أى: إنّ اللَّه سبحانه وتعالى قد قبل توبتكم وعفا عنكم لأنّه أرحم الراحمين.

وهذا دليل على علو قدر يوسف وغاية فضله حيث إنّه لم يعف عن سيّئات إخوته فحسب، بل طمأنهم على أنّ اللَّه سبحانه وتعالى رحيم غفور وأنّه تعالى سوف يعفو عن سيئاتهم، وإستدلّ لهم على ذلك بأنّ اللَّه سبحانه وتعالى هو أرحم الراحمين.

وهنا تذكّر الإخوة مصيبة اخرى قد ألمّت بعائلتهم والشاهد الحى على ما إقترفوه فى حقّ أخيهم، ألا وهو أبوهم حيث فقد الشيخ الكبير بصره حزناً وفراقاً على يوسف، أمّا يوسف فإنّه قد وجد لهذه المشكلة حلًا حيث خاطبهم بقوله: «اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا». ثمّ طلب منهم أن يجمعوا العائلة ويأتوا بهم جميعاً «وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ».

ورد فى بعض الروايات أنّ يوسف قال: إنّ الذى يحمل قميصى المشافى إلى أبى لابدّ وأن يكون هو نفسه الذى حمل قميصى الملطّخ بالدماء إليه، فأعطى ل (يهودا) قميصه بعد أن اعترف له أنّه هو الذى حمل قميصه الملطّخ بالدماء إلى أبيه وأخبره بأنّ الذئب قد أكل يوسف.

إنّ الآيات السابقة تعلّمنا درساً من دروس الأخلاق الإسلاميه، وهو أنّه بعد الإنتصار

---

(۱) «آثرك»: أصله من «الإيثار» وفى الأصل بمعنى البحث عن أثر الشيء، وبما أنّه يقال للفضل والخير: أثر، فقد استعملت هذه الكلمة

للدلالة على الفضيلة والعلو.

(٢) «تثريب»: أصله من مادّة «ثرب ٩ وهو شحمة رقيقة تغطّى المعدة والأمعاء، والتثريب بمعنى رفع هذاالغطاء، ثمّ بمعنى العتاب والملامة فكأنّ المعاقب قد رفع بعتابه غطاء الذنب عن وجه المذنب.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴٨٣

وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩۴) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩۵) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩۶) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) على العدو وكسر شوكته لابدّ أن لا ننسى العفو والرحمة، وأن لا نعامله بقساوة.

كما أنّنا نرى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حينما فتح مكّة وأذلّ المشركين وهزمهم وكسر أصنامهم وداس شوكتهم وكبرياءهم، جاء رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى جوار الكعبة وأخذ بحلقة بابها وكان المشركون قد إلتجؤوا إليها، قال: «وأنا أقول كما قال أخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم».

أى: إنّ اليوم ليس يوم ملامة وإنتقام وإظهار الحقد والضغينة «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وأخيراً شملتهم رعاية اللَّه ولطفه: أمّا أولاد يعقوب فإنّهم بعد أن واجهوا يوسف وجرى لهم ما جرى حملوا معهم قميص يوسف فرحين ومستبشرين وتوجّهوا مع القوافل القادمة من مصر، لكن- مقارناً مع حركة القافلة من مصر- حدث فى بيت يعقوب حادث غريب بحيث أذهل الجميع وصار مثاراً للعجب والحيرة، حيث نشط يعقوب وتحرّك من مكانه وتحدّث كالمطمئن والواثق بكلامه قال: لو لم تتحدّثوا عنّى بسوء ولم تنسبوا كلامى إلى السفاهة والجهل والكذب لقلت لكم: «إِنّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ». فإنّى أحسّ بأنّ أيّام المحنة والآلام سوف تنصرم فى القريب العاجل، وأنّه قد حان وقت النصر واللقاء مع الحبيب، وأرى أنّ آل يعقوب قد نزعوا ثوب العزاء والمصيبة ولبسوا لباس الفرح والسرور لكن لاـ تصدّقون كلامى «وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنّى لَاجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أن تُفَنِّدُونِ».

أمّا الذين كانوا مع يعقوب- وهم عادةً أحفاده وأزواج أولاده وغيرهم من الأهل والعشيرة- فقد إستولى عليهم العجب وخاطبوه بوقاحة مستنكرين: «قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلِلِكَ الْقَدِيمِ». أليس هذا برهاناً واضحاً على ضلالك حيث مضت سنين طويلة على موت يوسف لكنّك لا زلت تزعم أنّه حى، وأخيراً تقول: إنّك تشمّ رائحته من مصر؟! أين مصر وأين الشام وكنعان؟! وهذا دليل على بعدك عن عالم الواقع وإنغماسك فى الأوهام

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴٨۴

والخيالات لكنّك قد ضللت منذ مدّة طويلة، ألم تقل لأولادك قبل فترة اذهبوا إلى مصر وتحسّسوا عن أحوال يوسف!

يظهر من هذه الآية الشريفة أنّ المقصود ب (الضلال) ليس الانحراف فى العقيدة، بل الانحراف فى تشخيص حقيقة حال يوسف والقضايا المتعلّقة به. وبعد عدّة أيام من الإنتظار- والتى لا يعلم إلّااللَّه كيف قضاها يعقوب- إرتفع صوت المنادى معلناً عن وصول قافلة كنعان من مصر، لكن فى هذه المرّة- وخلافاً للمرّات السابقة- دخل أولاد يعقوب إلى المدينة فرحين مستبشرين، وتوجّهوا مسرعين إلى بيت أبيهم، وقد سبقهم ال (بشير) الذى بشّر يعقوب بحياة يوسف وألقى قميص يوسف على وجهه.

أمّا يعقوب الذى أضعفت المصائب بصره ولم يكن قادراً على رؤية القميص فبمجرد أن أحسّ بالرائحة المنبعثة من القميص، وأحسّ يعقوب بتغيّر حالته، وفجأةً رأى النور فى عينيه وأحسّ بأنّهما قد فتحتا ومرّة اخرى رأى جمال العالم، والقرآن الكريم يصف لنا هذه الحالة بقوله: «فَلَمَّا أن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا».

هذه الحالة التى حصلت ليعقوب أسالت دموع الفرح من عيون الإخوة والأهل، وعند ذاك خاطبهم بقوله: «أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنّى أَعْلَمُ مِنَ

اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ».

هذه المعجزة الغريبة، جعلت الأولاد يعودون إلى أنفسهم ويتساءلون عنها ويفكّرون فى ماضيهم الأسود الملىء بالأخطاء والذنوب، وما اعتورهم من الحسد وغيره من الصفات الرذيلة البعيدة عن الإنسانية، لكن ما أجمل التوبة والعودة إلى طريق الصواب حينما ينكشف للإنسان خطأ المسيرة التى سار فيها ... وما أحلى تلك اللحظات التى يحاول المذنب أن يطلب العفو ممّن جنى عليه، ليطهّر به نفسه ويبعدها عن جادة الخطأ والانحراف، وهذا ما قام به الإخوة حيث وقعوا نادمين على يد أبيهم يقبّلونها ويطلبون منه العفو والاستغفار «قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ».

أمّا يعقوب هذا الرجل العظيم الذى كانت روحه أوسع من المحيطات، فقد أجابهم دون أن يلومهم على تلك الأفعال التى اقترفوها فى حقّه وحقّ أخيهم ... أجابهم بقوله: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبّى» وأملى معقود بأن يغفر اللَّه سبحانه وتعالى ذنوبكم «إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۸۵

بحوث

۱- الوعد بالاستغفار: نقرأ فى الآيات- محل البحث- أنّ يوسف عليه السلام قال لإخوته عندما أظهروا له ندامتهم: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ» إلّاأنّ يعقوب عليه السلام قال لهم عندما اعترفوا عنده بالذنب وأظهروا الندامة: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ» وكان هدفه- كما تقول الرّوايات- أن يؤخّر إستجابة طلبهم الاستغفار إلى السحر (من ليلة الجمعة) الذى هو خير وقت لإستجابة الدعاء وقبول التوبة.

۲- التوسل جائز: يستفاد من الآيات- آنفة الذكر- أنّ طلب الاستغفار من الآخرين غير مناف للتوحيد، بل هو سبيل إلى الوصول إلى لطف اللَّه سبحانه، وإلّا فكيف كان يمكن ليعقوب أن يستجيب لطلب أبنائه فى أن يستغفر لهم وأن يجيبهم بالإيجاب على توسلهم به.

۳- نهاية الليلة السوداء: إنّ الدرس الكبير الذى نستلهمه من الآيات المتقدمة هو أنّه مهما كانت المشاكل والحوادث صعبة وعسيرة، ومهما كانت الأسباب والعلل الظاهرية غير تامة ومحدودة، ومهما كان النصر أو الفرج بطيئاً (أو غير متحقق فعلًا) فإنّ أيّاً من اولئك لا يمنع من الرجاء والأمل بلطف اللَّه، فاللَّه الذى أعاد البصر برائحة القميص ونقل رائحة ذلك القميص من مسافة بعيدة، وردّ العزيز المفتقد بعد سنين طويلة، قادر على أن يضمّد القلوب المجروحة من الفراق، وأن يشفى آلام النفوس.

أجل إنّنا نجد الدرس التوحيدى الكبير ينطوى فى هذا القصص والتاريخ، وهو أنّه لا شىء على اللَّه بعزيز ولا عسير، بل يهون كل شىء بأمره وإرادته: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَ قَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (۹۹) وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاىَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقّاً وَ قَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَ جَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِى وَ بَيْنَ إِخْوَتِى إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (۱۰۰) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّى فِى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ (۱۰۱)

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۴۸۶

عاقبة أمر يوسف وأبيه وإخوته: مع وصول القافلة التى تحمل أعظم بشارة من مصر إلى كنعان ينبغى على أهل هذا البيت- وفقاً لوصية يوسف- أن يتحرّكوا ويتّجهوا نحو مصر، وتهيأت مقدمات السفر من جميع النواحى، وركب يعقوب راحلته وشفتاه رطبتان بذكر اللَّه وتمجيده.

وهذا السفر كان خالياً من أيّة شائبة من شوائب الهمّ والغم. وحتى لو كان السفر بنفسه متعباً، فهذا التعب لم يكن شيئاً ذا بال قِبال ما يهدفون إليه فى مسيرهم هذا.

كانوا يطوون الليالى والأيّام ببطء، إلّاأنّ القرآن الكريم- كعادته دائماً- حذف هذه المقدمات التى يمكن أن تدرك بأدنى تفكر

وتأمل، فقال فى هذا الشأن: «فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ».

«آوى»: تعنى فى الأصل إنضمام شىء إلى شىء آخر، وضمّ يوسف أبويه إليه كناية عن إحتضانهما ومعانقتهما.

وأخيراً تحقّقت أحلى سويعات الحياة ليعقوب، وفى هذا اللقاء والوصال الذى تم بين يعقوب ويوسف بعد سنين من الفراق، مرّت على يعقوب ويوسف لحظات لا يعلم إلّااللّه عواطفها فى تلك اللحظات الحلوة، وأيّة دموع إنسكبت من عينيهما من الفرح.

وعندها التفت يوسف إلى إخوته وأبويه «وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ» لأنّ مصر أصبحت تحت حكم يوسف فى أمن وأمان واطمئنان.

ويُستشفّ من هذه الجملة أنّ يوسف كان قد خرج إلى خارج بوّابة المدينة لإستقبال والديه وإخوته، ولعل التعبير ب «دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ» يحتمل أن يكون يوسف قد أمر أن تنصب الخيام هناك «خارج المدينة» وأن تُهيأ مقدّمات الإستقبال لأبويه وإخوته.

فلمّا دخلوا القصر أكرمهم يوسف «وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ».

وكانت هذه العظمة من النعمة الإلهية واللطف والموهبة التى منّ اللّه بها على يوسف قد أدهشت إخوة يوسف وأبويه فذهلوا جميعاً «وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا».

وعندها إلتفت يوسف عليه السلام إلى أبيه «وَقَالَ يَا أَبَتِ هذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ».

ألم يقل أنّى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين؟!

فانظر يا أبت كما كنت تتوقّع من عاقبة أمرى «قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا* وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۷

الطريف هنا أنّ يوسف تكلّم هنا عن سجنه فى مصر من بين جميع مشاكله ولم يتكلّم على الجبّ مراعاةً لإخوته.

ثم أضاف يوسف قائلًا: «وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى».

وأخيراً يقول يوسف: إنّ جميع هذه المواهب هى من قِبَل اللّه، ولِمَ لا تكون كذلك ف «إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ».

فيتولّى امور عباده بالتيسير والتدبير ... وهو يعلم من هو المحتاج ومن هو الجدير بالإستجابة «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ».

ثمّ يلتفت يوسف نحو مالك الملك الحقيقى وولى النعمة الدائمة فيقول شاكراً راجياً: «رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ».

وهذا العلم البسيط بحسب الظاهر «تأويل الأحاديث» كم كان له من أثر عظيم فى تغيير حياتى وحياة جماعة آخرين من عبادك، وما أعظم بركة العلم!

فأنت ياربّ: «فَاطِرَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». ولذلك فقد خضعت وإستسلمت قبال قدرتك جميع الأشياء.

ربّاه: «أَنتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ».

أى: إنّنى لا ـ أطلب دوام الملك وبقاء الحكم والحياة المادية منك يا ربّ، لأنّ هذه الامور جميعها فانية وليس فيها سوى البريق الجذاب. بل أطلب منك يا ربّ أن تكون عاقبة أمرى على خير، وأن أقضى حياتى وأموت مؤمناً فى سبيلك مسلّماً لإرادتك، وأن أكون فى صفوف الصالحين، فهذه الامور هى المهمة لدى فحسب.

ذلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ (۱۰۲) وَ مَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (۱۰۳) وَ مَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (۱۰۴) وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَ هُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (۱۰۵) وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (۱۰۶) أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (۱۰۷)

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۸۸

الأدعياء مشركون غالباً: بعد ما انتهت قصة يوسف عليه السلام بكل دروسها التربوية ونتائجها الغزيرة والقيّمة والخالية من جزاف القول والخرافات التاريخية ... إنتقل الكلام إلى النبى صلى الله عليه و آله حيث يقول القرآن الكريم: «ذلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ». فالوحى الإلهى فقط هو الذى جاءك بهذه الأخبار.

وكان لزاماً على الناس أن يؤمنوا بعد مشاهدتهم لعلائم الوحى وسماعهم لهذه النصائح الإلهية، وأن يتراجعوا عن طريق الغىّ، ولكن يا أيها النبى: «وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ».

إنّ الوصف ب (الحرص) هنا دليل على شوق ولهفة النبى صلى الله عليه و آله لأن يؤمن الناس.

وهذه الآية بالإضافة إلى ما ذكرنا هى تسليةً لقلب النبى صلى الله عليه و آله حتى لا ييأس أبداً من إصرارهم على الكفر والذنوب، كما نقرأ فى الآية (۶) من سورة الكهف: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى ءَاثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا». وقوله تعالى: «وَمَا تَسْلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ».

فهؤلاء فى الواقع ليس لهم أى عذر أو مبرّر لعدم قبول الدعوة بالإضافة إلى ما اتّضح من علامات الحق أنّك لم تسألهم أجراً حتى يكون مبرّراً لمخالفتك: «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ».

وهذه الدعوة عامة للجميع، ومائدة واسعة للعام والخاص وكل البشرية.

«وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ». فهذه الدلائل يرونها بأعينهم كل يوم.

إنّ أسرار هذا النظام العجيب وهذا الشروق والغروب وحياة النباتات والحشرات والإنسان، وهدير المياه، وحركة النسيم، وكل هذا الفن العجيب للوجود هو من الوضوح بحيث إن لم يتدبّر أحد فيه وفى خالقه سيكون كالخشبة المسنّدة.

ولهذا فلا تعجب لعدم إيمانهم بالآيات المنزلة عليك، لأنّهم لم يؤمنوا بالآيات المحيطة بهم من كل مكان «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ».

قد يتصور هؤلاء أنّهم من المؤمنين المخلصين ولكن غالباً ما توجد جذور الشرك فى أفكارهم وأقوالهم وضمائرهم.

فالمؤمن المخلص هو الذى لا يعتقد بأىّ معبود سوى اللّه، فتكون أقواله وأعماله وكل أفعاله خاضعة له. ولا يعترف بغير قانون اللّه.

وفى آخر آية يحذّر القرآن الكريم اولئك الذين لم يؤمنوا بعد ويمرّوا على الآيات الواضحة

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴۸۹

مرّ الكرام ويشركون فى أعمالهم حيث يقول: «أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

«الساعة»: القيامة، وقد وردت بهذا المعنى فى كثير من الآيات.

أصدق الدروس والعبر: فى الآية الاولى من هذه المجموعة يتلقّى النبى صلى الله عليه و آله الأوامر لتحديد الطريق والمنهج الذى يتّبعه، فيقول القرآن الكريم: «قُلْ هذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللَّهِ».

ثم يضيف: «عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى».

وهذه الجملة توضّح أنّ كل فرد مسلم مقتدٍ بالرسول صلى الله عليه و آله له نفس الدور فى الدعوة إلى الحق، ولابدّ من دعوة الآخرين إلى اللّه، من خلال، الأقوال والأفعال وكذلك تؤكّد هذه الجملة على أنّ القائد يجب أن تكون له بصيرة ومعرفة كافية، وإلّا فإنّ دعوته ليست إلى الحق، وللتأكيد على ذلك يضيف القرآن الكريم: «وَسُبْحنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

إنّ وقوع هذه الآية بعد الآيات المتعلقة بيوسف تشير إلى أنّ طريقة ومنهج النبى لا يختلفان عن طريقة ومنهج يوسف النبى، فهو كان يدعو إلى «اللّه الواحد القهار» حتى فى زوايا السجن، أمّا غيره فكان يدعو إلى أسماء انتقلت إليه بسبب التقليد من جاهل إلى جاهل آخر، أمّا سيرة الأنبياء والرسل كلها واحدة.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۴۹۰

وبما أنّ الأقوام الضالة والجاهلة كانت دائماً تثير هذا الإعتراض على الأنبياء وهو أنّكم بشر؟! ولماذا لا تُكلّف الملائكة لهذا الأمر؟
وبما أنّ الناس فى الجاهلية كانوا يثيرون نفس الإعتراض بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه و آله ودعوته العامة، فإنّ القرآن الكريم يجيب مرّة ثانية على هذا الإعتراض فيقول: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى . هؤلاء الرسل هم كباقى الناس يعيشون فى المدن والقرى، ويتجوّلون بين الناس ويشعرون بآلامهم وإحتياجاتهم ومشاكلهم. فالوصف هنا ب «مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى تشير إلى أنّ أنبياء اللّه لم ينهضوا من بين سكنة الصحراء لأنّ سكّان البادية يتّصفون بالجهل وعدم المعرفة وقلوبهم قاسية ويمتازون بقلّة معلوماتهم عن الحياة ومتطلباتها.
ولكن الرسول من أهل مكة التى تعتبر مدينة كبيرة نسبيّاً.
ثم يبيّن القرآن الكريم: إذا ما أراد هؤلاء أن يعلموا عاقبة مخالفتهم لدعوتك التى هى الدعوة إلى اللّه فإنّ عليهم أن يسيروا ليروا آثار السابقين: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».
إنّ السير والتجوال فى الأرض لمشاهدة آثار الماضين وخراب دورهم ومدنهم بسبب العذاب الإلهى، أفضل درس لهم، درس حى وملموس للجميع، «وَلَدَارُ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ». لماذا؟ لأنّ الدنيا دار مليئة بالمصائب والآلام وغير باقية، أمّا الآخرة فدار خالدة وخالية من الآلام والعذاب.
«حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَاءُ».
تشير هذه الآية إلى أدقّ وأصعب لحظة فى حياة الأنبياء فتقول: إنّ الأنبياء يواجهون دائماً مقاومة عنيفة من قبل أقوامهم وطواغيت زمانهم حتى يصل الحال بالأنبياء إلى اليأس إلى حدّ يظنّون أنّ أتباعهم المؤمنين القليلين قد كذبوا عليهم وتركوهم وحدهم فى مسيرتهم فى الدعوة إلى الحقّ، وفى هذه الأثناء حيث إنقطع أملهم فى كل شىء أتاهم نصرنا، وفى نهايتها تشير إلى عاقبة المجرمين «وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ».
فهذه سنّة اللّه فى الذين أصرّوا على أعمالهم وأغلقوا باب الهداية على أنفسهم، فهم وبعد إتمام الحجة عليهم ينالهم العذاب الإلهى فلا تستطيع أى قوة أن تردّه.
و آخر آية من هذه السورة ذات محتوى شامل وجامع لكل الأبحاث التى ذكرناها فى هذه
مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۱
السورة، وهى: «لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى الْأَلْبَابِ».
فهى مرآة يستطيعون من خلالها أن يروا عوامل النصر والهزيمة، الهناء والحرمان، السعادة والشقاء، العزّ والذلة، والخلاصة كل ما له قيمة فى حياة الإنسان وما ليس له قيمة.
وهى مرآة لكل تجارب المجتمعات السابقة والرجال العظام، ومرآة نشاهد فيها ذلك العمر القصير للإنسان كيف يطول بمقدار عمر كل البشر. ولكن اولى الألباب وذوى البصائر فقط باستطاعتهم أن يشاهدوا العبر فى صفحة المرآة العجيبة هذه: «مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ».
فهذه الآيات التى أنزلناها عليك والتى أزاحت الستار عن التاريخ الصحيح للأمم السابقة ليست من العلم البشرى الذى يمكن معرفته عن العلماء، بل إنّ الكتب السماوية السابقة تشهد على ذلك وتصدّقه وتؤيّده وبالإضافة إلى ذلك ففى هذه الآيات كل ما يحتاجه الإنسان فى تأمين سعادته وتكامله: «وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ».
ولهذا السبب فهى «هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».
«نهاية تفسير سورة يوسف»
مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۳

۱۳. سورة الرعد

محتوى السورة: كما قلنا سابقاً، بما أنّ السور المكيـة كان نزولها فى بدايـة دعوة النبى صـلى الله عليه و آله وأثناء محاربته للمشـركين، فإنّها غالباً ما كانت تتحدّث عن المسائل العقائديـة وخصوصاً الدعوة إلى التوحيد والمعاد ومحاربة الشـرك، فى الوقت الذى نرى فيه أنّ السور المدنيـة نزلت بعـد إنتشـار الإسـلام وقيـام الحكومـة الإسـلامية، فقـد تنـاولت الأحكام والمسائل المتعلقـة بالنظام الاجتماعى واحتياجات المجتمع.

فهـذه السورة (سورة الرعـد) التى هى من السور المكيـة لها نفس الخصائص السابقـة، فبعد ما تشـير إلى أحقّية القرآن وعظمته، تتطرّق إلى آيات التوحيد وأسرار الكون التى هى من دلائل ذات اللّه المقدسة.

ثم تتطرّق إلى المعـاد وبعث الإنسـان من جديـد ومحكمـة العـدل الإلـهى، وهـذه المجموعـة من اصول المبـدأ والمعـاد تبيّن مسؤولية ووظائف الناس.

ثم لمعرفة الحق من الباطل، الأمثال الحيّة والقابلة للإدراك.

ومن هنا فالحصـيلة النهائيـة للإيمان بالتوحيـد والمعاد هى تلك التطبيقات العملية والحيّة لها، فالقرآن فى هذه السورة يدعو الناس إلى الوفاء بالعهد وصلة الأرحام والصبر والاستقامة والإنفاق فى السر والعلانية والنهى عن الإنتقام، ويوضّح لهم أنّ الدنيا فانية،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۴

والطمأنينة والراحة لا تحصلان إلّافى ظل الإيمان باللّه.

وفى النهايـة يأخـذ بأيـدى الناس ويغور بهم فى أعماق التاريـخ، ويريهم العواقب السـيئة للـذين طغوا وعصوا وأبعـدوا الناس عن الحق، ويختم السورة بتهديد الكفار.

إذن فالسورة تبتدىء بالعقائد والإيمان وتنتهى بالبرامج التربوية للإنسان.

المر تِلْـكَ آيَاتُ الْكِتَـابِ وَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَـا يُؤْمِنُونَ (۱) اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (۲) وَ هُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَ أَنْهَاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۳) وَ فِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَ غَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۴) آيـات اللّه فى السـماء والأرض وعالم النبات: مرّة اخرى نواجه الحروف المقطعـة فى بدايـة هـذه السورة، تنفرد عن غيرها من السور ب «المر». فمن المحتمل أنّ هـذا التركيب فى بداية سورة الرعد يشير إلى جمعها لمحتوى مجموعتين من السور التى تبتدىء ب «الم» و «الر».

فالآية الاولى من هذه السورة تتحدّث عن عظمة القرآن «تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبّكَ الْحَقُّ». ولا يوجد أى شك أو ترديـد فى هـذه الآيات، لأنّها تبيّن عين الحقيقـة للكون ونظامه المرتبط بالإنسان، فهو حقّ لا يشوبه باطل، ولهـذا السـبب فإنّ علائم الحق واضحة فيه لا تحتاج إلى براهين «وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايُؤْمِنُونَ».

ثـم تتطرّق السـورة إلى شـرح القسـم المهـم من أدلـة التوحيـد وآيـات اللّه فى الكـون، وتتجـوّل بالإنسـان فى عرض السـماوات وتريه الكواكب العظيمـة وأسـرار هـذا النظام وحركته، حتى يؤمن بالقـدرة المطلقـة والحكمـة اللامتناهيـة «اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّموَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۵

إنّ هـذه الآيـة تكشف عن حقيقـة علميـة لم تكن معروفة عند نزول الآيات الكريمة، لأنّه فى ذاك الوقت كانت نظرية «بطليموس» فى

الهیئة تتحکّم فی المحافل العلمیة فی العالم وعلی أفکار الناس وطبقاً لهذه النظریة فإنّ السماوات عبارة عن أجرام متداخلة تشبه قشور البصل وإنّها لم تکن معلقة وبدون عمد بل کل واحدة منها تستند إلی الاخری.

ولکن بعد نزول هذه الآیات بألف سنة تقریباً توصل علم الإنسان إلی أنّ هذه الفکرة غیر صحیحة، فالحقیقة أنّ الأجرام السماویة لها مقرّ ومدار ثابت، ولا تستند إلی شیء، فالشیء الوحید الذی یجعلها مستقرة وثابتة فی مکانها هو تعادل قوة التجاذب والتنافر، فالاولی تربط الأجرام فیما بینها، والاخری لها علاقة بحرکتها.

هذا التعادل للقوّتین الذی یشکّل أعمدة غیر مرئیة یحفظ الأجرام السماویة ویجعلها مستقرة فی مکانها.

«ثُمَّ اسْتَوَی عَلَی الْعَرْشِ». فی خصوص معنی العرش والإستواء علیه هناک شرح وافٍ عنه فی ذیل الآیة (۵۴) من سورة الأعراف.

وبعد أن بیّن خلق السماوات وهیمنة الخالق علیها، تحدّث عن تسخیر الشمس والقمر «وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ».

ولکن هذا النظام المادی لیس أبدیاً، بل «کُلٌّ یَجْرِی لِأَجَلٍ مُّسَمًّی».

ثم یضیف بعد ذلک: إنّ هذه الحرکات والتغیّرات فی الأحوال لیست بدون حساب وکتاب، وبدون فائدة ونتیجة، بل «یُدَبِّرُ الْأَمْرَ یُفَصِّلُ الْأَیَاتِ لَعَلَّکُم بِلِقَاءِ رَبِّکُمْ تُوقِنُونَ».

وتعقیباً للآیات السابقة التی نقلت الإنسان إلی السماء تنقله الآیة الثانیة من آیات التوحید إلی کتاب الکون أی الأرض والجبال والأنهار وأنواع الثمار وشروق الشمس وغروبها. قوله تعالی: «وَهُوَ الَّذِی مَدَّ الْأَرْضَ» وبسطها بالشکل الذی تتهیّأ فیه لحیاة الإنسان ونمو النباتات والحیوانات.

ثم یشیر القرآن الکریم إلی ظهور الجبال «وَجَعَلَ فِیهَا رَوَاسِیَ». فهی تلک الجبال التی عبّرت عنها فی آیات اخری ب (الأوتاد) ولعلّ ذلک إشارة إلی أنّها متشابکة فیما بینها من الأسفل مثلها مثل الدرع الواقی وتغطّی سطح الأرض، فهی تبطل الضغوط الداخلیة فی الأسفل والضغط الخارجی المتمثّل بجاذبیة القمر والمدّ والجزر، وکذلک تقضی علی الاضطرابات والزلازل، وتجعل الأرض مستقرّة وساکنة وصالحة لحیاة الإنسان.

ثم تضیف الآیة بعد ذلک الأنهار: «وَأَنْهَارًا».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۶

رائع جدّاً نظام سقی الأرض بواسطة الجبال، وعلاقة الأنهار بالجبال، لأنّ کثیراً من الجبال تختزن المیاه بشکل ثلوج علی قممها وفی شقوق الودیان، ثم تذوب تدریجیاً، وطبقاً لقانون الجاذبیة تأخذ طریقها من المناطق المرتفعة إلی المناطق المنخفضة بدون أن تحتاج إلی قوّة اخری لمساعدتها. ثم یذکر القرآن بعد ذلک النباتات والأشجار التی تتکوّن من الأرض والمیاه وأشعة الشمس، والتی هی أفضل وسیلة لإمرار الإنسان بالغذاء: «وَمِن کُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِیهَا زَوْجَیْنِ اثْنَیْنِ».

والآیة تشیر هنا إلی أنّ الفاکهة کائنات حیّة فیها الذکر والانثی، وبواسطة التلقیح تتکوّن الثمار.

فإذا کان العالم السویدی «لینه» المختص بعلم النبات هو الذی توصّل إلی هذه الحقیقة فی حوالی منتصف القرن الثامن عشر المیلادی وهی أنّ التزویج فی عالم النباتات یعتبر قانوناً عاماً فالقرآن الکریم قبل ألف واربعمائة عام من ذلک کشف لنا عن هذه الحقیقة وهذه واحدة من معاجز القرآن العلمیة التی تبیّن عظمة هذا الکتاب السماوی الکبیر.

وبما أنّ حیاة الإنسان وکل الکائنات- وخصوصاً النباتات- لا یمکن لها الإستمرار إلّا بوجود نظام دقیق للیل والنهار، فإنّ القرآن یشیر إلی ذلک فی القسم الآخر من الآیة «یُغْشِی الَّیْلَ النَّهَارَ». ولولا ظلمة اللیل وهدوؤه، لأحرقت الشمس بنورها المستمر کل النباتات، ولم تبق فاکهةً ولا أی کائن حی علی وجه الأرض.

وتبیّن الآیة فی النهایة: «إِنَّ فِی ذَلِکَ لَأَیَاتٍ لِّقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ».

وفی الآیة الأخیرة من هذه المجموعة یشیر القرآن الکریم إلی عدّة نقاط حول علم الأرض وعلم النبات، والتی تعبّر عن النظام الدقیق

للخلقة، يقول أوّلًا: «وَفِی الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ».

قوله تعالى: «وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ» «۱».

«صنوان»: جمع «صنو» تعنی الأغصان المختلفة الخارجة من أصل الشجرة.

وهذه قد تشير إلى قابلية الأشجار للتركيب. ففی بعض الأحيان يتمّ تركيب عدة أغصان مختلفة على ساق واحدة، وبعد نمو هذه التراكيب تعطی كل واحدة منها نوعاً خاصاً

(۱) «أعناب»: جمع عنب؛ و «النخيل»: جمع نخلة، ويحتمل أنّهما ذكرتا بصيغة الجمع للدلالة على الأنواع المختلفة للعنب والتمر والتی قد تصل إلى مئات الأنواع فی العالم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۷

من الثمر، فالتربة واحدة والساق والجذر واحد ولكن الثمر مختلف.

والأعجب من ذلک أنّها تسقى بماء واحد «يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِی الْأُكُلِ».

أليست هذه الأسرار تدلّ على وجود من يقود هذا النظام بالعلم والحكمة؟! وهنا فی آخر الآية يقول تعالى: «إِنَّ فِی ذلِکَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِی خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِکَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَ أُولئِکَ الْأَغْلالُ فِی أَعْناقِهِمْ وَ أُولئِکَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۵) وَ يَسْتَعْجِلُونَکَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَ إِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّکَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ (۶) تعجب الكفار من المعاد: بعد ما انتهينا من البحث السابق عن عظمة اللَّه ودلائله، تتطرّق الآية الاولى من هذه المجموعة إلى مسألة المعاد التی لها علاقة خاصه بمسألة المبدأ، ويؤكّد القرآن الكريم هذا المعنى حيث يقول: «وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِی خَلْقٍ جَدِيدٍ». أی: إذا أردت أن تتعجب من قولهم هذا فتعجب لقولهم فی المعاد.

ثم يبيّن حالهم الحاضر ومصيرهم فی ثلاث جمل:

يقول أوّلًا: «أُولئِکَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ»؛ لأنّهم لو كانوا يعتقدون بربوبية اللَّه لما كانوا يتردّدون فی قدرة اللَّه على بعث الإنسان من جديد، وعلى هذا فسوء ظنهم بالمعاد هو نتيجة لسوء ظنهم بالتوحيد وربوبية اللَّه.

والأمر الآخر أنّه بكفرهم وعدم إيمانهم وخروجهم من ساحة التوحيد قيّدوا أنفسهم بالأغلال، أغلال عبادة الأصنام والأهواء والمادة والجهل والخرافة، وجعلوها فی أعناقهم «وَأُولئِکَ الْأَغْلَلُ فِی أَعْنَاقِهِمْ».

ومثل هؤلاء الأشخاص ليس لهم عاقبة سوى دخول النار «وَأُولئِکَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

وفی الآية الثانية يشير إلى دعوى اخرى للمشركين حيث يقول: «وَيَسْتَعْجِلُونَکَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ» بدلًا من طلب الرحمة ببركة وجودک بينهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۸

وهل يعتقدون بكذب العقوبات الإلهية؟ «وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلتُ» «۱».

ثم تضيف الآية: «وَإِنَّ رَبَّکَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّکَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ».

وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ (۷) ذريعة اخرى: بعد ما أشرنا فی الآيات السابقة إلى مسألة «التوحيد» و «المعاد» تتطرّق هذه الآية إلى واحدة من إعتراضات المشركين المعاندين حول مسألة النبوة: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ».

ومن الواضح أنّ إحدى وظائف النبی صلى الله عليه و آله إظهار معاجزه لكی يدل على صدقه وصلته بالوحی الإلهی.

إنّ أعـداء الأنبياء لم يكن لـديهم حُسن نيّة أو اتّباع للحق عنـد طلبهم المعجزة، بل لعنادهم وعدم تسليمهم للأمر الواقع ولذلك كانوا يقترحون بين فترة واخرى معاجز عجيبة وغريبة. وهذه ما يسمّى ب «المعجزات الأخلاقية».

ولكن الأنبياء كانوا يقولون لهم الحقيقة وهى أنّ المعاجز بيد اللّه، ورسالتنا هداية الناس.

ولذلك نقرأ فى تكملة الآية قوله تعالى: «إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلّ قَوْمٍ هَادٍ».

فمعنى الآية: إنّ الكفار نسوا أنّ هدف الأنبياء الإنذار والدعوة إلى اللّه، واعتقدوا أنّ وظيفتهم القيام بالمعاجز.

وجه التفاوت بين «الإنـذار» و «الهدايـة» هـو إنّ الإنـذار للـذين أضلّوا الطريق ودعوتهم تكون إلى الصراط المستقيم، ولكن الهـداية والإستقامة للذين آمنوا.

هناك روايات عديدة تؤكّد ما قلناه سابقاً، ففى تفسير جامع البيان عن ابن عباس قال:

لمّا نزلت «إِنَّمَا أَنتَ مُنـذِرٌ وَلِكُلّ قَوْمٍ هَادٍ» وضع صلى الله عليه و آله يـده على صدره فقال: «أنا المنذر ولكل قوم هاد». وأومأ بيده إلى منكب علىّ فقال: «أنت الهادى يا علىّ بك يهتدى المهتدون بعدى».

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَ مَا تَزْدَادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠)

---

(۱) «المثلات»: جمع «مثلة» بفتح الميم وضمّ الثاء ومعناها العقوبات النازلة على الامم الماضية.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۴۹۹

علم اللّه المطلق: نقرأ فى هذه الآيات قسماً من صفات الخالق، والتى تكمل بحث التوحيد والمعاد، فالحديث عن علمه الواسع ومعرفته بكـل شـىء. تقول الآيـة أوّلًا: «اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِـلُ كُـلُّ أُنثَى فى رحمها، سواء من انثى الإنسان أو الحيوان، بل بكل خصائصه والطاقة الكامنة فيه؛ «وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ». أى: تنقص قبل موعدها المقرّر «وَمَا تَزْدَادُ» (١). أى: يعلم بما تزيد عن موعدها المقرّر.

«وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ». ولكى لا يتصور أحد أنّ هذه الزيادة والنقصان بدون دليل، كما أنّ للجنين ودم الرحم مقدار أيضاً، فالآية التى بعـدها تؤكّد ما قلناه فى الآية السابقة حيث تقول: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ» فعلمه بالغيب والشـهادة لهذا السبب «الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ» فهو يحيط بكل شىء، ولا يخفى عنه شىء.

ولتكميـل هـذا البحث وتأكيـد علمه المطلق يضيف القرآن الكريم: «سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ».

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١) المعقّبات الغيبية: علمنا فى الآيات السابقة أنّ اللّه بما أنّه عالم الغيب والشهادة فإنّه يعلم أسرار الناس وخفاياهم، وتضيف هذه الآية أنّه مع حفظ وحراسة اللّه لعباده فإنّ «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ».

فى تفسير البرهان عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير هذه الآية يقول: «بأمر اللّه من أن يقع فى ركى، أو يقع عليه حائط أو يصيبه شىء، حتى إذا جاء القدر خلّوا بينه وبينه يدفعونه إلى المقادير، وهما ملكان يحفظانه بالليل وملكان بالنهار يتعاقبانه».

ولكى لا يتصور أحد أنّ هذا الحفظ بدون شروط وينغمس فى المزلّات، أو يرتكب الذنوب الموجبة للعقاب، ومع كل ذلك ينتظر من اللّه أو الملائكة أن يحفظوه، يعلّل القرآن ذلك بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَايُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ».

وكى لا يتبادر إلى الأذهان أنّه مع وجود الملائكة الحافظة فأىّ معنى للعذاب أو الجزاء؟

---

(۱) «تغيض»: أصلها الغيض بمعنى إبتلاع السائل وهبوط مستوى الماء. وتأتى بمعنى النقصان والفساد.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰۰

مختصر الامثل ج ۲ ۵۳۹

هنا تضيف الآية: «وَإِذَا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ». ولهذا السبب فإنّه حين صدور العذاب الإلهى على قوم أو امة، فسوف ينتهى دور المعقّبات ويتركون الإنسان عرضةً للحوادث. «المعقّبات»: جمع «معقبة» وهى بدورها جمع «معقّب» ومعناه المجموعة التى تعمل بشكل متناوب ومستمر.

التغيير يبدأ من النفس (قانون عام): تبيّن الجملة «إِنَّ اللَّهَ لَايُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ» والتى جاءت فى موردين متفاوتين فى القرآن الكريم، أنّها قانون عام، وقانون حاسم ومنذر.

إنّ هذا الأصل القرآنى الذى يبيّن واحداً من أهمّ المسائل الاجتماعية فى الإسلام، يؤكّد لنا أن أى تغيير خارجى للُامم مرتبط بالتغيير الداخلى لها، وأى نجاح أو فشل يصيب الامة ناشىء من هذا الأمر، والذين يبحثون عن العوامل الخارجية لتبرير أعمالهم وتصرفاتهم ويعتبرون القوى المستعمرة والمتسلطة هى السبب فى شقائهم يقعون فى خطأ كبير، لأنّ هذه القوى الجهنمية لا تستطيع أن تفعل شيئاً إذا لم تكن لديها قدرة ومركز فى داخل المجتمع.

يقول هذا الأصل القرآنى: إنّنا يجب أن نثور من الداخل كى نُنهى حالة الشقاء والحرمان، ثورة فكرية وثقافية، ثورة إيمانية وأخلاقية، وأثناء وقوعنا فى مخالب الشقاء يجب أن نبحث فوراً عن نقاط الضعف فينا، ونطهّر أنفسنا منها بالتوبة والرجوع إلى اللّه، ونبدأ حياة جديدة مفعمة بالنور والحركة، كى نستطيع فى ظلها أن نبدّل الهزيمة إلى نصر.

هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (۱۲) وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَ هُمْ يُجادِلُونَ فِى اللَّهِ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ (۱۳) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلالٍ (۱۴) وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ ظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ (۱۵) قسم آخر من دلائل عظمة اللّه: يتطرّق القرآن الكريم مرّة ثانية إلى آيات التوحيد وعلائم العظمة وأسرار الخلقة، فتشير أوّلًا إلى البرق: «هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰۱

وَطَمَعًا». فالبرق بشعاعه يبهر العيون من جانب، ومن جانب آخر فإنّه يسبّب هطول الأمطار ويروى ظمأ الصحراء ويسقى المزروعات فيطمع فيه الناس، وبين هذا الخوف والرجاء تمرّ عليهم لحظات حساسة

ثم تضيف الآية: «وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ» القادرة على إرواء ظمأ الأراضى الزراعية.

الآية الاخرى تشير إلى صوت الرعد الذى يتزامن مع البرق «وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ».

نعم، فهذا الصوت المدوّى فى عالم الطبيعة يُضرب به المثل، فهو مع البرق فى خدمة هدف واحد، ويقومان بعملية التسبيح، وبعبارة اخرى فالرعد لسان حال البرق يحكى عن عظمة الخالق وعن نظام التكوين.

وليس الرعد وسائر أجزاء العالم تسبّح بحمده تعالى، بل حتى الملائكة «وَالْمَلَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ». فهم يخافون من تقصيرهم فى تنفيذ الأوامر الملقاة على عاتقهم، وبالتالى فهم يخشون العقاب الإلهى، ونحن نعلم أنّ الخوف يُصيب اولئك الذين يحسّون بمسؤولياتهم ووظائفهم ... خوف بنّاء يحثّ الشخص على السعى والحركة.

وللتوضيح أكثر فى مجال البرق والرعد تشير الآية إلى الصاعقة: «وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ». ومع كل ذلك- وبمشاهدة آيات العظمة الإلهية فى عالم التكوين من السماء والأرض والنباتات والأشجار والبرق والرعد وأمثالها، وفى قدرة الإنسان الحقيرة تجاه هذه الحوادث، حتى فى مقابل واحدة منها مثل شرارة البرق- نرى أنّ هناك جماعة جاهلة تجادل فى اللّه «وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ».

«المحال»: فى الأصل «الحيلة» بمعنى التدبير السرّى وغير الظاهر، فالذى له القدرة على هذا التدبير يمتلك العلم والحكمة العالية، ولهذا السبب يستطيع أن ينتصر على أعدائه ولا يمكن الفرار من حكومته.

الآية الأخيرة تشير إلى مطلبين:

الأوّل: قوله تعالى: «لَهُ دَعْوَةُ الْحَقّ». فهو يستجيب لدعواتنا، وهو عالم بدعاء العباد وقادر على قضاء حوائجهم، ولهذا السبب يكون دعاؤنا إيّاه وطلبنا منه حقاً، وليس باطلًا.

ولكن دعاء الأصنام باطل «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَايَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ».

ولتصوير هذا الموضوع يضرب لنا القرآن الكريم مثالًا حيّاً ورائعاً يقول: «إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ». فهل يستطيع أحد أن يجلس على بئر ويطلب الماء بإشارة يدٍ ليبلغ الماء فاه؟ هذا العمل لا يصدر إلّامن إنسان مجنون.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥٠٢

وللتأكيد على هذا الحديث يأتى فى نهاية الآية قوله تعالى: «وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلٰلٍ». وأىّ ضلال أكبر من أن يسعى الإنسان ويجتهد فى السبيل الضالّ ... ولكنّه لا يصل إلى مقاصده. الآية الأخيرة من هذه المجموعة، ولكى تُبرهن كيف أنّ المشركين ضلّوا الطريق تقول:

«وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوّ وَالْآصَالِ».

السجدة فى هذه الموارد تعنى الخضوع والتسليم، وهناك نوعان من السجود، سجود تكوينى وهو أنّ الكل خاضعون ومسلّمون للقوانين الطبيعية مثل الحياة والممات والمرض و ...، والبعض منهم له سجود تشريعى بالإضافة إلى السجود التكوينى، فهم بميلهم وإرادتهم يسجدون للّه.

عبارة «طَوْعًا وَكَرْهًا» يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ المؤمنين خاضعون للّهبميلهم وإرادتهم، وأمّا غير المؤمنين فهم خاضعون كذلك للقوانين الطبيعية التى تسير بأمر اللّه إن شاؤوا وإن أبوا.

«الظّلال»: جمع «ظِل» واستعمال هذه الكلمة فى الآية يشير إلى أنّ المقصود فى السجود ليس فقط السجود التشريعى، فظِلال الكائنات ليست خاضعة لارادتهم واختيارهم، بل هو تسليم لقانون الضوء، وعلى هذا يكون سجودهم تكوينى، يعنى التسليم للقوانين الطبيعية.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لَا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَ الْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَ النُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١۶)

لماذا عبادة الأصنام؟ كان البيان فى الآيات السابقة عن معرفة اللّه وإثبات وجوده، وهذه الآية تبحث عن ضلال المشركين والوثنيين وتتناوله من عدّة جهات، حيث تخاطب- أوّلًا- النبى صلى الله عليه و آله حيث تقول: «قُلْ مَن رَّبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». ثمّ تأمر النبى أن يجيب على السؤال قبل أن ينتظر جوابهم: «قُلِ اللَّهُ». ثم إنّه يلومهم ويوبّخهم بهذه الجملة: «قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَايَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا».

ثم يذكر مثالين واضحين وصريحين يحدّد فيها وضع الأفراد الموحدين والمشركين،

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥٠٣

فيقول أوّلًا: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ». فكما لا يستوى الأعمى والبصير لا يستوى المؤمن والكافر، ولا يصحّ قياس الأصنام على الخالق جلّ وعلا.

ويقول ثانياً: «أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ». كيف يمكن أن نجعل الأصنام التى هى الظلمات المحضة إلى جنب اللّه الذى هو النور المطلق؟

ثم يُدلِل على بطلان عقيدة المشركين عن طريق آخر فيقول: «أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ». والحال ليس

کذلک، فإنّ المشرکین أنفسهم لا یعتقدون بها، فهم یعلمون أنّ اللّه خالق کل شیء، وعالم الوجود مرتبط به، ولذلک تقول الآیة: «قُلِ اللَّهُ خَالِقُ کُلّ شَیْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

یستفاد من الآیة أعلاه أنّ الخلقة أمر مستمر ودائمی، وإنّه تعالی یفیض بالوجود علیهم بإستمرار وکل شیء یأخذ وجوده من ذاته المقدسة، وعلی هذا فنظام الخلقة وتدبیر العالم کلها بید اللّه.

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِیَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّیْلُ زَبَداً رَابِیاً وَ مِمَّا یُوقِدُونَ عَلَیْهِ فِی النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْیَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ کَذلِکَ یَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَیَذْهَبُ جُفَاءً وَ أَمَّا مَا یَنْفَعُ النَّاسَ فَیَمْکُثُ فِی الْأَرْضِ کَذلِکَ یَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (۱۷) وصف دقیق لمنظر الحق والباطل: یستند القرآن الکریم- الذی یعتبر کتاب هدایة وتربیة- فی طریقته إلی الوقائع العینیة لتقریب المفاهیم الصعبة إلی أذهان الناس من خلال ضرب الأمثال الحسیة الرائعة من حیاة الناس، وهنا- أیضاً- لأجل أن یُجسّم حقائق الآیات السابقة التی کانت تدور حول التوحید والشرک، الإیمان والکفر، الحق والباطل، یضرب مثلًا واضحاً جدّاً لذلک ..

یقول أوّلًا: «أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً». الماء عماد الحیاة وأصل النمو والحرکة، «فَسَالَتْ أَوْدِیَةٌ بِقَدْرِهَا» تتقارب السواقی الصغیرة فیما بینها، وتتکوّن الأنهار وتتّصل مع بعضها البعض، فتسیل المیاه من سفوح الجبال العظیمة والودیان وتجرف کل ما یقف أمامها، وفی هذه الأثناء یظهر الزّبد وهو ما یری علی وجه الماء کرغوة الصابون من بین أمواج الماء حیث یقول القرآن الکریم: «فَاحْتَمَلَ السَّیْلُ زَبَدًا رَّابِیًا».

ولیس ظهور الزبد منحصراً بهطول الأمطار، بل «وَمِمَّا یُوقِدُونَ عَلَیْهِ فِی النَّارِ ابْتِغَاءَ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰۴

حِلْیَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مّثْلُهُ». أی: الفلزات المذابة بالنار لصناعة أدوات الزینة منها أو صناعة الوسائل اللازمة فی الحیاة. بعد بیان هذا المثال بشکله الواسع لظهور الزبد لیس فقط فی الماء بل حتی للفلزات وللمتاع، یستنتج القرآن الکریم: «کَذلِکَ یَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ».

ثمّ یتطرّق إلی شرحه فیقول: «فَأَمَّا الزَّبَدُ فَیَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا یَنفَعُ النَّاسَ فَیَمْکُثُ فِی الْأَرْضِ».

وفی آخر الآیة- للمزید من التأکید فی مطالعة هذه الأمثال- یقول تعالی: «کَذلِکَ یَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ».

المثال یعمّم المفاهیم: کثیر من البحوث العلمیة بشکلها الأصلی یفهمها الخواص فقط، ولا یستفید منها عامة الناس، ولکن عندما یصحبها المثال تکون قابلة للفهم، ویستفید منها الناس علی اختلاف مستویاتهم العلمیة، ولهذا فالمثال وسیلة لتعمیم الفکر والثقافة.

لِلَّذِینَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَی وَ الَّذِینَ لَمْ یَسْتَجِیبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولئِکَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهَادُ (۱۸) الذین استجابوا لدعوة الحق: بعد ما کشفت الآیات السابقة عن وجهی الحق والباطل من خلال مثال واضح وبلیغ، أشارت هذه الآیة إلی مصیر الذین إستجابوا لربهم والذین لم یستجیبوا لهذه الدعوة واتّجهوا صوب الباطل. تقول أوّلًا: «لِلَّذِینَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَی .

«الحسنی»: فی معناها الواسع تشمل کل خیر وسعادة.

ثم تضیف الآیة: «وَالَّذِینَ لَمْ یَسْتَجِیبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَا فِی الْأَرْضِ جَمِیعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ».

لا توجد صیغة أوضح من هذه الآیة فی بیان شدّة عذابهم وعقابهم، یمتلک الإنسان کل ما فی الأرض وضعفه أیضاً ویفتدی به للنجاة ولا یحصل النجاة. تشیر هذه الجملة فی الواقع إلی آخر امنیة والتی لا یمکن أن یتصور أکثر منها، وهی أن یمتلک الإنسان کل ما فی الأرض، ولکن شدّة العذاب للظالمین ومخالفی الحق تصل بهم إلی درجة أن یفتدوا بکل هذه الامنیة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰۵

أو بأکثر منها لنجاتهم.

وعلی أثر هذا الشقاء (عدم قبول ما فی الأرض مقابل نجاتهم) یشیر القرآن الکریم إلی شقاء آخر «أُولئِکَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ». یعنی

أنّ هؤلاء الأفراد يحاسبون حساباً دقيقاً، وأثناء حسابهم يُوبّخون ويُلامون ومن ثم يستقصى منهم.

وفى نهاية الآية إشارة إلى الجزاء الثّالث أو النتيجة النهائية لجزائهم «وَمَأْوَيهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ».

«المهاد»: جمع «مهد»، بمعنى التهيؤ، ويستفاد منها معنى السرير الذى يستخدم لراحة الإنسان، هذا السرير يهيّأ للاستراحة، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الكلمة للإشارة إلى أنّ هؤلاء الطغاة بدلًا من أن يستريحوا فى مهادهم يجب أن يحرقوا بلهيب النار.

أ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (۱۹) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (۲۰) وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (۲۱) وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَ عَلَانِيَةً وَ يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (۲۲) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ أَزْوَاجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ الْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (۲۳) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (۲۴) الأبواب الثمانية للجنة وصفات اولى الألباب: تتحدّث هذه الآيات عن سيرة اولى الألباب وصفاتهم الحسنة، وفيها تكميل للبحث السابق. فى الآية الاولى من هذه المجموعة إستفهام إنكارى: «أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى .

وهذه إشارة لطيفة إلى أنّه من المحال أن لا يعلم أحد بهذه الحقيقة إلّاأن يكون أعمى القلب، ولذلك يجىء فى نهاية الآية قوله تعالى: «إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ».

«الألباب»: جمع «لبّ» بمعنى جوهر الشيء، ويقابل اولى الألباب اولوا الجهل والعمى.

إنّ هذه الآية تحثّ الناس على طلب العلم ومحاربة الجهل، لأنّها تعدّ الفرد الفاقد للعلم كمن هو أعمى، ثمّ بيّن سيرة اولى الألباب من خلال ذكر صفاتهم الحميدة، وأوّل ما أشار القرآن إليه وفاؤهم بالعهد وعدم نقضهم له «الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۰۶

إنّ «عهد اللَّه» له معنى واسع، ويشمل العهود الفطرية التى عاهدوا بها ربّهم كالفطرة على التوحيد وحبّ الحقّ والعدالة، والمواثيق العقلية التى يدركها الإنسان من خلال التفكير والتعقّل لعالم الوجود، والمبدأ والمعاد، وتشمل كذلك العهود الشرعية، وهى ما عاهدوا الرسول صلى الله عليه و آله عليه من الطاعة للأوامر الإلهية وترك المعاصى والذنوب. الصفة الثانية من صفات اولى الألباب هى: «وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ».

فالإنسان له صلات وروابط كثيرة، صلته مع ربّه، ومع الأنبياء والقادة، وروابطه مع الأصدقاء والجيران والأقرباء ومع كل الناس، والآية تأمر أن تُحترم هذه الصلات.

والإنسان ليس منزوياً أو منفكّاً من عالم الوجود، بل تحكم كل وجوده الصلات والروابط.

الصفة الثالثة والرابعة من سيرة اولى الألباب هى قوله تعالى: «وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ».

الصفة الخامسة من صفات اولى الألباب الإستقامة فى مقابل جميع المشاكل التى يواجهها الإنسان فى مسيرة الطاعة وترك المعصية، وجهاد الأعداء ومحاربة الظلم والفساد، والصبر فى مرضاة الخالق، ولذلك يقول تعالى: «وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ» «۱».

فإنّ هذه الجملة تبيّن أنّ كل صبر وعمل خير تكون له قيمة عندما يصبح لوجه اللَّه، وأى عمل آخر يقع تحت تأثير الرياء والغرور لا قيمة له مطلقاً.

الصفة السادسة من صفاتهم هى: «وَأَقَامُوا الصَّلَوةَ».

إنّ الإنسان يجدّد عهده وصلته باللَّه سبحانه وتعالى صباحاً ومساءاً، ويتفكّر بعظمة الخالق ويدعوه، ويُطهّر نفسه من الذنوب، ويرتبط بالحق المطلق.

ثم يبيّن الصفة السابعة لدعاة الحق حيث يقول تعالى: «وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً».

فالصلاة تُحكم الصلة بين العبد وربّه والزكاة بين العباد.

والجملة «مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ» تشمل كل العطايا من الأموال والعلوم والقوة والجاه، والإنفاق كذلك يشمل جميع هذه الأبعاد.

---

(۱) ليس الصبر على الطاعة والمعصية والمصيبة فقط بل الصبر على النعم كذلك حتى لا يصيب الإنسان الغرور.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۰۷

والعبارة «سِرًّا وَعَلَانِيَةً» إشارة اخرى إلى هذه الحقيقة وهى أنّ إنفاقهم يتمّ بشكل مدروس، فتارةً يكون سرّاً ويترتّب عليه أثر كبير، وذلك فى الحالات التى تصون الطرف المنفق من الرياء، ومرّةً يكون الإنفاق العلنى أكثر تأثيراً وذلك فى الحالات التى تدعو الآخرين لكى يتأسّوا بهذا العمل الخيّر ويقتدوا به، فيكون سبباً لكثير من أعمال الخير.

الصفة الثامنة والأخيرة هى قوله تعالى: «وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ».

ومعنى هذه العبارة أنّهم لم يكتفوا بالتوبة والاستغفار فقط عند إرتكابهم الذنوب، بل يدفعونها كذلك بالحسنات على مقدار تلك الذنوب، حتى يطهّروا أنفسهم والمجتمع بماء الحسنات.

ويحتمل فى تفسير الآية أنّهم لا يقابلون السيء بالسيء، بل يسعون من خلال إحسانهم للمسيئين أن يجعلوهم يعيدون النظر فى مواقفهم.

وبعد ما ذكر القرآن الكريم الصفات الثمانية لُاولى الألباب، أشار فى نهاية الآية إلى عاقبة أمرهم حيث يقول تعالى: «أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ».

الآية الاخرى توضّح هذه العاقبة «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ».

والشيء الذى يكمل هذه النعم الكبيرة واللامتناهية «وَالْمَلئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ».

فهذه السلامة جاءت بعد ما صبرتم على الشدائد وتحمّلتم المسؤوليات الجسام والمصائب، ولكم هنا كامل الطمأنينة والأمان، فلا حرب ولا نزاع، وكل شيء يبتسم لكم، والراحة الخالية من المتاعب- هنا- معدّة لكم.

يستفاد من آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة أنّ للجنة عدّة أبواب، ولكن هذا التعدد للأبواب بسبب الأعمال المختلفة للأفراد.

ومن الظريف أنّ القرآن الكريم- فى الآية (۴۴) من سورة الحجر- يذكر لجهنم سبعة أبواب «لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ». وهذه إشارة إلى أنّ طرق الوصول إلى السعادة وجنّة الخلد أكثر من طرق الوصول إلى الشقاء والجحيم، ورحمة اللَّه سبقت غضبه.

وَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (۲۵) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ وَ فَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (۲۶) للمفسدين الذين فقدوا حظّهم من العلم والمعرفة حيث يقول جلّ وعلا: «وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» «۱».

فى الحقيقة يتلخص فساد عقيدتهم فى الجمل الثلاث الآتية:

۱- نقض العهود الإلهية: وتشمل المواثيق الفطرية والعقلية والتشريعية.

۲- قطع الصلات: وتشمل الصلة مع اللَّه والرسل والناس ومع أنفسهم.

۳- الإفساد فى الأرض: وهو نتيجة حتمية لنقض العهود وقطع الصلات.

قوله تعالى: «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ». وهذه إشارة لُاولئك الذين يسعون للحصول على دخل أكثر فهم يفسدون فى الأرض وينقضون عهد اللَّه ويقطعون ما أمر اللَّه به أن يوصل لكى يزيدوا من دخلهم المادى، وهم غافلون عن هذه الحقيقة وهى أنّ الرزق- فى زيادته ونقصه- بيد اللَّه سبحانه وتعالى.

ثم تضيف الآية: «وَفَرِحُوا بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فِى الْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ».

ألا بـذكر اللَّه تطمئنّ القلوب: فى سورة الرعـد بحوث كثيرة حول التوحيـد والمعاد والنبوة، فالآية الاولى من هذه المجموعة تبحث مرّةً اخرى فى دعوة الرسول صلى الله عليه و آله وتبيّن واحداً من أعذار المشركين المعاندين حيث يقول تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ».

إنّ هؤلاء يتوقّعون من النبى أن يجلس فى زاوية الدار ويُظهر لكل واحد منهم المعجزة التى يقترحها، فإن لم تعجبهم لم يؤمنوا بها.

ويجيبهم القرآن الكريم حيث يقول: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ».

وهذه إشارة إلى أنّ العيب ليس من ناحية الإعجاز، لأنّ الأنبياء قد أظهروا كثيراً من

---

(۱) «اللعن»: بمعنى الطرد مع الغضب، واللعن فى الآخرة تشير إلى العقوبة وفى الدنيا الإبتعاد من رحمة اللَّه.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۰۹

المعاجز، ولكن النقص من داخل أنفسهم. وهو العناد والتعصب والجهل والذنوب التى تصدّ عن الإيمان.

تُشير الآية الثانية بشكل رائع إلى تفسير «مَنْ أَنَابَ» حيث يقول تعالى: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ». ثم يذكر القاعدة العامة والأصل الثابت حيث يقول تعالى: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ».

وتبحث الآية الأخيرة مصير الذين آمنوا حيث تقول: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَابٍ».

ما هو ذكر اللَّه، وكيف يتمّ؟ إنّ الذكر نوعين «ذكر القلب» و «ذكر اللسان» وكل واحد منها على نوعين: بعد النسيان أو بدونه.

وعلى أيّـة حـال ليس المقصود من الـذكر- فى الآيـة أعلاـه- هو ذكره باللسـان فقط فنقوم بتسبيحه و تهليله و تكبيره، بل المقصود هو التوجه القلبى له و إ دراك علمه و بأنّه الحاضـر و الناظر، وهـذا التوجّه هو مبـدأ الحركة والعمل والجهاد والسـعى نحو الخير، وهو سـدّ منيع عن الذنوب، فهذا هو الذكر الذى له كل هذه الآثار والبركات كما أشارت إليه عدة من الروايات.

فمن وصايا النبى صلى الله عليه و آله للإمام على عليه السلام يقول له: «يا على، ثلاث لا تطيقها هذه الامّة:

المواساة للأخ فى ماله، وإنصاف الناس من نفسه، وذكر اللَّه على كل حال، وليس هو سـبحان اللَّه والحمـد للَّهولا إله إلّااللَّه واللَّه أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف اللَّه عزّ وجلّ عنده وتركه» «۱».

كَـذلِكَ أَرْسَـلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَـدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتَابِ (۳۰) وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنـاً سُـيِّرَتْ بِهِ الْجِبَـالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَـدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَ لَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِـيبُهُمْ بِمَا صَـنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِىَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (۳۱) وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (۳۲)

---

(۱) بحار الأنوار ۷۴/ ۴۵.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۰

سبب النّزول

جاء فى تفسير مجمع البيان: نزلت الآية الاولى فى كفار قريش حين قال لهم النبى صلى الله عليه و آله:

«اسجدوا للرحمن». قالوا: وما الرحمن؟

وفى سـبب نزول الآيـة الثانية: إنّها نزلت فى نفر من مشـركى مكة، منهم أبو جهل بن هشام، وعبد اللَّه بن أمية المخزومى جلسوا خلف الكعبـة ثم أرسـلوا إلى النبى صـلى الله عليه و آله فأتاهم، فقال له عبـد اللَّه بن أمية: إن سـرك أن نتبعك فسير لنا جبال مكة بالقرآن، فأذهبهـا عنـا، حتى تنفسـخ فإنّهـا أرض ضـيقة، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً حتى نغرس ونزرع فلست كما زعمت أهون على ربّك من

داود حيث سخر له الجبال تسبح معه أو سخر لنا الريح فنركبها إلى الشام فنقضى عليها مسيرتنا وحوائجنا ثم نرجع من يومنا فقد كان سليمان سخرت له الريح فكما زعمت لنا فلست أهون على ربّك من سليمان. وأحى لنا جدك قصياً، أو من شئت من موتانا لنسأله: أحق ما تقول أم باطل؟ فإنّ عيسى عليه السلام كان يحيى الموتى ولست بأهون على اللّه منه فأنزل اللّه سبحانه «وَلَوْ أَنَّ قُرءَانًا» الآية.

التّفسير

لا أمل فى إيمان أهل العناد: تبحث هـذه الآيات مرّةً ثانية مسألة النبوّة، والآيات أعلاه تكشف عن قسم آخر من جدال المشركين فى النبوّة وجواب القرآن عليهم فتقول الآيـة: كما أنّنا أرسلنا رسلًا إلى الأقوام السالفـة لهدايتهم: «كَذٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ». والهـدف من ذلك «لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ». فى الوقت الـذى «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ». يكفرون باللّه الـذى عمّت رحمته كل مكان، وشمل فيضه المؤمن والكافر.

ثم قل لهم: إنّ الرحمن الذى عمّ فضله هو ربّى «قُلْ هُوَ رَبّى لَاإِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ».

ثم يجيب اولئك الذين يتشبّثون دائماً بالحجج الواهية فيقول: لو أنّ الجبال تحرّكت من مكانها بواسطة القرآن: «وَلَوْ أَنَّ قُرءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى . فمع ذلك لا يؤمنون به.

ولكن كل هذه الأفعال بيد اللّه ويفعل ما يريد متى يشاء «بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا».

ولكنكم لا تطلبون الحق، وإذا كنتم تطلبونه فهذا المقدار من المعجزة التى صدرت من

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۱

الرسول صلى الله عليه و آله كاف لإيمانكم.

ثم يضيف القرآن الكريم: «أَفَلَمْ يَايَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا». ولكنّه لا يفعل ذلك أبداً، لأنّ هـذا الإيمان الإجبارى لا قيمة له وهو فاقد للمعنى والتكامل الذى يحتاجه الإنسان فى حياته.

ثم تضيف الآية: «وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ». وهذه مصائب تنزل عليهم بشكل إبتلاءات مختلفة أو على شكل هجوم المسلمين عليهم. وهـذه المصائب إن لم تنزل فى دارهم فهى «أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ» لكى يعتبروا بها ويرجعوا إلى اللّه جلّ وعلا.

وهذا الإنذار مستمر «حَتَّى يَأْتِىَ وَعْدُ اللَّهِ».

وهذا الوعد الأخير قد يشير إلى الموت، أو إلى يوم القيامة، أو على قول البعض إلى فتح مكة التى سحقت آخر معقل للعدو.

وعلى أيّة حال فالوعد الإلهى أكيد: «إِنَّ اللَّهَ لَايُخْلِفُ الْمِيعَادَ».

الآيـة الأخيرة من هـذه المجموعـة تخاطب النبى صـلى الله عليه و آله فتقول له: لست الوحيـد من بين الأنبياء تعرّض لطلب المعـاجز الإقتراحيـة والإسـتهزاء من الكفار، بل «وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ». ولكن لم نعاقب هؤلاء الكفّار فوراً، بل «فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا» لكى يستيقظوا ويعودوا إلى طريق الحق، أو نلقى عليهم الحجـة الكافيـة على الأقـل، لأنّ هؤلاء إذا كانوا مـذنبين فإنّ لطف اللّه وكرمه وحكمته لا تتأثّر بأفعال هؤلاء.

وعلى أيّة حال فهذا التأخير ليس بمعنى نسيان العقاب، بل «ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ» وهذا المصير ينتظر قومك المعاندين أيضاً.

أ فَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (۳۳) لَهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (۳۴) كيف تجعلون الأصنام شركاء مع اللّه؟! نعود مرّةً اخرى فى هذه الآيات إلى البحث حول

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۲

التوحيد والشرك، وهى تخاطب الناس من خلال دليل واضح حيث يقول تعالى: «أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ». ولإتمام

البحث السابق، ومقدمة للبحث الآتی. یقول تعالی: «وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَکَاءَ».

ثم یجیبهم بلا فاصلة وبعدّة طرق:

یقول أوّلًا: «قُلْ سَمُّوهُمْ». فکیف تجعلون هذه الموجودات التی لا تستحق حتی الأسماء والتی لا قیمة ولا أثر لها، فی عداد الخالق القادر المتعال؟

ویقول ثانیاً: «أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَایَعْلَمُ فِی الْأَرْضِ».

ثالثاً: حتی أنتم لا تؤمنون بذلک فی قرارة أنفسکم، بل «أم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ». ولهذا السبب نری المشرکین عندما تضیق بهم المشاکل الحیاتیة یلوذون باللَّه، لأنّهم یعلمون فی قلوبهم أنّ الأصنام لا یمکن أن تعمل لهم شیئاً.

رابعاً: إنّ المشرکین لیس لهم إدراک صحیح، وبما أنّهم تابعین لأهوائهم وتقلیدهم الأعمی، فإنّهم غیر قادرین علی أن یقضوا بالحقّ وبشکل صحیح، ولهذا السبب ضلّوا الطریق، یقول تعالی: «بَلْ زُیِّنَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا مَکْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِیلِ وَمَن یُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ».

الإضلال الإلهی إنعکاس لما یقوم به الإنسان من الأعمال السیّئة التی تجرّه إلی الضیاع، وبما أنّ هذه الخاصیة قد جعلها اللَّه سبحانه وتعالی لمثل هذه الأعمال فلذلک نسب هذا العمل إلیه.

ویشیر القرآن الکریم فی الآیة الأخیرة من هذه المجموعة إلی العقاب الألیم الذی یشملهم فی الدنیا والآخرة، الشقاء والهزیمة والحرمان وغیرها، حیث تقول: «لَّهُمْ عَذَابٌ فِی الحَیَوةِ الدُّنْیَا وَلَعَذَابُ الْأَخِرَةِ أَشَقُّ». لأنّها دائمة ومستمرة، جسدیة وروحیة، وفیها أنواع الآلام.

وإذا إعتقدوا بأنّ لهم طریقاً للفرار أو سبیلًا للدفاع فی مقابل ذلک، فإنّهم فی إشتباهٍ کبیر، لأنّ «وَمَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ».

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُکُلُهَا دَائِمٌ وَ ظِلُّهَا تِلْکَ عُقْبَی الَّذِینَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَی الْکَافِرِینَ النَّارُ (۳۵) بالنظر إلی تناوب آیات هذه السورة فی بیان التوحید والمعاد وسائر المعارف الإسلامیة

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۳

الاخری، تحدّثت هذه الآیة مرّةً اخری حول المعاد وخصوصاً نِعَم الجنة وعذاب الجحیم.

یقول تعالی: «مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِی مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ».

قد یکون التعبیر ب «مثل» إشارة إلی هذه النکتة، وهی أنّ الجنّة وسائر النعم الاخرویة غیر قابلة للوصف بالنسبة إلی الساکنین فی هذا العالم المحدود الذی هو فی مقابل عالم بعد الموت یعتبر صغیراً جدّاً، ولذلک نستطیع أن نضرب لهم مثلًا أو صورة عن ذلک.

الوصف الثانی للجنة هو «أُکُلُهَا دَائِمٌ» فهی لیست کفاکهة الدنیا فصلیة وتظهر فی وقت معین من السنة، بل فی بعض الأحیان وبسبب الآفات الزراعیة تنقطع تماماً.

وکذلک «وَظِلُّهَا» کبقیة النعم الاخری خالدة ودائمة، ومن هذا یتّضح أن لیس فی الجنة فصل لتساقط الأوراق، ونعلم من ذلک- أیضاً- أنّ شعاع الشمس موجود فی الجنة، وإلّا کان التعبیر بالظل هناک بدون شعاع الشمس لیس له أی مفهوم.

وبعد بیان هذه الصفات الثلاث قال تعالی فی آخر الآیة: «تِلْکَ عُقْبَی الَّذِینَ اتَّقَوا وَّعُقْبَی الْکَافِرِینَ النَّارُ».

لقد بیّن وفصّل فی هذه العبارة نعم الجنة، ولکن بالنسبة إلی أصحاب النار ذکر جملة قصیرة وبعنف حیث ذکر أنّ عاقبة أمرهم إلی النار.

وَ الَّذِینَ آتَیْنَاهُمُ الْکِتَابَ یَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَیْکَ وَ مِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ یُنْکِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لَا أُشْرِکَ بِهِ إِلَیْهِ أَدْعُو وَ إِلَیْهِ مَآبِ (۳۶) المؤمنون والأحزاب: أشارت هذه الآیة إلی ردّ الفعل المتفاوت للناس فی مقابل نزول الآیات القرآنیة، فالأفراد الذین یبحثون عن الحقیقة یفرحون بما انزل علی الرسول، بینما المعاندون یخالفون ذلک. یقول تعالی: «وَالَّذِینَ ءَاتَیْنَاهُمُ الْکِتَابَ یَفْرَحُونَ بِمَا

أَنزِلَ إِلَيْكَ».

أى: أنّ الطالبون للحق من اليهود والنصارى وأمثالهم يفرحون عند نزول الآيات على الرسول صلى الله عليه و آله لأنّهم كانوا من جهة يرونها مطابقة لما فى أيديهم من العلامات، ومن جهة اخرى كان سبباً لحريتهم ونجاتهم من شرّ الخرافات ومن علماء اليهود والمسيحية الذين كانوا يستعبدونهم، وكانوا محرومين من حرية الفكر والتكامل الإنسانى.

ثم تضيف الآية: «وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ». المقصود من هذه المجموعة هى نفس جماعة اليهود والنصارى الذين غلبهم التعصّب الطائفى وأمثاله، ولذلك لم يعبّر القرآن الكريم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۴

عنهم بأهل الكتاب، لأنّهم لم يتّبعوا كتبهم السماوية، بل كانوا أحزاباً وكتلًا تابعين لخطّهم الحزبى. أو أنّ كلمة «الأحزاب» إشارة إلى المشركين، لأنّ سورة الأحزاب ذكرتهم بهذا التعبير، وهؤلاء ليس لهم دين ولا مذهب بل كانوا على شكل أحزاب وكتل متفرقة اتّحدوا فى مخالفتهم للقرآن والإسلام. ونقل العلامة الطبرسى عن ابن عباس، أنّ هذه الآية إشارة إلى المشركين الذين كانوا يخالفون وصف اللَّه بالرحمن، وأهل الكتاب- خصوصاً اليهود- يفرحون بهذا الوصف «الرحمان» فى الآيات القرآنية، ومشركى مكة كانوا يسخرون منه بسبب عدم معرفتهم به.

وفى آخر الآية يأمر اللَّه النبى صلى الله عليه و آله: «قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَابِ». وتلك دعوة للموحدين الصادقين والمؤمنين الرساليين أن يسلّموا أمام الأوامر الإلهية.

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا واقٍ (۳۷) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّيَّةً وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ (۳۸) يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ (۳۹) وَ إِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ (۴۰) الحوادث الثابتة والمتغيرة: تتابع هذه الآيات المسائل المتعلقة بالنبوّة، ففى الآية الاولى يقول تعالى: «وَكَذلِكَ أَنزَلْنَهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا».

«العربى»: كما يقول الراغب فى مفرداته «الفصيح البيّن من الكلام» وعلى هذا فوصف القرآن بالعربى لأنّ أحكامه واضحة وبيّنة.

ثم يخاطب القرآن النبى صلى الله عليه و آله بلحن التهديد وبشكل قاطع حيث يقول: «وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ». وبما أنّ احتمال الانحراف غير موجود إطلاقاً فى شخصية الرسول صلى الله عليه و آله لما يتميّز به من مقام العصمة والمعرفة، فهذا التعبير- أوّلًا- يُوضّح أنّ اللَّه سبحانه وتعالى ليس له إرتباط خاص مع أى أحد حتى لو كان نبيّاً، فمقام الأنبياء الشامخ إنّما هو بسبب عبوديتهم وتسليمهم وإستقامتهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۵

وثانياً: تأكيد وإنذار للآخرين، لأنّ النبى صلى الله عليه و آله إذا لم يكن مصوناً من العقوبات الإلهية فى حالة انحرافه عن مسيرة الحق وإتّجاهه صوب الباطل، فما بال الآخرين؟

الآية الاخرى جواب لما كان يستشكله أعداء الرسول صلى الله عليه و آله. ومن جملة هذه الإشكالات:

أوّلًا: كان البعض يقول: هل من الممكن أن يكون الرسول من جنس البشر، يتزوج وتكون له ذرية؟ فالآية تجيبهم وتقول ليس هذا بالأمر الغريب: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً».

ثانياً: كان ينتظر هؤلاء من الرسول أن يجيبهم على كل معجزة يقترحونها عليه بما تقتضيه أهواؤهم، سواء آمنوا أو لم يؤمنوا، ولكن يجب أن يعلم هؤلاء أنّ «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

ثالثاً: لماذا جاء نبى الخاتم صلى الله عليه و آله وغيّر أحكام التوراة والإنجيل؟ وتجيب الجملة الأخيرة من الآية فتقول: «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ» كيما تبلغ البشرية المرحلة النهائية من الرشد والتكامل فليس من العجيب أن ينزّل يوماً التوراة، ويوماً آخر الإنجيل، ثم القرآن،

لأنّ البشرية فى تحوّلها وتكاملها بحاجة إلى البرامج المتغيرة والمتفاوتة.

الآية الاخرى بمنزلة التأكيد والاستدلال لما ورد فى ذيل الآية السابقة، وهو أنّ لكل حدث وحكم زمن معين كما يقال: إنّ الامور مرهونة بأوقاتها، وإذا رأيت أنّ بعض الكتب السماوية تأخذ مكان البعض الآخر فذلك بسبب «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتابِ» فيحذف بعض الامور بمقتضى حكمته وإرادته ويثبت اموراً اخرى، ولكن الكتاب الأصل عنده.

وفى النهاية وللتأكيد أكثر بالنسبة للعقوبات التى كان يوعدهم النبى صلى الله عليه و آله بها وكانوا ينتظرونها حتى أنّهم يقولون: لماذا لا تصبح هذه الوعود عملية؟ يقول تعالى: «وإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُم (من إنتصارك عليهم وهزيمتهم وتحرير أتباعك وأسر أتباعهم فى حياتك) أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ».

إنّ جملة «يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ» تبيّن قانوناً عامّاً وشاملًا وقد اشير إليه فى مختلف المصادر الإسلاميّة، وهو أنّ تحقّق وصيرورة الحوادث المختلفة للعالم لها مرحلتين: الاولى المرحلة القطعيّة أو الثابتة، ولا سبيل للتغيير فيها (والتى أشارت إليها الآية أعلاه بام الكتاب) والاخرى المرحلة المتغيرة أو بعبارة اخرى «المشروطة» والتى يجد التغيير سبيلًا

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۱۶

إليها، وقد عبّر عنها بالمحو والإثبات، وأحياناً يقال عن المرحلتين: «اللوح المحفوظ» و «لوح المحو والإثبات» كأنّ ما كُتب فى اللوح الأوّل محفوظ لا يتغيّر، أمّا الثانى فمن الممكن محو ما كتب فيه وتغييره. فى تفسير العياشى عن الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «من الامور امور محتومة كائنة لا محالة، ومن الامور امور موقوفة عند اللَّه يقدّم فيها ما يشاء ويمحو ما يشاء ويثبت منها ما يشاء، لم يطلع على ذلك أحداً يعنى الموقوفة فأمّا ما جاءت به الرسل فهى كائنة لا يكذب نفسه ولا نبيّه ولا ملائكته».

أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرَافِهَا وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (۴۱) وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (۴۲) وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (۴۳) البشرية فانية ووجه اللَّه باق: بما أنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث مع منكرى رسالة النبى صلى الله عليه و آله فقد تابعت هذه الآيات كذلك نفس البحث. يقول تعالى أوّلًا: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا». من الواضح أنّ المقصود من «الأرض» هنا هم أهل الأرض، يعنى أنّ هؤلاء لا ينظرون إلى هذا الواقع من أنّ الأقوام والحضارات والحكومات فى حال الزوال والإبادة، وإنذار لكل الناس، الصالح منهم والطالح، حتى العلماء الذين يشكّلون أركان المجتمع البشرى يكون موت أحدهم أحياناً نقصاناً للدنيا.

ثم يضيف: «وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَامُعَقّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ». ولذلك فإنّ قانون الفناء مكتوب على جبين كل الأفراد والامم من جهة، ومن جهة اخرى لا يستطيع أحد أن يغيّر هذا الحكم ولا الأحكام الاخرى، ومن جهة ثالثة أنّ حساب العباد سريع جدّاً، وبهذا الترتيب يكون جزاؤه قاطعاً.

ثم يستمر البحث فى الآية الثانية ويقول: ليست هذه الفئة فقط نهضت بمكرها ومحاربتها لك، بل «وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ». لكن خططهم كُشفت، واجهضت مؤامرتهم بأمر من اللَّه، لأنّه أعلم الموجودات بهذه المسائل «فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا» ذاك هو العالم بكل شىء

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۱۷

و «يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ». ثم يحذرهم بصيغة التهديد من عاقبة عملهم ويقول:

«وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ».

الآية الأخيرة من هذا البحث (كما بدأت هذه السورة بكتاب اللَّه والقرآن) تُنهى سورة الرعد فى التأكيد أكثر على معجزة القرآن.

يقول تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا».

فهم يصطنعون كل يوم عذراً، ويطلبون فى كل وقت المعاجز، ثم آخر الأمر يقولون: لست بنبى! قل فى جوابهم: «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا

بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنـدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ». فاللّه سـبحانه وتعالى يعلم بأنّى رسوله، وكذلك هؤلاء لهم المعرفة الكافية بأنّ القرآن هو كتاب سماوى، وهذا تأكيد جديد على إعجاز القرآن بمختلف جوانبه.

«نهاية تفسير سورة الرعد»

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۱۹

۱۴. سورة ابراهيم

هذه السورة مكية بإستثناء الآيات (۲۸) و (۲۹) طبقاً لما قاله كثير من المفسرين أنّها نزلت بالمدينة فى قتلى المشركين فى بدر.

محتوى السورة: المعلوم من اسم السورة أنّ قسـماً منهـا نازل بشأن بطل التوحيـد ومحطّم الأصـنام سـيّدنا إبراهيم عليه السـلام (قسم من أدعيته).

والقسم الآخر من هذه السورة يشير إلى تاريخ الأنبياء السابقين أمثال نوح وموسى، وقوم عاد وثمود، وما تحتوى من دروس وعبر فيها.

وتكمل هذه المجموعة من البحوث فى السورة آيات الموعظة والنصيحة والبشارة والإنذار.

إنّ قسماً كبيراً منها أيضاً يبحث مواضيع «المبدأ» و «المعاد».

وخلاصة هذه السورة أنّها تبيّن عقائد ونصائح ومواعظ سيرة الأقوام الماضية، والهدف من رسالة الأنبياء ونزول الكتب السماوية.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «من قرأ سورة إبراهيم والحجر اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وبعدد من لم يعبدها».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۰

وكما أسلفنا مراراً فإنّ ما ورد من الثواب حول قراءة السور القرآنية يلازمه التفكر ومن ثم العمل.

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (۱) اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ وَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (۲) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَئِكَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ (۳) الخروج من الظلمات إلى النور: شـرعت هـذه السورة- كبعض السور القرآنية الاخرى- بالحروف المقطعة، والنقطة التى يجب ملاحظتها هنا أنّ من بين ۲۹ مورداً لسور القرآن التى ابتدأت بالحروف المقطعة هناك ۲۴ مورد ذكر بعدها مباشرةً القرآن الكريم، والتى تُبيّن أنّ هناك علاقة بين الاثنين، أى بين الحروف المقطعة والقرآن، ولعل هذه العلاقة هى نفسها التى ذكرناها فى بدايـة سورة البقرة، فـاللّه سبحانه وتعالى يريـد أن يوضّـح من خلاـل هـذا البيان أنّ هـذا الكتاب السـماوى العظيم المتعهـد لقيادة الإنسانية يتكوّن من مواد بسيطة تسمّى بحروف الألفباء، وهذه تشير إلى أهمية هذا الإعجاز، حيث يوجد أصدق بيان من أبسط بيان.

وعلى أيّة حال فبعد ذكر الحروف «الر» يقول تعالى: «كِتَابٌ أَنزَلْنَهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ».

إنّ جميع الأهـداف التربويـة والإنسانية، المعنوية والمادية من نزول القرآن قد جُمعت فى هذه الجملة (الخروج من الظلمات إلى النور) أى الخروج من ظلاـم الجهـل إلى نور المعرفـة، ومن ظلام الكفر إلى نور الإيمان، من ظلم الظالمين إلى نور العدالـة، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الذنوب إلى الطهارة والتقوى، ومن التفرقة والنفاق إلى نور الوحدة.

ومن الطريف أنّ «الظلمـات» هنـا جاءت بصيغة الجمع و «النور» بصيغة المفرد، وهـذه إشارة إلى أنّ كل الحسـنات والطيبات والإيمان والتقوى لها حالة واحدة فى ظلّ التوحيد

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۱

ونوره فهى مترابطة ومتحدة فيما بينها فتصنع مجتمعاً واحداً متحداً وطاهراً من كل جهة. بينما الظلمات تعنى التشتت وتفرقة الصفوف.

ومن هنا لما كان مصـدر كل الخير هى الـذات الإلهيـة المقدسة، والشـرط الأساس لدرك التوحيد هو الإلتفات إلى هذه الحقيقة، فإنّه

یضیف بلا فاصلهٔ: «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ».
ولکی یبیّن أکثر ما هو النور یقول تعالی: «إِلَی صِرَاطِ الْعَزِیزِ الْحَمِیدِ». فعزّته دالهٔ علی قدرته، لأنّه لا یستطیع أحد أن یغلبه، والحمید دالهٔ علی نعمه ومواهبه غیر المتناهیهٔ، لأنّ الحمد والثناء دائماً تکون فی مقابل النعم والمواهب.
الآیهٔ الثانیهٔ ولکی تعرّف اللّه بصفاته، تبیّن درساً من دروس التوحید حیث تقول:
«اللَّهِ الَّذِی لَهُ مَا فِی السَّموَاتِ وَمَا فِی الْأَرْضِ». فله کل شیء، لأنّه خالق جمیع الموجودات ولهذا السبب هو القادر والعزیز وواهب النعم والحمید.
ثم یتطرّق فی نهایهٔ الآیهٔ إلی مسألهٔ المعاد (بعد أن ذکر المبدأ) فتقول الآیهٔ: «وَوَیْلٌ لِّلْکَافِرِینَ مِنْ عَذَابٍ شَدِیدٍ».
ثم یُعرّف القرآن الکریم الکفار فی الآیهٔ الاخری، ویذکر لهم ثلاث صفات کیما نستطیع أن نعرفهم من أوّل وهلهٔ، یقول تعالی أوّلًا: «الَّذِینَ یَسْتَحِبُّونَ الْحَیَوهَ الدُّنْیَا عَلَی الْأَخِرَهِ». فهم یضحّون بالإیمان والحق والعدالهٔ والشرف التی هی من خصائص محبّی الآخرهٔ، من أجل منافعهم الشخصیهٔ وشهواتهم.
ثم یبیّن تعالی أنّ هؤلاء غیر قانعین بهذا المقدار من الضلال، بل یسعون فی أن یضلّوا الآخرین «وَیَصُدُّونَ عَن سَبِیلِ اللَّهِ». فهم- فی الواقع- یزیّنون الهوی، ویدعون الناس إلی الذنوب، ویخوّفونهم من الصدق والإخلاص.
ولا یقتصر عملهم علی ذلک فحسب، بل «وَیَبْغُونَهَا عِوَجًا». ثم یحاولون أن یصبغوا الآخرین بصبغتهم، ویسعون فی أن یحرفوا السبیل للوصول إلی هدفهم من خلال نشر الخرافات وإبتداع السنن الخبیثهٔ «أُولئِکَ فِی ضَللٍ بَعِیدٍ».
وهذا الضلال قد أوجد بُعد المسافهٔ بینهم وبین الحق فکان من العسیر جدّاً عودتهم إلی طریق الحق، ولکن ذلک کان نتیجهٔ لأعمالهم.
مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۲۲
وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِیُبَیِّنَ لَهُمْ فَیُضِلُّ اللَّهُ مَنْ یَشَاءُ وَ یَهْدِی مَنْ یَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۴) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَی بِآیَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَکَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَی النُّورِ وَ ذَکِّرْهُمْ بِأَیَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَاتٍ لِکُلِّ صَبَّارٍ شَکُورٍ (۵) وَ إِذْ قَالَ مُوسَی لِقَوْمِهِ اذْکُرُوا نِعْمَهَ اللَّهِ عَلَیْکُمْ إِذْ أَنْجَاکُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ یَسُومُونَکُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَ یُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَکُمْ وَ یَسْتَحْیُونَ نِسَاءَکُمْ وَ فِی ذلِکُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّکُمْ عَظِیمٌ (۶) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکُمْ لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ وَ لَئِنْ کَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِی لَشَدِیدٌ (۷) کان الحدیث فی الآیات السابقهٔ عن القرآن الکریم وآثاره الروحیهٔ، وتتابع الآیهٔ الاولی من هذه المجموعهٔ نفس الموضوع، لکن فی بُعد خاص وهو أنّ دعوهٔ الأنبیاء وکتبهم السماویهٔ نزلت بلسان أقوامهم الذین بُعثوا إلیهم. یقول تعالی: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ». لأنّ الأنبیاء یرتبطون فی الدرجهٔ الاولی مع قومهم، وأوّل نور الوحی یشعّ من بینهم، وأوّل الصحابهٔ والأنصار یُنتخبون منهم، لذلک فإنّ الرسول یجب أن یحدّثهم بلغتهم وبلسانهم «لِیُبَیِّنَ لَهُمْ».
إنّ دعوهٔ الأنبیاء کانت توضّح لهم من خلال التبیین والتعلیم والتربیهٔ وبلسانهم الرائج لا من خلال أثر مرموز وغیر معروف فی قلوب.
ثم یضیف القرآن الکریم بعد أن بیّن لهم الدعوهٔ الإلهیهٔ: «فَیُضِلُّ اللَّهُ مَن یَشَاءُ وَیَهْدِی مَن یَشَاءُ». فلیست الهدایهٔ والضلال من عمل الأنبیاء، بل عملهم الإبلاغ والتبیین، اللّه سبحانه وتعالی هو الموجّه والهادی الحقیقی لعباده.
ولکی لا- یتصور أحد أنّ هذا القول بمعنی الجبر وسلب الحرّیات، فیضیف القرآن مباشرهٔ: «وَهُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ». وبمقتضی عزته وقدرته فإنّه قادر علی کل شیء، ولکن بمقتضی حکمته لا یهدی ولا یضلّ أحداً بدون سبب ودلیل، بل الخطوهٔ الاولی تبدأ من قبل العباد وبکامل الحریهٔ فی السیر إلی اللّه، ثم یشعّ نور الهدایهٔ وفیض الحق فی قلوبهم، کما فی
مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۲۳
الآیهٔ (۶۹) من سورهٔ العنکبوت: «وَالَّذِینَ جَاهَدُوا فِینَا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنَا».
وعلی هذا النحو فإنّ محور الهدایهٔ والضلال فی أیدی الناس أنفسهم.

تشير الآية الاخرى إلى واحدة من نماذج إرسال الأنبياء فى مقابل طواغيت عصرهم، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بَايَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» «۱».

وكما قرأنا فى الآية الاولى من هذه السورة فإنّ خلاصة دعوة رسول الخاتم صلى الله عليه و آله هى إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فهذه دعوة كل الأنبياء، بل جميع القادة الروحيين للبشر.

ثم يشير القرآن الكريم إلى واحدة من أكبر مسؤوليات موسى عليه السلام حيث يقول تعالى:

«وَذَكِّرْهُم بِأَيِم اللَّهِ». وهى جميع الأيام العظيمة فى تاريخ الإنسانية. فكل يوم يُفتح فيه فصل جديد من حياة الناس فيه درس وعبرة، أو ظهور نبى فيه، أو سقوط جبار وفرعون- أو كل طاغ- ومحوه من الوجود. خلاصة القول: كل يوم يُعمل فيه بالحق والعدالة ويتلاشى فيه الظلم وتنطفى فيه بدعة، هو من أيّام اللّه.

الروايات الواردة من أهل البيت عليهم السلام تشير أنّهم فسّروا «أيّام اللّه» بأيام مختلفة، ففى تفسير نور الثقلين عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «أيّام اللّه، يوم يقوم القائم ويوم الكرّة «۲» ويوم القيامة».

وفى آخر الآية يقول تعالى: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

«صبّار» و «شكور»: صيغة مبالغة فأحدهما تشير إلى شدة الصبر، والاخرى إلى زيادة الشكر، وتعنى أنّ المؤمنين كما لا يستسلمون للحوادث والمشاكل التى تصيبهم فى حياتهم، كذلك لا يغترّون ولا يغفلون فى أيّام النصر والنعم.

تشير الآية الاخرى إلى أحد هذه الأيام التى كانت ساطعة ومثمرة فى تاريخ بنى إسرائيل، وذكرها تذكرة للمسلمين حيث يقول تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ». هؤلاء الفراعنة الذين كانوا «يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ

---

(۱) المعجزات التى ظهرت من موسى بن عمران أشارت إليها الآية أعلاه بلفظ الآيات، وهى ۹ معاجز مهمّة طبقاً للآية (۱۰۱) من سورة الإسراء، والتى سوف تأتى إن شاء اللّه فى تفسير تلك الآية.

(۲) يوم الكرّة/ أى يوم الرجعة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۴

أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِى ذلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ».

وكان على طول التاريخ طريقة كل المستعمرين حيث كانوا يبيدون قسماً من القوى الفاعلة والمقاومة، ويضعفون قسماً آخر منها ويستخدمونها فى منافعهم الخاصة. أىّ يوم أكثر بركة من ذلك اليوم حيث أزال اللّه عنكم فيه شرّ المتكبرين والمستعمرين، الذين كانوا يرتكبون أفظع الجرائم بحقكم، وأى جريمة أعظم من ذبح أبنائكم كالحيوانات (إنتبه إلى أنّ القرآن عبّر بالذبح لا بالقتل) وأهمّ من ذلك فإنّ نواميسكم كانت خدماً فى أيدى الطامعين.

وليس هذا المورد خاص ببنى إسرائيل، بل فى جميع الامم والأقوام. فإنّ يوم الوصول إلى الاستقلال والحرية وقطع أيدى الطواغيت يوم من أيام اللّه الذى يجب أن نتذكّره دوماً حتى لا نعود إلى ما كنّا عليه فى الأيّام الماضية.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ». يمكن أن تكون هذه الآية من كلام موسى لبنى إسرائيل، ويمكن أن تكون جملة مستقلّة وخطاباً للمسلمين، ولكن على أيّة حال فالنتيجة واحدة، لأنّ وروده فى القرآن الكريم من أجل أن يكون درساً بنّاءاً لنا.

الشكر سبب لزيادة النعم والكفر سبب للفناء: مما لا شك فيه أنّ اللّه سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى شكرنا فى مقابل نعمه علينا، وإذا أمرنا بالشكر فذاك لنستوجب نعمة اخرى وهى واحدة من المبادىء السامية فى التربية.

إنّ حقيقة الشكر ليس فقط ما يقوله الإنسان (الحمد للّه) أو الشكر اللفظى، بل هناك ثلاث مراحل للشكر:

الاولى: يجب أن نعلم من هو الواهب للنعم؟ هذا العلم والإيمان الركن الأوّل للشكر.

والثانية: الشكر باللسان.

والثالثه: وهى الأهمّ الشكر العملى، أى أن نعلم الهدف من منحنا للنعمة، وفى أى مورد نصرفها، وإلّا كفرنا بها.

وهنا يتّضح هذه العلاقة بين الشكر وزيادة النعمة، لأنّ الناس لو صرفوا النعم الإلهية فى هدفها الحقيقى، فسوف يثبتون عملياً إستحقاقهم لها وتكون سبباً فى زيادة الفيوضات الإلهية عليهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۵

وَ قَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَ قَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) الآية الاولى من هذه المجموعة تؤيّد وتُكمل البحث السابق فى الشكر والكفران، وذلك ضمن الكلام الذى نقل عن لسان موسى عليه السلام: «وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ».

إنّ الشكر والإيمان باللّه سبب فى زيادة النعم والتكامل الإنسانى، وإلّا فاللّه عزّ وجل ليس بحاجة إلى أىّ شىء، ولو كفرت جميع الكائنات ولم تحمده لا تمسُّ كبرياءه بأدنى ضرر، لأنّه حميد فى ذاته.

ثم يشرح مصير الفئات من الأقوام السابقة ضمن عدّة آيات، الفئات التى كفرت بأنعم اللّه وخالفت الدعوة الإلهية، وهى تأكيد للآية السابقة. يقول تعالى: «أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ».

يمكن أن تكون هذه الجملة تعقيباً على كلام موسى، أو بيان مستقل يخاطب به المسلمين، لكن النتيجة غير متفاوتة كثيراً.

ثم يضيف تعالى: «قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ» فهؤلاء لم يطّلع على أخبارهم إلّااللّه «لَايَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ».

ولكى يوضّح القرآن الكريم مصيرهم يقول: «جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ». أى: وضعوا أيديهم على أفواههم من التعجب والإنكار «وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۶

أُرْسِلْتُم بِهِ». لماذا؟ بسبب: «وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ».

وبما أنّ الآية السابقة بيّنت قول المشركين والكفار فى عدم إيمانهم بسبب شكهم وترديدهم، فالآية بعدها تنفى هذا الشك من خلال دليل واضح وعبارة قصيرة حيث يقول تعالى: «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». «فاطر»: من «فَطَر» وهى فى الأصل بمعنى «شقّ» وهنا كناية عن «الخلق» فالخالق هو الموجد للأشياء على أساس نظام دقيق ثم يحفظها ويحميها، كأنّ ظلمة العدم شقّت بنور الوجود.

ولعل «فاطر» تشير إلى تشقّق المادة الأوّلية للعالم، كما نقرأ فى العلوم الحديثة إنّ مجموع مادة العالم كانت واحدة مترابطة ثم إنشقّت إلى كُراة مختلفة.

فالقرآن الكريم هنا- كما فى أغلب الموارد الاخرى- يستند لإثبات وجود الخالق وصفاته إلى نظام الوجود وخلق السماوات والأرض.

ثم يجيب القرآن الكريم على ثانى إعتراض للمخالفين، وهو إعتراضهم على مسألة الرسالة (لأنّ شكّهم كان فى اللّه وفى دعوة الرسول) ويقول إنّ من المسلم أنّ اللّه القادر والحكيم لا يترك عباده بدون قائد، بل إنّه بإرسال الرسل: «يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ».

وزيادة على ذلك فإنّه: «وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى». كيما تسلكوا سبيل التكامل وتستفيدوا من موهبة الحياة بأقصى ما يمكنكم.

إنّ غاية دعوة الأنبياء أمران: أحدهما غفران الذنوب، والثانى إستمرار الحياة إلى الوقت المعلوم، والإثنان علة ومعلول، فالمجتمع الذى يستمر فى وجوده هو المجتمع النقى من الظلم والذنوب.

ومع كل ذلك لم يقبل الكفار المعاندون دعوة الحق المصحوبة بوضوح منطق التوحيد، ومن خلال بيانهم المشوب بالعناد وعدم التسليم كانوا يجيبون الأنبياء بهذا القول: «قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا». علاوة على ذلك: «تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا». وأكثر من ذلك: «فَأْتُونَا بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۷

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُم وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۱) وَ مَا لَنَا أَنْ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (۱۲) التوكل على اللّه وحده: نقرأ فى هاتين الآيتين جواب الرسل على حجج المخالفين المعاندين، وإعتراضهم على بشرية الرسل، فكان جوابهم: «قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».

يعنى لو إفترضنا أنّ اللّه تعالى أرسل لكم ملائكة بدل البشر، فهى لا تمتلك شيئاً لذاتها، فكل المواهب ومن جملتها موهبة الرسالة والقيادة هى من عند اللّه، فالذى يستطيع أن يهب الملائكة هذا المقام قادر أن يعطيها للإنسان.

ثم يجيب على السؤال الثالث دون أن يجيب على الثانى، وكأنّ الإعتراض الثانى الذى هو الإستنان بسنّة الأجداد ليس له أى أهمية وفارغ من المحتوى بحيث إنّ أىّ إنسان عاقل- بأقل تأمل- يفهم جوابه، بالإضافة إلى أنّ القرآن الكريم قد أجاب عنه فى آيات اخر.

وجواب السؤال الثالث هو أنّ عملنا ليس الإتيان بالمعاجز، فنحن لا نجلس فى مكان ونلبّى لكم المعاجز الإقتراحية وكل ما سوّلت لكم أنفسكم، بل «وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ».

ومع ذلك فإنّ كل نبى كان يظهر لقومه المعاجز بمقدار كاف بدون أن يطلبها الناس منه، وذلك لكى يثبت الأنبياء أحقّيتهم ولتكون المعاجز سنداً لصدقهم.

ولكى يردّ الرسل على تهديداتهم المختلفة يقولون: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ».

وبعد ذلك إستدل الأنبياء على مسألة التوكل حيث قالوا: «وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَينَا سُبُلَنَا».

ثم أضافوا: إنّ ملاذنا هو اللّه، ملاذ لا يُقهر وهو فوق كل شىء: «وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا ءَاذَيْتُمُونَا». وأخيراً أنهوا كلامهم بهذه الجملة: «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ».

المقصود من التوكل أن لا يحسّ الإنسان بالضعف فى مقابل المشكلات العظيمة، بل

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۸

بتوكله على قدرة اللّه المطلقة يرى نفسه فاتحاً ومنتصراً، وبهذا الترتيب فالتوكل عامل من عوامل القوة واستمداد الطاقة وسبب فى زيادة المقاومة والثبات.

وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمِ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (۱۳) وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَ خَافَ وَعِيدِ (۱۴) وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (۱۵) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (۱۶) يَتَجَرَّعُهُ وَ لَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ مَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (۱۷) خطط الجبارين المعاندين ومصيرهم: عندما يعلم الظالمون بضعف منطقهم وعقيدتهم، يتركون الاستدلال، ويلجأون إلى القوة والعنف، ونقرأ هنا أنّ الأقوام الكافرة العنيدة عندما سمعوا منطق الأنبياء المتين والواضح قالوا لرسلهم: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا».

وكأنّ هؤلاء القوم يعتبرون جميع ما فى الأرض ملكهم، حتى أنّهم لم يمنحوا لرسلهم حقوق المواطنة، ولذلك يقولون «أرضنا»، وفى الحقيقة فإنّ اللّه سبحانه وتعالى خلق الأرض وكل مواهبها للصالحين، وهؤلاء الجبابرة فى الواقع ليس لهم أى حق فيها.

ثم يضيف القرآن الكريم لتسلية قلوب الأنبياء: «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ».

فلا تخافوا من وعيدهم، ولا تُظهروا الضعف فى إرادتكم.

وبما أنّ الظالمين كانوا يهدّدون الأنبياء بالتبعيد عن أرضهم، فإنّ اللّه فى مقابل ذلك كان يعد الأنبياء «وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ».

ولكن هذا النصر والتوفيق لا يناله إلّا «ذلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ».

وحين إنقطعت الأسباب بالأنبياء من كل جانب، وأدّوا جميع وظائفهم فى قومهم، فآمن منهم من آمن، وبقى على الكفر من بقى، وبلغ ظلم الظالمين مداه، فى هذه الأثناء طلبوا النصر من اللّه تعالى: «وَاسْتَفْتَحُوا ...». وقد استجاب اللّه عزّ وجلّ دعاء المجاهدين المخلصين «وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۲۹

«خاب»: من الخيبة بمعنى فقدان المطلوب.

و «جبّار»: بمعنى المتكبر هنا، وتطلق هذه الكلمة أحياناً على اللّه جلّ وعلا فتعطى معنىً آخر، وهو (جبر وإصلاح من هو بحاجة إلى الإصلاح) أو بمعنى (المتسلط على كل شىء).

و «العنيد»: فى الأصل من «العَنَد» على وزن «رَنَد» بمعنى الإتّجاه، وجاءت هنا بمعنى الانحراف عن طريق الحق.

ومن الطريف أنّ «جبار» تشير إلى صفة نفسانية بمعنى روح العصيان، و «عنيد» تشير إلى آثار تلك الصفة فى أفعال الإنسان حيث تصرفه عن طريق الحق.

ثم يُبيّن نتيجة عمل الجبارين فى الآخرة ضمن آيتين فى خمسة مواضع:

۱- إنّ مثل هذا الشخص: «مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ». مع أنّ كلمة «وراء» بمعنى «الخلف» فى مقابل أمام، إلّاأنّها فى هذه الموارد تعنى نتيجة وعاقبة العمل.

۲- أمّا فى جهنم فإنّه: «وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ». «الصديد»: القيح المتجمع بين اللحم والجلد، وهو بيان للماء المتعفن الكريه الذى يسقونه.

۳- فهذا المجرم المذنب عندما يرى نفسه فى مقابل هذا الشراب «يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ». «يسيغه»: من إساغة، وهى وضع الشراب فى الحلق.

۴- ووسائل التعذيب كثيرة بحيث «وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيّتٍ». حتى يذوق وبال عمله وسيّئاته.

۵- وقد يتصور أن ليس هناك عقاباً أكثر من ذلك، ولكن «وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ».

وبهذا الترتيب فإنّ كل ما يخطر فى ذهن الإنسان وما لا يخطر من شدة العقاب هو فى إنتظار هؤلاء الظالمين والجبارين والمذنبين لأنّه النتيجة الطبيعية لعمل الإنسان، بل تجسيم أفعالهم فى الآخرة، فكل عمل يجسّم بشكل مناسب.

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَىْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (۱۸)

رمادٌ إشتدّت به الريح: ضربت هذه الآية مثالًا واضحاً وبليغاً لأعمال الكفار، وبذلك تكمل بحث الآيات السابقة فى مجال عاقبة أمرهم.

يقول تعالى: «مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ». فيتناثر الرماد فى الريح العاصف بحيث لا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۰

يستطيع أحد جمعه، كذلك منكرو الحق ليست باستطاعتهم أن يجمعوا ما كسبوا «لَّايَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَىْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّللُ الْبَعِيدُ».

أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (۱۹) وَ مَا ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (۲۰) الخلق على أساس الحق: بعد ما بحثنا عن الباطل وأنّه كالرماد المتناثر إذا إشتدّت به الريح، نبحث فى هذه الآية عن الحقّ وإستقراره، يقول اللّه تعالى مخاطباً النبى صلى الله عليه و آله باعتباره الاسوة لكل دعاة الحق: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ».

«الحق»: كما يقول الراغب فى مفرداته «المطابقة والتنسيق» وله استعمالات اخرى: فتارةً يستعمل الحق فى العمل الصادر وفقاً للحكمة والنظام كما فى الآية (۵) من سورة يونس:

«هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقّ».

وتارةً يطلق على الشخص الذى قام بهذا العمل المحكم، كما- فى الآية (۳۲) من سورة يونس- نطلقها على اللّه عزّ وجلّ: «فَذٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ».

وتارةً اخرى يطلق على الإعتقاد الذى يطابق الواقع كما فى الآية (۲۱۳) من سورة البقرة: «فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقّ».

ومرّةً يقال للقول والعمل الذى يتحقق فى الوقت المناسب كما فى الآية (۱۳) من سورة السجدة: «حَقَّ الْقَوْلُ مِنّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ».

فمقابل «الحق» الباطل والضلال واللعب وأمثالهما؛ لكنّ الآية التى نحن بصددها تشير إلى المعنى الأوّل، وهو إنشاء عالم الخلق. حيث توضّح أنّ الغرض من خلق السماء والأرض هو الحكمة والنظام والحساب، فاللّه تعالى ليس محتاجاً فى خلقها ولا ناقصاً لكى يسدّ نقصه بها، بل هو الغنى عن كل شىء، وهذا العالم الواسع دار لنمو المخلوقات وتكاملها.

ثم يضيف: إنّ الدليل فى عدم الحاجة إليكم ولا إلى إيمانكم هو: «إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ».

وهذا العمل ليس صعباً عند اللّه «وَمَا ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ».

والشاهد على هذا القول فى الآيات (۱۳۱- ۱۳۳) من سورة النساء: «وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَ

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۱

لِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ... إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بَاخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذٰلِكَ قَدِيرًا».

وهذا التفسير بخصوص الآية أعلاه منقول عن ابن عباس.

وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَ جَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (۲۱) وَ قَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ مَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۲۲) وَ أُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (۲۳) المحادثة الصريحة بين الشيطان وأتباعه: أشارت الآيات السابقة إلى العقاب الشديد للمخالفين والمعاندين والكافرين، وهذه الآيات تكمل ذاك البحث. يقول تعالى أوّلًا:

«وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا».

وفى هذه الأثناء يقول الضعفاء الذين تاهوا فى وادى الضلالة للمستكبرين الذين كانوا سبب ضلالهم «فَقَالَ الضُّعَفَؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَىْءٍ» فيجيبونهم بدون توقّف «قَالُوا لَوْ هَدَينَا اللَّهُ لَهَدَيْنكُمْ».

ولكن للأسف فالمسألة منتهية «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ».

ولكن يجب أن يعلم المستكبرون أنّهم يتحمّلون مسؤولية ذنوب أتباعهم شاؤوا أم أبوا، طبقاً لصريح القرآن والرّوايات، لأنّهم المؤسسون للانحراف والضلال دون أن ينقص أى شىء من عذاب أتباعهم.

«المحيص»: من «المحص» بمعنى التخلّص من العيوب أو الألم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۲

ثم يشير القرآن الكريم إلى موقف آخر من مواقف القيامة والعقاب النفسى للجبارين والمذنبين وأتباعهم الشياطين، حيث يقول تعالى: «وَقَالَ الشَّيْطَنُ لَمَّا قُضِىَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ». وبهذا الترتيب فالشيطان وجميع المستكبرين الذين هم قادة طرق الضلال، أصبحوا يلومون ويوبّخون تابعيهم البؤساء. ثم يضيف: «وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَنٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى». ويستمرّ فى القول «فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنفُسَكُم». أنتم فعلتم فاللعنة عليكم!

وعلى كل حال فلا أنا أستطيع إنقاذكم من العذاب ولا أنتم تستطيعون إنقاذى: «مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ». والآن اعلّمكم بأنّى أتبرّأ من شرككم وإطاعتكم لى «إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ» فقد فهمت الآن أنّ الشرك فى الطاعة أدّى إلى شقائى وشقائكم، وهذه التعاسة ليس لها طريق للنجاة، واعلموا «إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ونستفيد بشكل أكيد من هذه الآية أنّ وساوس الشيطان لا تسلب الإنسان اختياره وحرية إرادته، بل هى مجرد دعوة ليس أكثر، فالناس هم الذين يلبّون دعوته بإرادتهم.

وبعد بيان حال الجبارين والظالمين ومصيرهم المؤلم، تتطرّق الآية الأخيرة من هذا البحث إلى حال المؤمنين وعاقبتهم، حيث يقول تعالى: «وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» الآية.

«التحية»: فى الأصل «الحياة» وتستعمل لسلامة وحياة الأفراد، وتطلق لكل تحيّة وسلام ودعاء فى بداية اللقاء.

ف «سلام» يشمل كل سلامة من أى نوع من أنواع العذاب الروحى والجسمى.

أ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَ فَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ (۲۴) تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۲۵) وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (۲۶) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِى الْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (۲۷) الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة: هنا مشهد آخر فى تجسيم الحق والباطل، الكفر

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۳

والإيمان، الطيّب والخبيث ضمن مثال واحد جميل وعميق المعنى ... يُكمل البحوث السابقة فى هذا الباب. يقول تعالى أوّلًا: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ». ثمّ يشير إلى خصائص هذه الشجرة الطيبة فى جميع أبعادها ضمن عبارات قصيرة.

«الكلمة»: فى معناها الواسع تشمل جميع الموجودات.

«الطيب»: كل طاهر ونظيف، فالنتيجة من هذا المثال أنّه يشمل كل سنّة ودستور وبرنامج وطريقة، وكل عمل، وكل إنسان ...

والخلاصة: كل موجود طاهر ونظيف وذى بركة، وجميعها كشجرة طيبة فيها الخصائص التالية:

۱- كائن يمتلك الحركة والنمو، وليس جامداً ولا خاملًا.

۲- هذه الشجرة طيّبة، من كل جهة ... ثمارها، أزهارها، ونسيمها جميعها طيب وطاهر.

۳- لهذه الشجرة نظام دقيق، لها جذور وأغصان، وكل واحد له وظيفته الخاصة.

۴- أصلها ثابت محكم بشكل لا يمكن أن يقلعها الطوفان ولا العواصف، «أَصْلُهَا ثَابِتٌ».

۵- إنّ أغصان هذه الشجرة الطيبة ليست فى محيط ضيّق ولا ردىء، بل مقرّها فى عنان السماء، وهذه الأغصان والفروع تشقّ الهواء وتصعد فيه عالياً «وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ».

ومن الواضح أنّ الأغصان كلّما كانت عالية وسامقة تكون بعيدة عن التلوّث والغبار وتصبح ثمارها نظيفة.

۶- هذه الشجرة كثيرة الثمر لا كالأشجار الذابلة العديمة الثمر، ولذلك فهى كثيرة العطاء «تُؤْتِى أُكُلَهَا».

۷- وثمارها ليست فصلية، بل فى كل فصل وزمان، فإذا أردنا أن نمدّ يدنا إلى أغصانها فى أى وقت لم نرجع خائبين «كُلَّ حِينٍ».

۸- إنّ إنتاجها من الثمار یکون وفق قوانین الخلقة والسنن الإلهیة ولیس بدون حساب «بِإِذْنِ رَبِّهَا».

والآن یجب أن نفتّش، أین نجد هذه الخصائص والبرکات؟

نجدها بالتأکید فی کلمة التوحید ومحتواها، وفی الإنسان الموحد ذی المعرفة.

الرجال العظام من المؤمنین هم کلمة اللَّه الطیّبة، وحیاتهم أصل البرکة، دعوتهم توجب الحرکة، آثارهم وکلماتهم وأقوالهم وکتبهم وتلامیذهم وتاریخهم ... وحتی قبورهم جمیعها ملهمة وحیّة ومربیة.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۳۴

نعم «وَیَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ».

وبما أنّ أحد أفضل الطرق لتوضیح المسائل هو الاستفادة من طریق المقابلة والمقایسة، فقد جعلت النقطة المقابلة للشجرة الطیبة، الشجرة الخبیثة «وَمَثَلُ کَلِمَةٍ خَبِیثَةٍ کَشَجَرَةٍ خَبِیثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ».

والکلمة «الخبیثة» هی کلمة الکفر والشرک، وهی القول السیء والردیء، وهی البرنامج الضال والمنحرف، والناس الخبثاء، والخلاصة: هی کل خبیث ونجس.

ومن الطریف أنّ القرآن الکریم فصّل الحدیث فی وصف الشجرة الطیّبة بینما إکتفی فی وصف الشجرة الخبیثة بجملة قصیرة واحدة «اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ».

وهذا نوع من لطافة البیان أن یتابع الإنسان جمیع خصوصیات ذکر «المحبوب» بینما یمرّ بسرعة فی جملة واحدة بذکر «المبغوض».

وبما أنّ الآیات السابقة جسّدت حال الإیمان والکفر، الطیب والخبیث من خلال مثالین صریحین، فإنّ الآیة الأخیرة تبحث نتیجة عملهم ومصیرهم النهائی، یقول تعالی: «یُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِینَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِی الْحَیوةِ الدُّنْیَا وفِی الْأَخِرَةِ». لأنّ إیمانهم لم یکن إیماناً سطحیاً وشخصیتهم لم تکن کاذبة ومتلوّنة.

فهنا یثبتون بالإیمان ویبرؤون من الذنوب، وهناک یُخلدون فی النعیم المقیم.

ثم یشیر إلی النقطة المقابلة لهم: «وَیُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِینَ وَیَفْعَلُ اللَّهُ مَا یَشَاءُ».

قلنا مراراً: إنّ الهدایة والضلال التی تنسب إلی اللَّه عزّ وجلّ لا تتحققان إلّابأن یرفع الإنسان القدم الأوّل لها، فاللَّه عزّ وجلّ عندما یسلب المواهب والنعم من العبد أو یمنحها له یکون ذلک بسبب إستحقاقه أو عدم إستحقاقه.

أ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ کُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (۲۸) جَهَنَّمَ یَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ (۲۹) وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِیُضِلُّوا عَنْ سَبِیلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِیرَکُمْ إِلَی النَّارِ (۳۰) نهایة کفران النعم: الخطاب فی هذه الآیات موجّه للرسول صلی الله علیه و آله وهو فی الحقیقة عرض لواحد من موارد «الشجرة الخبیثة». یقول تعالی أوّلًا: «أَلَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۳۵

کُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ». هؤلاء هم جذور الشجرة الخبیثة وقادة الکفر والإنحراف.

مع أنّ بعض المفسرین الکبار عند متابعتهم للروایات الإسلامیة فسّروا- أحیاناً- هذه النعمة بوجود النبی صلی الله علیه و آله وأحیاناً اخری بالأئمة علیهم السلام وفسّروا الکافرین بهذه النعمة ب «بنی امیّة» و «بنی المغیرة» مرّة، ومرّةً اخری جمیع الکفار الذین عاصروا عهد النبی صلی الله علیه و آله، ولکن من المسلم به أنّ للآیة مفهوماً أوسع من هذا، ولیس مختصاً بمجموعة معینة، بل تشمل جمیع الأفراد الذین یکفرون بالنعم الإلهیة.

ثم إنّ القرآن الکریم یُفسّر دار البوار بقوله تعالی: «جَهَنَّمَ یَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ» (۱).

ثم یشیر فی الآیة الاخری إلی واحدة من أسوأ أنواع کفران النعم «وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّیُضِلُّوا عَن سَبِیلِهِ». لکی یستفیدوا عدّة أیام من حیاتهم المادیة ومن رئاستهم وحکومتهم فی ظل الشرک والکفر لإضلال الناس عن طریق الحق.

أيّها النبى: «قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ». فحياتكم هذه شقاء ورئاستكم فاسدة.

«أنداد»: جمع «ندّ» بمعنى «المثل» ولكن الراغب فى مفرداته والزبيدى فى تاج العروس قالا: إنّ «الندّ» يقال للشىء الذى يشابه الشىء الآخر جوهرياً، و «المثل»: يطلق على كل شىء شبيه لشىء، ولذلك فالندّ له معنى أعمق وأدقّ من المثل.

وطبقاً لهذا المعنى نستفيد من الآية أعلاه أنّ أئمة الكفر كانوا يسعون لأن يجعلوا للّهشركاء ويشبهوهم فى جوهر ذاتهم باللّه عزّ وجلّ، لكى يضلوا الناس عن عبادة اللّه ويحصلوا على مقاصدهم الشريرة.

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَ لَا خِلَالٌ (٣١) اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ (٣٣) وَ آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)

---

(١) «يصلون»: من «الصلى» بمعنى الإشتعال والإحتراق بالنار.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٣٦

عظمة الإنسان من وجهة نظر القرآن: تعقيباً للآيات السابقة فى الحديث عن برنامج المشركين والذين كفروا بأنعم اللّه وكون مصيرهم إلى دار البوار، تتحدّث هذه الآيات عن برنامج عباد اللّه المخلصين والنعم النازلة عليهم. يقول تعالى: «قُلْ لِّعِبَادِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً». قبل أن يأتى ذلك اليوم الذى لا يستطيع فيه الإنسان من التخلّص من العذاب بشراء السعادة والنعيم الخالد، ولا تنفع الصداقة حينئذ «مِّن قَبْلِ أن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّابَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَلٌ».

ثم تتطرّق الآية إلى معرفة اللّه عن طريق نعمه، معرفة تؤدّى إلى إحياء ذكره فى القلوب، وتحثّ الإنسان على تعظيمه فى مقابل لطفه وقدرته، لأنّ من الامور الفطرية أن يشعر الإنسان فى قلبه بالحب والودّ لمن أعانه وأحسن إليه.

ويبيّن هذا الموضوع من خلال عدّة آيات «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ».

ثم أنّه «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ» سواء من جهة موادها الأوّلية المتوفرة فى الطبيعة، أو من جهة القوة المحرّكة لها وهى الرياح التى تهب على البحار والمحيطات بصورة منتظمة لتسيير هذه السفن فتنقل الإنسان وما يحتاج إليه من منطقة إلى اخرى بيسر وسهولة: «لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ». «وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ» كى تسقوا من مائها زروعكم، وتشربوا أنتم وأنعامكم، وفى كثير من الأحيان تكون طريقاً للسفن والقوارب، وتستفيدون منها فى صيد الأسماك.

وليست موجودات الأرض- فقط- مسخّرةً لكم، بل «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ».

وليست مخلوقات العالم بذاتها فقط، بل حتى الحالات العرضية لها هى فى خدمتكم:

«وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيلَ وَالنَّهَارَ* وَءَاتكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ» من احتياجاتكم البدنيّة والاجتماعية وجميع وسائل السعادة والرفاه «وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَاتُحْصُوهَا» لأنّ النعم المادية والمعنوية للخالق شملت جميع وجودكم وهى غير قابلة للإحصاء، وعلاوةً على ذلك فإنّ ما تعلمونه من النعم بالنسبة لما تجهلونه كقطرة فى مقابل البحر.

وعلى الرغم من كل هذه الألطاف والنعم ف «إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ».

فلو كان الإنسان يستفيد من هذه النعم بشكلها الصحيح لاستطاع أن يجعل الدنيا

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٣٧

حديقة غنّاء ولنفّذ مشروع المدينة الفاضلة.

إنّ الإنسان من وجهة نظر القرآن له من العظمة بحيث سخّر اللّه له جميع ما فى الوجود، إمّا أن يكون زمام امورها بيده أو تتحرّك

ضمن منافعه، وعلى أيّة حال فهذه العظمة جعلته من أشرف الموجودات.

إنّ القرآن الكريم يناديه: أيّها الإنسان، كل شيء بالقدر الكافى تحت تصرفك، بشرط أن وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَ اجْنُبْنِى وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (۳۵) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَ مَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۶) رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (۳۷) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَ مَا نُعْلِنُ وَ مَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِى الْأَرْضِ وَ لَا فِى السَّمَاءِ (۳۸) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (۳۹) رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَ تَقَبَّلْ دُعَاءِ (۴۰) رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَ لِوَالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (۴۱) لا تكون ظلوماً كفاراً، عليك أن تقنع بحقك ولا تتجاوز على حقوق الآخرين.

دعاء إبراهيم عليه السلام: لمّا كان الحديث فى الآيات السابقة عن المؤمنين الصادقين والشاكرين لأنعم اللَّه، عقّبت هذه الآيات فى بحث بعض أدعية وطلبات العبد المجاهد والشاكر للَّه إبراهيم عليه السلام ليكون هذا البحث تكملة للبحث السابق ونموذجاً حيّاً للذين يريدون أن يستفيدوا من النعم الإلهية أفضل إستفادة. يقول تعالى: «وَإِذْ قَالَ إِبْرهِيمُ رَبّ اجْعَلْ هذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِى وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ».

لأنّه عليه السلام كان يعلم حجم البلاء الكبير الكامن فى عبادة الأصنام، ويعلم كثرة الذين ذهبوا ضحيّةً فى هذا الطريق: «رَبّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ». فأيّ ضلال أكبر من هذا الضلال الذى يفقد الإنسان فيه حتى عقله وحكمته.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۸

إلهى إنّنى أدعو إلى توحيدك، وأدعو الجميع إلى عبادتك «فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنّى وَمَن عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ». إنّ إبراهيم عليه السلام أراد بهذه العبارة أن يقول للَّه‌تعالى: إنّه حتى لو انحرف أبنائى عن مسيرة التوحيد واتّجهوا إلى عبادة الأصنام فإنّهم ليسوا منّى، ولو كان غيرهم فى مسيرة التوحيد فهم أبنائى وإخوانى.

ثم يستمر بدعائه ومناجاته: «رَبَّنَا إِنّى أَسْكَنتُ مِن ذُرّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوةَ».

وكان ذلك عندما رزقه اللَّه إسماعيل من جاريته «هاجر» فأثار ذلك حسد زوجته الاولى «سارة» ولم تستطع تحمل وجود هاجر وإبنها، فطلبت من إبراهيم أن يذهب بهما إلى مكان آخر، فإستجاب لها إبراهيم طبقاً للأوامر الإلهية، وجاء بإسماعيل وامّه إلى صحراء مكة القاحلة، ثم ودّعهم وذهب.

ثم يتابع إبراهيم عليه السلام دعاءه: إلهى، إنّ أهلى قد سكنوا فى هذه الصحراء المحرقة إحتراماً لبيتك المحرّم: «فَاجْعَلْ أَفْدَةً مّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ».

ومن هنا لمّا كان الإنسان الموحّد والعارف يعلم بمحدودية علمه فى مقابل علم اللَّه، وأنّه لا يعلم مصلحته إلّااللَّه تعالى، فما أكثر ما يطلب شيئاً من اللَّه وليس فيه صلاحه، أو لا يطلبه وفيه صلاحه، وأحياناً لا يستطيع أن يقوله بلسانه فيضمره فى أعماق قلبه، ولذلك يعقّب على ما مضى من دعائه ويقول: «رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ».

فإن كنت مغتمّاً لفراق إبنى وزوجتى فأنت تعلم بذلك ... وترى دموع عينى المنهملة.

وعندما فارقت زوجتى وقالت لى: «إلى من تكلنى» فأنت أدرى بها وبمستقبلها ومستقبل هذه الأرض.

ثم يشير القرآن إلى شكر إبراهيم عليه السلام لنعمه تعالى والتى هى من أهمّ ما إمتاز به عليه السلام شكره على منحه ولدين بارّين إسماعيل وإسحاق وذلك فى سنّ الشيخوخة: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمعِيلَ وَإِسْحقَ». نعم «إِنَّ رَبّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ».

ثم يستمرّ بدعاءه ومناجاته أيضاً فيقول: «رَبّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلَوةِ وَمِن ذُرّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۳۹

ثم يختم دعاءه هنا فيقول: «رَبَّنَا اغْفِرْ لِی وَلِوَالِدَیَّ وَلِلْمُؤْمِنِینَ یَوْمَ یَقُومُ الْحِسَابُ».

وبهذا الترتیب فإنّ دعواته تبدأ بالأمن وتنتهی بالعفو والغفران، ومن الطریف أنه لم یطلبها لنفسه فقط، بل للآخرین کذلک، لأنّ عباد الرحمن لیسوا أنانیین. وَ لَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا یَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا یُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِیهِ الْأَبْصَارُ (۴۲) مُهْطِعِینَ مُقْنِعِی رُءُوسِهِمْ لَا یَرْتَدُّ إِلَیْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (۴۳) وَ أَنْذِرِ النَّاسَ یَوْمَ یَأْتِیهِمُ الْعَذَابُ فَیَقُولُ الَّذِینَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَی أَجَلٍ قَرِیبٍ نُجِبْ دَعْوَتَکَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَ وَ لَمْ تَکُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَکُمْ مِنْ زَوَالٍ (۴۴) وَ سَکَنْتُمْ فِی مَسَاکِنِ الَّذِینَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَیَّنَ لَکُمْ کَیْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَ ضَرَبْنَا لَکُمُ الْأَمْثَالَ (۴۵) الیوم الذی تشخص فیه الأبصار: کان الحدیث فی الآیات السابقة عن یوم الحساب، وبهذه المناسبة تجسّم هذه الآیات حال الظالمین والمتجبرین فی ذلک الیوم، ثم تبیّن المسائل المتعلقة بالمعاد وتکمل الحدیث السابق حول التوحید وتبدأ فی تهدید الظالمین: «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غفِلًا عَمَّا یَعْمَلُ الظَّالِمُونَ».

وهذا فی‌الواقع جواب لُاولئک الذین یقولون: إذا کان لهذا العالم إله عادل فلماذا یترک الظالمین وحالهم؟ هل هو غافل عنهم أم لا یستطیع أن یمنعهم وهو یعلم بظلمهم؟

فیجیب القرآن الکریم علی ذلک بأنّ اللّه لیس غافلًا عنهم أبداً، لأنّ عدم عقابهم مباشرةً هو أنّ هذا العالم محلّ الامتحان والاختبار وتربیة الناس، وهذا لا یتمّ إلّافی ظل الحریة، وسوف یأتی یوم حسابهم «إِنَّمَا یُؤَخّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِیهِ الْأَبْصَارُ* مُهْطِعِینَ مُقْنِعِی رَءُوسِهِمْ لَایَرْتَدُّ إِلَیْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفِدَتُهُمْ هَوَاءٌ».

«تشخص»: من مادة «الشخوص» بمعنی توقف العین عن الحرکة والنظر إلی نقطة بدهشة؛ و «مهطعین»: من مادة «إهطاع» بمعنی رفع الرقبة؛ و «مقنعی»: من مادة «الإقناع» بمعنی رفع الرأس عالیاً.

إنّ بیان هذه الصفات الخمس: تشخص الأبصار، مهطعین، مقنعی رؤوسهم، لا یرتدّ إلیهم طرفهم، أفئدتهم هواء، صورة بلیغة لهول وشدّة ذلک الیوم علی الظالمین الذین کانوا یستهزئون بکل شیء، وأصبحوا فی هذا الیوم لا یستطیعون حتی تحریک أجفان أعینهم.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴۰

مختصر الامثل ج۳ ۶۳

فهؤلاء کانوا یعتقدون بکمال عقولهم ویعدّون الآخرین من الحمقی، فأصبحوا الیوم مدهوشین لدرجة أنّ نظرهم نظر المجانین، بل الأموات ... نظر جاف عدیم الروح وملیء بالرعب والفزع .... نعم، عندما یرید القرآن الکریم أن یصوّر منظراً أو یجسّم موقفاً یستخدم أقصر العبارات فی أکمل بیان کما فی الآیة أعلاه.

ولکی لا یعتقد أحد أنّ هذه المجازات تتعلق بمجموعة معینة، یقول تعالی لنبیه الکریم:

«وَأَنذِرِ النَّاسَ یَوْمَ تَأْتِیهِمُ الْعَذَابُ فَیَقُولُ الَّذِینَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخّرْنَا إِلَی أَجَلٍ قَرِیبٍ» حتی نستفید من هذه الفرصة ثم «نُّجِبْ دَعْوَتَکَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ» ولکن هیهات إنّ ذلک محال «أَوَلَمْ تَکُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَکُم مِّن زَوَالٍ وَسَکَنتُمْ فِی مَسَاکِنِ الَّذِینَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَیَّنَ لَکُمْ کَیْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَکُمُ الْأَمْثَالَ». فکلّ هذه الدروس لم تؤثّر بکم وأدمتم ظلمکم وجورکم، والآن وبعد أن وقعتم فی ید العدالة تطلبون تمدید المدّة؟ لقد إنتهی کل شیء.

وَ قَدْ مَکَرُوا مَکْرَهُمْ وَ عِنْدَ اللَّهِ مَکْرُهُمْ وَ إِنْ کَانَ مَکْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (۴۶) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِیزٌ ذُو انْتِقَامٍ (۴۷) یَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَیْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمَاوَاتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (۴۸) وَ تَرَی الْمُجْرِمِینَ یَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِینَ فِی الْأَصْفَادِ (۴۹) سَرَابِیلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَ تَغْشَی وُجُوهَهُمُ النَّارُ (۵۰) لِیَجْزِیَ اللَّهُ کُلَّ نَفْسٍ مَا کَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِیعُ الْحِسَابِ (۵۱) هذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِیُنْذَرُوا بِهِ وَ لِیَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ لِیَذَّکَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (۵۲) لا فائدة من مکرهم: أشارت الآیات السابقة إلی نوع من عقاب الظالمین، وفی هذه الآیات أیضاً أشارت- أوّلًا- إلی جزء من أفعالهم، ومن ثم إلی قسم آخر من جزائهم الشدید وعقابهم الألیم. تقول الآیة الاولی: «وَقَدْ مَکَرُوا مَکْرَهُمْ».

لقد عملوا كل ما بوسعهم من أجل طمس حقائق الإسلام، بدءً من الترغيب والتهديد وحتى الأذى ومحاولات القتل والإغتيال وبثّ الشائعات، ومع كل ذلك فإنّ اللَّه مطلع على

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۴۱

جميع مؤامراتهم وقد أحصى أعمالهم: «وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ». فلا تقلق فإنّهم لا يستطيعون بمكرهم هذا أن يصيبوك بسوء حتى «وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ».

«المكر»: بمعنى الإحتيال، فمرّةً يلازمه الفساد ومرّةً اخرى لا يلازمه، والمراد بكون مكرهم عند اللَّه إحاطته تعالى به بعلمه وقدرته.

ثم يتوعّد اللَّه الظالمين والمسيئين مرّة اخرى من خلال مخاطبة النبى صلى الله عليه و آله: «فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ» لأنّ الإخلاف يصدر من الذى ليست له قدرة واستطاعة، ولكن:

«إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَام».

وهذه الآية مكمّلة للآية التى قبلها «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ». وتعنى أنّ المهلة التى أعطيت للظالمين ليست بسبب أنّ اللَّه غافل عنهم وعن أعمالهم ولا مخلف لوعده، بل سينتقم منهم فى اليوم المعلوم.

ثم يضيف تعالى: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّموَاتُ». وسوف يتجدّد كل شىء بعد الدمار، ويبعث الإنسان فى خلق جديد وعالم جديد يختلف فى كل شىء عن هذا العالم، فى سعته، فى نعيمه وعقابه وسيظهر الإنسان بكل وجوده للَّه‌تعالى: «وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ».

معنى بروز الناس للَّه‌تعالى، إنكشاف بواطن وظواهر جميع الناس فى يوم المحشر، فالظهور بالقياس إلى علمنا وليس إلى علم اللَّه المطلق.

ووصفه بالقهّار دليل على تسلطه على كل الأشياء وسيطرته على ظاهرها وباطنها.

وتصوّر الآية التالية كيفية بروزهم إلى اللَّه فتقول: «وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ».

«الأصفاد»: جمع «صفد» بمعنى الغلّ؛ و «مقرنين»: من مادة «القرن والإقتران» بمعنى الأشخاص المتقاربين مع بعضهم البعض.

إنّ هذا الغِل هو عبارة عن تجسيد للروابط العملية والفكرية بين المجرمين فى هذه الدنيا، حيث كان يساعد بعضهم البعض على الظلم والفساد، وتتجسّد هذه العلاقة فى الآخرة بصورة سلاسل تربطهم فيما بينهم.

ثم يتطرّق القرآن الكريم إلى لباسهم والذى هو أحد أفراد المجازاة الشديدة: «سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ».

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۴۲

«سرابيل»: جمع «سربال» على وزن «مثقال» بمعنى القميص من أى قماش كان. و «قطران»: بفتح القاف وسكون الطاء أو بكسر القاف وسكون الطاء، وهى مادةً تؤخذ من شجرة الأبهل ثم تُغلى فتثخن وتُطلى بها الإبل عند إصابتها بمرض الجرب، فهى مادة سوداء نتنة وقابلة للإشتغال.

وعلى هذا أنّهم يلبسون ثياباً من مادة سوداء ونتنة وقابلة للإشتعال، حيث تمثّل أسوأ الألبسة لما كانوا يعملونه فى هذه الدنيا من إرتكاب الذنوب والفواحش. وسوادها يشير إلى أنّ الذنوب تؤدّى إلى أن يكون الإنسان مسودّ الوجه أمام ربّه، وتعفّنها يشير إلى تلوّث المجتمع بهم ومساعدتهم على إشعال نار الفساد، وكأنّ القطران تجسيد لأعمالهم فى الدنيا.

كل ذلك لأجل «لِيَجْزِىَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ». ومن الطريف أنّه لم يقل أنّ الجزاء بما كسبت أنفسهم، بل يقول: «ما كسبت» ليكون تجسيداً حيّاً لأعمالهم، وهذه الآية بهذا التعبير الخاص دليل آخر على تجسّم الأعمال.

وفى الختام يقول تعالى: «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ». وهذا واضح تماماً لأنّ كل إنسان حسابه معه.

وورد فى الخبر: «إنّ اللَّه تعالى يحاسب الخلائق كلهم فى مقدار لمح البصر». ولا ريب أنّ اللَّه تعالى لا يحتاج إلى وقت لمحاسبة

الأفراد، وما جاء في الرواية أعلاه إشارة إلى أقصر الفترات.

وبما أنّ آيات هذه السورة- وكذلك جميع الآيات- لها جانب الدعوة إلى التوحيد وإبلاغ الأحكام الإلهية إلى الناس وإنذارهم، يقول تعالى في آخر آية من هذه السورة: «هَذَا بَلَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَبِ».

بداية وختام سورة إبراهيم: وكما رأينا فإنّ سورة إبراهيم ابتدأت في بيان دور القرآن الكريم في إخراج الناس من الظّلمات إلى نور العلم والتوحيد، وانتهت في بيان دور القرآن في إنذار الناس وتعليمهم التوحيد.

إنّ هذه البداية والنهاية تبيّن هذه الحقيقة، وهو أنّ كل ما نحتاجه موجود في هذا القرآن، حيث يقول الإمام علي عليه السلام: «هو ربيع القلوب وينابيع العلم» ... «فاستشفوه من أدوائكم»

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۴۳

وهذا البيان دليل على خلاف ما يراه بعض المسلمين من أنّ القرآن الكريم كتاب مقدس يقتصر وجوده في ترتّب الثواب لقارئه. بل هو كتاب شامل لجميع مراحل الحياة الإنسانية.

كتاب رشد وهداية ودستور للعمل، فهو يذكّر العالِم ويستلهم منه عموم الناس.

إنّ هجران القرآن الكريم وإتّخاذ المبادىء المنحرفة الشرقية منها والغربية، أحد العوامل المهمة في تأخّر المسلمين.

«نهاية تفسير سورة إبراهيم»

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۴۵

۱۵. سورة الحجر

محتوى السورة: المشهور عند جلّ المفسرين أنّ سورة الحجر مكية، وهي السورة الثانية والخمسون من السور التي نزلت على النبي الأكرم صلى الله عليه و آله في مكة المكرمة.

ويمكننا تلخيص ما حوته السورة في سبع نقاط:

۱- الآيات المتعلقة بمبدأ عالم الوجود، والإيمان به من خلال التدبّر في أسرار الإيجاد.

۲- الآيات المتعلقة بالمعاد وعقاب الفجرة الفسقة.

۳- أهمية القرآن باعتباره كتاباً سماوياً.

۴- محاولة إيقاظ وتنبيه البشر من خلال طرح قصّة خلق آدم، وتمرّد إبليس، وتبيان عاقبة التمرد.

۵- زيادة في محاولة الإيقاظ والتنبيه من خلال عرض القصص القرآني لما جرى لأقوام لوط وصالح وشعيب عليهم السلام.

۶- إنذار وبشارة، مواعظ لطيفة وتهديدات عنيفة، إضافة إلى المرغّبات المشوّقة.

۷- مخاطبة النبي صلى الله عليه و آله لتقوية صبره وثباته قبال ما يحاك من دسائس.

وقد اختير اسم السورة من الآية الثمانين التي ذكرت قوم صالح بأصحاب الحجر، وهي السورة الوحيدة في القرآن التي ذكرتهم بهذه التسمية.

مختصر الامثل، ج ۲، ص: ۵۴۶

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ (۱) رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (۲) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۳) وَ مَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَ لَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (۴) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَ مَا يَسْتَأْخِرُونَ (۵) سورة اخرى تفتتح بالحروف المقطعة «الر» لتبيّن من جديد أنّ مفردات كتاب نور السماء إلى ظلام أهل الأرض، ما هي إلّاعين تلك الأبجدية التي تلوك ألفاظها ألسن كل البشر، صغيرهم وكبيرهم، بين مختلف اللغات، ومع ذلك فلا يستطيع أي مخلوق الوصول لبناء وتركيب كلام القرآن، وهو

ذروة التحدى الربانى المعجز، وعليه فقد جاءت «تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ» مباشرة، لأنّه يظهر الحقائق ويبيّن الحق من الباطل.

ثم يحذّر الذين يصرّون على الفساد ومخالفة آيات اللّه الجليّة، ويخبر بأنّهم سوف يندمون حين ينكشف الغطاء يوم القيامة بما كسبت أيديهم من كفر وتعصب أعمى وعناد. ويقول:

«رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ».

فالمراد بكلمة «يودّ» التمنى وذكر كلمة «لو» للدلالة على تمنّيهم الإسلام فى وقت لا يمكنهم فيه العودة إلى ما كانوا ينكرون، وهذه إشارة إلى أنّ تمنيهم سيكون فى العالم الآخر وبعد معاينة نتائج الاعمال.

يمكن حمل الآية على ندم بعض من الكافرين فى كلا ـ العالمين (الدنيا والآخرة)، واعتبار عدم استطاعتهم العودة إلى الإسلام فى حياتهم الدنيا وفى الآخرة لجهات مختلفة.

ثم يأتى نداء السماء بلهجة لاذعة، يا محمّد: «ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ». فهم كالأنعام التى لا تعرف سوى الحقل والعلف، ولا تفهم سوى اللذات المادية، وكل ما تريده لا يتعدى إطار ما تعرف وتفهم.

إنّهم لا يدركون فقه الحقائق، لأنّ حجب الغرور والغفلة والأمانى الزائفة ختمت على قلوبهم.

و لكن، عندما يصفع الأجل وجوههم وترتفع تلك الحجب عن أعينهم، وحينما يجدون

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴۷

أنفسهم أمام الموت أو فى عرصة يوم القيامة، هنالك سيدركون عظمة حجم غفلتهم ومدى خسرانهم، وكيف أنّهم قد ضيّعوا أغلى ما كانوا يملكون.

الآية التالية توضّح محدودية اللذائذ الدنيوية لكى لا يظن أحد إنّها خالدة فتقول: «وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ».

ثم يقول تعالى: «مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ».

فقد سرت سنّة البارى جلّ شأنه بأن يعطى المدّة الكافية لرجوع المضللين إلى بارئهم، من خلال ابتلائهم بالشدائد الصعبة تارة، وبفيوضات الرخاء تارة اخرى، فمن لا تنفعه البشارة يأتيه الإنذار وهكذا، كل ذلك إتماماً للحجة عليهم.

وَ قَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (۶) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۷) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (۸) طلب نزول الملائكة: تبتدىء الآيات بتبيان موقف العداء الأعمى والتعصب الأصم للقرآن الحكيم والنبى الأكرم صلى الله عليه و آله من قبل الكفار، فتقول: «وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ».

ومن خلال كلامهم يظهر بجلاء مدى وقاحتهم وسوء الأدب الذى امتازوا به حين مخاطبتهم للنبى صلى الله عليه و آله.

الملفت فى التهم الموجهة إلى أنبياء اللّه تعالى أنّها تحمل بين طيّاتها تضاداً واضحاً يُلمس بأدنى تدبّر، ففى الوقت الذى يرمون النبى بالجنون يعودون ويقولون عنه: إنّه لساحر، فمع أنّ الساحر لابدّ له من الذكاء والنباهة، فهل يعقل أن يكون الساحر، مجنوناً؟!

إنّهم لم يكتفوا بنسبة الجنون إلى النبى صلى الله عليه و آله بل تحججوا قائلين: «لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

فيجيبهم البارى جلّ شأنه: «مَا نُنَزِّلُ الْمَلِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ».

وبعبارة اخرى: فالإعجاز ليس أمراً ترفيهياً يناغى تصوّرات الأخرين بقدر ما هو حجّة إلهية لإثبات الحق وإماطة الباطل.

وقد أشبعت هذه الحقيقة بصورة وافية لمن يرى النور نوراً والظلام ظلاماً من خلال ما أوصله نبى الخاتم صلى الله عليه و آله عن طريق القرآن والمعاجز الاخرى.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۴۸

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (۹) حفظ القرآن من التحريف: بعد أن استعرضت الآيات السابقة تحجج الكفار واستهزاءهم بالنبى صلى الله عليه و آله والقرآن، تأتى هذه الآية المباركة لتواسى قلب النبى صلى الله عليه و آله من جهة ولتطمئن قلوب المؤمنين

المخلصين من جهة اخرى، من خلال طرح مسألة حيوية ذات أهمية بالغة لحياة الرسالة، ألا وهى حفظ القرآن من التلاعب والتحريف: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ». فبناء هذا القرآن مستحكم وشمس وجوده لا يغطيها غبار الضلال، ومصباح هديه أبدىّ الإنارة، ولو اتحد أعتى جبابرة التاريخ وطغاته وحكّامه الظلمة، محفوفين بعلماء السوء، ومزوّدين بأقوى الجيوش عدّة وعتاداً، على أن يخمدوا نور القرآن، فلن يستطيعوا، لأنّ الحكيم الجبّار سبحانه تعهد بحفظه وصيانته.

وقد اختلف المفسرون فى دلالة (حفظ القرآن) فى هذه الآية المباركة، والصحيح، وفقاً لظاهر الآية المذكورة، أنّ اللّه تعالى وعد بحفظ القرآن من جميع النواحى: من التحريف، من التلف والضياع، ومن سفسطات الأعداء المزاجية ووساوسهم الشيطانية.

المشهور بين أوساط جلّ علماء المسلمين، أنّ القرآن لم يتعرض لأىّ نوع من التحريف، وأنّ الذى بين أيدينا هو عين القرآن الذى نزل على صدر الحبيب محمّد النبى صلى الله عليه و آله. فلا زيادة أو نقصان، حتى بكلمة واحدة، أو بحرف واحد.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَ لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١۴) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١۵) العناد والتعصب: تواسى الآيات قلب النبى صلى الله عليه و آله وقلوب المؤمنين لما كانوا يواجهونه من صعاب فى طريق دعوتهم، من خلال الإشارة إلى صراع الأنبياء السابقين مع أقوامهم الضالة والمتعصبة. فتقول أوّلًا: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ».

ولكنّهم من العناد والتعصب لدرجة: «وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

ذلك الاستهزاء وتلك السخرية لاعتبارات عدّة:

مختصر الامثل، ج٢، ص: ۵۴٩

- مرة، يريدون بالسخرية إسقاط شخصية النبى كى لا يؤثّر فى أوساط الفئة الواعية.
- واخرى، يحاولون بالإستهزاء تغطية ضعفهم وعجزهم أمام المنطق القوى والحجج الدامغة لرسل اللّه عزّ وجلّ.
- واخرى، محاولة تخدير وجدانهم السارح فى المتاهات كى لا يصحوا على حين غرّة فيعتنق الحق وينهض بأعباء مسؤوليته.
- وأخيراً، فقبولهم لدعوة الأنبياء عليهم السلام- حسب تصورهم- يستلزم تقويضاً لكل شهواتهم الدنيوية، وتحميلهم وظائف جديدة لا يطيقونها، فيلجؤون للإستهزاء لتبرير إعراضهم وانكارهم وإراحة ضمائرهم.

ثم يقول جلّ وعلا: «كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ». أى: نوصل الآيات القرآنية إلى أعماق وجدانهم وعقولهم.

ومع وضوح البلاغ والتأكيد وبيان المنطق الربانى وإظهار المعجزات، ترى المتعصبين المستهزئين «لَايُؤْمِنُونَ بِهِ» وهو ليس بجديد «وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ».

ويصل أمر الغارقين فى شهواتهم والمصرّين فى عنادهم على الباطل إلى أنّهم لا يؤمنون حتى «وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ». ومع ذلك «لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ».

عجباً، أن يصل الإنسان لهذا الدرك من العناد والتعصب.

إنّ الذنوب والجهل ومعاداة الحق تؤثّر على الروح الطاهرة والفطرة السليمة، فتحجبهما عن رؤية وجه الحقيقة الناصع، وتمنعهما من إدراك الحقائق، وإذا لم يتمكن الإنسان من رفع تلك الحجب وإزالة الموانع، فإنّ صورة الحق ستتلوّث فى نظره فينكر كل ما هو معقول ومحسوس معاً، ومن الممكن تطهير الفطرة فى المراحل الاولى، ولكن إذا رسخت فى قلبه هذه الحالة وتجذّرت وأمست «ملكة» وصفة أخلاقية، فلا يمكن ازالتها بسهولة، وعندها سوف لا تترك أقوى الأدلة العقلية ولا أوضح الأدلة الحسية أىّ تأثير فى قلبه.

وَ لَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١۶) وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ

(۱۸) تشير الآيات إلى جانب من عالم المخلوقات لتعميق معرفة وتوحيد اللَّه، وبسياقها

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۰

جاءت تكملةً لبحثى القرآن والنبوة المذكورين فى الآيات السابقة. قوله تعالى: «وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا». «البروج»: جمع «برج» ويعنى «الظهور» ولهذا يطلق على البيت الذى يبنى فى سور المدينة أو على سور الحصن الذى يعتصم به المقاتلون، وذلك لما له من بروز وارتفاع خاص.

ويقال كذلك (تبرجت) للمرأة التى تظهر زينتها.

والبروج السماوية: هى منازل الشمس والقمر. وبعبارة أقرب إلى الذهن: لو نظرنا إلى الشمس والقمر بإمعان فسنراها فى كل فصل من فصول السنة ولفترة زمنية معينة يقابلان أحد الصور الفلكية (الصور الفلكية: مجموعة نجوم على هيئة خاصة) فنقول: إنّ الشمس فى برج الحمل «۱»- مثلًا- أو الثور أو الميزان أو العقرب أو القوس.

ويعتبر وجود الأبراج السماوية، وكذلك النظام الدقيق فى حركة منازل الشمس والقمر ضمن هذه البروج (وهو التقويم المجسّم لعالم وجودنا)، من الأدلة الواضحة على علم وقدرة الخالق جلّ وعلا.

ثم يضيف: «وَزَيَّنَاهَا لِلنَّاظِرِينَ».

ويضيف فى الآية التالية: «وَحَفِظْنَهَا مِن كُلِّ شَيْطنٍ رَّجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ».

إنّ المقصود من السماء هو سماء الحق والحقيقة، وأنّ الشياطين ذوى الوساوس يحاولون أن يجدوا سبيلًا لاختراق السماء واستراق السمع، ليتمكنوا من إغواء الناس بذلك، ولكن النجوم والشهب (وهم القادة الربانيون من الأنبياء والأئمة والعلماء) يبعدونهم ويطردونهم بالعلم والتقوى.

وَ الْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَ أَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ وَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ مَوْزُونٍ (۱۹) وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (۲۰) وَ إِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (۲۱) وإتماماً لما سبق يتناول القرآن بعض آيات الخلق، ومظاهر عظمة البارى على وجه البسيطة، ويبدأ بنفس الأرض «وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا».

---

(۱) «الحمل»: مجموع منظومات شمسية تظهر فى السماء على هيئة الحمل تقريباً. وكذلك الثور والميزان وغيرها.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۱

«المد»: فى الأصل بمعنى التوسعة والبسط، ومن المحتمل أن يراد به إخراج القسم اليابس من الأرض من تحت الماء.

ثم يتطرق إلى خلق الجبال بما تحمله من منافع جمّة كآية من آيات التوحيد: «وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ».

عبّر سبحانه عن خلق الجبال بالإلقاء، ولعلّ المراد ب «إلقاء» هنا بمعنى (إيجاد).

ومن بديع خلق الجبال إضافةً إلى كونها أوتاداً لتثبيت الأرض وحفظها من التزلزل نتيجة الضغط الداخلى، فإنّها تقف كالدرع الحصين فى مواجهة قوّة العواصف، بل وتعمل على تنظيم حركة الهواء وتعيين اتجاهه، ومع ذلك فهى المحل الأنسب لتخزين المياه على صورة ثلوج وعيون.

ثم ينتقل إلى العامل الحيوى الفعال فى وجود الحياة البشرية والحيوانية، ألا وهو النبات:

«وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ».

يتنوع على وجه البسيطة مئات الآلاف من النباتات، وكل تحمل خواصاً معينة ولها من الآثار ما يميّزها عن غيرها، وهى باب لمعرفة البارىء المصوّر جلّ شأنه، وكل ورقة منها كتاب ينطق بمعرفة الخالق.

وبما أنّ وسائل وعوامل حياة الإنسان غير منحصرة بالنبات والمعادن فقط، ففى الآية التالية يشير القرآن الكريم إلى جميع المواهب

بقوله: «وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ».

ليس لكم فقط، بل لجميع الكائنات الحيّة حتى الخارجة عن مسؤوليتكم «وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ».

نعم، لقد كفينا الجميع احتياجاتهم.

«معايش»: جمع «معيشة» وهي الوسائل والمستلزمات التي تتطلبها حياة الإنسان، والتي يحصل عليها بالسعي تارة، وتأتيه بنفسها تارة اخرى.

أمّا آخر آية من الآيات المبحوثة، فتحوي جواباً لسؤال طالما تردد على أذهان كثير من الناس، وهو: لماذا لم تهيّأ النعم والأرزاق بما لا يحتاج إلى سعي وكدح؟! فتنطق الحكمة الإلهية جواباً: «وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ». فليست قدرتنا محدودة حتى نخاف نفاد ما نملك، وإنّما منبع ومخزن وأصل كل شيء تحت أيدينا، وليس من الصعب علينا خلق أيّ شيء وبأيّ وقت يكون، ولكن الحكمة إقتضت أن يكون كل شيء في هذا

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۲

الوجود خاضعاً لحساب دقيق، حتى الأرزاق إنّما تنزل إليكم بقدر. ونقرأ في الآية (۲۷) من سورة الشورى: «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ».

إنّ السعي والكدح في صراع الحياة يضفي على حركة الإنسان، الحيوية والنشاط، وهو بقدر ما يعتبر وسيلة سليمة ومشروعة لتشغيل العقول وتحريك الأبدان، فإنّه يطرد الكسل ويمنع العجز ويحيي القلب للتحرك والتفاعل مع الآخرين. وإذا ما جعلت الأرزاق تحت اختيار الإنسان بما يرغب هو لا حسب التقدير الرباني، فهل يستطيع أحد أن يتكهن بما سيؤول إليه مصير البشرية؟

والفقر والغنى من البلاء الذي يدخل ضمن مخطط التمحيص والإمتحان، فكما أنّ الفقر والعوز قد يجرّان الإنسان نحو هاوية السقوط في مهالك الانحراف، فكذلك الغنى في كثير من حالاته يكون منشأً للفساد والطغيان.

وَ أَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَ مَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (۲۲) وَ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ الْوَارِثُونَ (۲۳) وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (۲۴) وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۲۵) دور الرياح والأمطار: بعد أن عرض القرآن الكريم في الآيات السابقة قسماً من أسرار الخليقة والنعم الإلهية كخلق الأرض والجبال والنباتات وما تحتاجه الحياة من مستلزمات، يشير في أولى الآيات المبحوثة إلى حركة الرياح وما لها من آثار في عملية نزول المطر، فيقول: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ».

«لواقح»: جمع «لاقح» .. وهي تشير هنا إلى دور الرياح في تجميع قطع السحاب مع بعضها لتهيئة عملية سقوط الأمطار.

ويمكن حمل «مَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ» على أنّها إشارة لخزن ماء المطر في السحب قبل نزوله، أي: إنّكم لا تستطيعون استملاك السحب التي هي المصدر الأصلي للأمطار.

ويمكن حملها على أنّها إشارة إلى جمع وخزن الأمطار بعد نزولها، أي إنّكم لا تقدرون

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۳

على جمع مياه الأمطار بمقادير كبيرة حتى بعد نزوله، وأنّ اللَّه عزّ وجلّ هو الذي يحفظها ويخزنها على قمم الجبال بهيئة ثلوج، أو ينزلها في أعماق الأرض لتكون بعد ذلك عيوناً وآباراً.

ثم ينتقل من مظاهر توحيد اللَّه إلى المعاد ومقدماته: «وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ». فيذكر مسألة الحياة والموت التي تعتبر من أهمّ المقدمات لبحث موضوع المعاد، إضافة لكون هذه المسألة من مكمّلات موضوع التوحيد، بالإضافة إلى أنّ وجود الحياة والموت بحد ذاته دليل على أنّ موجودات هذا العالم لا تملك زمام أنفسها ناهيك عمّا هو بأيديها، وأنّ الوارث الحقيقي لكل شيء هو اللَّه تعالى.

ثم يضيف: «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخِرِينَ». أى: نحن على علم بهم وبما يعملون، وإنّ أمر محاسبتهم وجزائهم فى المعاد علينا سهل يسير.

ولهذا نرى الآية التى تليها: «وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ». مرتبطة تماماً مع ما قبلها ومتمّمة من خلال طرحها مسألة ما سيكون بعد الموت ... فحكمة البارى أوجبت أن لا يكون الموت نهاية لكل شيء.

فلو أنّ الحياة انحصرت بهذه الفترة الزمنية المحدودة وينتهى كل شيء بالموت لكانت عملية الخلق عبثاً، وهذا غير معقول، لأنّه تعالى منزّه عن العبث.

فالحكمة الإلهية اقتضت من «حياة الدنيا أن تكون مرحلة إستعداد لمسيرة دائمة نحو المطلق». وأمّا كونه سبحانه عليماً فهو عليم بصحائف أعمال الجميع المثبتة فى قلب هذا العالم الطبيعى من جهة، وكذلك فى اعماق وجود الانسان من جهة اخرى، ولا تخفى عليه خافية يوم يقوم الحساب.

وكونه سبحانه الحكيم العليم فى هذا المورد دليل قوى وعميق الغور على مسألة الحشر والمعاد.

إنّ كلمة «المستقدمين» و «المستأخرين» لهما معنيان واسعان يشملان المتقدمين والمتأخرين من حيث الزمان، وكذلك من حيث أعمال الخير والجهاد وحتى الحضور فى الصفوف المتقدمة لصلاة الجماعة وما شابهها.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٥۴

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢۶) وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ (٢٧) وَ إِذْ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکَةِ إِنِّی خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِکَةُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَکُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَکَ أَلَّا تَکُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قالَ لَمْ أَکُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّکَ رَجِيمٌ (٣۴) وَ إِنَّ عَلَيْکَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ (٣۵) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣۶) قالَ فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِی لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (۴٠) قالَ هذا صِراطٌ عَلَیَّ مُسْتَقِيمٌ (۴١) إِنَّ عِبادِی لَيْسَ لَکَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغاوِينَ (۴٢) وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (۴٣) لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِکُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (۴۴) خلق الإنسان: بعد ذكر خلق نماذج من مخلوقات اللّه فى الآيات السابقة، تأتى هذه الآيات لتبيّن أنّ الهدف الأساسى من إيجاد كل الخليقة إنّما هو خلق الإنسان، وتتطرق الآيات إلى جزئيات عديدة فى شأن الخلق، زاخرةً بالمعانى. يقول تعالى فى البداية: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ». «الصلصال»: هو التراب اليابس الذى لو اصطدم به شيء أحدث صوتاً ... و «الحمأ المسنون»: هو طين متعفن.

«وَالْجَانَّ خَلَقْنَهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ». «السّموم» لغة: الهواء الخارق، وسمى بالسموم لأنّه يخترق جميع مسامات بدن الإنسان.

ثم يعود القرآن الكريم إلى خلق الإنسان مرّة اخرى فيتعرض إلى كلام اللّه تعالى مع الملائكة قبل خلق الإنسان: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّى خلِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى». وهى روح شريفة طاهرة جليلة: «فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ».

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ٥٥٥

وبعد أن تمّ خلق الإنسان من الجسم والروح المناسبين «فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ».

ولم يعص هذا الأمر إلّا إبليس: «إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ».

وهنا سأل اللّه إبليس: «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ».

فأجاب إبليس بعد أن كان غارقاً فى بحر الغرور المظلم، وتائهاً فى حبّ النفس المقتم، وبعد أن غطّى حجاب الخسران عقله ... أجاب بوقاحة: «قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ».

ونتیجة للغرور وحبّ النفس، فقد جهل أسرار الخلیقة، وکنتیجة طبیعیة لهذا السلوک المنحرف فقد هوى من ذلک المقام المرموق بعد أن أصبح غیر لائق لأن یکون فی درجة الملائکة وبین صفوفهم، فجاء الأمر الإلهی مقرعاً: «قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّکَ رَجِیمٌ». أی: اخرج من الجنة، أو من السماوات أو اخرج من بین صفوف الملائکة.

واعلم یا إبلیس بأنّ غرورک أصبح سبباً لکفرک، وکفرک قد أوجب طردک الأبدی «وَإِنَّ عَلَیْکَ اللَّعْنَةَ إِلَى یَوْمِ الدّینِ». أی: إلى یوم القیامة.

وهنا ... حینما وجد إبلیس نفسه مطروداً من الساحة الإلهیة، ساوره إحساس بأنّ خلق الإنسان هو سبب شقائه فاشتعلت نار الحقد والضغینة فی قلبه لینتقم لنفسه من أولاد آدم علیه السلام.

فبالرغم من أنّ السبب الحقیقی یرجع إلى إبلیس نفسه ولیس لآدم دخل فی ذلک، إلّاأنّ غروره وحبّه لنفسه وعناده المستحکم لم یعطیاه الفرصة لدرک حقیقة شقاءه، ولهذا «قَالَ رَبّ فَأَنظِرْنِى إِلَى یَوْمِ یُبْعَثُونَ»، لیرکّز عناده وعداءه!

وقبل اللّه تعالى طلبه: «قَالَ فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنظَرِینَ».

ولکن لیس إلى یوم یبعثون کما أراد، بل «إِلَى یَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ». وهو: نهایة هذا العالم وانتهاء التکلیف، لأنّ بعد ذلک (کما یفهم من ظاهر الآیات القرآنیة) تحلّ نهایة حیاة جمیع الکائنات، ولا یبقى حیّ إلّاالذات الإلهیة المقدسة، ومن هذا نفهم حصول الموافقة على بعض طلب إبلیس.

وهنا أظهر إبلیس نیّته الباطنیة: «قَالَ رَبّ بِمَا أَغْوَیْتَنِى». وکان هذا الإنسان سبباً لشقائی «لَأُزَیّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ» نعمها المادیة «وَلَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ» بإلهائهم بتلک النعم.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥٥٦

إلّا أنّه یعلم جیّداً بأنّ وساوسه سوف لن تؤثّر فی قلوب عباد اللّه المخلصین، وأنّهم متحصنون من الوقوع فی شباکه، لأنّ قوة الإیمان ودرجة الإخلاص عندهم بمکان یکفی لدرء الخطر عنهم بتحطیم قیود الشیطان عن أنفسهم ... ولهذا نراه قد استثنى فی طلبه «إِلَّا عِبَادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ». «المخلصین»: جمع مخلَص (بفتح اللام) المؤمن الذی وصل إلى مرحلة عالیة من الإیمان والعمل بعد تعلّم وتربیة ومجاهدة مع النفس، فیکون ممتنعاً من نفوذ وساوس الشیطان وأیّ وسواس آخر.

ثم قال تعالى تحقیراً للشیطان وتقویة لقلوب العباد المؤمنین السالکین درب التوحید الخالص: «قَالَ هذَا صِرَاطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِیمٌ إِنَّ عِبَادِى لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطنٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغَاوِینَ». یعنی: یا إبلیس لیس لک القدرة على إضلال الناس، لکن الذین یتبعونک إن هم إلّا المنحرفین عن الصراط المستقیم والمستجیبین لدواعی رغباتهم ومیولهم.

ثم یهدد اللّه بشدة أتباع الشیطان: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِینَ» وأن لیس هناک وسیلة للفرار، والکل سیحاسب فی مکان واحد. «لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لّکُلّ بَابٍ مّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ». هی أبواب للذنوب التی یدخلون جهنم بسببها، وکل یحاسب بذنبه ... کما هو الحال فی أبواب الجنة التی هی عبارة عن طاعات وأعمال صالحة ومجاهدة للنفس یدخل بها المؤمنون الجنة.

إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِى جَنَّاتٍ وَ عُیُونٍ (۴۵) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِینَ (۴۶) وَ نَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِینَ (۴۷) لَا یَمَسُّهُمْ فِیهَا نَصَبٌ وَ مَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِینَ (۴۸) نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِیمُ (۴۹) وَ أَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِیمُ (۵۰) نعم الجنة الثمان: رأینا فی الآیات السابقة کیف وصف اللّه تعالى عاقبة أمر الشیطان وأنصاره وأتباعه، وأنّ جهنم بأبوابها السبعة مفتحة لهم.

وجریاً على أسلوب القرآن فی التربیة والتعلیم جاءت هذه الآیات المبارکات (ومن باب المقارنة) لترفع الستار عن حال الجنة وأهلها وما ترفل به من نعم مادیة ومعنویة، جسدیة وروحیة.

مختصر الامثل، ج٢، ص: ٥٥٧

وقد عرضت الآیات ثمانیة نعم کبیرة (مادیة ومعنویة) بما یساوی عدد أبواب الجنة.

۱- أشارت فى البدء إلى نعمة جسمانية مهمة: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ». ويلاحظ أنّ هذه الآية قد اتخذت من صفة (التقوى) أساساً لها، وهى الخوف من اللَّه والورع والالتزام، فهى إذن ... جامعة لكافّة صفات الكمال الإنسانى.

إنّ ذكر الجنات والعيون بصيغة الجمع إشارة إلى تنوّع رياض الجنة وكثرة عيونها، والتى لكل منها لذّة مميزة وطعم خاص.

۲ و ۳- ثم تشير الآيات إلى نعمتين معنويتين مهمتين أخريتين (السلامة) و (الأمن) ..

السلامة من أىّ أذىً وألم، والأمن من كل خطر، فتقول- على لسان الملائكة مرحّبة بهم-:

«ادْخُلُوهَا بِسَلَمٍ ءَامِنِينَ».

وفى الآية التالية بيان لثلاث نعم معنوية اخرى:

۴- «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلّ». أى: الحسد والحقد والعداوة والخيانة.

۵- «إِخوانًا» تربطهم أقوى صلات المحبة.

۶- «عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ».

إنّ جلساتهم الاجتماعية خالية من القيود المتعبة التى يُعانى منها عالمنا الدنيوى، فلا طبقية ولا ترجيح بدون مرجّح والكلّ إخوان، يجلسون متقابلين فى صف واحد ومستوى واحد.

۷- ثم تأتى الإشارة إلى النعمة المادية والمعنوية السابعة: «لَايَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ» إنّه ليس كيوم استراحة بهذه الدنيا يقع بين تعب ونصب قبله وبعده، ولا يدع الإنسان يجد طعم الراحة والاستقرار.

۸- ولا يشغلهم همّ فناء أو انتهاء نِعم «وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ».

بعد أن عرض القرآن الكريم النعم الجليلة التى ينالها المتقون فى الجنة بذلك الرونق المؤثّر الذى يوقع المذنبين والعاصين فى بحار لجّية من الغمّ والحسرة ويجعلهم يقولون: يا ليتنا نصيب بعض هذه المواهب، فهناك، يفتح اللَّه الرحمن الرحيم أبواب الجنة لهم ولكن بشرط، فيقول لهم بلهجة ملؤها المحبة والعطف والرحمة وعلى لسان نبيّه الكريم صلى الله عليه و آله: «نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

وكما هو معهود من الأسلوب القرآنى، تأتى العبارات العنيفة حين تتحدث عن الغضب والعذاب الإلهى لتمنع من سوء الاستفادة من الرحمة الإلهية، ولتوجد التعادل بين مسألتى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۸

الخوف والرجاء، الذى يعتبر رمز التكامل والتربية فيقول وبدون فاصلة: «وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ».

وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (۵۱) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (۵۲) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَام عَلِيم (۵۳) قَالَ أَ بَشَّرْتُمُونِی عَلَی أَنْ مَسَّنِیَ الْکِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (۵۴) قَالُوا بَشَّرْنَاکَ بِالْحَقِّ فَلَا تَکُنْ مِنَ الْقَانِطِینَ (۵۵) قَالَ وَ مَنْ یَقْنَطُ مِنْ رَحْمَهِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (۵۶) قَالَ فَمَا خَطْبُکُمْ أَیُّهَا الْمُرْسَلُونَ (۵۷) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَی قَوْمٍ مُجْرِمِینَ (۵۸) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِینَ (۵۹) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِینَ (۶۰) الضيوف الغرباء: تتحدث هذه الآيات المباركات وما بعدها عن الجنبة التربوية فى تاريخ حياة الأنبياء عليهم السلام وما جرى لهم مع العصاة من أقوامهم، وتطرح الآيات نماذج حيّة للاعتبار، لكلا الطرفين (عباد اللَّه المخلصين من طرف وأتباع الشيطان من طرف آخر).

ومن لطيف البيان القرآنى شروع الآيات بذكر قصة ضيف إبراهيم. فتقول أوّلًا:

«وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَهِيمَ».

وهؤلاء الضيوف هم الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم عليه السلام بوجوه خالية من الإبتسامة، فابتدأوه بالسلام «إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا».

فقام إبراهيم عليه السلام بوظيفته (إكرام الضيف)، فهيّأ لهم طعاماً ووضعه أمامهم، إلّاأنّهم لم يدنوا إليه، فاستغرب من موقف الضيوف الغرباء، فعبّر عمّا جال فى خاطره «قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ». وكان مصدر خوف إبراهيم عليه السلام مما كان عليه متعارفاً فى مسألة ردّ الطعام أو عدم التقرب منه، فهو عندهم إشارة إلى وجود نيّة سوء أو علامة عداء.

ولكن الملائكة لم يتركوا ابراهيم فى هذا الحال حتى: «قَالُوا لَاتَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلمٍ عَلِيمٍ». والغلام العليم: هو (إسحاق)، حيث نقرأ فى سورة هود الآية (۷۱) أنّ امرأة إبراهيم كانت واقفة بقربه عندما بشّرته الملائكة.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۵۹

كان إبراهيم يعلم جيّداً أنّه من المستبعد أن يحصل له ولد ضمن الموازين الطبيعية، (ومع أنّ كل شىء مقدور للّهعزّ وجل)، ولهذا أجابهم بصيغة التعجب: «قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَى أَن مَّسَّنِىَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشّرُونَ». هل البشارة منكم أم من اللّه عزّ وجل وبأمره، أجيبونى كى أزداد اطمئناناً؟

وعلى أية حال ... لم يدع الملائكة مجالًا لشك وتعجب إبراهيم حيث «قَالُوا بَشَّرْنَكَ بِالْحَقّ». فهى بشارة من اللّه وبأمره، فهى حق مسلّم به.

وتأكيداً للأمر ودفعاً لأىاحتمال من غلبة اليأس على إبراهيم، قالت الملائكة: «فَلَا تَكُن مّنَ الْقَانِطِينَ».

لكن إبراهيم عليه السلام طمأنهم بعدم دخول اليأس إلى قلبه، لأنّه مطمئن من أنّ أمر القدرة الإلهية نافذ فى جميع أرجاء الكون حتى مع خرق النواميس الطبيعية وبدون الخلل فى الموازنة، «قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ».

إنّ الضالين هم الذين لا- يعرفون اللّه وقدرته المطلقة، اللّه الذى خلق الانسان ببناءه العجيب المحيّر من ذرّة تراب ومن نطفة حقيرة ليخرجه ولداً سويّاً، اللّه الذى حوّل نخلة يابسة إلى حاملة للثمر بإذنه، اللّه الذى جعل النار برداً وسلاماً .. هل من شك بأنّه سبحانه قادر على كل شىء، بل وهل يصح ممن آمن به وعرفه حق معرفته أن ييأس من رحمته؟!

وراود إبراهيم عليه السلام- بعد سماعه البشارة- أنّ الملائكة قد تنزلت لأمر ما غير البشارة، وما البشارة إلّامهمة عرضية ضمن مهمتهم الرئيسية، ولهذا «قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ».

ومع علم الملائكة بإحساس إبراهيم عليه السلام المرهف وأنّه دقيق فى كل شىء ولا يقنع بالعموميات، فبيّنوا له أمر نزول العذاب على قوم لوط المجرمين باستثناء أهله «إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ».

إنّ ظاهر تعبير «آل لوط» وما ورد من تأكيد بكلمة «أجمعين» سيشمل امرأة لوط الضّالة التى وقفت فى صف المشركين، ولعلّ إبراهيم كان مطلعاً على ذلك، ولذا أضافوا قائلين: «إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ».

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۰

فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (۶۱) قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (۶۲) قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (۶۳) وَ أَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (۶۴) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (۶۵) وَ قَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (۶۶) وَ جاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (۶۷) قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (۶۸) وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ (۶۹) قالُوا أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ (۷۰) قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (۷۱) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (۷۲) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (۷۳) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (۷۴) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (۷۵) وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (۷۶) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (۷۷) عاقبة مذنبى قوم لوط: طالعتنا الآيات السابقة بقصة اللقاء بين ملائكة العذاب هؤلاء وبين إبراهيم عليه السلام وهذه الآيات تكمل لنا سير أحداث القصة فتبدأ من خروجهم من عند إبراهيم حتى لقائهم بلوط عليه السلام. فنقرأ أوّلًا: «فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ».

فالتفت إليهم لوط «قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ».

يقول المفسرون: قال لهم ذلك لما كانوا عليه من جمال الصورة ريعان الشباب، وهو يعلم ما كان متفشياً بين قومه من الانحراف الجنسى .. فمن جهة، هم ضيوفه ومقدمهم مبارك ولابد من إكرامهم واحترامهم، ولكن المحيط الذى يعيشه لوط عليه السلام مريض وملوّث.

ولكن الملائكة لم يتركوه وهذه الهواجس طويلًا حتى سارعوا إلى القول: «قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ». أى: إنّنا جئنا بالعذاب الذى واعدتهم به كثيراً، وذلك لأنّهم لم يعتنوا ولم يصدّقوا بما ذكرته لهم.

ثم أكّدوا له قائلين: «وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقّ». أى: العذاب الحتمى والجزاء الحاسم لقومك الضالين.

ثم أضافوا لزيادة التأكيد: «وَإِنَّا لَصَادِقُونَ».

فهؤلاء القوم قد قطعوا كل جسور العودة ولم يبق فى شأنهم محلّاً للشفاعة والمناقشة، كى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۱

لا يفكّر لوط فى التشفّع لهم وليعلم أنّهم لا يستحقونها أبداً.

ثم قالت الملائكة للوط: أخرج وأهلك من المدينة ليلًا حين ينام القوم أو ينشغلوا بشرابهم وشهواتهم، لأجل نجاة الثلّة المؤمنة من قومه (وهم أهله ما عدا زوجته).

«فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ» وكن خلفهم كى لا يتخلف أحد منهم ولتكون محافظاً ورقيباً لهم «وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ» وعلى أن يكون نظركم إلى الأمام «وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ». أى: إلى أرض الشام، أو أىّ مكان آخر يكون فيه الناس مطهرين من هذه الآثام.

ثم ينتقل مجرى الحديث حين يقول تعالى: «وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ». أى: سوف لا يبقى منهم أحد عند الصباح.

ومن الملفت للنظر، أنّ القرآن قد ترك القصة عند هذا الحد وعاد إلى بدايتها ليعرض ما ترك القول فيه- لسبب سنشير إليه فيما بعد- فيقول: «وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ». أى:

إنّهم قد ظنوا بحصول لقمة جديدة سائغة عن طريق ضيوف لوط.

وحينما سمع لوط أصواتهم وضجيجهم أغتمّ غمّاً شديداً لأجل ضيوفه، لأنّه ما كان يدرى أنّهم ملائكة العذاب إلى ذلك الوقت ولهذا: «قَالَ إِنَّ هؤُلَاءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ».

أى: إن كنتم لا تؤمنون باللّه ولا تصدّقون بالنبى ولا تعتقدون بثواب وعقاب، فراعوا حق الضيافة التى هى من السنن المتعارف عليها عند كل المجتمعات سواء كانت مؤمنة أم كافرة، أىّ بشر أنتم؟ لا تفهمون أبسط المسائل الإنسانية، فإن لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً فى دنياكم!

ثم أضاف قائلًا: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ» أمام ضيفى.

ولكنهم من الوقاحة والإصرار على الانحراف بحيث صاروا لا يشعرون بالخجل من أنفسهم، بل راحوا يحاججون لوطاً ويحاسبونه، وكأنّه إرتكب جرماً فى استضافته لهؤلاء القوم «قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعلَمِينَ»، باستضافتهم! فلماذا خالفت أمرنا؟!

وكان قوم لوط من البخل بحيث إنّهم لا يحبّون الضيافة، وكانت مدينتهم على طريق القوافل، ويبررون فعلهم القبيح ببعض الواردين لدفع الضيوف ولأجل أن لا ينزل عندهم أحد من القوافل المارّة، وتعارفوا على ذلك حتى أصبح عندهم عادة.

وكما يبدو أنّ لوطاً كان حينما يسمع بأحد الغرباء يدخل المدينة يسرع لاستضافته خوفاً

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۲

عليه من عمل قومه الخبيث، ولما علم أهل المدينة بذلك جاؤوا إليه غاضبين ونهوه عن أن يستضيف أحداً مستقبلًا. وعليه، فكلمة

«العالمين» فى الآية أعلاه- كما يبدو- إشارة إلى عابرى السبيل، ومن هم ليسوا من أهل تلك المدينة.

وعندما رآهم لوط على تلك الحال من الوقاحة والجسارة، أتاهم من طريق آخر لعلهم يستفيقون من غفلتهم وسكر انحرافهم، فقال لهم: إن كنتم تريدون إشباع غرائزكم فلماذا تسلكون سبيل الانحراف ولا تسلكون الطريق الصحيح (الزواج): «قَالَ هؤُلَاءِ بَنَاتِى إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ».

مما لا شك فيه أنّ بنات لوط لا يكفين لذلك العدد الهائل من المتحجرين حول داره، ولكن لوطاً الذى كان يهدف إلى إلقاء الحجة عليهم أراد أن يقول لهم: إنّنى مستعد إلى هذه الدرجة للتضحية من أجل الضيف، وكذلك لأجل إنقاذكم من الفساد ونجاتهم من الإنحراف.

لكن الويل، كل الويل من سكرات الشهوة، الانحراف والغرور والعناد .. التى مسحت عنهم كل قيم الأخلاق الإنسانية وأفرغتهم من العواطف البشرية، والتى بها يحسّون بالخجل والحياء أمام منطق لوط عليه السلام أو أن يتركوا بيت لوط وينسحبوا عن موقفهم، ولكن أنّى لهم ذلك، والأكثرية بسبب عدم تأثّرهم بحديث لوط استمروا فى غيّهم وأرادوا أن يمدّوا أيديهم إلى الضيوف.

وهنا يخاطب اللّه تعالى نبيّه قائلًا: «لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ».

وبعد ذلك يبلغ كلام اللّه تعالى عن هؤلاء القوم الذروة حينما يبيّن عاقبتهم السيئة فى آيتين قصيرتين وبشكل قاطع مليء بالدروس والعبر بقوله: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ».

أى صوت شديد عند شروق الشمس.

ويمكن حمل «الصيحة» على أنّها صاعقة عظيمة أو صوت زلزلة رهيب.

ولم يكتف بذلك بل شمل العذاب المدينة أيضاً «فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا».

وزيد فى التنكيل بهم «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ».

ثم إنّ نزول هذا العذاب ذو المراحل الثلاث (الصيحة الرهيبه، قلب المدينة، المطر الحجرى)- رغم أنّ كل واحدة منهنّ كانت تكفى لقطع دابر القوم- كان لمضاعفة عذابهم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۳

لشدة فسادهم وجسارتهم وإصرارهم على إدامة التلوّث بتلك القبائح الشنيعة، وكى يكون عبرة لمن يعتبر.

وهنا يخلص القرآن الكريم إلى النتائج الأخلاقية والتربوية فيقول: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَايَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ». العقلاء الذين يفهمون الأحداث بفراستهم وذكائهم ونظرهم الثاقب ويحملون من كل إشارة حقيقة ومن كل تنبيه درساً.

ولا تتصوروا أنّ آثارهم ذهبت تماماً، بل هى باقية على طريق القوافل والمارّة «وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ».

ثم تدعو الآية المؤمنين إلى التفكر ملياً فى هذه القصة واستخلاص العبر منها: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ».

وَ إِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (۷۸) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (۷۹) وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (۸۰) وَ آتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (۸۱) وَ كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (۸۲) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (۸۳) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (۸۴) خاتمة أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر: يشير القرآن الكريم فى هذه الآيات إلى قصّتين من قصص الامم السالفة، وهما (أصحاب الأيكة) و (أصحاب الحجر) ليكمل البحث الذى عرضه فى الآيات السابقة حول قوم لوط. يقول أوّلًا: «وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ». «فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ» وعاقبناهم على ظلمهم واستبدادهم ..

وجعلنا أرضهم وأرض قوم لوط- المتقدمة قصّتهم- على طريقكم «وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ». فانظروا إليها وإلى عاقبة أمرهم، واعتبروا يا اولى الألباب.

«الأيكة»: هى الأشجار المتشابكة مع بعضها، و «أصحاب الأيكة»: هم قوم «شعيب» الذين عاشوا فى بلدة مليئة بالماء والأشجار بين

الحجاز والشام وكانت حياتهم مرفّهة ثريّة فاصيبوا بالغرور والغفلة، فأدّى ذلك إلى الإحتكار والفساد فى الأرض.

وقد دعاهم شعيب عليه السلام إلى التوحيد ونهج طريق الحق، مع تحذيره المكرر لهم من عاقبة أعمالهم السيئة فيما لو استمروا على الحال التى هم عليها.

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ۵۶۴

ومن خلال ما بيّنته الآيات فى سورة هود، فإنّهم لم ينصاعوا للحق ولم ينصتوا لداعيه حتى جاءهم عذاب اللَّه المهلك. وورد ذكرهم مفصّلًا فى الآيات (۱۷۶) حتى (۱۹۰) من سورة الشعراء.

أمّا «أصحاب الحجر» فهم قومٌ عُصاة عاشوا مرفّهين فى بلدة تدعى «الحجر» وقد بعث اللَّه إليهم نبيّه صالح عليه السلام لهدايتهم.

ويقول القرآن عنهم: «وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ».

هذه البلدة كانت على طريق القوافل بين المدينة والشام فى منزل يسمّى (وادى القرى فى جنوب (تيماء) ولا أثر لها اليوم تقريباً.

ومن الجدير ذكره أنّ القرآن الكريم ذكر مسألة تكذيب الأنبياء فى خبر أصحاب الحجر (وكذلك قوم نوح وقوم شعيب وقوم لوط فى الآيات ۱۰۵ و ۱۲۳ و ۱۶۰ من سورة الشعراء) بالإضافة إلى أقوام اخر كذّبت الأنبياء عليهم السلام والواضح من خلال ظاهر القصص أنّ لكل قوم كان نبى واحد لا أكثر.

ولعل مجىء هذا التعبير (المرسلين) فى هذه الآية، باعتبار أنّ الأنبياء لهم برنامج واحد وهدف واحد، وبينهم درجة من الصلة بحيث إنّ تكذيب أىّ منهم هو تكذيب للجميع.

ويستمر القرآن بالحديث عن «أصحاب الحجر»: «وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ». وموقف الإعراض المشار إليه- كما يبدو- هو عدم إستعدادهم لسماع الآيات والتفكّر بها.

وتشير الآية إلى أنّهم كانوا من الجدّ والدقّة فى امور معاشهم وحياتهم الدنيوية حتى أنّهم «وَكَانُوايَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ».

وهو ما يبيّن لنا أنّ منطقتهم كانت جبليّة، بالإضافة إلى ما توصّلوا إليه من مدنية متقدمة، حيث أصبحوا يبنون بيوتهم داخل الجبال ليأمنوا من السيول والعواصف والزلازل.

والعجيب من أمر الإنسان، أنّه يحزم أمره لتجهيز وتحصين مستلزمات حياته الفانية، ولا يعير أىّ اهتمام لحياته الباقية، حتى يصل به المآل لأن لا يكلّف نفسه بسماع آيات اللَّه والتفكر بها.

وأىّ عاقبة ينتظرون بعد عنادهم وكفرهم غير أن يطبّق عليهم القانون الإلهى

مختصر الامثل، ج ٢، ص: ۵۶۵

الموعودين به (البقاء للإصلاح) وعدم إعطاء حق إدامة الحياة لأقوام فاسدين ومفسدين ..

فليس لهؤلاء سوى البلاء المهلك، ولهذا يقول القرآن: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ».

وكانت «الصيحة» عبارة عن صوت صاعق مدمّر نزل على دورهم.

فالعذاب الإلهى لا تقف أمامه الجبال الشاهقة، ولا البيوت المحصنة، ولا الأبدان القوية أو الأموال الوافرة، ولهذا يأتى فى نهاية قصّتهم «فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (۸۵) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (۸۶) وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِى وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (۸۷) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (۸۸) وَ قُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (۸۹) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (۹۰) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (۹۱) يعود القرآن بعد طرح قصص الأقوام السالفة- كقوم لوط وقوم شعيب وصالح- إلى مسألة التوحيد والمعاد، لأنّ سبب ضلال الإنسان يعود إلى عدم اعتناقه عقيدة صحيحة، ولعدم إرتباطه بمسألة المبدأ والمعاد، فيشير إليهما معاً فى آية واحدة: «وَمَا خَلَقْنَا السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

إِلَّا بِالْحَقِّ». فنظامها محسوب ومحكم وهو حق، وكذا هدف خلقها حق.

فيكون هذا النظام البديع والخلق الدقيق المنظّم دليلًا واضحاً على الخالق العالم القادر جلّ وعلا، وهو حق أيضاً، بل هو حقيقة الحق، وكل حق بما هو متصل بوجوده المطلق فهو حق، وكل شيء لا يرتبط به سبحانه فهو باطل ... هذا ما يخصّ التوحيد أمّا المعاد فيقول: «وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ». وإن تأخّرت فإنّها آتية بالنتيجة.

إنّ هذا العالم إنّما يكون حقاً عندما يكون لهذه الأيام الدنيوية المليئة بالآلام والمتاعب هدف عال يبرر خلق هذا الوجود الكبير- فليس الغرض من هذه الدنيا أن يعيش فيها الانسان هذه الحياة وتنتهي- ولهذا فمسألة خلق السماوات والأرض وما بينهما إنّما هو من موقع الحق ويدل على وجود يوم القيامة والحساب، وإلّا لكان الخلق عبثاً وليس حقاً، فتأمل.

وبعد ذلك يأمر اللّه تعالى نبيّه الكريم صلى الله عليه و آله أن يقابل عناد قومه وجهلهم وتعصّبهم

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۶

وعداءهم بالمحبة والعفو وغضّ النظر عن الذنوب، والصفح عنهم بالصفح الجميل، أى غير مصحوب بملامة «فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ». لأنك تملك الدليل الواضح على ما أمرت بالدعوة إليه، فلا تحتاج وإياهم إلى الخشونة. بالإضافة إلى أنّ الخشونة مع الجهلة غالباً ما تؤدّى بهم إلى الردّ بالمثل، بل وبأشد من ذلك.

«الصفح»: هو وجه كل شيء، كوجه الصورة، ولهذا فقد جاءت كلمة «فاصفح» بمعنى أدر وجهك وغضّ النظر عنهم.

وبما أنّ إدارة الوجه وصرفه عن الشيء قد تعطى معنى عدم الإهتمام والنفرة وما شابه ذلك وكذلك معنى العفو والصفح، فقد ذكرت الآية المتقدمة كلمة «الجميل» بعد «الصفح» لكى تحدد المعنى الثانى.

الآية التالية بمنزلة الدليل على وجوب العفو والصفح الجميل، حيث تقول: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ».

ثم يواسى اللّه تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه و آله أن لا تقلق من وحشية الأعداء وكثرتهم وما يملكون من إمكانات مادية واسعة، لأنّ اللّه أعطاك ما لا يقف أمامه شيء: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ».

اعتبر أكثر المفسرين أنّ «سبعاً من المثانى» كناية عن سورة الحمد، والروايات كذلك تشير لهذا المعنى. والداعى لذلك كونها تتألف من سبع آيات، لأهميتها وعظمة محتواها فقد نزلت مرّتين على النبى محمّد صلى الله عليه و آله.

إنّ اللّه تعالى قد صرّح لنبيه الكريم صلى الله عليه و آله بأنّك قد ملكت سنداً عظيماً (القرآن)، ولا تستطيع أى قوة فى عالم الوجود أن تصرعه.

وبالذات سورة الفاتحة منه التى لها من المحتوى والأثر بحيث لو إرتبط العبد بربّه ولو للحظة واحدة لحلّقت روحه لساحة قدس الرب، وهى تعيش حال التعظيم والتسليم والمناجاة والدعاء.

وبعد هذه الهبة العظيمة يأمر اللّه تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه و آله بأربعة أوامر فيقول له أوّلًا: «لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ». فمتاع الحياة الدنيا ليست دائمة ولا خالية من التبعات، والحفاظ عليها أمر صعب فى أحسن الحالات.

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۷

ثم يقول فى الأمر الثانى: «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ» لما عندهم من أموال ونعم مادية.

فى تفسير القمّى عن الإمام الصادق عليه السلام: «لمّا نزلت هذه الآية لا تمدّنّ عينيك؛ قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله من لم يتعزّ بعزاء اللّه تقطّعت نفسه على الدنيا حسرات، ومن رمى بنظره إلى ما فى يد غيره كثر همّه ولم يشف غيظه ومن لم يعلم أنّ اللّه عليه نعمة إلّافى مطعم أو ملبس فقد قصر عمله ودنا عذابه ومن أصبح على الدنيا حزيناً أصبح على اللّه ساخطاً ومن شكا مصيبة نزلت به فإنّما يشكو ربّه ومن دخل النار من هذه الأمّة ممن قرأ القرآن فهو ممن يتّخذ آيات اللّه هزواً ومن أتى ذا ميسرة فيخشع له طلب ما فى يديه ذهب ثلثا دينه».

فالأمر الأوّل يتعلّق بعدم الإهتمام والتوجه نحو النعم المادية، والأمر الثانى يتعلق بعدم التأثر لفقدانها.

والأمر الثالث: جاء بخصوص ضرورة اللين والتواضع مع المؤمنين حيث يقول:

«وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ».

إنّ هذا التعبير، كناية جميلة عن التواضع والمحبة والملاطفة، فالطيور حينما تريد إظهار حنانها لفراخها تجعلها تحت أجنحتها بعد خفضها، فتجسّم بذلك أعلى صور العاطفة والحنان وتحفظهم من الحوادث والأعداء، وتحميهم من التشتت.

ونصل إلى الأمر الرابع: «وَقُلْ» لهؤلاء الكفرة المنعّمين بكل حزم «إِنّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ». قل: أنذركم من أمر اللّه بنزول عذابه عليكم «كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ». أى: الذين قسّموا الآيات القرآنية أصنافاً، فما كان ينفعهم أخذوه، وما لا ينسجم ومشتهياتهم تركوه.

والمؤمن الخالص لا يجرؤ على تجزئة أو تقسيم أو تبعيض الأحكام الإلهية.

فَوَ رَبِّكَ لَنسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (۹۲) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۹۳) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (۹۴) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ (۹۵) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۹۶) وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (۹۷) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (۹۸) وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (۹۹) إصدع بما تؤمر: يبيّن القرآن فى أواخر سورة الحجر مصير المقتسمين الذين ذُكروا فى

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۸

الآيات السابقة فيقول: «فَوَ رَبّكَ لَنَسلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

إنّ عالم السر والعلن ومن لا يخفى عليه ذرة ما فى السماوات والأرضين لا يسأل لكشف أمر خفى عليه (سبحانه وتعالى عن ذلك) وإنّما السؤال لتفهيم المسؤول قبح فعله، فالسؤال قسم من العقاب الروحى.

ثم يأمر اللّه تعالى نبيه صلى الله عليه و آله بقوله: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ». أى: لا تخف من ضوضاء المشركين والمجرمين، ولا تضعف أو تترد أو تسكت، بل أدعهم إلى رسالتك جهاراً.

«وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ» ولا تعتن بهم.

«فاصدع»: من مادة «صدع» وهى لغة بمعنى «الشق» بشكل مطلق، أو شق الأجسام المحكمة بما يكشف عمّا فى داخلها، ويقال أيضاً لألم الرأس الشديد (صداع) وكأنّه من شدّته يريد أن يشق الرأس. وهى هنا ... بمعنى: الإظهار والإعلان والإفشاء.

فالإعراض عن المشركين هنا بمعنى الإهمال، أو ترك مجاهدتهم وحربهم، لأنّ المسلمين فى ذلك الوقت لم تصل قدرتهم- بعد- لمستوى المواجهة مع الأعداء وحربهم.

ثم يطمئن اللّه تعالى نبيه صلى الله عليه و آله تقوية لقلبه: «إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ».

ثم يصف المستهزئين: «الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ».

كأنّ القرآن يريد أن يقول: إنّ أفكار وأعمال هؤلاء بنفسها عبث، سخف، حيث يعبدون ما ينحتونه بأيديهم من حجر وخشب، ودفعهم جهلهم لأن يجعلوا مع اللّه- ما صنعوه بأيديهم- آلهة! ومع ذلك ... يستهزؤون بك.

ولمزيد من التأكيد على اطمئنان قلب النبى صلى الله عليه و آله يضيف تعالى قائلًا: «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ».

فروحك اللطيفة وقلبك الطيّب الرقيق لا يتحملان تلك الأقوال السيئة وأحاديث الكفر والشرك، ولذلك يضيق صدرك.

ولكن لا تحزن من قبح أقوالهم «فَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ وَكُن مّنَ السَّاجِدِينَ». لأنّ تسبيح اللّه يذهب أثر أقوالهم القبيحة من قلوب أحبّاء اللّه.

ولهذا نقرأ فى رواية نقلًا عن ابن عباس أنّه قال: كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة.

ثم یعطی اللّه نبیه صلی الله علیه و آله آخر أمر فی هذا الشأن: «وَاعْبُدْ رَبَّکَ حَتَّی یَأْتِیَکَ الْیَقِینُ».

إنّ العبادة مدرسة عالیة للتربیة، لأنّها توقظ عقل الإنسان، وتوجّه فکره نحو المطلق،

مختصر الامثل، ج۲، ص: ۵۶۹

وتغسل غبار الذنوب والغفلة من قلبه وروحه، وتنمّی فیه الصفات الإنسانیة الرفیعة، وتقوّی إیمانه وتجعله أکثر وعیاً واکبر مسؤولیة.

فلا یمکن للإنسان الواقعی أن یستغنی عن هذه المدرسة الراقیة، أمّا الذین یعتقدون بأنّ الإنسان قد یصل إلی درجة معینة لا یحتاج عندها إلی العبادة، فاولئک إمّا أنّهم یعتبرون عملیة تکامل الإنسان محدودة وتنتهی بحد معین، أو أنهم لم یدرکوا معنی العبادة حقاً.

«نهایة تفسیر سورة الحجر»

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج/۱ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آبادی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابِذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لَم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلميّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّـى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجريّة الشمسيّة (=١٤٢٧ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهويّة الوطنيّة: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣٥٧٠٢٣- (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهرانَ ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التّجاريّة و المَبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥(٠٣١١)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شـَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹